شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

المجلد الأول

دار الجيل

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة *

١ — نهج البلاغة

اجتمع للإمام عليّ بن أبي طالب من صفات الكمال ، ومحمود الشمائل والخلال ، وسناء الحسب وباذخ الشرف ؛ مع الفطرة النقية ، والنفس المرضية ، مالم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال .

(*) مصادر البحث والترجمة :

١ ــ البداية والنهاية ، لابن كثير ــ ١٣ : ١٩٨ ــ ١٩٩ ، (مطبعة السعادة) .

٢ ــ تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى ــ الجزء الرابع الورقة ٩ ، (مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .

٣ ــ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، لابن الفوطى ص ٣٣٦ ، (طبعة المكتبة العربية ببغداد)

٤ ــ درة الأسلاك فى دولة الأتراك ؛ لابن حبيب الحلبى ــ وفيات سنة ٦٥٥ ، (مصورة دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ ح) .

٥ ــ روضات الجنات لمحمد باقر الخوانسارى ٤٠٦ ــ ٤٠٩ ، (طبع العجم ١٣٠٤ هـ) .

٦ ــ عقد الجمان للعينى ــ وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية ١٥٨٤ تاريخ) .

٧ ــ عيون التواريخ لابن شاكر ــ وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ).

٨ ــ فوات الوفيات ١ : ٥١٩ ــ ٥٢٢ (مطبعة السعادة) .

٩ ــ كشف الظنون ١٢٧٣ ، ١٢٩١ ، ١٥٧٦ ، ١٦١٥ ، ١٩٩١ ، (طبع إستانبول ١٩٤٣).

١٠ ــ ماهو نهج البلاغة ، للسيد هبة الله الشهرستانى ، (مطبعة العرفان بصيدا) .

١١ ــ مجمع الآداب لابن الفوطى ، (فى ذيل الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة ــ طبعة الحلبى) . .

١٢ ــ نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر ، ليوسف بن يحيى الصنعانى ، الورقة ٢٦٠ ــ ٢٦٢ (مصورة دار الكتب المصرية ١٣٨٤٩ ح) .

تحدّر من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ؛ فأبوه أبو طالب عظيم المشيَخَة من قريش . وجدّه عبد المطلب أمير مكّة وسيّد البطحاء ؛ ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم؛وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ : «مِلْح الأرض،وزينة الدنيا ، وحَلْى العالم ، والسَّنام الأضخم ، والـكاهِل الأعظم ؛ ولُباب كلّ جَوْهرٍ كريم ، وسرّ كلّ عنصُر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرِس المبارك ، والنّصاب الوثيق،ومعدن الفهم ، وينبوع العلم . . . » (1) .

واختصّ بقرابته القريبة من الرّسول عليه السلام ؛ فـكان ابنَ عمّه ، وزوج ابنته، وأحبّ عِتْرته إليـه ، كما كان كاتب وحيه ، وأقربَ الناس إلى فصاحته وبلاغتـه ، وأحفظهم لقوله وجوامع كَلِمه ؛ أسلم على يديه صبيًّا قبل أن يمسّ قلبه عقيدةٌ سابقة ، أو يخالط عقله شَوْبٌ من شرك موروث ؛ ولازمه فتيًا يافعا ؛ فى غدوّه ورواحه ، وسِلْمه وحربه ؛ حتى تخلّق بأخلاقه ، واتّسم بصفاته ، وفقِه عنه الدين ، وثقف مانزل به الرّوح الأمين؛فـكان من أفقه أصحابه وأقضاهم،وأحفظهم وأوعاهم ؛ وأدقهم فى الفتيا؛وأقربهم إلى الصّواب ؛ وحتى قال فيه عمر : لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن . وكانت حياته كلّها مفعمة بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور ؛ فعلى عهد الرسول عليه السلام ناضل المشركين واليهود؛ فكان فارس الحلبة ومِسْعَر الميدان ، صليب النَّبْع جميع الفُؤاد ؛ وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ؛ لقى فيها مالقىَ من تفرّق الـكلمة واختلاف الجماعة ، وانفصام العُرْوة ؛ ماطوى أضالعه على الهمّ والأسى،ولاع قلبه بالحزن والشَّجن ؛ وفى كل مالقىَ من أحداث وأمور،وماصادف من محن وخطوب،بلا الناس وخَبَرهم،وتفطّن لمطاوى نفوسهم، واستشفّ ما وراء مظاهِرهم ؛ فـكان العالم المجرّب الحـكيم ، والناقد الصيرفىّ الخبير .

وكان لطيف الحِسّ ، نقىّ الجوهر ، وضاء النَّفس ؛ سليمَ الذّوق ، مستقيمَ الرأى ،

---

(1) زهر الآداب ١ : ٥٩

حسنَ الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر الخاطر ؛ حوّلا قُلّباً ؛ عارفا بمهمّات الأمور إصدارا وإيرادا ؛ بل كان كما وصفه الحسن البصرىّ : سهما صائبا من مرامى الله على عدوّه ، وربانىّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتهـا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يكن بالنئومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ؛ أعطى القرآن عزائمَه ، ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام مشرقة ، ذاك على بن أبى طالب .

* * *

كلّ هـذه المزايا مجتمعة ، وتلك الصفات متآزرة متناصرة ؛ وما صاحبها من نَفْح إلهىّ ، وإلهام قُدسىّ ، مكّنت للإمام علىّ من وجوه البيان ، وملّكته أعنّة الـكلام ، وألهمته أسمى المعانى وأكرمها، وهيّأت له أشرف المواقف وأعزّها، فجرتْ على لسانه الُخطب الرائعة ، والرسائل الجامعة، والوصايا النافعة ، والـكلمة يرسلها عفو الخاطر فتغدو حِكْمة، والحديث يلقيه بلا تعمّل ولا إعنات فيصبح مثلا ؛ فى أداء محكَم ، ومعنى واضح ، ولفظ عذب سائغ ؛ وإذا هـذا الـكلام يملأ السهل والجبل ، ويتنقل فى البدو والحضر ؛ يرويه على كثرته الرواة ، ويحفظه العلماء والدارسون ؛ قال المسعودىّ : والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيّف وثمانون خطبة ؛ يوردها على البديهة ؛ تداول عنه الناس ذلك قولا وعملا [1] .

ثم ظلّ هكذا محفوظاً فى الصدور مرويًّا على الألسنة ، حتى كان عصر التدوين والتأليف ؛ فانتثرت خطبه ورسائله فى كتب التاريخ والسيَر والمغازى والمحاضرات والأدب

(١) تاريخ المسعودى ٢ : ٤٣١ .

على الخصوص ، كما انتُخبت كلماته ومأثور حكمه فيما وضعوه من أبواب المواعظ والدعاء ؛ وفى كتابَيِ الغريب لأبى عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة منه الشىء الكثير .

وإذْ كان لكلام الإمام علىّ طابع خاصّ يميزه عن غيره من الخطباء ، ونهج واضح يخالف غيره من البلغاء والمترسلين ؛ فقد حاول كثير من العلماء والأدباء على مرّ العصور أن يُفردوا لكلامه كتبا خاصة ودواوين مستقلّة ؛ بقىَ بعضها وذهب الكثير منها على الأيام ؛ منهم نصر بن مزاحم صاحب صفين، وأبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبىّ، وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدىّ ، ومحمد بن عمر الواقدىّ ، وأبو الحسن علىّ بن محمد المدائنى ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبو الحسن علىّ بن الحسين المسعودىّ ، وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعىّ ، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد التميمىّ ، ورشيد الدين محمد بن محمد المعروف بالوطواط ، وعزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد ؛ وغيرهم كثيرون .

إلّا أنّ أعظم هذه المحاولات خطرا ، وأعلاها شأنا ، وأحسنها أبوابا ؛ وأبعدها صيتا وشأوا ؛ هو مجموع ما اختاره الشريف الرضىّ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ ؛ فى كتابه « نهج البلاغة » .

بناه على ما أفرده فى كتاب « خصائص الأئمة » من « فصل يتضمّن محاسن مانقل عنه عليه السلام من الكلام القصير فى الحِكَم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة[1] »؛ ثم جعله كتابا « يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنوّنه ومتشعّبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب ؛ علما أن ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية مالا يوجد مجتمعا فى كلام ، ولا مجموع الأطراف فى كتاب » [1] .

---

(١) مقدمة الرضى للنهج .

وأدار اختياره على ثلاثة أقطاب: أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ؛ وأسماه كتاب «نهج البلاغة» «إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها، وفيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد»[(1)].

ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه سار فى الناس ذكره، وتألق نجمه؛ أشأم وأعرق، وأنجد وأتهم، وأعجب به الناس حيث كان، وتدارسوه فى كل مكان. لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق؛ وما احتواه من جوامع الكلم، ونوابغ الحكم فى أسلوب متساوق الأغراض، محكم السّبك، يعد فى الذّروة العليا من النثر العربىّ الرائع.

* * *

ولم يذكر الشريف الرضىّ فى صدر كتابه المصادر التى رجع إليها؛ أو الشيوخ الذين نقل عنهم؛ إلا أنه — كما يبدو من تضاعيف الكتاب — نقل فى بعض مانقل عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والمقتضب للمبرد، وكتاب المغازى لسعيد بن يحيى الأموىّ، وكتاب الجمل للواقدىّ، والمقامات فى مناقب أمير المؤمنين لأبى جعفر الإسكافىّ، وتاريخ ابن جرير الطبرىّ، وحكاية أبى جعفر محمد بن علىّ الباقر، ورواية اليمانىّ عن أحمد ابن قتيبة؛ وماوجد بخط هشام بن الكلبىّ وخبر ضرار بن حمزة الصدائىّ، ورواية أبى جحيفة، وحكاية ثعلب عن أبى الأعرابىّ[(2)]؛ ولعلّه فى غير مانقل عن هؤلاء، نقل من مصادر أخرى لم يصرح بها.

* * *

وعلى مرّ العصور والأزمان كانت نسبة مافى كتاب نهج البلاغة إلى الإمام علىّ مثاراً للشكّ عند العلماء والباحثين؛ المتقدمين والمتأخرين.

---

(١) مقدمة الرضى للنهج.

(٢) انظر نهج البلاغة ١ : ٣٦، ٦٢، ٨٩ / ٢ : ٥٩، ٢٦٦، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٩١

وقد تناول ابن أبى الحديد هذه القضية بالبحث ، فقال :

كثيرٌ من أرْباب الهوى يقولون : إن كثيراً من نهج البلاغة كلامٌ محدَث صَنَعه قوم من فُصحاء الشيعة ، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضىّ أبى الحسن أو غيره ؛ وهؤلاء أعمت العصبيّة أعْيُنَهم فضلّوا عن النهج الواضح ، وركِبُوا بُنَيّاتِ(١) الطريق ، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام .

وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما فى هذا الخاطر من الغلط فأقول : لا يخلو إما أن يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعا منحولاً ، أو بعضه .

والأول باطل بالضرورة ؛ لأنا نعلم بالتواتر صحةَ إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدّثون - كلّهم أو جلّهم - والمؤرخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسَبوا إلى غرض فى ذلك .

والثانى : يدلّ على ما قلناه ؛ لأنّ من قد أَنِس بالكلام والخطابة ، وشَدَا طَرَفًا من علم البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب ؛ لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد . وإذا وقف على كراس واحدٍ يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط ، فلا بدّ أن يفرق بين الكلامين ، وبين الطريقتين ؛ ألا تَرَى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده ؛ لو تصفّحنا ديوانَ أبى تمام فوجدناه قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبى تمام ونفَسه وطريقته ومذهبه فى القريض ؛ ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ، لمباينتها لمذهبه فى الشعر ! وكذلك حذفوا من شعر أبى نواس كثيرا

---

(١) بنيات الطريق : هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة ؛ وهى الترهات .

لما ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ولا من شعره ، وكذلك غيرهما من الشعراء ؛ ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة .

وأنت إذا تأمّلت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحدا ، ونَفَساً واحدا ، وأسلوبا واحدا؛ كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقى الأبعاض فى الماهية ؛ وكالقرآن العزيز ، أوله كوسطه ، وأوسطه كآخره ؛ وكلّ سورة منه ، وكل آية مماثلة فى المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقى الآيات والسوَر .

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولا ، وبعضه صحيحا ، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك بالبرهان الواضح ضلالُ من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه مالا قِبَل له به ؛ لأنا متى فتحنا هذا الباب ، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا فى هذا النحو ، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعن أن يطعَن ويقول : هذا الخبرُ منحول ؛ وهذا الكلام مصنوع ؛ وكذا مانقل عن أبى بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والآداب وغير ذلك ، وكلّ أمرٍ جعله هذا الطاعن مستَندا له فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين والشعراء والمترسلين والخطباء ؛ فلناصرى أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مِثْله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره ؛ وهذا واضح »[1] .

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٠ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

٢ — شرح نهج البلاغة

وقد تصدّر لشرح كتاب « نهج البلاغة » كثيرون من العلماء والفضلاء ؛ ذكر السيد هبة الله الشهرستانىّ (١) أنها تنوف على الخمسين شرحا ؛ ما بين مبسوط ومختصر؛ منهم أبو الحسين البيهقىّ ، والإمام فخر الدين الرازىّ ، والقطب الراوندىّ ، وكمال الدين محمد ميثم البحرانىّ ؛ من المتقدمين ، وحبيب بن محمد بن هاشم الهاشمىّ والشيخ محمد عبده ومحمد نائل المرصفى من المتأخرين .

ولكن أعظم هذه الشروح وأطولها ، وأشملها بالعلوم والآداب والمعارف وأملؤها هو شرح عزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد المدائنىّ ؛ صنفه برسم خزانة مؤيد الدين أبى طالب محمد بن أحمد العلقمىّ ، وزير المستعصم بالله ، آخر ملوك العباسيين . « كان من فضلاء الشيعة وأعيانهم ببغداد ، مائلا للآداب مقرّبا للأدباء ، وكانت له خزانة كتب فيها عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب » (٢) .

شرع فى تأليفه فى غرّة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة ، وأتمّه فى سلخ صفر من سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ فقضى أربع سنين وثمانية أشهر ، وكانت كما يقول « مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام » ؛ وكسره على عشرين جزءا .

ولما فرغ من تصنيفه أنفذه على يد أخيه موفّق الدين أبى المعالى إلى ابن العلقمىّ فبعث إليه بمائة دينار وخلعة سنيّة وفرس ؛ فكتب إلى الوزير :

أيارَبّ العباد رَفَعْتَ ضَبْعِى ... وَطُلْتَ بمنكبى وبللتَ ريقى
وزيغَ الأشعرىّ كشفت عنّى ... فلم أسْلُكْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ

(١) فى كتابه ماهو نهج البلاغة ٨ — ١٠
(٢) الفخرى ٢٩٥ .

أحبُّ الإعتزالَ وناصريهِ ذَوِى الألبابِ والنَّظَرِ الدَّقِيقِ
فأهلُ العدلِ والتوحيدِ أهْلِى ونعم فريقهمْ أبداً فَرِيقِى
وشرحَ النهْجِ لم أُدرِكْهُ إلّا بعَوْنِكَ بعْدَ مَجْهَدَةٍ وَضِيقِ
تَمَثَّلُ إذ بَدَأْت بهِ لِعَيْنِى هُناكَ كَذِرْوَةِ الطَّوْدِ السَّحِيقِ
فَتَمَّ بِحُسْنِ عَوْنِكَ وَهْوَأَنْأَى مِنَ العَيُّوقِ أَوْ بَيْضِ الأَنُوقِ
بِآلِ العلقمىِّ وَرَتْ زِنَادِى وَقَامَتْ بَيْنَ أَهْلِ الفَضْلِ سُوقِى
فَكَمْ ثَوْبٍ أَنِيقٍ نِلْتُ مِنْهُمْ وَنِلْتُ بِهِمْ وَكَمْ طِرْفٍ عَتِيقِ
أَدَامَ اللهُ دَوْلَتَهُمْ وأَنْحَى عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِالْخَنْفَقِيقِ (١)

* * *

وقد ذكر فى صدر كتابه أنّه لم يسبقه أحَدٌ بشرح النهج سوى سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه ، المعروف بالراوندىّ ؛ وأنه قد تعرّض لهذا الشرح فيما ناقضه فيه ، فى مواضع يسيرة ، وأعرض عن كثير مما قاله . وقد التزم فى شرحه أن يقسّم الكلام فصولا ، فيشرح كلمات كلّ فصل شرحا دقيقا مشتملا على « الغريب والمعانى وعلم البيان ، وماعساه يشتبه ويُشكل من الإعراب والتصريف » (٢) ، ثم يُورد « مايطابقه من النظائر والأشباه نثراً ونظماً (٢) » ، ثم يستطرد إلى ذكر « مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث ..» (٢) ، ويشير إلى ماينطوى عليه هذا الفصل « من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفية (٢) » ، ويلوّح « إلى مايستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة » (٢) ، ويرصّعه بما يشاء « من المواعظ الزّهدية ، والزواجر الدينية والحِكَم النفيسة ، والآداب الخلقية ، المناسبة لفِقَره ، والمشاكلة لدرره (٢) » .

ثم ينتقل إلى الفصل الذى يليه ؛ وهكذا .

(١) الخنفقيق : الداهية .
(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

وهو بهذا المنهج الذى التزمه ، والطريق الذى سلكه ، قد نقل إلى هذا الكتاب عُصارة ما فى كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسب والمغازى والسير والفقه والجدل والمناظرة وعلوم الكلام ، وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشى والتعاليق؛ وطرّزه بما اختاره من روائع الخطب ونوابغ الحكم ومصطفى الرسائل ؛ ممّا نطق به مصاقع الخطباء وبلغاء الكتاب وزعماء القول فى الجاهلية والإسلام ؛ ثم وشّاه بما انتخله من دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين ؛ من فاخر القول وحُرّ الكلام ؛ فى متنوّع فنون الشعر ومذاهبه ، ومختلف أغراضه ومراميه .

وقد ارتفع أسلوبه فى جميع مراحل الكتاب عن الخلل والتعقيد ، وتجافَى عن الركاكة والتعسف والإبهام ، والتزم الأسلوب الرّصين ، والتعبير الفصيح ، واللفظ العربىّ الأصيل سوى بعض الألفاظ التى تدسّتْ فيما نقله عن المتكلمين وأصحاب المقولات ؛ من نحو قولهم « المحسوسات » ، و « الكلّ والبعض » ، وقولهم : « الصفات الذاتية والجسمانيات » وقولهم : « أما أوّلا فالحال كذا » ؛ ونحو ذلك مما يأباه الفصيح من الألفاظ والسليم من الأساليب ؛ وقد اعتذر عن ذلك المؤلف بقوله : « استهجنّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم ؛ فمن كلّم قوماً كلمهم باصطلاحهم ، ومن دخل ظَفَارِ حَمّر »[1] .

وما أحسن ما اعتذر به !

وبتلك المزايا المتنوعة للكتاب ، خرجَ « كتابا كاملاً فى فنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُمْتِعاً بمحاسنه ، جليلة فوائده ، شريفة مقاصدُه ، عظيما شأنُه ، عالية منزلته ومكانه »[2] ؛ يرِد شِرْعَتَه العلماء ، وينهل من مورده الباحثون والأدباء .

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٣٥٠ . (٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

٣ — ابن أبى الحديد

ومؤلف هذا الشرح هو عزّ الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبى الحديد المدائنىّ ؛ أحد جهابذة العلماء ، وأثبات المؤرخين ؛ ممن نجم فى العصر العباسى الثانى ؛ أزهى العصور الإسلامية إنتاجا وتأليفا ؛ وأحفلها بالشعراء والكتاب والأدباء والمؤرخين واللغويين وأصحاب المعاجم والموسوعات .

كان فقيها أصوليًّا ؛ وله فى ذلك مصنفات معروفة مشهورة ؛ وكان متكلّما جدليًّا نَظّارا ؛ اصطنع مذهب الاعتزال ؛ وعلى أساسه جادل وناظر ، وحاجّ وناقش ؛ وفى شرح النهج وكثير من كتبه آراء منثورة مما ذهب إليه ، وله مع الأشعرىّ والغزالىّ والرازىّ كتب ومواقف .

وكان أديبًا ناقداً ، ثاقبَ النظر ، خبيرا بمحاسن الكلام ومساوئه ، وكتابه "الفَلَكُ الدائر على المثل السائر" ؛ دليل على بعد غوْره ، وَرسوخِ قَدَمه فى نقد الشعر وفنون البيان .

ثم كان أديبا متضلّعا فى فنون الأدب ، متقنا لعلوم اللسان ، عارفا بأخبار العرب ، مطلعا على لغاتها ، جامعا لخطبها ومنافراتها ، راويا لأشعارها وأمثالها ، حافظا لُملحها وطُرفها ، قارئا مستوعبا لكلّ ما حوته الكتب والأسفار فى زمانه .

وكان وراء هذا شاعراً عَذْب المورد ، مشرق المعنى ، متصرّفا مجيدا ؛ كما كان كاتبا بديع الإنشاء ، حسن الترسّل ، ناصع البيان .

* * *

ولد بالمدائن فى غرّة ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ؛ ونشأ بها ، وتلقى عن

شيوخها ، ودرس المذاهب الـكلاميّة فيها ، ثم مال إلى مذهب الاعتزال منها ؛ وكان الغالب على أهل المدائن التشيّع والتطرّف والمغالاة ؛ فسار فى دربهم ، وتقيّل مذهبهم ، ونظم القصائد المعروفة بالعلويّات السبع على طريقتهم ، وفيها غالَى وتشيّع ؛ وذهب به الإسراف فى كثير من أبياتها كلّ مذهب ؛ يقول فى إحداها[1] :

عِلْمُ ٱلْغُيُوبِ إِلَيْهِ غَــيْرَ مُدَافَعٍ ... والصُّبْحُ أَبْيَضُ مُسْفِرٌ لَا يُدْفَعُ
وَإِلَيْهِ فِي يَوْمِ ٱلْمَعَادِ حِسَابُنَا ... وَهُوَ ٱلْمَلَاذُ لَنَا غَداً وَٱلْمَفْزَعُ
هَٰذَا ٱعْتِقَادِي قَدْ كَشَفْتُ غِطَاءَهُ ... سَيَضُرُّ مُعْتَقِداً لَهُ أَوْ يَنْفَعُ
يَا مَنْ لَهُ فِي أَرْضِ قَلْبِيَ مَنْزِلٌ ... نعم ٱلْمَرَادُ ٱلرَّحْبُ والمُسْتَرْبَعُ
وتكادُ نَفْسِي أَنْ تَذُوبَ صَبَابَةً ... خلقاً وَطَبْعاً لَا كَمَنْ يَتَطَبَّعُ
وَرَأَيْتُ دِينَ الإعــتزال وإنَّنى ... أهوى لأجلكَ كُلَّ مَنْ يَتَشَيَّعُ
ولقــــد علمت بأنّه لا بدّ من ... مَهْدِيِّكم وَلِيَوْمِـــه أتوقّعُ
تحميه مِنْ جُندِ الإله كتائبٌ ... كاليمّ أقبــل زاخراً يتدفّعُ
فيها لآل أبى الحــديدِ صَوارِمٌ ... مشهورة ورماح خَــطٍّ شُرَّعُ
وَرِجَالُ مَوْتٍ مُقْدِمُونَ كَأَنَّهُمْ ... أُسْدُ العرين الرُّبَّدُ لاتتكعكعُ
تِلْكَ المنى إما أَغِبْ عَنْها فَلِي ... نَفْسٌ تُنَازِعُنِي وَشَوْقٌ يَنْزِعُ
تا الله لا أنسى الحسين وشِلْوُهُ ... تحت السَّنابِكِ بالعَراء مُوَزَّعُ
مُتَلَفِّعاً حُمْرَ الثياب وفى غــدٍ ... بالخُضر من فِرْدَوْســه يتلفّعُ
تَطَأُ السَّنابِكُ صَــدْرَهُ وجبينَه ... والأرضُ ترجف خيفةً وتَضَعْضَعُ
والشَّمْسُ نَاشِرَةُ الذَّوَائبِ ثاكلٌ ... والدَّهْرُ مَشْقُوقُ الرِّدَاءِ مُقَنَّعُ

(١) العلويات السبع ١٦ ، ١٧ .

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الدِّمَاء تُرَاقُ فِي ... أَيْدِي أُمَيَّةَ عَنْوَةً وَتُضَيَّعُ
يَأْبَى أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَــدُ إِنَّهُ ... خَيْرُ الْوَرَى مِنْ أن يُطِلَّ ويمنَعُ (١)
فهو الولىّ لثأرِها وَهْــوَ الحمو ... ل لعبئها إذ كلّ عَوْد يَضْلَعُ (٢)
والدَّهْرُ طَوْعٌ والشبيبة غَضَّة ... والسَّيْفُ عَضْبٌ والفُؤادُ مُشَيَّعُ (٣)

وحينما انقضت أيام صباه ، وطوى رداء شبابه ، خفّ إلى بغداد ؛ حاضرة الخلافة ، وكعبة القصاد ، وعشّ العلماء ، وكانت خزائنها بالكتب معمورة ، ومجالسها بالعلم والأدب مأهولة ، فقرأ الكتب واستزاد من العلم ، وأوغل فى البحث ، ووعى المسائل ، ومحّص الحقائق ، واختلط بالعلماء من أصحاب المذاهب ، ثم جنح إلى الاعتزال ؛ وأصبح كما يقول صاحب " نسمة السحر " : معتزليًّا جاحظيًّا ، فى أكثر شرحه للنهج ؛ بعد أن كان شيعيا غاليا .

وفى بغداد أيضاً نال الحظوة عند الخلفاء من العباسيين ومدحهم ، وأخذ جوائزهم ، ونال عندهم سنىّ المراتب ورفيع المناصب ، فكان كاتبا فى دار التشريفات ؛ ثم فى الديوان ، ثم ناظرا للبيمارستان ؛ وأخيرا فوّض إليه أمر خزائن الكتب فى بغداد ؛ وفى كلّ هذا كان مرموق الجانب ، عزيز المحلّ ؛ كريم المنزلة ، إلى أن مات .

* * *

وكان مع اشتغاله بالمناصب ، ومعاناته للتأليف شاعرا مجيدا ؛ ذكره صاحب " نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر " ؛ وله ديوان ، ذكر ابن شاكر أنه كان معروفاً مشهورا . وقد جال بشعره فى شتى المعانى ومختلف الأغراض ، فقال فى المدح والرثاء ؛ والحكم والوصف

(١) هو الخليفة أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله المعروف بالناصر ، بويع بالخلافة سنة ٥٧٥ ، ومات سنة ٦٢٩ ، وكان يرى رأى الإمامية . الفخرى ٢٨٠

(٢) يقال : دابة مضلع ، أى لا تقوى أضلاعها على الحمل .

(٣) المشيع : الشجاع .

والغزل،إلا أن الغرضَ الذى غلب عليه واشتهر بههو المناجاة والمخاطبة على مسلك أرباب الطريقة ، أورد فى النهج كثيرا منه ، فمن ذلك قوله :

فَلَاَ واللهِ مَاوَصَــلَ ابنُ سِينَا ... وَلَا أَغْنَى ذَكَاهُ أبى الْحُسَيْنِ(١)
وَلَا رَجَعَا بِشَىْءٍ بَعْدَ بَحْثٍ ... وتدقيقٍ سِـوَى خُفَّىْ حُنَيْنِ
لَقَدْ طَوَّفْتُ أَطْلُبُـكُمْ ولـكنْ ... يحـول الوقتُ بينـكُمْ وَبَيْنِى
فَهَلْ بَعْدَ انـقِضاءِ الْوقْتِ أَحْظَى ... بوَصْلِـكُمُ غـداً وتَقَرُّ عَيْنِى !
مُنًى عِشْنَا بِهَا زَمَنـاً وَكَانَتْ ... تُسَوِّفُنـا بِصِـدْقٍ أَوْ بِمَيْنِ
فإن أُكْذَبْ فَذَاكَ ضَيَاعُ دِينِى ... وَإنْ أُجْذَبْ فَذَاكَ حُلُولُ دَيْـنِى

وقوله :

وحقّك إن أدخلتنى النار قلت للـــذين بهـا قـد كنت ممن يُحِبُّه
وأفنيتُ عُمْرِى فى علومٍ دقيقةٍ ... وما بغيتى إلا رِضـاهُ وقُرْبُهُ
هبونى مسيئًا أوْتَـغَ الجهلُ قَلْبَهُ ... وأوْبقَه بين البريّةِ ذَنْبُهُ(٢)
أَمَا يَقْتَضِى شَرْعُ التَّـكرُّمِ عِتْقَهُ ... أَيَحْسُن أَن يُنْسَى هَواهُ وحُبُّهُ !
أَمَا كَانَ يَنْوِى الحقَّ فِيمَا يَقُولُه ... أَلَمْ تَنْصُرِ التَّوْحِيدَ والْعَدْلَ كُتْبُهُ !
أَمَا ردّ زيغَ ابن الخطيب وشكَّه ... وإلحاده إذ حلّ فى الدين خطبُهُ
أما قلتمُ : مَنْ كان فينا مجاهـداً ... سَيُـكرَمُ مثواه ويَعْذُب شِرْبُهُ
فأىّ اجتهاد فوقَ ما كان صانعاً ... وَقَدْ أَحْرَقَتْ زُرْقَ الشَّياطِينِ شُهْبُهُ
فإن تصفحوا نَغْنَمْ وإن تتجرَّموا ... فتعذيبُـكُمْ حُلْوُ المذاقةِ عَذْبُهُ
وآيةُ صدقِ الصّبِّ أن يَعْذُبَ الأذَى ... إذا كان مَنْ يهوى عليه يصبُّهُ

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ٧٩ – ٨٢ .
(٢) أوتغ : أهلك .

ونحو هذا من الشعر فى شرح النهج كثير .

ومن طريف ما أورد له صاحب نسمة السحر قوله :

لَوْلَا ثَلَاثٌ لَمْ أَخَفْ صَرْعَتِي ... لَيْسَتْ كَمَا قَال فَتَى العبْدِ[(١)]

أن أنْصُر التوحيد والعدل فِي ... كُلِّ مكانٍ باذلاً جُهْدِى

وأنْ أناجى اللهَ مُسْتَمْتِعاً ... بخلوةٍ أحْلَى مِن الشَّهْدِ

وأنْ أتيهَ الدَّهْرَ كِبْراً عَلَى ... كُلِّ لئيمٍ أصْعَرِ الخَدِّ

كذاكَ لا أهْوَى فتاةً وَلَا ... خَمْراً ولاذا ميْعةٍ نَهْدِ

* * *

وقد اضطرب المؤرخون فى تاريخ وفاته ؛ فذكر بعضهم أنه توفى فى سنة ٦٥٥ ؛ ذهب إلى ذلك ابن شاكر فى كتابيه : فوات الوفيات وعيون التواريخ ؛ وكذلك ابن كثير فى التاريخ، والعينىّ فى عقد الجمان ، وابن حبيب الحلبى فى كتابه درة الأسلاك .

ونقل صاحب كتاب " نسمة السحَر " عن الدياربكرىّ أنه توفى قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشر يوما . وكان دخولهم إليها فى العشرين من المحرم سنة٦٥٦ ؛ على ما ذكره المؤرخون . وقال الذهبى فى سير النبلاء[(٢)] : « إنه توفى فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة » .

---

(١) يشير بهذا البيت إلى قول طرفة بن العبد فى معلقته :

وَلَوْلَا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَام عُوَّدِى

فَمِنْهُنَّ سَبْقُ الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بِالماءِ تُزْبدِ

وَكَرِّىَ إِذْ نادَ المضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضَا نَبَّهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَاءِ الْمُعَمَّدِ

(٢) المجلد الثالث عشر ، الورقة ٣١٦ (مصورة دار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ ح) .

وذكر ابن الفُوَطِيّ فى كتاب مجمع الألقاب أنه أدرك سقوط بغداد ، وأنه كان م ،
خلص من القتل فى دار الوزير مؤيد الدين العلقمىّ مع أخيه موفق الدين ؛ كما ذكر أبه ا
فى كتابه الحوادث الجامعة ؛ فى وفيات سنة ٦٥٦ :

« توفى فيها الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمىّ فى جمادى الآخرة ببغداد . . .
والقاضى موفق الدين أبو المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى فى جمادى الآخرة ، فر ،
أخوه عز الدين عبد الحميد بقوله :

أأبا المعالى هل سَمِعْتَ تأوّهِى فلقدْ عَهِدْتُكَ فى الحياةِ سميعا
عينى بكتْكَ ولو تطيقُ جوانِحِى وجوارحى أجْرَتْ عليكَ نجيعاَ
أنفاً غضبتَ على الزمان فلم تطِــع حَبْلًا لأسبابِ الوفاء قطوعاَ
ووفيْتَ للمولى الوزيرِ فلم تَعِش مِنْ بَعْدِهِ شَهْراً وَلَا أُسْبُوعا
وبقيتُ بعدكما فلو كان الرّدَى بيدِى لفارقْنَا الحيــاةَ جميعا

فعاش عز الدين بعد أخيه أربعة عشر يوما » .

* * *

وله من المصنفات :

١ ـ الاعتبار ؛ على كتاب الذريعة فى أصول الشريعة ، ذكره ابن الفوَطىّ وصاحـ ،
روضات الجنات .

٢ ـ انتقاد المستصفى للغزالى ، ذكره ابن الفوَطىّ .

٣ ـ الحواشى على كتاب المفصل فى النحو ، ذكره ابن الفوطىّ .

٤ ـ شرح المحصل للإمام فخر الدين الرازىّ ، وهو يجرى مجرى النقض له ؛ ذكره
ابن الفوَطىّ .

٥ ـ شرح مشكلات الغرر لأبي الحسين البصريّ في أصول الكلام ؛ ذكره ابن الفوطيّ وصاحب روضات الجنات .

٦ ـ ديوان شعره ، ذكره ابن شاكر الكتبيّ .

٧ ـ زيادات النقضين ، ذكر المؤلف في الجزء الأول ص ٦١ .

٨ ـ شرح نهج البلاغة ، وهو هذا الكتاب .

٩ ـ شرح الياقوت لابن نوبخت في الكلام ، ذكره ابن الفوطيّ وصاحب روضات الجنات .

١٠ ـ العبقريّ الحسان ، ذكره صاحب روضات الجنات ، وقال : وهو كتاب غريب الوضع قد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار ، وأودعه شيئاً من إنشائه وترسلاته ومنظوماته .

١١ ـ الفلك الدائر على المثل السائر[1] ؛ ألّفه برسم الخليفة المستنصر ؛ بدأ في تأليفه في أول ذي الحجة سنة ٦٣٣ ، وفرغ منه في خمسة عشر يوماً .

١٢ ـ القصائد السبع العلويّات[2] ، ذكر ابن الفوطيّ أنه نظمها في صباه وهو بالمدائن سنة ٦١١ .

١٣ ـ المستنصريات ؛ كتبها برسم الخليفة المستنصر ؛ ومنه نسخة بمكتبة السماويّ بالنجف .

١٤ ـ نظم فصيح ثعلب ؛ ذكره ابن شاكر وصاحب كشف الظنون .

١٥ ـ نقض المحصول في علم الأصول للإمام فخر الدين الرازيّ ؛ ذكره ابن الفوطيّ وصاحب روضات الجنات وصاحب كشف الظنون .

١٦ ـ الوشاح الذهبيّ في العلم الأبي ، ذكره ابن الفوطي .

---

(١) طبع بالهند سنة ١٣٠٩ هـ .

(٢) طبع العجم سنة ١٣١٧

٤ — تحقيق الـكتاب

وحينما شرعت فى تحقيق هذا الـكتاب بذلت الجهد الممكن فى الحصول على النسخ التى تعين على تحقيقه ، وقد وقع لى من ذلك مايأتى :

١ ــ نسخة كاملة تقع فى عشرين جزءا بخطوط معتادة مختلفة ، مصورة عن الأص المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ ويبدو أنهـا كتبت جميعها فى القرن الحادى عشر والثانى عشر ؛ وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

٢ ــ نسخة كاملة مطبوعة على الحجر فى طهران سـنة ١٢٧١ هـ ، ورمزت لها بالحرف (ب) .

٣ ــ نسخـة مصورة عن أصلهـا المخطوطة بالمـكتبـة الظاهرية ، محفوظ برقم (٧٩٠٤ عام) ، تشتمل على عشرة أجزاء من الـكتاب ، مكتوبة بخط دقيق ، مضبوطة بالشـكل الـكامل ، وعلى حواشيهـا شروح وتعليقات ؛ جاء فى آخرها : « وقد فرغ من تسويد هـذا الـكتاب بعون الملك الوهاب ، أ... العباد ؛ محمـد حسن الأبهرى الأصفهانى يوم الخميس ، ثالث صفر ، ختم بالخير والظفر ، سنة اثنتين وثمانين بعد الألف ، من الهجرة النبويّة المصطفوية » ، وقد رمزت لها بالحرف (ج) [1] .

٤ ــ نسخة مخطوطة محفوظة بدار الـكتب برقم ١٨٦٨ ــ أدب ، تشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول يشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدات ؛ المجلد الأول يشتمل على الأجزاء : السادس والسابع والثامن . والمجلد الثانى يشتمل

(١) ذكرت فى مقدمة الجزء الثانى (من الطبعة الأولى) ، أنى رجعت إلى هذه النسخة من ص ١٥ ؛ وفى هذه الطبعة رجعت إليها من أول الـكتاب .

على الجزأين : التاسع والعاشر ؛ وهذان المجلدان مكتوبان بخط فارسى ، بخط محمد مؤمن ، سنة إحدى وأربعين وألف ؛ أما المجلد الثالث فيشتمل على الأجزاء الخمسة الأخيرة ؛ من الجزء السادس عشر إلى الجزء العشرين ؛ تمت كتابتها سنة تسع وتسعين وألف ، بخط محمد مزيد . وقد رمزت لها بالحرف (د) [1] .

كما أنى رجعت فى تحقيق متن نهج البلاغة ــ فوق النسخ التى اعتمدت عليها فى شرحه ــ إلى نسخة منه مخطوطة محفوظة بمكتبة طلعت بدار الكتب برقم ٤٨٤٠ ــ أدب ، وهى نسخة خزائنية كتبت بالقلم النسخ الجميل ، مضبوطة بالشكل الكامل ؛ ومحلاة بالذهب واللازورد ، كتبت برسم « خزانة غياث الحق والدين » ، سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، بخط الحسين بن محمد الحسنى .

* * *

وقد اقتضانى أيضا تحقيق هذا الكتاب الجامع أن أرجع إلى ما أمكننى الاطلاع عليه من الكتب التى رجع إليها المؤلف ، كتاريخ الطبرى ، والأغانى ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ، والحيوان والبيان والتبيين والعثمانية للجاحظ ، والشافى للشريف المرتضى ، والمغنى للقاضى عبد الجبار ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وكتاب صفين للمنقرى ، والكامل للمبرد ، والأوائل لأبى هلال العسكرى ، ونسب قريش للزبير بن بكار ، والمنتظم لابن الجوزى

(١) ذكرت فى مقدمة الطبعة الأولى أنى حصلت على مصورات لأجزاء مختلفة من مكتبة المتحف البريطانى ومكتبة الفاتيكان ؛ وبالرجوع إليها تبين أنها مضطربة يشيع فيها الخطأ والتحريف ، فلم أر ما يدعو إلى الرجوع إليها ؛ كما أن بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة محفوظة برقم ٥٧٦ ــ أدب ، تمت كتابتها فى صبيحة يوم الخميس التاسع من شهر شعبان سنة ١٢٩٢ ، لم أرجع إليها ، إذ ترجح عندى أنها منسوخة عن مطبوعة طهران ؛ أما النسخة المطبوعة فى مصر سنة ١٣٢٩ ، فيبدو أنها طبعت عن مطبوعة طهران أيضا فلم أرجع إليها .

والصحاح للجوهرى، وغيرها من كتب الأدب واللغة والتاريخ ؛ كما أنى رجعت فيما أورد من الشعر إلى دواوين الشعراء والمجموعات المختارة منها . وحاولت أن أضبط الأعلا والنصوص اللغوية والشعرية ضبطا صحيحاً ؛ وعلقت فى الحواشى ما اقتضاه إيضاح النص تعليقاً وسطاً فى غير إسراف ولا تقصير .

كما أنى فصّلت موضوعاته بعناوين وضعتُها بين علامتى الزيادة لتتّضح معالم الكتاب وتسهل الإحاطة بما فيه .

وسيخرج الكتاب - بما أرجو من الله المعونة والتأييد - فى عشرين جزءا وضعه مؤلفه ؛ أما الفهارس العامة المتنوعة فسأفرد لها جزءا خاصًّا فى آخر الكتاب والله الموفق للصواب ﴿ ربَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإليك المصير ﴾ (*) .

القاهرة فى { ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ
٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م } — محمد أبو الفضل إبراهيم

(*) هذه مقدمة الطبعة الأولى مع تعديل فى وصف النسخ .

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكد تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب لجميع أجزائه؛ حتى أقبلت الجمهرة من العلماء والمتأدبين على اقتنائه، ومدارسة فصوله وأبوابه، واستيعاب ماحواه من صنوف الآداب وضروب الفنون والمعارف؛ حتى نفدت أجزاؤه الأولى فى زمن يسير.

وحينما شرعت فى إعداد الطبعة الثانية، وجدتها فرصة طيبة لأن أعيد النظر فى تحقيقه، وأجيل الفكر لزيادة شرحه وتصحيحه، وأن أستدرك ما فاتنى من التعليق، أو جانبنى فيه وجه الصواب؛ وقد أعاننى على ذلك أمور..

منها أنه تسنّى لى بعد الفراغ من تحقيقه الاطلاع على كثير من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر مما لم يتيسر لى الاطلاع عليه فى الطبعة الأولى؛ وقد كان عملى فى تحقيق تاريخ الطبرى وظهور معظم أجزائه؛ مما حقق كثيرا من نصوصه؛ إذ كان هذا التاريخ الكبير من أهم مراجع المؤلف ومصادره؛ كما أن ماقمت به من تحقيق متن نهج البلاغة، مراجَعا على نسخ خطية أصيلة وشرحه شرحا موجزا؛ مما قوّم الكثير من ألفاظه، وحقق بعض رواياته.

ومنها أن فريقا من العلماء حين وقع إليهم هذا الكتاب قابلوه بالاهتمام الشديد، وتناولوه بالنقد النافع النزيه؛ وقدّروا ما بذل فيه من جهد وعناء؛ وكانت لهم ملاحظات قيمة كتبوا إلىّ بها؛ أذكر منهم الأستاذ مكى السيد جاسم؛ أحد علماء العراق وفضلائها؛ فقد قرأ الكتاب جميعه، وأرسل إلى ملاحظاته على كثير من أجزائه؛ وقد انتفعت بهذا النقد الكريم؛ وأثبتُّ ملاحظاته فى هذه الطبعة.

وأمر آخر ؛ هو أنى حينما أتممت تحقيق جميع أجزاء الكتاب ، وأخذت فى عمل فهارسه ومعاودة قراءته ، اتضحت لى معالمه وطرائقه ، وأنست إلى مراجعه ومظانه ، وعرفت مواطن الاستدراك والتعقيب ، وفطنت إلى مجالات أخرى للتصحيح والتعليق ، وتبينت الأخطاء المطبعية ؛ وأمكن لى أن أعمل الجديد والهام فى هذه الطبعة .

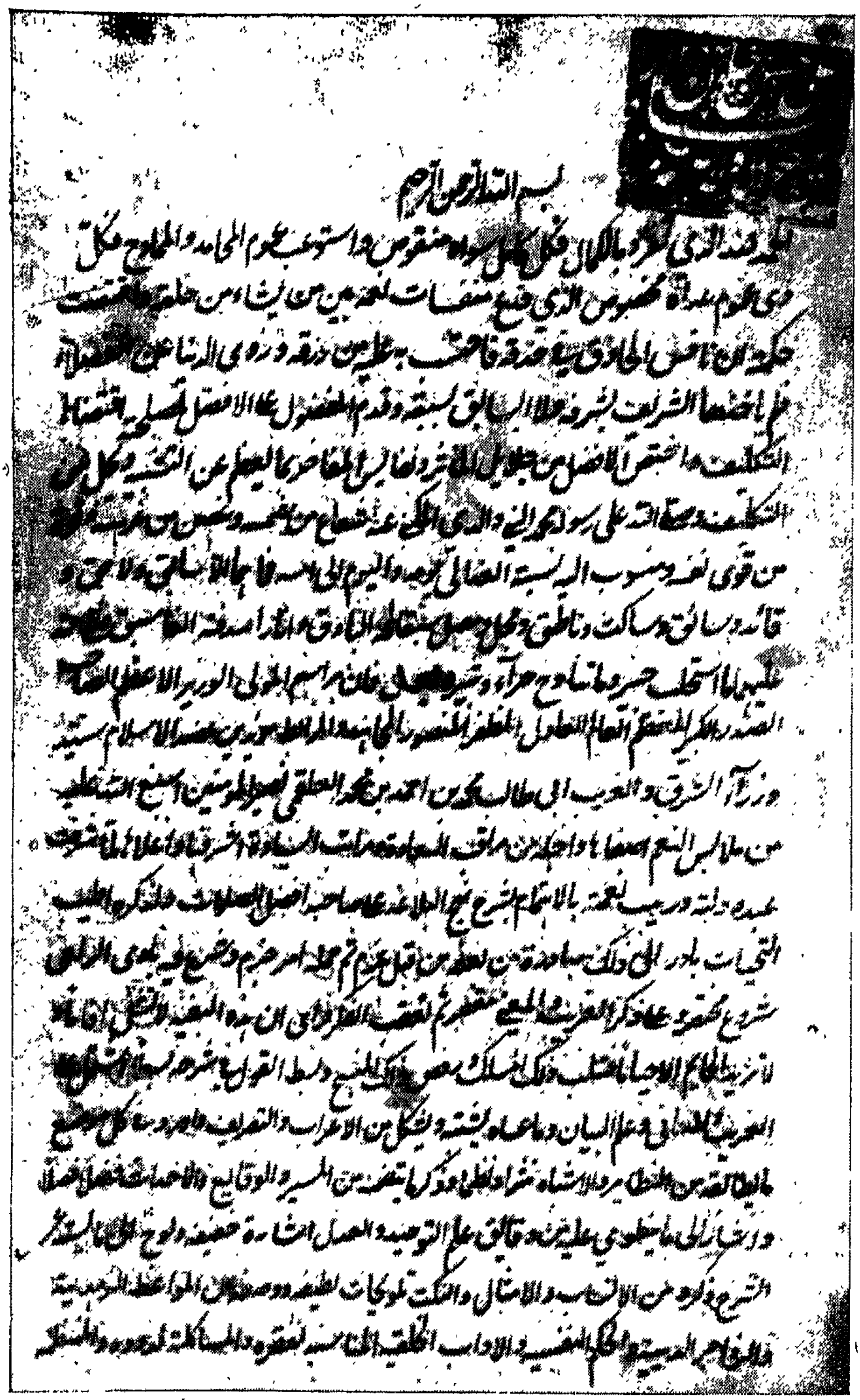
هذا ، وقد كان عملى فى إنجاز الكتاب على هذا النحو ؛ ثم اشتغالى مرة أخرى بإعادة تحقيقه ـ بعد أن خلت المكتبة العربية من أجزائه الأولى ـ معوّقا عن إنجاز الفهارس العامة فى حينها ؛ ولكننى دائم العمل فيها ، مهتم بإتمامها وإخراجها على الوجه الكامل ؛ وستظهر إن شاء الله فى الجزء الحادى والعشرين للطبعتين الأولى والثانية .

ومن الله أطلب هداية وتيسيرا ، وعونا وتوفيقا .

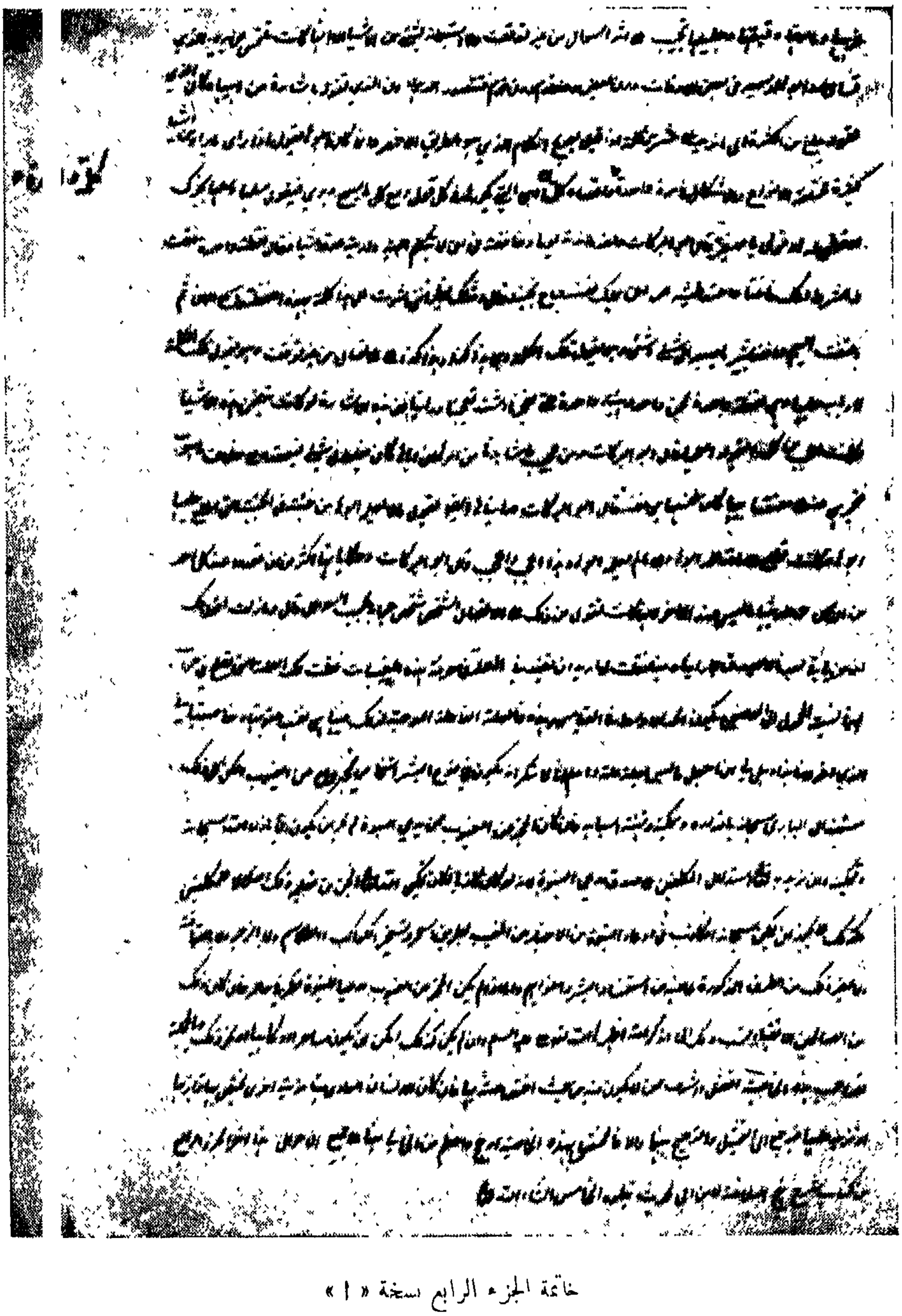
القاهرة فى { ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ
٨ سبتمبر سنة ١٩٦٥ }

محمد أبو الفضل إبراهيم

نماذج من المخطوطات



فاتحة الجزء الأول من شرح النهج نسخة « ا »

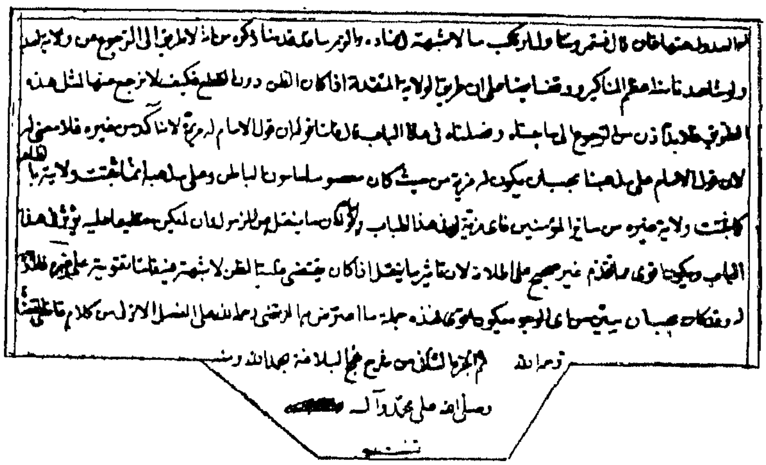


خاتمة الجزء الرابع نسخة « ا »

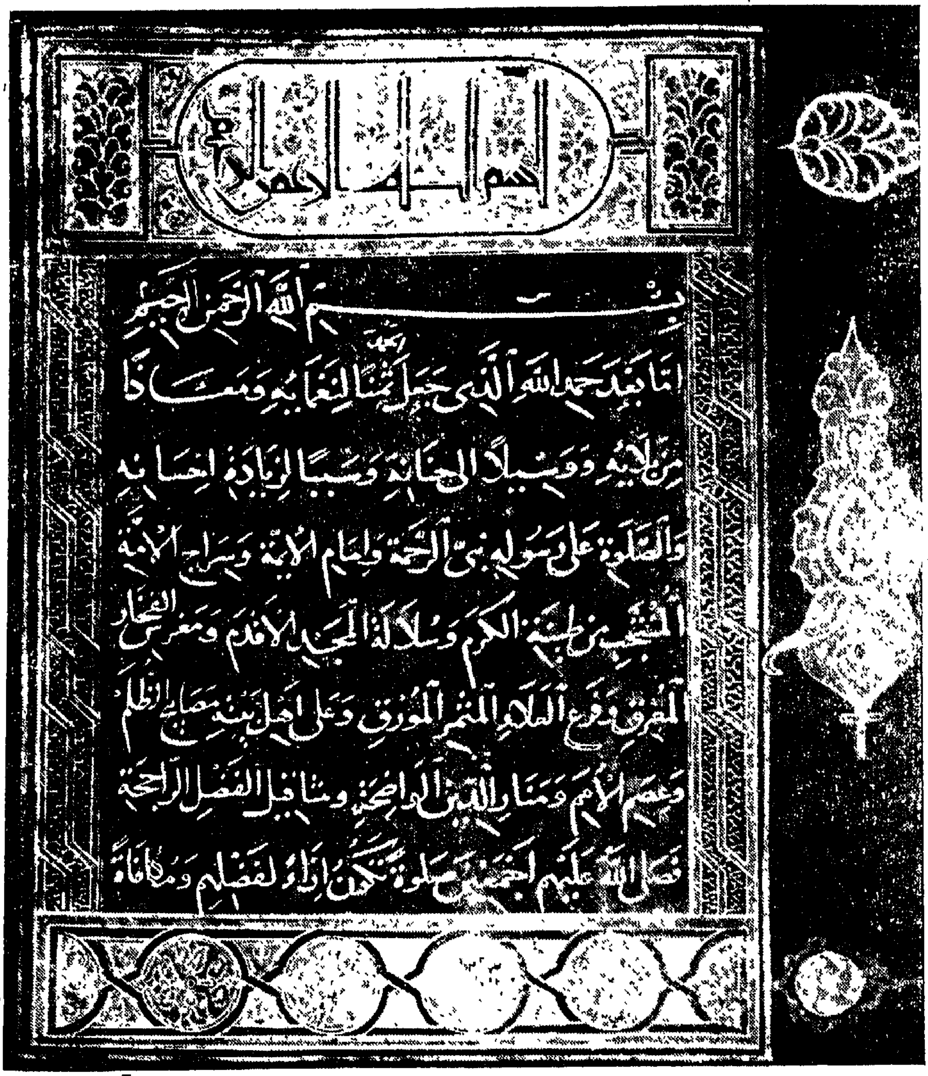
بسم الله الرحمن الرحيم

الاصل وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج وقيل له ان القوم قد عبروا جسر النهروان مصارعهم
دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة قال الرضي رحمه الله يعني بالنطفة ماء النهر وهي افصح كناية عن الماء و
ان كان كثيرا جما الشرح هذا الخبر من الاخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته
واخباره المفصلة عن الغيوب والاخبار عن الغيوب على قسمين احدهما الاخبار المجملة ولا اعجاز فيها نحو ان يقول
الرجل لاصحابه انكم ستنصرون على هذه الفئة التي تلقونها غدا فان نصر جعل ذلك حجة له عند اصحابه وسماها
معجزة وان لم ينصر قال لهم تغيرت نياتكم فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول ولانه قد جرت العادة ان الملوك والرؤساء
يعدون اصحابهم بالظفر ويعدونهم الدول فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن غيب يتضمن اعجازا والقسم
الثاني في الاخبار المفصلة عن الغيوب مثل هذا الخبر فانه لا يحتمل التلبيس لتقييده بالعدد المعين في اصحابه وفي الخوارج
ووقوع الامر بعد الحرب بموجبه من غير زيادة ولا نقصان وذلك امر الهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله
وعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه والقوة البشرية تقصر عن ادراك مثل هذا ولقد كان له
من هذا الباب ما لم يكن لغيره وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته واحواله المنافية لقوى البشر غلا فيه من غلا حتى
نسب الى ان الجوهر الالهي حل في بدنه كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام وقد اخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك
فقال يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال وقال له تارة اخرى والذي نفسي بيده لولا ان تقول طوائف
من امتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالا لا تمر بملأ من الناس الا اخذوا التراب من
تحت قدميك للبركة واول من جهر بالغلو في ايامه عبد الله بن سبا قام اليه وهو يخطب فقال له انت انت وجعل يكررها
فقال له ويلك من انا فقال انت الله فامر باخذه واخذ قوم كانوا على رايه وروى ابو العباس احمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي
عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن ابيه وعن غيره من مشيخته ان عليا قال يهلك في رجلان محب مطر يضعني غير
موضعي ويمدحني بما ليس في ومبغض مفتر يرميني بما انا منه بري قال ابو العباس وهذا تاويل الحديث المروي عن النبي

الصفحة الأولى من الجزء الخامس نسخة (ا)



آخر الجزء الثاني من نسخة (ج)


بسم الله الرحمن الرحيم
اما بعد حمد الله الذي جعل الحمد ثمنا لنعمائه ومعاذا
من بلائه ووسيلا الى جنانه وسببا لزيادة احسانه
والصلوة على رسوله نبي الرحمة وامام الائمة وسراج الامة
المنتجب من طينة الكرم وسلالة المجد الاقدم ومغرس الفخار
المعرق وفرع العلاء المثمر المورق وعلى اهل بيته مصابيح الظلم
وعصم الامم ومنار الدين الواضحة ومثاقيل الفضل الراجحة
فصلى الله عليهم اجمعين صلوة تكون ازاء لفضلهم ومكافاة

فاتحة مخطوطة نهج البــلاغة


ومتفرقين في الكلام كما شرطنا أولاً على تفضيل أوراق من البياض في آخر كل باب من الأبواب
لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد وما عسى أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع إلينا
بعد الشذوذ وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل

تم الكتاب في الحضرة
الشريفة المقدسة الحسينية
بمشهد مولانا وسيدنا أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب أخي الرسول و
زوج البتول ووالد أولاد الرسول
صلوات الله عليهم وكتبه [illegible]
[illegible] محمد [illegible] في شهور سنة
اثنين وثمانين وستمائة

خاتمة مخطوطة نهج البلاغة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ ـ ٦٥٦)

الجزء الأول

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله [الواحدِ العَدْل][1]. الحمد لله الذى تفرّد بالكمال؛ فكلُّ كاملٍ سواه منقوص، واستوعبَ عمومَ المحامد والمادح؛ فكلُّ ذى عمومٍ عداه مخصوص؛ الذى وزّع مُنْفِسات نعَمه بين مَنْ يشاء من خَلْقه، واقتضت حكمتُه أن نافسَ الحاذقَ فى حِذْقه فاحتُسب به عليه من رزقه، وزَوَى[2] الدنيا عن الفضلاء فلم يأخذْها الشريفُ بشرفه، ولا السابق بسبْقه. وقدّم المفضولَ على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف، واختَصّ الأفضلَ من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظُم عن التشبيه، ويَجِلّ عن التكييف. وصلّى الله على رسوله محمد؛ الذى[3] المَكْنِىّ عنه شُعاع من شمسه، وغصن من غَرْسه، وقوة من قُوَى نفسه، ومنسوب إليه نسبةَ الغدِ إلى يومه واليوم إلى أمسه؛ فما هما إلّا سابق ولاحق، وقائد وسائق، وساكت وناطق، ومُجَلٍّ ومُصَلٍّ؛ سبقا لمحةَ البارق، وأنارا سُدْفة الغاسق؛ صلّى الله عليهما ما استُخْلِبَ[4] خَبيرٌ، وتناوح حِراء وثَبِير[5].

وبعد، فإنّ مراسمَ المولى الوزير الأعظم، الصاحب[6]، الصدر الكبير المعظّم العالم العادل المظفّر المنصور المجاهد، المرابط[7]، مؤيّد الدين عضد الإسلام، سيد وزراء الشرق والغرب، أبى طالب[8]

---

(١) تكملة من ب. (٢) زوى الدنيا: نحاها وصرفها. (٣) ى ا: «والذى».

(٤) استخلب، بالبناء للمجهول: قطع. والخبير: النبات، وورد فى حديث طهفة: «ونستخلب الخبير»، قال ابن الأثير: الخبير: النبات والعشب، شبه بخبير الإبل؛ وهو وبرها. النهاية ١: ٢٨٠

(٥) يقال: هما جبلان يتناوحان؛ إذا كانا متقابلين؛ وثبير: جبل شامخ بمكة يقابل حراء؛ وهو أرفع من ثبير. ياقوت ٣: ٢٤٠ (٦) ب: «صاحب». (٧) ا: «والمرابط».

(٨) فى الطبعة الأولى: «أبى محمد بن أحمد»، وهو خطأ.

محمد بن أحمد بن محمد العلقمىّ[1]، نصير أمير المؤمنين ـ أسبغ الله عليه من ملابس النعم أ[ض]فاها، وأحلّه من مراقب السعادة ومراتب السيادة أشرفها وأعلاها ـ لما شرّفتْ عبدَ د[و]لته، وربيبَ نعمته بالاهتمام بشرح " نهج البلاغة " ـ على صاحبه أفضل الصلوات، و[أ]ك[ر]م أطيب التحيات ـ بادر إلى ذلك مبادرةَ مَنْ بعثه مِن قبلُ عزْم، ثم حَمَله[2] أمرٌ [ج]زْم، وشرع فيه بادِىَ الرأى شروع مختصِر، وعلى ذكْر الغريب والمعنى مقتصِر؛ ثم [ت]عقّب الفِكر، فرأى أنّ هذه النُّغْبة[3] لاتَشفى أُواما، ولاتزيد الحائمَ إلا حِياما، فتنكّب ذلك المسلك، ورفض ذلك المنهج، وبسط القول فى شرحه بسطاً اشتمل على الغريب و[ا]لمعانى وعلم البيان، وما عساه يشتبه ويُشكِل من الإعراب والتصريف، وأوْرَد فى كلّ [م]وضع مايطابقه من النظائر والأشباه، نثراً ونظماً، وذكَر مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأ[ح]داث فصلا فصلا. وأشار إلى ماينطوى عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة، [و]لوّح إلى مايستدعى الشرحُ ذكْرَه من الأنساب والأمثال والنّكت تلويحاتٍ لطيفة، و[ر]صّعه من المواعظ الزهدية، والزواجر الدينية، والحِكَم النفسية، والآداب الخلقية، المناسبة [لف]قَره، والمشاكلة لِدُرره، والمنتظمة مع معانيه فى سِمْط، والمتّسقة مع جواهره فى لَطّ[4]، [ما] يهزأ بشنوف النُّضَار، ويُخجِل قِطَع الرّوض غِبّ القِطار. وأوضحَ ما يومئ إليه من [الم]سائل الفقهيّة، وبرهن على أنّ كثيراً من فصوله داخل فى باب المعجزات المحمدية؛ لاشتما[له] على

---

(١) هو مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمى البغدادى، وزير المستعصم بالله، الخليفة ا[لع]باسى. اشتغل فى صباه بالأدب، ففاق فيه، وكتب خطا مليحا، وترسل ترسلا فصيحا، وكان لبيبا [بار]عا، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة، خبيرا بأداوات السياسة، محبا للأدب، مقربا لأهل العلم، اق[تنى] كتبا كثيرة نفيسة، وصنف الناس له؛ منهم الصغانى، صنف له العباب، وهذا المصنف الذى ألف [باس]مه، وكان ممدحا، مدحه الشعراء، وانتجعه الفضلاء، وأخباره الطيبة كثيرة وجلية. توفى سنة ٦٥٦. [الف]خرى ٢٩٥، ٢٩٦. (٢) ب، ج: « حركه ». (٣) النغبة فى الأصل: الجرعة من الماء. [و]فى ا: « البغية »، والأجود ما أثبته من ب. (٤) اللط، بالفتح: القلادة.

الأخبار الغيبية ، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية . وَبَيَّن من مقامات العارفين ؛ التى يَرمِز إليها فى كلامه ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يُدرِكه إلا الروحانيون المقرّبون . وكشف عن مَقاصده عليه السلام فى لفظة يرسلها ، ومعضِلَةٍ[1] يَـكْنِى عنها ، وغامضة يعرّض بها ، وخَفَايا يُجمجِم[2] بذكرها ، وهَنَاتٍ تجيش فى صدره فينفُثُ بها نَفْثَةَ المصدور ، ومُرْمِضاتٍ مؤلمات يشكوها فيستريح بشكواها استراحةَ المكروب .

فخرج هذا الكتاب كتاباً كاملاً فى فنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُمْتِعاً بمحاسنه ؛ جليلةً فوائدُه ، شريفة مقاصدُه ، عظيماً شانه ، عالية منزلته ومكانه ؛ ولا عجبَ أن يُتقرّب بسيّد الكتُب إلى سيد الملوك ، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب ، وبواحد العصر إلى أوحد الدهر ؛ فالأشياء بأمثالها أليق ، وإلى أشكالها أقرب ؛ وشِبْهُ الشىء إليه منجذِب ، ونحوه دان ومقترب .

ولم يشرحْ هذا الكتاب قبلى ــ فيما أعلمه ــ إلا واحد ؛ وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقُطْب الراوندىّ[3] ، وكان من فقهاء الإماميّة ، ولم يكن من رجال هذا الكتاب ، لاقتصاره مدّةَ عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده ، وأنّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة ، ويخوضَ فى هذه العلوم المتشعبة ! لا جَرمَ أنّ شرحه لا يخفى حالُه عن الذكىّ ، وجَرَى الوادى فطَمّ على القَرِىّ[4] . وقد تعرّضتُ فى هذا الشرح لمناقضته

---

(١) كذا فى ج ، وجمجم بالكلام : لم يبينه ، وفى ا ، ب : « يحجم »

(٢) ا : « معضلة » ، بدون الواو . (٣) هو سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندى ، أحد فقهاء الشيعة ؛ وتصانيفه كثيرة متنوعة ؛ أسمى كتابه فى شرح النهج « منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة » ، وتوفى سنة ٥٧٣ . لسان الميزان ٣ : ٤٨ ، روضات الجنات ٣٠٢ . (٤) جرى الوادى فطم على القرى ، مثل ؛ قال الميدانى فى شرحه : أى جرى سيل الوادى فطم ، أى دفن ؛ يقال : طم السيل الركية ؛ أى دفنها . والقرى : مجرى الماء فى الروضة ، والجمع أقرية وقريان ، و «على» من صلة المعنى ؛ أى أتى على القرى ؛ يعنى أهلكه بأن دفنه ؛ يضرب عند تجاوز الشىء حده » . مجمع الأمثال ١ : ١٥٩

فى مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها ، وأعرضت عن كثير مما قاله ، [إذْ] لم ر فى ذكره ونقْضِه كبير فائدة .

* * *

وأنا قبل أن أشرعَ فى الشرح أذكر أقوالَ أصحابِنا رحمهم الله فى الإمامة والتـ ضيل والبُغاة والخوارج . ومُتْبِـعٌ ذلك بذكر نسب أمير المؤمنين عليه السلام ، ولمع سيرة من فضائله ، ثم أثلّث بذكر نسب الرضىّ أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ رحمه الله ، وبعض خصائصه ومناقبه . ثم أشرع فى شرح خطبة "نهج البلاغة" التى هى من كلام الرضىّ أبى الحسن رحمه الله[1] ؛ فإذا انتهيت من ذلك كلّه ابتدأت بعون الله وتوفـ ـه فى شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً فشيئاً .

ومن الله سبحانه أستمدّ المعونة ، وأستدرّ أسبابَ العِصْمة ، وأستميح غمائم الر مة ، وأمترى أخلاف البركة ، وأشيمُ بارق النماء والزيادة ، فما المرجوّ إلا فضلُه ، ولا المـ مول إلا طَوْلُه ، ولا الوثوق إلا برحمته ، ولا السكون إلا إلى رأفته ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَ كَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .

---

(١) ب : « رضى الله عنه » . (٢) سورة الممتحنة ٤ ، ٥ .

القول فيما ذهب إليه أصحابنا المعتزلة
فى الإمامة والتفضيل والبُغاة والخوارج

اتّفق شيوخُنا كافّة رحمهم الله ؛ المتقدّمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون على أنّ بيعةَ أبى بكر الصديق بَيْعة صحيحة شرعية ، وأنّها لم تكن عن نصّ ، وإنما كانت بالاختيار الذى ثبتَ بالإجماع ، وبغير الإجماع كونُه طريقاً إلى الإمامة .

واختلفوا فى التفضيل ، فقال قدماء البصريين كأبى عثمان عمرو بن عُبيد ، وأبى إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام ، وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى معن ثُمامة بن أشرس ، وأبى محمد هشام بن عمرو الفُوَطىّ ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام ، وجماعة غيرهم : إن أبا بكر أفضلُ من علىّ عليه السلام ؛ وهؤلاء يجعلون ترتيبَ الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخِلافة .

وقال البغداديّون قاطبة ؛ قدماؤهم ومتأخّروهم ، كأبى سهل بِشْر بن المعتمر ، وأبى موسى عيسى بن صبيح ، وأبى عبد الله جعفر بن مبشّر ، وأبى جعفر الإسكافىّ ، وأبى الحسين الخيّاط ، وأبى القاسم عبد الله بن محمود البلْخِىّ وتلامذته : إنّ عليًّا عليه السلام أفضلُ من أبى بكر .

وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو علىّ محمد بن عبد الوهاب الجُبّائىّ أخيرا ، وكان من قبلُ من المتوقّفين ، كان يميل إلى التّفضيل ولا يصرّح به ، وإذا صنّف ذهب إلى الوقف فى مصنّفاته . وقال فى كثير من تصانيفه : إن صحّ خبرُ الطّائر فعلىٌّ أفضل[1] .

---

(١) يشير إلى مارواه الترمذى فى باب المناقب ١٣ : ١٧٠ ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : كان عند النبى صلى الله عليه وسلم طير ، فقال : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير » ، فجاء على فأكل معه . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لايعرف من حديث السدى إلا من هذا الوجه .

ثم إن قاضيَ القضاة رحمه الله ذكر في شرح "المقالات" لأبي القاسم البلخيّ أنّ [illegible] عليّ رحمه الله ما مات حتى قال بتفضيل عليّ عليه السلام، وقال : إنه نقل ذلك عنه س[illegible]عاً ؛ ولم يوجد في شيء من مصنفاته . وقال أيضاً : إن أبا عليّ رحمه الله يوم مات استد[illegible] ابنه أبا هاشم إليه، — وكان قد ضَعُف عن رفع الصوت — فألقى إليه أشياء، من جملتها قولُ بتفضيل عليّ عليه السلام .

وممن ذهب من البصريين إلى تفضيله عليه السلام الشيخ أبو عبد الله [illegible]سين ابن عليّ البصريّ رضي الله عنه، كان متحقّقاً بتفضيله، ومبالغاً في ذلك، وصنّ[illegible] فيه كتابا مفردا .

وممن ذهب إلى تفضيله عليه السلام من البصريين قاضي القضاة أبو [illegible]حسن عبد الجبار بن أحمد رحمه الله ؛ ذكر ابنُ مَتّويه عنه في كتاب "الكفاية"، علم الكلام أنه كان من المتوقفين بين عليّ عليه السلام وأبي بكر، ثم قطع على تفضي[illegible] عليّ عليه السلام بكامل المنزلة .

ومن البصريين الذاهبين إلى تفضيله عليه السلام أبو محمد الحسن بن مَتّويه [illegible]حب "التذكرة" نصّ في كتاب "الكفاية" على تفضيله عليه السلام على أبي [illegible]كر ؛ واحتجّ لذلك، وأطال في الاحتجاج .

فهذان المذهبان كما عرفت .

وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقّف فيهما ؛ وهو قول أبي حذيفة [illegible]اصل ابن عطاء، وأبي الهُذَيْل محمد بن الهُذَيْل العلاّف ؛ من المتقدمين . وهما — وإن ذ[illegible]با إلى التوقّف[1] بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر — قاطعان على تفضيله على عثمان .

(١) ب : « الوقف » .

ومن الذاهبين إلى الوقف الشيخ أبو هاشم عبد السلام بن أبى علىّ رحمهما الله والشيخ أبو الحسين محمد بن علىّ بن الطيّب البَصرىّ رحمه الله .

وأمّا نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون ؛ من تفضيله عليه السلام . وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل ؛ وهل المراد به الأكثر ثواباً أو[1] الأجمعُ لمزايا الفضل والخلال الحميدة ، وبيّنا أنه عليه السلام أفضلُ على التفسيرين معا . وليس هذا الكتاب موضوعا لذكر الحِجَاج فى ذلك أو فى غيره من المباحث الكلاميّة لنذكرَه ، ولهذا موضع هو أَمْلَكُ به .

* * *

وأمّا[2] القول فى البغاة عليه[3] والخوارج ، فهو على[4] ما أذكره لك :

أما أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلّهم إلا عائشة وطلحة والزبير ؛ [5]رحمهم الله[5] فإنهم تابوا ، ولولا التوبة لحُكِم لهم بالنار لإصرارهم على البغى .

وأما عسكر الشام بصِفّين فإنهم هالكون كلهم عند أصحابنا لا يُحْكَم لأحد منهم إلاّ بالنار ؛ لإصرارهم على البغى وموتهم عليه ؛ رؤساؤهم والأتباع جميعاً .

وأما الخوارج فإنّهم مَرَقوا عن الدين بالخبر النبوىّ المجمَع عليه ؛ ولا يختلف أصحابنا فى أنهم من أهلِ النار .

وجملة الأمر أنّ أصحابنا يحكمون بالنار لكلّ فاسق مات على فِسْقه ؛ ولا ريب فى أنّ الباغىَ على الإمام الحقّ والخارجَ عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق ؛ وليس هذا مما يخصّون به عليًّا عليه السلام ، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة الإسلام العدول[6] لكان حكمُهم حكمَ من خرج على علىّ صلوات الله عليه .

وقد بَرِئ[7] كثير[8] من أصحابنا من قوم من الصحابة أحبطوا ثوابهم ؛ كالمغيرة بن شعبة

(١) ب : « أم » . (٢) ب ، ج : « فأما » . (٣) ساقطة من ا .
(٤) ا : « فعلى ما أذكره » . (٥–٥) ساقط من ب . (٦) ب ، ج : « من أئمة العدل » .
(٧) ب : « يرى » ، تصحيف . (٨) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « قوم » .

وكان شيخنا أبو القاسم البلخى إذا ذكر عنده عبد الله بن الزّبير ، يقول : لا خيرَ فيه . وقال مرة : لا يعجبنى صلاته وصومه ؛ وليسا بنافعين له مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « لا يُبغضك إلا منافق » . وقال أبو عبد الله البصرىّ رحمه الله لما سئل عنه : ما صحّ عندى أنه تاب من يوم الجمل ؛ ولكنه استكثر مما كان عليه .

فهذه هى المذاهب والأقوال ؛ أمّا الاستدلال عليها فهو مذكور فى الكتب الموضوعة لهذا الفن .

القول فى نسب أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام
وذكر لُمَع يَسيرة من فضائله

هو أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ــ واسمه عبدمناف ــ بن عبدالمطلب ــ واسمه شيبة ــ ابن هاشم ــ واسمه عمرو ــ بن عبد مناف بن قصىّ . الغالبُ عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن . وكان ابنه الحسنُ عليه السلام يدعوه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا الحسين ، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن ، ويدعوَان رسول الله صلى الله عليه وآله أباهما ، فلما تُوفِّىَ النبىّ صلى الله عليه وآله [1] دعوَاه بأبيهما .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا تراب ، وَجَده نائما فى تراب ، قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب الترابُ جَسَده ، فجاء حتى جلس عند رأسه ، وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له : اجلس ؛ إنّما أنت أبو تراب [2] . فكانتْ من أحبّ كناه إليه صلوات الله عليه ، وكان يفرح إذا دُعِىَ بها ، وكانت تُرَغِّب بنو أمية خطباءها [3]

---

(١) ساقطة من ا .

(٢) رواية الخبر كما فى صحيح البخارى ، فى كتاب فضائل الصحابة ٢ : ٣٠٠ ؛ بسنده عن عبد الله ابن مسلمة : « أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد ، فقال : هذا فلان ــ لأمير المدينة ــ يدعو عليا عند المنبر ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، قال : والله ماسماه إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان له اسم أحب إليه . فاستطعمت الحديث سهلا ، وقلت : ياأبا عباس ، كيف ؟ قال : دخل على على فاطمة ، ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين ابن عمك ؟ قالت : فى المسجد ، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول : اجلس ياأبا تراب ، مرتين » . ولهذا الخبر رواية أخرى ذكرها صاحب الرياض النضرة فى ٢ : ١٥٤ .

(٣) ب ، ج : « فدعت بنو أمية » ، وماأثبته من .

أن يسبُّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصةً له ووصْمة عليه؛ فكأنّما كسوْه بها الحُلَى والحُلل؛ كما قال الحسن البصرىّ رحمه الله.

وكان اسمه الأول الذى سمّته به أمه حَيْدَرة، باسم أبيها أسد بن هاشم – والحيدرة: الأسد – فغيّر أبوه اسمه، وسمّاه عليًّا.

وقيل: إن حيدرةَ اسمٌ كانت قريش تسمِّيه به. والقول الأول أصحّ؛ يدلّ عليه خبرُه (١) يوم برز إليه مَرْحب، وارتجز عليه فقال:

* أنا الذى سمّتْنِىَ أُمِّى مَرْحَبًا (٢) *

فأجابه عليه السلام رجزاً:

* أنا الذى سمّتنِىَ أمى حَيْدَرَهْ (٣) *

ورجَزُهما معا مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره.

وتزعم الشيعة أنه خوطب فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بـ «أمير المؤمنين»، خاطبه بذلك جِلّة المهاجرين والأنصار، ولم يثبتْ ذلك فى أخبار المحدّثين؛ إلا أنهم قد رووا ما يُعطِى هذا المعنى، وإن لم يكن اللفظَ بعينه، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله له: «أنت يَعْسُوب الدّين والمالُ يعسوب الظَّلَمة»، وفى رواية أخرى: «هذا يعسوب المؤمنين»،

(١) الخبر رواه مسلم مفصلا بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه، فى كتاب الجهاد والسير ص ٣٣ ١ – ١٤٤١، فى غزوة خيبر.

(٢) رواية مسلم:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى مَرْحَبُ شَاكِى ٱلسِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
* إِذَا ٱلْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ *

(٣) بقيته، كما رواه مسلم:

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ ٱلْمَنْظَرَهْ أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كَيْلَ ٱلسَّنْدَرَهْ

والسندرة: مكيال واسع.

وقائد الغرّ المحجّلين » (١) . واليعسوب : ذَكَر النَّحل وأميرها . روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانىّ فى " المسند " فى كتابه " فضائل الصحابة " ، ورواها أبو نُعَيم الحافظ فى " حلية الأولياء " (٢) .

ودُعِى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بوصىّ رسول الله، لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك ، ولكن يقولون : إنها لم تكن وصيةً بالخلافة ، بل بكثير من المتجددات بعده ، أفضى بها إليه عليه السلام . وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد .

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصىّ ، أوّل هَاشمية وَلَدَت لهاشمىّ ، كان علىّ عليه السلام أصغرَ بنيها ، وجعفر أسنّ منه بعشر سنين، وعَقِيل أسنّ منه بعشر سنين ، وطالب أسنّ من عَقِيل بعشر سنين ؛ وفاطمة بنت أسد أمّهم جميعاً .

وأمّ فاطمة بنت أسد فاطمة (٣) بنت هرم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص [ابن عامر بن لؤىّ . وأمها حديّة بنت] (٤) وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان ابن محارب بن فهر . [وأمّها فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤىّ. وأمّها سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر] (٤). وأمها عاتكة بنت أبى هَمْهَمَة ـ واسمه عمرو بن عبد العزّى ـ بن عامر بن عُمَيرة بن وديعة (٥) بن الحارث ابن فِهر ، [وأمّها تُماضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤى] (٤) ، وأمها حبيبة؛ وهى أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم ابن قسىّ ؛ وهو ثقيف. وأمّها فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبع (٦) بن وائلة بن نصر ابن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَيْن بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان

---

(١) ورواه أيضا الطبرانى فى الكبير ، ونقله صاحب الرياض النضرة ٢ : ١٥٥ ؛ مع اختلاف فى اللفظ.
(٢) حلية الأولياء ١ : ٦٣ ، بسنده عن أنس ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الوصيين » .
(٣) فى مقاتل الطالبيين : « وتعرف بحبى بنت هرم » .
(٤) تكملة من مقاتل الطالبيين . (٥) مقاتل الطالبيين : « ابن أبى وديعة » .
(٦) كذا فى ب ، وفى ا : « ضبيح » ، وفى مقاتل الطالبيين « صبح » .

ابن مضر . وأمها رَيْطة بنت يسار بن مالك بن حُطَيْط بن جُشَم بن ثقيف . وأمها [1]
بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن . وأمها حُبّى بنت الحارث بن النابغة بن عميرة
ابن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن . ذكر هذا النسب أبو الفرج علىّ بن الحسن
الأصفهانىّ فى كتاب ''مقاتل الطالبيين'' [2] .

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين ؛ وكانت الحادية عشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظّمها ويدعوها : «أمى» ، وأوصتْ إليه حين حضرتها الوفاة ، فقَبِل وصيتَها ، وصلّى عليها ، ونَزَل فى لَحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصَه ، فقال له أصحابه : إنّا ما رأيناك صنعتَ يارسول الله بأحد ماصنعتَ بها ، فقال : « إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبى طالب أبرّ بى منها ، إنما ألبستُها قميصى لتُكسَى من حُلَل الجنة ، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطةُ القبر » .

وفاطمة أوّل امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النّساء .

وأمّ أبى طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وهى أمّ عبدالله ، والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّ الزبير بن عبدالمطلب ؛ وسائرُ ولد عبد المطلب بَعْدُ لأمهات شتى .

واختُلف فى مولد علىٍّ عليه السلام أين كان ؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد فى الكعبة ، والمحدّثون لا يعترفون بذلك ، ويزعمون أنّ المولود فى الكعبة حكيم بن حِزام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ .

واختلف فى سنّه حين أظهر النبىّ صلى الله عليه وآله الدعوة ، إذْ تكامل له صلوات الله عليه أربعون سنة ، فالأشهرُ من الروايات أنه كان ابنَ عشر . وكثير من أصحابنا المتكلّمين يقولون : إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخىّ وغيره من شيوخنا .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « كلية بنت قصية » . (٢) فى ترجمة جعفر بن أبى طالب ص ٧ .

والأوّلون يقولون : إنّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهؤلاء يقولون : ابن ستّ وستين ، والروايات فى ذلك مختلفة . ومن الناس من يزعم أن سنّه كانت دون العشر ، والأكثر الأظهر خلاف ذلك .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذرىّ وعلىّ بن الحسين الأصفهانىّ أنّ قريشاً أصابتْها أزمة وقَحْط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّيه ؛ حمزة والعباس : « ألا نحمل ثَقَلَ أبى طالب فى هذا المَحْل ! » ، فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولَده ليَكْفوه أمرهم ، فقال : دَعُوا لى عَقِيلا وخذوا مَنْ شئتم ـ وكان شديد الحبّ لعَقِيل ـ فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليًّا ، وقال لهم : « قد اخترت ـ من اختاره الله لى عليكم ـ عليًّا » ، قالوا : فكان علىّ عليه السلام فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، منذ كان عمره ستّ سنين .

وكان مايُسْدِى إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحسن تربيته ؛ كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبى طالب به ؛ حيث مات عبد المطلب وجَعَله فى حِجْره . وهذا يطابق قوله عليه السلام : لقد عبدتُ اللهَ قبل أنْ يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين ، وقوله : كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أُذِنَ له فى الإنذار والتبليغ ؛ وذلك لأنه إذا كان عمرُه يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ستّ ؛ فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز ، على أنّ عبادةَ مثله هى التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئا من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثلُ هذا موجود فى الصبيان .

وقُتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بَقِين من شهر رمضان ، سنة أربعين فى

رواية أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ(١) ـ وهى الرواية المشهورة ـ وفى رواية أبى مِخْنف أنّها كانت لإحدى عشرة ليلة بَقِين من شهر رمضان ، وعليه الشيعةُ فى زماننا .

والقول الأول أثبتُ عند المحدّثين ، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هى ليلة بدر ، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل فى ليلة بدر ، عليه السلام .
وقبره بالغَرِىّ .

وما يدّعيه أصحاب الحديث ـ من الاختلاف فى قبره ، وأنّه حُمِل إلى المدينة ، أو أنه دفِن فى رحبة الجامع ، أو عند باب قصر الإمارة ، أو نَدّ البعير الذى حُمِل عليه فأخذته الأعراب ـ باطل كلّه ، لا حقيقة له ، وأولاده أعرفُ بقبره ؛ وأولاد كلّ الناس أعرفُ بقبور آبائهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذى زاره بنوه لما قَدِموا العراق ، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيرُه من أكابرهم وأعيانهم .

وروى أبو الفرج فى " مقاتل الطالبيين " بإسناد(٢) ذكره هناك أنّ الحسين عليه السلام لما سئل : أين دفنتم أمير المؤمنين ؟ فقال : خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة ، حتى مررنا(٣) به على مسجد الأشعث ، حتى انتهينا به إلى الظَّهْرِ بجنب الغَرِىّ .

وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد .

فأما فضائله عليه السلام ؛ فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمُجُ معه التعرّض لذكرها ، والتصدِّى لتفصيلها ؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد : رأيتُنى فيما أتعاطَى من وصف فضلك ، كالمخبِر عن ضَوْء النهار الباهر ، والقمرِ الزاهر ، الذى لا يخفى على الناظر ؛ فأيقنت أنّى حيث انتهى بىَ القولُ منسوب إلى العَجْز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك .

وما أقولُ فى رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ، ولم يمكنهم جَحْدُ مناقبه ،

---

(١) نقلها أبو الفرج فى مقاتل الطالبين ٤٠ . (٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٢ : « الحسن » .
(٣) كذا فى الأصول ومقاتل الطالبيين والأجود : « فررنا » .

ولا كتمانُ فضائله ، فقد علمتَ أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام فى شرق الأرض وغربها ، واجتهدوا بكلّ حيلة فى إطفاء نوره ، والتحريضِ عليه ، ووضع المعايب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعّدوا مادِحِيه ، بل حبسوهم وقتلوهم ، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة ، أو يرفع له ذكرا ، حتى حظَروا أنْ يسمَّى أحد باسمه ؛ فما زاده ذلك إلا رفعةً وسُمُوًّا ؛ وكان كالمسك كلّما سُتِر انتشر عَرْفه ، وكلّما كُتِم تَضوّع نَشْرُه ؛ وكالشمس لا تُستَر بالراح ، وكضوْء النهار إن حُجِبت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة .

وما أقول فى رجل تُعزَى إليه كلُّ فضيلة ، وتنتهى إليه كل فِرْقة ، وتتجاذبه كلُّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل ويَنبوعها ، وأبو عُذْرِها ، وسابق مضمارها ، ومجلِّى حَلْبتها ؛ كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفتَ أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلٰهىّ ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرفَ العلوم . ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ؛ ومنه ابتدأ ، فإنّ المعتزلة[١] — الذين هم أهلُ التوحيد والعدْل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلَّم الناس هذا الفن — تلامذتُه وأصحابه ؛ لأنّ كبيرَهم واصل بن عطاء تلميذُ أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة[٢] ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه عليه السلام . وأما الأشعريّة فإنهم ينتمون إلى أبى الحسن علىّ بن [إسماعيل بن][٣] أبى بشر الأشعرىّ ، وهو تلميذ أبى علىّ الجُبّائىّ ، وأبو علىّ أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعريّة ينتهون بأَخَرَةٍ إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم ، وهو علىّ بن أبى طالب عليه السلام.

وأما الإمامية والزيديّة فانتماؤهم إليه ظاهر .

***

(١) انظر أمالى المرتضى ١ : ١٤٨ وما بعدها ؛ فى كلام المؤلف عن سند المعتزلة إلى على عليه السلام .
(٢) هو إمام الكيسانية ؛ وعنه انتقلت البيعة إلى بنى العباس . تنقيح المقال ٢ : ٢١٢ .
(٣) من ابن خلكان ١ : ٣٢٦

ومن العلوم علم الفقه ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه فى الإسلام فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه ؛ أما أصحابُ أبى حنيفة كأبى يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبى حنيفة ، وأما الشافعىّ فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبى حنيفة ، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعىّ ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبى حنيفة ؛ وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام ، وينتهى الأمر إلى علىّ عليه السلام . وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأى ، وقرأ ربيعة على عِكْرمة ، وقرأ عِكْرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على علىّ بن أبى طالب[1] ؛ وإن شئت فرددتَ[2] إليه فقهَ الشافعىّ بقراءته على مالك كان لك ذلك ؛ فهؤلاء الفقهاء الأربعة .

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر . وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس؛ وكلاهما أخذ عن علىّ عليه السلام . أما ابنُ عباس فظاهر ، وأما عمر فقد عَرَف كلّ أحدٍ رجوعَه إليه فى كثير من المسائل التى أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقولَه غير مرّة : «لولا علىٌّ لهلك عمر » ، وقولَه : «لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن» ، وقوله : «لا يُفتِيَنّ أحد فى المسجد وعلىّ حاضر» ؛ فقد عُرِف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه .

وقد روت العامة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله : « أقضاكم علىّ »[3] ، والقضاء هو الفقه ؛ فهو إذاً أفقهُهم . وروى الكلّ أيضاً أنّه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً : « اللهمّ اهدِ قلبه وثبِّت لسانه » ، قال : فما شككتُ بعدها فى قضاء بين اثنين[4] ،

---

(١) ب : « عن على » . (٢) فى الأصول : « رددت » .

(٣) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ١ : ٥٨ عن مسند أبى يعلى بلفظ : « أرأف أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ... » وضعفه .

(٤) رواه أبو داود فى كتاب الأقضية ٣ : ٤٠٩ بسنده عن على ، ولفظه : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا فقلت : يارسول الله ، ترسلنى وأنا حديث السن ، ولا علم لى بالقضاء ؛ فقال : « إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » ، قال : فما زلت قاضيا — أو ماشككت فى قضاء بعد .

وهو عليه السلام الّذى أفتى فى المرأة التى وضعت لستة أشهر ، وهو الذى أفتى فى الحامل الزانية[١] ؛ وهو الذى قال فى المِنْبرِيّة[٢] :صار ثُمُنها تُسْعا . وهذه المسألة لو فكّر الفَرَضِىّ فيها فكراً طويلا لاستُحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنّك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالا !

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخِذَ ، ومنه فُرِّع .وإذا رجعتَ إلى كتب التفسير علمتَ صحة ذلك ؛ لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس،وقد علم الناس حالَ ابن عباس فى ملازمته له ، وانقطاعه إليه،وأنّه تلميذُه وخرّيجه.وقيل له:أين علمك من علم ابن عمّك ؟ فقال : كنِسْبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف ؛ وقد عرفتَ أن أربابَ هذا الفنّ فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ وقد صرّح بذلك الشِّبْلِىّ ، والجُنَيد ، وسَرِىّ[٣] ، وأبو يزيد البِسْطامىّ ، وأبو محفوظ معروف الكرخىّ ؛ وغيرهم . ويكفيك دَلالة على ذلك الخِرْقة[٤] التى هى شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يُسنِدونها بإسناد متّصل إليه عليه السلام .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره ١٦ : ١٩٣ ؛ عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد ، فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى :﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

(٢) سميت المنبرية ؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر ؛ فأفتى من غير روية ؛ وبيانها أنه سئل فى ابنتين وأبوين وامرأة ؛ فقال : صار ثمنها تسعا ، قال أبو عبيد : أراد أن السهام عالت حتى صار للمرأة التسع ، ولها فى الأصل الثمن ؛ وذلك أن الفريضة لو لم تعل كانت من أربعة وعشرين ، فلما عالت صارت من سبعة وعشرين ، فللابنتين الثلثان : ستة عشر سهما ، وللأبوين السدسان : ثمانية أسهم ، وللمرأة ثلاثة من سبعة وعشرين ؛ وهو التسع ، وكان لها قبل العول ثلاثة من أربعة وعشرين ؛ وهو الثمن . وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٣٩ ، واللسان ١٣ : ٥١٢ ، وحاشية البقرى على متن الرحبية ٣٤

(٣) هو سرى بن المغلس السقطى ؛ خال الجنيد وأستاذه ، وصاحب معروف الكرخى ؛ وأول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال . مات سنة ٢٥١ . (طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨)

(٤) فصل السهروردى فى الباب الثانى عشر من كتابه عوارف المعارف (٤ : ١٩١ وما بعدها — على هامش الإحياء) الكلام فى شرح خرقة المشايخ الصوفية ولبسها .

ومن العلوم علم النّحو والعربية ؛ وقد علم الناس كافة أنّه هو الذى ابتدعه وأ. .أه ، وأملَى على أبى الأسود الدؤلىّ جوامعَه وأصوله ، من جملتها : الـكلام كلّه ثلاثة أ. .باء : اسم وفعل وحرف ، ومن جملتهاتقسيم الـكلمَة إلى معرفة ونـكرة،وتقسيم وجوه الإ. .اب إلى الرفع والنصب والجر والجزم (١) ، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البـ .ريّة لا تفِى بهذا الحصر ، ولا تنهض بهذا الاستنباط .

وإن رجعت إلى الخصائص الخُلقيّة والفضائل النفسانية والدينية وجدتَه ابن . لاها وطلّاع ثناياها (٢) .

***

وأما الشجاعة فإنه أنسَى الناسَ فيها ذكر مَنْ كان قبله،ومحا اسمَ من يأتى . .ده، ومقاماتُه فى الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثالإلى يوم القيامة ؛ وهو الشجاع الذى . افرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحـداً إلا قتله ؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحتـ .ت الأولىإلى ثانية؛ وفى الحديث : «كانَتْ ضَرَباته وتراً ». ولما دعامعاويةَ إلىالمبارزة ليسـ .يح الناس من الحرب بقتل أحدهما ، قال له عمرو : لقد أنصفك ، فقال معاوية : ماغشـ .تنى منذ نصحتنى إلا اليوم ، أتأمرنى بمبارزة أبى الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرِق! . .الك طمعت فى إمارة الشام بعـدى ! وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقا. .ه ، فأما قتلاه فافتخارُ رهطِهم بأنّه عليـه السلام قتَلهم أظهرُ وأكثر ، قالت أخت . .رو ابن عبد وَدّ ترثيه :

لو كان قاتلُ عمرٍو غـيرَ قاتِلِهِ ... بكيتُه أبداً مادُمْتُ فى الأبدِ (٣)

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٤٢ – ٥٠ (٢) اقتباس من قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا ... مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وابن جلا ، أى الواضح الأمر ؛ وطلاع الثنايا : كناية عن السمو إلى معالى الأمور ، والثنايا فى الأ. . : جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل . وانظر اللسان ١٨ : ١٦٥

(٣) من أبيات ذكرها صاحب اللسان ٨ : ٣٩٥ ، وروايته :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ ... بكيتُهُ ما أَقَامَ الرُّوحُ فى جَسَدِى

لـكِنّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ ... وَكَانَ يُدْعَى قديماً بيضة البَلَدِ

لـكنَّ قاتِلَهُ مَنْ لا نظــــير له   وكان يُدْعَى أبوه بَيْضَة الْبَلَدِ [1]

والتبه يوماً معاوية ، فرأى عبد الله بن الزُّبير جالساً تحت رجليه على سريرة فقعد ، فقال له عبد الله يداعبه: ياأميرَ المؤمنين، لو شئت أن أفتِكَ بك لفعلت ، فقال: لقد شَجُعت بعدنا يا أبا بكر ! قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفتُ في الصف إزاء عليّ بن أبي طالب ! قال : لا جَرَم ، إنّه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيتِ اليمنى فارغةً ، يطلب مَنْ يقتله بها .

وجملة الأمر أن كلَّ شجاع في الدنيا إليه ينتهي ، وباسمه ينادى في مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

وأما القوّة والأيْد فبه يُضرب المثل فيهما؛ قال ابن قتيبة في " المعارف " : مَاصارَعَ أحداً قطّ إلا صرَعه [2]. وهو الذي قلَع بابَ خَيْبَر، واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه ؛ وهو الذي اقتلع هُبَلَ من أعلى الكعبة، وكان عظيماً جداً ، وألقاه [3] إلى الأرض. وهو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها، وأنبط [4] الماء من تحتها .

* * *

وأمّا السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة؛ وكان يصوم ويَطْوِي ويُؤْثِر بزاده ؛ وفيه أنزل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ [5] . وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم ؛ فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيه : ﴿ الَّذِينَ

---

(١) بيضة البلد ، يريد علي بن أبي طالب ، أي أنه فرد ليس مثله في الشرف كالبيضة التي هي تريكة وحدها ، ليس معها غيرها ، كذا فسره في اللسان .

(٢) المعارف ٢١٠ ، وبعدها : « شديد الوثب قوي الضرب » .

(٣) ب : « فألقاه » .   (٤) ب ج : « فأنبط » .

(٥) سورة الإنسان ٩ ، ١٠ .

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (١) .

وروى عنه أنّه كان يَسقِي بيده لنخْلِ قوم من يهود المدينة ، حتى مَجَلَت (٢) يده ، ويتصدق بالأجْرة ، ويشدُّ على بطنه حجَرا .

وقال الشعبيّ وقد ذكره عليه السلام : كان أسخَى الناس ؛ كان على الخُلُق الذى يحبّه الله : السخاء والجود ، ماقال : « لا » لسائل قطّ .

وقال عدوّه ومُبْغضِه الذى يجتهد فى وَصْمِه وعيبه معاوية بن أبى سفيان لِمحْفَن (٣) بن أبى محْفَن الضبيّ لما قال له : جئتك مِنْ عند أبخل الناس ، فقال : ويحك ! كيف تقول إنّه أبخل الناس ، لو مَلَك بيتاً من تِبْر وبيتاً من تِبْن لأنفد تِبْره قبل تِبْنِه .

وهو الذى كان يكنُس بيوت الأموال ويصلّى فيها . وهو الذى قال : يا صفراء ، ويا بيضاء ، غرّى غيرى ، وهو الذى لم يخلِّفْ ميراثاً ، وكانت الدنيا كلّها بيده إلّا ما كان من الشام .

* * *

وأما الحلم والصفح فكان أحلمَ الناس عن ذَنْب ، وأصفحَهم عن مسيء ؛ وقد ظهر صحّة ماقلناه يومَ الجمل ؛ حيث ظفِر بمرْوان بن الحكم ـ وكان أعدَى الناس له ، وأشدَّهم بغضاً ـ فصفح عنه .

وكان عبد الله بن الزّبير يشتِمه على رءوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوَغْد (٤) اللئيم علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ عليه السلام يقول : مازال الزبير

---

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ، وللمفسرين فى هذه الآية أسباب أخرى للنزول ، ذكرها القرطبى فى التفسير ١٩ : ١٢٨ ، وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ٢٣١

(٢) مجلت يده ، أى ثخن جلده وتعجر وظهر فيه مايشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة ، ومنه حديث فاطمة : أنها شكت إلى على مجل يديها من الطحن . النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٠

(٣) أورده الذهبى فى المشتبه ص ٥٧٣ ، وقال : « وفد على معاوية » .

(٤) فى ب : « الوغب » ، وهما بمعنى .

رجلاً منّا أهلَ البيت حتى شبّ عبـد الله ، فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً ، فصفح عنه ، وقال : اذهب فلا أرَيَنَّك ؛ لم يزده على ذلك .

وظفِر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة ـ وكان له عدوًّا ـ فأعرض عنه ولم يقلْ له شيئاً .

وقد علمتم ما كان من عائشة فى أمره ، فلما ظفِر بها أكرمها ، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمَّمَهنّ بالعمائم وقلّدهنّ بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به ، وتأفّفت وقالت : هَتَك سترى برجاله وجنده الذين وكّلهم بى . فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهنّ ، وقلن لها : إنما نحن نسوة .

وحاربه أهل البصرة ، وضربُوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفِر بهم رفع السيف عنهم ، ونادَى مناديه فى أقطار العسكر : ألَا لا يُتبَع[(١)] مُولٍّ ، ولا يُجهَزُ على جَريح ، ولا يُقتَل مستأسر ، ومَنْ ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيّز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ أثقالَهم ، ولا سبىَ ذراريَّهم ، ولا غَنِم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو ؛ وتقيّل سنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تُنْسَ .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علىّ عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا[(٢)] لهم شِرْبَ الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان ؛ فلما رأى عليه السلام أنه الموتُ لامحالَة تقدّم بأصحابه ، وحمل على عساكر معاوية حَمَلاتٍ كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذَريع ؛ سقطت منه الرءوس والأيدى ، وملكوا عليهم

---

(١) ا : « لا يتبع مول » .　　(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « يسوغوا » .

الماء ، وصار أصحاب معاوية فى الفَلاة ، لا ماء لهم ، فقال له أصحابه وشيعتُه : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تَسقِهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدى فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أُكافئهم بمثل فعلهم ، أَفسِحوا لهم عن بعض الشَّريعة ، ففى حدّ السيف ما يغنى عن ذلك . فهذه إن نَسَبْتَها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالا وحسنا ، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلِقْ بمثلها أن تصدر عن مثله عليه السلام !

* * *

وأما الجهاد فى سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيّد المجاهدين ؛ وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ! وقد عرفتَ أنّ أعظمَ غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية فى المشركين بدر الكبرى ؛ قُتِل فيها سبعون من المشركين ، قَتَل علىّ نصفَهم ، وقَتَل المسلمون والملائكة النصف الآخر . وإذا رجعتَ إلى مغازى محمد بن عمر الواقدىّ وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذُرىّ وغيرها علمت صحة ذلك ؛ دعْ مَن قتله فى غيرها كأُحُد والخندق وغيرها ؛ وهذا الفصل لامعنى للإطناب فيه ؛ لأنه من المعلومات الضرورية ، كالعِلم بوجود مكّة ومصر ونحوها .

* * *

وأمّا الفصاحةُ فهو عليه السلام إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ؛ وفى كلامه[1] قيل : دون كلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين . ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . وقال ابن نُباته[2] : حفظت من الخطابة كنزاً لايزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علىّ بن أبى طالب .

ولما قال مِحفن بن أبى مِحفن لمعاوية : جئتك من عند أعْيَا الناس ، قال له : ويحك !

(١) ب : « وعن كلامه » . (٢) هو عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن إسماعيل الفارقى الجذامى.

كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره . ويكفى هذا الكتاب الذى نحن شارحوه دلالة على أنه لايجارَى فى الفصاحة ، ولايبارَى فى البلاغة . وحسبك أنه لم يدوَّنْ لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشْر ولا نصف العُشْر مما دُوِّن له ، وكفاك فى هذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ فى مدحه فى كتاب "البيان والتبيين" وفى غيره من كتبه .

***

وأما سجاحة الأخلاق ، وبِشْر الوجه ، وطلاقة المحيّا والتبسم ، فهو المضروبُ به المثل فيه ؛ حتى عابه بذلك أعداؤه ؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دُعابة شديدة . وقال علىّ عليه السلام فى ذاك : عجباً لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فىّ دعابة ، وأنّى امرؤ تِلْعابة ، أعافِس وأمارس[1] . وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر ابن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه : لله أبوك لولا دُعابة فيك ! إلا أنّ عمر اقتصر عليها ، وعمرو زاد فيها وسمّجها .

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه : كان فينا كأحدنا ، لِين جانب ، وشدّة تواضع ، وسهولة قِياد ، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه .

وقال معاوية لقيس بن سعد : رحِم الله أبا حسن ؛ فلقد كان هشًّا بشًّا ، ذا فُكاهة . قال قيس : نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزَحُ ويبتسم إلى أصحابه ، وأراك تُسِرّ حَسْواً فى ارتِغاء[2] ، وتعيبه بذلك ! أمَا والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيَبَ من ذى لِبْدتَيْن قد مسّه الطَّوى ؛ تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طَغامُ أهل الشام .

---

(١) التلعابة ، بفتح التاء وكسرها : الكثير اللعب والمرح . والمعافسة : الملاعبة أيضا . والممارسة : ملاعبة النساء . والخبر أورده ابن الأثير فى النهاية ١ : ١١٧ ، و٣ : ٥٩ ، ١١٠ ، و٤ : ٥٩ ، ٨٩

(٢) فى المثل : « هو يسر حسوا فى ارتغاء » ، يضرب لمن يظهر أمرا وهويريد غيره . اللسان ١٩ : ٤٦ .

وقد بقىَ هذا الخُلُق متوارَثاً متناقَلا فى محبِّيه وأوليائه إلى الآن ، كما بقىَ الجفاء والخشونة والوعورة فى الجانب الآخر . ومَنْ له أدنى معرفة بأخلاق النـاس وعوائدهم يعرف ذلك .

***

وأمّا الزهد فى الدنيا فهو سيّد الزهاد ، وبدَل الأبدال ، وإليه تشدُّ الرحال ، وعنده تُنفَضُ الأحلاس ؛ ما شبِعَ من طعام قطّ . وكان أخشنَ الناس مأكلا وملبساً ؛ قال عبد الله بن أبى رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدّم جِراباً مختوماً ، فوجدنا فيه خبزَ شعير يابساً مرضوضاً ، فقدَّم فأكل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فكيف تختمِه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلُتّاه بسمن أو زيت .

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى ، ونعـلاه من ليف . وكان يلبَس الكِرْباسَ[1] الغليظ ، فإذا وجد كمه طويلا قطعه بشَفرة ، ولم يخِطْه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سَدًى لا لُحْمَة له . وكان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو بملح ، فإن ترقّى عن ذلك فببعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل . ولا يأكل اللحم إلّا قليلا ، ويقول : لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان . وكان مع ذلك أشدّ الناس قوّة وأعظمهم أيْداً ، لا يُنقِض[2] الجوع قوّته ، ولا يَخُوّن[3] الإقلالُ مُنّته . وهو الذى طلّق الدنيا ، وكانت الأموال تُجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرّقها ويمزقها ، ثم يقول :

هــــذا جَنَاىَ وخِيارُه فيه إذْ كُلّ جانٍ يدُه إلى فيه[4]

(١) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض ، معرب .

(٢) ب ، ج : « ينقص » .

(٣) يخون : ينقص ، وفى ب : «يخور » ، وماأثبته عن ا ، ج .

(٤) البيت أنشده عمرو بن عدى حينما كان غلاما ، وكان يخرج مع الخـدم يجتنون للملك (جذيمة الأبرش) الكمأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقى إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتى به كما هو ، وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وحديث على ورد مفصلا فى حلية الأولياء ١ : ٨١ .

وأمّا العبادة فكان أعبدَ الناس وأكثرَهم صلاة وصوماً ؛ ومنه تعلّم الناس صلاة الليل ، وملازمة الأوراد وقيام النافلة ؛ وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبْسَطُ له نِطَعٌ بين الصفّين ليلة الهرير ، فيصلي عليه وِرْدَه ، والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيهِ يميناً وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ، ولا يقوم حتى يفرُغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثَفِنَة البعير لطول سجوده !

وأنت إذا تأمّلت دعواتِه ومناجاتِه ، ووقفتَ على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزّته والاستخذاء له ، عرفتَ ماينطوي عليه من الإخلاص ، وفهمت من أيّ قلبٍ خرجتْ ، وعلى أيّ لسان جرت !

وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام — وكان الغايةَ في العبادة : أين عبادتك من عبادة جَدّك ؟ قال : عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب ؛ اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أوّلُ مَنْ جَمَعه ؛ نقلوا كلّهم أنّه تأخّر عن بيعة أبي بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة ؛ بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن ؛ فهذا يدلّ على أنه أوّلُ مَن جمع القرآن ؛ لأنه لو كان مجموعاً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما احتاجَ إلى أن يتشاغل[1] بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله . وإذا رجعتَ إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ؛ كأبي عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبي النَّجود وغيرهما ؛ لأنهم يرجعون إلى أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ القارئ ،

(١) ب : « تشاغل » .

وأبو عبد الرحمن كان تلميذه ، وعنه أخذ القرآن ؛ فقد صار هذا الفنّ من الفنون التى تنتهى إليه أيضاً ، مثل كثير مما سبق .

* * *

وأمّا الرأىُ والتدبير فكان من أسَدّ الناس رأياً ، وأصحّهم تدبيراً ؛ وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أنْ يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرْس بما أشار . وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، ولو قبلها لم يحدُث عليه ما حدث . وإنّما قال أعداؤه : لا رأىَ له ؛ لأنه كان متقيّداً بالشريعة لا يرى خلافَها ، ولا يعمل بما يقتضى الدّينُ تحريمه . وقد قال عليه السلام : لولا الدينُ والتّقى لكنتُ أدهى العرب . وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى مايستصلِحُه ويستوفقه ؛ سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن ؛ ولا ريب أنّ مَنْ يعمل بما يؤدّى إليه اجتهاده ، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه ، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب ، ومَن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتشار أقرب .

* * *

وأما السياسةُ فإنه كان شديدَ السياسة ، خشِناً فى ذات الله ، لم يراقب ابنَ عمّه فى عمل كان ولّاه إياه ، ولا راقب أخاه عَقيلا فى كلام جَبَهه به . وأحرق قوماً بالنار ، ونقض دار مَصْقَلة بن هُبَيرة ودار جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وقطع جماعةً وصلب آخرين .

ومن جملة سياسته فى حروبه أيام خلافته بالجمل وصِفّين والنهروان ، وفى أقلّ القليل منها مقْنَع ، فإنّ كلّ سائس فى الدنيا لم يبلغ فتكه وبطشه وانتقامه مبلغ العشر مِمَّا فعل عليه السلام فى هذه الحروب بيدِه وأعوانه .

فهذه هى خصائص البَشَر ومزاياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعلُه ، والرئيس المقتفَى أثره .

* * *

وما أقول فى رجلٍ تحبّه أهلُ الذّمة على تكذيبهم بالنبوّة ، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة ، وتصوِّرُ ملوكُ الفرنج والروم صورتَه فى بِيَعها وبيوت عباداتها ،

حاملا سيفَه ، مشمّراً لحربه ، وتصوّر ملوكُ الترك والدّيلم صورته على أسيافها ! كان على سيفِ عَضُد الدولة بن بُوَيْه وسيف أبيه ركن الدولة صورتُه ، وكان على سيف إلب أرسلان وابنه مَلَكشاه صورته ، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر .

وما أقولُ فى رجل أحبّ كلٌّ واحدٍ أن يتكثّر به ، وودّ كلُّ أحدٍ أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه ؛ حتى الفتوّة التى أحسن ماقيل فى حدّها ألّا تستحسنَ من نفسك ماتستقبحه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، وصنّفوا فى ذلك كتبا ، وجعلوا لذلك إسنادا أنهوه إليه ، وقصَروه عليه ، وسمّوه سيّدَ الفتيان ، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المروىّ ، أنه سُمِع من السماء يوم أُحُد :

لا سيفَ إلا ذو الفقَا ... رِ ولا فَتَى إلا على

وما أقول فى رجل أبوه أبو طالب سيّدالبطْحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكة، قالوا: قلّ أنْ يسوّد فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له ، وكانت قريش تسمّيه الشيخ.

وفى حديث عفيف الكندىّ ، لما رأى[1] النبىّ صلى الله عليه وآله يصلّى فى مبدأ الدعوة ، ومعه غلام وامرأة ، قال : فقلت للعباس : أىّ شىء هذا ؟ قال : هذا ابن أخى، يزعم أنّه رسولٌ من الله إلى الناس ، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام — وهو ابن أخى أيضاً — وهذه الامرأة ، وهى زوجته — قال : فقلتُ : ماالذى تقولونه أنتم ؟ قال : ننتظر مايفعل الشيخ — يعنى أباطالب. وأبو طالب هو الذى كفَل رسولَ الله صلى الله عليه وآله صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه من مشركى قريش ، ولقِىَ لأجله عَنَتاً عظيما، وقاسى بلاء شديدا ، وصبرَ على نصره والقيام بأمره . وجاء فى الخبر أنّه لما توفّى أبو طالب أوحِى إليه عليه السلام وقيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك .

وله مع شرف هذه الأبوّة أنّ ابن عمه محمد سيدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين ، الذى قال له رسول صلى الله عليه وآله : «أشبَهْتَ خَلْقى وخُلُقى »، فمرّ يحجل

(١) الخبر فى أسد الغابة ٣ : ٤١٤ مع اختلاف فى الرواية .

فرحاً ؛ وزوجته سيدة نساء العالمين ، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة ؛ فآباؤه آباء رسو ، الله ، وأمهاته أمهات رسول الله ، وهو مسوط بلحمه ودمه ، لم يفارقه منذ خلق اللهآدم إلى أن مات عبدالمطلب بين الأخوين عبد الله وأبى طالب ؛ وأمّهما واحدة ، فكان منهم سيّدَا الناس ؛ هذا الأول وهذا التالى ، وهذا المنذر وهذا الهادى !

وما أقول فى رجل سَبَق الناس إلى الهدى ، وآمن بالله وعبدَه وكلّ من فى الأرض يعبد الحجر ، ويجحد الخالق ؛ لم يسبِقْه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير محمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

ذهب أكثر أهلِ الحديث إلىأنه عليه السلام أوّل الناس اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وآله إيماناً به،ولم يخالف فى ذلك إلا الأقلّون.وقد قال هو عليه السلام : أنا الصدّيق الأكبر؛ وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس ، وصلّيت قبل صلاتهم ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك وعلمه واضحاً . وإليه ذهب الواقدى وابن جرير الطبرىّ ، وهوالقول الذى رجحه ونصره صاحب كتاب " الاستيعاب "[1]

ولأنّا إنما نذكر فى مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عَنّت بالعَرَض لا بالقصد وجب أن نختصر ونقتصر ، فلو أردنا شرحَ مناقبه وخصائصه لاحتجْنا إلى كتاب مفرد يماثل حَجْم هذا بل يزيد عليه ، وبالله التوفيق[2] .

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر النمرى القرطبي ٢:٤٥٧ .

(٢) وانظر ترجمته وأخباره أيضا فى أسد الغابة ٤ : ١٦ـ٤٠ ،والاستيعاب ٣ : ١٠٨٩ـ١١٣٣ ، والإصابة ٤ : ٢٦٩ ـ ٢٧١ ، وإنباه الرواة ١ : ١٠ ـ ١٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩١ـ ٢٠٧ ، وتاريخ بغداد ١ : ١٣٣ ـ ١٣٨ ، وتاريخ أبى الفدا ١ : ١٨١ ـ ١٨٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨٨ ـ ٩١ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٢٢ ـ ٣٦١ ، و ٨ : ١ ـ ١٣ ، وتذكر الحفاظ ١ : ١٠ ـ ١٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ٣٤٤ ـ ٣٤٩ ، وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٣٤ ـ ٣٣٩ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ ـ ٨٧ ، والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ ـ ٢٤٩ ، وشذرات الذهب ١ : ٤٩ـ٥١ ، وصفوة الصفوة ٣ : ١١٩ ـ ١٤٤ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ٣٣٧ / ٣ : ١٩ ٦ : ١٢ ، وطبقات القراء لابن الجزرى ١ : ٥٤٦ ـ ٥٤٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٥ ـ ٥٠ والمعارف ٢٠٣ ـ ٢١٨ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ٤١ ـ ٥٠ ،ومعجم الشعراء ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، ومقاتل الطالبيين ٢٤ ـ ٤٥ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١١٩ ـ ١٢٠.

القول فى نسب الرضىّ أبى الحسن رحمه الله وذكر طرف من خصائصه ومناقبه

هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام . مولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليلَ القدر ، عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس ودولة بنى بُوَيْه، ولُقّب بالطاهر ذى المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطّاهر الأوحد، وولىَ نقابة الطالبيّين خمس دفعات، ومات وهو متقلّدها بعد أن حالفته الأمراض، وذهب بصره ، وتوفِّىَ عن سبع وتسعين سنة ، فإن مولده كان فى سنة أربع وثلثمائة ، وتوفِّىَ سنة أربعمائة . وقد ذكر ابنه الرضىّ أبو الحسن كميّة عمره فى قصيدته التى رثاه بها ، وأولها :

وَسَمَتْكَ حَالِيَةُ الربيع الْمُرْهِمِ ... وسقَتْكَ ساقيةُ الغَمَامِ الْمُرْزِمِ (1)
سَبْعٌ وتسعون اهتبلْنَ لكَ العِدَا ... حتى مَضَوْا وغبرتَ غيرَ مذمَّمِ
لم يلحقوا فِيهَا بشأوكَ بَعْدَ مَا ... أمَلُوا فعاقهمُ اعتراضُ الأزْلَمِ (2)
إلا بقايا من غُبارك أصْبَحت ... غُصَصًا وأقذاءً لعينٍ أو فَمِ
إن يَتبعوا عَقِبَيْكَ فى طلب العلا ... فالذئب يَعْسِل فى طريق الضَّيْغَمِ (3)

ودفن النقيب أبو أحمد أولا فى داره ، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام .

وهو الذى كان السفيرَ بين الخلفاء وبين الملوك من بنى بُوَيه والأمراء من بنى حَمْدان وغيرهم وكان مبارَكَ الغرّة ميمونَ النّقيبة ، مَهِيبًا نبيلا ؛ ماشرع فى إصلاح أمر فاسد

---

(1) ديوانه ، لوحة ١٥٣ .

(2) الأزلم : الدهر .

(3) عسل الذئب : مضى مسرعا واضطرب فى عدوه .

إلا وصَلَح على يديه ، وانتظم بحسن سفارته ، وبركة هِمّته ، وحسنِ تدبيره ووساطته . ولاستعظامِ عَضُد الدولة أمرَه ، وامتلاءِ صدرِه وعينه به حين قدم العراق ما[1] قبض عليه وحَمَله إلى القلعة بفارس ؛ فلم يزل بهـا إلى أن مات عضد الدولة ، فأطلقه شرفُ الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة ، واستصحبه فى جملته حيث قدم إلى بغداد ، وملك الحضْرة . ولما توفِّىَ عضد الدولة ببغداد كان عمرُ الرضىّ أبى الحسن أربع عشرة سنة ، فـكتب إلى أبيه وهو معتقَل بالقلعة بشِيراز :

أَبْلِغَا عَنِّىَ الحسينَ أَلُوكاً ... أنّ ذا الطود بَعْدَ عَهْـدِكَ ساخا [2]
والشِّهابَ الّذى اصطليتَ لظَـــاه ... عَـكَسَتْ ضوءَهُ الخطوبُ فَبَاخَا [3]
والفَنِيقَ الّذِى تَذَرّع طــــول الْ ... أرضِ خوّى به الرّدَى وأناخَا [4]
إن يَرِدْ موردَ القذى وهو راضٍ ... فبما يـكرع الزلال النُّقَـــاخا [5]
والعُقَابَ الشَّغْواءُ أهبطهـــا النِّيــقُ ... وقد أَرْعَتِ النجوم صِمَاخا [6]
أعجلتهـــــا المنونُ عنّا ولـكن ... خلّفت فى ديارنا أفراخـــــا
وعلى ذاك فالزمانُ بهمْ عا ... دَ غُلاَماً من بعــــد ما كان شاخا

وأمّ الرضىّ أبى الحسن فاطمة بنت الحسين [بن أحمد][7] بن الحسن الناصر الأصمّ، صاحب الدَّيْلم ، وهو أبو محمـد الحسن بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن عمر بن علىّ ابن أبى طالب عليهم السـلام . شيخ الطالبيّين وعالمهم وزاهدهم ، وأديبهم وشاعرهم ،

(١) ما هنا مصدرية .
(٢) لوحة ١٨٢ ، والألوك : الرسالة .
(٣) باخ : سكن وفتر .
(٤) الفنيق فى الأصل : الفحل المـكرم لا يؤذى لـكرامته على أهله ولا يركب .
(٥) النقاخ : البارد العذب الصافى .
(٦) الشغواء من وصف العقاب ؛ قيل لها ذلك لفضل فى منقارها الأعلى على الأسفل . والنيق : حرف من حروف الجبل .
(٧) تـكملة من ا ، ج .

ملكَ بلادَ الديْلمِ والجَبَل ، ويلقّب بالناصر للحقّ ، جرتْ له حروب عظيمة مع السامانيّة ، وتوفِّىَ بطَبَرِستان سنة أربع وثلاثمائة ، وسنُّه تسع وسبعون سنة . وانتصب فى منصبه الحسن ابن القاسم بن الحسين الحسَنىّ ؛ ويلقّب بالداعى إلى الحق .

وهى أمّ أخيه أبى القاسم علىّ المرتضى أيضاً .

وحفظ الرضىّ رحمه الله القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة فى مدّة يسيرة، وعرَف من الفقه والفرائض طرَفاً قويًّا . وكان رحمه الله عالما أديباً ، وشاعراً مُفْلِقاً ، فصيحَ النظم، ضخم الألفاظ ، قادراً على القريض ، متصرّفاً فى فنونه ؛ إنْ قَصَد الرِّقّةَ فى النسيب أتى بالعجَب العُجاب ، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ فى المدح وغيره[1] أتى بما لا يُشَقّ فيه غباره، وإن قصَّدَ فى المراثى جاء سابقاً والشعراء منقطِعٌ أنفاسها على أثره . وكان مع هذا مترسِّلا ذا كتابة قوية . وكان عفيفاً شريف النفس ، عاليَ الهمّة ، ملتزما[2] بالدّين وقوانينه ، ولم يقبل من أحدٍ صِلة ولا جائزة، حتى إنّه ردّ صِلات أبيه ؛ وناهيك بذلك شرفَ نفسٍ ، وشدّةَ ظَلَف[3] . فأمّا بنو بُوَيه فإنهم اجتهدوا على قبوله صِلاتهم فلم يَقْبَل .

وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب . وكان الطائع[4] أكثرَ ميلا إليه من القادر[5] ؛ وكان هو أشدّ حبًّا وأكثر ولاءً للطائع منه للقادر ؛ وهو القائل للقادر فى قصيدته التى مدحه بها ، منها :

---

(١) ساقطة من ا

(٢) ب ، ج : « مستلزما » وما أثبته عن ا

(٣) الظلف ، من ظلف نفسه عن الشىء يظلفها ظلفاً : منعها مما إليه تميل .

(٤) هو أبو بكر عبد الكريم الطائع لأمر الله ؛ بويع الخلافة له سنة ٣٦٣ ؛ ثم خلع ، وقبض عليه الديلم سنة ٣٨١ ، وبويع لأخيه القادر ؛ فحمل إليه الطائع ، وبقى عنده إلى أن توفى سنة ٣٩٣ . الفخرى : ٢٥٤ ، وابن الأثير حوادث ٣٨١ .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، المعروف بالقادر ؛ بويع له بالخلافة بعد خلع أخيه ؛ وتوفى سنة ٤٢٢ . الفخرى ٢٥٤ .

عَطفاً أميرَ المؤمنين فإنَّنا ... في دَوْحةِ العَلْياءِ لا نتفرَّق[١]

مابيننا يوم الفَخارِ تفاوتٌ ... أبداً كِلانا في المعالِي مُعْرِقُ

إلا الخلافةَ شرَّفتكَ فإنَّني[٢] ... أنَا عاطِلٌ منها وأنْتَ مطوَّقُ

فيقال : إنّ القادر قال له : على رغم أنفِ الشريف !

وذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزىّ في التاريخ في وفاة الشيخ أبى إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن محمد الطبرىّ الفقيه المالكىّ ، قال : كان شيخَ الشهود المعدّلين ببغداد ومتقدِّمَهم ، وسمع الحديثَ الكثير ، وكان كريماً مُفْضِلاً على أهل العلم ، قال : وعليه قرأ الشريف الرضىّ رحمه الله القرآن وهو شاب حَدَث [السنّ][٣] ، فقال له يوماً : أيّها الشريف ، أين مقامك؟ قال : في دار أبى بباب مُحوَّل[٤] ، فقال : مثلك لا يقيم بدار أبيه ، قد نَحلتُك دارى بالكَرْخ ، المعروفة بدار البركة . فامتنع الرضىّ من قبولها وقال له : لم أقبلْ من أبى قطّ شيئاً ، فقال : إن حقّى عليك أعظمُ من حقّ أبيك عليك ؛ لأنى حفّظتك كتاب الله تعالى . فقبلها[٥] .

وكان الرضىّ لعلو همّته تنازعُه نفسُه[٦] إلى أمورٍ عظيمة يجيش بها خاطره ، وينظِمُها في شعره ، ولا يجد من الدهر[٧] عليها مساعدة ، فيذوب كمداً ، ويفنى وجدًا ، حتى توفّىَ ولم يبلغ غرَضاً .

فمن ذلك قوله :

مَا أَنَا لِلعَلْيَاء إنْ لم يَكُنْ ... مِنْ وَلَدِى ما كان من وَالِدِى[٨]

وَلَا مَشَتْ بِى الخيلُ إنْ لم أطأْ ... سريرَ هذا الأصْيَدِ الماجدِ[٩]

(١) ديوانه ، لوحة ٤٠ .
(٢) الديوان : « ميزتك وإنى » .
(٣) تكملة من ا
(٤) باب محول ، بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو ولام : محلة كبيرة من محال بغداد ؛ كانت متصلة بالكرخ .
(٥) المنتظم (حوادث سنة ٣٩٣) .
(٦) ا : « فى » ، وما أثبته عن ب .
(٧) ا : « فى الدهر » ؛ وما أثبته عن ب .
(٨) ديوانه ، لوحة ٨٩ .
(٩) ديوانه : « الأغلب الماجد » .

ومنه قوله :

مَتَى تَرانِي مُشِيحاً فى أوائِلِهِمْ يَطْفُو بِىَ النَّقْعُ أحْيَاناً ويُخْفِينى (١)

[لَتَنْظُرَنِّى مُشِيحاً فى أوائلها يغيب بِى النقع أحياناً ويُبْدِينى](٢)

لا تعرفونىَ إلا بالطِّعان وقَدْ أضحى لِثَامِىَ مَعْصُوباً بِعِرْنينى (٣)

ومنه قوله يعنى نفسه :

فواعَجَبا ممـا يَظُنّ محمـــدٌ وللظَنٌّ فى بعض المواطن غَـدّار (٤)

يؤمّل أنّ الملكَ طوعُ يمينه (٥) ومِنْ دون مايرجو المقدِّرُ أقدار

لئن هو أعْفَى للخـلافة لِمّةً لهـا طُرَرٌ فوق الجبين وإطرارُ

ورام العلا بالشِّعرِ والشِّعر دائباً ففى النـاس شُعْرٌ خاملون وشُعّارُ (٦)

وإنى أرى زنداً تواتر قَدْحُـه ويُوشك يوماً أنْ تـكونَ له نارُ

ومنه قوله (٧)

لا هَمَّ قَلْبِى بِرُكُوبِ العُلَا يَوْماً ولا بُلَّتْ يَدِى بالسَّماح (٨)

---

(١) ديوانه ص ٥٢٢ — (مطبعة نخبة الأخيار) ، من قصيدة يذكر فيها القبض على الطائع لله، ويصف خروجه من الدار سليما ، وأنه حين أحس بالأمر بادر ونزل دجلة ، وتلوم من تلوم من القضاة والأشراف والشهود ، فامتهنوا وأخذت ثيابهم . ومطلعها :

لَوَاعِجُ الشَّوْقِ تُخْطِيهِم وَتُصْمِينِى وَاللَّوْمُ فِى الْحُبِّ يَنْهَاهُمْ وَيُغْرِينِى

وَلَوْ لَقُوا بَعْضَ مَا أَلْقَى نَعِمْتُ بِهِمْ لَـكِنَّهُمْ سَلِمُوا مِمَّا يُعَنِّينِى

(٢) هذا البيت لم يذكر فى الأصول ؛ وهو فى المطبوعة المصرية والديوان .

(٣) الديوان : « إذا » .

(٤) ديوانه ، لوحة ٢١٤ ؛ وروايته : « غرار » ، وفى ا : « بعض المواضع » .

(٥) الديوان : « يقدر أن الملك » . (٦) شعر : جمع أشعر ، وهو كثير الشعر طويله .

(٧) ديوانه ، لوحة ٨٤ ، من قصيدة أولها :

نَبَّهْتُهُمْ مِثْـلَ عَوَالِى الرِّمَاحْ إِلَى الْوَغَى قَبْـلَ نُمُومِ الصَّبَاحْ

فَوَارِس نَالُوا الْمُنَى بِالْقَنَـا وَصَافَحُوا أَغْرَاضَهُمْ بِالصِّفَاحْ

(٨) الديوان : « ولا بل يدى » .

إنْ لم أنلهـــا باشتراطٍ كما ... شئتُ على بيضِ الظُّبى وَاقْتِراحْ[1]
أفوزُ مِنهـــا باللُّبــابِ الَّذِى ... يُعْيِي الأمانى نَيْلُه والصُّرَاحْ
فَمَا الَّذِى يُقْعِدُنِى عَنْ مَدًى ... ماهو بالبَسْل ولا باللَّقـــاحْ
يَطْمَحُ من لَا مَجْدَ يَسْمُو بِهِ ... إنِّى إذاً أعْذَرُ عند الطِّمَاحْ
أمَا فتًى نال الْمُنى فاشتفى ... أو بطلٌ ذاق الرَّدى فاستراحْ !

وفى هذه القصيدة ماهو أَخْشَنُ مسًّا ، وأعظم نِكاية ؛ ولكنّا عدلنا عنه وتخطّيناه، كراهية لذكره . وفى شعره الكثير الواسع من هذا النَّمط .

* * *

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى [2] الكاتب له صديقاً ، وبينهما لُحمة الأدب ووشائجه ، ومراسلات[3] ومكاتبات بالشعر ، فكتب الصابى إلى الرضىّ فِى هذا النَّمط :

أبا حَسَنٍ لى فى الرِّجالِ فِراسَةٌ ... تَعَوَّدْتُ مِنْهَا أن تقولَ فتصدُقَا[4]
وَقَدْ خبَّرَتْنِى عَنْكَ أنَّكَ ماجِدٌ ... سَتَرْقَى إلى العلياء أبْعَدَ مُرْتقَى[5]
فوفَّيْتُك التعظيمَ قَبْلَ أوانِه ... وقلتُ : أطال الله للسَّيد البَقَـــا

(١) الظبى : جمع ظبة ؛ وهو حد السيف .
(٢) هو أبو إسحاق الصابى ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمى ؛ وكان صابئيا متشددا فى دينه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ؛ ولكنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ ، ويستعمله فى رسائله ؛ ولما مات رثاه الشريف بقصيدته الدالية المشهورة :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ ... أَرَأَيْتَ كَيْفَ خبَا ضِياءُ النَّادِى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفا يرثى صابئا ؛ فقال : إنما رثيت فضله . توفى سنة ٣٨٤ . (ابن خلكان ١ : ١٢) .
(٣) ب : « وبينهما مراسلات » .
(٤) ديوان الرضى ، لوحة ١٩٤ .
(٥) الديوان : « من العلياء » .

وأضمرْتُ منه لفظة لم أبُحْ بهـــا ... إلى أن أرى إظهارهـــا لِيَ مَطْلَقَا
فإن مِتّ أو إن عشتُ فاذكر بِشارتى ... وأوجِبْ بهـــا حَقًّا عليكَ مُحَقَّقا
وكن لِيَ فى الأولاد والأهلِ حافظاً ... إذا ما اطمأنّ الجنبُ فى مَضْجَعِ الْبَقَا

فـكتب إليه الرضىّ جوابا عن ذلك قصيدةً ، أولها :

سَنَنْتَ لهـــذا الرُّمح غَرْباً مُذَلَّقَا ... وأجْرَيْتَ فى ذَا الهُنْدُوانىّ رَوْنَقَا (١)
وَسوّمْتَ ذا الطِّرفَ الجوادَ وإنّما (٢) ... شَرَعْتَ لَهُ نَهْجاً فَخَبَّ وَأَعْنَقـــا

وهى قصيدة طويلة ثابتة فى ديوانه ، يَعِدُ فيها نفسَه ، ويَعِدُ الصابئ أيضاً ببلوغ آماله ، إن ساعد الدهرُ وتمّ المرام . وهذه الأبياتُ أنـكرها الصابى لما شاعتْ ، وقال: إنى عملتها فى أبى الحسن علىّ بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان ، كاتب الطائع؛ وما كان الأمرُ كما ادّعاه؛ ولـكنه خاف على نفسه .

* * *

وذكر أبو الحسن الصابى (٣) وابنهُ غرس النعمة محمد فى تاريخهما أنّ القادِر بالله عقد مجلسا أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسوىّ وابنه أبا القاسم المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء ، وأبرز إليهم أبيات الرضىّ أبى الحسن التى أولها :

مَامُقامِى عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِى ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنْفٌ حَمِىُّ (٤)
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بِى عَنِ الضَّيْــــمِ ... كما زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِىُّ
أىُّ عُـــذْرٍ له إلى المجد إن ذلّ ... غلامٌ فى غِمْـــدِه المَشْرَفِىُّ

(١) ديوانه ، لوحة ١٩٤ . (٢) الطرف : الفرس الأصيل .

(٣) هو هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى ، حفيد أبى إسحاق الصابى ، ذكر صاحب كشف الظنون ٢٩٠ أن ثابت بن قرة الصابى كتب تاريخاً من سنة ١٩٠ إلى سنة ٣٦٣ ؛ وذيله ابن أخته هلال ابن محسن الصابى ، وانتهى إلى سنة ٤٤٧ ، وذيله ولده غرس النعمة محمد بن هلال ، ولم يتم .

(٤) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخيار) .

أَحْمِلُ الضَّيم فى بلادِ الأعادى[1] وبمصرَ الخليفـــــةُ العَلَوِىُّ
مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا ىَ إذا ضامنِى البعيـــدُ القَصِىُّ
لَفَّ عِرْقِى بِعِرْقِهِ سيّـــدا النّا سِ جميعاً : محمـــدٌ وعَلِىُّ

وقال القادر للنقيب أبى أحمد : قل لولدك محمد : أىَّ هوانٍ قد أقام عليــه عندنا ! وأىَّ ضَيْمٍ لَقِىَ من جهتنا ! وأىّ ذلّ أصابه فى مملــكتنا[2] ! وما الذى يعمل معه صاحبُ مصر لو مضى إليه ؟ أ كان يصنع إليه أ كثرَ من صنيعنا[3] ؟ ألم نولِّه النِّقابة ! ألم نولِّه المظالم ! ألم نستخلفْه على الحرَمين والحجاز وجعلناه أميرَ الحَجِيج ! فهل كان يحصُل له من صاحب مصر أ كثرُ من هذا ! ما نظنّه كان يكون ــ لو حصل عنده ــ إلا واحداً من أبناء الطالبيِّين بمصر . فقال النقيب أبو أحمد : أمّا هذا الشعر فمّما لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطّه ، ولا يبعد أنْ يكونَ بعضُ أعدائه نَحَلَه إياه ؛ وعَزَاه إليه ، فقال القادر : إن كان كذلك ؛ فلتــكتب الآن محضراً يتضمّن القَدْح فى أنساب ولاة مصر ، ويكتب محمد خطّه فيه . فــكَتَب[4] محضراً بذلك ، شَهِد فيه جميعُ مَنْ حضر المجلس ؛ منهم النقيب أبو أحمد ، وابنه المرتضَى ، وحُمِل المحضر إلى الرضىّ ليــكتب خطّه فيه ، حَمَله أبوه وأخوه ، فامتنع من سَطْر[5] خطّه ، وقال : لا أ كتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر ، وأنــكر الشعر ، وكَتَبَ خطّه ، وأقسم فيــه أنه ليس بشعره ؛ وأنه لا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يــكتب[6] خطّه فى المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخافُ دعاةَ المصريين وغِيلتَهم لى ، فإنهم معروفونَ بذلك ، فقال أبوه : ياعجباه ! أتخافُ مَنْ بينك وبينه ستّمائة فرسخ ، ولا تخاف مَنْ بينك وبينــه مائة ذراع ! وحلف ألّا يكلمه ؛ وكذلك المرتضَى ، فَعَلا ذلك تقيّةً وخوفا من القادر ،

---

(١) الديوان : « ألبس الذل فى ديار الأعادى » .
(٢) ب : « فى ملــكنا » . (٣) ب : « ضيعتنا » .
(٤) ب : « فــكتب محضر » ، بالبناء للمجهول .
(٥) ب : « تسطير » . (٦) ب : « يسطر » .

وتسكيناً له . ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره ، وبعد ذلك بأيام صرّفه عن النّقابة ، وولاها محمد بن عمر النّهرسابسيّ [1] .

* * *

وقرأت بخطّ محمد بن إدريس الحليّ الفقيه الإماميّ، قال : حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسْفرَايينيّ الفقيه الشافعيّ ، قال : كنتُ يوماً عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة ، وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن ، فأعظمه وأجلّه ورفع من منزلته ، وخلّى ما كان بيده من الرّقاع والقصص ، وأقبلَ عليه يحادثه إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلكَ المرتضَى أبو القاسم رحمه الله ؛ فلم يعظّمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الإكرام ، وتشاغَلَ عنه برقاع يقرؤها ، وتوقيعات يُوقّع بها ، فجلس قليلاً ، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمتُ إليه وقلت له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضَى هو الفقيه المتكلّم صاحب الفنون ، وهو الأمثل والأفضل منهما ؛ وإنما أبو الحسن شاعر . قال : فقال لي : إذا انْصرف الناس وخلا المجلس أجبتُكَ عن هذه المسألة .

قال : وكنت مجمِعاً على الانصراف ، فجاءني أمْرٌ لم يكن في الحساب ، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناس واحَداً فواحداً ، فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحجّابه ، دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثرُ غلمانه ، ولم يبق عنده غيري قال لخادم : هات الكتابين اللذيْن دفعتهما إليك منذ أيام ، وأمرتُك أن تجعلَهما في السَّفَط [2] الفلانيّ . فأحضرَهما ، فقال : هذا كتاب الرضيّ ، اتصل بي أنه قد ولد له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار ، وقلت له : هذه للقابلة ، فقد جرتِ العادة أن يحمِل الأصدقاء

---

(١) النهرسابسي منسوب إلى نهرسابس ، فوق واسط بيوم (ياقوت) .

(٢) السفط بالتحريك ، كالجوالق .

إلى أخِلاّئهم وذوى مودّتهم مثلَ هذا فى مثل هذه الحال؛ فردّها وكتب إلىّ هذا الكتاب فاقرأه . قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الرّد ، وفى جُملته : إننا أهلَ بيت لا نُطلع على أحوالنا قابلةً غريبة؛ وإنما عجائزنا يتولّيْن هذا الأمرَ من نسائنا ، ولسن ممّن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صِلَة ؛ قال : فهذا هذا .

وأما المرتضَى فإننا كنا قد وزّعنا وقسّطنا على الأملاك ببادوريا تقسيطاً نصرفه فى حَفْر فُوّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلْكاً للشريف المرتضَى بالناحية المعروفة بالدّاهرية من التقسيط عشرون درهماً ، ثَمَنُها دينار واحد ، قد كتب إلىّ منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب ، فاقرأه . فقرأته ؛ وهو أكثر من مائة سَطْر، يتضمّن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها مايطول شرحه .

قال فخر الملك : فأيّهما تَرى أوْلَى بالتعظيم والتّبجيل؟ هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذى لم يُشْهَرْ إلا بالشعر خاصّة، ونفسُه تلك النفس ! فقلت: وفّق الله تعالى سيدَنا الوزير، فما زال موفّقاً؛ والله ماوضع سيدنا الوزير الأمرَ إلا فى موضعه، ولا أحلّه إلا فى محلّه . وقمت فانصرفت .

***

وتوفِّىَ الرضىّ رحمه الله فى المحرّم من سنة أربع وأربعمائة ، وحضر الوزير فخرُ الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازتَه والصلاة عليه، ودفن فى داره بمسجد الأنبار بيْن بالكَرْخ، ومضى أخوه المرتضَى من جزَعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظُرَ إلى تابوته ودفنه ، وصلّى عليه فخرُ الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى ، فألزمه بالعوْد إلى داره .

ومما رثاه به أخوه المرتضى الأبيات المشهورة التى من جملتها[1] :

يالَلرِّجال لِفَجْعَةٍ جذَمَتْ يدى ووددت لو ذهبت علىّ براسِى[2]
مازلتُ آبَى وِرْدَهَا حتى أَتَتْ[3] فحسوتُها فى بعض ما أنا حَاسى
ومَطَلْتُهَا زمناً فَلَمَّا صمّمت لم يَثْنِها مَطْلِي وطولُ مِكاسِى
لله عُمْرك من قصـــير طاهرٍ ولربّ عُمْرٍ طال بالأدناس !

* * *

وحدثنى فخار بن معدّ العلوىّ الموسوىّ رحمه الله ، قال : رأى المفيد أبو عبد الله محمد ابن النعمان الفقيهُ الإمام فى منامه كأنّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت عليه وهو فى مسجده بالكَرْخ ، ومعها ولداها : الحسن والحسين عليهما السلام ، صغيرين ، فسلّمتهما إليه ، وقالت له : علِّمهما الفقه . فانتبه متعجّباً من ذلك ، فلما تعالى النهار فى صبيحة تلك الليلة التى رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر ، وحولها جواريها ، وبين يديها ابناها : محمد الرضىّ وعلىّ المرتضى صغيرين ، فقام إليها وسلّم عليها ، فقالت له : أيّها الشيخ ، هـذان ولدَاى قد أحضرتُهما لتعلِّمهما الفقه ، فبكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام ، وتولّى تعليمهما الفقه[4] ، وأنعم الله عليهما ، وفتحَ لهما من أبواب العلوم والفضائل مااشتهر عنهما فى آفاق الدنيا ؛ وهو باقٍ ما بَقِىَ الدهر[5]

---

(١) ب : « التى من جملة مرثيته » ؛ وما أثبته عن ا .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣١ .

(٣) الديوان : « يازلت أحذر وردها » .

(٤) ساقطة من ب

(٥) وانظر ترجمة الشريف الرضى أيضا فى أخبار المحمدين من الشعراء ٨٨ — ٨٩ ، وإنباه الرواة ٣ : ١١٤ — ١١٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٧ : ٢٨٠ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ — ٢٤٧ ، وتاريخ أبى الفدا ٢ : ١٤٥ ، وتاريخ ابن كثير ١٢ : ٣ — ٤ ، وابن خلكان ٢ : ٢ — ٤ ، ودمية القصر ٧٣ — ٧٥ ، وروضات الجنات ٥٧٣ — ٥٧٩ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٨٢ — ١٨٤ ، وعيون التواريخ (وفيات ٤٠٦) ، ولسان الميزان ٥ : ١٤١ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٨ — ٢٠ ، والمنتظم لابن الجوزى (وفيات ٤٠٦) ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٣٧٤ — ٣٧٩ ، ويتيمة الدهر ٣ : ١١٦ — ١٣٥ . وله أيضا ترجمة فى مقدمة كتابه المجازات النبوية (طبع بغداد) منقولة عن كتاب « تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام » ، بتحقيق السيد حسن صدر الدين .

القول فى شرح خطبة نهج البلاغة

قال الرضىّ رحمه الله :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمّا بعدَ حَمْدِ(١) الله الّذى جَعَلَ الحمدَ ثمناً لنعمائِه ، ومَعاذاً مِنْ بَلائِه ، ووَسيلًا إلى جِنانِه ، وسَبَباً لزيادَة إحسانه . والصَّلاةُ على رسُوله نبىّ الرَّحمة ، وإمام الأئمة ، وسِراجِ الأمّة ، المنتجَب مِنْ طينة الكَرَم ، وسُلالةِ المجْد الأقدَمِ ، ومَغرِس الفَخار المُعْرِق ، وفَرْع العلاء المُثمر المورِق ؛ وعلى أهلِ بيته مصابيح الظُّلَم ، وعِصَم الأمَم ، ومَنَار الدِّين الْوَاضِحَة ، ومثاقيلِ الفَضْل الرَّاجِحَة . فصلّى الله عليهم أجْمَعِينَ ، صَلَاةً تَكونُ إزاءَ لِفَضْلِهِمْ ، ومُكافَأَةً لِعَمَلِهِمْ ، وكِفاءً لطِيب أصْلِهِمْ وفَرْعِهِمْ ، ما أنار(٢) فَجْرٌ طَالِعٌ ، وخَوَى نَجْمٌ سَاطِعٌ(٢) .

* * *

الشرح :

اعلم أنى لا أتعرّضُ فى هذا الشرح للكلام فيما قد فرغ منه أئمةُ العربية ، ولا لتفسير ما هو ظاهر مكشوف ؛ كما فعل القُطْب الرّاوندىّ ؛ فإنه شَرَع أولا فى تفسير قوله : « أمّا بعد » ، ثم قال : هذا هو فصل الخطاب ، ثم ذكر ما معنى الفصل ، وأطال فيه ، وقسّمه أقساماً ، يشرح ماقد فرّع له منه ، ثم شرح الشرح . وكذلك أخذ يفسّر قوله : « من بلائِه » ، وقوله : « إلى جِنانه » ، وقوله : « وسبباً » ، وقوله : « المجد » ، وقوله :

(١) ا : « حمداً » .

(٢ ـ ٢) ب : « ما أنار فجر ساطع ، وخوى نجم طالع » . وكذا فى مخطوطة النهج .

« الأقدم » ، وهذا كلّه إطالةٌ وتضييعٌ للزّمان من غير فائدة ؛ ولو أخذنا بشرح[1] مثلِ ذلك لوجب أن نشرح لفظة « أمّا » المفتوحة ، وأنْ نذكر الفصل بينها وبين « إمّا » المكسورة ، ونذكر : هل المكسورة من حروف العطف أولا ؟ ففيه خلاف ، ونذكر هل المفتوحة مركبة أو مفردة ؟ ومهملة أو عاملة ؟ ونفسرّ معنى قول الشاعر :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتَ ذا نفرٍ ... فإنّ قومِيَ لَمْ تأكُلْهُمُ الضَّبُعُ[2]

بالفتح ؛ ونذكر « بَعْدُ » لم ضُمّت إذا قطعت عن الإضافة ؟ ولِمَ فتحت ها هنا حيث أضيفت ؟ ونخرج عن المعنى الذى قصدناه من موضوع الكتاب إلى فنون أخرى قد أحكمها أربابُها .

ونبتدئُ الآن فنقول : قال لى إمام من أئمة اللغة فى زماننا : هو الفِخار ، بكسر الفاء ، قال : وهذا ممّا يغلَط فيه الخاصّة فيفتحونها ، وهو غير جائز ، لأنه مصدر «فاخر» ، وفاعَل يجيء مصدره على «فِعال» بالكسر لاغير ، نحو : قاتلت قِتالا ، ونازلت نِزالا ، وخاصمت خِصاماً ، وكافحت كِفاحاً ، وصارعت صِراعاً . وعندى أنه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة الفاء ، وتكون مصدر «فَخَر» لا مصدر «فاخر» ، فقد جاء مصدر الثلاثىّ ــ إذا كان عينه أو لامه حرف حلقٍ ــ على «فَعال» ، بالفتح ، نحو سَمَح سَماحا ، وذهب ذَهابا ؛ اللهمّ إلا أن يُنقل ذلك عن شيخ أو كتاب موثوق به نقلاً صريحاً ، فتزول الشبهة .

والعِصَم : جمع عِصْمة ، وهو ما يعتصم به . والمنار : الأعلام ، واحدها مَنارة ، بفتح الميم . والمثاقيل : جمع مثقال ، وهو مقدار وَزْن الشيء ، تقول : مثقال حبّة ، ومثقال قِيراط ، ومثقال دينار ؛ وليس كما تظنه العامة أنه اسم للدينار خاصة ؛ فقوله : « مثاقيل الفضل » ، أى زِنات الفضل ، وهذا من باب الاستعارة . وقوله : « تكون إزاءً لفضلهم » ، أى مقابلة له . ومكافأة ، بالهمز ، من كافأته أى جازيته ، وكِفاء ، بالهمز والمد ، أى نظيراً .

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصوب ، وفى باقى الأصول : « لشرح » .

(٢) البيت لعباس بن مرداس السلمى ، وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة ــ (اللسان ٨ : ١٨٣) .

وخوى النجم ، أى سقط . وطينة الكرَم : أصله . وسلالة المجد فرعه . والوَسِيل : جمع وسيلة وهو ما يُتقرَّب به ، ولو قال : « وسَبيلا إلى جِنانه » لكان حسنا ، وإنّما قصد الإغراب ، على أنا قد قرأناه كذلك فى بعض النسخ . وقوله : « ومكافأة لعملهم » إنْ أراد أن يجعلَه قرينة « لفضلهم » كان مستقبَحاً عند مَنْ يريد البديع ، لأنّ الأولى ساكنة الأوسط ، والأخرى متحرّكة الأوسط ، وأمّا من لا يقصد البديع كالكلام القديم فليس بمستقبَح . وإن لم يُرِدْ أن يجعلَها قرينة بل جعلها من حشو السجعة الثانية ، وجعل القرينة « وأصلهم » ، فهو جائز ، إلاّ أنّ السجعة الثانية تطول حدًّا . ولو قال عِوَض « لعمَلهم » ، « لِفعْلهم » لكَان حسناً .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

فإنى كنتُ فى عُنْفوان السنّ ، وغضاضة الغُصْن ، ابتدأتُ تأليفَ كتابٍ فى خَصائِصِ الأئمة عليهم السلام ، يَشْتَمِل على محاسِنِ أخْبارِهِمْ ، وجواهِرِ كَلامِهِمْ ، حَدَانى عَلَيْه غرضٌ ذكرتُه فى صَدْرِ الكتاب ، وجعلتُه أمَامَ الكلام . وفرغْتُ من الخصائصِ التى تخُصّ أميرَ المؤمنين عليًّا ، صلواتُ الله عليه ، وعاقَتْ عن إتمامِ بقيَّة الكتابِ مُحاجزاتُ الأيّام ، ومُماطَلاتُ الزّمان . وكنتُ قد بَوَّبْتُ ما خرج من ذلك أبواباً ، وفَصّلتُه فصولاً ، فجاء فى آخرِها فَصْلٌ يتضمّن محاسنَ ما نُقل عنه عليه السلام ؛ من الكَلامِ القَصير ، فى المواعِظِ والحِكَمِ والأمثال والآداب ؛ دُونَ الخُطَبِ الطَّوِيلة ، والكُتُبِ المبْسُوطة ؛ فاستحسنَ جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدّم ذكره ، معْجَبين ببدائِعِه ، ومتعجِّبين من نواصِعِه ؛ وسألونى عِنْدَ ذلك أنْ أبدأ بتأليف كتابٍ يحتوى على مُختارِ كلامِ أمير المؤمنين عليه السلام فى جميعِ فُنونه ، ومتشعِّبات غُصونه ، من خُطَبٍ وكُتبٍ ، ومواعظَ وأدبٍ ؛ عِلماً أنّ ذلك يتضمّن من عَجَائبِ البَلاغةِ ، وغَرائبِ الفَصاحَةِ ، وجواهِرِ العربية ، وثواقبِ الكَلِمِ الدينية والدُّنياوِيَّة ؛ ما لا يوجدُ مجتمعاً فى كلامٍ ، ولا مجموعَ الأطراف

فى كتابٍ ؛ إذْ كانَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلاَم مَشْرَع الْفَصَاحَة ومَورِدَها ، ومَنْشَأ الْبَلاَغَةِ ومَوْلِدها ؛ ومنه عليه السلام ظهرَ مَكْنُونُها ، وعنه أخِذَتْ قوانينُها ، وعلى أمثلتِه حَذَا كلّ قائِل خطيبٍ ، وبكلامِه استعانَ كلّ واعظٍ بليغ ؛ ومع ذلك فقد سَبَق وقصّروا ، وتقَدّم وتأخّروا ؛ لأنّ كلامَه عليه السلام الكلامُ الذى عليه مَسْحةٌ من العلم الإلٰهىّ ، وفيه عَبْقَةٌ من الكلام النبوىّ .

* * *

الشَّرْحُ :

عُنْفوان السنّ : أوّلها . ومُحاجزات الأيام : ممانعاتها . ومُماطلات الزمان : مدافعاته.

وقوله : «معجَبين» ثم قال : و « متعجِّبين » ، فـ « معجَبين » من قولك : أعجب فلان برأيه وبنفسه فهو معجَب بهما ، والاسم العُجْب بالضم ؛ ولا يكون ذلك إلا فى المستحسَن ، و « متعجِّبين » من قولك : تعجّبت من كذا ، والاسم العَجَب . وقد يكون فى الشىء يُستحسن ويُستقبح ويُتَهوّل منه ويستغرب ؛ ومراده هنا التهوّل والاستغراب ؛ ومن ذلك قول أبى تمام :

أَبْدَتْ أَسًى إذْ رَأَتْنِى مُخْلِسَ القَصَبِ وآل ما كان من عُجْبٍ إلى عَجَبِ [(١)]

يريد أنها كانت معجَبة به أيام الشبيبة لحسنه ؛ فلما شاب انقلب ذلك العُجْب عَجَباً ؛ إما استقباحاً له أو تهوّلاً منه واستغراباً . وفى بعض الروايات : « معجِّبين ببدائعه » ، أى أنّهم يعجِّبون غيرهم . والنواصع : الخالصة . وثواقب الكلم : مضيئاتها ؛ ومنه الشهاب الثاقب . وحذا كلّ قائل : اقتفى واتّبع . وقوله : «مَسْحة» يقولون : على فلان مَسْحة من جمال ؛ مثل قولك : شىء ، وكأنه هاهنا يريد ضوءاً وصِقالا . وقوله : « عَبْقة » ، أى رائحة ،

(١) ديوانه ١ : ١١٥ ؛ مطلع قصيدة يمدح فيها الحسن بن سهل . المخلس ، من قولهم : أخلس رأسه إذا صار فيه بياض وسواد . والقصب : جمع قصبة ؛ وهى خصلة من الشعر تجعل كهيئة القصبة الدقيقة . (من شرح الديوان) .

ولو قال عِوض « العلم الإلٰهىّ » : « الكتاب الإلٰهىّ » لكان أحسن .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

فأجبتُهم إلى الابتداء بذلكَ ، عالماً بما فيه من عَظيمِ النَّفْعِ ، وَمَنْشُور الذِّكْرِ ، وَمَذْخُورِ الأجْرِ . واعتمدتُ بهِ أن أبيّن مِنْ عظيم قَدْر أمير المؤمنين عليه السَّلاَمُ فى هذهِ الْفَضِيلةَ ، مُضَافةً إلى المحاسنِ الدّثِرة ، والفَضائل الجمّة ، وأنّه انفرَدَ ببلوغ غايَتِها عن جَميع السَّلَفِ الْأَوَّلِينَ ، الَّذِين إنَّما يُؤثَرُ عَنْهُمْ مِنْهَا القليلُ النَّادِرُ ، والشَّاذّ الشاردُ ؛ فأمّا كلامُه عليه السلام فهو الْبَحْرُ الَّذى لا يُساجَل ، والجمّ الذى لا يُحَافَل ، وأردْتُ أن يسوغَ لِى التمثُّل فى الافتخارِ بهِ صلواتُ الله عليه بقول الفَرَزْدَق :

أُولئكَ آبائى فجِئْنِى بمِثْلِهِمْ إذَا جَمَعَتْنَا يَاجَرِيرُ الْمَجَامِعُ

* * *

الشّـرْحُ :

المحاسن الدّثِرَة : الكثيرة ، مالٌ دَثِر ، أى كثير ، والجمّة مثله . ويؤثر عنهم ، أى يحكَى وينقل ، قلته آثراً ، أى حاكياً . ولا يساجَل ، أى لا يكاثَر ، أصلُه من النزْع بالسَّجْل ، وهو الدّلو الملىء[1] ، قال :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُسَاجِلْ ماجِداً يملأُ الدَّلْو إلى عَقْدِ الكَرَبْ[2]

ويروى : « ويساحَل » ، بالحاء ، من ساحل البحر وهو طرَفه ، أى لا يشابه فى بُعْد ساحِله . ولا يحافَل ، أى لا يفاخَر بالكثرة ، أصلُه من الحفْل ، وهو الامتلاء ، والمحافلة : المفاخرة بالامتلاء ، ضرع حافل ، أى ممتلىء .

---

(١) الدلو ، تذكر وتؤنث .

(٢) للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب ، اللسان ١٣ : ٣٤٦ ، ونقل عن ابن برى : « أصل المساجلة ، أن يستقى سافيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله مثل مايخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ؛ فضربته العرب أصلا للمفاخرة » .

والفرزدق ، همّام بن غالب بن صعصعة التميمى . ومن هذه الأبيات (١) :

ومنّا الذى اختيرَ الرجالَ سَماحَـةً ... وجُـوداً إذا هبّ الرياحُ الزعازعُ (٢)

ومنّا الّذى أحيا الوئيـدَ وغالبٌ ... وعَمْرٌو ؛ ومنّا حاجِبٌ والأقارعُ (٣)

ومنّا الذى قاد الجيادَ على الوجا (٤) ... بنجْرانَ حـتّى صبّحته الترائعُ

ومنّا الذى أعطَى الرّسُولُ عَطيّـةً ... أسارى تميمٍ والعيـونُ هوامعُ

الترائع : الكرام من الخيل . يعنى غزاةَ الأقرع بن حابس قبـل الإسلام بنى تَغْلِب بنَجْران ، وهو الذى أعطاه الرسولُ يوم حُنَين أسارى تميم —

ومنّا غـداةَ الرّوْع فرسانُ غارةٍ ... إذا مَنَعَتْ بعد الزِّجاج الأشاجِعُ (٥)

ومنّا خطيب لا يعاب وحامِـلٌ ... أغرّ إذا التفّتْ عليـهِ المجامعُ (٦)

— أى إذا مُدّت الأصابع بعد الزِّجاج إتماماً لها ؛ لأنها رماح قصيرة . وحامل ، أى حاملٌ للدِّيات —

---

(١) من نقيضته لقصيدة جرير التى أولها :

ذَكَرْتُ وِصَالَ الْبِيضِ وَالشَّيْبُ شَائِعُ ... وَدَارُ الصِّبَا مِنْ عَهْدِهِنَّ بَلاَقِـعُ

وهما فى النقائض ٦٨٥ — ٧٠٥ ؛ ويخلف ترتيب القصيدة هنا عن ترتيبها هناك .

(٢) رواية النقائض : « منا الذى اختير » ؛ بحذف الواو ؛ وهو مايسمى بالخرم ؛ فتحذف الفاء من « فعولن » ؛ فى أول البيت من القصيدة . وانظر خبر غالب بن صعصعة أبو الفرزدق ، مع عمير بن قيس الشيبانى وطلبة بن قيس بن عاصم المنقرى فى الأغانى ١٩ : ٥ (طبعة الساسى) .

(٣) الذى أحيا الوئيد ؛ هو جده صعصعة بن ناحية بن عقال ، وغالب أبوه ، وعمرو بن عمرو بن عدس ، والأقارع : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال ؛ وانظر أخبار هؤلاء جميعا فى شرح النقائض .

(٤) الوجا : الحفا .

(٥) منعت ، يريد ارتفعت بالسيوف بعد الطعان بالرماح . والأشاجع : عصب ظاهر الكف . وفى الديوان « فتيان غارة » .

(٦) قوله : « خطيب » يعنى شبة بن عقال بن صعصعة . والحامل ، يعنى عبد الله بنا لحكيم بن نافذ من بنى حوى بن سفيان بن مجاشع ، الذى حمل الحمالات يوم المربد حين قتل مسعود بن عمرو العتكى ، وكان يقال له القرين . والأغر من الرجال : المعروف ، كما يعرف الفرس بغرته فى الخيـل ؛ يقول : فهو معروف فى الكرم والجود . (من شرح النقائض) .

أولئكَ آبائِي فجئْني بمِثلِهِمْ ... إذَا جَمعتْنَا يَاجَريرُ المجامعُ

بهم أعتلى ماحَمّلتنيهِ دارمٌ[1] ... وَأَصْرَعُ أقرانى الّذين أصَارعُ

أخَذْنَا بآفاقِ السّماءِ عليكُمُ ... لَنَا قمرَاها والنُّجُومُ الطَّوالعُ[2]

فَوَاعجبا حتى كُلَيْبٌ تَسبُّنِى ... كأنّ أباهَا نَهْشَلٌ أو مُجاشعُ !

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

ورأيت كلامَه عليه السّلاَم يدورُ على أقطاب ثلاثة: أوّلها الخطَب والأوامِر، وثانيها الكُتُب والرّسائلُ، وثالثُها الحِكَم والمواعظ؛ فأجْمعْتُ بتوفيقِ اللهِ سُبْحانَهُ على الابتِدَاء باختِيارِ محَاسِنِ الخطَبِ ، ثُمَّ محَاسِنِ الكُتُبِ ، ثم محاسِنِ الحِكَمِ والأدَبِ ، مُفرِداً لكلّ صِنفٍ من ذلك باباً ، ومفصِّلا فيه أوراقاً ، ليكونَ مقدّمة لاستدراكِ مَاعَسَاهُ يشذّ عَنِّى عاجِلاً ، ويقَعُ إلىّ آجلا . وإذا جاء شىءٌ من كلامهِ الخارجِ فى أثناء حِوارٍ ، أو جوابِ سؤالٍ ، أو غرضٍ آخرَ من الأغراض فى غَيْر الأنحاء التى ذكرتُها ، وقرّرْتُ القاعدةَ عليها، نَسَبْتُهُ إلى ألْيَقِ الأبوابِ بِهِ ، وأشدِّها ملاءمةً لغرَضِهِ. وربّما جاءفيما أختارُه من ذلك فصولٌ غيرُ مُتّسقة ، ومحَاسنُ كَلِمٍ غير مُنتظمة ، لأنّى أوردُ النُّكَت واللُّمَعَ، ولا أقصِد التّتَالِىَ والنّسَقَ .

الشّرْحُ :

قوله : « أجمعت على الابتداء » ، أى عزمت . وقال القُطب الراوندىّ : تقديره : أجمعتُ عازماً على الابتداء ، قال : لأنه لا يقالُ إلا أجمعت الأمرَ ، ولا يقال : أجمعت على الأمر ، قال سبحانه : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾[3] .

---

(١) النقائض : « ماحملتنى مجاشع » .

(٢) قراها : الشمس والقمر ، فغلب المذكر مع حاجته إلى إقامة البيت .

(٣) سورة يونس ٧١ .

هذا الذى ذكره الرّاوندىّ خلاف نصّ أهل اللغة ؛ قالوا : أجمعتُ الأمرَ ، وعلى الأمر ؛ كلّه جائز ، نصّ صاحب " الصّحاح "[1] على ذلك .

والمحاسن : جمع حَسَن ، على غير قياس ، كما قالوا : اللامح والمذاكر[2] ؛ ومثله المقابح . والحِوار ، بكسر الحاء : مصدر حاورتُه ، أى خاطبته ، والأنحاء : الوجوه والمقاصد . وأشدّها مُلامحة لغرضه ، أى أشدّها إبصاراً له ونظرا إليه ، من لمحت الشىء ؛ وهذه استعارة . يقال : هذا الكلام يَلمح الكلامَ الفلانىّ ، أى يُشابهه ؛ كأنّ ذلك الكلام يُلْمَحُ ويُبصَر من هذا الكلام .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

ومِنْ عجائبه عليه السلام الّتى انفرد بها ، وأمِنَ المشاركةَ فيها ؛ أنّ كلامَه الواردَ فى الزّهد والمواعظ ، والتّذكير والزّواجر ؛ إذا تأمّله المتأمّل ، وفكّر فيه المُفكّر[3] ، وخلَع من قلبِه أنّهُ كلامُ مثلِه ، ممّن عَظُمَ قَدْرُه ونفَذَ أمرُه ، وأحاطَ بالرّقاب مُلْكه ، لم يعترضْه الشكّ فى أنّه كلامُ مَنْ لا حظّ له فى غيرِ الزّهادة ، ولا شُغْلَ له بغيرِ العِبادة ، قد قَبَع فى كِسْر بيتٍ ، أو انقطع إلى[4] سَفْح جبلٍ ، لا يَسْمعُ إلا حسَّه ، ولا يَرى إلا نفسَه ؛ ولا يكادُ يوقِن بأنه كلامُ مَنْ يَنغمِس فى الحرب ، مُصْلِتاً سيفَه ، فيَقُطُّ الرّقابَ ، ويُجَدِّلُ الأبطالَ ، ويعودُ به يَنْطُفُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ؛ وهو مع تلك الحالِ زاهدُ الزّهاد ، وبَدَلُ الأبْدَال . وهذِه من فضائله العجيبة ، وخَصائصه اللّطيفة ، التى جَمَع بها بين الأضْداد ، وألّف بين الأشتَات ، وكثيراً ما أذاكِرُ الإخوان بها ، وأستخرجُ عَجَبَهم منها ؛ وهى موضع العِبْرَة بها[5] ، والفِكْرَة فيها .

(١) الصحاح ٣ : ١١٩٨
(٢) ب : « المذاكير » ، وما أثبته عن ا .
(٣) ب : « المتفكر » وما أثبته عن ا
(٤) مخطوطة النهج : « فى سفح » .
(٥) كلمة « بها » ساقطة من ب ؛ وهى فى ا .

الشرح :

قَبَع القُنْفذ يقْبَع قُبوعاً ، إذا أدخل رأسَه فى جلده ، وكذلك الرّجل إذا أدخل رأسه فى قميصه ؛ وكلّ مَنِ انزوى فى جُحْر أو مكان ضَيّق فقد قَبَع . وكِسْر البيت : جانب الخِباء . وسفح الجبل : أسفله ، وأصلُه حيث يَسْفَحُ فيه الماء . ويقطّ الرقاب : يقطعها عَرْضاً — لا طولا كما قاله الرّاوندىّ — وإنما ذاك القَدّ ، قددته طولا ، وقططتُه عرضاً . قال ابن فارس صاحب " المجمل " : قال ابنُ عائشة : كانتْ ضربات علىّ عليه السلام فى الحرب أبكاراً ، إن اعْتلى قَدّ ، وإن اعترض قَطّ . ويُجَدِّل الأبطال : يُلقِيهم على الجَدالة ، وهى وجهُ الأرض . وينطُف دما : يقطر . والأبدال : قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم ، إذا مات أحدُهم أبدَل الله مكانه آخر ، قد وَرَدَ ذلك فى كثير من كُتب الحديث .

كان أمير المؤمنين عليه السّلامُ ذا أخلاقٍ متضادّة :

فمنها ما قد[1] ذكره الرضىّ رحمه الله ، وهو موضع التعجّب ؛ لأنّ الغالبَ على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أنْ يكونوا ذَوِى قلوب قاسية ، وفَتْكٍ وتمرُّد وجَبَرِيّة ، والغالب على أهل الزهد ورفضِ الدنيا وهِجرانِ ملاذّها والاشتغالِ بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ ، أن يكونوا ذوِى رقّة ولين ، وضَعْف قلْب ، وخَوَرِ طَبْع ؛ وهاتان حالتان متضادتان ، وقد اجتمعتا له عليه السلام .

ومنها أنّ الغالبَ على ذوى الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوِى أخلاق سَبُعيّة ، وطِباع حوشيّة ، وغرائز وحشيّة ، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذَوِى انقباض فى الأخلاق ، وعُبوس فى الوجوه ، ونِفار من الناس

(١) كلمة « قد » ساقطة من ب .

واستيحاش ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجعَ الناس وأعظمَهم إراقة للدم ، وأزهد الناس وأبعدَهم عن ملاذّ الدنيا ، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيّام الله ومَثُلاته ، وأشدّهم اجتهاداً فى العبادة وآداباً لنفسه فى المعاملة . وكان مع ذلك ألطفَ العالم أخلاقاً ، وأسفرَهم وجهاً ، وأكثرهم بِشْراً ، وأوفاهم هشاشة ، وأبعدَهم عن انقباض موحِش ، أو خُلُق نافر ، أو تجهّم مباعِد ، أو غِلْظة وفظاظة تَنفِر معهما نفس ، أو يتكدّر معهما قلْب . حتى عِيب بالدُّعابة ؛ ولمّا لم يجدوا فيه مغمزا ولا مطعنا تعلَّقوا بها ، واعتمدوا فى التنفير عنه عليها .

* وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها[1] *

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة .

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومَنْ هو من أهلِ بيت السيادة والرياسة أن يكونَ ذا كِبْرٍ وتيهٍ وتعظّم وتغطْرُس ؛ خصوصاً إذا أضيف إلى شَرَفِهِ من جهة النسب شرفُه من جهات أخرى ؛ وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مُصاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه ، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسبا بعد ابن عمّه صلوات الله عليه ، وقد حَصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة ، قد ذكرنا بعضها ، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير ، وألينَهم عَرِيكة ، وأسمحَهم خُلُقا ، وأبعدَهم عن الكِبْر ، وأعرفهم بحقّ ، وكانت حاله هذه فى كِلاَ زمانيه : زمان خلافته ،

---

(١) « الشكاة توضع موضع العيب والذم ؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه ؛ فقال ابن الزبير :

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عَارُها *

أراد أن تعييره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعار . ومعنى قوله : « ظاهر عنك عارها » ، أى ناب ، أراد أن هذا ليس عارا يلزق به ؛ وأنه يفتخر بذلك ؛ لأنها إنما سميت ذات النطاقين ، لأنه كان لها نطاقان تحمل فى أحدهما الزاد إلى أبيها وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وكانت تنتطق بالنطاق الآخر ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها » . اللسان : (١٩ : ١٧١) ، وديوان الهذليين (١ : ٢١) ، وهذا عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وعيّرَها الواشُون أنى أحبّها *

والزمان الذى قبله ، لم تغيِّره الإمْرة ، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة ، وكيف تحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيسا ! وكيف تُغَيِّر الإمْرة سَجيّته وما برح أميرا لم يستفِدْ بالخلافة شرفا ، ولا اكتسبَ بها زينة ! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؛ ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف " بالمنتظم " : تذاكروا عندأحمد خلافةَ أبى بكر وعلىّ وقالوا فأكثروا ، فرفع رأسه إليهم ، وقال : قد أكثرتم ! إنّ عليًّا لم تزِنْه الخلافة ؛ ولكنه زانها . وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه على أنّ غيرَه ازدان بالخلافة وتمّمَتْ نقصَه ، وأن عليًّا عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمّمَ بالخلافة ؛ وكانت الخلافة ذات نقص فى نفسها ، فتمّ نقصها بولايته إياها .

ومنها أنّ الغالب على ذوى الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أنْ يكونوا قليلى الصّفح ، بعيدى العفو ؛ لأن أكبادَهم واغرة ، وقلوبَهم ملتهبة ، والقوّة الغضبية عندهم شديدة ، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام فى كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح ، ومغالبة هوى النفس ، وقد رأيتَ فعله يوم الجمل ؛ ولقد أحسن مِهْيار فى قوله (1) :

حتّى إذا دارَتْ رَحى بَغْيِهِمُ ... عليهمُ وسبقَ السيفُ العــذَلْ
عاذوا بعفوِ ماجـــدٍ معوّدٍ ... للعفو حمّـــالٍ لهمْ على العِلَلْ
فنَجّت البُقْيَا عليهم مَنْ نجا ... وأكلَ الحديدُ منْهم مَنْ أكَلْ
أطّتْ بهم أرحامُهمْ فــلم يُطعْ ... ثائرة الغَيْظ ولم يشفِ الغُلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعاً جواداً قطّ ؛ كان عبــد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخَلَ الناس ، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً ؛ قال له عمر : لو وُلِّيتَها لظلْتَ تُلاطِمُ الناس

---

(1) من قصيدة فى ديوانه ٣ : ١٠٩ – ١١٦ ، يذكر فيها مناقب الإمام على وما منى به من أعدائه .

فى البطْحَاء على الصّاع والمُدّ . وأراد علىّ عليه السلام أنْ يحجُر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال لنفسه ، فشارك الزُّبيرَ فى أمواله وتجاراته ؛ فقال عليه السلام : أمَا إنّه قد لاذ بملاذ ؛ ولم يحجرُ عليه . وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً ، أمسك عن الإنفاق حتى خلّف من الأموال مالا يأتى عليه الحصْر . وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً ، يُضرب به المثل فى الشحّ ، وسمى رَشْح الحجر لبخله . وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الشّجاعة والسخاء كيف هى ؛ وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

وربّما جاء[1] فى أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردّد ، والمعنى المكرّر ؛ والعُذْر فى ذلك أنّ روايات كلامه تختلفُ اختلافاً شديداً ؛ فربّما اتفق الكلامُ المختارُ فى رواية فنُقِل على وجهه ، ثم وُجِد بعد ذلك فى رواية أخرى موضوعاً غير وضْعِه الأوّل ؛ إمّا بزيادة مختارة ، أو بلفظٍ أحسنَ عبارة ؛ فتقتضى الحالُ أن يُعاد ؛ استظهاراً للاختيار ، وغَيْرةً على عقائل الكلام . وربّما بَعُدَ العهد أيضاً بما اختير أوّلا ؛ فأعيد بعضُه سهواً ونسيانا ، لا قَصْداً أو اعتماداً . ولا أدّعِى مع ذلك أننى أحيطُ بأقطارِ جميع كلامِه عليه السلام ؛ حتى لايشِذّ عنّى منه شاذّ ، ولا يندّ نادّ ، بل لا أبعِد أن يكون القاصِرُ عنّى فوق الواقع إلىّ ، والحاصلُ فى رِبْقتى دونَ الخارج من يدىّ ؛ وما علىّ إلا بذلُ الجهد ، وبلاغةُ الوسع ، وعلى الله سبحانه نَهْج السبيل ، وإرشاد الدليل .

ورأيتُ من بعدُ تسميةَ هذا الكتاب بـ " نهج البلاغة " ؛ إذْ كان يَفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طِلابَها ، وفيه حاجةُ العالِم والمتعلّم ، وبُغية البليغ والزّاهد ، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التّوحيد والعدل ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شَبَه الخلْق ، ماهو بلال كلّ غُلّة ، وشِفاء كُلّ عِلّة ، وجِلَاء كلّ شبهة . ومِنَ الله أستمدّ التوفيق والعِصْمة ، وأتنجّزُ التّسديد والمعونة ، وأستعيذه من خطأ الجنَان قبل خطأ

(١) ب : « كان » .

اللِّسَانِ ، ومِنْ زَلَّةِ الـكَلِمِ قبل زلّة القَدَمِ ، وهُوَ حَسْبِي وَنِعمَ الْوَكِيلُ .

الشَّرْحُ :

فى أثناء هذا الاختيار : تضاعيفه ، واحدها ثِنْى كعِذْق وأعذاق . والغَيْرة ، بالفتح والـكسر خطأ . وعقائل الكلام : كرائمه ، وعَقِيلة الحىّ : كريمته ، وكذلك عقيلة الذَّوْد . والأقطار : الجوانب ، واحدها قُطْر . والنادّ : المنفرد ؛ ندّ البعير يَنِدّ . الرِّبقة : عُروة الحبل يجعل فيها رأس البهيمة . وقوله : « وعلى الله نَهج السبيل » ، أى إبانته وإيضاحه، نهجت له نهجاً . وأما اسم الـكتاب فـ « نَهج البلاغة » ، والنهج هنا ليس بمصدر ، بل هو اسم للطريق الواضح نفسه . والطِّلاب ، بكسر الطاء : الطلب . والبُغية : ما يُبتغى . وبِلال كلّ غُلة ، بكسر الباء : ما يُبَلّ به الصدى ، ومنه قوله : انضحوا الرَّحم ببِلالها ، أىّ صلوها بصلتها وندّوها[1] ، قال أوس :

كأنّى حَلَوْتُ الشِّعر حين مدحتُه صَفَا صَخْرَةٍ صَمّاء يَبْسٍ بِلالُها[2]

وإنما استعاذ من خطأ الجَنان قبل خطأ اللسان ؛ لأنّ خطأ الجَنان أعظم وأفحشُ من خطأ اللسان ، ألا ترى أنّ اعتقاد الـكُفْر بالقلب أعظم عقاباً من أن يكفرُ الإنسانُ بلسانه وهو غير معتقد للـكفر بقلبه ؛ وإنما استعاذ من زَلّة الـكَلِم قبل زلّة القدَم ؛ لأنه أرَاد زلّة القدم الحقيقية ؛ ولا ريب أنّ زلّة القدم أهونُ وأسهل ؛ لأن العاثر يستقيل من عثرته ، وذَا الزّلة تجِدُهُ ينهض من صَرْعته ؛ وأما الزّلة باللسان فقد لا تستقال عَثْرَتُها ، ولا يَنْهض صريعُها ، وطالما كانت لا شَوَى[3] لها ، قال أبو تمام :

يَا زَلَّةً ماوُقِيتُمْ شَرَّ مَصْرَعِها وزلّة الرأى تُنْسِي زَلّةَ القَدَمِ[4]

---

(١) اللسان ــ بلل ، وفى الطبعة الأولى «أنضجوا» ، تحريف .

(٢) يهجو الحـكم بن مروان بن زنباع ، ديوانه ١٠٠ ، واللسان ١٣ : ٦٧ ، ١٨ : ٢١٠ ، وحلا الرجل الشىء يحلوه ، أعطاه إياه ، أى جعل الشعر حلوانا له مثل العطاء .

(٣) لاشوى لها ، أى لابرء لها ، قال الـكميت :

أجيبُوا رُقَى الآسى النَّطاسِىّ واحذروا مطفئة الرَّضْفِ الّتى لا شَوَى لهـــا

(٤) ديوانه ٣ : ١٩٤ ، وروايته : « ياعثرة ماوقيتم » .

باب
الخطب والأوامر

قال الرضيّ رحمه الله :

بابُ المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره

ويدخل فى ذلك المختار من كلامه الجارى مجرى الخطب ، فى المقامات المحضورة والمواقف المذكورة ، والخطوب الواردة

الشَّرْحُ :

المقامات : جمع مَقامة ، وقد تكون المقامة المجلس والنادى الذى يجتمع إليه الناس، وقد يكونَ اسمًا للجماعة ، والأول أليق هاهنا بقوله : « المحضورة » ،أى التى قدحضرها الناس.

ومنذ الآن نبتدئُ بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ونجعل ترجمة الفصل الذى نروم شرحه « الأصل » فإذا أنهيناه قلنا : « الشرح »، فذكرنا ماعندنا فيه،وبالله التوفيق .

* * *

(١)

الأَصْلُ :

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم :

اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِى لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ اَلْقَائِلُونَ ، وَلَا يُحْصِى نَعْمَاءَهُ اَلْعَادُّونَ ، وَلَا يُؤَدِّى حَقَّهُ اَلْمُجْتَهِدُونَ ؛ اَلَّذِى لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ اَلْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُه غَوْصُ اَلْفِطَنِ . اَلَّذِى لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ، وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ، وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ . وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ ؛ فَطَرَ اَلْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَنَشَرَ اَلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ .

الشَّرحُ :

الّذى عليه أكثر الأدباء والمتكلّمين أنّ الحمد والمدح أخوَان ، لا فَرْق بينهما ، تقول : حَمِدتُ زيداً على إنعامه ، ومدحته على إنعامه ، وحَمِدته على شجاعته ، ومَدَحْتَه على شجاعته ؛ فهما سواء ، يدخلان فيما كان من فعل الإنسان ، وفيما ليس من فعله ، كما ذكرناه من المثالين ، فأمّا الشكر فأخصُّ من المدح ، لأنه لا يكون إلّا على النعمة خاصّة ؛ ولا يكون إلا صادراً من مُنعَم عليه ، فلا يجوز عندهم أن يقال : شكر زيد عمراً لنعمةٍ أنعمها عمرو على إنسان غير زيد .

إن قيل : الاستعمال خلاف ذلك ؛ لأنهم يقولون : حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير على معروفه عند زيد ، قيل : ذلك إنما يصحّ إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجبَ سرور فلان ، فيكون شكرُ إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخل على قلبه بالإنعام على زيد ، وتكون لفظة « زيد » التى استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسمّاها كناية لا حقيقة ، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السّرور المذكور ، ومدحاً باعتبار آخر ، وهو المناداة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه .

ثم إنّ هؤلاء المتكلمين الّذين حكيْنا قولَهم يزعمون أنّ الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم ، فإن استعمِل شىء من ذلك فى الأفعال بالجوارح كان مجازاً . وبقىَ البحث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان ؛ فإنّ الاستعمال لا يساعدهم ، لأن أهلَ الاصطلاح يقولون لمن مدح غيره ، أو شكره رياء وسمعة : إنّه قد مدحه وشكره وإن كان منافقاً عندهم . ونظير هذا الموضع الإيمان ، فإنّ أكثرَ المتكلّمين لا يُطلقونه على مجرد النطق اللسانىّ ، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبىّ ، فأما

أن يقصروا به عليه كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الأشعرية[١] والإمامية[٢] ، أو تؤخذمعه أمورأخرى وهى فعل الواجب وتجنّب القبيح كما هو مذهب المعتزلة[٣] ، ولا يخالف جمهورَ المتكلمين فى هذه المسألة إلا الكرّامية[٤] فإنّ المنافق عندهم يسمى مؤمناً ، ونَظروا إلى مجرد الظاهر، فجعلوا النطق اللسانىّ وحده إيماناً .

والمِدْحة : هيئة المدح ، كالرِّكْبة ، هيئة الركوب ، والجِلْسة هيئة الجلوس[٥] ؛ والمعنى مطروق جداً ، ومنه فى الكتاب العزيز كثير ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[٦] وفى الأثر النبوىّ : « لا أحصى ثناءعليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »، وقال الكتّاب[٧] من ذلك مايطول ذكره ، فمن جيّد ذلك قول بعضهم : الحمدُ لله على نِعَمه التى منها إقدارُنا على الاجتهاد فى حَمْدها ، وإن عَجَزْنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد :

فمـــا بَلَغَتْ كَفُّ امرئٍ متناولٍ   بها المجدَ إلا والّذى نِلْتَ أطولُ[٨]

---

(١) الأشعرية : هم أصحاب أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى جماعة الصفاتية ، الذين يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية ، كالعلم والقدرة والحياة وغيرها . وانظر الكلام عليهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٨٥ — ٩٤ .

(٢) الإمامية : هم القائلون بإمامة على رضى الله عنه بعد النبى عليه السلام ، وهم فرق متعددة ذكرهم الشهرستانى فى الملل والنحل ١ : ١٤٤ — ١٥٤ .

(٣) المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، انظر أيضا الكلام عليهم ، وتعداد فرقهم فى المصدر السابق ١ : ٤٩ — ٧٨ .

(٤) الكرامية : هم أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام ؛ عدهم الشهرستانى من جماعة الصفاتية ؛ لأنهم كانوا ممن يثبتون الصفات ؛ إلا أنهم انتهوا فيها إلى التجسيم والتشبيه ، الملل والنحل ١ : ٩٩ — ١٠٤

(٥) ا : « كالركبة والجلسة هيئة الركوب والجلوس »

(٦) سورة إبراهيم ٣٤ ، النحل ١٨

(٧) ب : « فى الكتاب » ؛ وكلمة « فى » مقحمة .

(٨) ديوانها ١٨٤ ؛ والرواية هناك :

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ ٱمْرِئٍ مُتَنَاوِلٍ   بِهَا ٱلْمَجْدَ إِلَّا حَيْثُ مَا نِلْتَ أَطْوَلُ

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً   وَلَا صِفَةً -إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

ولا حَبَّرَ المثنُون فى القول مِدْحةً وإن أطْنَبُوا إلا وَمَا فِيكَ أفضلُ

* * *

ومن مستحسَنِ ماوقفتُ عليه من تعظيم البارئ عزّ جلالُه بلفظ[1] « الحمد » قولُ بعض الفضلاء فى خطبة أرجوزة علمية :

الحمــــدُ لله بِقَــــدْرِ الله لا قدرِ وُسْع العبدِ ذِى التَّنَاهِى
والحمــــدُ لِلهِ الّذِى برهانُهُ أن ليسَ شأنٌ ليس فيه شَانُهُ
والحمد للهِ الذى مَنْ يُنْكِرُهْ فإنمــا يُنْكِرُ مَنْ يُصَوِّرُهْ

وأما قوله : « الذى لا يدركه » ، فيريد أنّ هِمَم النُّظار وأصحاب الفكر وإن عَلَتْ وبَعُدت فإنّها لا تدرِكه تعالى ، ولا تحيط به . وهذا حقّ ، لأنّ كلّ متصوَّر فلا بُدّ أن يكون محسوساً ، أو متخيَّلا ، أو موجوداً من فطرة النَّفْس ، والاستقراء يَشْهد بذلك . مثال المحسوس السّواد والحموضة ؛ مثال المتخيَّل إنْسان يطير ، أو بحر من دم . مثال الموجود من فطرة النّفس تصوّر الألم واللذة . ولمّا كان البارئ سبحانه خارجاً عن هذا أجمع[2] لم يكن متصوراً .

فأما قوله : « الذى ليس لصفته حد محدود » ، فإنه يعنى بصفته هاهنا كُنْهَه وحقيقته ، يقول : ليس لكنهه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة ؛ لأنه ليس بمركّب ، وكلّ محدود مركب .

ثم قال : « ولا نعت موجود » أى ولا يدرك[3] بالرسم ؛ كما تُدْرَكُ الأشياء برسومها ؛ وهو أن تعرف بلازم من لوازمها ، وصفة من صفاتها .

ثم قال : «ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود» ،فيه ، إشارة إلى الردّ على من قال: إنّا

---

(١) ا : « بلفظة » .
(٢) ب : « جميعا » .
(٣) ب : « لايدرك » ، من غير واو .

نعلم كنهَ البارئ سبحانه لا فى هذه الدنيا بل فى الآخرة ؛ فإن القائلين برؤيته فى الآخرة يقولون : إنّا نعرف حينئذ كُنْهَهَ ، فهو عليه السلام ردّ قولهم ، وقال : إنه لا وقتَ أبداً على الإطلاق تُعرَف فيه حقيقته وكنهه ، لا الآن ولا بعد الآن ؛ وهو الحق ، لأنا لو رأيناه فى الآخرة وعرفنا كنهَهَ لتشخّص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين ، ولا يُتصوّر أن يتشخّص هذا التشخص إلا ما يُشار إلى جهته ، ولا جهةَ له سبحانه . وقد شرحت هذا الموضع فى كتابى المعروف بـ « زيادات النقّضين(١) » ، وبينت أنّ الرؤية المنزهة عن الكيفية التى يزعمها أصحاب الأشعرىّ لا بدّ فيها من إثبات الجهة ، وأنها لا تجرى مجرى العلم ؛ لأن العلم لا يُشخِّص المعلوم ، والرؤية تشخّص المرئىّ ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخَّص ذا جهة .

واعلم أن نفىَ الإحاطة مذكور فى الكتاب العزيز فى مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾(٢) ، ومنها قوله : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(٣) ، وقال بعض الصحابة : العجز عن دَرْك الإدراك إدراك ؛ وقد غلا محمد بن هانئ فقال فى ممدوحه المعزّ أبى تميم معد بن المنصور العلوى :

أَتْبَعْتُه فِكَرِى حتى إذا بلغتْ ... غاياتِها بين تَصْويبٍ وتَصْعيد(٤)
رَأَيْتُ موضعَ بُرْهَانٍ يلُوحُ وَمَا ... رأيتُ مَوْضعَ تكييفٍ وتَحْديدِ(٥)

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ، ولا يليق بالمخلوق .

فأما قوله : « فطر الخلائق ... » إلى آخر الفصل ؛ فهو تقسيم مشتقٌّ من الكتاب العزيز ، فقوله : « فَطَر الخلائق بقدرته » من قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ

---

(١) كذا فى ح ، وفى ب : « النقيضين » وفى ا : « زيادات التقصير » ، ولم أعثر له على ذكر له فى كتب التراجم والفهارس .
(٢) سورة طه ١١٠
(٣) سورة الملك ٤
(٤) ديوانه ٢١٠ .
(٥) الديوان : « برهان يبين » .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾(١) ، وقوله : « ونَشَر الرياح برحمته » من قوله : ﴿ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾(٢) .

وقوله : « ووتَّد بالصخور مَيدان أرضه » ، من قوله : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾(٣) . والمَيَدان : التحرك والتموّج .

* * *

فأما القطب الرّاوندىّ رحمه الله فإنه قال إنه عليه السلام أخبَر عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمَد الله ، وذلك من ظاهر كلامه ، ثم أمرَ غيره من فحوى كلامه أن يحمَد الله ، وأخبرَ عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنّه يجب على المكلّفين ثبوتُهم عليه ما بَقُوا ؛ ولو قال : « أحمد الله » لم يعلم منه جميع ذلك . ثم قال : والحمدُ أعمّ من الشكر ؛ والله أخصُّ من الإله . قال : فأما قوله : « الذى لا يبلغ مدحته القائلون » ؛ فإنه أظهرَ العجز عن القيام بواجب مدائحه ، فكيف بمحامده ! والمعنى أنّ الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذى حَقّت العبادةُ له فى الأزَل ، واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول النِّعم التى يستحق بها العبادة .

ولقائل أن يقول : إنّه ليس فى فحوى كلامه أنه أمرَ غيرَه أن يحمد الله ، وليس يُفهم من قول بعض رعيّة المَلِك لغيره منهم : العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله . ولا أيضاً فى الكلام ما يدلّ على أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلّفين ثبوتهم عليه ما بَقُوا .

ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراوندىّ ! فإنْ زعم أنّ العقل يقتضى ذلك فحق ؛ ولكن

---

(١) سورة الشعراء ٢٤ . (٢) سورة الأعراف ٥٧ ، وهى قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو (الجامع لأحكام القرآن ٧ : ٢٢٩). (٣) سورة النبأ ٧

ليس مستفاداً من الـكلام ، وهو أنّه [1] قال : إن ذلك موجود فى الـكلام .

فأما قوله : لو كان قال : أحمدُ الله لم يعلم منه جميع ذلك ؛ فإنه لافرق فى انتفاء دلالة « أحمد الله » على ذلك ودلالة « الحمد لله » ، وهما سواء فى أنّهما لا يدلاّن على شىء من أحوال غير القائل ، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه فى حقّ غير القائل .

وأما قوله : الله أخصّ من الإلٰه، فإن أراد فى أصل اللغة ؛ فلا فرق، بل الله هو الإلٰه وفُخّم بعد حذف الهمزة ، هذا قول كافة البصريين ، وإن أراد أنّ أهلَ الجاهلية كانوا يُطلِقون على الأصنام لفظة « الآلهة » ، ولا يسمّونها « الله » فحقّ، وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم ، لا إلى أصل [2] اللغة والاشتقاق ؛ ألّا ترى أنّ الدابة فى العرف لا تطلق على القملة ، وإن كانت فى أصل اللغة دابة !

فأما قوله : قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده ! فـكلام يقتضى أنّ المدح غير الحمد ، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما . وأيضاً فإنّ الـكلامَ لا يقتضى العجز عن القيام بالواجب، لا من المادح ولا من المحامد؛ ولا فيه تعرّض لذكر الوجوب، وإنما نَفى أن يبلغ القائلون مدحته ، لم يقل غير ذلك .

وأما قوله : الذى حقت العبادة له فى الأزل واستحقّها حين خلق الخلق، وأنعم بأصول النعم ؛ فـكلام ظاهره متناقض ، لأنه إذا كان إنما استحقّها حين خلق الخلق ، فـكيف يقال : إنه استحقّها فى الأزَل ! وهل يكون فى الأزَل مخلوق ليستحقّ عليه العبادة !

واعلم أنّ المتكلمين لا يُطلقون على البارئ سبحانه أنه معبود فى الأزل أو مستحق للعبادة فى الأزل إلا بالقوة لا بالفعل [3] ، لأنّه ليس فى الأزل مكلّف يعبده تعالى ، ولا أنعم على أحد فى الأزل بنعمة يستحق بها العبادة ، حتى إنهم قالوا فى الأثر الوارد : « ياقديم

---

(١) ب : « وهو إنما » .
(٢) ساقطة من ب .
(٣) ا : « ولا بالفعل » .

الإحسان » : إن معناه أنّ إحسانه متقادِم العهد،لا أنّه قديم حقيقة ، كما جاء فى الـكتا ،
العزيز : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[1] ، أى الذى قد توالت عليه الأزمنة المتطاو ا .

* * *

ثم [2] قال الراوندىّ : والحمد والمدح يكونان بالقول وبالفعل ، والألف واللام ، « القائلون » لتعريف الجنس ، كمثلهما فى الحمد . والبلوغ : المشارَفة ، يقال: بلغتُ المـكا ، إذا أشرفتَ عليه ؛ وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فـكيف توصل إليه بالفعل ل والإله : مصدر بمعنى المألوه .

ولقائل أن يقول: الذى سمعناه أنّ التعظيمَ يكون بالقول والفعل وبترك القول والفعا ، قالوا : فمن قال لغيره: ياعالم فقد عظّمه ومَنْ قام لغيره فقد عظّمه ، ومن ترك مدّ رجله بحض ة غيره فقد عظّمه ، ومَنْ كفّ غَرْب لسانه عن غيره فقد عظّمه . وكذلك الاستخفاف والإه ة تـكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ماقدمنا ذكره فى التعظيم .

فأما الحمدُ والمدح فلا وجه لـكونهما بالفعل ، وأما قوله : إنّ اللام فى « القائلون » لتعريف الجنس ؛ كما أنهـا فى الحمد كذلك فعجيب ؛ لأنّهـا للاستغراق فى « القائلون » لا شبهة فى ذلك كالمؤمنين والمشركين ، ولا يتمّ المعنى إلا به ؛ لأنّه للمبالغة ، بل الحقّ المحد ، أنه لا يبلغ مدحته كلّ القائلين بأسرهم . وجَعْل اللّام للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أر د بالجنس المعهود ، وإن أرادَ الجنسيَّة العامة ، فلا نزاع بيننا وبينه ، إلا أن قوله : « كما أ ا فى الحمد كذلك » يمنع من أن يحمل كلامه على المحمل الصحيح ؛ لأنهـا ليست فى ا- د للاستغراق ، يبيّن ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أنْ يُحَمَد رسول الله صلى الله ع ه وآله ولا غيره من الناس ، وهذا باطل .

---

(١) سورة يس ٣٩
(٢) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرّف بلام الجنس ، والأصل في مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة ، ولا يفيد الاستغراق ، فإن جاء منه شيء للاستغراق ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾(١) ، وأهلك الناسَ الدِّرهمُ والدينار ، فمجاز ، والحقيقة ماذكرناه. فأما قوله : البلوغ المشارفة ؛ يقال : بلغتُ المكان إذا أشرفتَ عليه . فالأجود أن يقول : قالوا : بلغتُ المكان ؛ إذا شارفتَه ؛ وبين قولنا : « شارفته » ، و « أشرفت عليه » فرق.

وأما قوله : « وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل ! » ، فكلام مبنيّ على أنّ الحمد قد يكون بالفعل ، وهو خلاف مايقوله أرباب هذه الصناعة .

وقوله : والإله مصدر بمعنى المألوه كلام طريف ؛ أمّا أوّلا ، فإنه ليس بمصدر ؛ بل هو اسم ، كوِجَار للضبع وسِرار للشهر(٢) ؛ وهو اسم جنس كالرّجل والفرس ، يقع على كل معبود بحقّ أو باطل ، ثم غلَب على المعبود بالحقّ ، كالنجم اسم لكلّ كوكب ثم غلب على الثريا ، والسّنَة : اسم لكل عام ثم غلب على عام القَحْط . وأظنه رحمه الله لما رآه « فِعالا » ظن أنه مصدر كالحِصاد والجِذاذ وغيرهما . وأما ثانياً ؛ فلأنّ المألوه صيغة « مفعول » وليست صيغة مصدر إلا في ألفاظ نادرة ، كقولهم : « ليس له معقول ولا مجلود » ، ولم يسمع « مألوه » في اللغة ، لأنه قد جاء : أَلِهَ الرجل إذا دهِش وتحيّر ؛ وهو فعل لازم لا يبنى منه « مفعول » .

* * *

ثم قال الراونديّ : وفي قول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، بلفظ الإفراد ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يحصى نعماءه العادّون » بلفظ الجمع سرٌّ عجيب ، لأنه تعالى أراد أنّ نعمةً واحدة من نِعَمه لا يمكن العباد عدّ وجوه كونها نعمة ، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أصول نعمه لا تحصى لكثرتها ، فكيف تعدُّ

(١) سورة العصر ١

(٢) السرار : بالفتح والكسر : آخر ليلة من الشهر

وجوه فروع نعمائه ! وكذلك فى كون الآية واردة بلفظة « إن » الشرطية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر ، تحته لطيفة عجيبة ؛ لأنّه سبحانه يريد أنكم إنْ أردتم أن تعدُّوا نِعمه لم تقدروا على حصرها ، وعلىّ عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر ، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصرُ نِعَمِه تعالى .

ولقائلٍ أن يقول : الصحيح أنّ المفهوم من قوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ الجنس؛ كما يقول القائل : أنا لا أجحد إحسانك إلىّ ، وامتنانك علىّ ، ولا يقصد بذلك إحساناً واحداً ، بل جنس الإحسان .

وما ذكره من الفرْق بين كلام البارئ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غيرُ بَيِّن ، فإنه لو قال تعالى : وإن تعدوا نعم الله ، وقال عليه السلام : ولا يحصى نعمته العادّون ، لكان كلّ واحد منهما سادًّا مسدّ الآخر .

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة ؛ لأنه لو انعكس الأمر؛ فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام علىّ عليه السلام بصيغة الشرط ، لكان مناسباً أيضاً ،حسب مناسبته، والحالُ بعكس ذلك ، اللهم إلا أنْ تكون قرينة السجعة من كلام علىّ عليه السلام تنبو عن لفظة الشرط ، وإلا فمتى حَذَفتَ القرينة السجعيّةَ عن وهمك لم تجد فرقاً ؛ونحن نعوذُ بالله من التعسّف والتّعجرُف [1] الداعى إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة .

* * *

ثم قال الراوندىّ : إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الذى لا يَعُدّ نعمَه الحاسبون » لم تحصل المبالغة التى أرادها بعبارته ; لأنّ اشتقاق الحساب من الحِسبان ؛ وهو الظن . قال : وأمّا اشتقاق العدد فمن العِدّ ؛ وهو الماء الذى له مادّة ، والإحصاء : الإطاقة ؛ أحصيته ، أى أطقته ؛ فتقدير الكلام : لا يطيق عدّ نعمائه العادّون ؛ومعنى ذلك

(١) التعجرف : ركوب الأمر من غير تروٍ .

أنّ مدائحه تعالى لا يُشرِف على ذكرها الأنبياء والمرسلون ؛ لأنها أكثرُ من أن تعدّها الملائكةُ المقرّبون ، والكرام الكاتبون .

ولقائل أن يقول : أمّا الحساب فليس مشتقا من الحِسبان بمعنى الظنّ ؛ كما توهّمه ، بل هو أصل برأسه ؛ ألا ترى أنّ أحدَهما حَسِبت أحْسَب ، والآخر حَسِبْت أحْسُبُ وأحسَب بالفتح والضم ؛ وهو من الألفاظ الأربعة التي جاءت شاذة . وأيضاً فإن « حَسِبت » بمعنى ظننت يتعدى إلى مفعولين لايجوز الاقتصارُ على أحدهما ، و « حَسِبت » من العدد يتعدى إلى مفعول واحد . ثم يقال له : وَهَبْ أنّ « الحاسبين » لو قالها مشتقةً من الظّنّ لم تحصل المبالغة ، بل المبالغة كادت تكون أكثر ؛ لأن النعم التي لا يحصرها الظانّ بظنونه أكثر من النعم التي لا يعدّها العالمْ بعلومه .

وأمّا قوله : العدَد مشتق من العِدّ ؛ وهو الماء الذي له مادّةٌ ، فليس كذلك ، بل هما أصلان . وأيضاً لو كان أحدهما مشتقا من الآخر لوجب أنْ يكون العِدّ مشتقا من العدد ؛ لأن المصادر هي الأصول التي يقع الاشتقاق منها ؛ سواء أكان المشتق فعلا أو اسما[1] ، ألا تراهم قالوا في كتب الاشتقاق : إنّ الضَّرْب : الرجل الخفيف ؛ مشتق من الضَّرْب ، أي السير[2] في الأرض للابتغاء ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[3] ، فجعل الاسم منقولا ومشتقًّا من المصدر .

وأمّا الإحصاء فهو الحصر والعَدّ وليس هو الإطاقة كما ذَكَر ؛ لا يقال : أحصيت الحجر ، أي أطقت حمله .

وأمّا ما قال إنه معنى الكلمة فطريف ؛ لأنّه عليه السلام لم يذكر الأنبياء ولا

---

(١) كذا عطف بأو بعد همزة التسوية ؛ قال ابن هشام : وقد أولع الفقهاء وغيرهم بأن يقولوا : سواء أكان كذا أو كذا ، والصواب العطف بأم . المغنى ١ : ٣٩ .

(٢) كذا في ج .

(٣) سورة البقرة ٢٧٣ .

الملائـكة ، لا مطابقة ولا تضمّناً ولا التزاماً ، وأىّ حاجة إلى هـذا التقدير الطريف الذى لا يشعر الـكلام به ! ومراده عليه السلام ؛ وهو أنّ نعمه جلّتْ لـكثرتها أنْ يُحْصيَها عادّ ما ، هو نفىٌ لمطلق العادّين من غير تعرض لعادّ مخصوص .

* * *

قال الراوندىّ : فأمّا قوله : « لا يدرِكه بُعْد الهمم » ؛ فالإدراك هو الرؤية والنَّيل والإصابة ، ومعنى الـكلام : الحمد لله الذى ليس بجسم ولا عرَض ؛ إذ لو كان أحدَهما لرآه الراءون إذا أصابوه ؛ وإنما خَصّ « بُعْد الهمم » بإسناد نفى الإدراك « وغوْص الفِطَن » بإسناد نفى النّيْل لغرض صحيح ؛ وذلك أن الثّنَويّة[1] يقولون بقـدم النور والظلمة ، ويثبتون النّور جهة العلوّ والظلمة جهة السُّفْل ، ويقولون : إنّ العالم ممتزج منهما ، فردّ عليه السلام عليهم بما معناه : إنّ النور والظلمة جسمان ، والأجسام محدَثة ، والبارئ تعالى قديم .

ولقائل أن يقول : إنه لم يَجْرِ للرؤية ذكر فى الـكلام ؛ لأنه عليه السلام لم يقل : الذى لا تدركه العيون ولا الحواسّ ، وإنما قال : « لا يدركه بُعْدُ الهمم » ، وهذا يدلّ على أنه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته .

وأيضاً فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية ، لـكان لمحاجّ أن يحاجّه فيقول له : هبْ أنّ الأمر كما تزعم ، ألست تريدُ بيانَ الأمر الذى لأجله خصّص بُعْد الهمم بنفى الإدراك ، وخَصص غَوْصَ الفِطن بنفى النَّيل ! وقلت : إنما قُسّمَ هذا التقسيم لغرض صحيح ، وما رَأيناك أوضحت هذا الغرض ؛ وإنما حكيت مذهب الثّنَويّة ، وليس يدلّ مذهبهم على وجوب تخصيص بُعْد الهمم بنفى الإدراك دون نفى النَّيْل ، ولا يوجب تخصيص غَوْص الفطن

(١) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين ؛ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمـان . الشهرستانى ١ : ٢٢٤ .

بنفي النَّيْـل دون نفي الإدراك، وأكثر ما في حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلٰهَيِ العالَم: النور والظلمة، وهما جسمان؛ وأمير المؤمنين عليه السلام يقول: لو كان صانع العالم جسما لَرُئِيَ، وحيث لم يُرَ لم يكن جسما؛ أيّ شيء في هذا مما يدلّ على وجوب ذلك التقسيم والتخصيص الذي زعمتَ أنّه إنما خصّصه وقسّمه لغرض صحيح!

***

ثم[1] قال الراونديّ: ويجوز أن يقال: البعدُ والغوص مصدران هاهنا بمعنى الفاعل، كقولهم: فلان عَـدْل، أي عادل، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾[2]، أي غائرا، فيكون المعنى: لا يدركه العالِم البعيد الهمم فكيف الجاهل! ويكون المقصد بذلك الردّ على من قال: إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربَّه ليلة الإسراء؛ وإن يونس عليه السلام رأى ربَّه ليلة هبوطه إلى قعر البحر.

ولقائل أن يقول: إن المصدر الذي جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة، لا يجوز القياس عليها، ولو جاز لما كان المصدر هاهنا بمعنى الفاعل؛ لأنه مصدر مضاف، والمصدر المضاف لا يكون بمعنى الفاعل. ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجز أن يُحْمَل كلامه عليه السلام على الرّدّ على من أثبت أن الباريْ سبحانه مرئيّ؛ لأنه ليس في الكلام نفي الرؤية أصلا، وإنما غَرَضُ الكلام نفي معقوليّته سبحانه، وإن الأفكار والأنظار لا تحيط بكنهه، ولا تتعقّل خصوصية ذاته، جَلّتْ عظمته!

***

ثم قال الراونديّ: فأما قوله: « الذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود »، فالوقت: تحرّك الفلك ودَوَرانه على وجه، والأجل:

---

(١) كلمة « ثم » ساقطة من ا.

(٢) سورة الملك ٣٠.

مدّة الشيء ؛ ومعنى الكلام أنّ شكرى لله تعالى متجدّد عند تجدّد كلّ ساعة ، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التى قبلها وهى الثانية ، كما أبدل الثانية من الأولى .

ولقائل أن يقول : الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفَلَك ، لا نفس حركته ، والأجل ليس مطلق الوقت ، ألَا تراهم يقولون : جئتك وقتَ العصر ، ولا يقولون : أجَلَ العصر ! والأجَل عندهم هو الوقت الذى يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطُل فيه ، مأخوذ من أجَل الدَّيْن ، وهو الوقت الذى يحلّ قضاؤه فيه .

فأما قوله : ومعنى الكلام أنّ شكرى متجدّد لله تعالى فى كلّ وقت ، ففاسد ، ولا ذِكْرَ فى هذه الألفاظ للشكر ، ولا أعلم من أين خطر هذا للراوندىّ ! وظنّه أن هذه الجمل من باب البدل غلط ، لأنها صفات ، كلّ واحدة منها صفة بعد أخرى ، كما تقول: مررت بزيد العالم ، الظريف ، الشاعر [1] .

* * *

قال الراوندىّ : فأما قوله : « الذى ليس لصفته حدّ » ، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه ، وأصحابنا لا يثبتون لله سبحانه صفة ، كما يثبتها الأشعرية ؛ لكنّهم يجعلونه على حال ، أو يجعلونه متميزاً بذاته ؛ فأمير المؤمنين عليه السلام بظاهر كلامه — وإن أثبت له صفة — إلا أنّ من له أُنْسٌ بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة . وقد سألنى سائل فقال : هاهنا كلمتان ؛ إحداهما كفر ، والأخرى ليست بكفر ؛ وهما : لله تعالى شريك غير بصير . ليس شريك الله تعالى بصيراً ، فأيهما كلمة الكفر ؟ فقلت له : القضية الثانية ؛ وهى « ليس شريك الله تعالى بصيراً » كُفْر ؛ لأنها تتضمّن إثباتَ الشريك ، وأمّا الكلمة الأخرى ، فيكون معناها لله شريك غير بصير ؟ بهمزة الاستفهام المقدّرة المحذوفة .

---

(١) من نسخة بحاشية ج : « الفاضل » .

ثم أخذ فى كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى ، ويُبطِل مذهب الأشعريّة بما يقوله المتكلمون من أصحابنا ، وأخذ فى توحيد الصفة : لِمَ جاء وكيف يدلّ نفى الصفة الواحدة على نفى مطلق الصفات ؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام فى الصفة الخامسة التى أثبتها أبو هاشم(١) ؛ ثم خرج إلى مذهب أبى الحسين(٢) ، وأطال جدًّا فيما لا حاجة إليه(٣) .

ولقائل أن يقول : الأمر أسهلُ مما تظنّ ، فإنا قد بيّنّا أنّ مراده نفى الإحاطة بكنهه ، وأيضاً يمكن أن يجعل الصفة هاهنا قول الواصف ، فيكون المعنى : لا ينتهى الواصف إلى حدّ إلّا وهو قاصر عن النعت ، لجلالته وعظمته ، جلّت قدرته .

فأما القضيّتان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما ، وهو أن القضيّة الأولى كفر ، لأنها صريحة فى إثبات الشريك ، والثانية لا تقتضى ذلك ، لأنه قد ينفى قول الشريك بصيراً على أحد وجهين ؛ إما لأن هناك شريكا لكنّه غير بصير ؛ لأن الشريك غير موجود ، وإذا لم يكن موجودا لم يكن بصيرا ؛ فإذا كان هذا الاعتبار الثانى مرادا لم يكن كفرا ، وصار كالأثر المنقول : « كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لا تؤثر هفواته » ؛ أى لم يكن فيه هفوات فتؤثر وتحكى ، (٤) وليس أنه كان (٤) المراد فى مجلسه هفوات إلّا أنّها لم تؤثر .

* * *

قال الراوندىّ : فإن قيل : تركيب هذه الجملة يدلّ على أنه تعالى فَطَر الخليقة قبل خَلْق السموات والأرض .

---

(١) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء
(٢) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب البصرى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء
(٣) ب : « فيه »   (٤ — ٤) ب : « وليس المراد أنه قد كانت » .

قلنا : قد اختُلف فى ذلك فقيل : أوّل مايحسن منه تعالى خلقه ذاتا حيّة ، يخلق فيها شهوةً لمدرك تدركه فتلتذّ به ، ولهذا قيل : تقديم خَلْق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح . وقيل : لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا عُلم أنّ علم بعض المكلّفين فيما بعد بخَلْقِه قَبْلَه لطف له .

ولقائل أن يقول : أمّا إلى حيث انتهى به الشرح فليس فى الكلام تركيب يدلّ على أنّه تعالى فطر خَلْقه قبل خَلْق السموات والأرض . وإنّما قد يُوهم تأمّل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئًا من ذلك ، لما قال : « ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء » ؛ على أنا إذا تأملنا لم نجد فى كلامه عليه السلام مايدلّ على تقديم خَلْق الحيوان ؛ لأنه قبل أنْ يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فَطَر الخلائق . وتارة قال : « أنشأ الخلق » . ودلّ كلامه أيضًا على أنه نشر الرياح ، وأنه خلق الأرض وهى مضطربة فأرساها بالجبال ؛ كلّ هذا يدلّ عليه كلامه ، وهو مقدّم فى كلامه على فَتْق الهواء والفضاء وخلق السماء ، فأما تقديم خلق الحيوان أو تأخيره فلم يتعرض كلامه عليه السلام له ، فلا معنى لجواب الراوندىّ وذِكْره مايذكره المتكلّمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا !

* * *

الأصلُ :

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ، وكمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَكَمالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وكمالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ ، وكمالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ ؛ لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ ، وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ . فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ ، وَمَن قَرَنَهُ فقدْ ثَنَّاهُ ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فقد جزَّأَهُ ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فقدْ جَهِلَهُ ،

وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ أَشارَ إِليهِ فَقَدْ حَدَّهُ ، ومن حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ قَالَ : « فِيمَ » فَقَدْ ضَمَّنَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « عَلَامَ » فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إنما قال عليه السلام : « أول الدّين معرفته » ، لأنّ التقليد باطل ، وأوّل الواجبات الدينية المعرفة . ويمكن أن يقول قائل : ألستم تقولون فى علم الكلام : أول الواجبات النظرُ فى طريق معرفة الله تعالى ؛ وتارة تقولون : القصد إلى النظر ؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام ؟ !

وجوابه أن النّظَر والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعَرَض لا بالذات ؛ لأنهما وُصْلة إلى المعرفة ، والمعرفة هى المقصود بالوجوب ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد : أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفةُ البارئ سبحانه ؛ فلا تناقضَ بين كلامه وبين آراء المتكلمين .

وأما قوله : « وكمال معرفته التصديق به » ؛ فلأنّ معرفته قد تكون ناقصة ، وقد تكون غير ناقصة ، فالمعرفة الناقصة هى المعرفة بأن للعالَم صانعاً غيرَ العالم ؛ وذلك باعتبار أن الممكنَ لا بدّ له من مؤثر ، فمن علم هذا فقط عَلِم الله تعالى ولكنّ علماً ناقصاً ، وأما المعرفة التى ليست ناقصة فأنْ تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات ، والخارجُ عن كلّ الممكنات ليس بممكن ، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود ؛ فمن عَلِم أنّ للعالم مؤثراً واجبَ الوجود فقد عرفه عرفاناً أكملَ من عرفان أن للعالم مؤثّراً فقط ؛ وهذا الأمر الزائد هو المكنىّ عنه بالتصديق به ؛ لأن أخصّ ما يمتاز به البارئ عن مخلوقاته هو وجوب الوجود .

وأما[1] قولُه عليه السلام : « وكمال التصديق به توحيدُه » ، فلأن مَنْ علم أنه تعالى واجبُ الوجود مصدِّق بالبارئ سبحانه ، لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً ، وقد يكون غير ناقص ؛ فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجبُ الوجود فقط ، والتصديق الذى هو أكمل من ذلك وأتمّ هو العلمُ بتوحيده سبحانه ، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين ؛ لأن فرض واجبَىِ الوجود يُفْضِى إلى عموم وجوبِ الوجود لهما وامتياز كلٍّ واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك ؛ وذلك يُفضِى إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجبَىِ الوجود ؛ فمن علم البارئ سبحانه واحداً ، أى لا واجب الوجود إلا هو يكون أكملَ تصديقاً ممن لم يعلم ذلك ؛ وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط .

وأما قوله : « وكمال توحيده الإخلاصُ له » ؛ فالمراد بالإخلاص له ها هنا هو نَفْىُ الجسميّة والعرَضيّة ولوازمهما عنه ؛ لأن الجسم مركب ، وكل مركب ممكِن ، وواجب الوجود ليس بممكن . وأيضاً فكل عرَضٍ مفتقِر ، وواجب الوجود غير مفتقر ؛ فواجب الوجود ليس بعَرَض . وأيضاً فكل جِرْم محدث ، وواجب الوجود ليس بمحدَث ، فواجب[2] الوجود ليس بجرم . وأيضاً فكل حاصل فى الجهة ، إما جِرْم أو عرَض ، وواجب الوجود ليس بِجْرْم ولا عرَض ، فلا يكون حاصلا فى جهة ؛ فمن عرف وحدانية البارئ ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً ، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو المخلص فى عِرْفانه جلّ اسمه ، ومعرفته تكون أتمّ وأكمل .

وأما قوله : « وكمالُ الإخلاص له نَفْىُ الصفات عنه » ، فهو تصريحٌ بالتوْحيد الذى تذهب إليه المعتزلة ، وهو نفىُ المعانى القديمة[3] التى تُثْبِتها الأشعرية وغيرهم ، قال عليه السلام :

---

(١) ب : « فأما » .

(٢) ب : « وواجب » .

(٣) ا : « التقدمية » .

« لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة » ؛ وهذا هو دليل المعتزلة بعينه،قالوا : لو كان عالماً بمعنى قديم؛لـكان ذلك المعنى إمّاهو أو غيره، أو ليس هو ولا غيره . والأوّل باطل ؛ لأنا نعقل ذاته قبل أن نعقِل أو نتصوّر له علما ؛ والمتصوّر مُغايِر لما ليس بمتصوَّر . والثالث باطل أيضاً ، لأنّ إثبات شيئين : أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره ، معلوم فسادُه ببديهة العقل،فتعيّن القسم الثانى وهو مُحال ، أما أوّلًا فبإجماع أهلِ الملّة ،وأمّا ثانيا فلما سبق من أنّ وجوب الوجود لا يجوز أنْ يكون لشيئين؛ فإذا عرفْتَ هذا فاعرف أنّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاوقد لا يكون ، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده ، وأنه واحد ليس بجسمٍ ولا عَرَض ، ولا [1] يصحّ عليه ما يصحّ على الأجسام والأعراض . والإخلاص التامّ هو العلم بأنّه لاتقوم به المعانى القديمة، مضافا إلى تلك العلوم السابقة ؛ وحينئذ تتمّ المعرفة وتـكمل .

ثم أكّد أميرُالمؤمنين عليه السلام هذهالإشارات الإلٰهية بقوله : « فمَنْ وَصَفَ الله سبحانه فقد قَرَنه » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ الموصوفَ يقارن الصفة ، والصفة تقارنه .

قال : « ومن قرنه فقد ثنّاه » ، وهـذا حقّ ، لأنه قد أثبت قديمين ، وذلك محض التثنية .

قال : «ومن ثنّاه فقد جزّأه» ؛ وهذا حقّ،لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللفظ وفائدته متجزئة ،كإطلاق لفظ « الأسود » على الذات التى حلّها سواد .

قال : « ومن جَزّأه فقد جهله » ؛ وهـذا حقّ ، لأنّ الجهل هو اعتقاد الشىء على خلاف ماهو به .

قال : « ومن أشار إليه فقدحَدّه » ؛ وهذا حقّ ، لأنّ كلّ مشارٍ إليه فهو محدود؛

---

(١) ب : « فلا يصح » .

لأنّ المشار إليه لا بدّ أن يكون فى جهة مخصوصة ، وكلّ ماهو فى جهة فله حدّ وحدود ؛ أى أقطار وأطراف .

قال : « ومَنْ حدّه فقد عدّه » ، أى جعله من الأشياء المحدثة ، وهذا حقّ ، لأنّ كلّ محدود معدود فى الذوات المحدَثة .

قال : « ومن قال : فِيمَ ؟ فقد ضمّنه » ، وهذا حقّ ،لأن مَنْ تصوّر أنه فى شىء فقد جعله إما جسماً مستَتِراً فى مكان ، أو عرَضاً سارياً فى محلّ ، والمكان متضمّن للتمكن ، والمحلّ متضمّن للعرَض .

قال : « ومن قال : علامَ ؟ فقد أخْلَى منه » ، وهذا حقّ ، لأن مَنْ تصوّر أنه تعالى على العرش، أو على الكرسىّ،فقد أخلى منه غير ذلك الموضع.وأصحاب تلك المقالة يمتنعون من ذلك ؛ ومرادُه عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم ؛ وإلّا فلو قالوا[1]:هب أنّا قد أخْلَيْنا منه غير ذلك الموضع؛أىّ محذور يلزمنا؟فإذا قيل لهم : لو خلا منه موضع دون موضع لكان جسماً ، ولزم حدوثه،قالوا : لزوم الحدوث والجِسْمية إنّما هو من حصوله فى الجهة لا من خلوّ بعض الجهات عنه ؛ وأنتم إنما احتججتُم علينا بمجرّد خلوّ بعض الجهات منه،فظهر أنّ توجيه الكلام عليهم إنّما هو إلزام لهم ، لا استدلال على فساد قولهم .

* * *

فأمّا القطب الراوندىّ فإنه قال فى معنى قوله : « نفىُ الصفات عنه » : أى صفات المخلوقين ، قال:لأنه تعالى عالم قادر، وله بذلك صفات،فكيف يجوز أن يقال : لا صفة له!

وأيضاً فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفةً أوّلا ، حيث قال:« الذى ليس لصفته حدّ محدود » ، فوجب أنْ يُحمل كلامه على مايتنزّه عن المناقضة .

---

(١) ب : « قال » .

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعدُ فى صفة الملائـكة : « إنهم لا يَصِفون الله تعالى بصفات المصنوعين » ، فوجب أن يحمل قوله الآن : « وكمالُ توحيده نفى الصفات عنه » على صفات المخلوقين ، حملاً للمطلق على المقيّد .

ولقائل أن يقول : لو أراد نفىَ صفات المخلوقين عنـه لم يستدلّ على ذلك بدليـل الغيرّية ، وهو قوله : « لشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف » ، لأن هذا الاستدلال لا ينطبق على دَعْوَى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين ، بل كان ينبغى أنِ يستدلّ بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعَرَضيّة ، والبارئ ليس بجسم ولا عَرَض ، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعانى القديمـة ، وهى المسماة بالصفات فى الاصطلاح القديم[1] ، ولهـذا يسمَّى أصحاب المعانى بالصفاتية . فأما كونه قادراً وعالما فأصحابهـا أصحاب الأحوال ، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله : « ليس لصفته حدّ محدود » ، أى لـكنهه وحقيقته ، وأما كون الملائـكة لا تصف البارئ بصفات المصنوعين فلا يقتضى أن يُحْمَلَ كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين ، لأجل تقييد ذلك فى ذكر الملائـكة ، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيّد ! لا سيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضى ألا يكون المراد صفات المخلوقين .

وقد تـكلّف الراوندىّ لتطبيق تعليله عليه السلام نَفْى الصفات عنه بقوله : « لشهادة كلّ صفة أنها غيرُ الموصوف » ، بكلام عجيب ؛ وأنا أحكى ألفاظَه لتعلم ؛ قال : معنى هذا التعليل أنّ الفعل فى الشاهد لا يشابه الفاعل ، والفاعل غيرُ الفعل ؛ لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعـل أو معنى الفعل ، كالضّارب والفَهِم ؛ فإن الفهم والضرب كلاهما فعل ، والموصوف بهما فاعل ، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً ؛ فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدَثة كانت معدومة ثم وجدت ، يدلّ على أنها غيرُ الموصوف بأنه خالقها ومدبّرها .

---

(١) ساقطة من ج .

انقضى كلامه . وحكايته تُغْنِي عن الرّد عليه .

ثم قال : « الأوّل » على وزن «أفعل» يستوى فيه المذكر والمؤنث ، إذا لم يكن فيه الألف واللام ، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث « الأُولى » .

وهذا غير صحيح ، لأنه يقال : كلّمت فُضْلاهنّ ، وليس فيه[1] ألف ولام ، وكان ينبغى أن يقول إذا كان منكرا مصحوبا بمن استوى المذكر والمؤنث فى لفظ « أفعل » ، تقول : زيد أفضل من عمرو ، وهند أحسن من دعد .

* * *

الأصْلُ :

كَائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ ، مَعَ كلِّ شَيْءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ ، وَغَيْرُ كلِّ شَيْءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ ، فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ ، بَصِيرٌ ؛ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ ، مُتَوَحِّدٌ ؛ إِذْ لاسَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ ، وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ . أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً ، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً ، بِلاَ رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا ، وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا ، وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا ، ولا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا . أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا ، ولَاءَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا ، وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا ، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا ؛ عَالِماً بِهَا قبلَ ابْتِدَائِهَا ، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا ، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « كائن » ، وإن كان فى الاصطلاح العرفىّ مقولا على ما ينزَّه البارئُ عنه ؛ فمراده[2] به المفهوم اللغوىّ ؛ وهو اسم فاعل من « كان » ، بمعنى وجد ، كأنّه قال : موجود غير محدَث .

---

(١) ب : « فيهن » .

(٢) ا : « فراد » .

فإن قيل : فقد قال بعده : « موجود لا عن عدَم » فلا يبقى بين الـكلمتين فرق .

قيل: بينهمافرق ، ومراده بالموجود لا عن عدم هاهنا وجوب وجوده ونفيُ إمكانه، لأنّ مَنْ أثبت قديمـاً ممكنا ؛ فإنه وإن نفى حدوثَه الزمانىّ فلم ينفِ حدوثَه الذاتىّ ، وأمير المؤمنين عليه السلام نفى عن البارئ تعالى فى الـكلمة الأولى الحدوثَ الزمانىّ ،ونفى عنه فى الـكلمة الثانية الذاتىّ . وقولنا فى الممكن : إنّه موجود من عدم ، صحيح عند التأمّل ، لا بمعنى أنّ عدمه سابق له زمانا ، بل سابق لوجوده ذاتا ، لأن الممكن يستحقّ من ذاته أنّه لا يستحق الوجود من ذاته .

وأما قوله : «مع كلّ شىءلا بمقارنة » ، فمراده بذلك أنّه يعلم الجزئيات والـكلّيات، كما قال سبحانه : ﴿ مَا يَـكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[1] .

وأما[2] قوله : «وغيرُ كلِّ شىء لا بمزايلة» فحقّ ، لأنّ الغَيْرين فى الشاهد هما مازايلَ أحدُهما الآخر وباينه بمكان أو زمان ، والبارئ سبحانه يباين الموجودات مباينة منزّهة عن المـكان والزمان ، فصدَق عليه أنّه غير كلّ شىء لا بمزايلة .

وأمّا قوله : «فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة» ، فحقّ ؛ لأن فعله اختراع ،والحـكماء يقولون : إبداع ، ومعنى الـكلمتين واحد ؛ وهو أنه يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل الواحد منّا ، ولا يوجِد شيئاً من شىء .

وأما قوله : «بصير ؛ إذ لا منظورَ إليه من خَلْقه » ، فهو حقيقةُ مذهب أبى هاشم رحمه الله وأصحابه ، لأنهم يُطلقون عليه فى الأزَل أنّه سميع بصير ، وليس هناك مسموع ولا مُبصَر ، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصَرات إذا وجدت؛

---

(١) سورة المجادلة ٧

(٢) ا : « فأما » .

وذلك يرجع إلى كونه حيًّا لا آفة به ، ولا يُطلقون عليه أنه سامع مبصر فى الأزَل ، لأنّ السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوّة .

وأما قوله : « متوحّد ، إذْ لا سَكَنَ يستأنس به ، ويستوحش لفقده » ، فـ « إذ » هاهنا ظرف ، ومعنى الكلام أنّ العادة والعرف إطلاق « متوحّد » على من قد كان له من يستأنس بقربه ويستوحش ببعده فانفرد عنه ، والبارئ سبحانه يطلَق عليه أنّه متوحِّد فى الأزل ولا موجود سواه : وإذا صَدَق سَلْب الموجودات كلّها فى الأزَل صدق سلبُ ما يؤنس أو يوحِش : فتوحّده سبحانه بخلاف توحّد غيره .

وأما قوله عليه السلام : «أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء» ، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء ؛ كقوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1] . وقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] .

وقوله : « بلا رَوِيَّةٍ أجالها » ، فالرويّة الفِكْرة ، وأجالها : ردّدها ؛ ومن رواه : « أحالها » بالحاء ، أراد صرفها . وقوله : « ولا تجربةٍ استفادها » ، أى لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصَلت له التجربة التى أعانته على خَلْق هذه الأجسام .

وقوله : « ولا حركة أحدثها » ، فيه ردّ على الكرّامية الذين يقولون : إنّه إذا أراد أنْ يخلُق شيئاً مبايناً عنه أحدث فى ذاته حادثا ، يسمّى الإحداث ، فوقع ذلك الشىء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً .

وقوله : « ولا همامة نفس اضطرب فيها » ، فيه ردٌّ على المجوس والثَّنَوِيّة القائلين بالهمامة ، ولهم فيها خَبْط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحّة مايقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدّمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلّها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام

---

(١) سورة فاطر ٣٥ (٢) سورة المائدة ٤٨

وأما قوله : « أحال الأشياء لأوقاتها » ، فمن روَاها : « أحَلّ الأشياء لأوقاتها » ، فمعناه جعل محلّ كلّ شيء ووقْته كمحلّ الديْن. ومن رواها : « أحال » فهو من قولك: حال فى مَتْن فرسه ، أى وثب ، وأحاله غيرُه ، أى أوْثبَه على متْن الفرس ؛ عدّاه بالهمزة ، وكأنّه لما أقرّ الأشياء فى أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيرَه على فرسه .

وقوله . « ولاءم بين مختلفاتها » ، أى جعل المختلفات ملتئِمات[1] ، كما قَرَن النفس الروحانيةَ بالجسد الترابىّ ، جلّت عظمتُه !

وقوله : « وغرّز غرائزها » ، المروىّ بالتشديد ، والغريزة: الطبيعة ، وجَمْعها غرائز ، وقوله : « غرّزها » ، أى جعلها غرائز ، كما قيل : سبحان من ضوّأ الأضواء ! ويجوز أنْ يكونَ من غرزتُ الإبرة بمعنى غرست . وقد رأيناه فى بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : « وألزمها أشباحها » ، الضمير المنصوب فى « ألزمها » عائد إلى الغرائز ، أى ألزم الغرائز أشباحَها ، أى أشخاصها ، جمع شَبَح ، وهذا حقّ ؛ لأن كلاً مطبوع على غريزة لازمة ، فالشّجاع لا يكون جبانا ، والبخيل لا يكون جوادا ؛ وكذلك كلّ الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : « عالماً بها قبل ابتدائها » ، إشارة إلى أنّه عالم بالأشياء فيما لم يزَل .

وقوله : « محيطا بحدودها وانتهائها » أى بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : «عارفاً بقرائنها وأحنائها»، القرائن: جمع قَرُونة[2] ، وهى النفس .والأحناء: الجوانب ، جمع حِنْو ، يقول: إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التى ألزمها أشباحَها، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلّقة بها والصادرة عنها .

* * *

(١) ب : « ملتئمة » ، وما أثبته عن ا .

(٢) ومنه قول أوس بن حجر :

فَلاَقَى امرأً من مَيْدعَانَ وَأَسْمَحَتْ قَرُونَتُهُ باليأسِ مِنْهَا فَعَجَّلَا

أى طابت نفسه بتركها .

فأمّا القطب الراونديّ فإنه قال : معنى قوله عليه السلام : « كائن لاعن حَدث ، موجود لا عن عَدَم » ، أنه لم يزل موجوداً ، ولا يزال موجوداً ، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أوّلا ؛ وهـذا ليس بجيّد ، لأنّ اللفظ لا يدلّ على ذلك ولا فيه تعرّض بالبقاء فيما لا يزال .

وقال أيضاً : قوله عليه السلام : «لا يستوحش» ، كلام مستأنف . ولقائل أن يقول: كيف يكون كلاماً مستأنفاً ، والهاء « فى فقده » ترجع إلى « السكن » المذكور أوّلا !

وقال أيضاً : يُقال : ماله فى الأمر هِمّة ولا هَمامة ؛ أى لا يهُمّ به ، والهمَامة : التردّد، كالعزم . ولقائل أن يقول : العزم هو إرادة جازمة حَصَلت بعد التردّد ، فبطل قوله : إنّ الهمامة هى نفس التردد كالعزم . وأيضاً فقد بيّنا مراده عليه السلام بالهمامة ؛ حكى زُرْقان[1] فى كتاب ‹‹ المقالات ›› ، وأبو عيسى الوراق[2] ، والحسن بن موسى[3] ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلْخِيّ[4] فى كتابه فى ‹‹ المقالات ›› ، أيضاً عن الثنويّة : أنّ النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته فى غزو الظُّلمة والإغارة عليها ، فخرجت من ذاته قطعة — وهى الهمامة المضطربة فى نفسه — فخالطت الظلمةَ غازية لها ، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه ، وخرجت هَمامة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت همـامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان

---

(١) هو زرقان المتكلم ؛ تلميذ إبراهيم بن سيار النظام ؛ وقد حكى زرقان عن النظام أقوالا فى الفرق بين الفرق ٥٠ — ٥١ ، وذكره المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٤٢ .

(٢) هو أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ؛ كان من نظارى المعتزلة ؛ وله تصانيف على مذهبهم . توفى سنة ٢٤٧ . لسان الميزان ٥ : ٤١٢ .

(٣) هو أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى ؛ من متكلمى الإمامية ؛ وذكره الطوسى فى طبقاتهم ؛ عاش فى القرن الثالث . لسان الميزان ٢ : ٢٥٨ ، روضات الجنات ٣١ ، تنقيح المقال ١ : ٣١٢ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى الكعبي ؛ شيخ المعتزلة ، وكان على رأس طائفة منهم يقال لهم الكعبية ؛ توفى سنة ٣١٩ . ابن خلكان ١ : ٢٥٢ .

وتتدانيان وهما ممتزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ؛ حتى انبني منهماهذا العالَم المحسوس . ولهم في الهمامة كلام مشهور ؛ وهي لفظة اصطلحوا عليها ، واللغة العربية ماعرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهِمَّة ، والذي عرفناه الهِمَّة والهَمَّة ـ بالكسر والفتح ـ والمَهَمّة ، وتقول : لا هَمامِ لي بهذا الأمر ، مبنيّ على الكسر كقَطامِ ، ولكنّها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

***

الأصلُ :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ ؛ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ ، فَأَجْرَى(١) فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ العَاصِفَةِ ، وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ ؛ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ، وَالمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ . ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا ، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا ، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا ؛ فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ المَاءِ الزَّخَّارِ ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ ؛ تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ ، وَسَاجِيَهُ عَلَى(٢) مَائِرِهِ ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً ؛ وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً ، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً ؛ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، وَلَا دِسَارٍ يَنْتَظِمُهَا(٣) . ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً ، وَقَمَراً مُنِيراً ، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ .

---

(١) ا : « فأجاز » ، وكذلك في مخطوطة النهج .
(٢) ا ، ج: «إلى» ، وكذلك في مخطوطة النهج .
(٣) ج : « ينظمها » .

الشرح :

لسائل أن يسأل فيقول : ظاهرُ هذا الكلام أنه سبحانه خلق الفضاء والسموات بعد خَلْق كلّ شيء ؛ لأنه قد قال قبل : «فَطَرَ الخلائق ، ونشر الرياح ، ووتّد الأرض بالجبال» ، ثم عاد فقال : أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء» ، وهو الآن يقول : « ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء » ، ولفظة « ثمّ » للتراخى !

فالجواب أن قوله[1] : « ثم » هو تعقيب وتراخٍ ، لا فى مخلوقات البارئ سبحانه ، بل فى كلامه عليه السلام ؛ كأنه يقول : ثم أقول الآن بعد قولى المتقدم : إنه تعالى أنشأ فتق الأجواء . ويمكن أن يقال : إن لفظة « ثم » هاهنا تُعْطِى معنى الجمع المطلق كالواو ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[2] .

***

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل يشتمل على مباحث :

منها : أنّ ظاهرَ لفظه أنّ الفضاء الّذى هو الفراغ الذى يحصل فيه الأجسام خلقَه الله تعالى ولم يكن من قبل ؛ وهذا يقتضى كونَ الفضاء شيئاً ؛ لأن المخلوق لا يكون عَدَماً محضاً . وليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام . ومنهم من جعله مجرّداً .

فإن قيل : هذا الكلام يُشعِر بأن خلْق الأجسام فى العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن ، وهذا ينافى العقل !

قيل : بل هذا هو محض مذهب الحكماء ، فإنهم يقولون : إنه لا يمكن وجودُ جسم

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فالجواب قوله » .
(٢) سورة طه ٨٢ .

ولا حركةُ جسم خارجَ الفلك الأقصى؛ وليس ذلك إلّا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها، إلّا فى الفضاء .

ومنها : أن البارئ ــ سبحانه ــ خلق فى الفضاء الذى أوجده ماء جعله على متْن الريح، فاستقلّ عليها، وثبت وصارت مكاناً له ، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحاً أخرى سلّطها عليه ، فموّجته تمويجاً شديداً حتى ارتفع ، فخلق منه السموات . وهذا أيضاً قد قاله قوم من الحكماء ؛ ومن جملتهم تاليس الإسكندرانىّ ؛ وزعم أنّ الماء أصل كلّ [1] العناصر ؛ لأنّه إذا انجمد صار أرضاً ، وإذا لَطُف صار هواء ، والهواء يستحيل ناراً ؛ لأنّ النار صفوة الهواء .

ويقال : إن فى التوراة فى أول السِّفر الأول كلاماً يناسب هذا ؛ وهو أنّ الله تعالى خلق جوهراً ، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ارتفع من ذلك الماء بخارٌ كالدخان، [٢ فخلق منه السمٰوات؛ وظهر على وجه ذلك الماء زَبَد ٢]، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال .

ومنها : أنّ السماء الدّنيا مَوْج مكفوف، بخلاف السمٰوات الفوْقانية. وهذا أيضا قول قد ذهب إليه قوم، واستدلّوا عليه بما نُشاهده [3] من حركة الكواكب المتحيّرة وارتعادها فى مرأى [4] العين واضطرابها؛ قالوا : لأن المتحيّرة متحركة فى أفلاكها ؛ ونحن نشاهدها بالحسّ البَصرىّ ، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفّافة ، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السائر فى الماء ؛ وما ذاك إلا لأنّ السماء الدنيا ماء متموِّج ، فارتعاد الكواكب

(١) كلمة « كل » ساقطة من ا .
(٢ ــ ٢) ساقط من ا .
(٣) ب : « شاهده » .
(٤) ا : « مرائى » .

المشاهدة حسًّا إنّما هو بحسب ارتعاد أجزاء الفلك الأدنى. قالوا : فأمّا الكواكب الثابتة فإنّا[1] لم نشاهدها كذلك ؛ لأنّها ليست بمتحرّكة ، وأمّا القمر وإن كان فى السماء الدنيا؛ إلا أنّ فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية؛ وليس بماء متموّج كالفلك المثل التحتانىّ. وكذلك القولُ فى الشمس .

ومنها: أنّ الكواكب فى قوله : « ثم زيّنها بزينة الكواكب » أين هى؟ فإن اللفظ محتمِل ، وينبغى أن يتقدّم على ذلك بحثٌ فى أصل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ [2] !

فنقول : إنّ ظاهرَ هذا اللفظ أنّ الكواكبَ فى السماء الدنيا ، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع ؛ فمن دنا منهم لذلك رُجِم بشهاب ؛ وهذا هو الذى يقتضيه ظاهر اللفظ. ومذهب الحكماء أنّ السماء الدنيا ليس فيها إلا القمر وحدَه؛ وعندهم أن الشهبَ المنقضّة هى آثار تظهر فى الفَلَك الأثيرِىّ النارىّ الذى تحت فلك القمر ، والكواكبُ لا ينقضّ منها شىء ، والواجبُ التصديق بما فى ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأنْ يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام على مطابقته، فيكونَ الضميرُ فى قوله: «زينها» راجعاً إلى « سفلاهنّ » ؛ التى قال : « إنها مَوْج مكفوف »، ويكون[3] الضمير فى قوله: « وَأَجْرَى فيهـا » راجعاً إلى جملة السموٰات ؛ إذا وافقنا الحكماء فى أنّ الشمس فى السماء الرابعة .

ومنها : أنّ ظاهرَ الكلام يقتضى أنّ خلْق السموات بعد خلق الأرض؛ ألا تراه كيف لم يتعرّضْ فيه لكيفية خلق الأرض أصلا . وهذا قولٌ قد ذهب إليه جماعة من أهل المِلّةِ،

---

(١) ب ا : « فإنما » .

(٢) سورة الصافات ٦ ، ٧ .

(٣) ا : « فيكون » .

واستدلّوا(١) عليه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢)، ثم قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾(٣).

ومنها: أن الهاء في قوله: «فرفعه في هواء منفتق» والهاء في قوله: «فسوّى منه سبع سموات» إلى ماذا ترجع؟ فإنّ آخر المذكورات قبلها «الزّبد». وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زَبَد الماء؟ الحقّ أنّ الضمائرَ ترجع إلى الماء الذى عبّ عبابُه؛ لا إلى الزّبد؛ فإنّ أحداً لم يذهب إلى أنّ السماء مخلوقة من زَبَد الماء؛ وإنما قالوا: إنّها مخلوقة من بُخاره.

ومنها: أنْ يقال إن البارئ سبحانه قادر على خلْق الأشياء إبداعاً واختراعاً؛ فما الذى اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب؟ وهلاّ أوجدها إيجاد الماء الذى ابتدعه أوّلا من غير شيء!

فيقال فى جواب ذلك على طريق أصحابنا: لعلّ إخبارَه المكلّفين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم(٤)، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلّا والمخبَر عنه مطابق للإخبار.

فهذا حظّ المباحث المعنوية من هذا الفصل.

* * *

ثم نشرع فى تفسير ألفاظه:

أمّا الأجواء فجمع جَوّ، والجوّ هنا الفضاء العالى بين السماء والأرض. والأرجاء:

---

(١) ا: «استدلوا».
(٢) سورة فصلت ٩.
(٣) سورة فصلت ١٠.
(٤) كذا فى ج، وفى ا، ب: «لهم».

الجوانب ، واحدها رَجا مثل عصا . والسكائك : جمع سُكاكة ؛ وهى أعلى الفضاء ، كما قالوا : ذُؤابة وذوائب . والتيّار : الموج . والمتراكم : الذى بعضُه فوق بعض . والزّخّار : الذى يَزْخَر ، أى يمتدّ ويرتفع . والريح الزعْزع : الشديدة الهبوب ، وكذلك القاصفة ؛ كأنها تُهلِك الناس بشدّةهبوبها . ومعنى قوله : « فأمرها بردّه » ، أى بمنعه عن الهبوط ؛ لأنّ الماء ثقيل ، ومن شأن الثقيل الهُوِىّ . ومعنى قوله : « وسلّطها على شدّه » أى على وثاقه ؛ كأنه سبحانه لما سلّط الريح على منعه من الهبوط ؛ فكأنه قد شدّه بها وأوثقه ومنعه من الحركة . ومعنى قوله : « وقرنها إلى حَدّه » ، أى جعلها مكاناً له ؛ أى جعل حدّ الماء المذكور ـ وهو سطحه الأسفل ـ مماسا لطح الريح التى تحمله وتُقِلّه . والفتيق : المفتوق المنبسط . والدفيق : المدفوق . واعتقَم مَهَبَّها ، أى جعل هُبوبَها عقيما ، والريح العقيم : التى لا تُلْقِحُ سحاباً ولا شجراً ؛ وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها ؛ لأنّه سبحانه إنما خلقها لتمويج الماء فقط . وأدام مُرَبّها ، أى ملازمتها ، أربّ بالمكان مثل ألبّ به ، أى لازمه .

ومعنى قوله : « وعصفت به عَصْفَها بالفضاء » ، فيه [1] معنى لطيف ؛ يقول : إنّ الريح إذا عصفت بالفضاء الذى لا أجسام فيه كان عصفُها شديداً لعدم المانع ؛ وهذه الريح عصَفت بذلك الماء العظيم عصفاًشديداً ؛ كأنها تعصِفُ فى فضاء لامانع لها فيه من الأجسام .

والساجى : الساكن . والمائر : الذى يذهب ويجىء . وعبّ عُبَابه : أى ارتفع أعلاه . ورُكامه : ثَبجه وهِضَبُه [2] . والجوّ المنفهق : المفتوح الواسع . والموج المكفوف : الممنوع من السَّيَلان . وعمَدٍ يَدْعَمُها : يكون لها دِعامة . والدِّسار : واحد الدُّسُر وهى المسامير . والثواقب النَّيِّرة : المشرِقة . وسراجاً مستطيراً ، أى منتشر الضوء ؛ يقال : قد استطار

---

(١) كلمة « فيه » ساقطة من ب .
(٢) ب : « هضبته » .

الفجر ، أى انتشر ضوءه. ورقيم مائر ، أى لوح متحرّك ؛ سُمّى الفلك رقيما تشبيهاً باللوح، لأنه مسطّح .

* * *

فأمّا القطبُ الراوندىّ فقال : إنّه عليه السلام ذكر قبل هذه الكلمات أنه أنشأ حيوانًا له أعضاء وأحناء ، ثم ذكر هاهنا أنه فتق السماء ، وميّز بعضها عن بعض ، ثم ذكر أنّ بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وهى سبع سمٰوات، وكذلك بين كلّ أرض وأرض ، وهى سبع أيضاً . وروى حديث البقرة التى تحمل المَلَك الحامل للعرش،والصخرة التى تحمل البقرة ، والحوت الذى يحمل الصخرة .

ولقائل أن يقول : إنّه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أنّ الله تعالى خَلق حيوانا ذا أعضاء ، ولا قوله الآن : « ثم أنشأ سبحانه فتْق الأجواء » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[1]، ألا تراه كيف صرّح عليه السلام بأن البارئ سبحانه خلق الهواء الذى هو الفضاء ، وعبّر عن ذلك بقوله : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، وليس فتقُ الأجواء هو فتق السماء !

فإن قلتَ : فكيف يمكن التطبيقُ بين كلامه عليه السلام وبين الآية ؟

قلتُ : إنه تعالى لما سلّط الريح على الماء فعصفتْ به،حتى جعلته بخاراً وزَبَداً ، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض ؛ كان فاتقا لهما من شىء واحد ، وهو الماء .

فأمّا حديثُ البعد بين السمٰوات وكونه مسيرةَ خمسمائة عام بين كلّ سماء وسماء ، فقد ورد وروداً لم يُوثَق به ؛ وأكثر[2] الناس على خلاف ذلك. وكونُ الأرض سبعا أيضاً

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) ا : « فأكثر » ، وما أثبته عن ا ، ب

خلافُ مايقوله جمهور العقلاء ، وليس فى القرآن العزيز مايدلّ على تعدد الأرض إلاقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [١] ، وقد أوّلوه على الأقاليم السبعة . وحديث الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات فى غالب الظنّ ، والصحيح أنَّ الله تعالى يُمْسِك الـكلّ بغير واسطة جسم آخر .

* * *

ثم قال الراوندىّ : السَّـكائك : جمعُ سُـكَاك ، وهذا[٢] غير جائز ، لأن « فُعالا » لا يجمع على « فعائل » ؛ وإنما هو جمع سُـكَاكة ، ذكر ذلك الجوهرىّ [٣] .

ثم قال : « وسلّطها على شَدّه » ، الشدّ : العدْو . ولا يجوز حمل الشدّ هاهنا على العَدْو ؛ لأنه لامعنى له ، والصحيح ماذكرناه .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « جعل سُفلاهنّ موجاً مكفوفا » ، أراد تشبيهَها بالموج لصفائها واعتلائها . فيقال له : إنَّ الموجَ ليس بعالٍ ليشبَّه به الجسم العالى ، وأما صفاؤه فإن كلّ السموات صافية ، فلماذا خَصَّ سُفلاهنّ بذلك !

ثم قال : ويمكن أن تكون السماء السُّفْلى قد كانت أوّل ماوجدت موجا ثم عَقَدها . يقال له : والسموات الأُخَر كذلك كانت ، فلماذا خصَّ السُّفْلى بذلك !

ثم قال : الريح الأولى غير الريح الثانية ، لأنَّ إحداها معرِفة والأخرى نكرة ؛ وهذا مثل قوله : صم اليوم ، صم يوما ، فإنه يقتضى يومين .

يقال له : ليست المغايرة بينهما مستفادة من مجرّد التعريف والتنكير ، لأنه لو كان قال

---

(١) سورة الطلاق ١٢

(٢) ب : « وهو » وما أثبته عن ا

(٣) الصحاح ص ١٥٩١ ، والذى فيه : « والسكاك والسكاكة : الهواء الذى يلاقى أعنان السماء » .

عليه السلام : « وحمله على متن ريح عاصفة وزعزع قاصفة » لكانت الريحان : الأولى والثانية منكّرتين معاً ، وهما متغايرتان ، وإنما علمنا تغايرَهما ، لأنّ إحداها تحت الماء والأخرى فوقه ، والجسم الواحد لا يكون فى جهتين .

* * *

الأصْـلُ :

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلْعُلَا ، فَمَلأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ ٱلْعُيُونِ ، وَلَا سَهْوُ ٱلْعُقُولِ ، وَلَا فَتْرَةُ ٱلأَبْدَانِ ، وَلَا غَفْلَةُ ٱلنِّسْيَانِ .

وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَىٰ رُسُلِهِ ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ(١) وَأَمْرِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ ، وَٱلسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلثَّابِتَةُ فِى ٱلْأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَىٰ أَقْدَامُهُمْ ، وَٱلْمَارِقَةُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ، وَٱلْخَارِجَةُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ، وَٱلْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ ٱلْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ ٱلْقُدْرَةِ ؛ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ ٱلْمَصْنُوعِينَ ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ .

[القول فى الملائكة وأقسامهم]

الشّـرْحُ :

المَلَك عند المعتزلة حيوان نورىّ ؛ فمنه شفّاف عادم اللون كالهواء ، ومنه ملوّن بلون الشمس . والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقُدَر وحياة ؛ كالواحد منّا ، ومكلّفون كالواحد منا ، إلا أنهم معصومون . ولهم فى كيفية تكليفهم كلام ؛ لأنّ التكليف

(١) مخطوطة النهج : « لقضائه » .

مبنيّ على الشهوة .

وفى كيفيّة خَلْق الشهوة فيهم نظر ، وليس هذا الكتاب موضوعاللبحث فى ذلك .

وقد جعلهم عليه السلام فى هذا الفصل أربعة أقسام :

القسم الأول : أرباب العبادة ؛ فمنهم مَنْ هو ساجد أبدا لم يقم من سجوده ليركع ، ومنهم من هو راكع أبدا لم ينتصِب قَطّ ، ومنهم الصافّون فى الصلاة بين يدىْ خالقهم لا يتزايلون ، ومنهم المسبّحون الذين لا يملّون التسبيح والتحميد له سبحانه .

والقسم الثانى : السُّفراء بينه تعالى وبين المكلّفين من البشر بتحمّل الوحى الإلهىّ إلى الرسل ، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض .

والقسم الثالث ضربان : أحدهما حَفَظة العباد كالكرام الكاتبين ، وكالملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات ؛ ولولا ذلك لكان العَطَب أكثرَ من السلامة .وثانيهما سَدَنة الجنان .

القسم الرابع : حَمَلة العرش .

ويجب أن يكون الضمير فى « دونه » — وهو الهاء — راجعاً إلى العرش لا إلى البارئ سبحانه . وكذلك الهاء فى قوله : « تحته » . ويجب أن تكون الإشارة بقوله : « وبين مَنْ دونهم » إلى الملائكة الذين دون هؤلاء فى الرتبة .

فأما ألفاظ الفصل فكلها غنيّة عن التفسير إلا يسيراً ، كالسَّدنة جمع سادِن وهو الخادم ، والمارق : الخارج . وتلفّعت بالثوب ، أى التحفت به .

***

وأما[1] القطب الراوندىّ فجعل الأمناء على الوحى وحفَظة العباد وسدَنة الجنان

---

(١) ا : « فأما »

قسما واحدا ، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة . وليس بجيّد ، لأنه قال : « ومنهم الحفظة » ، فلفظة « ومنهم » تقتضى كونَ الأقسام أربعة ؛ لأنه بها فصَّل بين الأقسام .

وقال أيضاً : معنى قوله عليه السلام : « لا يغشاهم نوم العيون » يقتضى أنَّ لهم نوما قليلا لا يُغفلهم عن ذكر الله سبحانه ، فأما البارئ سبحانه فإنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم أصلا ، مع أنه حيٌّ ، وهذه هى المدحة العظمى .

ولقائل أن يقول : لو ناموا قليلا لكانوا زمانَ ذلك النوم — وإن قلَّ — غافلين عن ذكر الله سبحانه ؛ لأنَّ الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل .

والصحيح أنَّ الملَك لا يجوز عليه النوم ، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب ؛ لأنَّ النومَ من توابع المِزاج ، والملَك لا مِزاج له . وأما مدحُ البارئ بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فخارج عن هذا الباب ، لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية ، لا يجوز تبدّلها ، والملك يجوز أن يخرج عن كونه مَلَكا ، بأنْ يُخلق فى أجزاء جسمه رُطوبةٌ ويبوسة ، وحرارة وبرودة ، يحصل من اجتماعها مِزاج ، ويتبع ذلك المِزاج النوم . فاستحالة النوم عليه إنما هى ما دام مَلَكا ، فهو كقولك : الماء بارد ، أى ما دام ماء ؛ لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم نارا ، فلا يكون باردا ، لأنه ليس حينئذ ماء . والبارئ جلّت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغيَّر ، فاستحال عليه النوم استحالةً مطلقة ، مع أنه حىّ ، ومن هذا إنشاء التمدّح . وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله خلق الخلْق أربعة أصناف : الملائكة ، والشياطين ، والجِنّ ، والإنس . ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء ، فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشياطين والجنّ والإنس ، ثم جعل هؤلاء الثلاثةَ عشرةَ أجزاء ، فتسعة منها الشياطين وجزء واحد الجنّ والإنس ، ثم جعل الجنَّ والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة منها الجنّ وجزء واحد الإنس » .

وفى الحديث الصحيح : إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره ، ثم افتقدها ، فقال : يارسول الله ، إن رجالا كانوا يأتوننى لم أر أحسنَ وجوهاً ، ولا أطيب أرواحاً منهم ، ثم انقطعوا . فقال عليه السلام : « أصابك جُرح فكنت تكتمه » ؟ فقال : أجل ، قال : « ثم أظهرتَه » ؟ قال : أجل ، قال : « أمّا لو أقمت على كِتْمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت » ؛ وكان هذا الُجرح أصابه فى سبيل الله .

وقال سعيد بن المسيّب وغيره : الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون ، والجنّ يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون ، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون ، ولا يموتون حتى يموت إبليس .

وقال النبىّ صلى الله عليه وآله فى رواية أبى ذرّ : « إنّى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ [1] فما فيها موضع شبر إلا وفيه مَلك قائم أو راكع أو ساجد واضع جبهتَه لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وماتلذذتم بالنساء على الفُرُش ، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله . والله لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد » [2] .

قلت : ويُوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبى ذرّ .

واتفق أهلُ الكتب على أنّ رؤساء الملائكة وأعيانَهم أربعة : جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ وهو مَلَك الموت . وقالوا : إن إسرافيلَ صاحب الصُّور وإليه النفخة ، وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر ، وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات ، وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلّها ، وإليه تدبير الرياح ، وهو ينزل إليهم كلهم بما يؤمرون به .

---

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ١ : ٣٥ ، وقال : « الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ؛ أى أن كثرة مافيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت ؛ وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ؛ وإن لم يكن ثم أطيط ؛ وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة الله تعالى » .

(٢) تعضد : تقطع ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٠٤

وروى أنسُ بن مالك أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ماهؤلاء الذين استثنى بهم فى قوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾؟[1] فقال : « جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ فيقول الله عز وجل لعزرائيل : ياملَكَ الموت ، مَن بقى ؟ وهو سبحانه أعلم ـ فيقول : سبحانك ربّى ذا الجلال والإكرام ! بقىَ جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملَكَ الموت ؛ فيقول : ياملك الموت ، خذ نفس إسرافيل ، فيقعُ فى صورته التى خُلق عليها كأعظم ما يكون من الأطواد ، ثم يقول : ـ وهو أعلم ـ مَنْ بقىَ ياملَكَ الموت ؟ فيقول : سبحانك ربّى ياذا الجلال والإكرام ! جبرائيل وميكائيل ومَلَكَ الموت ، فيقول : خذ نفس ميكائيل ، فيقع فى صورته التى خُلِق عليها ، وهى أعظم مايكون من خَلْق إسرافيل بأضعافٍ مضاعفة . ثم يقول سبحانه : ياملَكَ الموت ، مَنْ بقىَ ؟ فيقول : سبحانك ربّى ذا الجلال والإكرام : جبرائيل ، ومَلَكَ الموت ، فيقول تعالى : ياملَكَ الموت ، مت فيموت ، ويبقى جبرائيل – وهو من الله تعالى بالمكان الذى ذكر لكم ـ فيقول الله : ياجبرائيل ، إنه لا بدّ من أن يموت أحدنا ، فيقع جبرائيل ساجدا يخفِق بجناحيه ، يقول : سبحانك ربّى وبحمدك ! أنت الدائم القائم الذى لا يموت ؛ وجبرائل الهالك الميّت الفانى ، فيقبض الله روحَه ، فيقع على ميكائيل وإسرافيل ، وإنّ فَضْل خلقِه على خلقهما كفضل الطَّوْد العظيم على الظَّرِب[2] من الظِّراب .

وفى الأحاديث الصحيحة أنّ جبرائيل كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على صورة دِحْية الكَلْبِىّ ، وأنّه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم ، وإنه سُمِع ذلك اليوم صوته : أقْدِمْ حَيْزوم[3] .

---

(١) سوره الزمر ٦٨

(٢) الظرب ككتف : الجبل الصغير .

(٣) الخبر فى اللسان (حزم) ؛ وفيه : « أراد أقدم ياحيزوم ؛ فحذف حرف النداء ، والياء فيه « زائدة » .

والكَروبيّون[1] عند أهلِ المِلّة سادة الملائكة، كجبرائيل وميكائيل. وعند الفلاسفة أنّ سادة الملائكة هم الروحانيّون — يعنون العقول الفعالة وهى المفارقة للعالم الجسمانىّ المسلوبة التعلّق به، لا بالحلول ولا بالتدبير. وأما الكَرُوبيّون فدون الروحانيين فى المرتبة وهى أنفس الأفلاك المدبّرة لها، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا.

ثم هى على قسمين: قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر، فالقسم الأشرف ما كان نَفْسًا ناطقة غير حالّة فى جِرْم الفلك، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا. والقسم الثانى ما كان حالاًّ فى جِرْم الفَلَك، ويجرى ذلك مجرى القُوَى التى فى أبداننا، كالحسّ المشْترك والقوة الباصرة.

***

الأصْلُ:

منها فى صفة خلق آدم عليه السلام:

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَه مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ، وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ، وَفُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ.

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فتمثّلت[2] إِنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ، وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ، مَعْجُونًا بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ،

---

(١) الكروبيون، مخففة الراء — على ماقاله صاحب القاموس —: هم أقرب الملائكة إلى حملة العرش؛ وأصله من الكرب وهو القرب؛ قال أمية:

ملائكة لايفترون عبادةً كَروبيّةٌ مِنْهمْ ركوعٌ وسُجَّدُ

(٢) مخطوطة النهج: « فمثلت ».

(١وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ ١)، وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبِلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ.

وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[٢] وَقَبِيلَهُ؛ اعْتَرَتْهُمُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.[٣]

***

الشَّرْحُ:

الحزْن: ماغلُظ من الأرض. وسَبَخُها: مامَلُح منها. وسنّها بالماء، أى مَلسها، قال:

ثم خاصَرتُها إلى القُبّةِ الخضْ ــراء تَمْشِى فى مَرْمَرٍ مَسْنُونِ[٤]

أى مملّس. ولَاطها، من قولهم: لُطتُ الحوضَ بالطين، أى ملطته وطيّنته به. والبَلّة بفتح الباء، من البَلل. ولَزَبت، بفتح الزاى، أى التصقت وثبتت. فجَبَل منها، أى خلق. والأحناء: الجوانب، جمع حِنْو. وأصلَدها: جعلها صَلْدا، أى صُلْبا متينا. وصلصلت: يبست، وهو الصلصال. ويختدمها: يجعلها فى مآربه وأوطاره كالخدَم الذين تستعملهم وتستخدمهم. واستأدَى الملائكة وديعته: طلب منهم أداءها. والخنوع: الخضوع. والشِّقوة، بكسر الشين، وفى الكتاب العزيز: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

(١ ــ ١) تكملة من مخطوطة النهج.

(٢) سورة البقرة ٣٤.

(٣) سورة ص ٨٠، ٨١.

(٤) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، من أبيات يشبب فيها برملة بنت معاوية؛ كذا نسبه صاحب اللسان ١٧: ٨٨؛ ونقل عن ابن برى أنها تروى لأبى دهبل.

شِقْوَتُنَا ﴾ (١) . واستوهَنوا : عدّوه واهنا ضعيفا . والنَّظِرة ، بفتح النون وكسر الظاء : الإمهال والتأخير .

فأما معانى الفصل فظاهرة ، وفيه مع ذلك مباحث :

منها أن يقال : اللام فى قوله : « لوقت معدود » بماذا تتعلق ؟

والجواب ، أنّها تتعلق بمحذوف تقديره : « حتى صلصلت كائنة لوقت » ، فيكون الجار والمجرور فى موضع الحال ، ويكون معنى الكلام أنه أصْلَدها حتى يبست وجفّت معدّة لوقت معلوم ، فنفخ حينئذ روحَه فيها . ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله : « فجَبَل » أى جَبَل وخَلَق من الأرض هذه الجثّة لوقت ، أى لأجل وقت معلوم ، وهو يوم القيامة .

* * *

ومنها أن يقال : لماذا قال : « مِنْ حَزْن الأرض وسَهْلها ، وعَذْبها وسَبَخها » ؟

والجواب ، أن المراد من ذلك أن يكون الإنسانُ مركّبا من طباع مختلفة ، وفيه استعداد للخير والشرّ ، والحسْن والقبح .

* * *

ومنها أن يقال : لماذا أخَّر نفخَ الروح فى جثة آدَم مدة طويلة ، فقد قيل : إنه بقىَ طينا تشاهده الملائكة أربعين سنة ، ولا يعلمون ما المراد به ؟

والجواب ، يجوز أن يكون فى ذلك (٢) لطف للملائكة ، لأنهم تذهب ظنونهم فى ذلك (٢) كلّ مذهب ، فصار كإنزال المتشابهات الذى تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها ، وفى ضمن ذلك يكون اللطف . ويجوز أن يكون فى إخبار ذرّيّة آدم بذلك فيما بعد لطف بهم (٣) ، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان المخبَر عنه حقًّا .

---

(١) سورة « المؤمنون » ١٠٦ .

(٢ – ٢) ساقط من ا .

(٣) ب : « لهم » .

ومنها أن يقال : ما المعنىّ بقوله : « ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ » ؟

الجواب ، أنّ النفس لما كانت جوهراً مجرّداً ، لا متحيزة ولا حالّة فى المتحيّز حَسُن لذلك نسبتها إلى البارئ ، لأنها أقرب إلى الانتساب إليه من الجثمانيات (١) . ويمكن أيضاً أن تكونَ لشرفها مضافة إليه ، كما يقال : بيت الله ، للكعبة وأما النفخ فعبارة عن إفاضة النفس على الجسد ، ولما كان نفخ الريح فى الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه، وكان الإحياء عبارةً عن إفاضة النفس على الجسد، ويستلزم ذلك حلولَ القُوَى والأرواح فى الجثة باطنا وظاهراً ، سُمِّى ذلك نفخا مجازا .

* * *

ومنها أن يقال : ما معنى قوله : « معجونا بطينةِ الألوان المختلفة » ؟

الجواب ، أنه عليه السلام قد فسّر ذلك بقوله : «من الحرّ والبرد ، والبَلّة والجمود» ، يعنى الرطوبة واليبوسة ؛ ومراده بذلك المزاج الذى هو كيفية واحدة حاصلة من كيفيات مختلفة ، قد انكسر بعضها ببعض . وقوله : «معجونا» صفة « إنسانا » . والألوان المختلفة ، يعنى الضروبَ والفنون ، كما تقول (٢) : فى الدار ألوان من الفاكهة .

* * *

ومنها أن يقال : ما المعنىّ بقوله : « واستأدى الملائكة وديعته لديهم » ؟ أو كيف كان هذا العهدُ والوصية بينه وبينهم ؟

الجواب ، أن العهد والوصيةَ هو قوله تعالى لهم : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) يقال : جثمان الرجل وجسمانه ، أى جسده .
(٢) ا : « كما يقال » .
(٣) سورة ص ٧١ ، ٧٢ .

ومنها أن يقال : كيف كانت شُبهة إبليس وأصحابه فى التعزّز بخلقة النار ؟

الجواب ، لما كانت النار مشرِقة بالذات والأرض مظلمة ، وكانت النار أشبهَ بالنور، والنور أشبه بالمجردات ، جعل إبليسُ ذلك حجة احتجّ بها فى شَرَف عنصرِه على عُنْصر آدم عليه السلام ، ولأنّ النار أقربُ إلى الفَلَك من الأرض ، وكلّ شىء كان أقربَ إلى الفلك من غيره كان أشرفَ ، والبارئ تعالى لم يعتبر ذلك ، وفَعَل سبحانه مايعلم أنه المصلحة والصواب .

* * *

ومنها أن يقال : كيف يجوز السجود لغير الله تعالى ؟

والجواب ، أنه قيل: إنّ السجود لم يكن إلا لله تعالى،وإنما كان آدم عليه السلام قِبْلة. ويمكن أن يقالَ : إن السجود لله على وجه العبادة،ولغيره على وجه التّكرمة ؛ كما سجد أبو يوسف وإخوته له . ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فى حسن ذلك وقبحه .

* * *

ومنها أن يقال : كيف جاز على ما تعتقدونه من حِكْمة البارئ أن يسلّط إبليس على المكلّفين ؛ أليس هذا هو الاستفساد الذى تأبَوْنه وتمنعونه !

والجواب ، أما الشيخ أبو علىّ رحمه الله فيقول : حدُّ المفسدة ماوقع عند الفساد ، ولولاه لم يقع مع تمكّن المكلّف من الفعل فى الحالَيْن،ومَنْ فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه هذا الحدّ، لأن الله تعالى عَلِم أن كلّ من فسد عند دعائه ، فإنه يفسد ، ولو لم يَدْعُه .

وأما أبو هاشم رحمه الله ، فيحدّ المفسدة[1] بهذا الحدّ أيضا ، ويقول : إن فى الإتيان بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقّةً زائدة على مشقة الإتيان بها،لو لم يدع إبليس إلى

(١) ج : « الفساد » .

القبيح ، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافها خارجاً عن الحدّ المذكور ، وداخلا فى حيّز التمكّن الذى لو فرضنا ارتفاعَه لما صحّ من المكلّف الإتيانُ بالفعل، ونحن قلنا فى الحدّ مع تمكّن المكلّف من الإتيان بالفعل فى الحالين .

***

ومنها أن يقال : كيف جازَ للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس :﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى يوم القيامة ! وهذا إغراء بالقبيح ، وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد : أنت لا تموت إلى سنة ، بل إلى شَهر أو يوم واحد ، لما فيه من الإغراء بالقبيح ، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد .

والجواب ، أنّ أصحابنا قالوا : إنّ البارئ تعالى لم يقل لإبليس : إنى مُنظِرُك إلى يوم القيامة ؛ وإنما قال : ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه ، وكل مكلّف من الإنس والجنّ مُنْظَر إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير ، وإذا[1] كان كذلك لم يكن إبليس عالما أنه يبقى لا محالة ، فلم يكن فى ذلك إغراء له[2] بالقبيح .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « وإنجازاً لِلْعِدَة » ؟ أليس معنى ذلك أنه قد كان وَعَده أن يُبقِيَه إلى يوم القيامة !

قلت : إنما وعده الإنظار ، ويمكن أن يكون إلى يوم القيامة وإلى غيره من الأوقات ، ولم يبيّن له ، فهو تعالى أنجز له وعده فى الإنظار المطلق ، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يُخترم إبليس[3] فلا يحصل الإغراء بالقبيح . وهذا الكلام عندنا ضعيف ، ولنا فيه نظر مذكور فى كتبنا الكلاميّة .

***

(١) ا : « فإذا » .

(٢) كلمة « له » ساقطة من ا .

(٣) كلمة « إبليس » ساقطة من ب .

الأصل :

ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً ، وَبِالاعْتِزَازِ نَدَماً .

ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ ؛ فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ .

* * *

الشرح :

أما الألفاظ فظاهرة ، والمعانى أظهر ، وفيها مايُسأل عنه .

فمنها أن يقال : الفاء فى قوله عليه السلام : « فأهبطه » ، تقتضى أن تكون التوبة على آدم قبل هبوطه من الجنة .

والجواب ، أن ذلك أحد قولَى المفسرين ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾[1] ، فجعل الهبوط بعد قبول التوبة .

ومنها أن يقال : إذا كان تعالى قد طَرَدَ إبليس من[2] الجنة لما أبَى السجود ، فكيف توصّل إلى آدم وهو فى الجنة حتى استنزله عنها بتحسين أكل الشجرة له !

الجواب ، أنه يجوز أن يكون إنما مُنِع من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام ،

---

(١) سورة طه ١٢١ ـ ١٢٣

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « عن الجنة » .

كدخول الملائكة ، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه . وقيل : إنه دخل فى جوف الحية ، كما ورد فى التفسير .

ومنها أن يقال : كيف اشتبه على آدم الحال فى الشجرة المنهىّ عنها فخالف النهى !

الجواب ، أنه قيل له : لا تقربا هذه الشجرة ؛ وأريد بذلك نوع الشجرة ، فحمل آدم النهىَ على الشّخص ، وأكل من شجرة أخرى من نوعها .

ومنها أنْ يقال : هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام ؛ وهو قوله : « فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهْنه » ، فما قولكم فى ذلك ؟

الجواب ، أمّا أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه ، ويقولون : إنها كانت صغيرة ، وعندهم أنّ الصغائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام . وأما الإماميّة فيقولون: إنّ النهىَ كان نهىَ تنزيه لا نهى تحريم ، لأنهم لا يجيزون على الأنبياء الغلط والخطأ ، لا كبيرا ولا صغيرا ، وظواهرُ هذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم .

* * *

[اختلاف الأقوال فى ابتداء خلق البشر]

واعلم أنّ الناس اختلفوا فى ابتداء خلق البشر كيف كان ، فذهب أهلُ الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أنّ مبدأ البشر هو آدم ، الأبُ الأوّل عليه السلام . وأكثر ما فى القرآن العزيز من قصّة آدم مطابق لما فى التوراة .

وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك :

أما الفلاسفة ، فإنهُمْ زعموا أنه لا أوّل لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع .

وأمّا الهند ، فمنْ كان منهم على رأى الفلاسفة فقوله ما ذكرناه . ومَنْ لم يكن منهم

على رأى الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يُثبت آدم ، ويقول : إنّ الله تعالى خلَق الأفلاك وخلَق فيها طباعا محرِّكة لها بذاتها ، فلما تحرّكت — وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء — كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفَلك المتحرّك أسخنَ وألطف ، والبعيدُ أبرد وأكثف . ثم اختلطت العناصر ، وتكوّنت منها المركّبات ، ومنها تكوّن نوع البشر كما يتكوّن الدود فى الفاكهة واللحم ، والبقّ فى البطائح والمواضع العفنة ، ثم تكوّن بعضُ البشر من بعض بالتوالد ، وصار ذلك قانونا مستمرًّا ، ونُسِيَ التخليق الأول الذى كان بالتولّد[1] . ومن الممكن أن يكون بعضُ البشر فى بعض الأراضى القاصية مخلوقا بالتولُّد[1] ، وإنما انقطع التولّد ، لأنّ الطبيعةَ إذا وجدت للتكوّن طريقا استغنت به عن طريق ثان .

وأما المجوس فلا يعرفون آدم ، ولا نوحا ، ولا ساما ، ولا حاما ، ولا يافث . وأوّلُ متكوّن عندهم من البشر البشرىّ[2] المسمى « كَيُومَرْث » ، ولقبه « كوشاه » ، أى ملك الجبل ، لأن « كو » هو الجبل بالفَهْلوية ، وكان هذا البشر فى الجبال . ومنهم من يسميه « كلشاه » أى ملك الطين ، و « كل » اسم الطّين ؛ لأنه لم يكن حينئذ بشر ليملكهم .

وقيل: تفسير « كيومرث »: حىّ ناطق ميت . قالوا : وكان قد رزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأُغْمِىَ عليه ، ويزعمون أنّ مبدأ تكوّنه وحدوثه أنّ يزدان — وهو الصانع الأوّل عندهم — أفكر[3] فى أمر أهرِمن ، — وهو الشيطان عندهم — فكرةً أوجبت أنْ عرق جبينه ، فمسح العرق ورمى به ، فصار منه كيومَرث . ولهم خَبْط طَويل فى كيفية تكوّن « أهرِمن » من فكرة « يزدان » أو من إعجابه بنفسه ، أو من توحّشه ، وبينهم خلاف فى قِدَم « أهرمن » ، وحدوثه لا يليق شرحه بهذا الموضع[4] .

(١) كذا فى ج ، وفى باقى الأصول : « التوالد » .
(٢) ب : « البشر » .
(٣) أفكر وفكر بالتشديد ، بمعنى .
(٤) انظر الشاهنامة ١٤ .

ثم اختلفوا فى مدة بقاء كَيُومرث فى الوجود ، فقال الأكثرون : ثلاثون سنة . وقال الأقلون : أربعون سنة . وقال قوم منهم : إن كَيُومرث مكث فى الجنة التى فى السماء ثلاثة آلاف سنة ، وهى : ألف الحَمَل ، وألف الثور ، وألف الجوزاء . ثم أُهبط إلى الأرض فكان بها آمنا مطمئنا ثلاثة آلاف سنة أخرى ، وهى : ألف السرطان ، وألف الأسد ، وألف السنبلة .

ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة فى حَرْب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك (١) .

واختلفوا فى كيفيّة هلاكه ، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلا ، فالأكثرون قالوا : إنه قتل ابنا لأهرمن يُسَمَّى خزورَة ، فاستغاث أهرِمن منه إلى يزدان ، فلم يجد بدّا من أن يقاصّه به حفظا للعهود التى بينه وبين أهرِمن ، فقتله بابن أهرِمن . وقال قوم : بل قتله أهرِمن فى صراع كان بينهما ، قهره فيه أهرِمن ، وعلاه وأكَلَه (١) .

وذكروا فى كيفية ذلك الصراع أن كُيومرث كان هو القاهر لأهرمن فى بادئ الحال ، وأنه ركبه وجعل يطوف به فى العالم إلى أن سأله أهرمن : أىّ الأشياء أخوف له وأهولها عنده ؟ فقال له : باب جهنم ، فلما بلغ به أهرِمن إليها جمح به حتى سقط من فوقه ، ولم يستمسك ، فعلاه وسأله عن أىّ الجهات يبتدئ به فى الأكل ، فقال : من جهة الرِّجْل لأكون ناظراً إلى حُسْن العالم مدة ما ، فابتدأه أهرِمن فأكله من عند رأسه ، فبلغ إلى موضع الخصىّ وأوعية المنىّ من الصلب ، فقطر من كُيومرت قطرتا نُطْفة على الأرض ، فَنبت منهما رِيباستان (٢) فى جبل بإصْطَخر يعرف بجبل دام داذ ؛ ثم ظهرت على تينك الرِّيباستين الأعضاء البشرية فى أول الشهر التاسع ، وتمت فى آخره ، فتصوّر منهما بَشَران : ذكر وأنثى ، وهما « ميشى » ، « وميشانه » ، وهما بمنزلة آدم وحوّاء عند الملّيين . ويقال لهما أيضاً : «ملهى» و « ملهيانه » ، ويسمّيهما مجوس خوارزم : « مرد » و « مردانه » ،

(١) انظر الشاهنامة ١٤ .

(٢) الريباس ، بالكسر : نبت له عساليج غضة خضراء ، عراض الورق ، طعمها حامض مع قبض ، ينبت فى الجبال ذات الثلوج والبلاد الباردة من غير زرع . المعتمد ١٢٣

وزعموا أنهما مكثا خمسين سنة مستغنيَيْن عن الطعام والشراب ، متنعمَيْن غير متأذّيَيْن بشيء إلى أن ظهر لهما أهرمن فى صورة شيخ كبير ، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها ، وهما يبصرانه شيخا ، فعاد شابا ، فأكلا منها حينئذٍ ، فوقعا فى البلايا والشرور ، وظهر فيهما الحِرْص حتى تزاوجا ، وولد لهما ولد فأكلاه حِرصاً ، ثم ألقى الله تعالى فى قلوبهما رأفةً ، فولد لهما بعد ذلك ستةُ أبطن ؛ كل بطن ذكر وأنثى ، وأسماؤهم فى كتاب أبستا — وهو الكتاب الذى جاء به زرادشت — معروفة ، ثم كان فى البطن السابع « سيامك » و « فرواك » ، فتزاوجا ، فولد لهما الملك المشهور الذى لم يعرف قبله ملك وهو « أوشَهنج » ، وهو الذى خلف جدّه كيومرث ، وعقد له التاج ، وجلس على السرير ، وبنى مدينتَىْ بابل والسوس .

فهذا ما يذكره المجوس فى مبدأ الخلق .

* * *

[تصويب الزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم]

وكان فى المسلمين — ممّن يرمى بالزندقة — مَنْ يذهب إلى تصويب إبليس فى الامتناع من السجود ، ويفضّله على آدم ، وهو بشار بن برد المرعّث [١] ، ومن الشعر المنسوب إليه :

النّارُ مُشْرِقةٌ والأرْضُ مظلِمَةٌ والنّارُ معبودة مذ كانتِ النّارُ [٢]

---

(١) فى اللسان : « سمى بذلك لرعاث كانت له فى صغره فى أذنه » . والرعاث جمع رعثة ، وهى ماعلق فى الأذن من قرط ونحوه . وروى صاحب الأغانى : وإنما سمى المرعث بقوله :

قُـلْتُ رِيمٌ مُرَعّثٌ ساحِرُ الطّرفِ والنّظَرْ
لَسْتَ واللهِ نَائِـلِى قُـلْتُ أوْ يَغْلِبُ القَـدَرْ
أنْتَ إنْ رُمْتَ وَصْلَنَا فانْجُ ، هَلْ تُدْرِكُ القَمَرْ !

(٢) الأغانى ٣ :

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزّالى الواعظ[1]، أخو أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزّالى الفقيه الشافعىّ ، قاصًّا لطيفا وواعظا مفوّها ، وهو من خُراسان من مدينة طُوس ، وقدم إلى بغداد ، ووعظ بها ، وسلك فى وعظه مسلكا منكراً ، لأنه كان يتعصب لإبليس ، ويقول : إنه سيّد الموحدين ، وقال يوما على المنبر : من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق ، أُمِر أن يسجد لغير سيّده فأبى :

وَلَسْتُ بضارع إلا إليكُمْ ... وأما غيرُكم حَاشَا وَكلاَّ

وقال مرة أخرى : لما قال له موسى : « أرنى » فقال : « لن[2] » قال : هذا شغلك [3] ، تصطفى آدم ثم تسوّد وجهه ، وتخرجه من الجنة ، وتدعونى إلى الطّور ، ثم تُشمت بى الأعداء ! هذا عملك بالأحباب [4] ، فكيف تصنع بالأعداء[5] !

وقال مرّة أخرى وقد ذكر إبليس على المِنْبر : لم يدر ذلك المسكينُ أنّ أظافير القضاء إذا حكّت أدْمَتْ ، وأنّ قِسِىّ القدَر إذا رَمَتْ أصمت : ثم قال : لسان حال آدم ينشد فى قصته وقصة إبليس :

وَكُنتُ وليلَى فى صُعُودٍ من الْهوَى ... فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ

وقال مرّة أخرى : التقى موسى وإبليس عند عَقَبة الطور ، فقال موسى : يا إبليس ، لِمَ لم تسجد لآدمَ ؟ فقال : كلاّ ، ما كنت لأسجدَ لبشر ، كيف أوحّده ثم ألتفتُ إلى غيره ! ولكنك أنت يا موسى سألتَ رؤيتَه ثم نظرت إلى الجبل ، فأنا أصدق منك فى التوحيد .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى الجزء التاسع من المنتظم ص ٢٦٠ ؛ ضمن وفيات سنة ٥٢٠ ، وقال عنه : « الغالب على كلامه التخليط ورواية الأحاديث الموضوعة والحكايات الفارغة والمعانى الفاسدة ؛ وقد علق عنه كثير من ذلك » . وذكره أيضاً ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٢٩٣ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى قصة موسى من سورة الأعراف ١٤٣ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي . . . ﴾ .

(٣) المنتظم : « شأنك » .

(٤) المنتظم : « الأخيار » .

(٥) المنتظم ٩ : ٢٦١ .

وكان هـذا النمّط فى كلامه ينْفق على أهل بغداد ، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير . وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزىّ فى " التاريخ " أنه قال على المنبر : معاشرَ الناس ، إنى كنتُ دائما أدعوكم إلى الله ، وأنا اليوم أحذّركم منه ، والله ماشُدّت الزنانير إلا فى حبّه ، ولا أُدّيت الجِزْية إلا فى عشقه .

وقال أيضا : إن رجلا يهوديا أدخل عليه ليُسْلم على يده ، فقال له : لا تُسْلم ، فقال له الناس : كيف تمنعه من الإسلام ! فقال : احملوه إلى أبى حامد ـ يعنى أخاه ـ ليعلمه « لا » (١) : لا المنافقين . ثم قال : ويحكم أتظنون أن قوله : « لا إله إلا الله » منشورُ ولايته ! ذا منشور عزله (٢) . وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلوّ والشَّطْح .

ويروى عن أبى يزيد البِسْطامىّ (٣) منه كثير .

ومما يتعلّق بما نحن فيه ما رووْه عنه من قوله :

فمَنْ آدمُ فى البَيْنِ ... وَمَنْ إبليسُ لولا كا !
فتنتَ الكلّ والكلّ ... مع الفِتْنَةِ يهْوا كا

ويقال : أوّل مَنْ قاس إبليس ، فأخطأ فى القياس وهلك بخطئه . ويقال : إنّ أولَ حمّية وعصبية ظهرت عصبيةُ إبليس وحميته .

* * *

[اختلاف الأقوال فى خلق الجنة والنار]

فإن قيل : فما قول شيوخكم فى الجنّة والنار ؟ فإنّ المشهور عنهم أنهما لم يُخلقا وسيخلقان

(١) فى المنتظم : « يعنى : لا إله إلا الله » .

(٢) عبارة المنتظم : « أفنسوا عزله ! » . قال ابن الجوزى بعد أن أورد هذه الحكايات : « لقد أدهشنى نفاق هـذا الهذيان فى بغداد وهى دار العلم ، ولقد حضر مجلسه يوسف الهمذانى ، فقال : مدد كلام هذا شيطانى لاربانى ، ذهب دينه والدنيا لاتبقى له » .

(٣) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى ؛ توفى سنة ٢٦١ . طبقات الصوفية للسلمى ٦٧ .

عند قيام الأجسام ، وقد دلّ القرآن العزيز ، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل بأنّ آدم كان فى الجنة وأخرج منها .

قيل : قد اختلف شيوخُنا رحمهم الله فى هذه المسألة ، فمن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول : قد ثبتَ بدليل السمع أن سائر الأجسام تُعدَم ولا يبقى فى الوجود إلا ذات الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ (٢) ، فلما كان « أوّلا » بمعنى أنه لا جسم فى الوجود معه فى الأزَل وجب أن يكون « آخرا » ، بمعنى أنه لا يبقى فى الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال ، وبآيات كثيرة أخرى . وإذا كان لا بدّ من عدم سائر الأجسام لم يكنْ فى خَلْق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة ؛ لأنه لا بدّ أن يُفنيهما مع الأجسام التى تَفنى يوم القيامة، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى . ويَحْمِلون الآيات التى دلّت على كون آدم عليه السلام كان فى الجنة وأخرج منها ، على بستان من بساتين الدنيا . قالوا : والهبوط لا يدلّ على كونهما فى السماء لجواز أنْ يكون فى الأرض ؛ إلا أنهما فى موضع مرتفع عن سائر الأرض .

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا : إنهما مخلوقتان الآن ، واُعترفوا بأنّ آدم كان فى جنة الجزاء والثواب ، وقالوا : لا يبعد أن يكون فى إخبار المكلّفين بوجود الجنة والنار لطف لهم فى التكليف ، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقا ، وإنما يكون صدقا إذا كان خَبَره على ما هو عليه .

***

[القول فى آدم والملائكة أيهما أفضل]

فإن قيل : فما الذى يقوله شيوخكم فى آدم والملائكة : أيّهما أفضل ؟

قيل : لا خلافَ بين شيوخنا رحمهم الله أنّ الملائكة أفضلُ من آدم ومن جميع الأنبياء

---

(١) سورة القصص ٨٨ .
(٢) سورة الحديد ٣ .

عليهم السلام ، ولو لم يدلّ على ذلك إلا قوله تعالى فى هذه القصة : ﴿ إلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ ﴾(١) ، لكفى .

وقد احتجّ أصحابنا أيضا بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(٢) ، وهذا كما تقول : لا يستنكف الوزير أنْ يعظّمنى ويرفع من منزلتى ولا الملكُ أيضاً . فإن هذا يقتضى كونَ الملك أرفع منزلة من الوزير . وكذلك قوله : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، يقتضى كونهم أرفع منزلة من عيسى .

ومما احتجُّوا به قولُهُمْ : إنه تعالى لما ذكر جبريل ومحمداً عليهما السلام فى معرض المدح ، مدح جبريل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمداً عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾(٣) . فالمديح الأول لجبريل والثانى لمحمد عليهما السلام ، ولا يخفى تفاوتُ ما بين المدحين .

فإن قيل : فهل كان إبليسُ من الملائكة أم من نوع آخر ؟ قيل : قد اختُلف فى ذلك فمن قال : إنه من الملائكة احتجّ بالاستثناء فى قوله : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾(٤) ، وقال : إنّ الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل . ومن قال : إنه لم يكنْ منهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾(٥) .

وأجاب الأولون عن هذا فقالوا : إنّ الملائكة يُطلق عليهم لفظ الجنّ لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين . وقالوا : قد ورد ذلك فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

(١) سورة الأعراف ٢٠ .
(٢) سورة النساء ١٧٢ .
(٣) سورة التكوير ١٩ – ٢٤ .
(٤) سورة الحجر ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة الكهف ٥٠

وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (١) ، والجنة هاهنا هم الملائكة ، لأنهم قالوا : إن الملائكةَ بناتُ اللهِ ، بدليل قوله : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ (٢) ، وكتب التفسير تشتمل من هذا على مالا نرى الإطالة بذكره .

* * *

فأما القطب الراوندىّ فقال فى هذين الفصلين فى تفسير ألفاظهما اللغوية : العذْب من الأرض ما يُنبِت ، والسَّبَخ : مالا ينبت ؛ وهذا غير صحيح ، لأن السَّبِخ يُنْبِت النخل ، فيلزم أن يكون عَذْبًا على تفسيره !

وقال : فجَبَل منها صورة ، أى خلق خلْقا عظيما . ولفظة « جَبَل » فى اللغة تدلّ على « خلَق » سواء كان المخلوقُ عظيما أو غير عظيم .

وقال : الوصول : جمع وُصْل ، وهو العضو، وكلّ شىء اتّصل بشىء فما بينهما وُصلة . والفصول : جمع فَصل وهو الشىء المنفصل ، وما عرفنا فى كتب اللغة أنّ الوُصل هو العضو ، ولا قيل هذا .

وقوله بعد ذلك : وكلّ شىء اتصل بشىء فما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير . والصحيح أنّ مراده عليه السلام أظهرُ من أن يُتَكَلَّف له هذا التكلُّف، ومراده عليه السلام أنّ تلك الصورَة ذاتُ أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد ، وذاتُ أعضاء منفصلة فى الحقيقة ، وإن كانت متصلة بروابط خارجة عن ذواتها كاتصال الساعد بالمِرْفق واتصال الساق بالفَخذ .

ثم قال : يقال : استخدمته لنفسى ولغيرى ، واختدمتهُ لنفسى خاصّة ، وهذا مما لم أعرفه ، ولعله نقله من كتاب .

---

(١) سورة الصافات ١٥٨ .
(٢) سورة الإسراء ٤٠ .

ثم قال : والإذعان : الانقياد ، والخنوع : الخضوع ؛ وإنما كرّر الخنوع بعد الإذعان لأن الأول يُفيد أنهم أُمِروا بالخضوع له فى السجود ، والثانى يفيد ثباتَهم على الخضوع لتكرمته أبدا .

ولقائل أن يقول : إنّه لم يكرر لفظة « الخنوع » ، وإنما ذكر أولا الإذعان ، وهو الانقياد والطاعة ، ومعناه أنهم سجدوا ، ثم ذكر الخنوع الذى معناه الخضوع ،وهو يعطى معنى غيرَ المعنى الأول ،[1] لأنه ليس كلُّ ساجدٍ خاضعا بقلبه ، فقد يكون ساجدا بظاهره دون باطنه . وقول الراونديّ : أفاد بالثانى ثباتَهم على الخضوع له لتكرمته أبدا تفسير لا يدلّ عليه اللفظ ، ولا معنى الكلام .

ثم قال : قبيلُ إبليس نسلُه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾[2] ، وكل جيل من الإنس والجنّ قبيل . والصحيح أنّ قبيلَه نوعه ، كما أن البشر قبيل كل بشريّ ، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا . وقد قيل أيضاً : كلّ جماعة قبيل وإن اختلفوا ، نحو أن يكون بعضهم رُوماً وبعضهم زَنْجاً ، وبعضهم عرَبا ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ لا يدلّ على أنهم نسلُه .

وقوله بعد : « وكلُّ جيل من الإنس والجن قَبيل » ينقضُ دعواه أن قبيلَه لا يكون إلا نسله .

ثم تكلّم فى المعانى فقال : إن القياس الذى قاسه إبليس كان باطلا ، لأنه ادّعى أن النارَ أشرفُ من الأرض ، والأمر بالعكس ؛ لأنّ كلّ مايدخل إلى النار ينقص ، وكلّ مايدخل التراب يزيد . وهذا عجيب ! فإنّا نرى الحيواناتِ الميتة إذا دُفنت فى الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة فى الأرض ؛ على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضُها ، وإنّما استحالت إلى صور أخرى .

---

(١) ا : « فإنه » .

(٢) سورة الأعراف ٢٧ .

ثم قال : ولما علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح ، علمنا أن آدم كان أفضل من الملائكة فى ذلك الوقت وفيما بعده .

ولقائل أن يقول : أليس قد سَجَد يعقوب ليوسفَ عليه السلام ! أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضلُ من يعقوب ! ولا يقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ (١) : لا يدلّ على سجود الوالدين ؛ فلعلّ الضميرَ يرجع إلى الإخوة خاصة ، لأنّا نقول: هذا الاحتمال مدفوع بقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٢) ، وهو كناية عن الوالدين .

وأيضاً قد بينَّا أنّ السجود إنما كان لله سبحانه ، وأنّ آدم كان قِبلة ، والقِبْلة لا تكون أفضلَ من الساجد إليها ، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضلَ من النبيّ عليه السلام !

* * *

الأصْلُ :

وَٱصْطَفَىٰ سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى ٱلْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ، وَعَلَىٰ تَبْلِيغِ ٱلرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ ٱللهِ إِلَيْهِمْ ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَٱتَّخَذُوا ٱلْأَنْدَادَ مَعَهُ ، وَٱجْتَالَتْهُمُ ٱلشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَٱقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ (٣) رُسُلَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ ٱلْعُقُولِ ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ ٱلْمَقْدِرَةِ ؛ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ ، وَأَحْدَاثٍ تَتَتَابَعُ عَلَيْهِمْ .

وَلَمْ يُخْلِ ٱللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ ،

---

(١) سورة يوسف ١٠٠ . (٢) سورة يوسف ٤ .

(٣) مخطوطة النهج : « إليهم » .

أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ ؛ رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

اجتالتْهم الشياطين : أدارتهم ؛ تقول : اجتال فلان فلانا ، واجتاله عن كذا وعلى كذا ، أى أداره عليه ، كأنّه يصرّفه تارة هكذا وتارة هكذا ، يُحَسِّن له فعلَه ، ويُغْرِيه به .

وقال الراونديّ : اجتالتْهم : عَدَلت بهم ؛ وليس بشىء .

وقوله عليه السلام : « واتَر إليهم أنبياءه » ، أى بعثهم وبيْن كل نبيَّيْن فترة،وهذا مما تغلَط فيه العامة فتظنّه كما ظنّ الراونديّ أنّ المرادَ به المرادفة والمتابعة . والأوصاب : الأمراض . والغابر : الباقى .

* * *

ويُسأل فى هذا الفصل عن أشياء :

منها ، عن قوله عليه السلام : « أخَذَ على الوَحْى ميثاقهم » .

والجواب ، أنّ المراد أخَذ على أداء الوحى ميثاقَهم ، وذلك أنّ كلّ رسول أرسِل فمأخوذٌ عليه أداء الرسالة ، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله عليه السلام : « ليستأدُوهم ميثاقَ فِطْرَته » ؟ هل هذا

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .

إشارة إلى مايقوله أهل الحديث فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (١) ؟

والجواب ، أنه لا حاجة فى تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر ، ومرادُه عليه السلام بهذا اللفظ أنّه لمّا كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزةً فى العقول، أرسلَ سبحانه الأنبياء أو بعضهم ، ليؤكدوا (٢) ذلك المركوزَ فى العقول. وهذه هى الفطرةُ المشار إليها بقوله عليه السلام : « كلّ مولود يُولَد على الفطرة » .

ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله : «أو حُجّة لازمة» ؟ هل هو إشارة إلى مايقوله الإمامية ، من أنه لابُدّ فى كلّ زمان من وجود إمام معصوم ؟

الجواب ، أنّهم يفسرون هذه اللفظة بذلك. ويمكن أن يكونَ المرادبها حُجّة العقل.

وأما القطب الراوندىّ، فقال فى قوله عليه السلام: «واصطفى سبحانه من وَلَده أنبياء»: الولَد يقال على الواحد والجمع، لأنه مصدر فى الأصل ، وليس بصحيح ، لأنّ الماضىَ «فعَل» بالفتح ، والمفتوح لا يأتى مصدرُه بالفتح ، ولكنّ « فَعَلاً » مصدر « فَعِل » بالكسر، كقولك : وَلِهْتُ عليه وَلَهاً ، ووَحِمَت المرأةُ وَحَماً .

ثم قال : إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح ، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السِّيَر .

ثم قال : وكلٌّ واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر ، ولا يردعُه عن ذلك قلةعدد أوليائه ، ولا كثرةُ عدد أعدائه ؛ فيقال له: هذا خلاف قولك فى الأئمة المعصومين، فإنّك تجيز عليهم التقيّة وتركَ القيام بالأمر إذا كثُرت أعداؤهم .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « مِنْ سابق سُمِّى له مَنْ بعده ، أو غابرٍ عرّفه

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .
(٢) ا : « ليؤكد ذلك المركوز» .

مَنْ قبله » : كان من ألطاف الأنبياء المتقدمين وأوصيائهم ، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصياءهم ، فعرّفهم الله تعالى ذلك ، وكان من اللطف بالمتأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوال المتقدمين من الأنبياء والأوصياء ، فعرّفهم الله تعالى ذلك أيضاً ، فتمّ اللطف لجميعهم.

ولقائل أن يقول: لو كان عليه السلام قال : «أو غابر عرَف من قبله» لكان هذا التفسير مطابقا ، ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك ، وإنما قال : « عرّفه مَنْ قبله » وليس هذا التفسير مطابقا لقوله : « عرّفه ». والصحيح أنّ المراد به: من نبيّ سابق عرّف مَنْ يأتي بعده من الأنبياء، أي عرّفه الله تعالى ذلك، أو نبيّ غابرٍ نصّ عليه مَنْ قبله ، وبشّر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام .

* * *

الأصْلُ :

عَلَىٰ ذَٰلِكَ نَسَلَتِ ٱلْقُرُونُ ، وَمَضَتِ ٱلدُّهُورُ ، وَسَلَفَتِ ٱلآبَاءُ ، وَخَلَفَتِ ٱلْأَبْنَاءُ ؛ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ ، وَإِتْمَامِ (١) نُبُوَّتِهِ ، مَأْخُوذاً عَلَى ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ، كَرِيماً مِيلَادُهُ؛ وَأَهْلُ ٱلْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلهِ بِخَلْقِهِ ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي ٱسْمِهِ ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ ٱلضَّلَالَةِ ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلْجَهَالَةِ .

ثُمَّ ٱخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَكْرَمَهُ (٢) عَنْ دَارِ ٱلدُّنْيَا ، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ ٱلْبَلْوَىٰ ؛ فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ ٱلْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا — إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ،

---

(١) مخطوطة النهج : « وتمام » .   (٢) مخطوطة النهج : « فأكرمه » .

وَلا عَلَمٍ قَائِمٍ ـ كِتَابَ رَبِّكُمْ ، مُبَيِّنًا (١) حَلالَهُ وَحَرَامَهُ ، وفَرَائِضَهُ وفَضَائِلَهُ ، وَنَاسِخَهُ ومَنْسُوخَهُ ، ورُخَصَهُ وعَزَائِمَهُ ، وخَاصَّهُ وعَامَّهُ ، وعِبَرَهُ وأَمْثَالَهُ ، وَمُرْسَلَهُ ومَحْدُودَهُ ، ومُحْكَمَهُ ومُتَشَابِهَهُ ؛ مُفَسِّراً جُمَلَهُ ، ومُبَيِّنًا غَوامِضَهُ ؛ بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ ، ومُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ ، وبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ ، ومَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ ، وَواجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ ، ومُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ ، وبَيْنَ وَاجِبٍ لِوَقْتِهِ ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ . ومُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ . وبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ ، ومُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ .

* * *

الشرح :

قوله عليه السلام : « نَسَلت القرون » ، ولدت . والهاء فى قوله : « لإنجاز عِدَته » راجعة إلى البارئ سبحانه . والهاء فى قوله : « وإتمام نبوّته » ، راجعة إلى محمد صلى الله عليه وآله . وقوله : « مأخوذ على النبيين ميثاقه » ، قيل : لم يكن نبيّ قطّ إلا وبُشِّر بمبعث محمد صلى الله عليه وآله ، وأخِذ عليه تعظيمه ؛ وإن كان بعدُ لم يوجد .

فأما قوله : « وأهل الأرض يومئذ مِلل متفرّقة » ، فإن العلماء يذكرون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بُعث والناس أصناف شتى فى أديانهم : يهود ، ونصارى ، ومجوس ، وصائبون ، وعَبَدة أصنام ، وفلاسفة ، وزنادقة .

* * *

[القول فى أديان العرب فى الجاهلية]

فأما الأمة التى بُعِثَ محمد صلى الله عليه وآله فيها فهم العرب ؛ وكانوا أصنافاً شتى ،

(١) ب : « فيكم » .

فنهم معطِّلة ، ومنهم غيرُ معطِّلة .

فأما المعطّلة منهم ، فبعضُهم أنكر الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾(١) ، فجعلوا الجامعَ لهم الطَّبْع ، والمهلِكَ لهم الدهر . وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعثَ ، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾(٢) . ومنهم مَنْ أقرّ بالخالق ونوعٍ من الإعادة ، وأنكروا الرّسلَ وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنها شفعاء عند الله فى الآخرة ، وحجّوا لها ، ونحروا لها الهدْىَ ، وقرّبوا لها القُرْبان ، وحلّلوا وحرّموا ، وهم جمهور العرب ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾(٣) .

فمن نطق شعره بإنكار البعث بعضُهم يرثى قتلى بدر(٤) :

فماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ الْفِتْيانِ والْقَوْمِ الْكِرَامِ !(٥)
وماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنامِ(٦)
أيخبرنا ابنُ كبشة أن سَنَحْيَا ... وَكَيْفَ حَياةُ أصْدَاءٍ وَهَامِ !
إذا ما الرأسُ زالَ بمنكبيْهِ ... فقد شَبِعَ الأنيسُ مِنَ الطَّعامِ
أيقتُلني إذا ما كُنْتُ حَيًّا ... وَيُحْيِيني إذَ رَمَّتْ عِظَامِي !

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ . (٢) سورة يس ٧٨ . (٣) سورة الفرقان ٧

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٠ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات وعددها ، ونسبها إلى شداد ابن الأسود .

(٥) ابن هشام :

* مِنَ الْقَيْنَاتِ والشَّرْبِ الْكِرَامِ *

والقليب : البئر .

(٦) البيت فى اللسان ٧ : ٢٣٠ ، ورواه : « يزين بالسنام » ، وقال فى شرحه : الشيزى : شجر يتخذ منه الجفان ؛ وأراد بالجفان أربابها الذين كانوا يطعمون فيها ، وقتلوا ببدر وألقوا فى القليب ، فهو يرثيهم ، وسمى الجفان شيزى باسم أصلها » .

وكان من العرب مَن يعتقد التناسخ وتنقُّل الأرواح فى الأجساد ، ومن هؤلاء أربابُ الهامة ، التى قال عليه السلام عنهم : « لا عَدْوَى ولا هامة ولا صَفَر » (١) . وقال ذو الأصبع :

يا عَمْرُو إلّا تَدَعْ شَتْمِى ومَنْقَصَتِى   أضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهامَةُ اسْقُونِى (٢)

وقالوا : إنّ ليلى الأخيليّة لما سلّمت على قبر تَوْبة بن الُحميِّر خرج إليها هامة من القبر صائحة ، أفزعت ناقتها ، فوقصت (٣) بها فماتت ، وكان ذلك تصديق قوله :

وَلَوْ أنّ لَيْلَى الأخْيلِيَّةَ سَلَّمَتْ   عَلَيّ ودُونى جَنْدَلٌ وَصَفائِحُ (٤)

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشاشة أو زَقَا   إليها صدًى مَنْ جانِبِ القبرصائِحُ

وكان تَوْبةُ وليلى فى أيام بنى أميّة .

وكانوا فى عبادة الأصنام مختلفين ، فمنهم مَنْ يجعلها مشارِكة للبارئ تعالى ، ويُطلِق عليها لفظة الشَّريك ، ومن ذلك قولهم فى التلبية : لبَّيْك اللهمّ لبَّيْك ، لا شريك لك ، إلّا شريكا هو لك ، تملكه وما مَلَك . ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك ، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه ، وهم الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ (٥) .

وكان فى العرب مشبّهة ومجسِّمة ، منهم أميّة بن أبى الصّلت ، وهو القائل :

مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ جالسٍ قَدْ حَطَّ رِجْ   لَيْه إلى كُرْسيِّـــه المنصوبِ

وكان جمهورهم عبَدةَ الأصنام ، فكانَ وَدّ لِكَلْب بدُومة الجندل ، وسُواع لِهُذَيل ،

---

(١) كانت العرب تزعم أن فى البطن حية يقال لها الصفر ، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه . نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٢٦ .

(٢) من قصيدة مفضلية ، المفضليات ١٦٣ .

(٣) وقصت بها ، أى سقطت عنها فماتت .

(٤) ديوان الحماسة لأبى تمام — بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٧ . والصفائح : الحجارة العراض تكون على القبور .

(٥) سورة الزمر ٣ .

ونَسْر لِحِمْيَر ، ويَغُوث لهمْدَان ، واللّات لثقيف بالطائف ، والعُزّى لـكنانة وقُريش. وبعض بنى سُلَيْم ، ومناة لغَسّان والأوْس والخزرج ، وكان هُبَل لقريش خاصّة على ظهر الـكعبة ، وأساف[١] ونائلة على الصّفا والمرْوة. وكان فى العرب مَنْ يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن ، ومنهم نصارى كبنى تَغْلِب والعِباديّين رهط عَدىّ بن زيد ، ونصارى نَجْران ، ومنهم مَنْ كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء .

فأمّا الذين ليسوا بمعطّـلة من العرب فالقليـل منهم ، وهم المتألّهون أصحـابُ الورَع[٢] والتحرّج عن القبائح ، كعبدِ الله وعبد المطلب وابنه أبى طالب ، وزيد بن عمرو ابن نُفَيْل ، وقُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، وعامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ ، وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا الفَصْل بيان قوله عليه السلام : « بينَ مشبّه لله بخلقه أو مُلْحِد فى اسمه » إلى غير ذلك ، وقد ظهر بما شرحناه .

* * *

ثم ذكر عليه السلام أن محمداً صلى الله عليه وآله خَلّف فى الأمة بعده كتاب الله تعالى طريقاً واضحاً ، وعَلَماً قائماً ، والعلم المنار يُهتدى به .

ثم قَسّم مابيّنه عليـه السلام فى الـكتاب أقساما :

فمنها حلاله وحرامه ؛ فالحلالُ كالنِّـكاح ، والحرام كالزنا .

ومنها فضائله وفرائضه ، فالفضائل النوافل ؛ أى هى فضلة غير واجبة كركعتِى الصبح وغيرها ، والفرائض كفريضة الصبح .

وقال الرّاوندىّ : الفضائل هاهنا : جمع فضيلة ، وهى الدرجة الرفيعة؛ وليس بصحيح، ألا تراه كيف جعل الفرائض فى مقابلتها وقسيما لها ، فدلّ ذلك على أنه أراد النوافل!

---

(١) أساف وإساف ، كسحاب وكتاب .
(٢) ا : « التورع » .

ومنها ناسخه ومنسوخه ، فالناسخ كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[١] ، والمنسوخ كقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[٢] .

ومنها رُخَصه وعزائمه ، فالرخص كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾[٣] والعزائم كقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٤] .

ومنها خاصّه وعامه ، فالخاصّ كقوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾[٥] ، والعامّ كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ﴾[٦] . ويمكن أن يراد بالخاصّ العمومات التى يُراد بها الخصوص كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾[٧] ، وبالعام ما ليس مخصوصا ، بل هو على عمومه كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٨] .

ومنها عِبَرُهُ وأمثالُهُ ، فالعبر كقصة أصحاب الفيل ، وكالآيات التى تتضمّن النَّكال والعذابَ النازل بأمم الأنبياء من قبل ، والأمثال كقوله : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[٩] .

ومنها مرسله ومحدوده ، وهو عبارة عن المطلق والمقيَّد ، وسمِّى المقيد محدوداً وهى لفظة فصيحة جدًّا ، كقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[١٠] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾[١١] .

ومنها محكمه ومتشابهه ، فمحكمه كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[١٢] ، والمتشابه كقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١٣] .

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية ، فقال : إنّ منه ما لا يسع أحداً جهله

---

(١) سورة التوبة ٥
(٢) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٣) سورة المائدة ٣ .
(٤) سورة محمد ١٩ .
(٥) سورة الأحزاب ٥٠
(٦) سورة البقرة ١١٠
(٧) سورة النمل ٢٣
(٨) سورة البقرة ٢٨٢
(٩) سورة البقرة ١٧
(١٠) سورة المجادلة ٣
(١١) سورة النساء ٩٢
(١٢) سورة الإخلاص ١
(١٣) سورة القيامة ٢٣

ومنه ما يسع الناس جهله ؛ مثال الأول قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[1] ، ومثال الثانى : ﴿ كهيعص ﴾ ﴿ حم عسق ﴾ .

ثم قال : ومنه ما حكمه مذكور فى الكتاب منسوخ بالسُّنة ، وما حكمه مذكور فى السّنّة منسوخ بالكتاب ؛ مثال الأول قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾[2] ؛ نسخ بما سنّه عليه السلام من رجْم الزانى المحصَن . ومثال الثانى صوم يوم عاشوراء، كان واجبا بالسّنّة ثم نسخه صوم شهر رمضان الواجب بنصّ الكتاب .

ثم قال : « وبين واجبٍ بوقته ، وزائل فى مستقبله » ، يريد الواجبات الموقّتة كصلاة الجمعة ، فإنها تجب فى وقت مخصوص ، ويسقط وجوبها فى مستقبل ذلك الوقت .

ثم قال عليه السلام : « ومباين بين محارمه » ، الواجب أن يكون « ومباينٌ » بالرّفع لا بالجرّ ، فإنه ليس معطوفا على ما قبله ، ألا ترى أنّ جميع ما قبله يستدعى الشىء وضدّه ، أو الشىء ونقيضه ؛ وقوله : « ومباين بين محارمه » لا نقيض ولا ضدّ له ، لأنه ليس القرآن العزيز على قسمين : أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين ، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع « مباين » ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . ثم فسّر ما معنى المباينة بين محارمه ، فقال : إنّ محارمَه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة ، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها بالعقاب ، والصغيرة مغفورة ؛ وهذا نصّ مذهب المعتزلة فى الوعيد .

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة ، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال : « وبين مقبول فى أدناه ، وموسّع فى أقصاه » ، كقوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾[3] فإنّ القليل من القرآن مقبول ، والكثير منه موسّع مرخّص فى تركه .

* * *

(١) سورة البقرة ٢٥٥ (٢) سورة النساء ١٥
(٣) سورة المزمل ٢٠

الأصْلُ :

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ ، وَيَوْلَهُونَ إِلَيْهِ وَلَهَ الْحَمَامِ . وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ . وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ ، يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ . جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَماً ، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً ، وفَرَضَ حَقَّهُ ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ[1] ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

* * *

الشَّرْحُ :

الوَلَه : شدة الوجْد ؛ حتى يكاد العقل يذهب ، ولَهَ الرجل يَوْلَهُ ولَهاً . ومن روى: « يألهون إليه وُلوه الحمام » فسّره بشيء آخر ، وهو: يعكُفون عليه عُكوف الحمام. وأصل «أَلَه» عبَد ، ومنه الإله، أي المعبود . ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له لملازمته والانقطاع إليه قيل : أَلَه فلان إلى كذا ، أي عكَف عليه كأنه يعبده . ولا يجوز أن يقال : « يألهون إليه » في هذا الموضع بمعنى « يَوْلَهون » ، وأنّ أصل الهمزة الواو كما فسره الراوندي؛ لأن « فعولا » لا يجوز أن يكون مصدرا من فَعِلت بالكسر ، ولو كان « يألهون » هو « يَوْلَهون » ، كان أصله «أَلِه» بالكسر ، فلم يجز أن يقول : « ولوه الحمام » ، وأما على ما فسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكونَ الولوه مصدراً ، لأن « أَلَه » مفتوح ، فصار كقولك : دخل دخولا . وباقي الفصل غنيّ عن التفسير .

(١) مخطوطة النهج : « فرض حجه ، وأوجب حقه » .
(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

[فصل فى فضل البيت والكعبة]

جاء فى الخبر الصحيح أنّ فى السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضُّراح ، وأنّ هذ البيت تحته على خط مستقيم ، وأنّه المراد بقوله تعالى بـ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾[(١)] ، أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده ، وفى الحديث : إنّ آدم لما قضى مناسكه ، وطاف بالبيت لقيتْه الملائكة ، فقالت : يا آدم ؛ لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفىْ عام .

قال مجاهد : إنّ الحاجّ إذا قدموا مكّة استقبلتْهم الملائكة ، فسلّموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحمير ، واعتنقوا المشاة اعتناقاً .

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاجّ ، ويقبِّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنّسوا بالذنوب والآثام .

وفى الحديث : « إن الله تعالى قد وَعَد هذا البيت أن يحجّه فى كلّ سنة ستمائة ألف ، فإن[(٢)] نقصوا أتمّهم الله بالملائكة ، وإنّ الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة ، وكلّ مَنْ حجّها متعلّق بأستارها يسعوْن حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها » .

وفى الحديث : « إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلا الوقوفُ بعرفة » . وفيه : « أعظم الناس ذنبا مَنْ وقف بعرَفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له » .

عمر بن ذرّ الهمدانىّ : لما قضَى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودِّعا للبيت : مازلنا نحلّ إليك عُرْوة ، ونشدّ إليك أخرى ، ونصعد لك أكمة ، ونهبط أخرى ، وتخفضنا أرض ، وترفعنا أخرى ، حتى أتيناك . فليت شعرى بم يكون مُنصرَفنا ؟ أبذنب مغفورٍ ، فأعظِمْ بها من نعمة ! أم بعملٍ مردودٍ فأعظم بها من مصيبة ! فيا مَنْ له خرجنا ، وإليه

---

(١) سورة الطور ٤

(٢) ا : « وإن »

قصدنا ، وبحرَمِه أنخنا ، ارحم . يامعطىَ الوفد بفِنائك ، فقد أتيناك بها معرّاة جُنُودها ، ذابلةً أسنمتها ، نَقِبَةً[١] أخفافها . وإنّ أعظم الرزية أن نَرجع وقد اكتنفتنا الخيبة . اللهمّ وإن للزّائرين حقًّا فاجعل حَقّنا عليك غفرانَ ذنوبنا ، فإنّك جواد كريم ، ماجدٌ لا ينقصك نائل ، ولا يبخّلك سائل .

ابن جريج : ماظننت أنّ الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبى ربيعة ، حتى كنتُ باليمن ، فسمعتُ مُنشداً يُنشد قوله :

بِاللهِ قُولَا لَهُ فِى غَيْرِ مَعْتَبةٍ ۞ مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ الْمُكْثِ فِى الْيَمَنِ ![٢]

إنْ كنتَ حاولتَ دنيا أوظَفِرْتَ بها[٣] ۞ فما أخَذْتَ بِتَرْكِ الحجِّ مِنْ ثَمَنِ !

فحرّكنى ذلك على ترك اليمن ، والخروج إلى مكّة ، فخرجت فحججْت .

سمع أبو حازم امرأة حاجّة ترفثُ[٤] فى كلامها ، فقال : ياأمة الله ، ألست حاجّة ! ألا تتّقين الله ! فسفرَت عن وجه صَبيح ، ثم قالت له : أنا من اللواتى قال فيهنّ العرْجىّ[٥] :

أماطَتْ كِسَاءَ الخَزِّ عَنْ حُرِّ وجهِهَا ۞ وردّتْ على الخدّيْن بُرْداً مهلهلا

مِن اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ۞ وَلكِنْ لِيقتُلْنَ البرىء المغفَّلَا

فقال أبو حازم : فأنا أسأل الله ألاّ يعذّب هذا الوجه بالنار ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيّب ، فقال : رحم الله أبا حازم ! لو كان من عُبّاد[٦] العراق ، لقال لها : اعزُبى ياعدوّة الله ! ولكنّه ظَرْفُ نُسّاك الحجاز[٧] .

---

(١) نقبة ، من نقب البعير ، إذا رقت أخفافه .

(٢) ديوانه ٢٨٤ ، والمعتبة : العتاب . (٣) الديوان : « أو نعمت بها » .

(٤) الرفث : الفحش فى القول . (٥) فى جميع الأصول عمر بن أبى ربيعة ، والصواب أنهما للعرجى ؛ وهما من قصيدة فى ديوانه ٧١ – ٧٥ ، مطلعها :

رَأَتْنِى خَضِيبَ الرَّأْسِ شَمَّرْتُ مِئْزَرِى ۞ وَقَدْ عَهِدَتْنِى أَسْوَدَ الرَّأْسِ مُسْبِلَا

ونسبهما إليه أبو الفرج فى الأغانى ١ : ٤٠٤ (طبعة دار الكتب) .

(٦) الأغانى : « من بعض بقضاء » . (٧) الأغانى : « ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز » .

[فصل فى الكلام على السجع]

واعْلم أنّ قوماً من أرباب علم البيان عابوا السَّجْع ، وأدخلوا خطبَ أمير المؤمنين عليه السلام فى جملة ماعابوه ؛ لأنّه يقصِد فيها السجع ، وقالوا : إنّ الخطبَ الخاليةَ من السَّجْع والقرائن والفواصل ، هى خطبُ العرب ، وهى المستحسَنة الخالية من التكلّف ، كخطبة النبىّ صلى الله عليه وآله فى حِجّة [(١)] الوداع ، وهى :

الحمد لله ، نحمَده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا . مَنْ يهدِ الله فلا مضلّ له ومَنْ يُضْلِل الله فلا هادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .

أوصِيكم عبادَ الله بتقوى الله ؛ وأحثُّكم على العمل بطاعته ، وأستفتح الله بالذى هو خير . أمابعدُ ، أيّها الناس ، اسمعوا منّى أبيّن لكم ، فإنّى لا أدرى ،لعلّى لا ألقاكم بعدعامى هذا ، فى موقفى هذا .

أيها الناس ؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلَى أن تلقوْا ربكم ، كحرْمةِ يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا أهلْ بلّغت ؟ اللهم اشهد .

مَنْ كانتْ عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإنّ ربا الجاهلية موضوع [(٣)] ، وأوّل رِباً أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأولُ دم أبدأ به دمُ آدم [(٤)] بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعة غير

---

(١) اللسان : « والحجة : المرة الواحدة ؛ وهو من الشواذ ؛ لأن القياس بالفتح » .

(٢) الخطبة فى سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٠ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣١ ، والطبرى ٣ : ١٦٨ ، وإعجاز القرآن للباقلانى ١٩٨ ، والعقد ٤ : ٥٧ ، وابن الأثير ٢ : ٢٠٥ .

(٣) يقال : وضعت الدين والجزية عنه ونحوهما ، إذا أسقطته .

(٤) كذا فى ب ، وهو يوافق ماذكره السهيلى ، قال : اسمه آدم ، وكان مسترضعا فى هذيل ، وقيل : اسمه تمام ؛ وكان سبب قتله حرب كانت بين قبائل هذيل ، تقاذفوا فيها بالحجارة ، فأصاب الطفل حجر وهو يحبو بين البيوت . وفى ا « عامر » ، وهو يوافق مافى البيان والتبيين والعقد ؛ وفى الطبرى والباقلانى: « دم ابن ربيعة بن الحارث » .

السِّدانة والسِّقاية[١] . والعَمْد[٢] قَوَدٌ ، وشِبْهُ العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجَر ، فيه مائة بعير ، فمن ازداد فهو من الجاهلية .

أيّها النّاس ، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه ، ولكنّه قد رضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك فيما تحتقرون من أعمالكم .

أيّها الناس ، إنما النّسِيء[٣] زيادة فى الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحِلّونه عاماً ، ويحرِّمونه عاماً ، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات وَالأرض ، وإن عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض ، منها أربعةٌ حُرم ، ثلاثة متواليات وواحد فَرْد : ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب ، الذى بين جُمادى وشعبان ، ألا هلْ بلّغت !

أيّها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهنّ حقًّا ، فعليهنّ ألّا يوطِئْن فُرُشَكم غيركم ، ولا يُدْخِلْن بيوتَكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ؛ فإن فَعَلْنَ فقد أُذِن[٤] لكم أن تهجروهنّ فى المضاجع وتضربوهنّ ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم كسوتهنّ ورزقهنّ بالمعروف ، فإنما النّساء عندكم عَوانٍ[٥] لا يملكْن لأنفسهنّ شيئا ، أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصُوا بهنّ خيرا .

---

(١) السدانة : خدمة الكعبة ، بفتح السين وكسرها . والسقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء .

(٢) القود : القصاص ، أى من قتل متعمدا يقتل .

(٣) النسىء : تأخير حرمة شهر إلى آخر ؛ وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ، فيحلون المحرم ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ؛ وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكنانى . وانظر تفسير الألوسى ٣ : ٣٠٥ .

(٤) أذن ، بالفتح : أباح .

(٥) عوان : أسيرات .

أيّها النّاس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئ مالُ أخيه إلا على طيب نفس . ألا هل بلغت اللهم اشهد !

ألا لاترْجعوا بعدى كفّاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض ، فإنّى قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تَضلّوا ؛ كتاب الله ربكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ، إنّ ربّكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلّكم لآدم وآدم من تراب ؛ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربىٍّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى ، ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب .

أيها الناس،إن الله قسّم لكلّ وارث نصيبَه من الميراث ، ولا تجوز وصية فى أكثرَ من الثلث،والولدُ للفراش وللعاهر الحجَر . من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غيرَ مواليه فهو ملعون ، لا يقبل الله منه صَرْفا ولا عدلا (١) . والسلام عليكم ورحمة الله عليكم .

* * *

واعلم أنّ السجعَ لو كان عيبا لكان كلام الله سبحانه معيبا لأنه مسجوع ، كلّه ذو فواصلَ وقرائن؛ ويكفى هذا القدر وحده مبطلا لمذهب هؤلاء . فأما خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذاتَ سجع ؛ فإنّ أكثر خطبه مسجوع ، كقوله:إنّ مع العزّ ذُلاًّ ، وإنّ مع الحياة موتا،وإنّ مع الدنيا آخرة ،وإنّ لكل شىء حسابا، ولكلّ حسنة ثوابا ، ولكل سيئة عقابا ، وإنّ على كل شىء رقيبا ، وأنه لابدّ لك من قرين يُدفن معك هو حىّ وأنت ميت ؛ فإنْ كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما أسلمك ، ثم لايحشر إلا معك ،ولا تبعث إلا معه ، ولا تُسأل إلا عنه،فلا تجعله إلا صالحا فإنه إن صَلَح أنست به ، وإن فسد لم تستوحش إلّا منه ، وهو عملك .

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه ، وكذلك خطبه الطِّوال كلها . وأما كلامه

(١) أى لايقبل منهم شىء ، وأصل العدل أن يقتل الرجل الرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .

القصير ، فإنّه غير مسجوع ،لأنه لا يحتمل السجع ، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

فأما قولهم : إنّ السجع يدلّ على التكلّف ، فإنّ المذموم هو التكلّف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ؛ فأمّا التكلّف المستحسن ، فأىّ عيب فيه ! ألا ترى أنّ الشعرَ نفسَه لا بدّ فيه من تكلُّف إقامة الوزن ؛ وليس لطاعن أن يطعَن فيه بذلك !

واحتجّ عائبو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكِراً عليه : «أسَجْعاً كسجع الكهان !» ، ولولا أنّ السجعَ منكَر لما أنكر عليه السلام سجعَ الكُهّان وأمثاله . فيقال لهم : إنما أنكر عليه السلام السجع الذى يسجع الكهّان أمثاله ، لا السجعَ على الإطلاق ، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر فى الجنين بغُرّة [١] ، فقال قائل : أأدِى مَنْ لا شَرِب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ ؛ ومثل هذا يُطَلّ [٢] ! فأنكر عليه السلام ذلك ، لأنّ الكهان كانوا يحكمون فى الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم : حبة بُرّ ، فى إحليل مُهْر . وقولهم : عبد المسيح ، على جمل مُشِيح [٣] ، لرؤيا المؤبذان ، وارتجاس الإيوان ؛ ونحو ذلك من كلامهم . وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيمَ والسحر ، ونهَى عنها ، فلما سمع كلام ذلك القائل أعاد الإنكار ؛ ومراده به تأكيدُ تحريم العمل على أقوال الكهنة . ولو كان عليه السلام قد أنكر السجعَ لما قاله ، وقد بيّنا أنّ كثيراً من كلامه مسجوع ، وذكرنا خطبته .

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبرُ ابن مسعود رحمه الله تعالى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «استحيوا من الله حقّ الحياء» ، فقلنا : إنّا لنستحيي يارسول الله من الله تعالى ، فقال : « ليس ذلك ما أمرتُكم به ، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس

---

(١) الغرة : مابلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . انظر النهاية لابن الأثير (٣ : ١٥٥) .
(٢) الطل : هدر الدم .
(٣) جمل مشيح : جاد مسرع .

وما وعَى ، والبطن وما حَوَى ، وتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترَك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أولَ قدومه إليها : « أيُّها الناس، أفشوا السلام ، وأطعِموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وعَوّذَ الحسنَ عليهما السلام ، فقال: «أعيذك من الهامّة، والسامّة ، وكلّ عين لامّة »؛ وإنما أراد « ملمّة » ، فقال : « لامّة » لأجل السجع .

وكذلك قوله : « ارجعن مأزورات، غيرَ مأجورات » ؛ وإنما هو « موزورات »، بالواو .

— ٢ —

ومن خطبة له عايه السلام بعد انصرافه من صفين :

صِفّين : اسم الأرض التى كانت فيها الحرب ، والنون فيها أصليّة ، ذكرَ ذلك صاحب "الصّحاح"[(١)]؛ فوزنُها على هذا « فِعّيل » كفسّيق ، وخمّير ، وصِرِّيع ، وظِلِّيم ، وضلّيل .

فإن قيل : فاشتقاقه مما ذا يكون ؟

قيل : لو كان اسما لحيوان لأمكن أن يكونَ من صَفَنَ الفرسُ — إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر — يَصْفِن بالكسر ، صُفونا . أو من صَفَنَ القوم ، إذا صفُّوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض[(٢)] .

فإن قيل : أيمكنُ أن يُشتقّ من ذلك وهو اسم أرض ؟

قيل : يمكن على تعسّف ، وهو أن تكونَ تلك الأرض لمّا كانت مما تَصفِن فيها الخيل ، أو تصطفّ فيها الأقدام ؛ سميت صِفِّين .

فإن قيل : أيمكن أن تكونَ النونُ زائدةً مع الياء ، كما هما فى « غِسْلين » و « عِفْرِين » ؟

قيل : لو جاء فى الأصل « صِفّ » ، بكسر الصاد لأمكن أن تُتَوهّم الزيادة ، كالزيادة

(١) الصحاح ، ٢١٥ ؛ أى أنه ذكرها فى مادة «صفن» .

(٢) ا : « عن بعض » .

فى غِسْل ، وهو ما يُغتَسل به ، نحو الخِطْمِىّ وغيره ، فقيل : غِسْلين ، لما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم ، وكالزيادة فى عِفْر وهو الخبيث الداهى[1] ، فقيل : عِفْرِين ، لمأسدة بعينها . وقيل : عفريت للداهية ، هكذا ذكروه .

ولقائل أن يقول لهم : أليس قد قالوا للأسد : عَفَرْنَى ، بفتح العين ، وأصله العِفْر ، بالكسر ، فقد بان أنهم لم يراعُوا فى اشتقاقهم وتصريف كلامهم الحركةَ المخصوصة ، وإنّما يراعون الحرف ، ولا كلّ الحروف ، بل الأصلىّ منها ؛ فغير ممتنع على هذا عندنا أن تكون الياء والنون زائدتين فى « صِفِّين » .

وصفّين : اسم غير منصرف للتأنيث والتعريف ، قال[2] :

إنّى أدِينُ بما دَانَ الوصىُّ بِهِ ... يوم الخرَيْبة مِنْ قَتْل المُحِلّينا[3]
وبالذى دَان يومَ النَّهْرِ دِنْتُ بِهِ ... وشَارَكَتْ كَفَّهُ كَفِّى بِصفِّينَا
تلكَ الدّماء معاً يا ربِّ فى عُنُقى ... ثم اسقِنِى مِثْلَها آمِينَ آمينَا

* * *

الأَصْلُ :

أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ ، واسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ . وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ ؛ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ ، وَلَا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ ، وأَفْضَلُ ما خُزِنَ . وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ (٤ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ٤) ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُها ، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا ، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً

---

(١) يقال : رجل داه وداهية ؛ بمعنى .

(٢) هو السيد الحميرى ؛ والأبيات بنسبتها إليه فى الكامل ٧ : ١٧٧ — بشرح المرصفى .

(٣) الخريبة : موضع بالبصرة ؛ كانت عنده وقعة الجمل ؛ ذكره ياقوت ؛ واستشهد بالبيت ، وفى الأصول : « الحريبة » ، بالحاء ؛ تصحيف . وفى الكامل : « يوم النخيلة » .

(٤ — ٤) ، ساقط من ا ، ومخطوطة النهج .

مَا أَبْقَانَا ، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا ؛ فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ ، وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمٰنِ ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ .

* * *

الشرح :

وأل ، أى نجا ، يئِل . والمُصاص : خالص الشىء . والفاقة : الحاجة والفقر . الأهاويل : جمع أهوال ، والأهوال : جمع هَوْل ، فهو جمع الجمع ، كما قالوا : أنعام وأناعيم . وقيل : أهاويل أصله تهاويل ، وهى ما يهولك من شىء ، أى يروعك ، وإن جاز هذا فهو بعيد ، لأن التاء قلّ أن تبدلَ همزة . والعزيمة : النية المقطوع عليها ، ومدحرة الشيطان ، أى تدحَره ، أى تبعده وتطارده .

وقوله عليه السلام : «استتماماً» ، و«استسلاماً» ، و «استعصاماً» ؛ من لطيف الكناية وبديعها ، فسبحان مَن خصّه بالفضائل التى لا تنتهى ألسنةُ الفصحاء إلى وصفها ، وجعله إمام كلّ ذى علم ، وقدوةَ كلّ صاحب خِصِّيصَة !

وقوله : « فإنه أرجح » ، الهاء عائدة إلى ما دلّ عليه قوله : «أحمده» ، يعنى الحمد ، والفعل يدلّ على المصدر ، وترجع الضمائر إليه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾[1] وهو ضمير البخل الذى دلّ عليه قوله : ﴿ يَبْخَلُونَ[1] ﴾ .

* * *

[باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه]

وقوله عليه السلام : « وُزِن وخُزِن » ، بلزوم الزاى ، من الباب المسمّى لزوم مالا يلزم ، وهو أحد أنواع البديع ، وذلك أن تكون الحروف التى قبل الفَاصلَة حرفا واحدا ؛ هذا

(١) سورة آل عمران ١٨٠ ، والآية بتمامها ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ .

فى المنثور ، وأما فى المنظوم فأن تتساوى الحروف التى قبل الروىّ مع كونها ليست بواجبة التساوى ، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة[١] :

بَيْضَاء باكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهـا وأجَلَّهَا[٢]

حَجَبَتْ تحيَّتَها فقلتُ لصاحبى ... ما كَانَ أكثَرَهـا لنَا وأقلَّهَا

وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوةٍ ... شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّهَا[٣]

ألا تراه كيف قد لَزِم اللام الأولى من اللامين ٱللَّذَيْن صارا حرفا مشدّدا ! فالثانى منهما هو الروىّ ، واللام الأول الذى قبله التزام مالا يلزم ؛ فلو قال فى القصيدة : وصلها ، وقبلها ، وفعلها ، لجاز .

واحترزنا نحن بقولنا : « مع كونها ليست بواجبة التساوى » عن قول الراجز ، وهو من شعر الحماسة أيضاً :

وَفَيْشَةٍ ليسَتْ كهذى الْفَيْشِ ... قَدْ مُلِئَتْ مِنْ نَزَقٍ وَطَيْشِ[٤]

إذا بَدَتْ قلتَ أمـيرُ الجيشِ ... مَنْ ذاقَها يعرف طَعْمَ العَيْشِ

فإنّ لزوم الياء قبل حرف الروىّ ليس من هذا الباب ، لأنه لزوم واجب ، ألا ترى أنه لو قال فى هذا الرجز : البطْش والقرْش والعرْش لم يجز ، لأن الرِّدف[٥] لا يجوز أن يكون حرفا خارجا عن حروف العلة . وقد جاء من اللزوم فى الكتاب العزيز مواضع

---

(١) من أبيات أربعة ؛ أولها :

إنَّ ٱلَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

وهى فى الحماسة ــ بشرح المرزوقى ١٢٣٥ ، وأمالى القالى (١ : ١٥٦) من غير نسبة ، ونقل التبريزى عن أبى رياش أنها لعروة بن أذينة .

(٢) أدقها وأجلها ، أى أتى بها دقيقة العين والأنف والثغر والخصر ، جليلة الساق والفخذ والصدر .

(٣) الحماسة : * شَفَعَ ٱلضَّمِيرُ لَهَا إِلَيَّ فَسَلَّهَا *

(٤) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ٤ : ٣٤٠ .

(٥) الردف عند العروضيين ، هو حرف لين أو مد قبل الروى يتصلان به .

ليست بكثيرة ، فمنها قوله سبحانه : ﴿ فَتَكُونَ للشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾[4] ،وقوله : ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾[5] ؛ وقوله : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾[6] ، وقوله: ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[7] ، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصدُه .

ومما ورد منه فى كلام العرب أنّ لَقيط بن زُرارة تزوّج ابنة قيس بن خالد الشيبانىّ فأحبّته ، فلما قُتِل عنها تزوّجت غيره ، فكانت تذكر لقيطا ، فسألها عن حُبِّها له ،فقالت: أذكره وقد خرج تارة فى يوم دَجْن ، وقد تطيّب وشرب الخمر ، وطَرد بقراً ، فصرع بعضها ، ثم جاءنى وبه نَضْحُ دمٍ وعبير ،فضمنى ضَمَّة ، وشمنى شمة ، فليتنى كنت مِتُّ ثَمَّة.

وقد صنع أبو العلاء المعرى كتابا فى اللزوم من نظمه ، فأتى فيه بالجيد والردىء ، وأكثره متكلَّف ، ومن جيده قوله :

لَا تَطلُبَنَّ بآلةٍ لك حَالةً ... قَلَمُ البليغِ بغيرِ حظٍّ مِغزَلُ[8]
سَكَنَ السِّماكانِ السماءَ كلاهما ... هذا له رمحٌ وهـذا أعزَلُ

* * *

الأصلُ :

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ ،

---

(١) سورة مريم ٤٤ ، ٤٥
(٢) سورة ق ٢٧ ، ٢٨
(٣) سورة العلق ١ ، ٢
(٤) سورة الطور ١ ، ٢
(٥) سورة الطور ٢٩ ، ٣٠
(٦) سورة الواقعة ٢٨ ، ٢٩
(٧) سورة الأنفال ٣٩ ، ٤٠
(٨) لم يرد البيتان فى نسخ اللزوميات ، ونسبهما إليه ابن خلكان (١ : ٣٣) ، وابن الوردي ، وصاحب مرآة الجنان ، وابن كثير (حوادث ٤٤٩) ، وشذرات الذهب ٣ : ٢٨١ ، وتقديم أبي بكر لابن حجة ٤٣٥ ، وفى ابن خلكان : « لك رتبة » .

وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ ؛ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ ، وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ ، وتَحْذِيراً بِالآيَاتِ ، وتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ ، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ ، وضَاقَ الْمَخْرَجُ ، وعَمِيَ الْمَصْدَرُ ؛ فَالْهُدَى خَامِلٌ ، والْعَمَى شَامِلٌ . عُصِيَ الرَّحْمَنُ ، ونُصِرَ الشَّيْطَانُ ، وخُذِلَ الْإِيمَانُ ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ ، وتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ ، ودَرَسَتْ سُبُلُهُ ، وعَفَتْ شُرُكُهُ . أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ ؛ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ ، وقَامَ لِوَاؤُهُ . فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا ، وقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا ، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ ، جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ ، فِي خَيْرِ دَارٍ وشَرِّ جِيرَانٍ ؛ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ ؛ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ ، وجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ .

* * *

الشرح :

قوله عليه السلام : « والعلَم المأثور » ، يجوز أن يكون عَنَى به القرآن ؛ لأن المأثور المحكيّ ، والعلَم ما يُهتدَى به ، والمتكلّمون يسمون المعجزات أعلاماً . ويجوز أن يريدَ به أحدَ معجزاته غير القرآن ؛ فإنها كثيرة ومأثورة ، ويؤكد هذا قولُه بعد : « والكتاب المسطور » ، فدلّ على تغايُرهما ، ومن يذهب إلى الأول يقول : المراد بهما واحد ، والثانية توكيدُ الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة .

والصادع : الظاهر الجليّ ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[1] ، أي أظهره ولا تُخفِه .

والمَثلات ؛ بفتح الميم وضم الثاء : العقوبات ، جمع مَثُلَة ؛ قال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾[2] .

وانجذم : انقطع . والسَّواري: جمع سارية،وهي الدِّعامةُ يدعم بها السّقف . والنَّجْر :

---

(١) سورة الحجر ٩٤ (٢) سورة الرعد ٦

الأصل ، ومثله النِّجار . وانهارَت : تساقطت . والشُّرُك : الطرائق ، جمع شِراك . والأخفاف للإبل ، والأظلاف للبقر والمعِز .

وقال الراوندي في تفسير قوله : « خير دار ، وشرّ جيران » : خير دار : الكوفة . وقيل : الشام ؛ لأنها الأرض المقدسة ، وأهلها شرّ جيران ، يعنى أصحابَ معاوية . وعلى التفسير الأول يعنى أصحابه عليه السلام .

قال : وقوله : « نومهم سهود » ، يعنى أصحابَ معاوية لا ينامون طول الليل ، بل يرتِّبون أمرَه . وإن كان وصفا لأصحابه عليه السلام بالكوفة — وهو الأقرب — فالمعنى أنهم خائفون يسهرون ويبكون لقلة موافقتهم إياه ؛ وهذا شكاية منه عليه السلام لهم .

وكحلهم دموع ، أى نفاقا ، فإنه إذا تمّ نفاقُ المرء مَلك عينيه .

ولقائل أن يقول : لم يجر فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية ، والكلام كلّه في وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله . ثم لا يخفى ما في هذا التفسير من الركاكة والفجاجة ، وهو أن يريد بقوله : « نومهم سهود » ، أنهم طوال الليل يرتّبون أمر معاوية ، لا ينامون ، وأن يريد بذلك أنّ أصحابه يبكون من خوف معاوية وعساكره ، أو أنّهم يبكون نفاقا ؛ والأمر أقرب من أن يُتَمحّل له مثل هذا .

ونحن نقول : إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية ، وقوله : « في خير دار » يعنى مكة ، و « شرّ جيران » ، يعنى قريشا ، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله حين حَكَى بالمدينة حالةً كانت في مبدأ البعثة ، فقال : « كنت في خير دار » و « شرّ جيران » . ثم حكى عليه السلام ماجرى له مع عُقْبة بن أبي مُعَيْط ، والحديث مشهور .

وقوله : « نومهم سهود ، وكحلهم دموع » مثل أن يقول : جودهم بخل ، وأمنهم خوف ، أى لو استماحهم محمد عليه السلام النومَ لجادوا عليه بالسهود عوضا عنه ، ولو استجداهم الكُحْل لكان كحلهم الذى يصلونه به الدموع .

ثم قال : « بأرض عالمها مُلْجَم » ، أى من عرف صدق محمد صلى الله عليه وآله وآمن به فى تقيّة وخوف . « وجاهلها مكرَم » ، أى مَنْ جحد نبوّته وكذّب به فى عز ومنعة . وهذا ظاهر .

* * *

الأصْـلُ :

ومنها – ويعنى آل النبي صلى الله عليه :

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ ، وَجِبَالُ دِينِهِ . بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ .

الشَّـرْحُ :

اللجأ : ماتلتجئ إليه ، كالوزَر ماتعتصم به . والموئل : ماترجع إليه ؛ يقول : إن أمر النبي صلى الله عليه وآله – أى شأنه – ملتجئ إليهم ، وعلمه مودَع عندهم ؛ كالثوب يودَع العَيْبة . وحُكمه – أى شرعه – يرجع ويؤول إليهم . وكتبه – يعنى القرآن والسنة – عندهم ، فهم كالكهوف له ، لاحتوائهم عليه . وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين ؛ أو أنّ الدين ثابت بوجودهم ؛ كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال ، ولولا الجبال لمادتْ بأهلها .

والهاء فى « ظهره » ترجع إلى الدين ، وكذلك الهاء فى « فرائصه » والفرائص : جمع فَرِيصة ، وهى اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال تُرْعَد من الدابة .

* * *

الأصْـلُ :

ومنها فى المنافقين :

زَرَعُوا الْفُجُورَ ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ ، وحَصَدُوا الثُّبُورَ ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً . هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ ، إليهم يَفِيء الغَالِي ، وبِهِمْ يُلْحَقُ

التَالِي ، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايةِ ، وَفِيهِمْ الوَصِيَّـةُ والوِرَاثَةُ . الآنَ إذْ رَجَعَ الحقُّ إلَى أَهْلِهِ ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

جعل مافعلوه من القَبيح بمنزلة زَرْع زرعوه ، ثم سقوْه ، فالذى زرعوه الفجور ، ثم سقوْه بالغرور ؛ والاستعارة واقعـة موقِعَها ، لأن تماديَهم وماسكنت إليه نفوسهم من الإمهال،هو الذى أوجَبَ استمرارهم على القبائح التى واقعوها،فكان ذلك كما يُسقى الزرع، ويربَّى بالماء ويستحفظ .

ثم قال : « وحصدوا الثبور » ، أى كانت نتيجـة ذلك الزرع والسقى حصادَ ماهو الهلاك والعطب .

وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضىّ رحمه الله ، وإنما هى إشارة إلى مَنْ تغلّب عليـه ، وجَحد حقه كمعاوية وغـيره . ولعل الرضىّ رحمه الله تعالى عرَف ذلك وكنّى عنه .

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد صلى الله عليه وآله،فقال : « هم أصول الدين،إليهم يفىء الغالى ، وبهم يلحَق التالى » ؛ جعلهم كمِقْنب يسير فى فلاة،فالغالى منه أى الفارط المتقدم، الذى قد غلا فى سيره يرجع إلى ذلك المِقْنب إذا خاف عدوًّا ، ومن قد تخلف عن ذلك المِقْنب فصار تاليا له يلتحق به إذا أشفَق من أن يُتخطّف .

ثم ذكر خصائص حق الولاية،والولاية : الإمْرة؛فأما الإماميّة فيقولون:أراد نصّ النبى صلى الله عليه وآله عليه وعلى أولاده.ونحن نقول:لهم خصائص حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق .

ثم قال عليه السلام : « وفيهم الوصية والوراثة »،أما الوصيَّة فلا ريبَ عندنا أنّ عليا عليه السلام كان وصىّ رسول الله صلى الله عليه وآله،وإنْ خالف فى ذلك مَنْ هو منسوب

عندنا إلى العناد ، ولسنا نعنى بالوصية النصّ والخلافة ، ولكن أموراً أخرى لعلّها ـ إذا لُمِحت ـ أشرفُ وأجلّ .

وأما الوراثة فالإمامية يحملونها على ميراث المال والخلافة ، ونحن نحملها على وراثة العلم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الحق رجع الآن إلى أهله ؛ وهذا يقتضى أن يكونَ فيما قبل فى غير أهله ، ونحن نتأوّل ذلك على غير ماتذكره الإماميّة ، ونقول : إنّه عليه السلام كان أوْلى بالأمر وأحقّ ، لا على وجه النصّ ، بل على وجه الأفضليّة ، فإنه أفضلُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأحقُّ بالخلافة من جميع المسلمين ؛ لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحة ، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام ، وانتشار الكلمة ، لحسد العرب له ، وضِغْنهم عليه . وجائز لمن كان أوْلى بشىء فتركه ثم استرجعه أن يقول : « قد رجع الأمر إلى أهله » .

وأما قوله : « وانتقل إلى منتَقَله » ، ففيه مضاف محذوف ، تقديره : « إلى موضع منتقله » ، والمنتقَل بفتح القاف : مصدر بمعنى الانتقال ، كقولك : لى فى هذا الأمر مضطرَب ، أى اضطراب ، قال :

قَدْ كَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي ٱلْأَرْضِ ذاتِ الطُّول والعَرْضِ(1)

وتقول : مامعتقدك ؟ أى ما اعتقادك . قد رجع الأمر إلى نصابه ، وإلى الموضع الذى هو على الحقيقة الموضعُ الذى يجب أن يكون انتقالُه إليه .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً » ؟

قيل : لا شبهةَ أن المنعِم أعلى وأشرفُ من المنعَم عليه ، ولا ريب أنّ محمدا صلى الله

(1) ديوان الحماسة ١ : ٢٨٧ ـ بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى خطاب بن المعلى ، واسمه فى التبريزى : « حطان بن المعلى » .

عليها وآله وأهله الأدْنَيْن من بنى هاشم ـ لا سيما عليًّا عليه السلام ـ أنعموا على الخلق كافة بنعمة لا يقدّر قدرها، وهى الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه ، فمحمد صلى الله عليه وآله وإن كان هَدَى الخلق بالدعوة التى قام بها بلسانه ويده ؛ ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده ، وهو السيّد المتبوع ،والمصطفى المنتجَب الواجب الطاعة ، إلا أنّ لعلىّ عليه السلام من الهداية أيضاً ـ وإن كان ثانياً لأوّل ، ومصلّياً على إثر سابق ـ مالا يُجحد ، ولولم يكن إلا جهادُه بالسيف أولاً وثانياً ، وما كان بين الجهادَيْن من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى مالم تكن له فاهمة ولا متصوّرة ، لكفى فى وجوب حَقّه ، وشبوغ نعمته عليه السلام .

فإن قيل : لا ريب فى أنّ كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه ، فأىّ نعمة له عليهم ؟ قيل : نعمتان : الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون ، فإنّ من أنصفَ علم أنّه لولا سيف علىٍّ عليه السلام لاصطلم المشركون ؛ من أشار إليه وغيرهم من المسلمين ، وقد علمتَ آثاره فى بدر ، وأُحد ، والخندق ، وخَيْبر ، وحُنَين ؛ وأنّ الشرك فيها فَغَر فاه ، فلولا أن سدّه بسيفه لَالْتَهم المسلمين كافة ـ والثانية علومه التى لولاها لحُكِمَ بغير الصواب فى كثير من الأحكام ، وقد اعترف عمر له بذلك ، والخبر مشهور : «لولا علِيٌّ لهلك عمر » .

ويمكن أن يخرّج كلامه على وجه آخر ؛ وذلك أنّ العرب تفضّل القبيلة التى(١) منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل ، وتفضّل الأدنى منه نسبا ، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة ؛ فإنّ بنى دارم يفتخرون بحاجب وإخوته ، وبزُرارة أبيهم على سائر بنى تميم ، ويسوغ للواحد من أبناء بنى دارم أن يقول : لا يقاسُ ببنى دارم أحد من بنى تميم ، ولا يستوى بهم مَنْ جرت رياستهم عليه أبدا ؛ ويعنى بذلك أنّ واحداً من بنى دارم قد رأس على بنى تميم ؛ فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله رئيسَ الكلّ ،

(١) ا : « فيها » .

والمنعِمَ على الـكلّ ، جاز لواحد من بنى هاشم ؛ لا سيما مثل علىّ عليه السلام أن يقول هذه الـكلمات .

* * *

واعلم أنّ عليا عليه السلام كان يدّعى التقدّمَ على الـكلّ ، والشرف على الـكلّ ، والنعمةَ على الـكلّ ، بابن عمه صلى الله عليه وآله ، وبنفسه ، وبأبيه أبى طالب ، فإنّ من قرأ علوم السِّيَر عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئا مذكورا .

وليس لقائل أن يقول : كيف يقال هذا فى دِينٍ تـكفّل الله تعالى بإظهاره ، سواء كان أبو طالب موجودا أو معدوما ! لأنا نقول : فينبغى على هذا ألّا يُمدح رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا يقال : إنه هدى الناس من الضلالة ، وأنقذهم من الجهالة ، وإنّ له حقا على المسلمين . وإنّه لولاه لمـا عُبِد الله تعالى فى الأرض ، وألّا يمدح أبو بكر ، ولا يقال : إن له أثرا فى الإسلام ، وإن عبد الرحمن وسعدا وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين فى الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله لاتّباعه له ، وإنّ له يدا غير مجحودة فى الإنفاق واشتراء المعذّبين وإعتاقهم ، وإنّه لولاه لاستمرت الرِّدة بعد الوفاة ، وظهرت دعوة مُسيلمة وطُليحة ؛ وإنه لولا عمر لما كانت الفتوح ، ولا جُهّزت الجيوش ، ولا قَوِى أمر الدين بعد ضعفه ، ولا انتشرتْ الدعوةُ بعد خمولها .

فإن قلتم فى كل ذلك : إنّ هؤلاء يُحمدون ويُثنَى عليهم ؛ لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفّقهم لهـا ، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى ؛ وهؤلاء آلة مستعملة ، ووسائط تجرى الأفعال على أيديها ، فحمدُهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم إنما هو باعتبار ذلك .

قيل : لـكم فى شأن أبى طالب مثله[1] .

* * *

(١) ا : « قيل لهم » .

واعلم أنّ هذه الكلمات؛ وهى قوله عليه السلام: «الآن إذ رجع الحق إلى أهله...»، إلى آخرها يبعدُ عندى أن تكون مقولة عقِيب انصرافه عليه السلام من صِفِّين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطربَ الأمر، منتشرَ الحبل؛ بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وماتمّ لمعاويةَ عليه من الاستظهار، وما شاهد فى عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لا تقال فى مثل هذه الحال، وأخْلق بها أن تكونَ قيلت فى ابتداء بَيْعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضىّ رحمه الله تعالى نقل ماوجد، وحكى ماسمع، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

***

[ماورد فى الوصاية من الشعر]

ومما رويناه من الشعر المقول فى صدر الإسلام المتضمّن كونه عليه السلام وصىّ رسول الله قول عبدالله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَمنّا علىّ ذاك صاحبُ خَيْـبَرٍ ... وَصَاحِبُ بَدْرٍ يوم سالتْ كتائبُهْ
وَصىُّ النبىّ المصطفَى وابنُ عَمِّه ... فمَنْ ذا يدانِيهِ ومَنْ ذَا يُقَارِبُهْ !

وقال عبد الرحمن بن جُعَيل :

لعَمْرِى لَقَدْ بايعتمُ ذا حفيظةٍ ... على الدِّين، معروفَ العفافِ مُوفَّقَا
عليًّا وصىّ المصطفَى وابنَ عمِّه ... وأوّلَ مَنْ صَلّى أخا الدِّينِ والتُّقَى

وقال أبو الهيثم بن التَّيِّهان ــ وكان بدريًّا :

قل للزبيرِ وقلْ لطلحة إنّنا ... نحنُ الذين شعارنا الأنصارُ
نَحْنُ الذين رأتْ قريشٌ فِعْلَنَا ... يوم القَلِيب أولئكَ الكفارُ
كنّا شعارَ نبيِّنا ودثارَه ... يَفْدِيهِ منّا الرُّوح والأبصارُ

إنّ الوصىّ إمامُنا ووليُّنا   بَرَحَ الخفاء وباحت الأسرار (١)

وقال عمر بن حارثة الأنصارىّ ، وكان مع محمد بن الحنفيّة يوم الجمل ، وقد لامه أبوه عليه السلام لمّا أمره بالحملة فتقاعس :

أبا حسنٍ أنت فصل الأمورِ   يبَيِن بِكَ الحلُّ والمَحْرمُ
جمعتَ الرجال على رَايةٍ   بها ابنُكَ يوم الوغى مُقْحَمُ
ولم ينكص المرء من خيفةٍ   ولكن توالتْ له أسهم
فقال رويدا ولا تَعْجَلُوا   فإنّى إذا رشقوا مُقْدِمُ
فأعجلته والفتى مجمعٌ   بما يكره الوَجِل المحجِمُ
سمىّ النبىِّ وشبه الوصىِّ   ورايتُه لونها العَنْدَمُ

وقال رجل من الأزْد يوم الجمل :

هذا علىّ وهو الوصىُّ   آخاه يومَ النَّجْوَةِ النبُّ
وقال هذا بعدِىَ الولىُّ   وَعَاهُ واعٍ ونسِى الشقىُّ

وخرج يوم الجمل غُلام من بنى ضَبّة شاب مُعْلِم (٢) من عسكر عائشة ، وهو يقول:

نَحْنُ بَنِى ضَبّة أعداء عَلِى   ذَاكَ الّذِى يُعْرَفُ قِدْماً بالوصِى
وَفَارِس الخيل على عهد النبى   ما أنا عن فضل علىّ بالعَمِى
لكننى أنعى ابنَ عفّانَ التّقِى   إنّ الولىَّ طالبٌ ثأرَ الوَلِى

وقال سعيد بن قيس الهَمْدانىّ يوم الجمل ــ وكان فى عسكر على عليه السلام :

أَيّةُ حَرْبٍ أُضرِمَتْ نِيرانُهَا   وَكُسِرَتْ يَوْمَ الوَغَى مُرّانُها (٣)

(١) برح الخفاء ، أى ظهر ما كان خافياً وانكشف ، مأخوذ من براح ؛ وهو البارز الظاهر .
(٢) المعلم ، بكسر اللام : الذى علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .
(٣) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحده مرانة .

قُلْ لِلْوَصِيِّ أَقْبَلَتْ قَحْطَانُهـا فَادْعُ بِهَا تَـكْفِيكَهَا هَمْدَانُهَا

* هُمْ بَنُوهَا وَهُمْ إِخْوَانُهَا *

وقال زياد بن لبيد الأنصاريّ يوم الجمل ـ وكان من أصحاب على عليه السلام :

كَيْفَ تَرى الأنصارَ فِي يَوْمِ الْـكَلَبْ إنّا أناسٌ لَا نُبَالِي مَنْ عَطِبْ

وَلا نُبَالِي فِي الوَصِيِّ مَنْ غَضِبْ وإنّما الأنصار جِـدٌّ لا لَعِبْ

هَـذَا عَلِيٌّ وابنُ عبد المطّلِبْ ننصره اليوم عَلَى مَنْ قَدْ كَذَبْ

* مَنْ يَـكْسِب البغىَ فبئسما اكْتَسَبْ *

وقال حُجْر بن عدىّ الـكندىّ فى ذلك اليوم أيضاً :

يَارَبَّنَـا سَلِّمْ لَنَا عَلِيّا سَلِّمْ لَنَا الْمُبَارَكَ الْمُضِيَّا

المؤمنَ الموحِّـد التقيّا لا خَطِلَ الرأيِ وَلَا غَوِيّا

بَلْ هَادِياً موفَّقاً مَهْـدِيّا واحْفَظْهُ رَبِّى واحفظِ النَّبيَّا

فِيـهِ فَقَدْ كَانَ لَهُ وليّا ثم ارتضاه بعـدَهُ وَصِيّا

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصارىّ، ذو الشهادتين ـ وكانَ بدْريًّا ـ فى يوم الجمل أيضاً :

ليس بين الأنصار فى جَحْمَةِ الحر ب وبين العُـداة إلا الطعانُ

وقراع الـكُماةِ بالقُضُبِ البيـ ضِ إذا ما تَحَطَّمَ المُرّانُ

فادعها تستجِبْ فليس من الخز رجِ والأوس ياعلىّ جبَانُ

ياوصىّ النبىّ قد أجلت الحر بُ الأعادى وسارَتِ الأظْعانُ

وَاسْتَقَامَتْ لَكَ الأمُور سِوى الشّ ام وفى الشـام يظهر الإذْعَانُ

حَسْبُهُمْ مارَأَوْا وَحَسْبُك مِنَّا هَـكَذَا نَحْنُ حَيْثُ كُنَّا وَكَانُوا

وقال خزيمة أيضاً فى يوم الجمل :

أعائشَ خَلِّى عَنْ علىٍّ وعَيْبِهِ ... بما ليس فيــه إنّما أنتِ والدَه
وصىّ رسول الله مِنْ دُون أهله ... وأنتِ عَلَى ما كَانَ مِنْ ذَاكَ شَاهِدَهْ
وَحَسْبُكِ مِنْه بعضُ ماتعلمينَهُ ... ويَـكْفِيكِ لو لم تعلمى غيرُ واحدهْ
إذا قِيلَ مَاذَا عِبْتِ مِنْهُ رَمَيْتِه ... بخذل ابن عَفّانٍ وما تلك آبِدَهْ
وَلَيْسَ سَمَاء الله قاطرةً دما ... لِذَاكَ وَمَا الأَرْضُ الْفَضَاءُ بمائِدَهْ

وقال ابن بديل بن ورقاء الُخزاعىّ يوم الجمل أيضاً :

يا قَوْمُ لِلْخُطّةِ العُظْمَى الّتى حَدَثَتْ ... حرب الوصىّ وما للحرب مِنْ آسِى
الفاصلُ الحَكَمَ بالتقوى إذا ضربت ... تلك القبائلُ أَخْمَاساً لأَسْدَاسِ (١)

وقال عمرو بن أُحَيْحَة يوم الجمل فى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام بعد خطبة عبدالله ابن الزُّبير :

حَسَنَ الخـيــر يا شَبِيهَ أَبِيهِ ... قُمْتَ فينا مقام خَـيْر خَطِيبِ
قُمْتَ بالخطبة الّتِى صَـدَعَ اللّـ ... ـه بِهَا عَنْ أَبِيكَ أَهلَ العيوب
وكشفت القناع فاتّضح الأمْـــ ... ـر وأَصْلَحْتَ فاسداتِ القُلُوبِ
لَسْتَ كابنِ الزُّبَيْرِ لَجْلَجَ فى القوْ ... لِ وَطَأْطَا عِنَانَ فَسْلٍ مُرِيبِ
وأبى الله أن يقوم بمـــا قا ... مَ به ابنُ الوصِىِّ وابنُ النَّجِيبِ
إنّ شَخْصاً بَيْنَ النَّبِىِّ — لك الخيـــرُ — وبين الوصىِّ غَيْرُ مَشُوبِ

(١) يقال لمن يظهر شيئا ويريد غيره : ضرب أخماسا لأسداس . والخمس والسدس: من أظماء الإبل ، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد سفرا بعيدا عود إبله أن تشرب خمسا ، ثم سدسا ، حتى إذا أخذت فى السير صبرت عن الماء . (مجمع الأمثال ١ : ٤١٨) .

وقال زَحْر بن قيس الجعفيّ يوم الجمل أيضاً :

أَضْرِبُكُمْ حَتَّى تُقِرُّوا لعَلِي   خَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّها بَعْدَ النَّبِي
مَنْ زَانَهُ اللهُ وَسَمَّاه الوَصِي   إن الوَلِيّ حافظٌ ظَهْرَ الوَلِي

* كما الغَوِيّ تابعٌ أمْرَ الغَوِي *

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مِخْنف لوط بن يحيى [(١)] فى كتاب وقعة الجمل . وأبو مِخْنف من المحدّثين ، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها .

* * *

ومما رويناه من أشعار صِفِّين التى تتضمن تسميته عليه السلام بالوصيّ ماذكره نصر ابن مزاحم [(٢)] بن يسار المِنقرىّ فى كتاب صِفّين ، وهو من رجال الحديث . قال نصر ابن مُزَاحم : قال زَحْر [(٣)] بن قيْس الجعفيّ :

فَصَلَّى الإلهُ عَلَى أَحْمَدٍ   رَسُولِ الْمَلِيكِ تمامِ النِّعَمْ
رَسُولِ المليك وَمِنْ بَعْدِهِ   خليفتنا القائم المدَّعَمْ
عَلِيًّا عَنَيْتُ وصيَّ النبيِّ   نُجالِدُ عَنْهُ غُواةَ الأُمَمْ

قال نصر : ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس [(٤)] :

أَتَانَا الرَّسُولُ رَسُولُ الإمام [(٥)]   فَسُرَّ بِمَقْدَمِهِ الْمُسْلِمُونَا
رَسُولُ الوصيِّ وصيّ النبيِّ   له السَّبْقُ والفضل فى المؤمنينا

---

(١) هو لوط بن يحيي بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ؛ كان راوية أخبار وصاحب تصانيف فى الفتوح وحروب الإسلام ، توفى سنة ١٥٧ . معجم الأدباء ١٧ : ٤١ ، الفهرست ٩٣ .

(٢) ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ٦ : ١٥٧ ؛ وقال : إنه توفى سنة ٢١٢ .

(٣) زحر ، ضبطه صاحب القاموس بفتح الزاى وسكون الحاء المهملة ؛ والذى فى كتاب صفين ص ٢٢ ، أنها لجرير بن عبد الله البجلى ، ضمن عشرة أبيات .

(٤) كتاب صفين ٢٧ .   (٥) صفين : « رسول على » .

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً :

أتانا الرَّسُولُ رسول الوصىِّ علىّ المهــذّبُ من هَاشِمِ [١]
وزيرُ النــبىِّ وذو صِهْرِه وَخَــيْرُ البريَّةِ والعالَمِ [٢]

قال نَصْر بن مُزاحم : من شعر أمير المؤمنين عليه السلام فى صِفّين :

ياعَجَبا لقَدْ سمِعْتُ مُنْـكَرَا كِذْباً عَلَى الله يُشِيبُ الشَّعَرَا [٣]
ما كانَ يَرْضَى أَحْمَدٌ لو أُخبرا أن يَقرِنُوا وصيَّــه والأَبْتَرَا
شانىَ الرسول واللعينَ الأَخْزَرا [٤] إنى إذا الموتُ دَنا وحضرا [٥]
شَمَّرْتُ ثَوْبِى وَدعوْتُ قَنْبَرا : قَدِّمْ لِوائى لا تؤخِّرْ حَــذَرَا
لَايَدْفَعُ الحَذارُ ماقدْ قُدِّرَا [٦] لو أن عندِى يابن حَرْبٍ جَعْفَرا
أو حمزةَ القَرْمَ الهُمام الأَزْهرَا رأت قريش نَجْمَ ليلٍ ظُهرا

(١) كتاب صفين ٢٨

(٢) كتاب صفين : « وخير البرية فى العالم » . (٣) كتاب صفين ٤٨ ؛ وبعد هذا البيت :

* يَسْتَرِقُ ٱلسَّمْعَ وَيَغْشَى ٱلْبَصَرَا *

(٤) كذا فى ا ، وفى كتاب صفين ، وفى ب « الأخورا » ، وبعده هناك :

كِلاَهُما فِى جُنْدِهِ قد عَسْكَرَا قَدْ بَاعَ هــذا دِينَهُ فَأَفْجَرَا
مَنْ ذَا بِدُنْيَا بَيْعُهُ قَدْ خَسِرَا بِمُلْكِ مِصْرٍ أَنْ أصابَ الظَّفَرَا

(٥) ا : « وأحضرا » .

(٦) كتاب صفين : « لن يدفع » وبعده :

لَمَّا رأيت ٱلمَوْتَ مَوْتاً أَحْمَرَا عَبَّأْتُ هَمْدَانَ وَعَبَّوْا حِمْــيَرَا
حَىٌّ يَمَانٍ يُعْظِمُونَ ٱلْخَطَرَا قِرْنٌ إِذَا نَاطَحَ قِرْناً كَسَرَا
قُلْ لابْنِ حَرْبٍ لَاتَدِبَّ ٱلْخَمَرَا أَرْوِدْ قَلِيلاً أُبْدِ مِنْكَ ٱلضَّجَرَا
لَا تَحْسَبَنِّى يَابْنَ حَرْبٍ غُمَرَا وَسَــلْ بِنَا بَدْراً مَعاً وَخَيْبَرَا
كَانَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ جَزَرَا إِذْ وَرَدُوا الأَمْرَ فَذَمُّوا ٱلصَّدَرَا

وقال جرير بن عبد الله البَجَلىّ : كتب بهذا الشعر إلى شُرَحبيل بن السِّمط الكندىّ ، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية :

نَصَحْتُكَ يابن السِّمط لا تتبع الهوى ... فمالك فى الدُّنيا من الدِّين مِنْ بَدَلْ(١)
وَلاَتَكُ كالمُجْرَى إلَى شَرّ غايةٍ ... فقد خُرِق السِّرْبَالُ واستَنْوَق الجمَلْ
مقالُ ابن هنــــــد فى علىّ عضيهةٌ ... ولَلّهُ فى صدرِ ابن أبى طالبٍ أجَلّ(٢)
وَمَا كَانَ إلّا لَازِماً قَعْرَ بيتِـــــه ... إلى أنْ أتى عثمانَ فى بيتــه الأجَلْ
وصىّ رسول الله مِنْ دُونِ أهــلِه ... وفارسه الحامِى بِهِ يُضْرَبُ المثل(٣)

وقال النعمان بن عجلان الأنصارىّ(٤) :

كيف التفرُّقُ والوصىُّ إمامُنَا ... لا كيف إلّا حَــيْرَةً وتخاذُلا
لاتغبِنُنَّ عقولَــكُم ، لا خَيْرَ فِي ... مَنْ لم يــكن عند البلابل عاقِلا
وذرُوا معاويةَ الغوِىَّ وتابِعوا ... دينَ الوصىّ لتحمَدُوه آجلا(٥)

وقال عبد الرحمن بن ذُؤَيب الأسلمىّ :

ألا أبلـغْ معاويةَ بْنَ حَرْبٍ ... فَمَالَكَ لاتَهَشُّ إلى الضِّرَابِ(٦) !
فإنْ تَسْــلَمْ وتَبْقَ الدَّهْرَ يوماً ... نَزُرْكَ بجحفلٍ عَدَدَ التّراب
يقودهُمُ الوصىُّ إليــك حَتّىٰ ... يردّك عن ضلالٍ وارتيابِ

وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب :

يَا عُصْبَةَ الموتِ صَــبْراً لا يهولُـكُمُ ... جيشُ ابْنِ حَرْبٍ فإنّ الحقّ قَدْ ظَهَرَا(٧)
وأيقِنوا أنّ مَن أضحى يُخالفُـكم ... أضْحَى شَقِيًّا وأمْسَى نفسَه خَسِرا

---

(١) كتاب صفين ص ٥٣ ، ٥٤ ، وروايته هناك : « شرحبيل يابن السمط » .
(٢) صفين : « وقال ابن هند » . (٣) صفين : « وفارسه الأولى به » .
(٤) صفين ص ٤١٥ ، وفيه : « النضر بن عجلان » .
(٥) صفين : « تصادفوه عاجلا » . (٦) صفين ٤٣٤
(٧) صفين ٤٣٧ ، وفيه : «ياشرطة الخير» .

فيـــــــكم وصيّ رسول الله قائدُكمْ وصهرُه وكتابُ الله قد نُشِرا

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[١] :

وصيّ رسولِ الله من دُونِ أهــلِهِ وَفَارِسُهُ إن قيل هَلْ مِنْ مُنَازِلِ !

فَدُونَــكَهُ إنْ كُنْتَ تبْغِي مهاجِراً أشمّ كنَصْلِ السّيْفِ عَيْرَ حَلاحِلِ[٢]

والأشعار التي تتضمن هذه اللفظة كثيرة جدًّا ، ولـكنا ذكرنا منها ها هنا بعض ما قيلَ فى هذين الحِزْبين ، فأما ما عداهما فإنه يجلّ عن الحصر ، ويعظُم عن الإحصاء والعدّ ، ولولا خوفُ الملالة والإضجار ، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة .

---

(١) صفين : ٤٧٤ ، ونسبها إلى الفضل بن عباس .

(٢) عير القوم : سيدهم ؛ والحلاحل بالفتح : جمع حلاحل ، بالضم ، وهو الشجاع .

— ٣ —

ومن خطبة له وهى المعروفة بالشقشقية[1] :

الأصْلُ :

أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ٱبنُ أَبى قُحَافَةَ[2] ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ ٱلرَّحَا ؛ يَنْحَدِرُ عَنِّى ٱلسَّيْلُ ، وَلَا يَرْقَى إِلَىَّ ٱلطَّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاء ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاء ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا ٱلصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ[3] حَتى يَلْقَى رَبَّه ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرْتُ وَفِى ٱلْعَيْنِ قَذًى ، وَفِى الْحَلْقِ شَجاً . أَرَى تُرَاثِى نَهْباً .

* * *

الشَّرْحُ :

سدلت دونها ثوبا ، أى أرخيتُ ، يقول: ضربتُ بينى وبينها حجاباً ؛ فِعْلَ الزاهد فيها ، الراغب عنها . وطويتُ عنها كشحا ، أى قطعتها وصرمتها ؛ وهو مثل ، قالوا : لأن مَنْ كان إلى جانبك الأيمن مائلا فطويت كشحكَ الأيسر فقد مِلْتَ عنه ، والكشح : ما بين الخاصرة والجنب . وعندى أنهم أرادوا غير ذلك ، وهو أنّ من أجاع نفسَه فقد طوى كشحه ، كما أنّ مَنْ أكل وشبع فقد ملأ كشحَه ، فكأنه أراد أنى أجعتُ نفسى عنها ، ولم ألقمها . واليد الجذاء بالدال المهملة ، وبالذال المعجمة ، والحاء المهملة مع الذال المعجمة ، كلّه بمعنى المقطوعة . والطَّخْية : قطعة من الغيم والسحاب . وقوله : «عمياء» ، تأكيد لظلام الحال واسودادها ؛ يقولون : مفازة عمياء ، أى يعمى فيها الدليل .

(١) مخطوطة النهج : « الشقشقية والمقمصة » . (٢) مخطوطة النهج : « فلان » .
(٣) مخطوطة النهج : « المؤمن » .

ويكدح : يسعى ويكدّ مع مشقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾[١] .
وهاتا ، بمعنى هذه ، « ها » للتنبيه ، و « تا » للإشارة ، ومعنى « تا » ذى ، وهذا أحجى من كذا أى أليق بالحجا ، وهو العقل .

* * *

وفى هذا الفصل من باب البديع فى علم البيان عشرة ألفاظ :

أولها : قوله : « لقد تقمّصها » ، أى جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرْها للعلم بها ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[٢] ، وكقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[٣] ، وكقول حاتم :

أَمَاوِىَّ ما يُغْنِى الثَّراءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يوماً وَضَاقَ بها الصَّدْرُ[٤]

وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾[٥] وقول النابغة[٦] :

تَسَرْبَلَ سِرْبَالًا مِنَ النَّصْرِ وارْتَدَى ... عَلَيْهِ بِعَضْبٍ فى الْكَرِيهَةِ قاصِلِ

الثانية : قوله : « ينحدر عنى السيل » ، يعنى رفعة منزلته عليه السلام ، كأنه فى ذروة جبل أو يفَاع مشرف ، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان ، قال الهذلىّ :

وعَيطاء يَكْثُر فيها الزليلُ ... وينحدِرُ السَّيْلُ عنها انحدَارا[٧]

الثالثة : قوله عليه السلام : « ولا يَرْقَى إلىّ الطير » ، هذه أعظمُ فى الرفعة والعلوّ من التى قبلها ، لأنّ السيل ينحدر عن الرابية والهضْبة ، وأما تعذّرُ رقىّ الطير فربما يكون للقِلال الشاهقة جدًّا ، بل ما هو أعلى من قِلال الجبال ، كأنه يقول : إنى لعلوّ منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يَرْقى الطير إليها ، قال أبو الطيب :

فوْقَ السَّماء وفوْقَ ما طَلَبُوا ... فإذَا أرادوا غايةً نزلُوا[٨]

---

(١) سورة الانشقاق ٦
(٢) سورة ص ٣٢
(٣) سورة الرحمن ٢٦
(٤) ديوانه ١١٨
(٥) سورة الأعراف ٢٦
(٦) كذا فى الأصول ، والصواب أنه لأبى تمام ، كما فى ديوانه ٣ : ٨٢
(٧) عيطاء : مرتفعة . والزليل : الزلل .
(٨) ديوانه ٣ : ٣١٠

وقال حبيب :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فى عُلوٍّ كأنما تحاولُ ثأراً عِنْدَ بعضِ الكَوَاكِبِ[1]

الرابعة : قوله : « سدلت دونها ثوبا » ، قد ذكرناه .

الخامسة : قوله « وطويت عنها كشحا » قد ذكرناه أيضاً .

السادسة : قوله : « أَصُولُ بيدٍ جَذّاء » ، قد ذكرناه .

السابعة : قوله : « أَصْبِر على طَخْية عمياء » قد ذكرناه أيضاً .

الثامنة : قوله : « وفى العين قذى » ، أى صبرت على مضض كما يصبر الأرمد .

التاسعة : قوله : « وفى الحلْق شَجاً » وهو مايعترض فى الحلْق . أى كما يصبر من غَصَّ بأمرٍ فهو يكابد الخَنق .

العاشرة : قوله : « أرى تُراثى نَهْباً » ، كنى عن الخلافة بالتراث ، وهو الموروث من المال .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « إن محلّى منها محلّ القُطْب من الرحا » ، فليس من هذا النَّمَط الذى نحن فيه ، ولكنه تشبيه محض ، خارج من باب الاستعارة والتوسع ؛ يقول : كما أنّ الرحا لا تدور إلا على القُطْب ، ودورانُها بغير قُطْب لا ثمرة له ولا فائدة فيه ، كذلك نِسْبتى إلى الخلافة ، فإنها لا تقوم إلا بى ، ولا يدور أمرُها إلّا علىّ .

هكذا فسروه . وعندى أنه أراد أمرا آخر ، وهو أنّى من الخلافة فى الصميم ، وفى وَسَطها وبُحْبُوحَتِها ، كما أن القطب وسط دائرة الرحا ، قال الراجز[2] :

(١) ديوانه ١ : ٢١٧

(٢) هو جرير بن عطية ، ديوانه ٥٢٠ ؛ والأبيات أيضا فى الكامل ٢ : ١١٢ ، ٣ : ١٩١ ، يقولها فى الحكم بن أيوب بن أبى عقيل الثقفى ؛ ابن عم الحجاج ، وكان عامله على البصرة .

على قِلاَصٍ مثل خِيطان السَّلَمْ.(١) إذا قَطَعْن علماً بَدَا عَلَمْ.(٢)
حتى أنخناها إلى بابَ الحَكَمْ.(٣) خليفةِ الحجّاج غير المتّهمْ
* فى سُرّة المجد وبُحْبُوحِ الكَرَمْ.(٤) *

وقال أمية بن أبى الصّلت لعبد الله بن جُدْعان :

فحللتَ منها بالبطا حِ وحَلَّ غيرُكَ بالظَّوَاهِرِ.(٥)

وأما قوله : « يَهْرَم فيها الكبير ، ويَشيب فيها الصغير » فيمكن أنْ يكونَ من باب الحقائق ، ويمكن أن يكون من باب المجازات والاستعارات ؛ أما الأول فإنه يعنى به طولَ مدة ولاية المتقدّمين عليه ، فإنها مدة يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير .

وأما الثانى فإنه يعنى بذلك صعوبةَ تلك الأيام ؛ حتى إنّ الكبير من الناس يكاد يَهْرَم لصعوبتها ، والصغير يشيب من أهوالها ، كقولهم : هذا أمر يَشيب له الوليد ؛ وإن لم يَشِب على الحقيقة .

---

(١) القلاص : جمع قلوص ؛ وهى الناقة الفتية . والخيطان : جمع خوط ؛ وهو الغصن الناعم . والسلم : شجر ، واحدته سلمة .

وبعده فى رواية الديوان :

قَدْ طُوِيَتْ بُطُونُهَا عَلَى الأُدَمْ بَعْدَ انفضاجِ البُدْنِ واللحمِ الزِّيَمْ

(٢) بعده فى رواية الديوان :

* فَهُنّ بَحْثاً كَمُضِلّاتِ الخَدَمْ *

(٣) رواية الديوان :

* حَتَّى تَنَاهَيْنَ إلى بابِ الحَكَمْ *

(٤) رواية الديوان :

* فى ضِئْضِىءِ المجدِ وبُؤْبُؤِ الكَرَمْ *

(٥) البطاح : بطن مكة ، والظواهر أعلاها ؛ والبيت فى اللسان ٦ : ١٩٧ منسوب للكميت بهذه الرواية :

فَحَلَلْتَ مُعْتَلَجَ البطا حِ وَحَلَّ غيرك بالظَّواهِرْ

واعلم أنّ فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وتقديره :ولا يرقى إلىّ الطير ، فطفقت أرتئى بين كذا وكذا ، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى فسدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ثم «فصبرت وفى العين قذى»؛ إلى آخر القصة ، لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوبا ويطوى عنها كشحا ، ثم يَطفِق يرتئى بين أنْ ينابذهم أو يصبر ؛ ألا ترى أنه إذا سَدَل دونها ثوبا ، وطوى عنها كشحا فقد تركها وصرمها ، ومن يتركْ ويَصرمْ لا يرتئى فى المنابذة ! والتقديم والتأخير طريق لا حب ، وسبيل مَهْيع فى لغة العرب ، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ ، (١) أى أنزل على عبده الكتاب قيّما ، ولم يجعل له عوجا ، وهذا كثير .

وقوله عليه السلام : « حتى يَلْقى ربّهْ » بالوقف والإسكان ، كما جاءت به الروايةُ فى قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهْ ﴾ (٢) بالوقف أيضاً .

* * *

[نسب أبى بكر ونبذة من أخبار أبيه]

ابن أبى قحافة المشار إليه ، هو أبو بكر ، واسمه القديم عبد الكعبة ، فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبدَ الله . واختلفوا فى «عَتيق» ، فقيل : كان اسمَه فى الجاهلية، وقيل: بل سماه به رسول الله صلى الله عليه وآله . واسم أبى قُحافة عثمان ، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب بن لُؤىّ بن غالب . وأمه ابنة عمّ أبيه ، وهى أمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد . أسلم أبو قحافة يوم الفتح ، جاء به ابنُه أبو بكر إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ، وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة (٣) البيضاء ، فأسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « غَيّروا شَيبته » .

---

(١) سورة الكهف ١ ، ٢ (٢) سورة البينة ٨

(٣) أورد الخبر ابن الأثير فى النهاية (١ : ١٢٩) : « أتى بأبى قحافة يوم الفتح وكأن رأسه ثغامة » . وقال : « هو نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به الشيب . وقيل : هى شجرة تبيض كأنها الثلج » .

وولىَ ابنُه الخلافة وهو حىّ منقطع فى بيته ، مكفوف عاجز عن الحركة ، فسمع ضوضاء الناس ، فقال ، ما الخبر ؟ فقالوا : ولىَ ابنُك الخلافة ، فقال : رضيتْ بنو عبد مناف بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهمّ لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطىَ لما منعتَ .

ولم يلِ الخلافةَ مَنْ أبوه حىّ إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم[١] الطائع لله ، وَلِىَ الأمرَ وأبوه المطيع حىّ ، خلع نفسَه من الخلافة ، وعهِد بها إلى ابنه . وكان المنصورُ يسمِّى عبدَ الله بن الحسن بن الحسن[٢] أبا قُحافة تهكّما به ، لأن ابنَه[٣] محمدا ادّعى الخلافة وأبوه حىّ .

ومات أبو بكر وأبو قُحافة حَىّ ، فسمِع الأصوات فسأل ، فقيل : مات ابنُك ، فقال : رزء جليل . وتوفِّى أبو قحافة فى أيام عمر فى سنة أربع عشرة للهجرة ، وعمره سبع وتسعون سنة ، وهى السّنة التى توفى فيها نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم[٤] .

* * *

إن قيل : بيّنوا لنا ماعندكم فى هذا الكلام ؟ أليس صريحُه دالًّا على تظليم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر ! فما قولُكم فى ذلك ؟ إن حكمتُم عليهم بذلك فقد طعنتُ فيهم ، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم فى المتظلِّم المتكلِّم عليهم !

قيل : أما الإماميّة من الشيعة فتُجرى هذه الألفاظَ على ظواهرها ، وتذهبُ إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنّه غُصِب حقّه .

---

(١) أصيب المطيع لله بالفالج ، ولما قوى عليه وثقل لسانه ، خلع نفسه . وبويع لولده الطائع ؛ وكان ذلك فى سنة ٣٦٤ . الفخرى ص ٢٥٣ (٢) كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، شيخ بنى هاشم فى وقته ، والمقدم فيهم . وانظر أخباره فى مقاتل الطالبيين ص ١٧٩ـ١٨٥ .

(٣) كان علماء آل أبى طالب يرون فى محمد بن عبد الله بن الحسن أنه النفس الزكية ؛ وكان أفضل أهل بيته فى علمه بكتاب الله وحفظه له ، مع فقهه فى الدين وشجاعته وجوده وبأسه وكل أمر يجمل بمثله . وانظر ترجمته وأخباره فى مقاتل الطالبيين ص ٢٣٢ ـ ٢٩٩

(٤) هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ له صحبة ؛ ، وكان أسن من أسلم من بنى هاشم ؛ حتى من عميه حمزة والعباس . الإصابة ٦ : ٢٥٨

وأما أصحابُنا رحمهم الله ؛ فلهم أن يقولوا : إنه لما كان أميرُ المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ،وعُدِل عنه إلى مَنْ لا يساويه فى فضل ، ولا يوازيه فى جهاد وعِلْم ؛ ولا يماثله فى سُؤدد وشرف ـ ساغَ إطلاقُ هـذه الألفاظ ، وإن كان من وُسِم بالخلافة قبله عَدْلاً تقيـا ، وكانت بيعتُه بيعـةً صحيحة ؛ ألا ترى أنّ البلد قد يكون فيه فقيهان ؛ أحدُهما أعلمُ من الآخر بطبقاتٍ كثيرة،فيَجعل السلطان الأنقصَ عِلْماً منهما قاضياً،فيتوجَّد الأعلم[1] ويتألّم ، وينفُث أحيانا بالشَّـكْوى،ولا يكون ذلك طعناً فى القاضى ولا تفسيقا له، ولا حُـكْما منه بأنه غير صالح ، بل للعدول عن الأحقّ والأوْلى!وهذا أمر مركوز فى طباع البشر،ومجبول فى أصل الغريزة والفطرة ؛ فأصحابُنا رحمهم الله،لما أحسنُوا الظنّ بالصحابة ـ وحَملوا ماوقع منهم على وجه الصواب ، وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام ، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقطْ ، بل وتُفضى إلى ذهاب النبوّة والملّة ، فعـدَلوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ ، إلى فاضلٍ آخر دونه ، فعقـدوا له ـ احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عمَّن يعتقدونه فى الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة ، فتأوّلوها بهذا التأويل ، وحملوها على التألّم للعدول عن الأوْلى .

وليس هذا بأبْعَد من تأويل الإماميّةقولَه تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[2]، وقولهم : معنى « عصى » أنّه عَدَل عن الأوْلى ، لأنّ الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب ، فلما تركه آدم ، كان تاركا للأفضل والأوْلى ، فسمى عاصيا باعتبار مخالفة الأوْلى ، وحملوا « غوَى » على « خاب » لاعلى الغواية بمعنى الضلال . ومعلومأنّ تأويلَ كلام أمير المؤمنين عليـه السلام وحَمْلَه على أنه شكا من تركهم الأوْلى أحسنُ من حَمْل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ على أنه تَرَكَ الأوْلى .

---

(١) ب : « الأعظم » ، والأجود ما أثبته من ا
(٢) سورة طه ١٢١

إن قيل : لا تخلو الصحابة إمّا أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع فى الأفضل أَولا لمانع ؛ فإنْ كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى ، فيكون باطلا ، وإن كان لمانع — وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة ، وكَوْن الناس كانوا يبغضون عليا عليه السلام ويحسدونه — فقد كان يجب أن يَعْذِرَهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فى العدول عنه ، ويعلم أنّ العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حَسُن منه أن يشكوَهم بعد ذلك؛ ويتوجّد عليهم !

وأيضاً ، فما معنى قوله: « فطفِقْت أرتئى بين أن أصول بيد جَذَّاء » ، على ما تأوّلتم به كلامه ؛ فإنّ تارك الأَوْلَى لا يُصال عليه بالحرب !

قيل : يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلِبْ على ظنه ما غَلب على ظنون الصحابة من الشّغْب وثَوَرَان الفتنة ، والظنونُ تختلف باختلاف الأمارات ، فربّ إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظن غيره خلافُه . وأما قوله : «أرتئى بين أنْ أصول»، فيجوز أن يكون لم يَعْنِ به صِيالَ الحرب، بل صيال الجدَل والمناظرة ؛ يبيِّن ذلك أنّه لو كان جادلهم وأظهر ما فى نفسه لهم ، فربّما خَصموه بأن يقولوا له : قد غلب على ظُنونِنا أنّ الفساد يعظُم ويتفاقم إن وَليت الأمر ، ولا يجوز مع غَلَبة ظنوننا لذلك أنْ نسلِّم الأمر إليك ، فهو عليه السلام قال : طفقت أرتئى بين أن أذكر لهم فضائلى عليهم ، وأحاجّهم بها، فيجيبونى بهذا الضّرب من الجواب — الذى تصير حُجّتى به جَذّاء[1] مقطوعة، ولا قدرةَ لى على تشييدها ونصرتها — وبين أنْ أصبِر على ما مُنيت به ، ودُفِعْت إليه .

إن قيل : إذا كان عليه السلام لم يغلبْ على ظنِّه وجودُ العلة والمانع فيه، وقد استراب الصحابةَ وشكاهم لعدُولهم عن الأفضل الذى لا علّة فيه عنده فقد سلّمتُم أنه ظَلَمَ الصحابة ، ونسبهم إلى غصب حَقِّه ، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمَهم لمخالفة النص ؟ وكيف

(١) ا : « جدّاء » .

هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النصّ ، ووقعتم فى نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأوْلى من غير علّة فى الأوْلى ، ومعلوم أن مخالفة الأوْلى من غير علة فى الأوْلى كتارك النصّ ، لأنّ العقد فى كلا الموضعين يكون فاسدا !

قيل : الفرق بين الأمرين ظاهر ، لأنه عليه السلام لو نَسَبهم إلى مخالفة النصّ لوجب وجودُ النصّ ، ولو كان النصُّ موجودا لـكانوا فُسّاقا أو كفارا لمخالفته ، وأمّا إذا نَسَبهم إلى ترك الأوْلى من غيرِ علّة فى الأوْلى ، فقد نسبهم إلى أمر يدّعون فيه خلافَ ما يدّعى عليه السلام ، وأحد الأمرين لازم ؛ وهو إما أن يكون ظنهم صحيحا أو غير صحيح ، فإن كان ظنُّهم هو الصحيح فلا كلام فى المسألة ، وإن لم يكن ظنُّهم صحيحا كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور ، ومخالفةُ النصّ [أمرٌ] خارج عن هذا الباب ؛ لأنّ مخالِفَه غير معذور بحال ، فافترق المحملان .

* * *

[مرض رسول الله وإمرة أسامة بن زيد على الجيش]

لما مرض رسولُ الله صلى الله عليه وآله مرضَ الموت ، دعا أسامةَ بن زيد بن حارثة ، فقال : سرْ إلى مقتَل أبيك[(١)] ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولّيتُك على هذا الجيش ، وإن أظفرَك الله بالعدوّ ، فأقلل اللَّبْث ، وبثّ العيون ، وقدّم الطلائع . فلم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان فى ذلك الجيش ؛ منهم أبو بكر وعُمر ، فتكلّم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلامَ على جِلّة المهاجرين والأنصار ! فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك ، وخرجَ عاصباً رأسه ، فصعِد المنبر وعليه قَطيفة[(٢)] فقال : « أيها الناس ، ما مقالة بلغتْنى عن بعضكم فى تأمير أسامة ! لئن طعنتم فى تأميرى أسامة ، فقد طعنتم فى تأميرى أباه مِنْ قبله ، وأيمُ الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وابنُه من[(٣)] بعده لخليق بها ،

(١) قتل زيد بن حارثة بمؤتة ؛ إحدى قرى البلقاء ؛ وتفصيل الخبر فى الطبرى ، (حوادث السنة الثامنة) . (٢) القطيفة : كساء له أهداب (٣) ا : « وإن ابنه من بعده الخليق بها » .

وإنهما لمن أحبِّ الناس إليّ ؛ فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » . ثم نزل ودخل بيته ، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجُرْف[١] .

وثَقِل[٢] رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتدّ ما يجده ، فأرسل بعضَ نسائه إلى أسامة وبعض مَنْ كان معه ، يُعلمونهم ذلك ، فدخل أسامة من معسكره ــ والنبيّ صلى الله عليه وآله مغمور ، وهو اليوم الذى لَدّوه[٣] فيه ــ فتطأطأ أسامة عليه فقبّله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد أسكت فهو لا يتكلّم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ؛ كالداعى له ، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره ، والتوجّه لما بعثه فيه ، فرجع أسامة إلى عسكره . ثم أرسل نساء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسامة يأمُرْنه بالدخول ، ويقُلْن إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أصبح بارئا ، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين ، الثانى عشر من شهر ربيع الأول فوجَد رسول الله صلى الله عليه وآله مُفيقا ، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ ، وقال : اغْدُ على بركة الله ، وجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويكرّر ذلك ، فودّع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج ومعه أبو بكر وعمر ، فلما ركب جاءه رسول أمّ أيمن ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله يموت ، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فانتهوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين زالت الشمس من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين ، وقد مات واللواء مع بُرَيْدة بن الحُصَيب ، فدخل باللّواء فركزه عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مُغْلق ، وعلىّ عليه السلام وبعض بنى هاشم مشتغلون بإعداد جهازه وغَسْله ، فقال العباس لعلىّ ــ وهما فى الدار : امْدُدْ يدَك أبايعْك فيقول الناس : عمّ رسول الله بايع ابنَ عمّ رسول الله ؛ فلا يختلف عليك

---

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) ثقل ، بالكسر : اشتد مرضه .

(٣) يقال : لد المريض، بالبناء للمجهول أى دووى باللدود ؛ بالفتح ؛ وهو من الأدوية ما يسقاه المريض فى أحد شِق الفم ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ٥٥ ، واللسان ٤ : ٣٩٣

اثنان ، فقال له : أوَ يطمعُ ياعمّ فيهـا طامع غيرى ! قال : ستعلم ؛ فلم يلبثا أنْ جاءتهما الأخبار بأنّ الأنصـار أقعـدتْ سعداً لتُبايعَه ، وأنّ عمر جاء بأبى بكر فبايَعه ، وسبق الأنصارَ بالبَيْعة ، فندم علىّ عليه السلام على تفريطه فى أمر البيعة وتقاعده عنها ، وأنشده العباس قول دُرَيد :

أَمَرْتُهُمُ أمرِى بمُنعرَجِ اللِّــوَى فلم يستبينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغدِ[1]

* * *

وتزعُم الشيعةُ أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله كان يعلَمُ موته، وأنه سيَّر أبا بكر وعمر فى بعث أسامة لتخلُوَ دارُ الهجرة منهما ، فيصفُوَ الأمرُ لعلىّ عليـه السلام ، ويبايَعه من تخَلّف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة ، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وبيعة الناس لعلىّ عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعدَ ، لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمـام تلك البَيْعة ، ويُحتاجُ فى نقضها إلى حروب شديدة ، فلم يتمّ له ماقدّر ، وتثاقلَ أسامة بالجيش أياما ، مع شدّة حثّ رسول الله صلى الله عليه وآله على نفوذه وخروجه بالجيش ، حتى مات صلى الله عليـه وآله وهما بالمدينـة ، فسبقا عليًّا إلى البيعة وجَرى ماجرى .

وهذا عندى غير منقدح ، لأنه إن كان صلى الله عليه وآله يعلم موتَه ، فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيلى الخلافة ، وما يعلمه لا يحترس منه ؛ وإنما يتمّ هـذا ويصحّ إذا فرضنا أنه عليـه السلام كان يظنّ موتَه ولا يعلمه حقيقة ، ويظنّ أن أبا بكر وعمر يتمالآن على ابن عمه ، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة ، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التوهّم ، ويتطرق هـذا الظنّ ، كالواحد منا له ولدان ؛ يخاف من أحدهما

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٢ : ٨١٤ ، وروايته : « فلم يستبينوا الرشد » .

أن يتغلّب بعد موته على جميع ماله ، ولا يوصِل أخاه إلى شيء من حقه ؛ فإنه قد يخطر له عند مرضه الذى يتخوّف أن يموتَ فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد فى تجارة يسلمها إليه ، يجعل ذلك طريقا إلى دفع تغلّبه على الولد الآخر .

* * *

الأصْلُ :

حَتَّى مَضَى ٱلْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ٱبنِ ٱلْخَطَّابِ بَعْدَهُ (١)

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَاعَجَبا ! بَيْنَاهُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ ، إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ! لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا ! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا ، وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ فِيهَا ، وَٱلاعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ ٱللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ ، وَتَلَوُّنٍ وَٱعْتِرَاضٍ ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ ٱلْمُدَّةِ ، وَشِدَّةِ ٱلْمِحْنَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

مضى لسبيله : مات ، والسّبيل الطريق ، وتقديره : مضى على سبيله ، وتجىء اللاّم بمعنى « على » كقوله (٢) :

* فَخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ *

وقوله : « فأدلَى بها » منقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

(١) فى مخطوطة النهج : « ثم تمثل بقول الأعشى » . وكذلك فى حواشى ب .

(٢) لجابر بن حنى التغلبى ، وصدره :

* تَنَاوَلَهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ اتَّنَى لَهُ *

من قصيدة له مفضلية ٢٠٨ ـ ٢١٢ ، والبيت من شواهد المغنى ١ : ٢١٢ ، على وضع اللام موضع «على» .

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ (١) أى تدفعوها إليهم رِشْوَة ، وأصله من أدليت الدّلو فى البئر ، أرسلتَها .

فإن قلت : فإنّ أبا بكر إنما دفَعها إلى عمر حين مات ، ولا معنى للرّشوة عند الموت !

قلت : لما كان عليه السلام يرَى أنّ العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبّه ذلك بإدلاء الإنسان بمالِه إلى الحاكم ، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه ، فكان ذلك من باب الاستعارة .

* * *

[عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب]

وابن الخطاب هو أبو حفص عُمَر الفاروق ، وأبوه الخطّاب بن نُفَيل بن عبد العُزّى ابن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزاح بن عدىّ بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . وأم عمر حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

لما احتُضر أبو بكر ، قال للكاتب اكتب : هذا ماعهد عبد الله بن عثمان (٢) ، آخرَ عهده بالدنيا وأوّلَ عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبَرّ فيها الفاجر ، ويُسْلِم فيها الكافر . ثم أغمى عليه فكتب الكاتب : عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ ما كتبت ، فقرأ وذكر اسم عمر ، فقال : أنَّى لك هذا ! قال : ما كنت لتعدُوَه ، فقال : أصبت ، ثم قال : أتمّ كتابك ، قال : ما أكتب ؟ قال: اكتب : وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره ، فرأى أنّ هذا الأمر (٣ لا يصلح آخرهُ إلا بما يصلح به أوله ٣) ، ولا يحتمله إلا أفضلُ العرب مقدرة ، وأملَكهم لنفسه ، وأشدّهم فى حال الشدة ، وأسلسهم فى حال اللين ، وأعلمهم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزَن لما لم ينزل به ،

(١) سورة البقرة ١٨٨ .   (٢) عثمان اسم أبى قحافة .

(٣ ــ ٣) كذا فى ب ، ج ، فى ا : « لا يصلح آخره إلا بما أوله به صالح » .

ولا يستحى من التعلّم ، ولا يتحيّر عند البديهة . قويّ على الأمور ، لا يجوز بشيء منها حدّه عدوانا ولا تقصيرا ، يرصدُ لما هوآت عَتاده من الحذر .

فلما فرغ من الكتاب ، دخل عليه قوم من الصحابة ؛ منهم طلحة ، فقال له(١) : ما أنت قائل لربّك غدا ، وقد ولّيْتَ علينا فظًّا غليظا ، تفرّق منه النفوس ؛ وتنفضّ عنه القلوب !

فقال أبو بكر : أسندونى — وكان مستلقيا — فأسندوه ، فقال لطلحة : أبالله تخوّفنى ! إذا قال لى ذلك غدا قلت له : ولّيتُ عليهم خيرَ أهلك .

ويقال(٢) : أصدقُ الناس فِراسة ثلاثة : العزيز فى قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(٣) ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها فى موسى : ﴿ يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾(٤) ، وأبو بكر فى عمر .

* * *

وروَى كثير من الناس أنّ أبا بكر لما نَزَل به الموت(٥) دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال : أخبِرْنى عن عمر ، فقال : إنه أفضلُ من رأيك [فيه(٦)] إلا أنّ فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذاك لأنّه يرانى رقيقا ، ولو قد أفضَى الأمرُ إليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد رمقتُه إذا أنا غضبتُ على رجل أرانى الرِّضا عنه ، وإذا لنتُ له أرانى الشدة عليه . ثم دعا عثمان بن عفّان، فقال:أخبِرْنى عن عمر،فقال : سريرتُه خير من علانيته(٧) ، وليس فينا مثله.فقال لهما:لاتذكرا مما قلتُ لكما شيئًا،ولو تركتُ عمر لما عدوتُك ياعثمان،والخيرة لك ألّا تلىَ من أمورهم شيئا ، ولوددت أنى كنت من أموركم خِلْواً ، وكنت فيمن مضى من سَلَفِكم . ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر ، فقال : إنه بلغنى أنّك يا خليفةَ

(١) كلمة « له » ساقطة من ب . (٢) ا : « ويقال إنه »
(٣) سورة يوسف ٢١ (٤) سورة القصص ٢٦
(٥) ساقطة من ب (٦) تكملة من تاريخ الطبرى ٣ : ٤٢٨ ، وفى ج : «أفضل من رأيت» .
(٧) ا : « تقصر عن علانيته »

رسول الله استخلفتَ على النـاس عمر ، وقد رأيتَ مايلقى الناس منه وأنت معـه ، فـكيف به إذا خلا بهم ، وأنت غداً لاقٍ ربك ، فيسألك عن رعيتك ! فقال أبو بكر : أجلسونى ، ثم قال : أبالله تخوّفنى ! إذا لقيتُ ربى فسألنى ، قلتُ : استخلفتُ عليهم خَيْرَ أهلك . فقال طلحة : أعمر خـيرُ الناس ياخليفةَ رسول الله ! فاشتدّ غضبه ، وقال : إى والله ، هو خيرهم وأنت شرّهم . أما والله لو ولّيتُك لجعلتَ أنفك فى قفاك ، ولرفعتَ نفسك فوق قدرها، حتى يكون الله هو الذى يضعها ! أتيتنى وقد دَلَـكت عينك ، تريد أن تفتننى عن دينى ، وتُزيلنى عن رأيى ! قُمْ لا أقام الله رِجْلَيْك ! أما والله لئن عِشتُ فُواق ناقة، وبلغنى أنك غمصتَه فيها، أو ذكرته بسوء ، لألحقنّك بمحْمضات قُنّة(١)، حيث كنتم تُسْقَون ولا تَرْوَوْن ، وتَرْعَوْن ولا تشبعون ، وأنتم بذلك بَجِحُون (٢) راضون ! فقام طلحة فخرج .

* * *

أحضر أبو بكر عثمان —وهو يجود بنفسه— فأمره أن يكتب عهداً ، وقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد عبد الله بن عثمان (٣) إلى المسلمين . أمّا بعد ، ثم أغمى عليه ؛ وكتب عثمان : قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ فقرأه ، فـكبّر أبو بكر ، وسرّ ، وقال: أراك خِفْتَ أن يختلف الناس إن متّ فى غشيتى! قال : نعم ، قال : جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله . ثم أتمّ العهد ، وأمر أن يُقرأ على الناس فقرئ عليهم . ثم أوصى عمر ، فقال له : إنّ لله حقًّا بالليل لا يقبَلُه فى النهار ، وحقًّا فى النهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبلُ نافلة مالم تؤدَّ الفريضة ، وإنما ثقلت موازين مَن اتّبع الحق مع ثقله عليه، وإنما خفّت موازين من اتَّبع الباطل لخفّته عليه ، إنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدّة ، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنّى فيها على الله ماليس له ، ولئلاّ

(١) الموضع الذى ترعى فيه الإبل الحمض . وقنة : موضع بعينه .
(٢) البجح : الفرح والسرور . (٣) الطبرى ٣ : ٤٢٩ : « أبو بكر من أبى قحافة » .

يرهب رهبة يلقى فيها بيده، فإن حفظتَ وصيتى ، فلا يكن غائبٌ أحبّ إليك من الموت ولستَ معجزَه .

ثم توفى أبو بكر .

***

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه ، فقال: إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فلا تُمْسِيَنّ حتى تندب الناس مع المثنىّ بن حارثة ، وإن تأخّرتُ إلى الليل فلا تصبِحَنّ حتى تندب الناس معه، ولا تَشغلنّكم مصيبة عن دينكم ، وقد رأيتَنى متوفّى رسول الله صلى الله عليه وآله كيف صنعت .

وتوفِّىَ أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة .

***

وأما البيت الذى تمثل به عليه السلام ، فإنه للأعشى الكبير ، أعشى قيس. وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جَنْدل ، من القصيدة التى قالها فى منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل ، وأولها :

عَلقَمُ ما أنْتَ إلى عامرِ النّاقضِ الأَوْتَارِ والْوَاتِرِ (١)

يقول فيها :

وَقَدْ أُسَلِّى الهمَّ إذْ يَعْتَرِى بِجَسْرَةٍ دَوْسَرَةٍ عَاقِرِ (٢)

زَيّافَةٍ بالرَّحْلِ خَطّارَةٍ تُلْوِى بِشَرْخَىْ مَيْسَةٍ قاترِ (٣)

ـ شرْخا الرّحل : مقدّمه ومؤخره ، والمَيْس : شجر يتخذ منه الرّحال ، ورحل قاتر: جيّد الوقوع على ظهر البعير ـ

(١) ديوانه ١٠٤ ـ ١٠٨ ؛ ويقع هذا البيت الخامس عشر منها ، وأولها :

شَاقَتْكَ مِنْ قتلَةَ أطلالُها بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلى حَاجِرِ

(٢) الجسرة : الناقة السريعة ، والدوسرة : الضخمة . والعاقر : التى لم تحمل ، وفى الديوان : « حين اعترى » .

(٣) الزيافة : المختالة فى سيرها . والخطارة : التى تخطر بذنبها نشاطا .

شَتَّانَ ما يَوْمى عَلَى كُورِها ... وَيومُ حَيَّانَ أخى جَابِرِ
أَرْمى بِهَا الْبَيْدَاءَ إذ هَجَّرتْ ... وأنت بين الْقَرْوِ والعاصِرِ(١)
فى مِجْــدَلٍ شُيِّدَ بُنْيَانُه ... يَزِلّ عنــهُ ظُفُرُ الطَّائِرِ

تقول : شَتَّان ما هما ، وشَتَّان هما ، ولا يجوز: شتّان ما بينهما، إلا على قول ضعيف . وشتّان : أصله شتت ، كوشْكَان ذا خروجاً ، من وَشُك . وحيّان وجابر ابنا السّمين الحنفيّان ، وكان حيّان صاحبَ شراب ومعاقرة خمر ، وكان نديم الأعشى ، وكان أخوه جابر أصغر سنًّا منه ، فيقال : إن حيّان قال للأعشى : نسبتنِى إلى أخى ؛ وهو أصغرُ سِنًّامنِّى ! فقال : إنّ الروىّ اضطرنى إلى ذلك ، فقال : والله لا نازعتُك كأساً أبدا ماعشت . يقول : شتان يومى وأنا فى الهاجرة والرمضاء ، أسيرُ على كور هذه الناقة ويوم حَيَّان وهو فى سَــكْرة الشراب ، ناعم البال ، مرفّه من الأكدار والمشاقّ . والقَرْو: شبه حوض ، يتّخذ من جِذْع أو مــن شجر يُنْبذ فيه ، والعاصِر : الذى يعتصر العنب . والمجْدَل : الحِصْن المنيع .

* * *

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بن الربيع فى أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه المأمون : إنما نحن(٢) شَعب من أصل ، إن قَوِىَ قوينا ، وإن ضَعُف ضعفنا ؛ وإنّ هــذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويُقْدِم على الرؤيا ، قد أمكن أهلَ الخسارة واللهو من سمعه ، فهم يمنّو نه الظفر ، ويَعدونه عُقَب الأيام ؛ والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباه الذئب ، هَمّه بطنُه وفرْجه ، لا يفكِّر فى زوال نعمة ، ولا يُرَوِّى فى إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله

---

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وهو فى اللسان ٢٠ : ٣٤ ، وروايته :

* أرْمِى بها البيداء إذ أعْرَضَتْ *

(٢) الخبر بالتفصيل فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٩٦) .

عن ساقه ، وفوّق إليه أسدّ سِهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ، قد عَبَّأ له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح وشِفار السيوف ، فهو كما قال الشاعر[1] :

لشتّان ما بينى وبين ابن خالدٍ   أميّة فى الرزق الذى الله يقسِم[2]
يقارع أتراكَ ابن خاقانَ ليلَهُ[3]   إلى أن يرَى الإصباحَ لا يتلعثَمُ
وآخــذها حمراء كالمسك ريحُها   لهــا أرجٌ مِنْ دَنِّها يتنسّم[4]
فيُصْبِح من طُولِ الطِّراد وَجِسْمُهُ   نحيلٌ وأُضحِى فى النَّعيم أُصمِّمُ

وأمية المذكور فى هــذا الشعر ، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص ابن أميّة بن عبد شمس ، كان والى خراسان ، وحارب الترك . والشعر للبَعِيث .

***

يقول أمير المؤمنين عليه الســلام : شتّان بين يومى فى الخلافة مع ما انتقض علَيّ من الأمر ومُنِيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة ، وبين يوم عمر حيثُ وليها على قاعدة ممهّدة ، وأركان ثابتة ، وسكون شامل ، فانتظم أمرُه ، واطّرد حاله ، وسكنت أيامه .

قوله عليه السلام : « فياعجبا » أصله « فياعجبى » ، كقولك : يا غلامى ، ثم قلبوا الياء ألفا ، فقالوا : يا عجبا ، كقولهم : يا غلاما ، فإن وقفت وقفت على هاء السكت ، فقلت : يا عجباه ! ويا غلاماه ! قال : العجب منه وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيام حياته ، فيقول : أقيلونى ثم يعقدها عند وفاته لآخر ، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها .

وقال شاعر من شعراء الشِّيعة :

حَمَلُوها يومَ السَّقيفةِ أوزا   راً تَخِفُّ الجبال وَهىَ ثِقالُ

---

(١) الطبرى : « وتمثل بشعر البعيث » .
(٢) الشعر والخبر فى تاريخ الطبرى وابن الأثير (حوداث سنة ١٩٦) مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .   (٣) كذا فى الأصول والطبرى ، والوجه ما أثبته من ابن الأثير .
(٤) ابن الأثير : « لها أرج فى دنها حين يرسم » وهنا البيت سقط من تاريخ الطبرى .

ثم جاءوا من بَعْدِهَا يستقيلو نَ ، وهيهاتَ عثرة لاتقال !

وقد اختلف الرواة فى هذه اللفظة ، فكثير من الناس رواها : « أقيلونى فلست بخيركم » ، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها ، وإنما روى قوله : « وليتكم ولست بخيركم » . واحتجّ بذلك من لم يشترط الأفضليّة فى الإمامة . ومن رواها اعتذر لأبى بكر فقال : إنما قال : أقيلونى ، ليثوِّر[1] ما فى نفوس[2] الناس من بيعته ، ويَخْبُر ما عندهم من ولايته ، فيعلم مريدهم وكارههم ، ومحبّهم ومبغضهم ؛ فلما رأى النفوسَ إليه ساكنة ، والقلوب لبيعته مذعنة ، استمرّ على إمارته ، وحكَم حكم الخلفاء فى رعيته ، ولم يكن مُنْكَراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته .

قالوا : وقد جرى مثلُ ذلك لعلىّ عليه السلام ، فإنه قال للناس بعد قتل عثمان : دَعونى والتمسوا غيرى ، فأنا لكم وزيراً خير منى لكم أميرا . وقال لهم : اتركونى ، فأنا كأحدكم ، بل أنا أسْمَعُكم وأطْوَعُكُمْ لِمَنْ وليتموه أمركم . فأبوا عليه وبايعوه ، فكرهها أوّلا ، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته .

قالت الإماميّة : هذا غير لازم ، والفرق بين الموضعين ظاهر ، لأنّ عليًّا عليه السلام لم يقل : إنّى لا أصلح ، ولكنه كره الفتنة ، وأبو بكر قال كلاما معناه : إنى لا أصلح لها ، لقوله : « لست بخيركم » ، ومَنْ نفى عن نفسه صلاحيتّه للإمامة ، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره .

واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنىّ على أنّ الأفضليّة هل هى شرط فى الإمامة أم لا ؟ وقد تكلّمنا فى شرح " الغرر " لشيخنا أبى الحسين[3] رحمه الله تعالى فى هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب .

---

(١) يثور : يبحث . (٢) ا : « قلوب » .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب المتكلم المعتزلى ؛ توفى سنة ٤٣٦ ، وكتابه « غرر الأدلة » . ذكره ابن خلكان ١ : ٤٨٢ .

وقوله عليه السلام : « لشدّ ما تشطَّرا ضرعيها » ، شدّ ، أصله « شدد » ، كقولك : حبّ فى « حبَّذا » أصله حَبَب ، ومعنى « شدّ » صار شديداً جدًّا ، ومعنى « حبّ » صار حبيباً ، قال البحترىّ :

شَدّ ما أغرِيَتْ ظَلُومُ بهَجْرِى   بَعْدَ وَجْدِى بها وَغُلَّةِ صَدْرِى[1]

وللناقة أربعة أخلاف : خِلْفان قادمان وخِلْفان آخران ، وكلّ اثنين منهما شطر . وتَشَطَّرا ضَرْعيها اقتسما فائدتهما ونفعهما . والضمير للخلافة ، وسَمّى القادمَيْن معا ضَرْعا ، وسَمّى الآخرين مَعاً ضَرْعا لمَّا كانا ـ لتجاورهما ، ولكونهما لا يُحْلَبان إلّا معا ـ كشىء واحد .

قوله عليه السلام : « فجعلها فى حَوْزَة خشناء » ، أى فى جهة صعبة المرام ، شديدة الشَّكيمة . والكَلْم : الجرح .

وقوله : « يغلُظ » ، من الناس مَنْ قال : كيف قال : « يغلظ كَلْمها » ، والكَلْم لا يوصف بالغِلَظ ! وهذا قلّة فَهْمٍ بالفصاحة ، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغِلظ ، فقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[2] أى متضاعف ، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كَثُف وجسم ، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة ، فلما كان العذاب ـ أعاذنا الله منه ـ متضاعفا ، سُمِّىَ غليظا ؛ وكذلك الجُرح إذا أمعن وعَمُق ، فكأنَّه قد تضاعف وصار جُروحا ، فسمى غليظا .

إن قيل : قد قال عليه السلام « فى حَوْزَةٍ خَشْنَاء » فوصفها بالخشونة ، فكيف أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال : « يَخْشُنُ مَسُّها » !

قيل : الاعتبار مختلف ؛ لأن مراده بقوله : « فى حوزة خشناء » أى لا يُنال ما عندها ولا يرام ، يقال : إنّ فلانا لخشِن الجانب ووعر الجانب ، ومراده بقوله : « يَخْشُنُ

(١) ديوانه ٢ : ٩٧٠ (طبعة المعارف) .   (٢) سورة هود ٥٨

مَسُّها» ، أى تؤذى وتضرّ وتنكِئُ مَنْ يمسّها ؛ يصف جفاء أخلاق الوالى المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته .

قوله عليه السلام : « ويكثر العِثار فيها ، والاعتذار منها » ، يقول : ليست هذه الجهة جَدَداً مَهْيَعاً ، بل هى كطريق كثير الحجارة ، لا يزال الماشى فيه عاثرا .

وأما « منها » فى قوله عليه السلام : «والاعتذار منها » ، فيمكن أن تكون « مِنْ » على أصلها ، يعنى أنّ عمر كان كثيرا مايحكم بالأمر ثم ينقضُه ، ويفتى بالفُتْيا ثم يرجع عنها ، ويعتذر مما أفتى به أولا . ويمكن أن تكون « من » هاهنا للتعليل والسَّببية ، أى ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها ، قال :

أمِنْ رَسْمِ دارٍ مَرْبَعٌ وَمصيفُ لِعَيْنَيْك مِنْ ماءِ الشُّؤُونِ وَكِيفُ ![1]

أى لأجل أنْ رسم المربع والمصيف هذه الدار وكف دمعُ عينيك !

والصَّعْبة من النوق : مالم تُرْكَبُ ولم تُرَضْ ، إنْ أشنَق لها راكبها بالزمام خرم أنفها ، وإن أسلس زمامها تقحّم فى المهالك فألقته فى مَهْواة أو ماء أو نار ، أو نَدّت فلم تقف حتى تُردِيَه عنها فهلك .

وأشنَقَ الرّجُل ناقته ، إذا كفّها بالزمام ، وهو راكبها ، واللغة المشهورة شَنَق ، ثلاثية . وفى الحديث : إنّ طلحة أنشد قصيدةً فما زال شانقاً راحلته ، حتى كتبت له[2] .

وأشْنَق البعيرُ نفسه ، إذا رفع رأسه ؛ يتعدّى ولا يتعدى ، وأصله من الشِّناق ، وهو خيطٌ يُشَدُّ به فَمُ القِرْبة .

وقال الرضىّ أبو الحسن رحمه الله تعالى : إنما قال عليه السلام : أشْنَقَ لها ، ولم يقل : « أشنقها » ، لأنه جعل ذلك فى مقابلة قوله : « أسلس لها » وهذا حسن ، فإنّهم إذا

---

(١) وكيف الدمع : سيلانه .

(٢) الخبر فى الفائق ١ : ٦٧٧ ، وقال فى شرحه : « هو أن يجذب رأسها بزمامها ، حتى يدانى قفاها قادمة الرحل ؛ وقد شنقها وأشنقها » .

قصدوا الازدواج فى الخطابة فعلوا مثل هذا ، قالوا : الغدايا والعشايا ، والأصل الغَدَوَات جمع غُدوة . وقال صلى الله عليه وآله : « ارجِعْن مأزورات غير مأجورات » ، وأصله « موزورات » بالواو ، لأنه من الوِزْر .

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى : ومما يشهد على أنّ أَشْنَقَ بمعنى « شَنَق » قولُ عدىّ ابن زيد العِبادى :

سَاءهَا مالها تَبَيَّنَ فى الْأَيْـــــدِى وإشْنَاقُها إلى الأعناقِ

قلت : « تبيّنَ » فى هذا البيت فعل ماض ، تَبيَّن يتبيّن تبينّا ، واللام فى «لها» تتعلق بـ « تَبيّنَ » . يقول : ظهر لها ما فى أيدينا فساءها .

وهذا البيت من قصيدة أولها :

لَيْسَ شَىْءٌ عَلَى الْمَنُونِ بِبَاقِ غير وَجْهِ المسبَّح الخلاقِ(١)

وقد كان زارته بنيّة له صغيرة اسمهـا هند ، وهو فى الحبس ـ حبس النعمان ـ ويداه مغلولتان إلى عنقه ، فأنكرت ذلك ، وقالت : ماهذا الذى فى يدك وعنقك ياأبت ! وبكت ، فقال هذا الشعر . وقبل هذا البيت :

وَلَقَدْ غَمَّنِى زِيَارَةُ ذِى قُرْ بَى صَغِيرٍ لِقُرْبِنَا مُشْتَاقِ
سَاءهَا مَالَهَا تَبَيّن فى الأيْـــدِى وإشْنَاقُهـا إلى الأعْنَاقِ(٢)

أى ساءها ماظهر لها من ذلك . ويروى : « ساءها مابنا تبيّن » أى مابان وظهر ، ويروى « مابنا تبيّنُ » بالرفع على أنّه مضارع .

ويروى « إشناقُها » بالرفع عطفا على « ما » ، التى هى بمعنى الذى ، وهى فاعلة . ويروى بالجرّ عطفا على « الأيدى » .

---

(١) الأغانى ٢ : ١١٦ ، اللسان (شنق) .

(٢) بعده فى رواية الأغانى :

فاذْهَبِى ياأُمَيْمَ غَيْرَ بَعِيدٍ لَا يُواتِى الْعِنَاقَ مَنْ فى الوَثَاقِ
واذْهَبِى ياأُمَيْمَ إنْ يشأ اللَّـــهُ يُنَفِّسْ مِنْ أزْم هذا الخناق

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى أيضا : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقة قد شَنَق لها وهى تَقْصَعُ بجرّتها .

قلت : الجِرّة : مايعلو من الجوفِ وتجترّه الإبل ، والدِّرة: مايسفل . وتَقْصَعُ بها : تدفع ، وقد كان الرضيّ رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتجّ بها على جواز « أشنق لها » ، فإن الفعل فى الخبر قد عُدّىَ باللام لا بنفسه .

قوله عليه السلام : « فمنِىَ النّاسُ » أى بُلِىَ الناس ، قال :

* مُنِيتُ بِزَمَّرْدَةٍ كالعَصَا * (١)

والخَبْط : السَّيْر على غير جادّة ، والشِّماس : النِّفار . والتلوّن : التبدُّل . والاعتراض: السَّيْرُ لا على خط مستقيم ، كأنّه يسير عَرْضا فى غضون سيره طولا ، وإنما يفعلُ ذلك البعير الجامح الخابط . وبعيرٌ عُرُضِىّ :يعترض فى مسيره ؛ لأنه لم يتمّ رياضته ، وفى فلان عُرْضِيّة، أى عَجْرفة وصُعوبة .

***

[طرف من أخبار عمر بن الخطاب]

وكان عمر بن الخطَّاب صعبا ، عظيم الهيْبة شديد السياسة، لا يُحابِى أحداً ، ولا يراقب شريفا ولا مشروفا . وكان أكابر الصحابة يتحامَوْن ويتفادَوْن من لقائه ؛ كان أبو سفيان ابن حَرْب فى مجلس عمر ،وهناك زياد ابن سُمَيّة وكثير من الصحابة ، فتكلّم زياد فأحسن — وهو يومئذ غلام — فقال علىّ عليه السلام — وكان حاضراً — لأبى سفيان وهو إلى جانبه: لله هذا الغلام ، لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه! فقال له أبو سفيان : أما والله لو عرفتَ أباه لعرفت أنه من خير أهلك ، قال : ومَنْ أبوه ؟ قال: أنا وضعتُه والله فى رَحِمِ أمِّه،فقال علىّ عليه السلام :فما يمنعُك من استلحاقه؟ قال:أخاف هذا العَيْر(٢) الجالس أن يخرّق علىّ إهابى !

(١) لأبى الغطمش الحنفى؛ ذكره أبو تمام فى الحماسة ١٨٨١ — بشرح المرزوقى،ورواه:« بِزِنْمِرْدَةٍ » ، وقال : هو حجز يملأ الكف » ، وبعده :

* ألصَّ وأخْبثَ مِنْ كِنْدِشٍ *

(٢) عير القوم : سيدهم .

وقيل لابن عباس لمـا أظهر قوله فى العَوْل[١] بعد موت عمر — ولم يكن قبل يظهره: هلّاقلت هذا وعمرُ حىّ ؟ قال : هِبْتُه ، وكان امرأً مهابا[٢] .

واستدعَى عمر امرأة ليسألها عن أمر — وكانت حاملا — فلشدّة هيبته ألقت مافى بطنها، فأجهضت به جنينا ميتا ، فاستفتى عمر أكابرَ الصحابة فى ذلك ، فقالوا : لا شىء عليكَ ، إنما أنت مؤدِّب ، فقال له علىّ عليه السلام : إن كانوا راقَبوك فقد غَشُّوك ، وإن كان هذا جُهْد رأيهم فقد أخطئوا؛ عليك غُرّة — يعنى عتق رقبة — فرجع عمرُ والصحابة إلى قوله .

وعمر هو الذى شدّ بَيْعَة أبى بكر ووقَم[٣] المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لمّا جرّده، ودفع فى صدر المقداد ، ووطئ فى السقيفة سَعْد بن عبادة ، وقال : اقتلوا سعدا ، قتل الله سعدا ! وحطَّم أنف الُحباب بن المنذر الذى قال يوم السَّقيفة : أنا جُذَيلُها[٤] المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب . وتوعّد مَنْ لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين ، وأخرجهم منها . ولولاه لم يثبت لأبى بكر أمْر ، ولا قامت له قائمة .

وهو الذى ساسَ العمال وأخذ أموالَهم فى خلافته ، وذلك من أحسن السياسات .

وروى الزبيرُ بن بكار ، قال : لما قلّد عمر عمرو بن العاص مصر ، بلغه أنّه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت[٥] ، فكتب إليه ، أما بعد : فقد ظهرَ لى مِنْ مالك مالم يكن فى رزقك، ولا كان لك مال قَبْل أنْ أستعملَك ، فأنّى لك هذا ! فوالله لو لم يهمّنى فى ذات الله إلا من اختان فى مال الله ، لكثر همّى ، وانتثر أمرى ، ولقد كان عندى من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منك ، ولكنّى قلّدتك رجاء غنائك ؛ فاكتب إلىّ من أين لك هذا المال ، وعجِّل .

(١) عول الفريضة ، وهو أن تزيد سهامها ، فيدخل النقصان على أهل الفرائض .

(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « وكان امرأ مهيبا » . (٣) وقم البعير : كواه ؛ والمراد أذله .

(٤) الفائق ا : ١٨٠ ، وبقية الخبر فيه : « منا أمير ومنكم أمير » . الجذيل : تصغير الجذل ، بالكسر ، وهو فى الأصل عود ينصب للجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والمرجب : المدعوم بالرجبة ، وهى خشبة ذات شعبتين ؛ قال الزمخشرى فى تفسيره : « إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل » .

(٥) قولهم : ماله صامت ولا ناطق . فالناطق: الحيوان والصامت: ماسواه .

فكتب إليه عمرو : أمّا بعد،فقد فهمت كتابَ أمير المؤمنين،فأمّا ماظهر لى من مال، فإنا قدِمْنا بلادا رخيصةَ الأسعار ، كثيرة الغزو ، فجعلنا ما أصابنا فى الفضول التى اتصل بأمير المؤمنين نبؤها ، ووالله لو كانت خيانتُك حلالاً ماخنتُك ؛ وقد ائتمنتَنى ، فإنّ لنا أحسابا إذا رجعنا إليهـا أغنتْنا عن خيانتك . وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منّى ، فإذا كان ذاك فوالله مادقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين باباً ، ولا فتحت لك قُفْلا .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنى لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام فى شىء ؛ ولكنّكم معشرَ الأمراء قعدتم على عيون الأموال ، ولن تعدِموا عُذْراً ، وإنما تأكلون النّار ، وتتعجّلون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ، فسلِّم إليه شطر مالك .

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاما ودعاه فلم يأكل،وقال: هذه تقدمة الشرّ ، ولوجئتَنى بطعام الضيف لأكلت ، فنحِّ عنى طعامك ، وأحضِرْ لى مالك ، فأحضره ، فأخذ شَطْرَه. فلما رأى عمرو كثرةَ ما أخذ منه،قال : لعن الله زمانا صرتُ فيه عاملا لعمر،والله لقدرأيتُ عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قَطَوانيّة [1] لا تجاوز مأبِض [2] ركبتيه ، وعلى عنقه حُزْمة حَطب ، والعاص بن وائل فى مُزَرَّرَاتِ الدّيباج . فقال محمد : إيهاً عنك ياعمرو ! فعمرُ والله خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما فى النار ، ولولا الإسلام لألفِيت معتلقاً شاة ، يسرّك غزْرها ، ويسوءك بُكُوءها [3] . قال : صدقت فاكتم علىّ ، قال:أفعل .

***

قال الربيع بن زياد الحارثىّ : كنتُ [4] عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحْرين

(١) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة ، تنسب إليه الأكسية .

(٢) المأبض : باطن الركبة .

(٣) يقال : بكأت الناقة بكوءا ؛ إذا قل لبنها .

(٤) الخبر فى الكامل ١ : ١٥٢ ، ١٥٣ .

فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله ، وأنْ يستخلفوا جميعا . فلما قدِمْنا المدينةَ أتيت يَرْفأ حاجبَ عمر ، فقلت : يا يرفأ، مسترشد وابنُ سبيل ! أيّ الهيآت أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرَى فيها عمّاله ؟ فأومأ إلىّ بالخُشونة ، فاتخذت خُفّيْن مُطارَقين (١) ، ولبست جُبّة صوف ، وَلُثْتُ عمامتى على رأسى ، ثم دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه ، فصعّد بصره فينا وصوّب ، فلم تأخذْ عينُه أحدا غيرى ، فدَعانى، فقال : مَنْ أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثىّ ، قال : وماتتولّى من أعمالنا ؟ قلت: البحرين ، قال : كم تُرزَق؟ قلت: ألفا ، قال: كثير ، فما تصنع به ؟ قلت : أتقوّت منه شيئا ، وأعود بباقيه على أقاربَ لى ، فما فضلَ منهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : لا بأس ، ارجع إلى موضعك . فرجعت إلى موضعى مِن الصفّ ، فصعّد فينا وصوّب ، فلم تقع عينُه إلّا علىّ فدعانى ، فقال : كم سنُّك ؟ قلت : خمس وأربعون، فقال : الآن حيث استحْكمت ! ثم دعا بالطعام، وأصحابى حديثٌ عهدهم بلين العيش ، وقد تجوّعت له ، فأتى بخبز يابس وأكسار (٢) بعير ، فجعل أصحابى يعافُون ذلك ، وجعلت آكل فأجيد ، وأنا أنظر إليه ، وهو يلحَظنى من بينهم ، ثم سبقتْ مِنّى كلمة تمنيت لها أنّى سُخْت فى الأرض ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك ، فلو عمدْت إلى طعامٍ ألينَ من هذا ! فزجرنى ، ثم قال : كيف قلت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أن تنظرَ إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتك إياه بيوم ، ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤْتَى بالخبز لينا ، وباللحم غَريضا . فسكّنَ من غَرْبه ، وقال : أهاهنا غُرْت (٣) ؟ قلت: نعم، فقال : يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأْنا هذه الرِّحاب من صَلائق (٤) وسبائك (٥) وصِناب (٦) ، ولكنّى رأيتُ الله نَعَى على قومٍ شهواتهم ، فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ

(١) لبس خفين مطارقين ، أى مطبقين ، واحدا فوق الآخر .
(٢) أكسار الإبل : أعضاؤها ، واحدها كسر ؛ بالفتح والكسر .
(٣) غرت : ذهبت ، وفى الأصول : « غرب » تحريف .
(٤) الصلائق : ماعمل بالنار طبخا وشيا .
(٥) السبائك : ماسبك من الدقيق ونخل فأخذ خالصه ؛ يعنى الحوارى ؛ وكانوا يسمون الرقاق السبائك .
(٦) الصناب : صباغ يؤتدم به .

﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (١) ، ثم أمر أبا موسى بإقرارى ، وأن يستبدل بأصحابى .

* * *

أسلم عمر بعد جماعة من الناس ، وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلها أسلما سرًّا من عمر ، فدخل إليهما خبّاب بن الأرتّ ، يعلّمهما الدّين خفية ، فوشى بهم واشٍ إلى عمر ، فجاء دارَ أخته ، فتوارى خبّاب منه داخلَ البيت ، فقال عمر : ماهذه الهينمةُ عندكم ؟ قالت أخته : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : أراكما قد صَبَوْتما ! قال خَتَنُه : أرأيت إن كان هو الحقّ ! فوثب عليه عمر فوطِئه وطئًا شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عنه، فنفحها بيده،فدَمِيَ وجهها ، ثم ندِم ورقّ،وجلس واجما ، فخرج إليه خبّاب فقال : أبشِرْ ياعمر ، فإني أرجُو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة ، فإنه لم يزل يدعُو منذ الليلة : « اللّهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » .

قال : فانطلق عمرُ متقلّدا سَيْفَه حتى أتى إلى الدار التى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ، وهى الدّار التى فى أصل الصّفا،وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين،فوجِلَ القومُ من عمر إلا حمزة فإنه قال : قد جاءنا عمر ، فإنْ يُرد الله به خيرا يَهْده ، وإنْ يُرِدْ غير ذلك كان قتلُه علينا هيّنا ــ والنبيّ صلى الله عليه وآله داخل الدار يوحَى إليه ــ فسمِع كلامهم،فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : « ماأنت بمنته ياعمر حتى يُنزل الله بك من الخِزْى والنَّكال ماأنزل بالوليد بن المغيرة . اللهمّ هذا عمر،اللهم أعزّ الإسلام بعمر » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

* * *

مرّ يوما عمر فى بعض شوارع المدينة فناداه إنسان : ما أراك إلا تستعملُ عمّالك ، وتعهد إليهم العهود،وترى أنّ ذلك قد أجزأك . كلاّ والله،إنّك المأخوذ بهم إن لم تتعهّدهم ،

(١) سورة الأحقاف ٢٠ .

قال : ماذاك ؟ قال: عياض بن غَنْم يلبس اللّيّنَ ، ويأكل الطيّب ، ويفعل كذا وكذا .
قال : أساعٍ (١) ؟ قال : بل مؤدٍّ ما عليه ، فقال لمحمد بن مسلمة : الحقْ بعياض بن غَنْم فأتني به كما تجده ؛ فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض ـ وهو أمير على حِمْص ـ وإذا عليه بوّاب، فقال له : قل لعياض:على بابك رجل يريد أن يلقاك ، قال : ماتقول؟ قال : قل له ما أقول لك ؛ فقام كالمعجَب فأخبره ، فعرف عياض أنه أمرٌ حدَث ، فخرج فإذا محمد بن مسلمة ، فأدخله ، فرأى على عياض قميصا رقيقا ، ورداء ليّنا ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أمرنى ألّا أفارقك حتى آتيَه بك كما أجدك . فأقدمه على عمر وأخبرهُ أنّه وجده فى عيش ناعم . فأمر له بعصا وكساء ، وقال : اذهب بهذه الغَنَم ، فأحسن رعيها ، فقال : الموتُ أهْوَنُ من ذلك ، فقال : كذبت ، ولقد كان تركُ ما كنتَ عليه أهونَ عليك من ذلك . فساق الغنم بعصاه ، والكساء فى عنقه ، فلما بعُد ردّه ، وقال : أرأيت إن رددتُك إلى عملك أتصنع خيراً ؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، لا يبلغُك منّى بعدها ماتكرَهُ . فردّه إلى عمله ، فلم يبلغْه عنه بعدها ماينقِمه عليه .

* * *

كان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون الشجرة التى كانت بيعةُ الرضوان تحتها فيصلّون عندها ، فقال عمر : أراكم أيّها الناس رجعتم إلى العُزّى ! ألا لا أوتَى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلتُه بالسيف كما يُقتل المرتدّ، ثم أمر بها فقطِعت.

* * *

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله،وشاع بين الناس موتُه ، طاف عمر على الناس قائلا : إنه لم يمتْ ، ولكنه غاب عنا كما غاب موسى عن قومه ، وليرجعنّ فليقطّعَنّ أيدىَ رجال وأرجلَهم يزعمون أنّه مات . فجعل لا يمرّ بأحد يقول إنه مات إلا ويخبطه ويتوعّده ، حتى جاء أبو بكر ، فقال:أيها الناس ، مَنْ كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات،

(١) الساعى هنا : الواشى .

ومن كان يعبد ربّ محمد فإنه حيّ لم يمت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾(١) ، قالوا : فو الله لكأنّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . وقال عمر : لما سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أن رسولَ الله قد مات .

* * *

لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته ، كان فى عسكره أبو قَتادة الأنصاريّ ، فركب فرسه ، والتحق بأبى بكر ، وحلف ألّا يسيرَ فى جيش تحت لواء خالد أبداً ، فقصّ على أبى بكر القصّة ، فقال أبو بكر : لقد فتنتِ الغنائمُ العرب ، وترك خالد ما أمر به ، فقال عمر : إنّ عليك أن تُقيده بمالك ، فسكت أبو بكر ، وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد ، وفى عمامته ثلاثة أسهم ، فلما رآه عمر قال : أرياء ياعدو الله ! عدوْتَ على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته ؛ أما والله إن أمكننى الله منك لأرجمنّك ، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها ـ وخالد ساكت لا يردّ عليه ، ظنا أنّ ذلك عن أمر أبى بكر ورأيه ـ فلما دخل إلى أبى بكر وحدّثه ، صدّقه فيما حكاه وقبِل عذره . فكان عمر يحرّض أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن يقتصّ منه بدم مالك ، فقال أبو بكر : إيها ياعمر ! ماهو بأوّل مَنْ أخطأ ، فارفع لسانَك عنه . ثم وَدَى مالكا من بيت مال المسلمين .

* * *

لما صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصلح ، وتزوّج ابنة مُجّاعة ابن مُرَارة الحنفىّ ، وصل إليه كتاب أبى بكر : لَعَمْرِى يابن أمّ خالد ، إنّك لفارغ حتى تَزَوّج النساء ، وحَوْل حجرتك دماء المسلمين لم تجفّ بعد ... فى كلام أُغلظ له فيه ، فقال خالد : هذا الكتاب ليس من عمل أبى بكر ، هذا عمل الأُعيسر ـ يعنى عمر .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

عزل عمر خالداً عن إمارة حِمْص فى سنة سبع عشرة ، وأقامه للناس ، وعقله بعمامته، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال : أعلمْنى ، من أين لك هذا المال ؟ وذلك أنه أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف درهم ، فقال: من الأنفال والسُّهمان ، فقال : لا والله ، لا تعمل لى عملا بعد اليوم ، وشاطره ماله ، وكتب إلى الأمصار بعزله ، وقال . إنّ الناس فُتنوا به ، فخفت أن يُوكِلوا إليه ، وأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع .

* * *

لما أُسِر الهُرْمزان حُمِل إلى عمر منْ تُسْتَرَ إلى المدينة ، ومعه رجال من المسلمين ،منهم الأحنف بن قيس ، وأنس بن مالك ، فأدخلوه المدينة فى هيئته وتاجه وكِسْوته ، فوجدوا عمر نائما فى جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه ، فقال الهُرْمزان : وأين عمر ؟ قالوا : هاهو ذا ؛ قال : أين حرسُه ؟ قالوا : لاحاجبَ له ولا حارس. قال : فينبغى أن يكون هذا نبيًّا ، قالوا : إنه يعمل بعمل الأنبياء . واستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ؟ فقالوا: نعم؛ قال : لا أكلمه أولا يبقى عليه من حِلْيته شىء ، فرمَوْا ماعليه ، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فلما كلمه عمر ، أمر أبا طلحة أن ينتضِىَ سيفه ويقوم على رأسه ، ففعل . ثم قال له : ماعذرُك فى نقض الصلح ونكث العهد ؟ — وقد كان الهرمزان صالح أوّلا ، ثم نقض وغدر — فقال: أخبرك ، قال : قل ، قال : وأنا شديد العَطَش ! فاسقنى ثم أخبرك . فأُحضِر له ماء ، فلما تناوله جعَلَتْ يده تُرْعَد ، قال : ماشأنُك؟ قال : أخاف أن أمدّ عنقى وأنا أشرب فيقتلَنى سيفك . قال : لا بأس عليك حتى تشرب ، فألقى الإناء عن يده ، فقال : مابالك ؟ أعيدوا عليه الماء ، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : إنّك قد أمّنتَنى ، قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، قال أنس : صدق ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أؤمّن قاتل مجزأة بن ثور والبَراء بن مالك ! والله لتأتينّى بالمخرج أو لأعاقبنّك؛ قال: أنت ياأمير المؤمنين قلت : لا بأْس عليك حتّى تشرب . وقال له ناس من المسلمين

مثل قول أنس ، فقال للهرمزان : ويحك ! أتخدعُنى؟ والله لأقتلنَّك إلا أن تُسْلِم ، ثم أومأ إلى أبى طلحة ، فقال الهرمزان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأمّنه وأنزله المدينة .

* * *

سأل عمر عمرو بن معد يكرب عن السلاح فقال له : ماتقول فى الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال فالنَّبل؟ قال : رسل المنايا ؛ تخطىء وتُصيب، قال فالدرع ؟ قال : مَشْغلة للفارس ، متعبة للراجل ، وإنها مع ذلك لحِصْن حصين ، قال فالتُّرس ؟ قال : هو المِجَنّ، وعليه تدور الدوائر ، قال : فالسيف ؟ قال : هناك قارعت أمُّك الهبل ، قال : بل أمّك، قال : والحمَّى أضْرَعتنِى لك (١) .

* * *

وأولُ مَنْ ضرب عمر بالدِّرة أمّ فروة بنت أبى قُحافة، مات أبو بكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة ، فنهاهنّ عمر مرارا ، وهنّ يعاوِدْن ، فأخرج أمّ فروة من بينهنّ، وعَلاَها بالدِّرة ، فهربْنَ وتفرّقن .

* * *

كان يقال : دِرّة عمر أهْيَبُ من سيف الحجّاج . وفى الصحيح : إن نسوةً كنّ عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد كثر لَغَطُهُنَّ ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له ، فقال لهنّ : ياعُديّات أنفسهن ، أتَهبْنَنِى ولا تهبْنَ رسول الله ! قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظّ .

* * *

وكان عمر يُفتِى كثيراً بالحُكْم ثم ينقضُه ، ويفتى بضدّه وخلافه ؛ قضى فى الجدّ مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحُكْم فى هذه المسألة فقال : مَنْ أراد أن يتقحّم جراثيم جهنم فليقلْ فى الجدّ برأيه .

---

(١) الحمى أضرعتنى لك ؛ مثل يضرب فى الذل عند الحاجة تنزل ؛ وورد المثل محرفا فى الأصول ، والتصويب من الميدانى ١ : ٢٠٥ ، وعيون الأخبار ١ : ١٣٠ ، والعقد ١ : ٢١٠ .

وقال مرة : لا يبلغنى أنّ امرأة تجاوز صداقُها صداقَ نساء النبىّ إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة : ماجعل الله لك ذلك ، إنه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾[1]، فقال : كلّ الناس أفقهُ من عُمر، حتى ربّات الحجال ! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت ، فاضلتْ إمامكم ففضلته !

* * *

ومرّ يوما بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاه ، فجَدَح[2] له ماء بعسل فلم يشربه ، وقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فقال له الفتى : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة ، اقرأ ماقبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾[3]، فقال عمر : كلّ الناس أفقه من عمر !

وقيل : إن عمر كان يَعُسّ بالليل ، فسمِعَ صوتَ رجل وامرأة فى بيت ، فارتاب فتسوّر الحائط، فوجد امرأة ورجلا ، وعندهما زِقّ خمر ، فقال : ياعدوّ الله ، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته ! قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخطأت فى واحدة فقد أخطأت فى ثلاث؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[4]، وقد تجسّست . وقال: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[5] وقد تسوّرت ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا ﴾[6]، وما سلّمت !

وقال : مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرِّمهما، ومعاقِب عليهما : متعة النساء ومتعة الحجّ . وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه منكَراً فله عندنا مخرج وتأويل ، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء فى كتبهم .

* * *

(١) سورة النساء ٢٠
(٢) جدح : خلط
(٣) سورة الأحقاف ٢٠
(٤) سورة الحجرات ١٢
(٥) سورة البقرة ١٨٩
(٦) سورة النور ٦١

وكان فى أخلاق عمر وألفاظه جَفاء وعُنْجُهِية ظاهرة، يحسبه السامع لها أنه أراد بها مالم يكنْ قد أراد، ويتوهَّم من تُحْكَى له أنه قصدبها ظاهراً مالم يقصده، فمنها الكلمة التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها ! ولكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفظ منها. وكان الأحسنُ أن يقول: « مغمور » أو « مغلوب بالمرض »، وحاشاهُ أن يعنى بها غير ذلك !

وللجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابيا يقول فى سنة قَحْط :

رَبَّ العِبَادِ مَالَنَا وَمَالَكَا قَدْ كُنْتَ تَسقينا فما بدَا لكا !

* أنْزِل عَلَيْنَا القَطْرَ لا أبا لكا *

فقال سليمان: أشهد أنه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد، فأخرجه أحسن مخرَج (١).

وعلى نحو هذا يُحتمل كلامه فى صُلْح الحديبية لما قال للنبى صلى الله عليه وآله: ألم تَقُلْ لنا: ستدخلونها ! فى ألفاظ نَكْرَه حكايتها، حتى شكاه النبى صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر، وحتى قال له أبو بكر: الزَمْ بِغَرْزه (٢)، فوالله إنه لَرسول الله.

وعمر هو الذى أغلَظ على جَبَلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة، بل مفارقة دار الإسلام كلّها، وعاد مرتدًّا داخلا فى دين النصرانية، لأجل لطمة لُطِمها. وقال جَبَلة بعد ارتداده متندِّما على مافعل :

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ مِنْ أجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ !

فَيالَيْتَ أمِّى لم تَلِدْنى وَلَيْتَنِى رَجَعْتُ إلى القولِ الّذى قاله عُمَرْ

* * *

(١) الخبر فى الكامل ٧ : ١٤٥ – بشرح المرصفى

(٢) الغرز فى الأصل: ركاب الرحل، وفى الكلام استعارة، والمراد هنا: اتبع قوله. وفى اللسان والنهاية: « استمسك بغرزه »، ورواية ابن هشام: « الزم غرزه ».

الأصْلُ :

حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ ، جَعَلَهَا فِي سِتَّةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ ؛ فَيَالَلهِ وَلِلشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ ! لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا ، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ ،وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ .

***

الشَّرْحُ :

اللام فى « يالله » مفتوحة ، واللام فى « ولِلشورى » مكسورة؛لأن الأولى للمدعوّ، والثانية للمدعو إليه ، قال :

يالَلرِّجال لِيوم الأربعاء أما … ينفكّ يُحدِث لى بَعْدَالنُّهى طَرَبا[1]!

اللام فى « للرجال » مفتوحة، وفى « ليوم » مكسورة . وأسفّ الرجل،إذا دخل فى الأمر الدنىء ، أصله من «أسفّ الطائر » إذا دنا من الأرض فى طيرانه.والضغن : الحقد .

وقوله « مع هنٍ وهنٍ » ،أى مع أمور يكنى عنها ولا يصرّح بذكرها ، وأكثر مايستعمل ذلك فى الشرّ ، قال [2] :

* عَلَى هَنَوَاتٍ شَرُّها مُتتابعُ *

يقول عليه السلام : إنّ عمر لما طُعن جعل الخلافة فى ستّة ، هو عليه السلام أحدهم ، ثم تعجب من ذلك ، فقال : متى اعترض الشك فىّ مع أبى بكر،حتى أقرن بسعد بن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وأمثالهما ! لكنّى طلبت الأمروهو موسوم بالأصاغرمنهم، كما طلبته أولا وهو موسوم بأكابرهم؛أى هو حق فلا أستنكف من طلبه،إن كان المنازع فيه جليل القدر أو صغير المنزلة .

وصغا الرجل بمعنى مال ، الصَّغْو : الميل ، بالفتح والكسر .

(١) لعبد الله بن مسلم بن جندب و الكامل ٣ : ٢٧٠ من غير نسبة ، وهو أيضا من أبيات له رواها ثعلب فى المجالس ٤٧٤ ، وهى فى معجم البلدان ١ : ١٣٦ .

(٢) البيت فى اللسان (٢٠ : ٢٤٣) من غير نسبة ، وأوله :

* أرَى ابنَ نزارٍ قَدْ جَفاني ومَلَّني *

[قصة الشُّورى]

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة ، وعَلِم أنه ميت ، استشار فيمن يولِّيه الأمر بعده،فأُشير عليه بابنه عبدالله ، فقال:لاها الله إذاً ! لايلِيها رجلان من وَلَد الخطاب! حسب عمر ما حُمِّل ! حَسْبُ عمر ما احتقب،لاها الله ! لا أتحملها حيا وميتا ! ثم قال : إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش : على ، وعثمان ،وطلحة ، والزبير، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ وقد رأيتُ أن أجعلَها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستَخْلِف فقداستخلف مَنْ هوخير منى ـ يعنى أبا بكر ـ وإن أترُكْ فقد تَرَكَ من هو خير منى ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ـ ثم قال : ادعُوهم لى ، فدعوْهم ، فدخلوا عليه وهو مُلْقًى على فراشه يجود بنفسه .

فنظر إليهم ، فقال : أكلُّكم يطمعُ فى الخلافة بعدى ! فوَجَموا ، فقال لهم ثانية ، فأجابه الزُّبير وقال:وما الذى يُبعدنا منها ! وليتَها أنتَ فقمتَ بها،ولسْنا دونَك فى قريش ولا فى السابقة ولا فى القرابة .

ـ قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ:والله لولا عِلْمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة ، ولا إن يَنْبِس منه بلفظة ـ

فقال عمر : أفلا أخبرُكم عن أنفسِكم ! قال : قل ، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا ، فقال : أما أنت يازبير فوَعِق لَقِس[(١)]،مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، يوما إنسان، ويوما شيطان، ولعلها لو أفضتْ إليك ظَلْتَ يومَك تلاطم بالبطْحاء على مُدٍّ من شعير ! أفرأيتَ إن أفضت إليك ! فليت شِعْرى ، مَنْ يكون للناس يومَ تكون شيطانا،ومنْ يكون يومَ تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة ، وأنت على هذه الصفة .

ثم أقبل على طلحة ـ وكان له مبغِضاً منذ قال لأبى بكر يوم وفاته ماقال فى عمر ـ فقال له:أقول أم أسكت ؟ قال : قل،فإنك لاتقول من الخير شيئاً،قال:أما إنى أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أُحُد والبَأْو[(٢)] الذى حدث لك،ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلّم

(١) الوعق : الضجر المتبرم ، واللقس : من لا يستقيم على وجه .

(٢) البأو : الكبر والفخر . ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « فى طلحة بأواء » .

ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم أُنْزِلت آية الحجاب .

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى : الكلمة المذكورة أنّ طلحة لما أُنْزِلَتْ آية الحجاب قال بمحضر ممّنْ نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما الذى يغنيه حجابهنّ اليوم ! وسيموت غَدا فننكِحُهُنّ. قال أبو عثمان أيضا : لو قال لعمر قائل:أنت قلت:إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ماتوهو راض عن الستة،فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطا عليك للكلمة التي قلتها ! لكان قد رماه بمشاقصه(١)،ولكن مَن الذى كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا ، فكيف هذا !

قال : ثم أقبل على سعد بن أبى وقاص فقال : إنما أنت صاحبُ مِقْنَب (٢) من هذه المقانب ، تقاتل به، وصاحب قَنَص وقَوْس وأسهم ، ومازُهْرة(٣) والخلافة وأمور الناس!

ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف ، فقال: وأما أنت ياعبد الرحمن ، فلو وُزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانُك به ، ولكن ليس يَصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما زهرة وهذا الأمر !

ثم أقبل على علىّ عليه السلام ، فقال : لله أنت لولا دُعابة فيك!أما والله لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح ، والمحجّة البيضاء .

ثم أقبل على عثمان ، فقال : هيهاً إليك ! كأنى بك قد قلدتْك قريش هذا الأمر لحبِّها إياك ، فحملتَ بنى أمية وبنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت إليك عصابة من ذُؤبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً.والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلُنّ . ثم أخذ بناصيته ، فقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولى ؛ فإنه كائن .

ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان فى كتاب "السُّفيانية"(٤)، وذكره جماعة غيره فى باب فراسة عمر . وذكر أبو عثمان فى هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال:ورَوى

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو نصل السهم إذا كان طويلا

(٢) المقنب : جماعة الخيل .　　(٣) زهرة : قبيلة سعد بن أبى وقاص .

(٤) فى المسعودى ٣ : ٢٥٣ أن الجاحظ ألف كتابا فى نصرة معاوية بن أبى سفيان .

معمر بن سليمان التيمى عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس ، قال : سمعت عمرَ ابن الخطاب يقول لأهل الشورى : إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم ، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غَلَبكم على هذا الأمر معاوية بن أبى سفيان . وكان معاوية حينئذ أمير الشام .

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى . ثم قال : ادعوا إلىّ أبا طلحة الأنصارىّ ، فدعَوه له فقال: انظر ياأبا طلحة ، إذا عدتم من حُفْرتى ،فكن فى خمسين رجلا من الأنصار حاملى سيوفكم ، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله ،واجمعهم فى بيت،وقفْ بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق خمسة وأَبَى واحد فاضرب عنقه ، وإن اتفق أربعة وأَبَى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة ، فانظر الثلاثة التى فيها عبد الرحمن ، فارجع إلى ماقد اتفقتْ عليه ، فإن أصرّت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها ، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ ، فاضرب أعناق السّتّة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم .

فلما دُفِن عمر ، جَمعهم أبو طلحة ، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار ، حاملى سيوفهم ، ثم تكلّم القوم وتنازعوا ، فأولُ ماعمل طلحةُ أنّه أشهدَهم على نفسه أنّه قد وهب حقه من الشورى لعثمان ،وذلك لعلمه أنّ الناسَ لايعدِلون به عليًّا وعثمان ، وأن الخلافة لا تخلُص له وهذان موجودان ، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعافَ جانب علىّ عليه السلام ، بهبَة أمر لا انتفاعَ له به ، ولا تمكُّن له منه .

فقال الزبيرُ فى معارضته : وأنا أشهدكم على نفسى أنّى قد وهبتُ حقّى من الشورى لعلىّ ؛ وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليًّا قد ضَعُف وانخزل بهبَةِ طلحة حقَّه لعثمان، دخلته حميَّة النّسَب ، لأنه ابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهى صفيّة بنت عبد المطلب ، وأبو طالب خالُه . وإنّما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن علىّ عليه السلام ، باعتبار أنّه

تَيْمىّ ، وابنُ عمّ أبى بكر الصديق ، وقد كان حصلَ فى نفوس بنى هاشم من بنى تَيْم حَنَق شديد لأجْل الخلافة ، وكذلك صار فى صدور تَيْم على بنى هاشم ؛ وهذا أمرٌ مركوز فى طبيعة البَشر ، وخصوصا طينة العرب وطباعها ، والتجربة إلى الآن تحقق ذلك ؛ فبقىَ من الستة أربعة .

فقال سعد بن أبى وقّاص : وأنا قد وهبتُ حقِّى من الشورى لابن عَمّى عبدالرحمن ـ وذلك لأنّهما من بنى زُهْرة ، ولعلم سعد أنّ الأمرَ لا يتمّ له ـ فلما لم يبقَ إلّا الثلاثة . قال عبدالرحمن لعلىّ وعثمان : أيّكما يُخرج نفسَه من الخلافة ، ويكون إليه الاختيار فى الاثنين الباقيين ؟ فلم يتكلّم منهما أحد ، فقال عبد الرحمن : أشهدُكم أننى قد أخرجتُ نفسى من الخلافة على أنْ أختار أحدَهما ، فأمسكا . فبدأ بعلىّ عليه السلام ، وقال له : أبايعك على كتاب الله ، وسنة رسول الله ، وسيرة الشيخين : أبى بكر وعمر . فقال : بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيى . فعدل عنه إلى عثمان ، فعرض ذلك عليه ، فقال : نعم ، فعاد إلى علىّ عليه السلام ، فأعاد قوله ؛ فعَل ذلك عبد الرحمن ثلاثا ، فلمارأى أنّ عليا غيرُ راجع عَمّا قاله ، وأنّ عثمان يُنعِم له [١] بالإجابة ، صفَق [٢] على يد عثمان ، وقال : السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ، فيقال : إن عليا عليه السلام قال له : والله مافعلتَها إلا لأنّك رجوتَ منه مارجاَ صاحبُكما من صاحبه ، دقّ الله بينكما عِطْرَ مَنْشِم [٣] .

قيل : ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن ، فلم يكلِّم أحدُهما صاحبَه حتى مات عبد الرحمن .

---

(١) أنعم له ؛ إذا قال مجيبا « نعم » .

(٢) يقال : صفق يده بالبيعة وعلى يده صفقا ، أى ضرب بيده على يده .

(٣) قال الأصمعى : منشم ، بكسر الشين : اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : أشأم من عطر منشم ؛ فصار مثلا . صحاح الجوهرى : ٢٠٤١

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل :

أما قوله عليه السلام : « فصغا رجل منهم لضِغْنه » ، فإنه يعنى طلحة . وقال القطب الراونديّ : يعنى سعدَ بن أبى وقّاص ؛ لأنّ عليا عليه السلام قتلَ أباه يوم بدر . وهذا خطأ فإن أباه أبو وقّاص ، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤىّ بن غالب ؛ مات فى الجاهلية حَتْفَ أنفِه .

وأما قوله : « ومال الآخرُ لِصهْرِه » يعنى عبدَ الرحمن مال إلى عثمان ، لأنّ أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبى معيط كانت تحته ، وأمّ كلثوم هذه هى أخت عثمان مِن أمّه أرْوَى بنت كُرَيز .

وروى القُطْب الراونديّ أنّ عمر لما قال : كونوا مع الثّلاثة التى عبد الرحمن فيها، قال ابن عباس لعلىّ عليه السلام : ذهبَ الأمرُ مِنّا ، الرجُل يريد أن يكون الأمر فى عثمان. فقال علىّ عليه السلام : وأنا أعلمُ ذلك ، ولكنّى أدخل معهم فى الشورى ، لأنّ عمر قد أهّلَنى الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك[1] يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ النبوّة والإمامةَ لا يجتمعان فى بيت ، فأنا[2] أدخل فى ذلك لأظْهِر للناس مناقضة فعله لروايته .

الذى ذكره[3] الراونديّ غير معروف ، ولم ينقُلْ عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه، ولكنّه قال لعبد الله بن عباس يوما : ياعبد الله ، ماتقول منع قومكم منكم[4] ؟ قال : لا أعلم ياأمير المؤمنين ، قال : اللهم غفراً ! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتذهبون فى السماء بَذَخاً وشُمَّخاً ، لعلكم تقولون : إن أبا بكر أراد الإمْرَة عليكم وهَضَمكم ! كلاّ ، لكنّه حضره أمر لم يكن عنده أحزمَ مما فعل ، ولولا رأىُ أبى بكر

(١) كلمة « ذلك » ساقطة من ب.
(٢) ا : « وأنا » . (٣) ب « رواه » .
(٤) كذا فى الأصول ، وربما كانت كلمة « تقول » مقحمة ، أو تكون بمعنى الظن . وفى تاريخ الطبرى : « أتدرى مامنع قومكم منكم » .

فىّ بعد موته لأعاد أمرَكم إليكم ، ولو فعل ماهنأكم مع قومكم ، إنّهم لينظرون إليكم نظر الثوْر إلى جازره .

فأما الرواية التى جاءت بأنّ طلحة لم يكن حاضرا يوم الشورى ، فإن صحّتْ فذُو الضِّغن هو سعد بن أبى وقاص ، لأن أمه حَمْنَة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ، والضغينة التى عنده على علىّ عليه السلام من قِبَل أخواله الذين قتل صناديدَهم ، وتقلّد دماءهم ؛ ولم يُعرفْ أن عليًّا عليه السلام قتَل أحداً من بنى زُهْرة ليُنْسَب الضِّغن إليه .

* * *

وهذه الرواية هى التى اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ صاحب "التاريخ"، قال : لمّا طُعن عمر (١) قيل له: لو استخلفت .[ياأمير المؤمنين!](٢) فقال : [من أستخلف؟](٢) لو كان أبو عبيدةَ حيًّا لاستخلفته (٣) وقلت لربى لو سألنى : سمعتُ نبيّك يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » (٤) ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا استخلفته ، وقلت لربّى إن سألنى (٥) : سمعتُ نبيَّك عليه السلام يقول : « إنّ سالما شديدُ الحبّ لله »، فقال له رجل : وَلِّ (٦) عبد الله بن عمر ، فقال : قاتلك الله ! واللهِ ما الله أردتَ بهذا الأمر ! [ويحك !](٢) كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته ! لا أَرَبَ لعمر فى خلافتكم (٧)، ماحمِدْتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتى ؛ إن تك خيراً فقد أصبنا منه ، وإن تكُ شرًّا يُصرَف عنّا (٨). حسبُ آلِ عمر أنْ يحاسبَ منهم [رجل](٢) واحد ، ويُسأل عن أمر أمة محمد .

فخرج الناس من عنده ، ثم راحوا إليه فقالوا له : لو عهدتَ عهدا ! قال : قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتى [لكم (١)] أنْ أولِّىَ أمرَكم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٧ وما بعدها (طبع دار المعارف) مع تصرف واختصار
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى (٣) الطبرى : « استخلفته »
(٤) الطبرى : «أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر » . (٥) الطبرى : « فإن سألنى ربى قلت . . . »
(٦) الطبرى : « إنه أمين هذه الأمة (٧) الطبرى : « أموركم » .
(٨) فى الطبرى : « فشرعنا آل عمر » .

وأشار إلى علىّ عليه السلام ـ فرهقَتْنى غشية ، فرأيت رجلا يدخل جنّة [قد غرسها](١) فجعل يقطف كلّ غضّة ويانعة ؛ فيضمّها إليه ، ويصيرها تحته ، بخفت أن أتحمّلها حيًّا وميتا ، وعلمت أنّ الله غالب أمره عليكم بالرهط الذى قال رسول الله عنهم : إنهم من أهل الجنة ، ثم ذكر خمسة : عليًّا ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وسعدا .

ـ قال : ولم يذكر فى هذا المجلس طلحة ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة ـ

ثم قال لهم : انهضُوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها ، ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فقال العباس لعلىّ عليه السلام : لا تدخلْ معهم ، وارفع نفسَك عنهم ، قال : إنّى أكره الخلاف ، قال : إذنْ ترى ما تكره ، فدخلوا الحجرة فتناجوْا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد ، ففيم هذا اللّغط ! وانتبه عمر ، وسمع الأصوات ، فقال : ليُصلِّ بالناس صُهيب ، ولا يأتينّ اليوم الرابع من يوم موتى إلا وعليكم أمير ، وليحضر عبدُ الله بن عمر مشيرا وليس له شىء من الأمر ، وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمركم ، وإلا فأرضُوه ، ومَنْ لى برضا طلحة ! فقال سعد : أنا لك به ، ولن يخالف إن شاء الله تعالى .

ثم ذكر وصيّته لأبى طلحة الأنصارىّ وما خصّ به عبد الرحمن بن عوف من كَوْن الحق فى الفئة التى هُوَ فيها وأمْرَه بقتل من يخالف ، ثم خرج الناسُ فقال علىّ عليه السلام لقوم معه من بنى هاشم : إنْ أُطِيعَ فيكم قومُكم من قريش لم تؤمَّروا أبدا .

وقال للعباس : عُدِلَ بالأمر عنى ياعمّ . قال : وماعلمك ؟ قال : قُرِن بى عثمان . وقال عمر : كونوا مع الأكثر ، فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن ، فسعد لا يخالفُ ابنَ عمه ، وعبدالرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيولّيها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران مَعِى لم يُغْنيا شيئا . فقال العباس : لم أدفعْك إلى شىء إلّا رجعت إلىّ

(١) من الطبرى .

مستأخرا بما أكره ، أشرتُ عليك عند مرض رسول الله صلى الله عليه أنْ تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أنْ تعاجل البَيْعة[1] فأبيت ، وقد أشرتُ عليك حينَ سمّاك عمر فى الشورى اليوم أن ترفَع نفسك عنها ، ولا تدخل معهم فيها فأبيت ، فاحفظ عنى واحدة ؛ كلّما عرض عليك القوم الأمر فقل : لا ، إلا أن يولّوك . واعلم أنّ هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرُك ، وايم الله لا تناله إلا بشرّ لا ينفع معه خير . فقال عليه السلام : أما إنّى أعلم أنهم سيولّون عثمان ، وليحدِثنّ البدع والإحداث ، ولئن بقى لأذكرنّك ، وإن قتل أو مات ليتداولُنّهَا بنو أمية بينهم ، وإن كنت حيًّا لتجدنّى حيث تكرهون ، ثم تمثل :

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرّاقِصَاتِ عَشِيّةً غَدَوْنَ خِفافا يبتدرْنَ المحصَّبَا[2]
ليجْتَلِبن رهطُ ابنِ يعمرَ غدوة[3] نجيعاً بنو الشُّدَّاخ وِرْداً مُصلّبا

قال : ثم التفتَ فرأى أبا طلحة الأنصاريّ ، فكره مكانه ، فقال أبو طلحة :لا تُرَع أبا حسن . فلما مات عمر ودُفِن وخَلَوْا بأنفسهم للمشاورة فى الأمر ، وقام أبو طلحة يحجُبهم بباب البيت ، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فحصَبهما سعد وأقامهما ، وقال : إنما تريدان أن تقولا حَضَرْنا وكُنّا فى أصحاب الشورى .

فتنافس القومُ فى الأمر وكثُر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحة : أنا كنتُ لأنْ تدافعوها أخوفَ منى عليكم أن تنافسوها ! أما والّذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى وقفت لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم !

قال : ثم إنّ عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبى وقاص : إنى قد كرهتُها ، وسأخلع نفسى منها ، لأنى رأيت الليلة رَوْضَةً خضراء كثيرة العُشْب ، فدخل فحل مارأيت

(١) الطبرى : « الأمر » . (٢) الطبرى : « فابتدرن » .
(٣) الطبرى : ليختلين رهط ابن يعمر مارثا » ، وابن الأثير ٣ : ٣٦ : « ليختلين رهط ابن يعمر فارسا » .

أ كرم منه ، فمرّ كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها ، لم يعرّج ، ودخل بعير يتلوه تابع أثره ، حتى خرج منها . ثم دخل فَحْل عبقريّ يجرّ خِطامه ، ومضى قصد الأولَيْن ، ثم دخل بعير رابع ، فوقع فى الروضة يرتَع ويخضم . ولا والله لا أ كون الرابع ؛ وإن أحدا لايقوم مقام أبى بكر وعمر فيرضى الناس عنه .

ثم ذ كر خَلْعَ عبد الرحمن نفسَه من الأمر ، على أن يولِّيَها أفضَلهم فى نفسه ، وأن عثمان أجاب إلى ذلك ، وأن عليا عليه السلام سكت ، فلما روجع رضى على موثقٍ أعطاه عبد الرحمن ؛ أن يؤثر الحق ، ولا يتبع الهوى ، ولايخصّ ذا رحم ، ولا يألْو الأمة نصحا ، وأن عبد الرحمن ردّد القول بين علىّ وعثمان متلوِّما ، وأنه خلا بسعد تارة ، وبالمسوَر بن مخرمة الزهرىّ تارة أخرى ، وأجال فِكْرَه ، وأعمل نظره ، ووقف موقفَ الحائر بينهما.قال : قال علىٌّ عليه السلام لسعد بن أبى وقاص : يا سعد ، ﴿ اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ، أسألك برحِم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وبرَحم عَمّى حمزة منك ، ألّا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا .

ـ قلت : رحِمُ حمزةَ من سعد ، هى أنّ أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زُهرة ؛ وهى أيضاً أم المقوّم وحَجْفل ـ واسمه المغيرة ـ والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ هؤلاء الأربعة بَنُو عبد المطلب من هالة ، وهالة هذه هذه هى عمة سعد بن أبى وقاص ؛ فحمزة إذَنْ ابن عمة سعد ؛ وسعد ابن خال حمزة ـ

قال أبو جعفر : فلما أتى اليومُ الثالث جَمَعهم عبد الرحمن ، واجتمع الناس كافة ، فقال عبد الرحمن : أيُّها الناس ، أشيروا علىّ فى هذين الرجلين . فقال عمّار بن ياسر : إن أردتَ ألّا يختلف الناس ، فبايعْ عليًّا عليه السلام ، فقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعتَ عليا سمعْنا وأطعنا . فقال عبد الله بن أبى سَرْح : إن أردتَ ألّا تختلف قريشٌ ،

فبايعْ عثمان . وقال عبدالله بن أبي ربيعة المخزوميّ : صدق ، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا . فشتم عمّارٌ ابنَ أبي سَرْح ، وقال له : مَتى كنت تنصح الإسلام(١) !

فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية ، وقام عمار ، فقال : أيّها الناس ، إن الله أكرمَكم بنبيِّه ، وأعزّكم بدينه ، فإلى متى تصرفون هـذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم ! فقال رجل من بنى مخزوم : لقد عَدَوْتَ طورَك يابن سميّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ! فقال سعد : يا عبدَ الرحمن ، افرُغ من أمرك قبل أن يفتتِن الناس . فحينئذ عرَض عبد الرحمن على عليّ عليه السلام العملَ بسيرة الشيخين ، فقال : بل أجتهد برأيي . فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال : نعم . فقال عليّ عليه السلام : ليس هذا بأوّلِ يوم تَظاهرتُم فيه علينا ، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما ولّيته الأمرَ إلا ليردّه إليك ، والله كلّ يوم فى شأن .

فقال عبد الرحمن : لا تجعلنّ على نفسك سبيلا يا عليّ — يعنى أمْرَ عمر أبا طلحة أن يضرب عُنُقَ المخالف — فقام عليّ عليه السلام فخرج ، وقال : سيبلغ الكتابُ أجلَه ، فقال عمّار : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركتَه ، وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون . فقال المقدادُ : تا لله ما رأيتُ مثلَ ما أُتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ، واعجبا لقريش ! لقد تركتْ رجلاً ما أقولُ ولا أعلم أن أحداً أقضَى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ! أما والله لو أجد أعوانا ! فقال عبدالرحمن : اتّقِ الله يامقداد ، فإنى خائف عليك الفتنة .

وقال عليّ عليه السلام : إنى لأعلمُ ما فى أنفسهم ؛ إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شأنها ، فتقول : إنْ وَلِيَ الأمرَ بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش .

قال : وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان فتلكّأ ساعة ، ثم بايع .

* * *

---

(١) الطبرى : « المسلمين » .

وروى أبو جعفر رواية أخرى أطالها ، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم ، وذكر كلاما قاله علىّ عليه السلام فى ذلك اليوم ، وهو :

الحمدُ لله الذى اختار محمداً منا نبيًّا ، وابتعثه إلينا رسولا ، فنحنُ أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونجاةٌ لمن طلب ؛ إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأْخذه ، وإن نمنعه نركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجالدْنا عليه حتى نموت . لن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حقٍّ وصلة رَحِم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اسمعوا كلامى ، وعُوا منطقى ، عسى أن تروْا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنْتَضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ؛ حتى لا يكون لكم جماعة ، وحتى يكون بعضُكم أئمةً لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة .

* * *

قلت : وقد ذكر الهروىّ(١) فى كتاب " الجمع بين الغريبين " قوله : « وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل » ، وفسّره على وجهين :

أحدها : أنّ منْ ركب عَجُز البعير يعانى مشقة ، ويقاسى جهداً ، فكأنّه قال : وإن نمنعه نصبرْ على المشقة ؛ كما يصبر عليها راكبُ عجُز البعير .

والوجه الثانى أنه أراد : نتبع غيرنا ، كما أنّ راكبَ عجز البعير يكون رَديفا لمن هو أمامه ، فكأنه قال : وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير .

* * *

(١) هو أبو عبيد أحمد بن محمد الهروى ، صنف كتابه فى الجمع بين غريب القرآن والحديث .

وقال أبو هلال العسكريّ في كتاب " الأوائل " : استجيبت دعوة عليّ عليه السلام في عثمان وعبد الرحمن ، فما ماتا إلا متهاجرين متعاديين . أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله : قل له : لقد وليتُك ما وليتك من أمر الناس ، وإن لي لأمورا ماهي لك : شهدتُ بدرا وما شهدتَها ، وشهدتُ بَيْعَةَ الرضوان وما شهدتَها ، وفررتَ يوم أُحُد وصبرتُ ؛ فقال عثمان لرسوله : قل له : أمّا يومَ بدْر فإن رسول الله صلى الله عليه رَدّني إلى ابنته لِما بها من المرض ، وقد كنتُ خرجتُ للذي خرجتَ له ، ولقيتُه عند منصرفه، فبشّرني بأجرٍ مثل أجوركم ، وأعطاني سهما مثل سهامكم . وأما بَيْعة الرضوان فإنّه صلى الله عليه بعثني أستأذن قريشا في دخوله إلى مكة ، فلما قيل له : إني قُتلت ، بايع المسلمين على الموت لِما سمعه عني ، وقال : إن كان حيًّا فأنا أبايع عنه ، وصَفَق بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : يساري خير من يمين عثمان ، فيدُك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه ! وأما صبرُك يوم أُحُد وفِراري ، فلقد كان ذلك، فأنزل الله تعالى العفوَ عني في كتابه ، فعيّرتَني بذنب غفره الله لي ، ونسيت من ذنوبك مالا تَدْرِي أغفر لك أم لم يغفر !

لما بنى عثمان قصره طَمار[1] بالزوراء ، وصنع طعاما كثيراً ، ودعا الناس إليه ، كان فيهم عبد الرحمن ، فلما نظر للبناء والطعام قال : يابن عفان ، لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذّب فيك ، وإني أستعيذ بالله من بيعتك . فغضب عثمان ، وقال : أخرجه عني يا غلام ، فأخرجوه ، وأمر الناس ألّا يجالسوه ، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابنُ عباس ، كان يأتيه فيتعلّم منه القرآن والفرائض . ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكلّمه فلم يكلّمه حتى مات .

* * *

---

(١) طمار : موضع عند سوق المدينة ، ذكره ياقوت .

الأصْـلُ :

إلَى أنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ ؛ إلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ ، وَ كَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ ..

الشَّـرْحُ :

نافجا حِضنيه: رافعا لهما ، والحِضن: ما بين الإبط والكشح ، يقال للمتكبر : جاء نافجاً حِضْنيه ، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاما : جاء نافجا حِضْنيه، ومراده عليه السلام هذا الثانى. والنّثيل : الروث . والمعتَلف : موضع العلف ؛ يريد أنّ همّه الأكل والرجيع ، وهذا من ممِضّ الذم ، وأشدُّ من قول الحطيئة الذى قيل: إنه أهجى بيت للعرب :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي(١)

والخضْم : أكلٌ بكلّ الفم،وضدّه القضْم ، وهو الأكل بأطراف الأسنان. وقيل: الخضْم أكلُ الشيء الرَّطْب ، والقَضْمُ أكْلُ الشيء اليابس ؛ والمراد على التفسيرين لا يختلف ، وهو أنّهم على قَدَم عظيمة من النَّهَم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه . وقال أبو ذرّ رحمه الله تعالى عن أبنى أمية: يخضَمون ونقضَم ، والموعدالله . والماضى «خَضِمْت» بالكسر ، ومثله قَضِمْت .

والنِّبتة ، بكسر النون كالنبات،تقول : نَبتَ الرطب نباتا ونِبْتة . وانتكث فتلُه: انتقض ؛ وهذه استعارة . وأجهز عليه عمله : تمم قتله . يقال : أجهزتُ على الجريح ، مثل ذَفَفْتُ، إذا أتممتَ قتلهوكَبَتْ به بِطنته ، كبا الجواد،إذا سقط لوجهه . والبِطنة:الإسراف فى الشِّبَع .

* * *

---

(١) ديوانه ٥٤

[نتف من أخبار عثمان بن عفان]

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، كُنْيته أبو عمرو ، وأمه أرْوَى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس .

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له،وصحّتْ فيه فِراسة عمر،فإنه أوطأ بنى أمية رقابَ الناس ، وولّاهم الوِلايات وأقطعهم القطائع ، وافتُتِحَتْ إفريقيّة فى أيامه ، فأخذ الُخمس كلَّه فوهبه لمروان ، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحيّ :

أَحْلِفُ باللهِ رَبِّ الأنَا ... م مَاتَرَكَ اللهُ شَيْئاً سُدَى
ولكن خلقت لنا فتنة ... لكى نبتلَى بك أو تبتلى
فإنّ الأَمِينَيْنِ قَدْ بَيَّنَا ... مَنَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدَى
فما أخذا درهما غِيلَةً ... ولا جَعَلاَ دِرْهَماً فى هَوى
وَأَعْطيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ الْبِلاَدِ ... فَهَيْهَاتَ سَعْيُكَ مِمَّنْ سَعَى !

الأمينان : أبو بكر وعمر .

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صِلَة ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم .

وأعاد الحكَم بن أبى العاص، بعد أن كان[١] رسول الله صلى الله عليه وآله قد سَيّرَه ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر ؛ وأعطاه مائة ألف درهم .

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين ، فأقطعه عثمان الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم .

وأقطع مروان فَدَكَ[٢]، وقد كانتْ فاطمةُ عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات الله

(١) كلمة « كان » ساقطة من ب

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ؛ أفاءها الله على رسوله فى سنة سبع صلحا ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر ، وفتح حصونها ، ولم يبق إلا ثلث ، واشتد بهم الحصار ، راسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن ينزلهم على الجلاء ، وفعل ، وبلغ ذلك أهل فدك ، فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك ؛ فهى مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . معجم البلدان ٦ : ٣٤٣ .

عليه ، تارةً بالميراث ، وتارة بالنِّحْلة فدُفِعت عنها .

وحَمَى المراعىَ حولَ المدينة كلَّها من مواشى المسلمين كلِّهم إلا عن بنى أميَّة .

وأعطى عبدَ الله بن أبى سَرْح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب — وهى من طرابلس الغرب إلى طَنْجة — من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان ، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ، فوضعها بين يدى عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكى أن وَصَلْتُ رَحِمِى ! قال : لا ، ولكن أبكى لأنّى أظنّك أنّك أخذتَ هذا المالِ عِوضا عما كنتَ أنفقتَه فى سبيل الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . والله لو أعطيتَ مروان مائة درهم لكان كثيرا ، فقال : ألقِ المفاتيح يابن أرقم ؛ فإنا سنجد غيرك .

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسَّمها كلَّها فى بنى أميّة . وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة ، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صَرْفه زيد بن أرقم عن خزنه .

وانضمّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون ، كتسيير أبى ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرَّبَذة ؛ وضَرْب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود وردّ المظالم، وكفّ الأيدى العادية ، والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ماوجدوه من كتابه إلى معاوية(١) يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعديد أحداثه عليه فقتلوه.

وقد أجاب أصحابُنا عن المطاعن فى عثمانَ بأجْوبة مشهورة مذكورة فى كتبهم . والذى نقول نحن : إنّها وإن كانت أحداثا ، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه ،

---

(١) كذا فى جميع الأصول ؛ ويرى الأستاذ مكى السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذى وجدوه معه موجه إلى عبد الله بن أبى سرح لا إلى معاوية .

وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها ، ولا يعجَلوا بقتله، وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ النّاس من دمه ، وقد صرّح بذلك في كثير من كلامه ؛ من ذلك قوله عليه السلام : والله ماقتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله .

وصدق صلوات الله عليه .

* * *

الأصْلُ :

فَما رَاعَنِي إلاَّ وَٱلنَّاسُ إلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جانِب ، حَتّى لَقَدْ وُطِئَ ٱلْحَسَنانِ ، وَشُقَّ عِطْفايَ ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ ٱلْغَنَمِ . فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طائِفَةٌ ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى،وفَسَقَ آخَرُونَ ؛ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلامَ ٱللهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَساداً وَٱلْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ؛ بَلَى وَٱللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا،وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ ٱلدُّنْيا فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُها .

* * *

الشّرْحُ :

عُرْف الضَّبع ثخين ، و يضرب به المثل فى الازدحام . وينثالون : يتتابعون مزدحمين . والحَسَنان : الحسن والحسين عليهما السلام. والعِطْفان : الجانبان من المنكب إلى الورك ؛ ويروى « عطافى » ، والعطاف : الرداء وهو أشبه بالحال ؛ إلّا أن الرواية الأولى أشهر ؛ والمعنى خُدش جانباى لشدّة الاصطكاك منهم والزحام .

* * *

وقال القطب الراوندىّ : الحسنان : إبهاما الرجل ؛ وهذا لا أعرفه .

(١) سورة القصص ٨٣

وقوله : « كربيضة الغنم » أى كالقِطْعة الرابضة من الغنم ، يصف شِدّة ازدحامهم حوله ، وجثومَهم بين يديه .

وقال القطب الراوندىّ : يصف بلادَتهم ونقصان عقولهم ؛ لأنّ الغنَم توصف بقلّة الفطنة . وهذا التفسير بعيد وغير مناسب للحال .

فأما الطائفة النّاكثة ، فهم أصحابُ الجمل ، وأما الطائفة الفاسقة فأصحاب صِفِّين . وسماهم رسول الله صلى الله عليه وآله القاسطين . وأما الطائفة المارقة فأصحاب النّهْرَوان ؛ وأشرنا نحن بقولنا : سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسطين إلى قوله عليه السلام : « ستقاتلُ بعدى الناكثين ، والقاسطين والمارقين » . وهذا الخبر من دلائل نبوّته صلوات الله عليه ، لإنه إخبار صريح بالغيب ، لا يحتمل التمويهَ والتدليس كما تحتمله الأخبار المجمَلة ، وصدّق قوله عليه السلام : « والمارقين » ، قوله أولا فى الخوارج : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة » ، وصدق قوله عليه السلام « الناكثين » كونهم نكثوا البيعة بادئْ بدء ، وقد كان عليه السلام يتلو وقت مبايعتهم له : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾(١) .

وأما أصحاب صفين ، فإنهم عند أصحابنا رحمهم الله مخلّدون فى النار لفِسْقهم ، فصحّ فيهم قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾(٢) .

وقوله عليه السلام : « حليت الدنيا فى أعينهم » تقول : حلا الشىء فى فمى يحلو ، وحلىَ لعينى يحْلَى . والزبرج : الزينةُ من وَشْيٍ أو غيره ، ويقال : الزبرج : الذهب .

فأما الآية فنحن نذكر بعض مافيها ، فنقول : إنه تعالى لم يعلّق الوعدَ بترك العلوّ فى الأرض والفساد ، ولكن بترك إرادتهما ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِين

---

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الجن ١٥

ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (١) ؛ علّق الوعيد بالركون إليهم والميل معهم ، وهذا شديد في الوعيد .

ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شِراك نعله أحسنَ من شِراك نعل صاحبه فيدخل تحت هـذه الآية . ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان يردّدها حتى قُبِض .

* * *

الأصْـلُ :

أَمَا وَٱلَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَوْلَا حُضُورُ ٱلْحَاضِرِ ، وَقِيَامُ ٱلْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ، ومَا أَخَـذَ ٱللهُ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ أَلّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ، وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

فَلَق الحبة ، من قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾ (٢) . والنَّسَمة : كلّ ذى رُوح من البشر خاصة .

قوله : « لولا حضور الحاضر » ، يمكن أن يريدَ به لولا حضور البيعة ؛ فإنها بعد عقدها تتعين المحاماة عنها ، ويمكن أن يريد بالحاضر مَنْ حَضَره من الجيش الذين يستعين بهم على الحرب . والكِظّة بكسر الكاف : مايعترى الإنسان مِن الثِّقل والكَرْب عند الامتلاء من الطعام . والسَّغَب : الجوع . وقولهم : قد ألقى فلان حبلَ فلان على غاربه ،

---

(١) سورة هود ١١٣ (٢) سورة الأنعام ٩٥

أى تركه هَمَلًا يسرح حيث يشاء من غير وازع ولا مانع ؛ والفقهاء يذكرون هذه اللفظة فى كنايات الطلاق . وعَفْطَة عنز : ماتنثره من أنفها ، عفَطت تعفِط بالكسر ؛ وأكثر مايستعمل ذلك فى النعجة ، فأمّا العنْز فالمستعمل الأشهر فيها « النفطة » بالنون ، ويقولون: ماله عافط ولا نافط ، أى نعجة ولا عنز . فإن قيل : أيجوز أن يقال العفطة هاهنا الحَبْقة ؟ فإن ذلك يقال فى العنز خاصة ، عفَطت تعفط . قيل : ذلك جائز ، إلا أن الأحسن والأليق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام التفسير الأول ؛ فإن جلالته وسؤدده تقتضى أن يكون ذاك أراد لا الثانى . فإن صحّ أنه لا يقال فى العَطْسة عَفْطة إلا للنعجة . قلنا : إنه استعمله فى العنز مجازا .

يقول عليه السلام : لولا وجود مَنْ ينصرنى ـ لا كما كانت الحال عليها أوّلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنى لم أكن حينئذ واجدا للناصر مع كونى مكلّفا ألّا أمكِّن الظالم من ظلمه ـ لتركت الخلافة ،ولرفضتها الآن كما رفضتها قبل، ولوجدتم هذه الدنيا عندى أهون من عَطْسة عنز ؛ وهذا إشارة إلى مايقوله أصحابنا من وجوب النهى عن المنكر عند التمكن.

* * *

الأصْلُ :

قَالُوا : وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ ، فَنَاوَلَهُ كِتَاباً فَأَقْبَلَ ينظر فيهِ ؛ فلمّا فرغ من قراءته قَالَ لَهُ ابْنُ عباس رضى اللهُ عنهما : يَاأَمِير الْمُؤْمِنِينَ ، لَوِ اطَّرَدتْ مَقَالَتكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ ! فقَالَ : هَيْهَاتَ يابن عباسٍ ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمّ قَرّتْ .

قَالَ ابن عبَاس : فَوَاللهِ مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلَامٍ قطُّ كَأَسَفِي عَلَى هَذَا الْكَلَامِ أَلا يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمنين بلغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ .

* * *

قوله عليه السلامُ فِي هَٰذِهِ ٱلْخُطْبَةِ : « كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ » يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهَا فِي جَذْبِ ٱلزِّمَامِ وَهِيَ تُنَازِعُهُ رَأْسَهَا خَرَمَ أَنْفَهَا ، وَإِنْ أَرْخَى لَهَا شَيْئًا مَعَ صُعُوبَتِهَا تَقَحَّمَتْ بِهِ فَلَمْ يَمْلِكْهَا . يُقَالُ : أَشْنَقَ ٱلنَّاقَةَ إِذَا جَذَبَ رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ فَرَفَعَهُ ، وَشَنَقَهَا أَيْضًا ، ذَكَرَ ذَٰلِكَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ فِي ,, إِصْلَاحِ ٱلْمَنْطِقِ ،، . وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « أَشْنَقَ لَهَا » وَلَمْ يَقُلْ « أَشْنَقَهَا » لِأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ : « أَسْلَسَ لَهَا » ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ رَفَعَ لَهَا رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ يعنى أَمْسَكَهُ عَلَيْهَا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبَ عَلَى نَاقة وَقَدْ شَنَقَ لَهَا فَهِيَ تَقْصَعُ بِجِرَّتِهَا .

وَمِنَ ٱلشَّاهِدِ عَلَى أَنَّ « أَشْنَقَ » بِمَعْنَى شَنَقَ قَوْلُ عديّ بنِ زَيْدٍ ٱلْعِبَادِيّ :

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي ٱلْأَيْـ ... ـدِي وَإِشْنَاقُهَا إِلَى ٱلْأَعْنَاقِ

* * *

الشَّرحُ :

سمّيَ السواد سوادا لخضرته بالزروع والأشجار والنخل ، والعرب تسمى الأخضر أسود ، قال سبحانه: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1] يريد الخضرة . وقوله: « لو اطّردت مقالتك » ، أى أتبعتَ الأوّلَ قولا ثانياً ! من قولهم اطّرد النهر ، إذا تتابع جريُه .

وقوله : « من حيث أفضيت » أصل أفضى خرجَ إلى الفضاء ، فكأنه شبّهه عليه السلام حيث سكت عما كان يقوله ، بمن خرج من خباء أو جدار إلى فضاء من الأرض ، وذلك لأنّ النفس والقُوى والهمة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب ، فإذا قُطع الإنسان وفرغ ، تفرقت وخرجت عن حجر الاجتماع واستراحت .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

والشّقشقة ، بالكسر فيهما : شيء يُخرجه البعير من فيه إذا هاج ، وإذا قالوا للخطيب : ذو شقشقة فإنما شبّهوه بالفحل . والهدير : صوتها .

وأما قول ابن عباس : « ما أسِفْت على كلام . . » إلى آخره ، فحدثنى شيخى أبو الخير مصدِّق بن شبيب الواسطىّ(١) فى سنة ثلاث وستمائة ، قال : قرأتُ على الشيخ أبى محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة ، فلما انتهيتُ إلى هذا الموضع ، قال لى : لو سمعتُ ابن عباس يقول هذا لقلت له : وهل بَقِىَ فى نفس ابن عمك أمرٌ لم يبلغه فى هذه الخطبة لتتأسف ألّا يكون بلغ من كلامه ما أراد ! والله مارجع عن الأولين ولاعن الآخرين ، ولا بَقِى فى نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال مصدّق : وكان ابن الخشاب صاحبَ دعابة وهزل. قال : فقلت له : أتقول إنها منحولة ! فقال : لا والله ، وإنى لأعلم أنّها كلامه ، كما أعلم أنك مصدّق . قال :فقلت له : إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضىّ رحمه الله تعالى . فقال : أنَّى للرضىّ ولغير الرضىّ هذا النَّفَس وهذا الأسلوب !قدوقفنا على رسائل الرضىّ، وعرفنا طريقته وفنّه فى الكلام المنثور ، ومايقع مع هذا الكلام فى خَلٍّ ولا خَمْر . ثم قال : والله لقدوقفتُ على هذه الخطبة فى كتب صُنِّفت قبل أن يخلق الرضىّ بمائتى سنة ، ولقد وجدتُّها مسطورة بخطوط أعرفها ، وأعرف خطوط مَنْ هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيبُ أبو أحمد والد الرضىّ .

قلت : وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة فى تصانيف شيخنا أبى القاسم البلخىّ(٢)

---

(١) مصدق بن شبيب بن الحسين الصلحى الواسطى ؛ ذكره القفطى فى إنباه الرواة (٣ : ٢٧٤) ، وقال إنه قدم بغداد ، وقرأ بها على ابن الخشاب وحبشى بن محمد الضرير ، وعبد الرحمن بن الأنبارى وغيرهم ؛ وتوفى ببغداد سنة ٦٠٥

(٢) أبو القاسم البلخى ، ذكره ابن النديم وقال : « كان من أهل بلخ ، يطوف البلاد ويجول الأرض ؛ حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة . . . ورأيت بخطه شيئا كثيرا فى علوم كثيرة مسودات ودساتير لم يخرج منها إلى الناس كتاب تام » . الفهرست ٢٩٩ . وابن خلكان ١ : ٢٥٢

إمام البغداديين من المعتزلة ، وكان فى دولة المقتدر قبل أن يُخلق الرضىّ بمدة طويلة . ووجدت أيضاً كثيراً منها فى كتاب أبى جعفر بن قِبَة أحد متكلّمى الإمامية[1] وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب "الإنصاف" . وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبى القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى ، ومات فى ذلك العصر قبل أن يكون الرضىّ رحمه الله تعالى موجودا .

(١) هو أبو جعفر بن محمد بن قبة ؛ من متكلمى الشيعة وحذاقهم ، وله من الكتب كتاب الإنصاف فى الإمامة . الفهرست ١٧٦

(٤)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمُ الْعَلْيَاءَ [1]. وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ. وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ؛ وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ! رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ.

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ؛ سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ.

أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ؛ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تُمِيهُونَ.

الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ.

عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي، مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ.

لَمْ يُوجِسْ مُوسَى خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ؛ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلَالِ.

الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ.

* * *

---

(١) في ا « وتسنمتم ذروة العلياء ».

الشرح :

هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة منسوبة إليه عليه السلام ، قد زاد [1] فيها قوم أشياء حملتهم عليها أهواؤهم ، لا توافق ألفاظها طريقته عليه السلام فى الخطب ، ولا تناسب فصاحتها فصاحته ، ولا حاجة إلى ذكرها فهى شهيرة . ونحن نشرح هذه الألفاظ ، لأنها كلامُه عليه السلام ، لا يشكّ فى ذلك مَنْ له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء والفصحاء فى خُطَبهم ورسائلهم ، ولأنّ الرواية لها كثيرة ، ولأن الرضىّ رحمة الله تعالى عليه قد التقطها ونسبها إليه عليه السلام ، وصحّحها وحذف ما عداها .

وأما قوله عليه السلام : « بنا اهتديتم فى الظَّلماء » ، فيعنى بالظلماء الجهالة ، وتسنَّمتم العلياء : ركبتم سنامها ؛ وهذه استعارة .

قوله : « وبنا انفجرتم عن السِّرار » ، أى دخلتم فى الفَجْر ، والسِّرار : الليلة والليلتان يستتر فيهما القمر فى آخر الشهر فلا يظهر . وروى « أفجرتم » ، وهو أفصح وأصحّ ، لأن « انفعل » لا يكون إلا مطاوع « فعل » ، نحو كسرته فانكسر ، وحطمته فانحطم ، إلا ماشذّ من قولهم : أغلقت الباب فانغلق وأزعجته فانزعج . وأيضاً فإنه لا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير ، نحو انكسر وانحطم ؛ ولهذا قالوا : إنّ قولهم : انعدم خطأ ، وأما « أفعل » فيجىء لصيرورة الشىء على حال وأمر ، نحو أَغَدّ البعير ، أى صار ذا غُدَّة ، وأجرَب الرجل ، إذا صار ذا إبلٍ جَرْبى ، وغير ذلك . فأفجرتم ؛ أى صرتم ذوى فجر .

وأما « عن » فى قوله : « عن السرار » فهى للمجاوزة على حقيقة معناها الأصلىّ ، أى منتقلين عن السرار ومتجاوزين له .

وقوله عليه السلام : « وقر سمع » هذا دعاء على السمع الذى لم يفقه الواعية بالثِّقل والصَّمَم ، وُقِرَت أُذُنُ زيد ، بضم الواو فهى موقورة ، والوَقْر ، بالفتح : الثِّقَل فى الأذن ،

---

(١) ب : « رأى » .

وَقِرَتْ أذنُه ـ بفتح الواو وكسر القاف ـ تَوْقَرُ وَقْراً أى صَمّت ، والمصدر فى هذا الموضع جاء بالسّكون ، وهو شاذّ ، وقياسه التحريك بالفتح ، نحو ورِم وَرَماً . والوَاعية : الصارخة ، من الوُعاء ، وهو الجَلَبة والأصوات ، والمراد العبر والمواعظ .

قوله : « كيف يُرَاعِى النبأة » ، هذا مثل آخر ، يقول : كيف يلاحظ ويراعى العِبَر الضعيفةَ مَنْ لم ينتفع بالعِبَر الجليّة الظاهرة ، بل فسد عندها ، وشبّه ذلك بمن أصَمّتْهُ الصَّيحة القوية ؛ فإنّه محال أن يراعِى بعد ذلك الصوت الضعيف . والنبأة : هى الصوت الخفىّ .

فإن قيل : هذا يخالف قولكم : إنّ الاستفساد لا يجوز على الحكيم سبحانه ، فإنّ كلامه عليه السلام صريح فى أنّ بعض المكلّفين يفسد عند العبر والمواعظ .

قيل : إن لفظة « أفعل » قد تأتى لوجود الشىء على صفة ، نحو أحمدته ، إذا أصبته محموداً . وقالوا : أحْيَيْتُ الأرض ، إذا وجدتَها حية النبات [1] ، فقوله : « أَصَمّتْهُ الصيحة » ، ليس معناه أنّ الصيحة كانت علّة لصممه ، بل معناه صادفته أصمّ ، وبهذا تأول أصحابنا قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [2] .

قوله : « رُبط جَنَان لم يفارقْه الخَفَقان » ، هذا مثل آخر ، وهو دعاء لقلب لايزال خائفا من الله يخفُق بالثبوت والاستمساك .

قوله : « مازلت أنتظر بكم » ، يقول : كنت مترقباً غدرَكم متفرّسا فيكم الغَرَر ، وهو الغفلة .

وقيل : إنّ هذه الخطبة خطَبها بعد مقتل طلحة والزبير ، مخاطباً بها لهما ولغيرهما من أمثالهما ، كما قال النبى صلى الله عليه وآله يوم بدر ، بعد قَتْل مَنْ قتل من قريش : « ياعُتْبةَ بن ربيعة ،

(١) ا : « ذات النبات » (٢) سورة الجاثية ٢٣

ياشيبة بن ربيعة ، ياعمرو بن هشام » ، وهم جِيَف منتنة قد جُرّوا إلى القَلِيب .

قوله : « سَترنى عنكم » ، هذا يحتمل وجوها ؛ أوضحها أنّ إظهارَكم شعار الإسلام عصمكم منّى مع علمى بنفاقكم ، وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بصِدْق نِيَّتى . كما يقال : المؤمن يُبْصر بنور الله . ويحتمل أن يريد : سترنى عنكم جلبابُ دينى ، ومنعنِى أن أعرّفكم نفسى وما أقدر عليه من عَسْفكم ، كما تقول لمن استهان بحقّك : أنت لا تعرفُنى ولو شئت لعرّفتُك نفسى .

وفسّر القُطْب الراوندىّ قوله عليه السلام : « وبَصّرنيكمْ صدقُ النية » ، قال : معناه أنّكم إذا صدقتم نياتكم ، ونظرتم بأعين لم تطرَفْ بالحسد والغشّ وأنصفتمُونى ، أبصرتم عظيمَ منزلتى .

وهذا ليس بجيّد ، لأنه لو كان هو المراد لقال : وبصّركم إيّاى صدقُ النية ، ولم يقل ذلك ، وإنما قال : « بَصّرنيكم » ، فجعل صدقَ النيّة مبصِّرا له لالهم . وأيضاً فإنّه حكم بأنّ صدقَ النية هو علّة التبصير ، وأعداؤه لم يكن فيهم صادق النية ، وظاهر الكلام الحكْم والقطع ؛ لا التعليق بالشرط .

قوله : « أقمت لكم على سَنَن الحق » ، يقال : تنحّ عن سَنَن الطريق وسُنَن الطريق بفتح السين وضمها ، فالأول مفرد والثانى جمع سُنّة ، وهى جادّة الطريق والواضح منها . وأرض مَضَلّة ومَضِلّة ، بفتح الضاد وكسرها : يضلّ سالكها . وأماهَ المحتفِر يميه ؛ أنبط الماء . يقول : فعلتُ من إرشادكم وأمرِكم بالمعروف ونهيكم عن المنكر مايجب على مثلى ، فوقفت لكم على جادّة الحق ومنهجه ؛ حيث طرُق الضلال كثيرة مختلفة من سائر جهاتى ، وأنتم تائهون فيها تلتقون ، ولا دليل لكم ، وتحتفرون لتجِدوا ماء تنقعون به غُلّتكم فلا تظفرون بالماء ، وهذه كلُّها استعارات .

قوله : « اليوم أنطق » ، هذا مثَلٌ آخر . والعجْماء : التى لا نطق لها ، وهذا إشارة إلى الرموز التى تتضمّنها هـذه الخطبة ، يقول : هى خفية غامضة ، وهى مع غموضها جليّة لأولى الألباب ، فكأنهـا تنطق كما ينطق ذوو الألسنة ، كما قيل : ما الأمور الصامتة الناطقة ؟ فقيـل : الدلائل المخبرة والعبَر الواعظة . وفى الأثر : سل الأرضَ : مَنْ شقّ أنهارك ، وأخرج ثمارَك ؟ فإن لم تُجبك حوارا ، أجابتْك اعتبارا .

قوله : « عزب رأىُ امرئ تخلف عَنّى » هذا كلام آخر ، عزب ، أى بعد ، والعازب : البعيد . ويحتمل أن يكونَ هذا الـكلام إخباراً وأن يـكون دعاء ، كما أنّ قوله تعالى : ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ (١) يحتمل الأمرين .

قوله : « ماشكَـكْتُ فى الحق مذ رأيته » ، هذا كلام آخر ، يقول : معارفى ثابتة لا يتطرّق إليها الشكّ والشبهة .

قوله : « لم يوجس موسى » ، هذا كلام شريف جدًّا ، يقول : إن موسى لما أوجسَ الخيفة ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ (٢) ، لم يكن ذلك الخوفُ على نفسه ، وإنما خاف من الفتنة والشُّبْهة الداخلة على المـكلّفين عند إلقاء السحرة عصيَّهم ، نخيِّل إليه من سحرهم أنّهـا تسعى ، وكذلك أنا لا أخافُ على نفسى من الأعداء الذين نَصَبُوا لىَ الحبائل ، وأرصدوا لىَ المـكائد ، وسعّروا علىّ نيران الحرب ؛ وإنما أخاف أن يفتَتن المـكلّفون بشُبههم وتمويهاتهم ، فتقوى دولةُ الضلال ، وتغلب كلمة الجهال .

قوله : « اليوم تواقفنا » ، القاف قبل الفاء ، تواقَف القوم على الطريق ، أى وقفوا كلّهم عليها ؛ يقول : اليوم اتّضح الحق والباطل ، وعرفناها نحن وأنتم .

قوله : « مَنْ وثِق بماء لم يظمأ » ، الظمأ الذى يكون عند عدم الثقة بالماء ، وليس

---

(١) سورة النساء ٩٠ .

(٢) سورة طه ٦٧ .

يريد النفيَ المطلق ؛ لأنّ الواثق بالماء قد يظمأ ، ولـكن لا يكون عطشه على حدّ العطش الـكائن عند عدم الماء ، وعدم الوثوق بوجوده ، وهذا كقول أبى الطيب :

وما صَبابَةُ مُشْتاقٍ عَلَى أَمَـــلٍ مِنَ ٱللِّقاءِ كَمُشْتاقٍ بِلاَ أَمَلِ[1]

والصائم فى شهر رمضان يُصبح جائعاً تنازعه نفسه إلى الغِذاء ، وفى أيام الفِطْر لا يجد تلك المنازعة فى مثل ذلك الوقت ؛ لأنّ الصائم ممنوع ، والنفس تحرِصُ على طلب ما مُنعت منه ؛ يقول : إن وثقتم بى وسكنتم إلى قولى كنتم أبعدَ عن الضّلال وأقربَ إلى اليقين وثَلَج النفس ؛ كمن وثِق بأنّ الماء فى إداوته ، يكون عن الظمأ وخوف الهلاك من العطش أبعدَ ممّن لم يثقْ بذلك .

(١) ديوانه ٣ : ٧٥ .

(٥)

الأصل :

ومن كلام له [١] عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب فى أن [٢] يبايعا له بالخلافة :

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ شُقُّوا أَمْوَاجَ ٱلْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ ٱلْمُنَافَرَةِ ، وضَعُوا تِيجَانَ ٱلْمُفَاخَرَةِ . أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ [٣] فَأَرَاحَ . مَاءٌ آجِنٌ ، ولُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا . ومُجْتَنِي ٱلثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ ، فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا : حَرَصَ عَلَى ٱلْمُلْكِ ، وإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا : جَزِعَ مِنَ ٱلْمَوْتِ .

هَيْهَاتَ بَعْدَ ٱللَّتَيَّا والَّتِي ! وَٱللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ ٱلطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ ، بَلِ ٱنْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ ٱضْطِرَابَ ٱلْأَرْشِيَةِ فِي ٱلطَّوِيِّ ٱلْبَعِيدَةِ [٤] .

* * *

الشرح :

المفاخرة : أن يذكر كلّ واحد من الرجُلين مفاخرَه وفضائله وقديمه ، ثم يتحاكما إلى ثالث . والماء الآجن : المتغيِّر الفاسد ، أَجَنَ الماء ، بفتح الجيم ، يأجِن ويأجُن ، بالكسر والضم . والإيناع : إدراكُ الثمرة . واللّتيّا [٥] : تصغير التى ، كما أنّ اللّذيّا تصغير الذى . واندمجت : انطويت . والطوىّ : البئر المطويّة بالحجارة . يقول : تخلّصوا عن الفتنة وانْجُوا منها بالمتاركة والمسالمة والعدول عن المنافرة والمفاخرة .

(١) ا : « خطبة » . (٢) ا : « أن يبايعاه » .
(٣) ا : « واستسلم » . (٤) بعد هذه الكلمة فى مخطوطة النهج : « السلام » .
(٥) فى القاموس بفتح اللام المشددة وضمها .

أفلح مَنْ نهض بجناح، أى مات ؛ شبّه الميِّت المفارقَ للدنيا بطائر نهضَ عن الأرض بجناحه . ويحتمل أن يريد بذلك : أفلح مَن اعتزل هذا العالم ، وساح فى الأرض منقطعا عن تكاليف الدنيا . ويحتمل أيضاً أن يريد : أفلح مَنْ نهض فى طلب الرياسة بناصر ينصره ، وأعوان يجاهدون بين يديه ؛ وعلى التقادير كلّها تنطبق اللفظةُ الثانية ، وهى قوله : « أو استسلم فأراح »[1]، أى أراح نفسه باستسلامه .

ثم قال : الإمْرَة على الناس وخيمة العاقبة ، ذات مشقّة فى العاجلة ، فهى فى عاجلها كالماء الآجن يجدُ شاربه مشقّةً ، وفى آجلها كاللقمة التى تَحْدُث عن أكلها الغُصَّة . ويَغَصّ مفتوح حرف المضارعة ومفتوح الغين ، أصله : « غَصِصْت » بالكسر . ويحتمل أن يكون الأمران معا للعاجلة ؛ لأن الغَصَص فى أول البلع ، كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث فى أول الشرب . ويجوز ألّا يكون عَنَى الإمْرة المطلقة ؛ بل هى[2] الإمْرة المخصوصة ، يعنى بيعةَ السقيفة .

ثم أخذ فى الاعتذار عن الإمساك وترك المنازعة ، فقال : مجتنِى الثمرة قبل أن تُدْرِك لا ينتفع بما اجتناه ، كمن زرع فى غير أرضه ، ولا ينتفع بذلك الزرع ؛ يريد أنّه ليس هذا الوقت هو الوقت الذى يَسُوغ لى فيه طلب الأمر ، وأنّه لم يَأْن بعد .

ثم قال : قد حَصَلْت بين حالين ؛ إن قلتُ ، قال الناس : حَرَص على المُلْك ، وإن لم أقل ، قالوا : جَزِع من الموت .

قال : هيهات ، استبعادا لظنّهم فيه[3] الجزع . ثم قال : « اللّتيا والّتى » ، أى : أَبَعْد اللّتيا والتى أجزع ! أبَعْدَ أن قاسيتُ الأهوال الكبار والصغار ، ومُنِيت بكل داهية عظيمة وصغيرة ! فاللّتيّا للصغيرة والّتى للكبيرة .

---

(١) ا : « واستسلمْ » .
(٢) ا : « هذه » .
(٣) ساقطة من ا .

ذكر أنّ أنْسَه بالموت كأُنْسِ الطفل بثدى أمه ، وأنّه انطوى على علم هو ممتنع لموجبه من المنازعة ، وأنّ ذلك العلم لا يُباح به (١) ، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرشِية — وهى الحبال — فى البئر البعيدة القعر ، وهذا إشارة إلى الوصيّة التى خُصَّ بها عليه السلام . إنه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع فى مبدأ الاختلاف عليه .

* * *

[استطراد بذكر طائفة من الاستعارات]

واعلم أن أحسنَ الاستعارات ما تضمّن مناسبةً بين المستعار والمستعار منه ، كهذه الاستعارات ، فإنّ قوله عليه السلام : « شُقُّوا أمواجَ الفِتَن بسفُن النجاة » من هذا النوع ؛ وذلك لأنّ الفتن قد تتضاعف وتترادف ، فحسُنَ تشبيهها بأمواج البحر المضطربة . ولما كانت السفن الحقيقيّة تنجِّى من أمواج البحر ، حَسُن أن يستعار لفظُ السُّفن لما ينجِّى من الفِتن . وكذلك قوله : « وضعوا تيجان المفاخرة » ، لأنّ التاج لما كان مما يعظُم به قَدْر الإنسان استعاره لما يتعظَّم به الإنسان من الافتخار وذكر القديم وكذلك استعارة النهوض بالجناح لمن اعتزل الناس ، كأنه لما نفض يديه عنهم صار كالطائر الذى ينهض من الأرض بجناحيه .

وفى الاستعارات ما هو خارج عن هذا النوع ، وهو مستقبح ؛ وذلك كقول أبى نواس :

بُحّ صَوْتُ المــــالِ مِمّا ... مِنْكَ يَبْــكى وَيَنُوحُ (٢)

وكذلك قوله :

مَا لرجْلِ المـــال أضحتْ ... تَشْتَــكى مِنكَ الــكَلَالَا (٣)

(١) ساقطة من ب .

(٢) ديوانه ٧٠ ، وفيه : « يصيح » .

(٣) ديوانه ١١٩ .

وقول أبي تمام :

وكَمْ أَحْرَزَتْ مِنْكُمْ على قُبْحِ قَدِّها صرُوفُ النَّوى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ القَدِّ(١)

وكقوله :

بلَوْنَاكَ ، أمّا كَعْبُ عِرْضِكَ في العلا فعَالٍ ، ولكن خدّ مالك أسْفَلُ(٢)

فإنه لا مناسبة بين الرِّجْل والمال ، ولا بين الصوت والمال ، ولا معنى لتصييره للنّوى قدّا ، ولا للعِرْض كعبا ، ولا للمال خدّا .

وقريب منه أيضاً قوله :

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي(٣)

ويقال : إن مَخْلَداً الموصليّ(٤) بعث إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلا من ماء الملام ، فقال لصاحبه : قل له يبعثْ إليّ بريشة من جَناح الذّل لأستخرج بها من القارورة ما أبعثه إليه .

وهذا ظلم من أبي تمام لمخلد ، وما الأمرانِ سواء ، لأنّ الطائر إذا أعيا وتعب ذلّ وخفض جناحيه ، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلًّا ، ويدُه جناحه ، فذاك هو الذي حسّن قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾(٥) ألا ترى أنه لو قال : واخفِضْ لهما ساق الذّل ، أو بطن الذُّلِّ لم يكنْ مستحسناً !

* * *

ومن الاستعارة المستحسنة في الكلام المنثور ، ما اختاره قُدامة بن جعفر في كتاب " الخراج " نحو قول أبي الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة في جوابه لأبي الجيش خمارويْه

(١) ديوانه ٢ : ١١٠ . (٢) ديوانه ٣ : ٧٣ .

(٣) ديوانه ١ : ٢٥ .

(٤) هو مخلد بن بكار الموصلي ، وله مع أبي تمام أخبار ومساجلات ، ذكرها الصولي في كتابه أخبار أبي تمام ٢٣٤ – ٢٤٣ .

(٥) سورة الإسراء ٢٤ .

ابن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله، لما كتب بإنفاذ ابنته قَطْر الندى التى تزوّجها المعتضد، وذلك قول ابن ثوابة هذا: وأمّا الوديعةُ فهى بمنزلة ما انتقَل من شِمالك إلى يمينك، عنايةً بها وحِياطة لها، ورعايةً لمودتك فيها.

وقال ابنُ ثوابة لمّا كتب هذا الكتاب لأبى القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد: والله إنّ تسميتى إياها بالوديعة نصفُ البلاغة.

وذكر أحمدُ بن يوسف الكاتب رجلاً خلا بالمأمون، فقال: مازال يفتِلُه فى الذّرْوة والغارِب حتى لفتَه عن رأيه.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلىّ: النبيذ قَيْد الحديث.

وذكر بعضهم رجلا فذمّه، فقال: هو أمْلس [1] ليسَ فيه مستقرٌّ لخير ولا شر.

ورضىَ بعض الرؤساء عن رجل من موجِدة، ثم أقبل يوبّخه عليها، فقال: إنْ رأيت ألّا تخدش وجهَ رضاك بالتوبيخ فافعل.

وقال بعض الأعراب: خرجنا فى ليلةٍ حِنْدس [2]، قد ألقتْ على الأرض أكارِعَها، فمحت صورة الأبدان؛ فما كنّا نتعارف إلا بالآذان.

وغزت حنيفة نُميرا، فأتبعتْهم نُمير فأتوْا عليهم، فقيل لرجل منهم: كيف صنع قومُك؟ قال: اتّبعوهم والله، وقد أحْقَبُوا كل جُمَالِيّة خَيْفَانة [3]، فما زالوا يخصِفُون آثار المطىّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم، فجعلوا المُرّان [4] أرشيةَ الموت، فاستقوْا بها أرواحهم.

ومن كلامٍ لعبد الله بن المعتزّ، يصف القلم: يخدُم الإرادَة، ولا يملّ الاستزادة،

---

(١) ا: « إبليس » تحريف. (٢) ليلة حندس: شديدة الظلمة.

(٣) أحقب البعير: وضع له الحقب؛ وهو حبل يشد به الرحل فى بطن البعير، والجمالية: الناقة الوثيقة، تشبه بالجمل فى خلقتها وشدتها وعظمها. والخيفانة: السريعة، شبهت بالجرادة السريعة.

(٤) حاشية ب: « المران: الرماح ... »

ويسكُت واقفا ، وينطق سائرا ، على أرضٍ بياضها مظلم ، وسوادُها مضيء .

* * *

فأمّا القطب الراوندىّ فقال :قوله عليه السلام : «شُقّوا أمواج الفتن بسفُن النجاة» معناه : كونوا مع أهل البيت لأنّهم سفن النجاة ، لقوله عليه السلام : « مثلُ أهل بيتى كسفينة نوح : مَنْ ركبها نجا ، ومَنْ تخلّف عنها غَرِق » .

ولقائل أن يقول : لا شبهةَ أنّ أهلَ البيت سفُنُ النّجاة ، ولـكنّهم لم يُرادوا هاهنا بهذه اللفظة ؛ لأنّه لو كان ذلك هو المراد ، لـكان قد أمر أبا سفيان والعباس بالـكوْن مع أهل البيت ، ومرادُه الآن ينقُض ذلك ، لأنّه يأمر بالتقيّة وإظهار اتباع الذين عُقِـد لهم الأمر ، ويرى أنّ الاستسلام هو المتعيّن ، فالذى ظنّه الراوندىّ لا يحتمله الـكلامُ ولا يناسبه .

وقال أيضاً : التعريجُ على الشىء : الإقامة عليه ، يقال : عرّج فلان على المنزل ، إذا حبس نفسه عليه ، فالتقدير : عَرِّجوا على الاستقامة منصرِفين عن المنافرة .

ولقائل أن يقول:التعريج يُعَدّى تارة بـ«عن» وتارة بـ«على» ، فإذاعدّيته بعن أردت التجنّب والرفض،وإذا عدّيته بـ«على» أردت المقام والوقوف ؛ وكلامه عليه السلام معدّى بـ« عن » . قال : « وعرّجوا عن طريق المنافرة ».

وقال أيضاً : « آنس بالموت » أى أسَرُّ به ، وليس بتفسير صحيح ؛ بل هو من الأنس ضدّ الوحشة .

* * *

[اختلاف الرأى فى الخلافة بعد وفاة رسول الله]

لما قبض رسول الله صلى الله عليـه وآله ، واشتغل علىّ عليه السلام بغسله ودفنه ، وبُويع أبو بـكر ؛ خلا الزبير وأبو سفيـان وجمـاعة من المهاجرين بعبّاس وعلىّ عليـه

السلام لإجالة الرّأى ، وتكلّموا بكلام يقتضى الاستنهاضَ والتهييج ، فقال العباس رضى الله عنه : قد سمعنا قولَكم فلا لِقِلّة نستعين بكم ، ولا لِظِنّةٍ نترك آراءكم ، فأمهلونا نراجع الفكر ؛ فإن يَكنْ لنا من الإثم مخرج يصرّ بنا وبهم الحقّ صَرِيرَ الجُدْجُد[1] ، ونبسط إلى المجد أكفًّا لا نقبضها أو نبلغَ المدى ، وإن تكن الأخرى ، فلا لِقِلّة فى العدد ولا لوَهَنٍ فى الأيْد ، والله لولا أنّ الإسلام قيّد الفتك، لتَدَكْدَكت جنادلصخر يسمع اصطكاكها من المحل العلىّ .

فحلّ على عليه السلام حَبْوته ، وقال : الصَّبْر حلم ، والتقوى دين ، والحجّة محمد ، والطريق الصراط . أيها الناس شُقُّوا أمواج الفتن ... الخطبة . ثم نهض فدخل إلى منزله وافترق القوم .

* * *

وقال البَراء بن عازب: لم أزل لبنى هاشم محبًّا، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خِفْتُ أن تمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذنى ما يأخذ الوالهة العَجُول ، مع ما فى نفسى من الحُزْن لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فكنت أتردّد إلى بنى هاشم وهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلّم فى الحجرة، وأتفقّد وجوهَ قريش ، فإنّى كذلك إذْ فقدت أبا بكر وعمر ، وإذا قائل يقول : القومُ فى سقيفة بنى ساعدة ، وإذا قائل آخر يقول : قد بُويع أبو بكر ، فلم ألبث ؛ وإذا أنا بأبى بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة ، وهم محتجزون بالأُزُر الصنعانيّة لا يمرُّون بأحد إلا خبطوه ، وقدّموه فمدُّوا يده فمسحوها على يد أبى بكر يبايعه ؛ شاء ذلك أو أبى ؛ فأنكرتُ عقلى ، وخرجت أشتدُّ حتى انتهيت إلى بنى هاشم ، والباب مغلق ، فضربت عليهم الباب ضربا عنيفا ، وقلت : قد بايع الناس لأبى بكر بن أبى قُحافة . فقال العباس : تَرِبَتْ أيديكم إلى آخر الدهر ؛ أما إنّى قد أمرتكم فعصيْتُمونى : فمكثتُ أكابِد ما فى نفسى، ورأيت

(١) الجدجد : دويبة كالجندب .

فى الليل المِقْداد وسلمان وأبا ذَرّ وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التَّيِّهان وحُذَيفة وعمّارا، وهم يريدون أن يُعيدوا الأمْرَ شورى بين المهاجرين .

وبلغ ذلك أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبى عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة ، فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة : الرأىُ أن تلقوا العباسَ فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمْرة نصيبا ، ليقطعوا بذلك ناحية علىّ بن أبى طالب .

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة؛ حتى دَخلوا على العباس، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمِد أبو بكر الله وأثنى عليه ، وقال :

إنّ الله ابتعث لكم محمدا صلى الله عليه وسلّم نبيًّا، وللمؤمنين وليًّا؛ فمنّ الله عليهم بكونه بين ظَهْرانيهم ؛ حتى اختار له ماعنده ؛ فخلّى على الناس أمورَهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين ، فاختاروني عليهم واليًا ، ولأمورهم راعيًا ، فتولّيت ذلك ، وما أخاف بعونِ الله وتسديده وَهْنًا ولا حَيْرة ولا جبْنا ، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب. وما أنفكُّ يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامّة المسلمين ، يتخذكم لجأ فتكونون حصنه المنيع ، وخطبه البديع ، فإمّا دخلتم فيما دخل فيه الناس ، أو صرفتموهم عمّا مالوا إليه . فقد جئناك ، ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا ، ولمن بعدك من عقبك ، إذ كنت عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومكان أهلِك ، ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم . وعلى رِسْلِكم بنى هاشم ؛ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم .

فاعترض كلامه عمر، وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته ، فقال : إى والله . وأخْرى : إنّا لم نأتكم حاجةً إليكم ، ولكنْ كرهنا أن يكونَ الطعنُ فيما اجتمع عليه المسلمون منكم ، فيتفاقمَ الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم ولعامّتهم . ثم سكت .

فتكلم العباس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ الله ابتعث محمداً نبيًّا كما وصفت ، ووليًّا للمؤمنين ، فمنّ الله به على أمته حتى اختار له ماعنده ، فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين للحقّ ، مائلين عن زَيْغ الهوى ؛ فإن كنت برسول الله طلبت فحقّنا أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ؛ ماتقدّمنا فى أمركم فرَطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نزحنا شَحَطا ؛ فإن كان هذا الأمرُ يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين . وما أبعد قولك : إنّهم طعنوا من قولك إنهم مالوا إليك ! وأما مابذلْت لنا ، فإن يكنْ حَقّك أعطيتَناه فأمْسِكْه عليك ، وإن يكن حقّ المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ، وإن يكن حقّنا لم نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أروم صرفَك عمّا دخلتَ فيه ، ولكن للحجّة نصيبها من البيان . وأما قولُك : إن رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله من شجرة نحن أغصانها ، وأنتم جيرانها . وأما قولك ياعمر : إنك تخاف الناس علينا ، فهذا الذى قدمتموه أوّل ذلك ، وبالله المستعان .

* * *

لما اجتمع المهاجرون على بَيْعة أبى بكر ، أقبل أبو سفيان وهو يقول : أما والله إنى لأرَى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ؛ ياَلعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم ! أين المستضعفان؟أين الأذَلّان ؟يعنى عليا والعباس.مابالُ هذا الأمر فى أقلّ حىّ من قريش . ثم قال لعلىّ :ابسط يدك أبايعك ،فوالله إن شئت لأملأنّها على أبى فصيل ـ يعنى أبابكر ـ خَيْلا ورَجلا . فامتنع عليه علىّ عليه السلام ؛ فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد شعر المتلمّس :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الأَذَلَّانِ، عَيْرُ الحىّ والوتدُ(١)
هذا على الخسفِ مربوط برُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِى لهُ أحَدُ(٢)

* * *

قيل لأبى قُحافة يوم ولى الأمرَ ابنُه : قد ولى ابنك الخلافة، فقرأ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾(٣)، ثم قال: لم ولَّوْه؟ قالوا : لسنّه، قال : أنا أسنّ منه .

نازع أبوسفيان أبا بكر فى أمر فأغلظ له أبو بكر، فقال له أبو قحافة : يابنىّ، أتقول هذا لأبى سُفيان شيخِ البطحاء ! قال : إن الله تعالى رَفع بالإسلام بيوتا، ووضع بيوتا، فكان ممّا رفع بيتُك يا أبت ، ومما وضع بيتُ أبى سفيان .

---

(١) معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . والعير هنا : الحمار .
(٢) الخسف : النقيصة . والرمة : القطعة من الحبل .
(٣) سورة آل عمران ٢٦ .

(٦)

الأصل :

ومن كلام له لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يُرْصد لهما القتال :

وَاللهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ تنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا ؛ وَلَكِنِّى أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ ، وَبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ العَاصِىَ الْمُرِيبَ أَبَدًا ، حَتَّى يَأْتِىَ عَلَىَّ يَوْمِى ؛ فَوَاللهِ مَازِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّى ، مُسْتَأْثَرًا عَلَىَّ[1] مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا .

* * *

الشرح :

يقال : أرصد له بشرّ ، أى أعدّ له وهيأه ؛ وفى الحديث : « إِلّا أَنْ أَرْصُدَهُ لِدَيْنٍ علىّ »[2] . واللّدْم : صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباليس بشديد.

ولما شرح الراوندىّ هذه اللفظات ، قال : وفى الحديث : « والله لا أكون مثل الضَّبُع تسمَعُ اللَّدْم حتى تخرج فتُصاد » ، وقد كان ـ سامحه الله ـ وقت تصنيفه الشّرح ينظر فى ‹‹ صحاح الجوهرىّ ›› [3] وينقل منها ، فنقل هذا الحديث ظنًّا منه أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس كما ظنّ ، بل الحديث الذى أشار إليه الجوهرىّ هو حديث علىّ عليه السلام الذى نحن بصدد تفسيره .

ويختلها راصدها : يخدعها مترقبها ، ختلتُ فلانا : خدعتَه . ورصدته : ترقبته . ومستأثراً علىّ ، أى مستبَدًّا دونى بالأمر ، والاسم الأثَرَة ، وفى الحديث : إنّه صلى الله عليه وآله ،

(١) مخطوطة النهج : « مُسْتَأْثَراً عَلَىَّ غَيْرِى » .

(٢) نقله ابن الأثير فى النهاية (٢ : ٨٢) عن أبى ذر : قال له عليه الصلاة والسلام : « ما أحب عندى مثل أحد ذهبا فأنفقه فى سبيل الله ، وتمسى ثالثة وعندى منه دينار ؛ إلا دينارا أرصده لدين » .

(٣) صحاح الجوهرى ٥ : ٢٠٢٩

قال للأنصار : « ستلقون بعدى أَثَرَة ، فإذا كان ذلك فاصبروا حتى تَرِدُوا علىّ الحوض »[1] .

والعرب تقول فى رموزها وأمثالها : أحمق من الضبُع[2] ؛ ويزعمون أنّ الصائد يدخل عليها وِجارَها ، فيقول لها: أطرقى أمّ طُرَيْق ، خامرى أمّ عامر، ويكرر ذلك عليها مراراً . معنى أطرِقى أمّ طُرَيْق طأطِئى رأسك ، وكناها أمّ طُرَيْقٍ لكثرة إطراقها ، على « فُعَيْل » كالقُبَّيْط للناطف ، والعُلَّيق لنبْت . ومعنى « خامرى » الزمى وجارك واستترى فيه ، خامر الرجلُ منزلَه إذا لزمه . قالوا : فتلجأ إلى أقصى مغارها وتتقبَّض ، فيقول: أمّ عامر ليست فى وِجارها ، أم عامر نائمة ، فتمدّ يديْها ورجليها وتستلقى ، فيدخل عليها فيوثقها ، وهو يقول لها: أبشرى أمّ عامر بِكَمِّ[3] الرجال، أبشرى أم عامر بشاء هزلى، وجرادٍ عَظْلَى[4]، أى يركب بعضه بعضا ، فتشدّ عراقيبها فلا تتحرك ، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها ، قال الكميت :

فعْلَ المُقرَّة للمقا ... لة خامِرى ياأمّ عامر[5]

وقال الشَّنفَرَى :

لَا تَقْبُرُونِى إن قَبْرِى مُحَرَّمٌ ... عَليكمْ ولكِنْ خامرى أمَّ عامرِ[6]

إذا مامضى رأسى وفى الرأس أكثرى ... وغُودِرَ عِندَ الملتقى ثَمّ سائرى[7]

هنالك لا أرجُو حياةً تَسرُّنى ... سَجِيسَ الليالى مُبسَلا بالجرائرِ[8]

---

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية (١ : ١٥) ، وقال : « الأثرة ، بفتح الهمزة والثاء الاسم من آثر يؤثر إيثارا ؛ إذا أعطى ؛ أراد أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه فى الفئ » .

(٢) المثل فى جمهرة الأمثال ١ : ٢٧٦

(٣) كم : جمع كمة ؛ وهى قلفة الذكر ، وفى جمهرة الأمثال : « كمر » ؛ جمع كمرة ؛ وهى رأس الذكر.

(٤) فى اللسان : « تعاظلت الجراد ، إذا تسافدت » وأورد المثل .

(٥) من أبيات فى معانى ابن قتيبة ١ : ٢١٤

(٦) ديوانه ٣٦ (من مجموعة الطرائف الأدبية) ، وفيه : « أبشرى أم عامر »

(٧) ديوانه :

* إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى *

(٨) سجيس الليالى ؛ أى أبدا ؛ ومبسلا ، أى مسلما ؛ كذا فسره صاحب اللسان فى (٧ : ٤٠٨) ، (١٣ : ٥٧) ، واستشهد بالبيت .

أوصاهم ألّا يدفنوه إذا قُتل ، وقال: اجعلونى أُكُلًا للسباع ، كالشىء الذى يرغَّبُ به الضبُع فى الخروج ؛ وتقدير الكلام : لا تقبرونى ولكن اجعلونى كالتى يقال لها : خامرِى أمّ عامر ، وهى الضبُع ، فإنها لا تقبَر . ويمكن أن يقالَ أيضا : أراد لا تقبرونى واجعلونى فَرِيسة للتى يقال لها : خامرى أم عامر ؛ لأنها تأكل الجيفَ وأشلاء القتلى والموتى .

وقال أبو عبيدة : يأتى الصائد فَيضرِب بعقِبه الأرض عند باب مَغارها ضربا خفيفاً ؛ وذلك هو اللّدْم ، ويقول: خامرى أم عامر ؛ مرارا، بصوت ليس بشديد ، فتنام على ذلك، فيدخل إليها ، فيجعل الحبْل فى عرقوبها ويجرّها فيخرجها . يقول : لا أقعدُ عن الحربِ والانتصار لنفسى وسلطانى ، فيكون حالى مع القوم المشار إليهم حال الضَّبُع مع صائدها ، فأكون قد أسلمتُ نفسى ، فعلَ العاجز الأحمق، ولكنّى أحارب مَنْ عصانى بمن أطاعنى حتى أموت ، ثم عقّب ذلك بقوله: إن الاستئثار علىّ والتغلّب أمر لم يتجدّد الآن؛ ولكنه كان منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

* * *

[طلحة والزبير ونسبهما]

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. أبوه ابن عَمّ أبى بكر ، وأمه الصّعبة بنت الحضرمىّ ، وكانت قبل أن تكون عند عبيد الله تحت أبى سفيان صخر بن حرب ، فطلّقها ثم تبعتْها نفسُه ، فقال فيها شعراً أوله :

وإنّى وصَعْبَــةَ فيما أرَى بَعيدانِ والوُدُّ ودٌّ قريبُ

فى أبيات مشهورة. وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحدُ أصحاب الشورى ، وكان له فى الدّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد أثر عظيم ، وشَلّت بعضُ

أصابعه يومئذ وقى رسول الله صلى الله عليه وآله بيده من سيوف المشركين، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ : « اليوم أوْجَب طلحة الجنة » [1] .

والزّبير هو أبو عبد الله الزُّبَيْر بن العوام بن خُوَيلِد بن أسد بن عبد العزى بن قصىّ، أمه صفيّة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو أحد العشرة أيضاً، وأحدُ الستّة، وممن ثبَت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد وأبلى بلاء حسنا، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: « لكل نبيّ حوارىّ وحوارىّ الزبير » . والحوارىّ : الخالصة ، تقول : فلان خالصة فلان ، وخُلْصانه وحواريّه ، أى شديد الاختصاص به والاستخلاص له .

* * *

[خروج طارق بن شهاب لاستقبال علىّ بن أبى طالب]

خرج طارق بن شهاب الأحمسىّ يستقبل عليا عليه السلام ، وقد صار بالرَّبذَة طالبا عائشة وأصحابها، وكان طارق من صحابة علىّ عليه السلام وشيعته، قال : فسألتُ عنه قبل أن ألقاه : ما أقدمه ؟ فقيل : خالفه طلحة والزبير وعائشة فأتوا البصرة ، فقلت فى نفسى : إنّها الحرب ! أفأقاتل أمّ المؤمنين ، وحوارىّ رسول الله صلى الله عليه وآله ! إنّ هذا لعظيم ، ثم قلت : أأدَعُ عليًّا ، وهو أوّلُ المؤمنين إيمانًا بالله وابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه ! هذا أعظم . ثم أتيتُه فسلّمتُ عليه ، ثم جلست إليه ، فقصّ علىّ قصة القوم وقصّته ، ثم صلى بنا الظهر ، فلما انفتل جاءه الحسن ابنُه عليهما السلام ، فبكى بين يديه ، قال : مابالك ؟ قال : أبكى لقتلك غداً بمَضِيعة ولا ناصر لك . أما إنى أمرتك فعصيتَنى ، ثم أمرتُك فعصيتَنى . فقال عليه السلام : لا تزال تَحِنُّ حنين [2] الأَمَة ! مالذى أمرتَنى به فعصيتُك ! قال : أمرتُك حين أحاط الناس بعثمان أن تعتزل ، فإنّ الناس إذا قتلوه طلبوك أينما كنت حتى يبايعوك ، فلم تفعل. ثم أمرتُك لما قُتل عثمان ألّا توافقَهم على

(١) أوجب، أى عمل عملا أوجب له الجنة . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٩٤

(٢) الخنين : تردد البكاء حتى يكون فى الصوت غنة . والخبر فى اللسان (خنن) وفى الأصول : « حنين » ، تحريف .

البيْعة حتى يجتمعَ الناس و يأتيَكَ وفودُ العرب فلم تفعل . ثم خالفك هؤلاء القوم، فأمرتُك ألّا تخرج من المدينة ، وأنْ تدَعَهم وشأنهم، فإن اجتمعتْ عليك الأمّة فذاك، وإلّا رضيتَ بقضاء الله . فقال عليه السلام : والله لا أكون كالضَّبُع تنام على اللَّدْم حتى يدخلَ إليها طالبها فيعلّق الحبل برجلها، ويقول لها : دَبابِ دَبابِ ، حتى يُقْطع عُرقُوبها ... وذكر تمام الفصل . فكان طارق بن شهاب يبكي إذا ذكر هذا الحديث .

دَبَابِ : اسم الضّبع ، مبني على الكسر كبَرَاحِ اسم للشمس .

(٧)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلَاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ؛ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الخَطَلَ؛ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ.

* * *

الشَّـرْحُ :

يجوز أن يكون أشْرَاكاً، جمع شريك، كشريف وأشراف. ويجوز أن يكون جمع شَرَك، كجَبَل وأجبال، والمعنى بالاعتبارين مختلف.

وباض وفَرّخ فى صدورهم، استعارة للوسوسة والإغواء، ومرادُه طولُ مكثه وإقامته عليهم، لأنّ الطائر لا يبيض ويفرّخ إلا فى الأعشاش التى هى وطنه ومسكنه. ودبّ ودرج فى حُجورهم، أى ربّوا الباطل كما يربّى الوالدان الولد فى حجورها. ثم ذكر أنّه لشدة اتحاده بهم وامتزاجه صار كمن ينظر بأعينهم، وينطق بألسنتهم، أى صار الاثنان كالواحد، قال أبو الطيّب :

ما الخِــلّ إلاّ مَنْ أودّ بقلبِه وأرَى بطَرْفٍ لا يرَى بِسَوَائِه (١)

وقال آخر :

كُنّا من المساعــدَهْ نَحْيا برُوحٍ واحدَهْ

(١) ديوانه ١ : ٤

وقال آخر :

جُبِلَتْ نَفسُك فى نفسِى كما تُجْبَلُ الخمرَةُ بالماء الزلالِ
فإذا مَسَّكَ شىء مَسّنِى فإذا أنْتَ أنا فى كلِّ حالِ

والخطل: القول الفاسد. ويجوز : أشرَكه الشيطان فى سلطانه، بالهمزة ، وشرِكه أيضاً؛ وبغير الهمزة أفصح .

(٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام يعنى به الزبير فى حال اقتضت ذلك :

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ ؛ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ . فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ ، وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ .

* * *

الشرح :

الوليجة : البطانة، والأمر يُسَرّ ويكتم، قال الله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (١) . كان الزبير يقول : بايعتُ بيدى لا بقلبى ؛ وكان يدّعى تارة أنّه أُكرِه ، ويدّعى تارة أنه ورّى فى البيعة تورية، ونوَى دخيلة، وأتى بمعاريض لا تُحمل على ظاهرها، فقال عليه السلام : هذا الكلام إقرارٌ منه بالبيعة وادعاء أمر آخر لم يُقِمْ عليه دليلا ، ولم ينصب له برهانا، فإمّا أن يقيم دليلا على فساد البيعة الظاهرة، وأنها غير لازمة له ، وإمّا أن يعاود طاعته .

قال علىّ عليه السلام للزّبير يوم بايعه : إنّى لخائف أن تغدر بى وتنكث بيعتى، قال: لا تخافنّ ؛ فإنّ ذلك لا يكون منى أبدا ، فقال عليه السلام : فلى الله عليك بذلك راعٍ وكفيل . قال : نعم ، الله لك علىّ بذلك راعٍ وكفيل .

* * *

[أمر طلحة والزبير مع علىّ بن أبى طالب بعد بيعتهما له]

لما بويع علىّ عليه السلام كتب إلى معاوية : أمّا بعدُ ، فإنّ الناس قتلوا عثمان عَنْ غير

(١) سورة التوبة ١٦

مشورة منّى ، وبايعونى عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابى فبايع لى ، وأوفِدْ إلىّ أشراف أهل الشام قِبَلك .

فلما قدم رسوله على معاوية ، وقرأ كتابه ، بعث رجلا من بنى عُمَيْس ، وكتب معه كتابا إلى الزبير بن العوام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان :

سلام عليك ، أمّا بعد ، فإنى قد بايعتُ لكَ أهل الشام ، فأجابوا واستوسقوا[1] كما يستوسق الجَلَب ، فدونك الكوفة والبَصْرة ، لا يسبقك إليها ابن أبى طالب ، فإنّه لا شىء بعد هذين المِصْرَيْن ، وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فأظْهِرا الطلب بدم عثمان ، وادْعُوَا الناس إلى ذلك ، وليَكُنْ منكما الجِدّ والتشمير ، أظفركما الله ، وخذل مناوِئكما !

فلما وصل هذا الكتابُ إلى الزُّبير سُرّ به ، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه ، فلم يشكّا فى النُّصح لهما من قِبَل معاوية ، وأجمعا عند ذلك على خِلاف علىّ عليه السلام .

* * *

جاء الزبيرُ وطلحة إلى علىّ عليه السلام بعد البيعة بأيام ، فقالا له : يا أمير المؤمنين ، قد رأيتَ ما كنّا فيه من الجَفْوة فى ولاية عثمان كلّها ، وعلمت رأىَ عثمان كان فى بنى أمية ، وقد ولّاك الله الخلافة مِنْ بعده ، فولِّنا بعضَ أعمالك ، فقال لهما : ارضيا بقَسْم الله لكما ، حتى أرى رأيى ، واعلما أنّىَ لا أشرك فى أمانتى إلّا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابى ، ومن قد عرفت دخيلَته .

فانصرفا عنه وقد دَخَلهما اليأس ، فاستأذَنَاه فى العمرة .

---

(٢) استوسقوا : استجمعوا وانضموا . وفى نهاية ابن الأثير : « ومنه حديث أحد : استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم ، أى استجمعوا » .

طلب طلحة والزبير من علىّ عليه السلام أن يولّيهما المِصْرَيْن : البصرة والكوفة ، فقال : حتى أنظر . ثم استشار المغيرة بن شعبة ، فقال له : أرى أن تولّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس . فخلا بابن عباس ، وقال : ما تَرَى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة ، وبهما كنوزُ الرجال ، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمتَ ، ولستُ آمنهما إن ولّيتَهُما أنْ يُحْدِثا أمرا . فأخذ علىّ عليه السلام برأى ابن عباس . وقد كان استشار المغيرة أيضا فى أمر معاوية ، فقال له : أرى إقرارَه على الشام ، وأن تبعثَ إليه بعهده إلى أن يسكنَ شَغْبُ الناس ، ولك بعدُ رأيك . فلم يأخذ برأيه .

فقال المغيرة بعد ذلك : والله ما نصحتهُ قبلها ، ولا أنصحه بَعْدَها ما بقيت .

***

دخل الزبير وطلحة على علىّ عليه السلام ، فاستأذناه فى العمرة ، فقال : ما العمرةَ تريدان ؛ فحلفا له بالله أنّهما ما يريدان غيرَ العمرة ، فقال لهما : ما العمرةَ تريدان ، وإنما تريدان الغَدْرة ونَكْث البَيْعة ؛ فحلفا بالله ما الخلافَ عليه ولا نكْث بيعةٍ يريدان ، وما رأيُهما غير العمرة . قال لهما : فأعيدا البيعةَ لى ثانية ، فأعاداها بأشدِّ ما يكون من الأيمان والمواثيق ، فأذِن لهما ، فلما خرجا عن عنده ، قال لمن كان حاضرا : والله لا ترونَهما إلا فى فتنة يقتتلان فيها . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمرْ بردِّهما عليك ، قال : لِيَقْضِىَ الله أمرا كان مفعولا .

***

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيَا أحدا إلا وقالا له : ليس لعلىّ فى أعناقنا بَيْعة ، وإنّما بايعناه مكرَهين . فبلغ عليا عليه السلام قولهما ، فقال : أبعدهما الله وأغرب[1] دارهما ! أما والله لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسَهما أخبث مقتل ، ويأتيان مَنْ

(١) يقال : أغرب داره : أبعدها .

وردا عليه بأشأم يوم ، والله ما العُمْرةَ يريدان ، ولقد أتيانى بوجهَىْ فاجريْن ، ورجعا بوجْهَىْ غادرين ناكثيْن ، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلا فى كتيبة خَشْناء[1] ، يقتُلان فيها أنفسهما ، فبُعداً لهما وسحقاً !

* * *

وذكر أبو مخنف فى "كتاب الجمل" أنّ عليًّا عليه السلام خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البَصْرة ، فقال : أيّها الناس ، إنّ عائشة سارت إلى البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلٌّ منهما يرى الأمرَ له دون صاحبه ، أما طلحةُ فابنُ عمِّها ، وأما الزبير فَخَتَنُها ، والله لو ظفروا بما أرادوا — ولن ينالوا ذلك أبدا — ليضربنّ أحدُهما عنقَ صاحبه بعد تنازع منهما شديد . والله إنّ راكبةَ الجمل الأحمر ما تقطَع عقبة ولا تحلُّ عُقْدة إلا فى معصية الله وسَخَطه ، حتى توردَ نفسها ومَنْ معها موارد الهلكة ؛ أى والله لَيُقتَلَنّ ثلثهم ، وليهربنّ ثلثهم : وليتوبنّ ثلثهم ، وإنها التى تنبَحُها كلاب الحوءب ، وإنّهما ليعلمان أنّهما مخطئان . وربّ عالمٍ قتله جهلُه ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ! فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ! وما لنا إلى عائشة من ذَنْب إلّا أنا أدخلناها فى حَيِّزنا . والله لأَبْقَرنّ الباطل ، حتى يَظهر الحقُّ من خاصِرته ، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجَها . ثم نزل .

* * *

برز علىّ عليه السلام يوم الجمل ، ونادى بالزُّبير : يا أبا عبد الله ، مرارا ، فخرج الزبير ، فتقاربا حتى اختلفتْ أعناقُ خيلهما ، فقال له علىّ عليه السلام : إنّما دعوتُك لأذكِّرك حديثا قاله لِى ولك رسول الله صلى الله عليه ؛ أتذكر يَوْم رآكَ وأنت معتنِقى ، فقال لك :

(١) كتيبة خشناء ، أى كثيرة السلاح خشنته.

«أتحبه» ؟ قلت : ومالى لا أحبّه وهو أخى وابن خالى ! فقال : «أما إنّك ستحارِبه وأنت ظالم له» . فاسترجع الزبير، وقال : أذكرتنى ماأنسانيه الدّهر ، ورجع إلى صفوفه . فقال له عبدالله ابنه : لقد رجعتَ إلينا بغير الوجه الذى فارقتنا به ! فقال : أذكَرَنى علىٌّ حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحارِبُه أبدا ، وإنى لراجع وتارككم منذ اليوم . فقال له عبد الله : ما أراك إلا جبُنت عن سيوف بنى عبد المطّلب ، إنّها لَسُيوف حِداد ، تحملها فتية أنجاد ؛ فقال الزبير : ويلك ! أتهيجُنى على حرْبه! أما إنى قد حلفت ألا أحاربَه ، قال : كَفِّرْ عن يمينك ؛ لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت ، وما كنت جبانا ، فقال الزبير : غلامى مكْحولٌ حرٌّ كفّارة عن يمينى ، ثم أنصلَ(١) سِنان رمحه ، وحمل على عسكر علىّ عليه السلام برُمْح لا سنان له ، فقال على عليه السلام : أفرِجوا له ، فإنه مُحْرَج ، ثم عاد إلى أصحابه ، ثم حمل ثانية ، ثم ثالثة ، ثم قال لابنه : أجبنا ويلك ترى ! فقال : لقد أعذرت .

* * *

لما أذكر علىٌّ عليه السلام الزبيرَ بما أذكره به ورجع الزبير ، قال :

نَادَى عَلِىٌّ بأمْر لستُ أُنكِرُه ... وَكَانَ عمر أبيك الخير مُذْ حِينِ
فقُلْتُ حسبك منْ عَذْلٍ أبا حَسَنٍ ... بَعْضُ الذى قلتَ مُنذ اليوم يكْفِينِى
تَرْكُ الأمور التى تُخشَى مَغَبَّتُها ... والله أمثلُ فى الدّنيا وفى الدين
فاخْتَرْتُ عارا على نارٍ مؤجّجة ... أنى يقومُ لهَا خَلْقٌ مِنَ الطِّين !

* * *

لما خرج علىٌّ عليه السلام لطلب الزبير خرج حاسرا ، وخرج إليه الزبير دارعاً مُدَجّجا ، فقال للزبير : يا أبا عبدِ الله ، قد لَعَمْرِى أعددْت سلاحا ، وحبذا فهل أعددت عند الله عذرا ؟ فقال الزبير : إنّ مردَّنا إلى الله ، قال علىٌّ عليه السلام : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾(٢)، ثم أذكره الخبر ، فلما كرّ

(١) أنصل سنان رمحه ، أى نزعه .

(٢) سورة النور ٢٥

الزبيرُ راجعاً إلى أصحابه نادما واجما ، رجع علىٌّ عليه السلام إلى أصحابه جذِلاً مسرورا ، فقال له أصحابه : ياأميرَ المؤمنين ،تبرز إلى الزبير حاسرا ، وهو شاكٍ[1] فى السلاح ،وأنت تعرف شجاعته ! قال : إنّه ليس بقاتلى ، إنّما يقتلُنى رجل خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلةً فى غير مأقِطِ[2] حرب ، ولا معركة رجال ، وَيلُمّهُ أشقى البشر ! ليودّنّ أنّ أمه هبِلت به ! أما إنّه وأحمر ثمود لمقرونان فى قَرَن .

* * *

لمّا انصرف الزبير عن حَرْب علىّ عليه السلام مَرّ بوادى السباع ، والأحنفُ بن قيس هناك فى جمع من بنى تميم قد اعتزل الفريقين ، فأخبر الأحنف بمرور الزُّبير ، فقال رافعاً صوته : ماأصنع بالزبير ! لفّ غارَيْن[3] من المسلمين ،حتى أخذت السيوفُ منهماماأخذها، انسلّ وتركهم . أما إنّه لخليق بالقتل ، قتله الله ! فاتبعه عمرو بن جُرْموز — وكان فاتكا — فلما قَرُب منه وقف الزبير ، وقال : ماشأْنك ؟ قال : جئت لأسألَك عن أمر الناس، قال الزبير : إنى تركتُهم قياما فى الركب ، يضرب بعضُهم وجهَ بعض بالسيف . فسار ابن جُرموز معه ، وكلٌّ واحد منهما يتّقى الآخر . فلما حضرت الصلاة ، قال الزبير : ياهذا ، إنّا نريد أن نصلّىَ .

فقال ابن جرْمرز : وأنا أريد ذلك ، فقال الزبير : فتؤمّنى وأؤمّنك ؟ قال : نعم ، فثنى الزبير رجلَه ، وأخذ وضوءه . فلما قام إلى الصلاة شد ابن جُرموز عليه فقتله ، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه ، وحثا عليه ترابا يسيرا ، ورجع إلى الأحنف ، فأخبره ، فقال:والله ما أدرى أسأت أم أحسنت ؟ اذهب إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فجاء إلى علىّ عليه السلام ، فقال للآذن : قل له : عمرو بن جُرْموز بالباب ومعه رأسُ الزبير وسيفُه ، فأدخله . وفى كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف ، فقال له : وأنت قتلتَه ؟ قال : نعم ، قال : والله ما كان ابنُ صفيّة جبانا ولا لئيما ، ولكن الحيْن ومصارع السوء،

(١) يقال : رجل شاكى السلاح ؛ إذا كان ذا شوكة وحد فى سلاحه (٢) المأقط : ساحة القتال .
(٣) الغار هنا : الجيش ، وفى اللسان ٦ : ٣٤ : « جمع بين غارين » .

ثم قال : ناولني سيفه ، فناوله فهزّه ؛ وقال : سيف طالما جَلّى به الكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال ابنُ جرموز : الجائزة ياأمير المؤمنين ، فقال : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « بَشّر قاتل ابن صفيّة بالنار » ، فخرج ابن جُرْموز خائبا ، وقال :

أتيتُ عليًّا برأس الزّبيْرِ أبْغى بِهِ عِنْدَهُ الزُّلْفَهْ (١)
فَبَشّر بالنّارِ يَوْمَ الحسابِ فبئسَتْ بِشارةُ ذى التُّحْفَهْ
فقلتُ له إنّ قتلَ الزّبيْر لولا رضاكَ من الكُلْفَهْ
فإنْ ترضَ ذاكَ فمنكَ الرّضا وإلا فَدُونَكَ لى حَلْفَهْ
وَرَبِّ المحلّين والمحرمينَ وَرَبِّ الجماعةِ والأُلْفَهْ
لَسِيّان عِندى قتلُ الزبيرِ وضرطة عنزٍ بذى الْجُحْفَهْ

ثم خرج ابن جُرموز على عليّ عليه السلام مع أهل النهر ، فقتله معهم فيمن قتل .

(١) المسعودى ١ : ٣٧٣

(٩)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا ، ومَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتى نُوقِعَ ، وَلاَ نُسِيلُ حَتى نُمْطِرَ .

* * *

الشَّرْحُ :

أرعد الرجل وأبرق ، إذا أوعد وتهدّد ، وكان الأصمىّ ينكره ، ويزعم أنه لا يقال إلا رعد وبرق ، ولما احْتُجّ عليه ببيت الكميت :

أرْعِدْ وَأبْرِقْ يا يزيـــد فما وَعيدُك لى بِضائرْ

قال : الكميتُ قروىٌّ لا يُحتجّ بقوله[1] .

وكلام أميرِ المؤمنين عليه السلام حُجّة دالة على بطلان قول الأصمىّ . والفَشَل : الجبْن والخَوَر .

وقوله : « ولا نسيلُ حتى نُمْطر » ، كلمة فصيحة ، يقول : إنَّ أصحاب الجمل فى وعيدهم وإجلابهم بمنزلة مَنْ يدّعى أنه يحدث السيل قبل إحداث المطر ؛ وهذا محال ، لأنَّ السَّيْل إنما يكون من المطر ، فكيف يسبق المطر ! وأمّا نحن فإنا لا ندّعى ذلك ، وإنما نُجْرِى الأمور على حقائقها ، فإنْ كان منّا مطر كان منّا سيل ، وإذا أوقعنا بخصمنا أوعدْنا حينئذ بالإيقاع به غيرَه من خصومنا .

(١) الخبر والبيت فى أمالى القالى ١ : ٩٦

وقوله عليه السلام : « ومع هذين الأمْرين الفَشَل » معنًى حسَن ، لأنَّ الغالبَ من الجبناء كثرة الضوضاء والجلَبة يوم الحرب ، كما أنَّ الغالبَ من الشجعان الصمت والسكون .

وسمع أبو طاهر الجَنّابىّ[1] ضوضاءَ عسكر المقتدر بالله ودَبادِبَهُم[2] وبُوقاتهم ، وهو فى ألف وخمسمائة ، وعسكر المقتدر فى عشرين ألفا ، مقدّمهم يوسف بن أبى الساج ، فقال لبعض أصحابه : ما هذا الزَّجَل[3] ؟ قال : فَشل ، قال : أجَل .

ويقال : إنه ما رُئىَ جيش كجيش أبى طاهر ، ما كان يسمع لهم صوت ، حتى إنَّ الخيل لم تكن لها حَمْحَمة ، فرشقَ عسكرُ ابن أبى الساج[4] القرَامِطةَ بالسّهام المسمُومة ، فجرح منهم أكثر من خمسمائة إنْسان .

وكان أبو طاهر فى عمارية له ، فنزل وركب فرسا ، وحمل بنفسه ومعه أصحابه حملة على عسكر ابن أبى الساج ، فكسروه وفلّوه وخلصوا إلى يوسف فأسروه ، وتقطّع عسكره بعد أن أتى بالقتل على كثير منهم ، وكان ذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة .

ومن أمثالهم : الصدقُ ينبىءُ عنك لا الوعيد .

---

(١) هو أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ؛ كان أبوه الحسن كبير القرامطة ؛ وقتل سنة ٣٠١ ، قتله خادم له صقلبى ، فتولى ابنه أبو طاهر أمر القرامطة بعده ، بعد أن عجز أخوه سعيد عن الأمر . تاريخ ابن الأثير ٦ : ١٤٧

(٢) فى اللسان : « الدبادب : صوت كأنه دب ، دب ؛ وهى حكاية الصوت » .

(٣) الزجل : الجلبة ورفع الصوت .

(٤) هو يوسف بن أبى الساج ؛ أحد ولاة الرى فى عهد المقتدر ؛ وكان استقل عن الخليفة ، ثم عاد الى طاعته . وانظر طرفا من أخباره فى تاريخ ابن الأثير فى ٦ : ١٧٥ ، وما بعدها .

(١٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ ، وَٱسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلِهِ ؛ وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي؛ مَا لَبَّسْتُ عَلَىَّ نَفْسِي ، وَلَا لُبِّسَ عَلَيَّ . وَٱيْمُ ٱللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ .

* * *

الشرح :

يمكن أن يَعْنِيَ بالشيطان الشيطانَ الحقيقيّ ، ويمكن أن يَعْنِيَ به معاوية ، فإن عَنَى معاوية ، فقوله : « قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجْله » كلام جارٍ على حقائقه ، وإن عَنى به الشيطان ، كان ذلك من باب الاستعارة ؛ ومأخوذاً من قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[(١)]، والرَّجْل: جمع راجل ، كالشَّرْب ، جمع شارب ، والرّكْب : جمع راكب .

قوله : « وإنّ معى لبَصيرتى »، يريد أنّ البصيرةَ التى كانت معى فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تتغيّرْ .

وقوله : « ما لبّست » تقسيم جيّد ، لأنّ كل ضالّ عن الهداية ، فإمّا أن يضلّ من تلقاء نفسه ، أو بإضلال غيره له .

وقوله : « لأفْرِطَنّ » من رواها بفتح الهمزة ، فأصله « فَرطَ » ثلاثىّ ، يقال : فَرطَ

---

(١) سورة الإسراء ٦٤ .

زيد القوم أى سبقهم ، ورجل فَرَطٌ : يسبِق القوم إلى البئر ، فيهيّئ لهم الأرْشية والدِّلاء ، ومنه قوله عليه السلام : « أنا فَرَطُكم على الحوض » ، ويكون تقدير الكلام : وايمُ الله لأفرِطَنّ لهم إلى حوض ، فلما حذف الجارّ عدّى الفعل بنفسه ، فنصب ، كقوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾[1] ، وتكون اللام فى «لهم» إمَّا لامَ التعدية ، كقوله : « ويؤمن للمؤمنين » أى ويؤمن المؤمنين ، أو تكون لام التعليل ، أى لأجلهم . ومن رواها « لأُفرِطَنّ » بضم الهمزة ، فهو من أفرط المزادة ، أى ملأها .

والماتح : المستقِى ، متَح يمتَح ، بالفتح ، والمايح ، بالياء : الذى ينزل إلى البئر فيملأ الدلو.

وقيل لأبى علىّ رحمه الله : ما الفرق بين الماتح والمايح ؟ فقال : هما كإعجامهما ، يعنى أنَّ التاء بنقطتين من فوق ، وكذلك الماتح لأنه المستقى ، فهو فوق البئر ، والياء بنقطتين من تحت ، وكذلك المايح لأنه تحت فى الماء الذى فى البئر يملأ الدلاء . ومعنى قوله : « أنا ماتحه » ، أنا خبير به ، كما يقول مَنْ يدّعى معرفة الدار : أنا بانى هذه الدار ، والكلام استعارة ؛ يقول : لأملأنّ لهم حِياض الحرب التى هى دُرْبَتى وعادتى ، أو لأسْبِقنّهم إلى حياض حرب أنا متدرِّب بها ، مجرِّب لها ، إذا وردوها لا يصدُرون عنها . يعنى قتلَهم وإزهاق أنفسهم ، وَمَنْ فرَّ منهم لا يعود إليها . ومن هذا اللفظ قول الشاعر :

مَخَضْتُ بِدَلْوِه حتَّى تَحَسَّى ذَنُوبَ الشرِّ مَلْأَى أو قُرابا[2]

* * *

---

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) البيت فى شرح الحماسة للمرزوقى ٥٣٣ من غير نسبة .

(١١)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام لابنه محمد بن الحنفيّة لما أعطاه الراية يوم الجمل :

تَزُولُ الجِبَالُ وَلَا تَزُلْ ، عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ ، أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ ، تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ ، وَغُضَّ بَصَرَكَ ، وَاْعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ .

الشَّـرْحُ :

قوله : « تَزُولُ الجبالُ ولَا تَزُل »،خبر فيه معنى الشرط،تقديره : إن زالتِ الجبالُ فلا تَزُل أنتَ ؛ والمراد المبالغة.فى أخبار صِفِّين أن بَنِى عُـكْلٍ ـ وكانوا مع أهل الشّام ـ حملوا فى يوم من أيام صِفِّين،خرجوا وعقلوا أنفسَهم بعمائمهم،وتحالفوا أنَّا لاَ نفِرّ حتى يفرّ هذا « الحـكر » ، بالـكاف ، قالوا : لأن عُـكْلاً تبدل الجيم كافا .

والناجِذُ:أقصى الأضراس.وتِدْ ، أمرمن وتَد قَدَمه فى الأرض؛أى أثبِتْها فيها كالوتِد. ولا تَنَاقُضَ بين قوله : « ارم ببصرك » وقوله : « غُضَّ بَصَرَكَ » ، وذلك لأنه فى الأولى أمرَه أن يفتح عينَه ويرفع طَرْفَه، ويحدّق إلى أقاصى القوم ببَصره ؛ فِعْلَ الشجاعِ المِقدَام غيرِ المـكترث ولا المبالى،لأنّ الجبانَ تضعُف نفسه ويخفُق قلبُه فيقصر بصره ، ولا يرتفـع طَرْفه ، ولا يمتدّ عنقه ، ويكونُ ناكسَ الرأس ، غضيضَ الطرف . وفى الثانية أمرَه أن يَغُضَّ بصرَه عن بَريق سيوفهم ولمعانِ دروعهم ، لئلا يبرُق بصرُه ، ويدهش ويستشعر خوفا. وتقديرُ الـكلام «واحمل» وحذف ذلك للعلم به،فكأنه قال:إذا عزمت على الحملة

وصممت ، فغُضّ حينئذٍ بصرَك واحمل ، وكن كالعَشْوَاء التي تخبِط ما أمامها ولا تبالى .

وقوله : «عضّ على ناجِذك» ، قالوا: إنّ العاضّ على نواجِذه ينبو السيفُ عن دِماغه، لأنّ عظام الرأس تشتدّ وتصلب ؛ وقد جاء فى كلامه عليه السلام هذا مشروحاً فى موضع آخر، وهو قوله: «وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنْبَى للصوارم عن الهام» . ويحتمل أن يريد به شِدّة الحنَق ؛ قالوا : فلان يحرِقُ عَلَىّ الأرَّم ، يريدون شدة الغيظ ، والحرْق : صريف الأسنان وصوتها ، والأرّم : الأضراس .

وقوله : « أعِرِ اللهَ جُمجمتك »، معناه ابْذُلها فى طاعة الله. ويمكن أن يقال: إن ذلك إشعارٌ له أنّه لا يُقتل فى تلك الحرب، لأنّ العاريّة مردودة، ولو قال له : بعِ اللهَ جُمجمتَك، لكان ذلك إشعاراً له بالشهادة فيها .

وأخذ يزيد بن المهلّب هذه اللفظة فخطب أصحابه بواسط، فقال : إنّى قد أسمع قول الرعاع : جاء مَسْلَمة، وجاء العباس[1] ، وجاء أهل الشام، ومَنْ أهلُ الشام! والله ماهم إلا تسعة أسياف ، سبعة منها معى ، واثنان علىّ ، وأما مَسلمة فجرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس ابن نسطوس[2]، أتاكم فى برابرة وصقالبة وجَرامقة وجراجمة[3] وأقباط وأنباط وأخلاط ، إنما أقبل إليكم الفلاحون وأوباش كأشلاء اللحم . والله مالقُوا قطّ كحديدكم وعديدكم ، أعيرونى سواعدَكم ساعة تصفِقون بها خراطيمهم ، فإنما هى غَدْوة أو روْحة ؛ حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين .

من صفات الشجاع قولهم : فلان مغامِر ، وفلان غَشَمْشَم ، أى لايبصرُ مابين يديه فى الحرب، وذلك لشدة تقحّمه وركوبه المهلكة، وقلّة نظره فى العاقبة ، وهذا هو معنى قوله عليه السلام لمحمد : « غُضّ بصرك » .

---

(١) هما مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، جهزهما يزيد بن عبد الملك لقتال يزيد ابن المهلب . انظر ابن خلكان ، ترجمة يزيد بن المهلب . (٢) إشارة إلى أن أمه كانت أمة رومية نصرانية . (٣) الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام . والجرامقة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام .

[ذكر خبر مقتل حمزة بن عبد المطلب]

وكان حمزة بن عبد المطلب مغامِراً غَشَمْشَما لا يبصِرُ أمامه ، قال جُبَير بن مُطْعِم ابن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف لعبده وحشىّ يوم أُحُد : وَيْلَك ! إن عليًّا قتل عَمّى طُعَيمة سيّد البطحاء يوم بدر ، فإن قتلتَه اليوم فأنت حُرّ، وإن قتلتَ محمداً فأنت حُرّ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ، فلا أحَد يَعدِل عمّى إلّا هؤلاء . فقال : أمّا محمد فإن أصحابه دونَه ، ولن يُسلِموه ، ولا أرانى أصِلُ إليه، وأما علىّ فرجُلٌ حذِر مَرِس[1]، كثير الالتفات فى الحرب لا أستطيع قتلَه ، ولـكن سأقتل لك حمزة ، فإنه رجل لا يُبصِر أمامه فى الحرب ، فوقف لحمزة حتى إذا حاذاه زَرَقه بالحرْبة كما تَزْرق[2] الحبشة بحرابها ، فقتله .

* * *

[محمد بن الحنفيّة ونسبه وبعض أخباره]

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايتَه إلى محمد ابنه عليهما السلام، وقد استوتِ الصفوف ، وقال له : احمِل ؛ فتوقّف قليلا، فقال له : احمل ، فقال : يا أمير المؤمنين، أما ترى السّهام كأنّها شآبيبُ المطر ! فدفع فى صدره ، فقال : أدركك عِرْق من أمّك ، ثم أخذ الرّاية فهزّها ، ثم قال :

اطعَنْ بها طعن أبيك تُحْمَدِ ... لا خير فى الحرْبِ إذا لم تُوقَدِ

* بالْمَشْرفىّ والقَنا المسدّدِ *

ثم حمل وحمل الناس خلْفه ، فطحن عسكر البصرة .

---

(١) رجل مرس : شديد العلاج للأمور .

(٢) زرقه : طعنه .

قيل لمحمد: لِمَ يُغرِّرُ بك أبوك فى الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيْه بيمينه.

كان عليّ عليه السلام يقذِفُ بمحمد فى مهالك الحرب، ويكُفّ حَسنا وحُسينا عنها.

ومن كلامه فى يوم صِفّين: امْلِكُوا عنّى هذين الفتَيَيْن، أخاف أن ينقطِع بهما نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله.

أمّ محمد رضى الله عنه خَوْلة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع ابن ثعلبة بن الدُّؤل بن حَنيفة بن لُجَيم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل.

واختُلِف فى أمرها، فقال قوم: إنّها سبِيّة من سبايا الرِّدة، قوتل أهلُها على يد خالد ابن الوليد فى أيام أبى بكر، لمّا منع كثيرٌ من العرب الزكاة، وارتدّتْ بنو حنيفة، وادّعَتْ نبوّةَ مُسَيْلِمة، وإن أبا بكر دفعها إلى عليّ عليه السلام من سَهْمه فى المغنم.

وقال قوم، منهم أبو الحسن على بن محمد بن سيف المدائنيّ: هى سبيَّة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: بعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا إلى اليمن، فأصاب خَوْلة فى بنى زُبَيْد، وقد ارتدُّوا مع عمرو بن معدى كرب، وكانت زُبَيْد سَبَتْها من بنى حَنيفة فى غارة لهم عليهم، فصارت فى سَهْم عليّ عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنْ ولدتْ منك غلاما فسمِّه باسمى، وكنِّه بكنيتى، فولدتْ له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً، فكنّاه أبا القاسم.

وقال قوم، وهم المحققون، وقولهم الأظهر: إنّ بنى أسدٍ أغارت على بنى حَنيفة فى خلافة أبى بكر الصدّيق، فسبوْا خَوْلة بنت جعفر، وقدِموا بها المدينة فباعوها من عليّ عليه السلام،

وبلغ قومَها خبرُها ، فقدِموا المدينة على علىّ عليه السلام ، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم ، فأعتقها ومهرها وتزوّجها ، فولدت له محمداً ، فكنّاه أبا القاسم .

وهذا القول ، هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذُرى فى كتابه المعروف بـ " تاريخ الأشراف " .

* * *

لما تقاعس محمد يوم الجمل عن الحمْلة ، وحمل علىّ عليه السلام بالراية ، فضعضع أركان عسكر الجمل، دفع إليه الراية ، وقال : امْحُ الأولى بالأخرى ، وهذه الأنصار معك. وضمّ إليه خُزَيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، فى جَمْع من الأنصار ، كثير منهم من أهل بدر، فحمل حَملات كثيرة ، أزالَ بها القومَ عن مواقفهم وأبلَى بلاء حسنا . فقال خزيمة بن ثابت لعلىّ عليه السلام : أما إنه لو كان غيرُ محمد اليوم لافتضح ، ولئن كنت خِفْتَ عليه الحين وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خِفْناه عليه ، وإنْ كنتَ أردتَ أن تعلّمه الطعان فطالما عُلِّمته الرجال .

وقالت الأنصار : يا أمير المؤمنين ، لولا ماجعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب . فقال علىّ عليه السلام : أين النّجم من الشمس والقمر ! أما إنّه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضلَ صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظلمهما له ، ولا نظلمه ـ لفضلهما عليه ـ حقّه ، فقال علىّ عليه السلام : أين يقع ابنى من ابنىْ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال خُزَيمة بن ثابت فيه :

محمدما فى عُودك اليوم وَصْمَة ... ولا كُنْتَ فى الحرْبِ الضَّرُوس مُعَرِّدا[1]
أبوك الذى لم يركب الخيلَ مثْلُه ... علىّ ، وسمّاك النبىُّ محمدا
فلو كان حقا من أبيك خليفةٌ ... لكنت ، ولكن ذاك مالا يرى بَدَا

(١) معرد : منهزم .

وأنت بحمد الله أطولُ غالبٍ[1] لسانًا ، وأَنْداها بمــا ملكتْ يدا
وأقربُها من كلِّ خَيْرٍ تريدُه قُرَيْشٌ وأوفاها بما قال مَوْعِــدا
وأطعَنُهم صــدرَ الكميِّ برمحــه وأكساهُمُ للهــامِ عَضْبًا مُهَنَّدا
سوى أخويْكَ السيِّدين ، كلاهما إمام الورى والداعيانِ إلى الهــدى
أبى اللهُ أن يعطى عــدوَّك مقعــدا من الأرض أوفى الأوج مَرْقًى ومصعدا

(١) غالب : يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك .

(١٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل ، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخى فلانا كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك ،فقال علىّ عليه السلام:

أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا ؟ فقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَدْ شَهِدَنَا ، وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ ٱلرِّجَالِ ، وَأَرْحَامِ ٱلنِّسَاءِ ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ ٱلزَّمَانُ ، وَيَقْوَى بِهِمُ ٱلْإِيمَانُ .

* * *

الشَّرْحُ :

يرعَفُ بهم الزمان : يوجِدهم ويخرجهم ، كما يرعَف الإنسان بالدم الذى يخرجه من أنفه ، قال الشاعر :

وما رَعَف الزمان بمثل عمرو ولا تَلِدُ النساء له ضريبا

والمعنى مأخوذ من قول النبىّ صلى الله عليه وآله لعثمان — ولم يكن شهد بدرا ،تخلّفَ على رُقَيّة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا مرِضت مرضَ موتها — : «لقد كنتَ شاهداً وإن كنت غائبا ، لك أجرك وسهمك» .

* * *

[من أخبار يوم الجمل]

قال الكلبىّ : قلت لأبى صالح : كيف لم يضع علىّ عليه السلام السيفَ فى أهل البصرة يوم الجمل بعد ظفره ؟ قال : سار فيهم بالصفح والمنّ الذى سار به رسول الله صلى الله

عليه وآله فى أهل مكة يوم الفتح ، فإنه أراد أن يستعرضهم بالسيف ، ثم منّ عليهم ، وكان يحب أن يهديهم الله .

قال فِطْر بن خليفة : مادخلتُ دار الوليد بالكوفة التى فيها القصّارُون إلا وذكرت بأصواتهم وقعَ السيوف يومَ الجمل .

حرب بن جَيهان الجُعْفىّ : لقد رأيتُ الرماح يوم الجمل قد أشرعَها الرجال بعضهم فى صدر بعض ، كأنها آجامُ القصب ، لو شاءت الرجال أن تمشىَ عليها لمشتْ ، ولقد صَدَقونا القتال حتى ماظننت أن ينهزموا ، وما رأيت يوماً قطّ أشبهَ بيوم الجمل من يوم جَلُولاء الوقيعة[1] .

الأصبغ بن نُباتة : لما انهزم أهلُ البصرة ركب علىّ عليه السلام بَغْلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشّهْباء؛ وكانت باقية عنده ، وسار فى القتلى يستعرضهم ، فمرّ بكعب بن سور القاضى ، قاضى البصرة ، وهو قتيل ، فقال: أجلسوه ، فأجلس ، فقال له : وَيْلُمِّكَ كعب ابن سور ! لقد كان لك عِلْم لو نَفَعك ! ولكنّ الشيطانَ أضلّك فأزلّك ، فعجّلك إلى النار ؛ أرسلوه . ثم مر بطلحة بن عبيد الله قتيلا ؛ فقال : أجلسوه ، فأجلِسَ ـ قال أبو مخنف فى كتابه : فقال : وَيْلُمِّكَ طلحة ! لقد كان لك قَدَم لو نفعك ! ولكن الشيطان أضلّك فأزلّك فعجلك إلى النار .

وأما أصحابُنا فيروُون غير ذلك ؛ يروون أنه عليه السلام قال له لما أجلسوه : أعزِزْ علىّ أبا محمد أن أراك معفّرا تحت نجوم السماء وفى بطن هذا الوادى ! أبَعْدَ جهادك فى الله ، وذبّك عن رسول الله صلى الله عليه وآله ! فجاء إليه إنسان فقال : أشهد يا أمير المؤمنين ، لقد مررتُ عليه بعد أن أصابه السهمُ وهو صريع ، فصاح بى ، فقال : مِنْ أصحاب مَن أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : امدُد يَدك لأبايع

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان ، كانت بها وقعة المسلمين على الفرس سنة ١٦ ؛ وسميت الوقيعة لما أوقع بهم المسلمون (ياقوت) .

لأمير المؤمنين عليه السلام ، فمددت إليه يدى فبايعنى لك . فقال علىّ عليه السلام : أبى الله أن يدخُلَ طلحة الجنةَ إلا وبيعتى فى عنقه .

ثم مرّ بعبد الله بن خلف الخزاعىّ ، وكان عليه السلام قتَله بيده مبارزة ، وكان رئيسَ أهل البصرة ، فقال : أجلسوه ، فأجلِس ، فقال : الويل لك يابن خَلف ! لقد عانيت أمراً عظيما .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : ومرّ عليه السلام بعبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد ، فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوبُ قريش ، هذا اللّباب المَحْضُ من بنى عبد مناف . ثم قال : شفيتُ نفسى ، وقتلتُ معشرى ، إلى الله أشكو عُجَرِى وبُجَرِى[1] ! قتلتُ الصناديدَ من بنى عبد مناف ، وأفلتنى الأعيارُ[2] من بنى جُمَح . فقال له قائل : لشدّ ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنّه قام عنّى وعنه نسوةٌ لم يقمْن عنك .

* * *

قال أبو الأسود الدؤلىّ : لما ظهر علىٌّ عليه السلام يومَ الجمل ، دخل بيت المال بالبصرة فى ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرةَ مافيه ، قال : غُرّى غيرى ... مرارا . ثم نظر إلى المال ، وصعّد فيه بَصره وصَوّب ، وقال : اقسموه بين أصحابى خمسمائة خمسمائة ، فقسم بينهم ، فلا والذى بعث محمدا بالحق ما نقصَ درهما ولا زاد درهما ، كأنّه كان يعرف مبلغه ومقداره ، وكان ستة آلاف ألف درهم ، والناس اثنا عشر ألفا .

---

(١) عجرى وبجرى ، نقل صاحب اللسان (٦ : ٢١٦) عن محمد بن يزيد : « معناه همومى وأحزانى ؛ وقيل : ماأبدى وأخفى ، وكله على المثل » . وقال : « وأصل العجر العروق المنعقدة فى الصدر ، والبجر العروق المنعقدة فى البطن خاصة » .

(٢) الأعيار هنا : جمع عير ؛ وعير القوم : سيدهم ؛ وعليه قول الحارث بن حلزة :

زَعَمُوا أنّ كلّ مَن ضَرَبَ الْعَيْـ ـرَ موالٍ لنـــــا وأنَّى الولاء

حَبّة العُرَنىّ(١) ، قَسَم علىّ عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة ، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم ، فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كنتُ شاهداً معك بقلبى ، وإن غاب عنك جسمى ، فأعطنى من الفىء شيئا . فدفع إليه الذى أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم ، ولم يصب من الفىء شيئا .

* * *

اتفقت الرواة كلها على أنّه عليه السلام قَبض ماوجد فى عسكر الجمل من سلاح ودابّة ومملوك ومتاع وعُروض ، فقسّمه بين أصحابه ، وأنهم قالوا له : اقسِمْ بيننا أهلَ البصرة فاجعلهم رقيقا ، فقال : لا ، فقالوا : فكيف تُحِلّ لنا دماءهم وتحرِّم علينا سَبْيَهم ! فقال : كيف يحلّ لكم ذرّية ضعيفة فى دار هجرة وإسلام ! أما ما أجْلَب به القومُ فى معسكرهم عليكم فهو لكم مَغْنم ، وأما ما وارت الدّور وأُغْلِقَتْ عليه الأبواب فهو لأهله ، ولا نصيب لكم فى شىء منه ، فلما أكثروا عليه قال : فأَقْرِعوا على عائشة ، لأدفعها إلى مَنْ تصيبه القُرْعة ! فقالوا : نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! ثم انصرفوا .

---

(١) حبة ، بفتح أوله ، ثم موحدة ثقيلة ، بن جوين العرنى ، والكوفى . كان غاليا فى التشيع ؛ قال فى التهذيب : مات أول ما قدم الحجاج العراق سنة ٧٦ .

(١٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أهل البصرة :

كُنْتُمْ جُنْدَ ٱلْمَرْأَةِ ، وَأَتْبَاعَ ٱلْبَهِيمَةِ . رَغَا فَأَجَبْتُمْ ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ . أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ ، وَٱلْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ ، وَالشَّاخِصُ عنكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؛ كَأَنِّى بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ ، قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا ، وَغَرِقَ مَنْ فِى ضِمْنِهَا .

وفى رواية :

وَايْمُ ٱللهِ ، لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ ، حَتَّىٰ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ .

وفى رواية :

كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِى لُجَّةِ بَحْرٍ .

وفى رواية أخرى :

بِلَادُكُمْ أَنْتَنُ بِلَادِ اللهِ تُرْبَةً ؛ أَقْرَبُهَا مِنَ ٱلْمَاءِ ، وأَبْعَدُهَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ ؛ وَبِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ ٱلشَّرِّ . ٱلْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ ، وَٱلْخَارِجُ بِعَفْوِ ٱللهِ .

كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى قَرْيَتِكُمْ هَٰذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا ٱلْمَاءُ ، حَتى مَا يُرَى مِنْهَا إِلَّا شُرَفُ ٱلْمَسْجِدِ ؛ كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِى لُجَّةِ بَحْرٍ .

***

الشرح :

قوله : « وأتباع البهيمة » ، يعنى الجمل ، وكان جمل عائشة راية عسكر البصرة ، قُتِلوا دونه كما تُقْتَل الرجال تحت راياتها .

وقوله : « أخلاقكم دقاق » ، يصفهم باللؤم ، وفى الحديث أنّ رجلا قال له : يارسول الله إنى أحبُّ أن أنكح فلانة ، إلا أنّ فى أخلاق أهلها دِقّة ، فقال له : « إيّاك وخَضْراء الدِّمن ، إياك والمرأة الحسناء فى مَنْبت السوء » .

قوله : « وعهدكم شقاق » يصفهم بالغدر ، يقول : عهدكم وذمتكم لا يوثق بها ، بل هى وإن كانت فى الصورة عهدا أو ذمّة ، فإنها فى المعنى خلاف وعداوة .

قوله : « وماؤكم زعاق » ، أى مِلْح ، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تُذَمّ به المدينة ، كما قال :

بلادٌ بها الُحمَّى وأُسْدُ عَرِينَةٍ وفيها المعلّى يعتدِى ويَجُورُ
فإنى لِمَنْ قَدْ حَلَّ فِيهَا لَرَاحِمٌ وإنى لمن لمْ يأتِها لَنَذِيرُ

ولا ذنب لأهلها فى أنّها بلاد الحمّى والسباع .

ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتَهَن بذنبه ، لأنّه إما أن يشاركهم فى الذنوب أو يراها فلا ينكرُها ؛ ومذهب أصحابنا أنّه لا تجوز الإقامة فى دار الفسق ، كما لا تجوز الإقامة فى دار الكفر .

والجؤجؤ : عَظْم الصدر ؛ وجؤجؤ السفينة : صدرها .

فأما إخباره عليه السلام أنّ البَصْرة تغرَق عدا المسجدَ الجامع بها ، فقد رأيتُ مَنْ يذكر أنّ كتب الملاحم تدلّ على أنّ البصرة تَهْلِك بالماء الأسود ينفجر من أرضها ، فتغرق ويبقى مسجدها .

والصحيح أن المخبَر به قد وقع ، فإنَّ البصرة غرقت مرتين ؛ مرة فى أيام القادر بالله ، ومرة فى أيام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزا بعضه كجؤجؤ الطائر ، حَسَب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام ، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس ، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السّنام ، وخربت دورها ، وغرق كلّ ما فى ضِمْنها ، وهلك كثير من أهلها .

وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة ، يتناقلها خلَفهم عن سلفهم .

* * *

[من أخبار يوم الجمل أيضاً]

قال أبو الحسن على بن محمد بن سيف المدائنىّ ومحمد بن عمر الواقدىّ : ماحُفِظ رَجَز قطّ أكثر من رَجَزقيل يوم الجمل ، وأكثره لبَنِى ضبّة والأزْد ، الذين كانوا حول الجمل يُحامون عنه ، ولقد كانت الرءوس تَنْدُر[(١)] عن الكواهل ، والأيدي تَطِيحُ من المعاصم وأقتاب البطن[(٢)] تندلِق من الأجواف ؛ وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل ؛ حتى لقد صرخ عليه السلام بأعلى صوته : ويلَكم اعقِروا الجمل فإنه شيطان! ثم قال : اعقِروه وإلا فَنِيَت العرب .لا يزال السيفُ قائماً وراكعاً حتى يهوِى هذاالبعيرُ

(١) تندر : تقطع .
(٢) الأقتاب : الأمعاء ؛ واحده قتب » محركة ، أو بكسر فسكون .

إلى الأرض ، فصمدو له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد ؛ فلمّا برك كانت الهزيمة .

* * *

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم[١] :

نَحْنُ ـ بنى ضَبّة ـ أصحابُ الجمَلْ نُنازِلُ الموتَ إذا الْمَوْتُ نَزَلْ
نَنْعَى ابن عفان بأطراف الأسَلْ ردّوا علينا شيخنــا ثُمَّ بَجَلْ[٢]
الموت أحْلَى عندنا من العَسَلْ لا عار فى الموت إذا حانَ الأجَلْ
إنّ عليــا هو من شرّ البَدَلْ إن تعدلوا بشيْخِنا لا يُعتــدلْ
* أينَ الوِهَادُ وشماريخُ القُلَلْ[٣] *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام :

نحن قتلنا نَعْثَلًا فيمن قُتِلْ أكثر من أكثرَ فيه أو أقلّ[٤]
أنّى يُرَدُّ نَعْثَلٌ وقد قَحَلْ نَحْنُ ضَرَبْنَا وَسْطَه حَتَّى انجدَلْ[٥]
لحُكْمِهِ حُكْمُ الطواغيت الأُوَلْ[٦] آثرَ بالفىء وجَافَى فى العملْ
فأبدل الله بِهِ خيرَ بَدَلْ إنى امرؤ مستقدِم غيرُ وَكِلْ
* مشمِّر للحربِ مَعْروف بَطَلْ *

ومن أراجيز أهل البصرة :

يأيهــا الجنــد الصليب الإيمانْ قوموا قياماً واستغيثوا الرحمنْ

(١) الأبيات فى الطبرى (٤ : ٥١٨) ، منسوبة إلى رجل يدعى الحارث من بنى ضبة ، وفى المسعودى (٢ : ٣٧٥) من غير نسبة ، مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .

(٢) بجل : حسب ؛ كذا فسره صاحب اللسان (١٣ : ٤٨) ، واستشهد بالبيت .

(٣) الشماريخ : رءوس الجبال .

(٤) قال صاحب اللسان : « نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية ؛ قيل : إنه كان يشبه عثمان رضى الله عنه ؛ هذا قول أبى عبيد . وشاتمو عثمان رضى الله عنه يسمونه نعثلا ؛ تشبيها بالرجل المصرى لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيبا غير هذا » .

(٥) قحل : مات وجف جلده . وانجدل : سقط ، وفى ج : « انجزل » ، أى انقسم قسمين .

(٦) رواية البيت فى كتاب صفين :

* لمّا حكى حكم الطواغيت الأوَلْ *

إنى أتانى خَــبَرٌ ذو ألوانْ　　أنّ عليًّا قتل ابنَ عفانْ
ردُّوا إلينا شَيْخَنا كما كانْ　　يارَبِّ وابعثْ ناصراً لعثمانْ
* يَقْتُلُهُمْ بقوَّةٍ وَسلطَانْ *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة :

أَبَتْ سُيوفُ مَذْحِجٍ وَهَمْدَانْ　　بأنْ تَرُدَّ نَعْثَلاً كَمَا كَانْ
خلقاً سويًّا بعــد خلقِ الرَّحْمَنْ　　وَقَدْ قضى بالحُكْمِ حكمِ الشَّيْطَانْ
وفارق الحــقَّ ونورَ الفُرْقَانْ　　فذَاقَ كَأْسَ المَوْتِ شُرْبَ الظَّمآنْ

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل ، قاله أهل البصرة :

يا أُمّنــا عائشُ لا تُراعى　　كلُّ بنيك بطل المِصاعِ(١)
يَنْعَى ابنَ عفان إليكِ ناعِ　　كعب بن سور كاشف القِنَاعِ
فارضىْ بنَصْرِ السيّدِ المطاع　　والأَزْدُ فيها كَرَمُ الطِّبَاعِ

ومنه قول بعضهم :

يا أُمّنا يَــكْفيكِ منّا دنــوهْ　　لن يؤخذ الدهرَ الخطامُ عَنْوَهْ
وحولكِ اليوم رجالُ شَنْوَهْ　　وحىّ هَمْــدانَ رِجَالُ الْهَبْوَهْ(٢)
والمالكيوّن القليلو الكَبْوَهْ　　والأزدُ حَىٌّ ليس فيهمْ نَبْوَهْ

قالوا : وخرجَ من أهل البصرة شيخ صَبيحُ الوجه ، نبيل ، عليه جُبّة وَشْيٍ ، يحضّ الناس على الحرب ، ويقول :

يامَعْشَرَ الأَزْدِ عليــكُمْ أمّــكُمْ　　فإنّهـــا صلاتُــكُمْ وَصَوْمُــكُمْ
والحُرْمَةُ العُظْمى الّتى تَعُمُّــكُمْ　　فأحضروها جِدّكُمْ وَحَزْمَــكُمْ

---

(١) المصاع : الجلاد والضراب . (٢) الهبوة : الغبرة ؛ يريد ماينتاثر فى المعارك من الغبار والتراب ، ومن ملاحظات الأستاذ جاسم : « يلزم أن يكون بدلا من حى همــدان اسم آخر إذ لم يوجد فى ذلك العهد من همدان أحد بالبصرة » ، والمثبت ما فى الأصول .

لَا يَغْلِبَنَّ سُمُّ العـدوِّ سُمَّكُمْ ... إن العَدوّ إن عَلَاكُمْ زَمَّكُمْ
وَخَصَّكم بجـوْرِه وَعَمَّكُمْ ... لا تُفضحوا اليوم فداكم قَوْمكُمْ

قال المدائنيّ والواقدى : وهذا الرَّجَز يصدّق الرواية أن الزبير وطلْحة قاما فى الناس ، فقالا : إنّ عليًّا إن يظفر فهو فناؤكم يا أهل البصرة ، فاحموا حقيقتكم ، فإنه لا يُبْقى حُرْمة إلا انتهكها ، ولا حريماً إلا هتكه ، ولا ذرِّية إلا قتلها ، ولا ذواتِ خِدْرٍ إلّا سَباهُنّ ، فقاتلوا مقاتلةَ مَنْ يحمى عن حريمه ، ويختار الموت على الفضيحة يراها فى أهله .

وقال أبو مِخْنَف : لم يقل أحد من رُجّاز البصرة قولا كان أحبّ إلى أهل الجمل من قول هذا الشيخ ، استقتل الناس عند قوله ، وثبتوا حول الجمل ؛ وانتدبوا ، فخرج عوف بن قَطَن الضَّبيُّ ؛ وهو ينادى : ليس لعثمان ثأر إلا علىّ بن أبى طالب وولده ، فأخذ خِطام الجمل ، وقال :

يا أمُّ يا أمُّ خَـلَا مِنِّى الوَطَنْ ... لا أبتغى القبْرَ ولا أبغى الكَفَنْ
من ها هنا محشر عوفِ بن قَطَنْ ... إن فاتنا اليوم علىّ فالْغَبَنْ
أو فاتَنَا ابناهُ حسين وحسنْ ... إذاً أُمُتْ بطول همٍّ وَحَزَنْ

ثم تقدم ، فضرب بسيفه حتى قتل .

وتناول عبد الله بن أبْزى خِطام الجمل ، وكان كلّ من أراد الجدّ فى الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدّم إلى الجمـل فيأخذ بخِطامه ، ثم شدّ على عسكر علىّ عليه السلام ، وقال :

أضرِبُهُمْ وَلَا أَرَى أبا حَسَنْ ... ها إنّ هذا حَزَنٌ مِنَ الحَزَنْ

فشدّ عليه علىّ أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله ، وقال : قد رأيت أبا حسن ، فكيف رأيته ! وترك الرمح فيه .

وأخذت عائشة كفًّا من حصًى ، فحصَبَتْ بهأصحابَ علىّ عليه السلام ،وصاحت بأعلى صوتها :شاهت الوجوه ! كما صنع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يومَ حُنَين ، فقال لها قائل : ومارميتِ إذْ رَمَيْتِ ولـكنّ الشيطان(١) رمى. وزحف علىّ عليه السلام نحو(٢) الجمل بنفسه فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار،وحوله بنوه : حسن وحسين ومحمد عليهم السلام، ودفَع الراية إلى محمد، وقال: أقْدِم بها حتى تركُزها فى عين(٣) الجمل،ولا تقفنّ دونه. فتقدّم محمد ؛ فرَشَقَتْه السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفَد سهامُهم ، فلم يبق لهم إلّا رَشْقة أو رَشقتان. فأنفذا إليه علىّ عليه السلام إليه يستحثّه ، ويأمرُه بالمناجزة ، فلمّا أبطأ عليه جاء بنفسه من خَلْفه ،فوضع يده اليسرى على مَنْـكِبه الأيمن ، وقال له : أقدِمْ لا أمّ لك ! فـكان محمد رضى الله عنه إذا ذكر ذلك بعدُ يبكى ، ويقول : لـكأنّى أجد ريحَ نفَسِه فى قفاى ، والله لا أنسى أبداً . ثم أدركتْ عليًّا عليه السلام رِقّة على ولده ، فتناول الرايةَ منه بيده اليسرى ،وذو الفقَار مشهور فى يُمْنى يَديه ، ثم حمل فغاص فى عسكر الجمل ، ثم رجع وقد انحنَى سيفُه ، فأقامه بركبته . فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمّار : نحن نـكفيك ياأمير المؤمنين . فلم يجب أحداً منهم ولا ردَّ إليهم بصرَه ؛ وظل ينحَطُ(٤) ويزأر زئيرَ الأسد ، حتى فَرق(٥) مَنْ حوله . وتبادروه ؛ وإنّه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة، لا يبصر مَنْ حوله ، ولا يردُّ حِوارا ، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قُدُماً قُدُماً ، والرجال تفرّ من بين يديه ، وتنحاز عنه يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، حتى خَضَبَ الأرضَ بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفُه ، فأقامه بركبته ، فاعصوصَب(٦) به أصحابُه ، وناشدوه الله فى نفسه وفى الإسلام،وقالوا :إنّك إن تُصَبْ يذهب الدين ، فأمسِك ونحن نـكفيك. فقال :والله ماأريد بما ترون إلاّ وجه الله والدار الآخرة. ثم قال لمحمد ابنه :هكذا تصنع يابن الحنفيّة ، فقال الناس : مَن الذى يستطيع ما تستطيعه ياأمير المؤمنين !

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « ولـكن الله » . (٢) ا : « يوم » . (٣) ا : « عجز » .
(٤) ينحط : يزفر . (٥) فرق ، من باب تعب ؛ أى خاف . (٦) اعصوصبوا به : استجمعوا والتفوا حوله

ومن كلماته الفصيحة عليه السلام فى يوم الجمل ، مارواه الكلبىّ عن رجل من الأنصار قال : بينا أنا واقف فى أوّل الصفوف يوم الجمل ؛ إذ جاء علىّ عليه السلام فانحرفتُ إليه فقال : أين مَثْرَى القوم ؟ فقلت : هاهنا ــ نحو عائشة .

قال الكلبىّ : يريد أينَ عددهُم ؟ وأين جمهورهم وكثرتهم ؟ والمال الثرىّ على «فعيل» هو الكثير ، ومنه رجل ثَرْوَان ، وامرأة ثروَى ، وتصغيرها ثُرَيًّا . والصدقة مثراة للمال ، أى مكثِّرة له .

* * *

قال أبو مخْنَف : وبعث علىّ عليه السلام إلى الأشتر : أن احمِلْ على ميسرتهمْ ، فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقُتل هلال ؛ قتله الأشتر ؛ فمالت الميسرة إلى عائشةَ فلاذوا بها ، وعظْمهم بنو ضَبّة وبنو عَدِىّ ، ثم عطفت الأزْد وضَبّة وناجية وباهلة إلى الجمل ، فأحاطوا به ، واقتتل الناس حوله قتالا شديداً ، وقُتِل كعب بن سور قاضى البصرة ، جاءه سهم[1] غَرْب فقتله وخِطام الجمل فى يده ، ثم قُتل عمرو بن يثربىّ الضبّىّ[2] ، وكان فارسَ أصحاَب الجمل وشجعاَءهم ، بعد أن قتل كثيراً من أصحاب علىّ عليه السلام .

قالوا : كان عَمْرو أخذ بخِطام الجمل ، فدفعه إلى ابنه ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه عِلباء بن الهيثم السّدوسىّ ، فقتله عمرو ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه هند بن عمرو الجملىّ[3] فقتله عمرو ، ثم دعا إلى البراز ، فقال زيد بن صُوحان العبدِىّ لعلىّ عليه السلام : ياأميرَ المؤمنين ، إنّى رأيت يدا أشرفت علىّ من السماء وهى تقول : هلمّ إلينا ، وأنا خارج إلى

(١) يقال : أصابه سهم غرب (بفتحتين) وغرب (بفتح فسكون) ، إذا كان لا يدرى من رماه ؛ وقيل : إذا أتاه من حيث لايدرى . اللسان ٢ : ١٣٣ .

(٢) عمرو بن يثربى ، كان من رءوس ضبة فى الجاهلية ، ثم أسلم ، واستقضاه عثمان على البصرة . الإصابة ٥ : ١٢٠ ، والاشتقاق ٤١٣ .

(٣) هو هند بن عمرو الجملى ، نسبة إلى جمل بن سعد العشيرة ، حى من مذحج . الاشتقاق ٤١٣ .

ابن يثربيّ ، فإذا قتلني فادفنّي بدمي ولا تُغسِّلْنِي ، فإني مخاصم عند ربّي . ثم خرج فقتله عمرو ، ثم رجع إلى خِطام الجمل مرتجزا يقول :

أرْدَيْتُ عِلباءَ وهِنْـدا في طَلَقْ ... ثم ابنَ صُوحان خَضيباً في عَلَقْ[1]

قَدْ سَبَقَ اليوْمَ لنا ماقد سَبَقْ ... والوِتْرُ مِنَّا في عديّ ذي الفَرَقْ

والأشترالغاوي وعمرو بن الحَمِق[2] ... والفارس المُعْلِم في الحرْبِ الحَنِقْ

ذاك الذي في الحادثات لم يُطَقْ ... أعني عليًّا ليتـه فِيناَ مِزَقْ

قال : قوله : «والوتْر منا في عديّ» يعني عديّ بن حاتم الطائيّ، وكان من أشدّ الناس على عثمانَ ، ومن أشدّهم جهادا مع عليّ عليه السلام . ثم ترك ابنُ يثربيّ الخطام، وخرج يطلب المبارزة ، فاختُلف في قاتله ، فقال قوم : إن عمّار بن ياسر خرج إليـه والناس يسترجعون له ، لأنه كان أضعفَ مَنْ برز إليه يومئذ . أقصرُهم سيفاً ، وأقصفُهم رمحاً ، وأحمشُهم[3] ساقاً ، حمالة سيفه من نِسْعة[4] الرَّحْل ، وذُباب سيفه[5] قريب من إبطه. فاختلفا ضربتين، فنشب سيف ابن يثربيّ في حَجَفَة[6] عمّار ، فضربه عمّار على رأسه فصرعه، ثم أخذ برجله يسحبه حتى انتهى به إلى عليّ عليه السلام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين، اسْتَبْقِني أجاهد بين يديك ، وأقتل منهم مثل ماقتلتُ منكم. فقال له عليّ عليه السلام : أبعْد زيد وهند وعلباء أستبقيك ! لاها الله إذاً ! قال : فأدنِني منك أسارّك ، قال له : أنت متمرّد، وقد أخبرني رسول الله صلى الله عليـه وآله بالمتمرّدين ، وذكَرك فيهم . فقـال : أما والله لو وصلتُ إليكَ لعضضتُ أنفَكَ عضّةً أبَنْتُه منك .

فأمر به عليّ عليه السلام فضرِبَتْ عنقه .

---

(١) الطلق : الشوط ، والعلق : الدم .

(٢) عمرو بن الحمق ، يعرف بالكاهن ، صحب الرسول عليه السلام وشهد المشاهد مع علي ، وقتله معاوية بالجزيرة ، وكان رأسه أول رأس صاب في الإسلام . الاشتقاق ٤٧٤ .

(٣) أحمش الساقين : دقيقهما .

(٤) النسع : سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال ؛ والقطعة منه نسعة .

(٥) الذباب : حد السيف ، أو طرفه المتطرف .

(٦) الحجفة : واحدة الحجف ، وهي التروس من جلد أو خشب .

وقال قوم : إن عمراً لما قَتَل مَنْ قَتل، وأراد أن يخرج لطلب البراز ، قال للأَزْد: يامعشر الأزد ، إنّكم قوم لكم حياء و بأس، وإنى قد وَتَرْت القوم ، وهم قاتلىّ، وهذه أمّكم نَصْرُها دَيْن ، وخِذْلانها عقوق ، ولست أخشى أن أقتل حتى أصرَع، فإن صرعت فاستنقذونى. فقالت له الأَزْد : مافى هذا الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشتر ، قال : فإياه أخاف .

قال أبو مِخنف : فقيّضه الله له ، وقد أعْلما جميعا ، فارتجز الأشتر :

إنّى إذا ما الحربُ أبدتْ نابَها   وأغْلَقَتْ يومَ الوغَى أبوابَها
ومَزّقَتْ من حَنَقٍ أثوابَها   كنّا قُدَاماها ولا أذنابَها[1]
ليس العدوُّ دوننا أصحابَها   مَنْ هابها اليوم فلن أهابَها
* لا طعنَها أخشى ولا ضِرَابَها *

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه، وحامت عنه الأَزْد فاستنقذوه، فوثب وهو وقِيذٌ ثقيل[2]، فلم يستطع أن يدفَع عن نفسه ، واستعرضه عبدُ الرحمن بن طود البكرىّ ، فطعنه فصرعه ثانية ، ووثب عليه رجل من سَدوس، فأخذه مسحوباً برجله حتى أتى به عليًّا عليه السلام، فناشده الله وقال : يا أميرَ المؤمنين ، اعفُ عَنِّى ، فإنّ العرب لم تزل قائلةً عنك : إنك لم تُجْهِزْ على جريح قَطّ . فأطلقه، وقال : اذهبْ حيث شئت ، فجاء إلى أصحابه وهو لما به. حضره الموت ، فقالوا له : دمُك عند أىّ الناس ؟ فقال : أما الأشتر فلَقيَنى وأنا كالمُهر الأَرِن[3] ، فعلا حدُّه حَدِّى ، ولقيت رجلا يبتغى له عشرة أمثالى . وأما البكرىّ فلقيَنى ، وأنا لمابى ، وكان يبتغى لى عشرة أمثاله ، وتولّى أسرِى أضعفُ القوم ، وصاحبى الأشتر .

قال أبو مِخْنف: فلمّا انكشفت الحرب، شكرت ابنةُ عمرو بن يثربىّ الأَزْد، وعابت قومها ، فقالت :

---

(١) قدامى الجيش : مقدمه .
(٢) الوقيذ : الجريح المشرف على الموت .
(٣) الأرن : النشيط .

يَا ضَبُّ إنّكِ قدْ فُجِعْتِ بفارسٍ حَامى الحقيقةِ قاتِلِ الأقْرانِ
عمرو بن يثربيٍ الّذى فُجعتْ به كلّ القبائل من بنى عَدْنانِ
لم يَحْمِه وسط العَجاجَة قومُــه وَحَنَتْ عليهِ الأزد ، أزْد عُمانِ
فلهمْ علىّ بذاكَ حِذثُ نعمةٍ ولُحبِّهمْ أحببتُ كلّ يمانِ
لَوْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْ مَنيَّةِ هَالِكٍ طولُ الأكُفِّ بذابِلِ المُرّانِ
أو معشرٌ وصلوا الُخطَا بسيوفهمْ وَسطَ العَجَاجَة والحتوفُ دَوانِ
مَا نيلَ عَمْرٌ والحوادث جَمّــةٌ حتى يُنَــــال النجم والقمرانِ
لو غَــــيرُ الأشتَرِ نَالَهُ لندبتُهُ وبكيتُهُ ما دامَ هَضْبُ أبانِ[1]
لَــكِنّه مَنْ لَا يُعَابُ بِقَتْــله أسد الأسود وفارسُ الفُرْسَانِ

قال أبو مخْنف : وبَلغنا أنّ عبد الرحمن بن طود البـكرىّ قال لقومه : أنا والله قتلت عمْرا ، وإنّ الأشتر كان بَعْدِى وأنا أمامه فى الصعاليك ، فطعنت عمرا طعنة لم أحسب أنها تُجعل للأشتر دونى ، وإنّما الأشْتر ذو حظٍّ فى الحرب ، وإنّه ليعلم أنه كان خَلْفِى ، ولـكن أَبى الناس إلا أنّه صاحبه ، ولا أرى أن أكون خصم العامة ، وإنّ الأشتر لأهْلٌ ألّا ينازَع . فلما بلغ الأشترَ قولُه قال : أما والله لولا أنى أطفأت جَمْرَته عنه ما دنا منه ، وما صاحبه غيرى ، وإنّ الصَّيْد لمن وَقَذه . فقال عبد الرحمن : لا أنازِع فيه ، ما القول إلا ما قاله ، وأنّى لى أن أخالف الناس !

* * *

قال : وخرج عبد الله بن خلَف الُخزاعىّ ، وهو رئيس البصرة ، وأكثر أهلها مالا وضياعا ، فطلب البراز ، وسأل ألّا يخرج إليه إلا علىّ عليه السلام ، وارتجز فقال :

أبا تُرابٍ أُدْنُ منّى فِتْرَا[2] فإنّنى دانٍ إليك شِـــبْرَا
* وإنّ فى صَدْرِى عليك غِمْرَا[3] *

(١) أبان : من أسماء الجبال عندهم .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب «ياباتراب» .
(٣) الغمر : الحقد والعداوة .

فخرج إليه علىّ عليه السلام ، فلم يُمهِله أن ضَرَبه ، ففلق هامته .

* * *

قالوا : استدار الجملُ كما تدور الرّحا ، وتكاثفت الرجال من حوله ، واشتد رُغاؤه ، واشتدّ زحام الناس عليه ، ونادى الُحتات المجاشعىّ : أيها الناس ، أمّكم أمّكم ! واختلط الناس فضرب بعضُهم بعضا ، وتقصّد أهلُ الكوفَة قصْد الجمل ؛ والرجال دونه كالجبال ، كلّما خفّ قوم جاء أضعافهم . فنادى علىّ عليه السلام : ويحكم ! ارْشُقوا الجمل بالنَّبْل ، اعقِروه لعنه الله ! فرُشِق بالسهام ، فلم يبْقَ فيه موضع إلا أصابه النَّبْل ، وكان مجفّفاً (١) فتعلَّقت السهام به ، فصار كالقنفذ ، ونادت الأَزْد وضَبّة : يالثارات عثمان ! فاتّخذوها شعارا ، ونادى أصحاب علىّ عليه السلام : يامحمد ! فاتخذوها شعارا ، واختلط الفريقان ؛ ونادى علىّ عليه السلام بشعار رسول الله صلى الله عليه وآله : يا منصور أمِتْ(٢) . وهذا فى اليوم الثانى من أيام الجمل ، فلما دعا بها تزلزلت أقدامُ القوم ، وذلك وقت العصر ، بعد أن كانت الحرب من وقت الفجر .

قال الواقدىّ : وقد رُوِىَ أن شعاره عليه السلام كان فى ذلك اليوم « حم لا ينصرون . اللهم انصرنا على القوم الناكثين » ثم تحاجز الفريقان ، والقَتْل فاشٍ فيهما ، إلّا أنّه فى أهل البصرة أكثر ، وأمارات النصر لائحة لعسكر الكوفة ، ثم تواقفوا فى اليوم الثالث ، فبرز أوّلَ الناس عبد الله بن الزبير ، ودعا إلى المبارزة ، فبرز إليه الأشتر ، فقالت عائشة : مَنْ برز إلى عبد الله ؟ قالوا : الأشتر ، فقالت : وَاثُكْلَ أسماء ! فضربَ كلٌّ منهما صاحبَه فجرحه ، ثم اعتنقا ، فصرع الأشتر عبدَ الله ، وقعدَ على صدره ، واختلط الفريقان : هؤلاء لينقذوا عبد الله ، وهؤلاء ليُعينوا الأشتر . وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام

---

(١) كان مجففا ، أى ألبس التجفاف ، وهو آلة الحرب توضع على الفرس .

(٢) هو أمر بالموت ، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة ، مع حصول الغرض (النهاية لابن الأثير) .

لم يَطْعَم ـ وهذه عادته فى الحرب ـ وكان أيضاً شيخاً عالىَ السنّ ، فجعل عبد الله ينادى :

* اقتلونى ومالِـكا (١) *

فلو قال : « اقتلونى والأشتر » لقتلوهما ، إلا أنّ أكثرَ من كان يمرّ بهما لا يعرفهما؛ لكثرة مَنْ وقع فى المعركة صَرْعى بعضُهم فوق بعض ، وأفلت ابن الزبير مِنْ تحته ولم يكد ، فذلك قول الأشتر :

أعَائشُ لولا أننى كُنْتُ طَاوِياً ثلاثاً لألْفَيتِ ابنَ أُخْتِكِ هَالِـكَا

غَـداة ينادى والرِّجالُ تحوزهُ بأضعفِ صوت: اُقتلُونى ومالكا!

فَلَمْ يعرِفُوه إذ دعاهم وغَمَّهُ خِدَبٌّ عليـه فى العَجَاجَة بارِكا (٢)

فنجّاه مـــنّى أَكلُه وشبابه وأنّىَ شَيْخٌ لم أكن متماسكا

* * *

وروى أبو مخْنف عن الأصبغ بن نُباتة، قال: دخل عمّار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشتر على عائشة بعـد انقضاء أمر الجمـل ، فقالت عائشة : ياعمّار ، مَنْ معك ؟ قال : الأشتر . فقالت : يامالك ، أنتَ الذى صنعتَ بابن أختى ما صنعت ؟ قال : نعم ، ولولا أنّى كنت طاويا ثلاثة أيام لأرَحْتُ أمة محمد منه ، فقالت : أما علمتَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلّ دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمـان ، أو زنًا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق » ! فقال الأشتر : عَلَى بعض هذه الثلاثة قاتلناه ياأمّ المؤمنين ، وأيمُ الله ماخانني سيفى قبلها ، ولقد أقسمت ألّا يصحبَنى بعدها .

قال أبو مخنف : فى ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذى ذكرناه :

وَقَالَتْ على أىّ الخصال صرعْتَه بقتلٍ أتى ، أم رِدَّةٍ لا أبَا لَـكَا !

أم المحصَن الزّانى الذى حَلّ قتلُه فقلت لها لابُدّ من بعض ذلـكا

* * *

---

(١) بقيته : * واُقتُلُوا مَالِـكاً مَعِى *

وانظر المسعودى ٢ : ٣٧٦

(٢) الخدب : الضخم .

قال أبو مِخنف : وانتهى الحارث بن زهير الأزدىّ من أصحاب علىّ عليه السلام إلى الجمل ، ورجل [1] آخذ بخِطامه ، لا يدنو منه أحد إلا قتله ، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز ، فقال لعائشة :

يا أمَّنا أعقّ أمٍّ نَعْلَمُ [2] والأمّ تغذو وُلْدَهاوَترْحَمُ
أما ترين كم شجاعٍ يُكْلَمُ ! وتُخْتَلَى هَامتُه والمِعصمُ ! [3]

فاختلف هو والرجل ضربتين ، فكلاهما أثخن صاحبه .

قال جندب بن عبد الله الأزدىّ : فجئت حتى وقفت عليهما وهما يفحصان بأرجلهما حتى ماتا . قال : فأتيتُ عائشة بعد ذلك أسلّم عليها بالمدينة ، فقالت : مَنْ أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قالت : هل شَهِدْتَنا يوم البصرة ؟ قلت : نعم ، قالت : مع أىّ الفريقين ؟ قلت : مع علىّ ، قالت : هل سمعتَ مقالة الذى قال :

* يا أمّنا أعقّ أمٍّ نَعْلَمُ *

قلت : نعم ، وأعرفه ، قالت : ومن هو ؟ قلت : ابن عمّ لى ، قالت : ومافعل؟قلت: قُتِل عند الجمل ، وقُتِل قاتله ، قال : فبكت حتى ظننت والله أنها لا تسكت ، ثم قالت : لوددت والله أننى كنت مِتّ قبل ذلك اليوم بعشرين سنة .

قالوا : وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بخبّاب بن عمرو الراسبىّ ، فارتجز فقال:

أضْرِبُهُمْ وَلوْ أرى عَليّا عَمّمْتُه أبيضَ مَشْرَفِيّا
* أريح منه مَعْشَراً غويّا *

فصمد عليه الأشتر فقتله .

ثم تقدّم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس وهو

(١) هو عمرو بن الأشرف . الطبرى ٥ : ٢١١ .
(٢) ذكر الطبرى رواية أخرى فى هذا الرجز :
* يا أمّنا ياخَيْرَ أمٍّ نَعْلَمُ *
(٣) تختلى : تقطع .

من أشراف قريش ـ وكان اسم سيفه « ولول » ـ فارتجز ، فقال :

أَنَا ابْنُ عَتَّابٍ وَسَيْفِي وَلْوَلْ   والموتُ دون الْجَمَلِ المجلَّلْ[(١)]

فحمل عليه الأشتر فقتله . ثم خرج عبد الله بن حكيم بن حزام من بنى أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ ، من أشراف قريش أيضاً ، فارتجز وطلب المبارزة ، فخرج إليه الأشتر فضربه على رأسه فصرعه ، ثم قام فنجا بنفسه .

قالوا : وأخذ خِطام الجمل سبعون من قريش ، قُتلوا كلّهم ، ولم يكن يأخذ بخِطام الجمل أحدٌ إلا سالت نفسه ، أوقطعت يده . وجاءت بنو ناجية فأخذوا بخِطام الجمل ، ولم يكنْ يأخذ الخطامَ أحد إلا سألت عائشة : من هذا ؟ فسألت عنهم ، فقيل : بنو ناجية ؛ فقالت عائشة : صبراً يابنِي ناجية ، فإنى أعرف فيكم شمائل قريش . قالوا : وبنو ناجية مطعون فى نسبهم[(٢)] إلى قريش[(٢)] ، فقتلوا حولها جميعا .

قال أبو مخنف : وحدثنا إسحاق بن راشد عن عبد الله بن الزبير ، قال : أمسيتُ يوم الجمل وبى سبعة وثلاثون جُرحا ، من ضربة وطعنة ورَمْية ، وما رأيتُ مثلَ يوم الجمل قط ، ما كان الفريقان إلّا كالجبلين لا يزولان .

قال أبو مخنف : وقام رجل إلى علىّ عليه السلام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أىّ فتنة أعظم من هذه ؟ إن البَدْرِيّة لتمشى بعضها إلى بعض بالسيف ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك ! أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها ! والّذى بعث محمدا بالحق وكرّم وجهه ، ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتَ ، ولا ضَلَلْتُ ولا ضُلَّ بى ، ولا زَلَلْتُ ولا زُلّ بى ، وإنى لَعلى بيّنة من رَبّى ، بيّنها الله لرسوله ، وبيّنها رسوله لى ، وسأُدْعَى يوم القيامة ولا ذَنْب لى ، ولو كان لى ذنب لكَفّر عنى ذنوبى ما أنا فيه من قتالهم .

قال أبو مخنف : وحدّثنا مسلم الأعور عن حَبّة العُرَنىّ قال : فلما رأى علىّ عليه السلام

---

(١) ب : « عند الجمل » .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب .

أن الموتَ عند الجمل ، وأنه مادام قائماً فالحرب لا تُطفأ ، وضع سيفه على عاتقه ، وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، ومشى نحوه والخطام مع بنى ضبّة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، واستحرّ القتلُ فى بنى ضَبّة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخَلَص علىّ عليه السلام فى جماعة من النَّخَع وهَمْدان إلى الجمل ، فقال ارجل من النَّخَع اسمه بُجَير : دونَك الجمل يابُجير ، فضرب عَجُزالجمل بسيفه فوقع لجنبه ، وضرب بجِرانه الأرض ، وعجّ عجيجا لم يُسْمع بأشدّ منه ، فما هو إلا أنْ صُرِع الجمل حتى فرّت الرجال كما يطير الجراد فى الريح الشديدة الهبوب ، واحتُملتْ عائشة بهودجها ، فحُملتْ إلى دار عبد الله بن خلَف ، وأمر علىّ عليه السلام بالجمل أنْ يُحرَق ثم يذرّى فى الريح . وقال عليه السلام : لعنه الله من دابّة ! فما أشبَهه بعجل بنى إسرائيل ، ثم قرأ : ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[1] .

(١٤)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك :

أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ ٱلْمَاءِ ، بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ . خَفَّتْ عُقُولُكُمْ ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ ؛ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ ، وفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ .

* * *

الشرحُ :

الغَرَض : ما يُنصَب ليُرمى بالسهام . والنّابل : ذو النَّبْل . والأُكْلة ، بضم الهمزة : المأكول . وفريسة الأسد : ما يفترسه .

وسَفِه فلان ، بالكسر ، أى صار سفيها ، وسَفُه بالضم أيضا . فإذا قلت : سَفِه فلان رأيَه أو حلمَه أو نفسَه ، لم تقل إلا بالكسر ، لأنّ « فَعُل » بالضم لا يتعدّى . وقولهم : سَفِه فلان نفسَه ، وغَبِن رأيَهُ ، وبَطِر عيشَه ، وأَلِمَ بطنَه ، ورفِق حالَه ، ورَشِد أمرَه ، كان الأصل فيه كله : سَفِهَتْ نفس زيد فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بالمفعوليّة . هذا مذهب البصريين والكسائىّ من الكوفيين .

وقال الفرّاء : لما حُوّل الفعل إلى الرجل خرج ما بعده مفسّرا ليدلّ على أن السفاهة فيه ، وكان حكمه أن يكون : سَفِه زيدٌ نفسا ، لأنّ المفسّر لا يكون إلّا نكرة ، ولكنه ترك على إضافته ، ونُصِب كنصب النكرة ، تشبيها بها .

ويجوز عند البصريين والكسائىّ تقديمُ المنصوب ، كما يجوز : ضرب غلامَه زيدٌ ، وعند الفرّاء لا يجوز تقديمه ، لأن المفسّر لا يتقدّم[1] .

(١) الصحاح ٦ : ٢٢٣٥

فأمّا قوله : « أرضُكم قريبة من الماء ، بعيدة من السماء » فقد قدّمنا[1] معنى قوله « قريبة من الماء » وذكرنا غَرَقها من بحر فارس دَفْعتين ، ومراده عليه السلام بقوله : « قريبة من الماء » ، أى قريبة من الغَرَق بالماء . وأما « بعيدة من السماء » ؛ فإنّ أربابَ علم الهيئة وصناعة التّنجيم يذكرون أنّ أبعدَ موضع فى الأرض عن السماء الأُبُلّة[2] ، وذلك موافق لقوله عليه السلام .

ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدّل النهار والبقاع ، والبلاد تختلف فى ذلك . وقد دلّت الأرصاد والآلات النّجُوميّة على أنّ أبعد موضع فى المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الأُبُلّة ، والأبلّة هى قصبة البصرة .

وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السّلام ، لأنّه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب ، ولا تهتدى إليه ، وهو مخصوص بالمدقّقين من الحكماء . وهذا من أسراره وغرائبه البديعة .

---

(١) ص ٢٥٣ من هذا الجزء .

(٢) الأبلة بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى ، فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ؛ وهى أقدم من البصرة . مراصد الاطلاع ١ : ١٨ .

(١٥)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان رضى الله عنه :

وَٱللهِ لَوْ وَجَدْتُه قدْ تُزُوِّجَ بِهِ النساء ، وَمُلِكَ بِهِ ٱلْإِمَاء ؛ لَرَدَدْتُه ؛ فَإِنَّ فِي ٱلْعَدْلِ سَعَةً . وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ ٱلْعَدْلُ ، فَٱلْجَوْرُ عليهِ أَضْيَقُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

القطائع : ما يُقطِعه الإمام بعضَ الرعيّة من أرض بيت المال ذاتِ الخراج ، ويُسقِط عنه خراجَه ، ويجعلُ عليه ضريبة يسيرة عوضا عن الخراج . وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى أميّة وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائعَ من أرض الخراج على هذه الصورة ، وقد كان عمرُ أقطع قطائع ؛ ولكن لأربابِ الغَناء فى الحرب والآثار المشهورة فى الجهاد ؛ فعلَ ذلك ثمناً عمّا بذلوه من مُهَجِهم فى طاعة الله سبحانه ، وعثمان أقطع القطائع صلةً لِرَحِمِه ، وميلا إلى أصحابه ، عن غير عناء فى الحرب ولا أثر .

وهذه الخطبة ذَكَرَها الكلبيّ مرويّةً مرفوعةً إلى أبى صالح ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنّ عليا عليه السلام خَطب فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينة ، فقال :

ألا إنّ كلّ قطيعَةٍ أقطعها عُثْمان ، وكلّ مال أعْطَاهُ من مال الله ، فهو مَرْدود فى بيت المال ، فإنّ الحقَّ القديم لا يُبطله شىء ، ولو وجدتُه وقد [١] تُزُوِّج به النساء ، وفُرّق فى البلدان ، لرددته إلى حاله [٢] ؛ فإنَّ فى العدل سعة ، ومَنْ ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق .

---

(١) ب : « قد » .

(٢) ب : « على حاله » .

وتفسيرُ هذا الكلام أنّ الواليَ إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره فى العدل ، فهى فى الجوْر أضيق عليه ؛ لأنّ الجائر فى مَظِنّة أن يُمْنع ويُصَدّ عن جوره .

***

قال الكلبىّ : ثم أمر عليه السلام بكلّ سلاح وُجِد لعثمان فى داره مما تقوّى به على المسلمين فقبض ، وأمر بقبْض نجائب كانت فى داره من إبل الصدقة ، فقبضت ، وأمر بقبض سيفه ودرعه ، وأمَر ألّا يعرض لسلاح وُجد له لم يقاتل به المسلمون ، وبالكفّ عن جميع أمواله التّى وجدت فى داره وفى غير داره ، وأمر أن ترْتجع الأموال التى أجاز بها عثمان حيث أُصيبت أو أصيب أصحابها .

فبلغ ذلك عمْرو بن العاص ، وكان بأيْلة من أرض الشام ، أتاها حيث وثب الناس على عثمان ، فنزلها فكتب إلى معاوية : ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قَشَرك ابن أبى طالب من كلّ مال تملكه كما تُقْشَر عن العصا لِحاها .

وقال الوليد بن عُقْبة — وهو أخو عثمان من أمه — يذكر قبضَ علىٍّ عليه السلام نجائبَ عثمان وسيفَه وسلاحه (١) :

بَنِى هاشمٍ رُدُّوا سلاح ابنِ أُختِكُمْ ... وَلَا تَنْهبُوه لا تَحِلُّ مَنَاهِبُهْ
بَنِى هاشمٍ كيف الهوادةُ بيننَا ... وعِنْدَ علىٍّ دِرْعُهُ وَنجَائبُهْ !
بَنِى هاشمٍ كيف التّودّدُ مِنْكُمُ ... وَبَزُّ ابنِ أرْوَى فيكُمُ وحَرائبُهْ ! (٢)
بنى هاشم إلّا تردُّوا فإنّنا ... سواء علينا قاتلاه وسالبُه
بنى هاشم إنّا وما كان مِنْكُمُ ... كصَدْعِ الصّفا لا يشعَب الصّدْعَ شاعِبُهْ
قَتَلْتُمْ أخِى كَيْما تكُونُوا مَكانَهُ ... كما غَدرتْ يوماً بِكِسْرَى مَرَازِبُهْ (٣)

(١) الأبيات فى المسعودى ٢ : ٣٥٦ ؛ والأغانى ٤ : ١٧٥ (ساسى) ، والكامل ٣ : ٢٨ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

(٢) البز : متاع البيت من الثياب . والحرائب : جمع حريبة ؛ وهو مال الرجل الذى يقوم به أمره ؛ ورواية البيت فى المسعودى :

بَنِى هاشمٍ كَيْفَ الْهَوَادَةُ بَيْنَنَا ... وَسَيْفُ ابْنِ أَرْوَى عِنْدَكُمْ وَحَرائِبُهْ

(٣) رواية المسعودى :

* غَدَرْتُمْ بِهِ كَيْمَا تَكُونُوا مَكَانَهُ *

فأجابه عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بأبيات طويلة[١] من جملتها:

فَلَا تَسْأَلُونا سَيْفَكُمْ إنَّ سَيْفَكُمْ أُضِيعِ وألْقاهُ لدَى الرَّوْعِ صاحِبُهْ
وَشَبَّهْتَه بِكِسرَى وقد كان مثله شبيها بكِسْرى هَدْيُه وَضَرَائِبُهْ

أى كان كافرا كما كان كسرى كافرا.

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشعر[٢] يقول: لعن الله الوليد! هو الذى فَرّق بين بنى عبد مناف بهذا الشعر!

---

(١) نسبها المسعودى وصاحب الأغانى إلى الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب.
(٢) ب: «البيت».

(١٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام لما بويع بالمدينة :

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ . إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ . أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ[(١)] . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً ، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ القِدْرِ ؛ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ ، وأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا ، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا .

وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً ، وَلَا كَذَبْتُ كِذْبَةً ، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ .

أَلَا وَإِنَّ الخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا ، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ .

أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا ، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ . حَقٌّ وَبَاطِلٌ ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ ؛ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

* * *

[(٢)] قال الرضيّ عليه السلام[٢)] : وأقول : إنَّ في هذا الكلام الأدْنَى من مواقع

(١) كذا في ا ومخطوطة النهج ، وفي ب : « نبيهم » .
(٢ ـ ٢) ساقط من ب

ٱلإِحْسَانِ مَا لا تَبْلُغُهُ مَوَاقِعُ الاسْتِحْسَانِ . وَإِنَّ حَظَّ العَجَبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَظِّ العُجْبِ بِهِ ، وَفِيهِ مَعَ الحَالِ الَّتِي وَصَفْنَا[1] زَوَائِدُ مِنَ الفَصَاحَةِ لَا يَقُومُ بِهَا لِسَانٌ ، وَلَا يَطَّلِعُ فَجَّهَا[2] إِنْسَانٌ ، وَلَا يَعْرِفُ مَا أَقُولُ إِلَّا مَنْ ضَرَبَ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ بِحَقٍّ ، وَجَرَى فِيهَا عَلَى عِرْقٍ ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ .

***

ومن هذه الخطبة :

شُغِلَ مَنِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ . سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا ، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا ، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى .

ٱلْيَمِينُ وَٱلشِّمَالُ مَضَلَّةٌ ، وَٱلطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ ٱلْجَادَّةُ ، عَلَيْهَا بَاقِي[3] ٱلْكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ ٱلسُّنَّةِ ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ ٱلْعَاقِبَةِ .

هَلَكَ مَنِ ٱدَّعَى ، وَخَابَ مَنِ ٱفْتَرَى .

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ عِنْدَ جَهَلَةِ النَّاسِ . وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ .

لَا يَهْلِكُ عَلَى ٱلتَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ ، وَلَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ ؛ فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَٱلتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلَا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَلُمْ لَائِمٌ إِلا نَفْسَهُ .

***

(١) مخطوطة النهج : « وصفناه » .

(٢) الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، وطلم الطريق : بلغه .

(٣) مخطوطة النهج : « مافى الكتاب » .

الشرح :

الذِّمّة : العقْد والعهد ، يقول : هذا الدَّيْن فى ذمّتى ، كقولك : فى عنقى ؛ وهما كناية عن الالتزام والضمان والتقلد . والزّعيم : الكفيل ، ومخرج الكلام لهم مخرج الترغيب فى سماع مايقوله ، كما يقول المهتمّ بإيضاح أمر لقوم لهم : أنا المُدْرِكُ المتقلّد بصدْق ما أقوله لكم .

وصرّحت : كشفَتْ . والعِبَر : جمع عِبْرَة ، وهى الموعظة . والمَثُلات : العقوبات . وحَجَزه : منعه .

وقوله : « لَتُبَلْبَلُنّ » أىْ لَتُخْلَطُنّ ، تبلبلت الألسن ، أى اختلطت . « ولَتُغَرْبَلُنّ » ، يجوز أن يكون من الغِرْبال الذى يُغَرْبَلُ به الدّقيق ، ويجوز أن يكون من غَرْبَلْتُ اللحم ، أى قطعته . فإنْ كان الأول كان له معنيان : أحدهما الاختلاط ، كالتَّبَلْبُل ، لأن غربلة الدقيق تخلط بعضَه ببعض . والثانى أن يريدَ بذلك أنه يستَخْلِصُ الصالح منكم من الفاسد ، ويَتَمَيّز كما يُتَمَيَّزُ الدقيق عند الغَرْبلة من نُخالته .

وتقول : ما عصيت فلاناً وَشْمة ، أى كلمة . وحِصان شَموس : يمنع ظهره ، شَمَس الفرسُ ، بالفتح ، وبه شِماس . وأَمِرَ الباطل : كَثُرَ .

وقوله : « لقديماً فعل » ، أى لقديما فعل الباطل ذلك ، ونَسَب الفعل إلى الباطل مجازا . ويجوز أن يكون « فعل » بمعنى « انفعل » كقوله[1] :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلٰهُ فَجَبَرْ *

أى فانْجَبَر . والسِّنْخ : الأصل ، وقوله : « سِنْخ أصل » كقوله[2] :

* إذا حَاصَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّوْمِ . . . *

وفى بعض الروايات : « من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس » ، والتأويل مختلف ، فمراده على الرواية الأولى — وهى الصحيحة — مَنْ كاشف الحقّ مخاصما له هَلَكَ ،

(١) مطلع أرجوزة للعجاج ، ديوانه ١٥ ، واللسان ٥ : ١٨٥ .

(٢) لتأبط شرا ، والبيت برواية أبى تمام فى الحماسة — بشرح المرزوقى ١ : ٩٧ :

إذا خاط عينيه كَرَى النوم لم يزَلْ   لَهُ كالئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ

وهى كلمة جارية مَجْرَى المثل . ومراده على الرواية : الثانية : مَنْ أبدى صفحته لنُصْرَة الحق غلَبَه أهلُ الجهل ـ لأنّهم العامّة ، وفيهم الكثرة ـ فهلك .

* * *

وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها ، قد رواها الناس كلّهم ، وفيها زيادات حذفها الرضىّ ، إمّا اختصاراً أو خوفا من إيحاش السامعين ، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " (١) على وجهها ، ورواها عن أبى عُبيدة مَعْمَر بن المُثنّى .

قال : أوّل خطبة خطبها أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بالمدينة فى خلافته (٢) حمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وآله (٢) ، ثم قال :

ألا لَا يُرْعِيَنَّ (٣) مُرْعٍ إلّا على نفسه . شُغِلَ مَنِ الجنّة والنارُ أمامه (٤) . ساعٍ مجتهد [يَنجو] (٥) ، وطالب يرجو ، ومقصِّر فى النار (٦) ؛ ثلاثة · واثنان : مَلَكٌ طار بجناحَيْه ، ونبىّ أخذ اللهُ بيده (٧) ؛ لا سادس . هَلَكَ مَن ادّعَى ، ورَدِىَ من اقتحم . (٨) اليمين والشّمال مَضَلّة ، والوسْطَى الجادّة (٩) ؛ منهج عليه باقى الكتاب والسُّنّة وآثار النبوة . إن الله داوَى هذه الأمّة بدواءَيْن : السوْط والسّيْف ؛ لا هَوَادة عند الإمام فيهما . اسْتَتِرُوا فى بيُوتكم (١٠) ، وأَصْلِحُوا ذات بينكم (١١) ، والتَّوْبةُ مِنْ وَرَائكم . من أبْدَى صفحته

(١) البيان والتبيين (٢ : ٥٠ ـ ٥٢) ، ورواها أيضا ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ : ٢٣٦) .
(٢ ـ ٢) البيان : « أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه » .
(٣) البيان : « أما بعد فلا يرعين » .
(٤) فى البيان : « فإن من أرعى على غير نفسه شغل عن الجنة والنار أمامه » .
(٥) تكملة من البيان والتبيين .
(٦) عند ابن قتيبة فى العيون : « ساع سريع نجا ، وطالب بطىء رجا ، ومقصر فى النار هوى » .
(٧) البيان والعيون : « بيديه » . (٨) البيان : « وإن اليمين » .
(٩) الجادة : الطريق الواضح .
(١٠) البيان : « استتروا ببيوتكم » ، والعيون : « فاستتروا ببيوتكم » .
(١١) البيان : « وأصلحوا فيما بينكم » .

للحقِّ هالك . قد كانتْ [لـكم] (١ أمور [مِلْتمْ فيها علىّ مَيْلَةَ] ١) لم تـكونوا عندى فيها محمودين(٢) [ولا مُصيبين](١) . أما إنّى لو أشاء لقلتُ، عفا اللهُ عمّا سلف . سبق الرّجلان وقام الثالث كالغراب هِمّتهُ بَطْنه. ويحَهُ(٣) لو قُصّ جَناحاه ، وقُطع رأسه لـكان خيرا له !

انظروا فإن أنـكرْتم فأنـكِروا ، وإنْ عرفتم فآزروا . حَقٌّ وباطل ، ولـكلٍّ أهل. ولئن أَمِرَ الباطلُ لقديماً فَعَل ، ولئن(٤) قلّ الحق لَرُبّما ولَعَلّ ، وَقَلّما أدبر شيء فأقبل(٥) . ولئن رَجَعَتْ إليكم أمورُكم إنـكم لسُعداء ، وإنى لأخشَى أن تـكونوا فى فَتْرةٍ ، وما علينا إلّا الاجتهاد .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : وقال أبو عبيدة : وزاد (٦ فيها فى رواية جعفر ابن محمد عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام ٦) :

ألا إنّ أبرار عِتْرَتى ، وأطايبَ أَرُومَتى ، أحلم الناس صغارا ، وأعلم الناس كبارا . ألَا وإنَّا أهل بيت مِنْ علْم الله علمْنا ، وبحُـكْمِ الله حَـكَمْنَا ، ومِنْ قولٍ صادق سَمِعْنا ، فإن تَتّبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ، وإنْ لم تفعلوا يُهْلِـكْـكُم اللهُ بأيدينا. ومعنا رايةُ الحق؛ مَنْ تبعها لَحِق ، ومَنْ تأخّر عنها غَرِق . ألا وبنا يُدْرَكُ تِرَةُ كل مؤمن ، وبنا تخلع رِبْقة الذلّ عن أعناقـكم(٧) وبنا فُتِح(٨) لا بكم ، ومنا يُخْتَمُ لاَ بِكُمْ .

* * *

قوله : « لا يُرْعِيَنّ » أى لا يبقِينّ ، أرعيتُ عليه ، أى أبقيت ؛ يقول : مَنْ أبقى على الناس فإنما أبقى على نفسه . والهوادة : الرفق والصلح ، وأصله اللينُ . والتهويد: المشى،

---

(١) تـكملة من البيان والتبيين .

(٢) البيان : « بمحمودين » .

(٣) البيان : « ياويحه » .

(٤) ب : « وإن » .

(٥) البيان : « ما أدبر شيء فأقبل » .

(٦ — ٦) البيان : « وروى فيها جعفر بن محمد » .

(٧) البيان : « من أعناقـكم » .

(٨) ا ، البيان : « فتح الله » .

رويدا ، وفى الحديث : «أسرعوا المشىَ فى الجنازة ولا تهوّدوا كما تهوّد أهل الكتاب ». وآزرتُ زيدا : أعنته . التِّرة : والوتر . والرِّبقة : الحبل يُجعل فى عنق الشاة . وَرِدِىَ : هلك ، من الرَّدَى ، كقولك : عَمِىَ من العَمى ، وشجِىَ من الشَّجَى .

وقولُه : «شُغِلَ مَنِ الجنة والنار أمامه » ؛ يريدُ به أنّ مَنْ كانت هاتان الداران أمامه لَفِى شُغل عن أمور الدنيا إن كان رشيدا .

وقوله : « ساعٍ مجتهد » إلى قوله : « لا سادس » كلام تقديره : المكلَّفون على خمسة أقسام : ساع مجتهد ، وطالب راجٍ ، ومقصّر هالك . ثم قال : ثلاثة ، أى فهؤلاء ثلاثة أقسام ، وهذا ينظر إلى قوله سبحانه : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ »(١) ، ثم ذكر القسمين : الرابع والخامس ، فقال : هما مَلَك طار بجناحيه ، ونبىّ أخذ الله بيده ؛ يريد عِصْمَة هذين النوعين من القبيح ، ثم قال : « لا سادس » ، أى لم يبق فى المكلّفين قسم سادس . وهذا يقتضى أنّ العِصْمة ليست إلّا للأنبياء والملائكة ، ولو كان الإمام يجب أن يكون معصوما لكان قسما سادسا ، فإذن قد شهد هذا الكلام بصحة ماتقوله المعتزلةُ فى نفى اشتراط العصمة فى الإمامة ، اللهم إلاَّ أنْ يُجعل الإمام المعصوم داخلا فى القسم الأول ، وهو الساعى المجتهد . وفيه بُعْد وَضَعْف .

وقوله : « هلك مَنِ ادّعى ، وَرَدِىَ مَنِ اقتحَم » ، يريد هلكَ منِ ادّعى وكذب ، لا بدّ من تقدير ذلك ؛ لأنّ الدعوى تعمُّ الصِّدق والكذب ، وكأنه يقول: هلكَ منِ ادّعى الإمامة ، وَرَدِى مَن اقتحمها وَوَلَجها عن غير استحقاق ؛ لأنّ كلامه عليه السلام فى هذه الخطبة ، كلُّه كنايات عن الإمامة لا عن غيرها .

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

وقوله : « اليمين والشمال » ،مثال لأنّ السالك الطريق اَلْمَنْهَجَ اللاحب ناجٍ ،والعادل عنها يميناً وشمالا مُعرَّض للخطر .

ونحو هذا الكلام ماروِى عن عمر ،أنّه لما صدر عن مِنًى فى السنة التى قتل فيها، كَوَّم كَوْمةً من البَطْحَاء [١] فقام عليها ، فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ، قد سُنّت لكم السّنن ، وفُرضت لكم الفرائض ،وتُرِكْتُم على الواضحة ، إلّا أن تميلوا بالناس يمينا وشمالا ، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [٢] ،ثم قال : ألا إنّهما نَجْدا الخير والشرّ ؛ فما جعل نجدَ الشرّ أحبَّ إليكم من نَجْد الخير .

* * *

[من كلام للحجّاج وزياد نسَجَا فيه على منوالِ كلام علىّ]

وقوله : « إن الله دَاوَى هذه الأمّة بدواءيْن » كلام شريف ، وعلى منواله نسج الحجّاج وزياد كلامَهما المذكور فيه السوط والسيف . فمن ذلك قول الحجّاج [٣] :

مَنْ أعياه داؤه فعلىَّ دواؤه ، ومن استبطأ أجلَه فعلىَّ أن أعجّله ، ومن استثقلَ رأسَه وضعت عنه ثِقْلَهُ ، ومَن استطال ماضىَ عمره قصّرتُ عليه باقيه . إنّ للشيطان طَيْفاً ، وإن للسلطان سيفاً ، فمن سَقِمت سريرتُه ، صحّتْ عقوبته ، ومَنْ وَضَعه ذنبُه ، رفعه صَلْبُه ، ومَنْ لم تسعه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكة ؛ ومَنْ سبقته بادرةُ فمِه ، سَبَق بدنَه سفكُ دمه . إنى لأُنذِر ثم لا أُنْظِر ، وأُحـذّر ثم لا أعذِر ، وأتوعَّد ثم لا أغفر ؛ إنما أفسدكم [٤] ترقيقُ وُلاتكم . ومَنِ استرخى لَبَبُهُ [٥] ،ساء أدبُه . إن الحزْمَ والعزْم سَلَبانى

(١) البطحاء : التراب السهل مما جرته السيول .
(٢) سورة البلد ٨ — ١٠ .
(٣) نهاية الأرب ٧ : ٢٢٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، سرح العيون ١٨٤ .
(٤) فى صبح الأعشى : « ترنيق » ، والترنيق : الضعف فى الأمر .
(٥) اللبب : مايشد فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ؛ يريد أن الهوادة واللين لما يفسد الرعية .

سوطى ،(١ وجعلا سوطى سيفى ١) ، فقائمُهُ فى يَدِى ، ونجادُه (٢) فى عُنقى ، وذُبَابه (٣) قِلادةٌ لِمَنْ عَصَانى. والله لا آمرُ أحداً أن يخرُج من (٤ باب من ٤) أبواب المَسجد فيخرجَ من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

ومن ذلك قولُ زياد :

إنّما هو زَجْر بالقول ، ثم ضَرْب بالسّوط ، ثم الثالثة التى لا شَوَى (٥) لهـا . فلا يكونَنّ لسانُ أحـدِكم شَفْرَةً (٦) تجرى على أوْداجه (٧) ، وليعلمْ إذا خلا بنفسه أنّى قد حملتُ سيفى بيده ؛ فإن شَهَرَه لم أغمِدْه ، وإن أغمده لم أشهره .

***

وقوله عليـه السلام : « كالغراب » يعنى الحرصَ والجشع ، والغراب يقع على الجيفة، ويقع على التّمرة، ويقع على الحبّة؛ وفى الأمثال : «أجشع من غراب» ، و «أحرص من غراب » .

وقوله : « ويحَهَ لو قُصّ » ، يريد لو كان قُتِل أو مات قبل أن يتلبّس بالخلافة لـكان خيرا له من أن يعيش ويدخل فيها . ثم قال لهم : أفـكروا فيما قد قلت ، فإن كان منـكَرا فأنـكِروه ، وإن كان حقًّا فأعينوا عليه .

وقوله : « استتروا فى بيوتـكم » نهىٌ لهم عن العصبيّة (٨) والاجتماع والتحزّب، فقد كان قوم بعد قتل عثمان تـكلّموا فى قتله من شيعة بنى أمية بالمدينة .

(١ ــ ١) صبح الأعشى : « وأبدلانى به سيفى » .   (٢) النجاد : علاقة السيف .

(٣) ذباب السيف : حده .   (٤ ــ ٤) ساقط من ب ، وهو فى ا وصبح الأعشى.

(٥) لاشوى لها ، أى لا خطأ لها ، أو لا براء ؛ ومنه قول الـكميت :

أَجِيبُوا رُقَى الآسِى النِّطَاسِىِّ وَاحْذَرُوا   مُطَفِّئَةَ الرَّضْفِ الَّتِى لَا شَوَى لَهَا

(٦) الشفرة : السكين العظيم ، أو ماعرض من الحديد وحدد .

(٧) الأوداج : عروق العنق .

(٨) ا : « المعصية » .

وأما قوله : « قد كانت أمور لم تكونوا عندى فيها محمودين » ، فمراده أمرُ عثمان وتقديمه فى الخلافة عليه . ومن الناس مَنْ يحمِلُ ذلك على خلافة الشيخين أيضاً . ويبعدُ عندى أن يكونَ أراده ، لأنّ المدة قد كانت طالتْ ، ولم يَبْقَ مَنْ يعاتبه ليقول : قد كانت أمور لم تكونوا عندى فيها محمودين ، فإنّ هذا الكلام يُشعر بمعاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم . وأمّا بيعة عثمان ، ثمّ ما جرى بينه وبين عثمان من منازعاتٍ طويلة ، وغضب تارة ، وصُلْحٍ أخرى ، ومراسلاتٍ خشنة ولطيفة ، وكون الناس بالمدينة كانوا حزبيْن وفئتين : إحداهما معه عليه السلام ، والأخرى مع عثمان ؛ فإنّ[1] صَرْف الكلام إلى ماقلناه بهذا الاعتبار أليق .

ولسنا نمنع من أن يكون فى كلامه عليه السلام الكثير من التوجّد والتألّم لصرْف الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله عنه ؛ وإنما كلامنا الآن فى هذه اللفظات التى فى هذه الخطبة ؛ على أنّ قوله عليه السلام : « سبق الرجُلان » والاقتصار على ذلك فيه كفاية فى انحرافه عنهما .

وأما قوله : « حق وباطل . . . » إلى آخر الفصل ، فمعناه كلّ أمر فهو إمّا حقّ وإمّا باطل ، ولكلّ واحدٍ من هذيْن أهلٌ ، وما زال أهل الباطل أكثرَ من أهل الحق ؛ ولئن كان الحق قليلا لربّما كثُر ، ولعله ينتصر أهلُه .

ثم قال على سبيل التضجر بنفسه : « وقلّما أدبَرَ شىء فأقبل » ، استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر فى قوله :

وَقَالُوا يَعُودُ الماءُ فى النّهرِ بعد ما ذَوَى نبت جَنْبَيْهِ وَجَفَّ المَشارِعُ
فقلتُ إلى أن يرجع النهرُ جارياً ويُعشب جَنْبَاهُ تموتُ الضفادِعُ

---

(١) ا : « وإن » .

ثم قال : « ولئن رجعت عليكم أموركم » أى إن ساعدنى الوقت ، وتمكنت من أن أحكم فيكم بحكم الله تعالى ورسوله ، وعادت إليكم أيام شبيهة بأيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيرةٌ مماثلة لسيرته فى أصحابه ؛ إنكم لَسُعداء .

ثم قال : « وإنى لأخشى أن تكونوا فى فترة » ، الفترةُ هى الأزمنة التى بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها ؛ كالفَتْرة التى بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن بينهما نبىّ ، بخلاف المدة التى كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأنه بُعِث فيها أنبياء كثيرون ، فيقول عليه السلام : إنّى لَأَخشى ألّا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم ، فتكونوا كالأمم الذين فى أزمنة الفَتْرة لا يرجعون إلى نبىٍّ يشافههم بالشرائع والأحكام ؛ وكأنه عليه السلام قد كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه .

ثم قال : « وماعلينا إلا الاجتهاد » ، يقول : أنا أعمل ما يجب علىّ (١) من الاجتهاد (١) فى القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين ، فإنْ تمّ ما أريده فذاك ، وإلا كنت قد أعْذَرْتُ .

وأما التتِمّة المروية عن جعفر بن محمد عليهما السلام فواضحة الألفاظ ، وقوله فى آخرها : « وبنا تُختم لا بِكُم » إشارة إلى المهدىّ الذى يظهر فى آخر الزمان . وأكثر المحدّثين على أنه من وَلَد فاطمة عليها السلام . وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه ، وقد صرّحوا بذكره فى كتبهم ، واعترف به شيوخهم ، إلا أنه عندنا لم يُخْلَقْ بعد ، وسيخلق .

وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً .

وروى قاضى القضاة رحمه الله تعالى عن كافِى الكفاة أبى القاسم إسمٰعيل بن عَبّاد

(١ — ١) ساقط من ب .

رحمه الله بإسناد متصل بعليّ عليه السلام أنّه ذكر المهديّ ، وقال : إنه من ولد الحسين عليه السلام ، وذكر حِليتَه[1] ، فقال رجل : أجْلَى الجبين ، أقنى الأنف ، ضخم البطن ، أزيل[2] الفَخِذين ، أبلج الثنايا ، بفخذه اليمنى شامة ...

وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة فى كتاب " غريب الحديث " .

(١) الحلية هنا : الصفة .

(٢) الزيل ، محركة : تباعد مابين الفخذين ، وهو زيل .

(١٧)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل :

إنَّ أبْغَضَ الْخَلَائِقِ إلَى اللهِ تعالى رَجُلَانِ :

رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إلَى نَفْسِهِ ؛ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ ، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ ، ضَالٌّ عَنْ هُدَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ .

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا ، مُوضِعٌ فِى جُهَّالِ الْأُمَّةِ ، عَادٍ[١] فِى أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ ، عَمٍ بِمَا فِى عَقْدِ الْهُدْنَةِ ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً ؛ وَلَيْسَ بِهِ . بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ . جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ، ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ . فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ ؛ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ . فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِى مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ ، لَا يَدْرِى أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ . جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ . يُذْرِى الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ ، لا مَلِىءٌ واللهِ بِإِصْدَارِ مَاوَرَدَ عَلَيْهِ ، ولا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إِلَيْهِ . لا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِى شَىْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ ، ولا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ ، وإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ ، وَتَعَجُّ مِنْهُ

(١) ج : « غاد » .

الْمَوَارِيثُ إلى اللهِ مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً ، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً ؛ لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، ولا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعًا ، ولا أَغْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، ولا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، ولا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ .

***

الشَّرْحُ :

وكله إلى نفسه : تركه ونفسه ، وكَلْتُه وكْلا ووُكولا . والجائر : الضّال العادل عن الطريق . وقَمَش جهلا : جمعه . ومُوضِع : مسرع ؛ أوضع البعيرُ : أسرع ، وأوضعه راكبُه ، فهو مُوضِعٌ به ، أى أسرَع به .

وأغْباش الفتنة: ظُلَمها ، الواحدة غَبَش ، وأغباش الليل : بقايا ظُلمته ، ومنه الحديث فى صلاة الصبح : « والنّساء متلفّعات بمُرُوطِهِنّ[1] ما يُعْرَفْن من الغَبَش » والماء الآجن : الفاسد. وأكثر ، كقولك : «استكثر» ، ويروى : «اكتنز» ، أى اتخذ العلم كنزا .

والتخليص : التبيين ، وهو والتلخيص متقاربان ، ولعلّهما شيء واحد من المقلوب .

والمبهمات : المشكلات ؛ وإنّما قيل لها مُبْهَمَة ، لأنّها أُبْهِمَت عن البيان ، كأنها أُصمِتَتْ فلم يُجْعَلْ عليها دليل ولا إليها سبيل ، أو جُعِل عليها دليل وإليها سبيل ؛ إلا أنّه متعسّر مستَصعَب ؛ ولهذا قيل لما لا ينطق من الحيوان : بَهِيمة ، وقيل للمصمَت اللّون الذى لا شِيَةَ فيه: بَهِيم .

وقوله : « حشواً رثًّا » كلام مخرجه الذمّ ، والرثّ : الخَلَق ، ضدّ الجديد .

وقوله: «حشوا» ، يعنى كثيرا لا فائدة فيه. وعاشٍ: خابطٌ فى ظلام وقوله: «لم يعضّ» يريد أنه لم يُتقِنْ ولم يُحكم الأمور، فيكون بمنزلة من يَعضُّ بالنّاجذ ، وهو آخر الأضراس وإنما

---

(١) مروطهن : أكسيتهن .

يطلع إذا استحكمت شبيبةُ الإنسان واشتدّتْ مِرّته ؛ ولذلك يدعوه العوامّ ضِرْس الحِلْم[1]، كأنّ الحِلْم يأتى مع طلوعه ، ويَذْهب نَزَق الصِّبا ؛ ويقولون : رجلٌ مُنَجَّذ ، أى مجرّب مُحْكَم ، كأنه قد عضّ على ناجذه وكَمَل عقلُه .

وقوله : « يُذْرِى الرّوايات » هكذا أكثر النسخ ، وأكثر الروايات « يُذْرِى » من « أذْرَى » رباعيا ؛ وقد أوضحه قوله : « إذْرَاء الريح » ، يقال : طعنه فأذْراه ، أى ألقاه ، وأذريتُ الحبّ للزرع ، أى ألقيته ، فكأنّه يقول : يُلْقِى الروايات كما يُلْقِى الإنسان الشىء على الأرض ؛ والأجود الأصحّ الرواية الأخرى : « يَذْرُو الرِّواياتِ ذَرْوَ الريح الهشيم » ، وهكذا ذكر ابن قتيبة فى " غريب الحديث " لمّا ذكر هذه الخطبة عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ ،[2] والهشيم : ما يبس من النَّبْت وتفتّت :

قوله : « لا ملىء » ، أى لاقيّم به ، وفلان غنىّ ملىء ، أى ثقة بيّن الملأ والملاء ، بالمد . وفى كتاب ابن قتيبة تتمة هذا الكلام : « ولا أهل لما قُرّظ به » ، قال : أى ليس بمستحِقٍّ للمدح الذى مُدح به . والذى رواه ابن قتيبة من تمام كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو الصحيح الجيّد ؛ لأنّه يُستقبَح فى العربية أن تقول : لا زيدَ قائم ، حتى تقول : ولا عمرو ؛ أو تقول : ولا قاعد ؛ فقوله عليه السلام : « لا ملىء » أى لا هُوَ ملىء ، وهذا يستدعى « لا » ثانية ، ولا يحسن الاقتصار على الأولى .

وقوله عليه السلام : « اكتتم به » أى كتمه وستره . وقوله : « تصرخُ منه وتَعَجّ » . العجّ : رفع الصوت ؛ وهذا من بابَ الاستعارة .

وفى كثير من النسخ : « إلى الله أشكو » ، فمن روى ذلك وقف على « المواريث » ،

---

(١) الحلم ، بالكسر : الأناة والعقل .
(٢) سورة الكهف ٤٥

ومن روى الرواية الأولى وَقَف على قوله : « إلى الله » ويكون قوله : « من معشر » من تمام صفات ذلك الحاكم ، أى هو من معشرٍ صفتهم كذا .

وأبْوَرَ «أفعل» من البوْر: الفاسد ، بارَالشىء ،أى فسد ، وبارت السلعة ؛ أى كسدت ولم تنفُق ، وهو المراد هاهنا ، وأصله الفساد أيضا .

إن قيل: بيِّنوا الفرْقَ بين الرَّجُلين اللذيْن أحدُهما وكَلَه الله إلى نفسه ، والآخر رجل قمش جهلًا ؛ فإنّهما فى الظاهر واحد .

قيــل : أمّا الرجل الأوّل ، فهو الضالّ فى أصول العقائد ، كالمشبِّه والجبرِ ونحوهما ؛ ألا تراه كيف قال: «مشغوف بكلام بدعة ،ودعاء ضلالة » ،وهذا يُشعر بماقلناه ؛ من أنّ مرادَه به المتــكلّم فى أصول الدين ، وهو ضالّ عنِ الحقّ ؛ ولهــذا قال : إنّه فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هُدَى مَنْ قبله ، مضلّ لمن يجىء بعده . وأما الرجل الثانى فهو المتفقّه فى فروع الشَّرْعيات ، وليس بأهل لذلك ، كفقهاء السوء ، ألا تراه كيف يقول : جالس بين الناس قاضيا .

وقال أيضا : « تصرُخ من جور قضائه الدماء ، وتَعجّ منه المواريث » .

فإن قيل : مامعنى قوله فى الرَّجُل الأول : « رَهْن بخطيئته » ؟ قيل : لأنه إن كان ضالًّا فى دعوته مُضلًّا لمن اتّبعه ، فقد حمل خطاياه وخطاياغيره ، فهو رَهْن بالخطيئتين معا، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) .

إن قيل :مامعنى قوله « عمٍ بمافى عقدالهدنة » ؟ قيل :الهدنة أصلُهافى اللغةالسّكون، يقــال : هَدَنَ إذا سكن ، ومعنى الــكلام أنّه لايعرف مافى الفتنة من الشّرّ ، ولا مافى السكون والمصالحة (٢) من الخير .

---

(١) سورة العنكبوت ١٣

(٢) ا : « المصلحة » ، تصحيف .

ويروى : « بما فى غَيْب المدنة »، أى فى طيِّها وفى ضمنها . ويروى : « غارّ فى أغباش الفتنة » ، أى غافل ذو غِرّة .

وروى : « من جمعٍ » بالتنوين فتكون « ما » على هذا اسما موصولا ، وهى وصلتها فى موضع جَرٍّ لأنها صفة « جمع » ، ومن لم يرو التنوين فى « جمع » حذف الموصوف ، تقديره : مِنْ جمع شىء ماقلّ منه خيرٌ مما كَثُر ، فتكون « ما » مصدرية ، وتقدير الكلام : قلّتُه خيرٌ من كثرته ، ويكون موضع ذلك جرا أيضاً بالصفة .

(١٨)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم اختلاف العلماء فى الفُتيا :

تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قوله[1] ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ .

أَفَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ[2] سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامًّا فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ ؛ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ مافَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ[3] ﴾ ، [4]وَفِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ[4] . وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً[5] ﴾ .

وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ .

* * *

---

(١) كذا فى ا ومخطوطة النهج ، وفى ب « بخلافه » .
(٢) ا : « أم أنزل إليهم » . (٣) سورة الأنعام ٣٨ .
(٤ ـ ٤) فى ب : « وقال : فيه تبيان كل شىء » ؛ والأصوب ما أثبته من ا ، ومخطوطة النهج .
(٥) سورة النساء ٨٢ .

الشرح :

الأنيق : المعجِب ، وآنقني الشيء ، أي أعجبني ؛ يقول : لا ينبغي أن يُحمَل جميعُ مافي الكتاب العزيز على ظاهره ؛ فكم من ظاهرٍ فيه غيرُ مرادٍ ، بل المراد به أمر آخر باطن ؛ والمراد الردّ على أهل الاجتهاد في الأحكام الشرعية ، وإفسادُ قول من قال : كلّ مجتهد مصيب ، وتلخيص الاحتجاج من خمسة أوجه :

الأوّل : أنّه لمّا كان الإله سبحانه واحدا ، والرسول صلى الله عليه وآله واحدا والكتاب واحدا ، وجب أن يكونَ الحُكْم في الواقعة واحدا ؛ كالملِك الذي يُرسِل إلى رعيّتِه رسولا بكتابٍ يأمرهم فيه بأوامرَ يقتضيها مُلْكه وإمْرَتُه ، فإنه لا يجوز أن تتناقض أوامره ، ولو تناقضتْ لنُسِبَ إلى السَّفَه والجهل .

الثاني : لا يخلو الاختلافُ الّذي ذهب إليه المجتهدون ، إمّا أن يكونَ مأمورا به أو منهيًّا عنه ، والأوّل باطل ، لأنه ليس في الكتاب والسنّة مايمكّن الخصم أن يتعلّق به في كَوْن الاختلاف مأمورا به . والثاني حَقّ ، ويلزم منه تحريم الاختلاف .

الثالث : إمّا أن يكونَ دينُ الإسلام ناقصاً أو تامًّا، فإن كان الأول كان الله سبحانه قد استعان بالمكلَّفين على إتمام شريعةٍ ناقصة أرسَل بها رسوله ، إمّا استعانةً على سبيل النيابة عنه ، أو على سبيل المشاركة له ، وكلاهما كفر . وإن كان الثاني ؛ فإمّا أن يكون الله تعالى أنزلَ الشرع تامًّا فقصَّر الرسولُ عن تبليغه ، أو يكونَ الرسولُ قد أبلغه على تمامه وكماله؛ فإنْ كان الأوّل فهو كُفر أيضا ؛ وإنْ كان الثاني فقد بَطَل الاجتهاد ؛ لأنّ الاجتهاد إنما يكون فيما لم يتبين ؛ فأمّا ماقد بُيِّن فلا مجال للاجتهاد فيه .

الرابع : الاستدلالُ بقوله تعالى : ﴿ مَافَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(١) ، وقوله، ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ

(١) سورة الأنعام ٣٨ .

(٢) سورة النحل ٨٩ . وفي الأصول : وقوله : « فيه تبيان كل شيء » ، والتلاوة ما أثبته .

مُبِينٍ ﴾(١) ، فهذه الآيات دالّة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام ؛ فكلّ ماليس فى الكتاب وجب ألاّ يكون فى الشرع .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾(٢) ، فجُعل الاختلافُ دليلًا على أنّه ليس من عند الله ، لكنه من عند الله سبحانه بالأدلّة القاطعة الدّالة على صحة النبوّة ، فوجب ألاّ يكون فيه اختلاف .

واعلم أنّ هذه الوجوه هى الّتى يتعلق بها الإماميّة ونُفاةُ القياس والاجتهاد فى الشرعيّات وقد تكلّم عليها أصحابُنا فى كُتُبِهم ، وقالوا : إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يجتهد ويَقيس ، وادّعَوْا إجماعَ الصحابة على صحة الاجتهاد والقياس ، ودفعوا صحّةَ هذا الكلام المنسوب فى هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا : إنّه من رواية الإماميّة ، وهو معارَض بما ترويه الزَّيْدية عنه وعن أبنائه عليهم السلام فى صحة القياس والاجتهاد ، ومخالطة الزيدية لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمخالطة الإمامية لهم ؛ ومعرفتهم بأقوالهم وأحوالهم ومذاهبهم كمعرفة الإماميّة ، لا فرق بين الفئتين فى ذلك . والزيدية قاطبةً جاروديّتها وصالحيّتها(٣) تقول بالقياس والاجتهاد ، وينقلون فى ذلك نصوصاً عن أهل البيت عليهم السلام . وإذا تعارضت الروايتان تساقطتا ، وعدْنا إلى الأدلة المذكورة فى هذه المسألة .

وقد تكلّمتُ فى "اعتبار الذريعة" للمرتضى(٤) على احتجاجه فى إبطال القياس والاجتهاد بما ليس هذا موضع ذكره .

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ . (٢) سورة النساء ٨٢ .

(٣) الزيدية : أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وهم أصناف ثلاثة : جارودية ؛ وهم أصحاب أبى الجارود زياد بن أبى زياد ، وسليمانية ؛ وهم أصحاب سليمان بن جرير ، وصالحية؛ وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حى ؛ ومن هؤلاء البترية ؛ أصحاب كثير الأبتر . وانظر تفصيل مذهبهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٣٧ — ١٤٣ .

(٤) هو كتاب الذريعة إلى أصول الشريعة ؛ للشريف المرتضى ، شرحه ابن أبى الحديد وسمى شرحه الاعتبار على كتاب الذريعة ؛ فى ثلاثة مجلدات . وانظر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٠ : ٢٦ .

(١٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام ؛ قاله للأشعث بن قيس ، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى فى بعض كلامه شىء اعترضه الأشعث فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عليكَ لا لكَ ، فخفض إليه بصره عليه السلام ، ثم قال :

وَمَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي ! عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَةُ اللاَّعِنِينَ ؛ حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ، مُنَافِقٌ ابْنُ كَافِرٍ . وَاللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى ، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسَبُكَ . وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ ، وَسَاقَ إِلَيْهِم الْحَتْفَ ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ ، وَلاَ يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ .

قال الرضى رحمه الله :

يريدُ عليهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أُسِرَ فى الْكُفْرِ مرَّةً وفى الْإِسْلامِ مرَّةً .

وأَمَّا قَوْلُهُ عليه السَّلام: «دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ»، فأَرَاد به حَدِيثاً كَانَ لِلأَشْعَثِ مع خالد بن الوليد باليمامةِ ، غرَّ فِيهِ قومَهُ ، ومكر بِهِمْ ؛ حَتَّى أَوْقَعَ بهم خالدٌ ، وكان قَوْمُهُ بَعْدَ ذلك يُسَمُّونَهُ عُرْفَ النَّارِ ، وَهُوَ اسْمٌ لِلْغَادر عندهم .

* * *

الشرح :

خفَض إليه بصره : طأطأه . وقوله : « فما فداك » ، لا يريد به الفِداء الحقيقىّ ، فإنّ الأشعث فُدِى فى الجاهلية بفداء يضرب به المثل ، فقال : « أغلى فداء من الأشعث » ، وسنذكره ، وإنما يريد : ما دفع عنك الأسر مالُك ولا حَسَبك . ويمقته : يبغضه ، والمقت : البُغْض .

* * *

[الأشعث بن قيس ونسبه وبعض أخباره]

اسم الأشعث معدِى كرب ، وأبوه قيس الأشجّ ـ سمى الأشَجّ ؛ لأنه شُجّ فى بعض حروبهم ـ ابن معدِى كرب بن معاوية بن معدِى كَرب بن معاوية بن جَبَلة ابن عبد العُزّى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث ابن معاوية بن ثَوْر بن مُرتِّع[1] بن معاوية بن كِنْدَة بن عُفَيْر بن عدىّ بن الحارث ابن مرّة بن أُدَد .

وأمّ الأشعث كبشة بنت يزيد بن شُرَحْبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك .

كان الأشعث أبدا أشعثَ الرأس ، فسمِّىَ الأشعث ، وغلب عليه حتى نُسِى اسمه ؛ ولعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يقول أعشى هَمْدان[2] :

يابنَ الأشَجِّ قريعِ كِنْـ ... ـدَةَ لاأُبَالِى فيكَ عَتْبًا[3]

---

(١) مرتع ، كمحدث ، وكمحسن أيضا . القاموس .

(٢) هو أبو مصبح عبد الرحمن بن عبد الله ؛ من أبيات فى ديوان الأعشين ٣١١ ؛ أولها :

مَنْ مُبْلِـغُ الحجّاج أنّى قَدْ ندبتُ إليه حَرْبا
حَرْبًا مُذَكَّرَةً عَـوا ... نًا تَترُكُ الشُّبَّان شُهبَا

(٣) فى الديوان :

لابنِ الأشجّ قريـعِ كِنْـ ... ـدَةَ لا أبيِّنُ فيـه عَتْبَا

أنتَ الرئيسُ ابنُ الرئيـ ـسِ وأنت أَعْلَى النَّاسِ كَعْبَا[1]

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله قُتَيْـلَةَ أخت الأشعث ، فتوفِّيَ قبـل أنْ تصل إليه .

فأما الأسر الذى أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه فى الجاهلية فقد ذكره ابن الـكلبيّ فى "جمهرة النسب"، فقال : إنّ مُرادا لما قتلتْ قيساً الأشجَّ ، خرج الأشعث طالبا بثأره[2] ، فخرجت كندة مُتساندين على ثلاثة ألوية : على أحد الألوية كَبْس ابن هانئ بن شُرَحْبِيل بن الحارث بن عدىّ بن ربيعة بن معاوية الأكرمين — ويعرف هانئ بالمطّلِـع ، لأنّه كان يغزو فيقول : اطّلَعْتُ بنى[3] فلان ، فسمِّى المُطّلِـع . وعلى أحدها القَشْعَم أبو جَبْر[4] بن يزيد الأرقم . وعلى أحدها الأشعث ، فأخطأوا مُرادا ، ولم يَقَعوا عليهم ، ووقعوا على بنى الحـارث بن كعب ، فقتِل كَبْس والقَشْعَم أبو جَبْر ، وأسِر الأشعث ، ففُدِى بثلاثة آلاف بعير ، لم يُفْدَ بها عربىّ بعده ولا قبله ، فقال فى ذلك عمرو بن معدى كربَ الزُّبَيدِىّ :

فَـكَانَ فِداؤُهُ أَلْفَىْ بعيرٍ وَأَلْفًا من طريفاتٍ وَتُلْدِ

وأما الأسر الثانى فى الإسلام ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قَدِمَتْ كِنْدة حُجّاجا قبل الهجرة ، عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسَه عليهم ، كما كان يعرِضُ نفسَه على أحياء العرب ، فدفعه بنو وَليعةَ من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه ، فلما هاجر صلى الله عليه وآله وتمهدت دعوتُه ، وجاءته وفود العرب ، جاءه وفد كِنْدة ، فيهم الأشعث وبنو وَليعة ، فأسلموا ، فأطعم رسول الله صلى الله عليه وآله بنى وَليعة طُعْمة من صدقات حَضْرَمَوْت ، وكان قد استعمل على حَضْرَموت زياد بن لَبيد البياضىّ الأنصارىّ ، فدفعها زياد إليهم ، فأبَوْا أخذها ، وقالوا : لا ظَهْرَ لنا[5] ، فابعث بها إلى بلادنا على ظَهْرٍ

(١) الديوان : « أعلى القوم » . (٢) ا : « ثأره » .
(٣) اطلع القوم : هجم عليهم . (٤) ا : « القاسم بن جبر » ، وصوابه من ب ، والاشتقاق ٣٦٥
(٥) الظهر : الركاب التى تحمل الأمتعة فى السفر ، سميت بذلك لحملها إياها على ظهورها .

من عندك ، فأبى زياد ، وحَدَث بينهم وبين زياد شرّ كاد يكون حربا ، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم .

وفى هذه الوَقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال لبنى وَليعةَ : « لَتَنْتَهُنّ يا بنى وليعة ، أو لأبعثَنّ عليكم رجلا عَدِيل نفسى ، يقتُل مُقاتِلَتَكم ، ويَسْبِى ذراريّكم » . قال عمر بن الخطاب : فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، وجعلت أنصِب له صدرى رجاء أن يقول : هو هذا ، فأخذ بيد على عليه السلام ، وقال : « هو هذا » .

ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زياد ، فوصلوا إليه بالكتاب وقد تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب ، فارتدّتْ بنو وليعة ، وغَنّتْ بَغاياهم ، وخَضَبْنَ له أيديَهُنّ .

وقال محمد بن حبيب : كان إسلام بنى وَليعة ضعيفا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلَم ذلك منهم . ولما حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله حِجّة الوداع ، وانتهى إلى فَمِ الشِّعب دخل أسامة بن زيد ليبول ، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وآله — وكان أسامةُ أسْوَد أفْطَس — فقال بنو وَليعةَ : هذا الحبشىّ حَبَسنا ! فكانت الرّدة فى أنفسهم .

قال أبو جعفر محمد بن جرير : فأمَّر[1] أبو بكر زياداً على حَضْرَموت ، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم ، فبايعوه إلا بنى وليعة ، فلما خرج ليقْبض الصّدقات من بنى عمرو بن معاوية ، أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيْطان بن حُجْر — وكانت صَفِيّة[2] نفيسة ، اسمها شذرة — فمنعه الغلام عنها . وقال : خذ غيرَها ، فأبى زياد ذلك ولجّ ، فاستغاث شَيْطان بأخيه العَدّاء بن حُجْر ، فقال لزياد : دَعْها وخذ غيرها ، فأبى زياد ذلك ، وَلَجّ الغلامان فى أخذها ، ولجّ زياد وقال لهما : لا تكونن شذرة عليكما كالبَسُوس ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ؛ مع تصرف . (٢) الصفية : الناقة الغزيرة اللبن .

فهتف الغلامان : يا لَعمرو ! أنُضام ونُضطهد ! إنّ الذليل مَنْ أُكِلَ فى داره . وهتفا بمسروق بن معدى كرب ، فقال مسروق لزياد : أطلقها ، فأبى ، فقال مسروق :

يُطْلِقُها شَيْخٌ بخَدَّيْه الشَّيْبْ (١) مُلَمَّعٌ فيه كَتَلْمِيع الثَّوْبْ (٢)

* ماضٍ على الرَّيْبِ إذا كان الرَّيْبْ (٣) *

ثم قام فأطلقها ، فاجتمع إلى زياد بن لَبِيد أصحابُه ، واجتمع بنو وليعة ، وأظهروا أمرَهم ، فبيّتَهم زياد وهم غارّون ، فقتل منهم جمعا كثيرا ، ونهب وسبَى ، ولحقَ فَلُّهم بالأشعث بن قيس ، فاستنصروه فقال : لا أنصركم حتى تملِّكونى عليكم . فملّكوه وتوّجوه كما يتوّجُ الملكُ من قحطان . فخرج إلى زياد فى جَمْعٍ كثيف ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبى أمية وهو على صنعاء أن يسيرَ بمَنْ معه إلى زياد ، فاستخلَف على صنعاء ، وسار إلى زياد ، فلقوا الأشعث ، فهزموه وقُتِل مسروق ، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر (٤) . فحاصرهم المسلمون حصارا شديدا حتى ضَعُفوا ، ونزل الأشعث ليلا إلى المهاجر وزياد ، فسألها الأمانَ على نفسه حتى يقدَما به على أبى بكر فيرى فيه رأيَه ؛ على أن يفتح لهم الحِصْن ويُسْلم إليهم مَنْ فيه .

وقيل : بل كان فى الأمان عشرة من أهل الأشعث .

فأمّناه وأمضيا شَرْطَه ، ففتح لهم الحصن ؛ فدخلوه واستنزلوا كلَّ مَنْ فيه ، وأخذوا أسلحتهم ، وقالوا للأشعث : اعزل العشَرَة ، فعزلهم ، فتركوهم وقتلوا الباقين — وكانوا ثمانمائة — وقطعوا أيدى النِّساء اللواتى شَمِتْن برسول الله صلى الله عليه وآله ، وحملوا الأشعثَ

---

(١) الطبرى : « يمنعها » .

(٢) الطبرى :

* مُلَمَّعٌ كما يُلَمَّعُ الثَّوْبْ *

(٣) لم يرد هذا البيت فى الطبرى .

(٤) كذا ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بالتصغير ، وقال : « حصن باليمن قرب حضرموت » .

إلى أبى بكر مُوثَقًا فى الحديد هو والعشرة ، فعفا عنه وعنهم ، وزوّجه أختَه أمّ فروة بنت أبى قُحافة — وكانت عمياء — فولدت للأشعث محمدا وإسماعيل وإسحاق .

وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة ، فما مَرّ بذات أربع إلا عَقَرها ، وقال للناس : هذه وليمة البِناء ، وثمن كلّ عَقِيرة فى مالى . فدفع أثمانَها إلى أربابها .

قال أبو جعفر محمد بن جرير فى التاريخ : وكان المسلمون يلْعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه ، وسمّاه نساء قومه عُرْفَ النار ، وهو اسم للغادر عندهم[1] .

وهذا عندى هو الوجه ، وهو أصحّ مما ذكره الرضىّ رحمه الله تعالى من قوله فى تفسير قول أمير المؤمنين : « وإن امرأ دلّ على قومه السيف » : انه أراد به حديثا كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غَرّ فيه قومه ، ومكر بهم حتى قتلهم ؛ فإنّا لم نعرف فى التواريخ أن الأشعث جرَى له باليمامة مع خالد هذا ولا شبهه ، وأين كِندة واليمامة ! كِنْدة باليمن ، واليمامة لبنى حنيفة ، ولا أعلمُ من أين نَقَل الرضىّ رحمه الله تعالى هذا !

***

فأما الكلام الذى كان أمير المؤمنين عليه السلام قاله على مِنْبر الكوفة فاعترضه فيه الأشعث ، فإنّ عليًّا عليه السّلام قام إليه — وهو يخطُب ، ويذكر أمرَ الحكَمَيْن — رجل من أصحابه ، بعد أن انقضى أمرُ الخوارج ، فقال له : نهيتَنا عن الحكومة ثم أمرتَنا بها ، فما ندرى أىّ الأمرين أرْشَد ! فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : هذا جزاء من تَرَكَ العُقْدة . وكان مرادُه عليه السلام : هذا جزاؤكم إذْ تركتُم الرأىَ والحزم ، وأصْرَرْتم على إجابة القوم إلى التحكيم ؛ فظنّ الأشعث أنه أراد : هذا جزائى حيثُ تركت الرأى والحزم وحكمت ، لأنّ هذه اللفظة محتملة ؛ ألا ترى أنّ الرئيس

---

(١) الطبرى ٣ : ٣٣٨ ؛ وعبارته : « كلام يمان يسمون به الغادر » .

إذا شَغَب عليه جُنده وطلبوا منه اعتماد أمرٍ ليس بصواب ، فوافقهم تسكيناً لشَغَبهم لا استصلاحاً لرأيهم ، ثم ندِموا بعد ذلك ، قد يقول : هذا جزاء مَنْ ترك الرأى ، وخالف وجْه الحزم ؛ ويعنى بذلك أصحابَه ؛ وقد يقوله يعنِى به نفسَه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام، إنما عَنَى ما ذكرناه دون ما خَطر للأشعث ، فلما قال له : هذه عليك لا لك ، قال له : وما يدريك ما علىّ مما لى ، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين !

وكان الأشعثُ من المنافقين فى خلافة علىّ عليه السلام،وهو فى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، كما كان عبد الله بن أبىّ بن سَلُول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأسُ النفاق فى زمانه .

وأما قوله عليه السلام للأشعث : « حائك ابن حائك » ، فإن أهل اليمن يعيَّرون بالحياكة ؛ وليس هذا مما يَخُصُّ الأشعث .

ومن كلام خالد بن صفوان : ما أقول فى قومٍ ليس فيهم إلا حائك بُرْد ، أو دابغ جِلْد ، أو سائس قِرْد ؛ ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودلّ عليهم هُدْهُد !

(٢٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَاقَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ ، لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَاقَدْ عَايَنُوا ؛ وَقَرِيبٌ مَايُطْرَحُ الْحِجَابُ .

وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ ؛ وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ[1] : لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَر ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَر .

* * *

الشَّرْحُ :

الوَهَل : الخوف ، وهِلَ الرجل يَوْهَل .

و« ما » في قوله : « مايُطْرَحُ » مصدرية ؛ تقديره : « وقريب طَرْح الحجاب » ، يعنى رفعه بالموت .

وهذا الكلامُ يدلّ على صِحّة القول بعذاب القبر ، وأصحابنا كلُّهم يذهبون إليه ، وإن شنّع عليهم أعداؤهم من الأشعريّة وغيرهم بجحده .

وذكر قاضي القضاة رحمه الله تعالى : أنه لم يعرف[2] معتزليًّا نفَى عذابَ القبر ، لا من

(١) كلمة « لكم » ساقطة من ا .
(٢) ج : « لا يعرف » .

متقدِّميهم ولا من متأخِّريهم ؛ قال : وإنّما نفاه ضِرار[1] بن عمرو ، لمخالطته لأصحابنا وأخذه عن شيوخنا ، مانُسِب قوله إليهم .

ويمكن أن يقول قائل : هذا الكلام لا يدلّ على صحّة القول بعذاب القبر ؛ لجواز أن يعني بمعاينة من قد مات ، مايشاهده المحتضَر من الحالة الدالّة على السعادة أو الشقاوة، فقد جاء في الخبر : « لا يموت امرُؤ حتى يعلَم مصيره ؛ هل هو إلى الجنّة أم إلى النار » . ويمكن أن يعني به مايعاينه المحتضَر من ملك الموت وهَوْل قدومه . ويمكن أن يعني به ما كان عليه السلام يقوله عن نفسه : إنه لا يموت ميّت حتى يشاهدَه عليه السلام حاضراً عنده . والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقدُه ، وتروى عنه عليه السلام شعراً قاله للحارث الأعور الهَمْدانيّ :

ياحارِ هَمْدانَ مَنْ يَمُتْ يَرَنِي	من مؤمنٍ أو منافق قُبُــلَا
يَعْرِفُــنِي طرفهُ وأعرِفُــهُ	بِعَيْنِه واسمِـــه وَمَا فَعَــلَا
أقول للنّار وهي توقد للـ	ـعَرْض ذَرِيهِ لَا تَقْرَبِي الرَّجُلا
ذَرِيهِ لا تقربيه إنّ لَهُ	حَبْلًا بحَبْلِ الوصيّ مُتّصِلا
وَأَنْتَ ياحار إن تمتْ ترنِي	فلا تَخَفْ عَـثْرةً ولا زللا[2]
أسْقيكَ مِنْ باردٍ على ظمأٍ	تخـــاله في الحـلاوةِ العَسَلا

وليس هذا بمنكَر ؛ إن صحّ أنّه عليه السلام قاله عن نفسه ، ففي الكتاب العزيز مايدلّ على أنّ أهل الكتاب لا يموت منهم ميّت حتى يصدّق بعيسى بن مريم عليه السلام ؛ وذلك قوله : ﴿ وَإِنّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إلاّ لَيؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ

---

(١) ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ، وكان في بدء أمره تلميذا لواصل ابن عطاء المعتزلي ، ثم خالفه في خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١ .

(٢) هذا البيت والذي يليه لم يذكرا في ب .

ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[١] ؛ قال كثيرٌ من المفسرين : معنى ذلك أنّ كلّ ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتب السالفة إذا احتُضِر رأى المسيح عيسى[٢] عنده ، فيصدّق به مَنْ لم يكن فى أوقاتِ التكليف مصدِّقاً به .

وشبيه بقوله عليه السلام : «لو عاينْتم ماعاين مَنْ مات قبلكم » قولُ أبى حازم لسليمان ابن عبد الملك فى كلام يعظه به : إنّ آباءك ابتزُّوا هذا الأمر من غير مشورة ، ثم ماتوا ، فلو علمت ماقالوا وما قيل لهم ! فقيل : إنه[٣] بكَى حتى سَقَط[٣] .

(١) سورة النساء ١٥٩ . (٢) ساقطة من ب .
(٣ ـ ٣) ا : « إن سليمان بكى حتى سقط » .

(٢١)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ وَرَاءَكُم السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ .
تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

أقول : إنَّ هذا الكَلَامَ لوْ وُزِن بَعْدَ كلام اللهِ سُبْحَانه ، وَبَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكُلِّ كَلَامٍ لَمَالَ بِهِ رَاجِحاً ، وَبَرَّزَ عَلَيْهِ سَابِقاً .

فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَام : « تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا » ، فَمَا سُمِعَ كَلَامٌ أَقَلُّ مِنْهُ مَسْمُوعاً وَلَا أَكْثَرُ مَحْصولًا ، وَمَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا مِنْ كَلِمَةٍ ! وَأَنْقَعَ نُطْفَتَهَا مِنْ حِكْمَةٍ ! وَقَدْ نَبَّهْنَا فى كتاب "الخصائص"[1] عَلَى عِظَمِ قَدْرِهَا ، وَشَرَفِ جَوْهَرِهَا .

* * *

الشَّرحُ :

غاية المكلّفين هى الثواب أو العقاب ، فيحتمل أن يكونَ أراد ذلك ، ويحتمِل أن يكون أراد بالغاية الموت ، وإنما جعل ذلك أمامنا ، لأنّ الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء ، فهما أمامه ، أى بين يديه .

---

(١) كتاب خصائص الأئمة للشريف الرضى . انظر الذريعة فى مصنفات الشيعة ٧ : ١٦٤ .

ثم قال : « وإن وراءكم الساعةَ تحدوكم » أى تسوقكم ، وإنّما جعلها وراءنا ، لأنها إذا وُجدت ساقت الناس إلى موقف الجزاء كما يسوقُ الراعى الإبل ، فلما كانت سائقةً لنا ، كانت كالشئ يحفِزُ الإنسان من خَلْفه ، ويحرّكه من ورائه ، إلى جهة مابين يديه .

ولا يجوز أن يقال : إنّما سماها « وراءنا » ، لأنّها تكون بعد موتنا وخروجنا من الدنيا ، وذلك أنّ الثوابَ والعقاب هذا شأنُهما ، وقد جعلهما أمامنا .

وأما القطب الراونديّ ، فإنه قال : معنى قوله : « فإنّ الغاية أمامكم » ، يعنى أنّ الجنة والنار خَلْفكم . ومعنى قوله : « وراءكم الساعة » أى قدّامكم .

ولقائل أن يقول : أما الوراء بمعنى القدّام فقد ورَد ، ولكن ماورد « أمام » بمعنى « خلف » ، ولا سمعنا ذلك .

وأما قوله : « تخففوا تلحَقوا » ، فأصله الرجل يسعى وهو غير مُثْقَل بما يحمله ، يكون أجْدَر أن يلحَق الذين سبقوه ، ومثله قوله : « نجا المخفّفون » .

وقوله عليه السلام : « فإنما ينتَظر بأوّلكم آخركم » ، يريد : إنّما يُنتظر ببعث الذين ماتوا فى أوّل الدهر مجىء مَن[١] يخلقون ويموتون فى آخره ، كأمير يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضُهم ، إنما يعطِى الأول منهم إذا انتهى عَرْض الأخير .

وهذا كلام فصيح جداً .

والغَوْر : العمق . والنّطفة : ماصفا من الماء ، وما أنقع هذا الماء ! أى ما أرواه للعطش !

---

(١) ج : « مجىء الذين يخلقون » .

(٢٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَٱسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ ٱلْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ[(١)]، وَيَرْجِعَ ٱلْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ .

وَٱللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً ؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوه ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوه ؛ فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ ، وإن كَانُوا وَلُوهُ دُونِي ؛ فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ . وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ يَرْتَضِعُونَ أُمًّا قَدْ فَطَمَتْ ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ .

يَاخَيْبَةَ الدَّاعِي ! مَنْ دَعَا ! وَإِلَامَ أُجِيب ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ ، وَعِلْمِهِ فِيهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْف ، وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ ٱلْبَاطِلِ ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ !

وَمِنَ ٱلْعَجَبِ بَعْثَتُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ ، وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ . هَبِلَتْهُمُ ٱلْهَبُول! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ . وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي ، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي .

* * *

---

(١) ا : « قطابه » .

الشَّرْحُ :

يروى : « ذَمَر » بالتخفيف ، و «ذمّر» بالتشديد ، وأصله الحضّ والحثّ،والتشديد دليل على التكثير .

واستجلب جَلَبه ، الجلَب بفتح اللام : مايُجلب ، كما يقال : جَمَع جَمْعَه . ويروى : « جُلْبَه » و « جِلْبَه »؛وهما بمعنًى ، وهو السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه،أى جمع قوما كالجهام الذى لا نفع فيه . وروى : « ليعودَ الجَوْر إلى قِطابه » ، والقِطاب : مِزاج الخمر بالماء ، أى ليعود الجوْر ممتزِجاً بالعدل كما كان . ويجوز أن يعنِيَ بالقِطاب قِطاب الجيْب ، وهو مدخل الرأس فيه ، أى ليعودَ الجوْر إلى لباسه وثوبه .

وقال الراوندىّ : قِطابه : أصله ؛ وليس ذلك بمعروف فى اللّغة .

ورُوِيَ « الباطلَ » بالنصب ؛ على أن يكون « يرجع » متعديا ، تقول : رجعت زيدا إلى كذا ؛ والمعنى : ويردّ الجورُ الباطل إلى أوطانه .

وقال الراوندىّ : «يعود» أيضاً مثل «يرجع» ، يكون لازما ومتعديا،وأجاز نصب « الجوْر » به ؛ وهذا غير صحيح ؛ لأن « عاد » لم يأت متعديا ، وإنما يعدّى بالهمزة .

والنَّصَف : الذى يُنصِف .

وقال الراوندىّ: النَّصَف : النَّصَفة[1]؛والمعنى لايحتمله ؛ لأنه لامعنى لقوله:ولاجَعلوا بينى وبينهم إنصافا ، بل المعنى : لم يجعلوا ذا إنصاف بينى وبينهم .

يرتضعون أمًّا قد فَطَمت ، يقول : يطلبون الشيء بعد فواته ؛ لأنّ الأم إذا فَطَمت ولدها فقد انقضى إرضاعها .

وقوله : «ياخيبة الداعى» ، هاهنا كالنداءفى قوله تعالى:﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[2]، وقوله : ﴿ يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَافَرَّطْنَا فِيهَا ﴾[3] أى ياخيبة احضرى فهذا أوانك !

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « النصف » ، والنصفة : العدل .

(٢) سورة يس ٣٠ (٣) سورة الأنعام ٣١ .

وكلامُه فى هذه الخطبة مع أصحاب الجمل ؛ والداعى هو أحدُ الثلاثة:الرجلان والمرأة.

ثم قال على سبيل الاستصغار لهم ، والاستحقار : « مَنْ دَعَا ! وإلى ماذا أجيب ! » أى أحقِرْ بقومٍ دعاهم هذا الداعى ! وأقْبِحْ بالأمر الذى أجابوه إليه،فما أفحشه وأرذله !

وقال الراوندىّ : ياخيبة الداعى ؛ تقديره : ياهؤلاء ، فحذف المنادَى ، ثم قال: خَيْبة الداعى ؛ أىْ خاب الداعى خيبةً . وهذا ارتكاب ضرورة لا حاجةَ إليها ، وإنما يُحذف المنادَى فى المواضع التى دَلّ الدّليلُ فيها على الحذف ، كقوله :

* يا فَانْظُرَا أيْمنَ الْوَادِى على إضَمِ *

وأيضاً ، فإنّ المصدر الذى لا عامَل فيه غير جائزٍ حذفُ عامله ؛ وتقدير حذفه تقديرُ مالا دليلَ عليه .

وهَبِلته أمه ، بكسر الباء : ثَكِلته .

وقوله : « لقد كنتُ وما أُهدَّد بالحرب »، معناه : مازلتُ لا أُهَدَّد بالحرب،والواو زائدة . وهذه كلمة فصيحة كثيرا ماتستعملها العرب . وقد ورد فى القرآن العزيز « كان » بمعنى « مازال » فى قوله : ﴿ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[1] ونحو ذلك من الآى ، معنى ذلك:لم يزل اللهعليماحكيما.والذى تأوّلهالمرتضى رحمهاللهتعالىفى " تكملة الغرروالدرر "[2] كلام متكلّف ، والوجه الصحيح ما ذكرناه .

***

وهذه الخطبة ليست من خُطَب صِفّين كما ذكره الراوندىّ،بل من خُطَب الجمل،وقد ذكر كثيرامنها أبو مِخْنف رحمه الله تعالى، قال : حدّثنا مسافِر بن عفيف بن أبى الأخنس

---

(١) سورة النساء ١٧٠

(٢) تكملة الغرر والدرر ٢ : ٣٠٠ ـ ٣٠٢

قال : لما رجعتْ رُسُل علىّ عليه السلام من عند طلحة والزّبير وعائشة يُؤْذِنُونه بالحَرْب ، قام فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلّى على رسوله صلى الله عليه ، ثم قال :

أيُّها النّاس ، إنّى قد راقبتُ هؤلاء القوم كى يرعَوُوا أو يرجعوا ، ووبّختُهم بنَكْثهم ، وعَرّفتهم بَغْيَهُمْ فلم يستحيُوا ، وقد بعثوا إلىّ أن أبرُز للطعان ، وأصبر للجِلاد ، وإنما تُمنّيك نفسك أمانى الباطل ، وتَعِدُك الغرور . ألا هَبِلَتْهم الهَبول ، لقد كنت وما أُهَدَّدُ بالحرب ، ولا أُرَهَّبُ بالضرب ! ولقد أنصفَ القارةَ مَنْ راماها[1] ، فليُرعِدُوا وليُبْرِقوا ، فقد رأوْنى قديماً ، وعرفُوا نِكايتى ، فكيف رأوْنى ! أنا أبو الحسن ، الذى فَلَلْتُ حدّ المشركين ، وفرّقْتُ جماعتهم ، وبذلك القلب ألقَى عدوّى اليوم ، وإنّى لعلى ما وعدنى ربِّى من النصر والتأييد ، وعلى يقينٍ من أمرى ، وفى غير شُبهة من دينى .

أيّها الناس ، إن الموت لا يفوتُه المقيم ، ولا يُعْجِزه الهارب ، ليس عن الموت مَحِيد ولا محيص ، مَنْ لم يُقْتَلْ مات .

إنّ أفضلَ الموت القتل ، والذى نفس علىّ بيده لألفُ ضربة بالسيف أهونُ من موتةٍ واحدة على الفراش . اللّهمّ إنّ طلحة نكث بَيْعتى ، وألّبَ عَلَى عثمان حتى قتله ، ثم عَضَهَنى[2] به ورمانى .

اللهم فلا تُمهِلْه . اللهمّ إنّ الزبير قطع رَحِمِى ، ونكث بَيْعتى ، وظاهَر علىّ عدوّى ، فاكفِنِيه اليوم بما شئت .

ثم نزل .

---

(١) قد أنصف القارة من راماها ؛ مثل ، والقارة : قوم رماة من العرب . وفى اللسان (٦ : ٤٣٦). عن التهذيب : « كانوا رماة الحدق فى الجاهلية ؛ وهم اليوم فى اليمن ينسبون إلى أسد ، والنسبة إليهم قاريّ ، وزعموا أن رجلين التقيا ؛ أحدهما قاري والآخر أسدى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القارى : لقد أنصفتنى ، وأنشد :

قد أنصف القارةَ مَنْ رَامَاهَا ... إنّا إذا مافِئَةٌ نلقاهـا

* نردّ أُولاها على أُخراها *

ثم انتزع له سهما فشك فؤاده

(٢) عضهه ، أى قال فيه ما لم يكن .

[خطبة علىّ بالمدينة فى أول إمارته]

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أصحابه وعمّاله فى واقعة الجمل ، كلّه يدورُ على هذه المعانى التى اشتملت عليها ألفاظُ هذا الفصل ؛ فمن ذلك الخطبةُ التى رواها أبو الحسن علىّ بن محمد المدائنىّ ، عن عبد الله بن جُنَادة ، قال : قدِمْتُ من الحجاز أريد العِراق ؛ فى أوّلِ إمارة علىّ عليه السلام ، فمررت بمكة ، فاعْتمرت ، ثم قدِمْتُ المدينة ، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إذ نودى : الصّلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس ، وخرج علىّ عليه السلام متقلّداً سيفَه ، فشخَصت الأبصارُ نحوه ، فحمِد الله وصلى على رسوله ، صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّه لما قَبَض الله نبيّه صلى الله عليه وآله ، قلنا : نحن أهلُه وورثته وعِترته ، وأولياؤه دون الناس ، لا ينازِعُنا سلطانَه أحد ، ولا يطمع فى حقّنا طامع ؛ إذ انبرى لنا قومُنا فغصبونا سلطان نبيّنا ، فصارتِ الإمْرة[1] لغيرنا ، وصرنا سوقة ؛ يطمع فينا الضعيف ؛ ويتعزّز علينا الذليل ؛ فبَكتِ الأعين مِنّا لذلك ، وخَشِنَتِ[2] الصدور ، وجزِعت النفوس . وايمُ الله لولا مخافة الفُرْقة بين المسلمين ، وأن يعودَ الكفر ، ويبورَ الدين ، لكنّا على غير ما كنّا لهم عليه ، فولِىَ الأمْرَ ولاة لم يألُوا الناسَ خيرا ، ثم استخرجتمونى أيها الناس من بيتى ، فبايعتمونى على شَيْنٍ مِنّى لأمرِكم ، وفِراسة تَصْدُقنى ما فى قلوب كثير منكم ، وبايعنى هذان الرجلان فى أوّل مَنْ بايع ، تعلمون ذلك ، وقد نكثا وغدَرا ، ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرّقا جماعتكُم ، ويُلقيا بأسَكم بينكم . اللّهمّ فخذْهما بما عمِلا أخذةً رابية[3] ،

---

(١) ا « الإمارة » . (٢) كذا فى ج ، وخشنت أى أوغرت ، ومنه قول عنترة :

* وَخشنتَ صَدْرًا جيبُه لك ناصحُ *

وفى ا « خشيت » ، والوجه ما أثبته من ا

(٣) ب : « أخذة واحدة رابية » ، وما أثبته عن ا . وأخذة رابية ، أى أخذة تزيد على الأخذات ، وقال الجوهرى : أى زائدة ، كقولك : أربيت ، إذا أخذت أكثر مما أعطيت ، قال تعالى : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ .

ولا تنعَش[1] لهما صَرْعة ، ولا تقِلْ لهما عَثْرة ، ولا تمهلْهما فُواقا[2] ، فإنّهما يطلبان حقا تركاه ، ودماً سفكاه . اللهم إنّي أقتضيك وعدك ، فإنّك قلتَ وقولُك الحقّ : « ثُمَّ بُغِيَ عليه لينصرنه الله[3] » اللهمّ فأنجِزْ لي موعدَك ، ولا تكِلْني إلى نفسي ، إنّك على كلّ شيء قدير .

ثم نزل .

* * *

[خطبته عند مسيره للبصرة]

وروى الكلبيّ قال : لما أراد عليّ عليه السلام المسيرَ إلى البصرة ، قام فخطب النّاس ، فقال بعد أنْ حَمِد الله وصلى على رسوله ، صلى الله عليه :

إنّ الله لما قبض نبيّه ، استأثرتْ علينا قريش بالأمر ، ودفعتْنا عَنْ حَقٍّ نحن أحقُّ به من الناس كافّة ، فرأيت أنّ الصّبر على ذلك أفضلُ من تفريق كلمة المسلمين ، وسَفْك دمائهم . والنّاس حديثو عهد بالإسلام ، والدين يُمْخَضُ مَخْضَ الوطْب ، يُفسِدُه أدنى وَهَن ، ويعكسه أقلّ خُلْف . فولِيَ الأمرَ قوم لم يألوا في أمرهم اجتهاداً ، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء ، والله وليّ تمحيص سيّئاتهم ، والعفوِ عن هفواتهم . فما بالُ طلحة والزبير ، وليسا من هذا الأمر بسبيل ! لم يصبرا عليّ حولا ولا شهْرا حتى وَثَبا ومَرَقا ، ونازعاني أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلا ، بعد أن بايعا طائعين غيرَ مكرهين ، يرتضِعَانِ أُمّا قد فَطَمت ، ويُحْيِيان بِدْعةً قد أُميتت . أدمَ عثمان زعما ! والله ما التَّبِعةُ إلا عندهم وفيهم ، وإنّ أعظمَ حُجّتهم لعلى

---

(١) النعش : الرفع ؛ نعشت فلانا ، إذا جبرته بعد فقر ، وأقلته بعد عثرة .

(٢) الفواق ، بفتح الفاء وضمها : مابين الحلبتين من الوقت ؛ لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرتضعها الفصيل لتدر ثم تحلب ؛ يقال : ما أقام عندنا إلا فواقا ، أى قدر فواق .

(٣) الآية بأكملها فى سورة الحج ٦٠ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

أنفسهم ، وأنا راضٍ بحجّة الله عليهم وعمله فيهم ، فإنْ فاءا وأنابا لحظّهما أحرزا ، وأنفسهما غَنِما ، وأعظِمْ بها غنيمة ! وإنْ أبَيَا أعطيتُهما حدّ السيف ، وكفى به ناصراً لحقّ ، وشافياً لباطل .

ثم نزل .

* * *

[خطبته بذى قار]

وروى أبو مِخْنف عن زيد بن صُوحان ، قال : شَهِدتُ عليا عليه السلام بذى قار[1] ، وهو معتمّ بعامة سَوْداء ، ملتفّ بساجٍ يخطب ، فقال فى خطبة :

الحمد لله على كلّ أمر وحال ، فى الغدوّ والآصال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه ، ابتعثه رحمةً للعباد ، وحياة للبلاد ، حين امتلأت الأرض فتنة ، واضطرب حبلُها ، وعُبِد الشيطان فى أكنافها ، واشتمل عدوّ الله إبليسُ على عقائدأهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب ، الذى أطفأ الله به نيرانها ، وأخمدَ به شرارها ، ونزع به أوتادَها ، وأقام به مَيْلَها ، إمام الهُدى ، والنبىّ المصطفَى ، صلّى الله عليه وآله . فلقدْ صَدَعَ بما أُمِرَ به ، وبلّغ رسالات ربّه ، فأصلَح الله به ذاتَ البيْن ، وآمَن به السُّبُلَ ، وحقَنَ به الدماء ، وألّف به بين ذَوِى الضغائن الواغِرة فى الصدور ، حتى أتاه اليقينُ ، ثم قَبَضه الله إليه حَمِيدا . ثم استخلف الناسُ أبا بكر ، فلم يألُ جُهْدَه ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يألُ جُهدَه ، ثم استخلف الناس عثمان ، فنال منكم ونِلْتُمْ منه ، حتّى إذا كان من أمره ما كان ، أتيتُمونى لتبايعُونى ، لا حاجةَ لى فى ذلك ، ودخلتُ منزلى ، فاستخرجْتُمونى فقبَضْتُ يدِى فبسطتموها ، وتداككْتم[2] علىّ ، حتى ظننتُ أنكم قاتلىّ ، وأن بعضكم قاتلُ بعض ، فبايعتمونى وأنا غيرُ مسرور بذلك ولا جَذِل .

---

(١) ذوقار : موضع قريب من البصرة ؛ وهو المكان الذى كانت فيه الحرب بين العرب والفرس .
(٢) تداككتم : تزاحمتم .

وقد علم الله سبحانه أنى كنتُ كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله ، ولقد سمعتُه يقول : « مامن والٍ يَلِي شيئاً من أمْرِ أمّتى إلا أُتِيَ به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه على رءوسِ الخلائق ، ثم يُنشَر كتابه ، فإن كان عادلاً نجا ، وإن كان جائراً هَوَى » ، حتى اجتمع علىّ مَلَؤُكم ، وبايعنى طلحة والزبير ، وأنا أعرفُ الغَدْرَ فى أوجههما ، والنَّكْث فى أعينهما ، ثم استأذنانى فى العُمْرة ،فأعلمتُهما أن ليس العمرةَ يريدان ، فسارا إلى مكّة واستخفّا عائشة وخدعاها ، وشخص معهما أبناء الطُّلَقاء[1] ، فقدِموا البصرة ، فقتَلوا بها المسلمين ، وفعلوا المنكر . وياعجَبا لاستقامتِهما لأبى بكر وعمر وبَغْيِهما علىّ ! وهما يعلمان أنّى لست دون أحَدِهما ، ولو شئت أن أقول لقلت ؛ ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدَعهُما فيه ، فكتَماه عنّى ، وخرجا يُوهِمان الطَّغَام أنّهما يطلبان بدم عثمان ؛ والله ما أنكرا علىّ منكَرا ، ولا جعلا بينى وبينهم نصَفاً ،وإنّ دم عثمان لمعصوبٌ بهما ، ومطلوب منهما . ياخَيْبة الدّاعى ! إلاَمَ دعَا ! وبماذا أجيبَ ؟ والله إنّهما لعلَى ضلالةٍ صمّاء ، وجهالة عمياء ، وإنّ الشيطان قد ذَمَّر لهما حِزْبه ، واستجلب منهما خَيْله ورَجْله ، ليعيدَ الجوْرَ إلى أوطانه ، ويرُدّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه ، فقال : اللهمّ إنّ طلحة والزّبيْر قطعانى ، وظلمانى ، وألّبا علىّ ، ونكثا بيعتى ، فاحلُلْ ماعقدا ، وانكُثْ ما أبرما ، ولا تغفر لهما أبداً ، وأَرِهما المساءة فيما عمِلا وأمّلا !

قال أبو مِخْنف : فقام إليه الأشتر فقال :

الحمدلله الذى منّ علينا فأفضَل،وأحسن إلينا فأجمَل،قدسَمِعْنا كلامَك ياأمير المؤمنين،ولقد أصبت ووفِّقت،وأنت ابن عمّ نبينا وصهره ووصيّه، وأوّل مصدِّق به ، ومصلّ معه،شهدتَ

---

(١) الطلقاء : هم الذين خلى عنهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ، وأطلقهم فلم يسترقهم ، واحدهم طليق ، فعيل بمعنى مفعول ، وهو الأسير إذا أطلق سبيله .

مشاهدَه كلِّها ، فكان لك الفضلُ فيها على جميع الأمة ، فمن اتّبعك أصاب حظّه ، واستبشرَ بفَلَجِه ، ومَنْ عصاك ، ورغِب عنك ؛ فإلى أمّه الهاوية ! لعمرى يا أمير المؤمنين ما أمرُ طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل ، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه ، وفارقا على غير حَدَث أحدثْت ، ولا جوْر صنعت ؛ فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان فليُقِيدا من أنفسهما فإنهما أولُ من ألّبَ عليه وأغرَى الناسَ بدمه ، وأُشهِدُ الله ، لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لَنُلْحِقَنَّهُما بعثمان ، فإنّ سيوفَنا فى عواتقنا ، وقلوبَنا فى صدورنا ، ونحن اليوم كما كنّا أمس . ثم قعد .

(٢٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ فإن (١) رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ ؛ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً ، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَالَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ ؛ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ . وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ؛ إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ ، وَإِمَّا رِزْقَ اللهِ ؛ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ ؛ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ .

إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ ؛ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تعالى لِأَقْوَامٍ ؛ فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ . نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ ، وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ ؛ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ ، وَأَعْطَفُهُمْ

---

(١) ب : « فإذا » .

عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إن[1] نَزَلَتْ بِهِ ، وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ يَجْعَلُهُ ٱللهُ لِلْمَرْءِ فى النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلْمَالِ يُورِّثُهُ غَيْرَهُ .

ومنها :

أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ ٱلْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا ٱلْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِى لَا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ . وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عنهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ .

وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ ٱلْمَوَدَّةَ .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله[2] :

أقُولُ : الغَفِيرَةُ هنا هنا ٱلزِّيادَةُ وَٱلْكَثْرَةُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ للجمعِ الكثيرِ : ٱلْجَمُّ الغفير ، وَٱلجمّاء الغَفير . وَيُرْوى : « عَفْوَةً من[3] أهلٍ أوْ مال » ، وَالعَفْوَةُ : ٱلخيار من الشىء ؛ يقال : أكلْتُ عَفْوَةَ الطعام ، أى خِيارَه .

وَما أحْسنَ المعنى الذى أرادهُ عليه السلامُ بِقولِهِ : « ومن يَقْبِضْ يدهُ عَنْ عَشِيرتِهِ ... » إلى تمام الكلام ، فإنَّ ٱلْمُمْسِكَ خَيْرَهُ عَن عَشِيرَتِهِ ، إنما يُمْسِكُ نَفْعَ يَدٍ واحدةٍ ، فإذا احْتاجَ إلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضْطُرَّ إلى مرافِدِهِمْ ، قَعَدُوا عن نصرِهِ ، وَتَثاقَلوا عن صَوْته ؛ فَمُنِعَ تَرافُدَ الأيدى الكثيرةِ وَتَناهُضَ الأقدامِ ٱلجَمّةِ .

* * *

(١) ب : « إذا » .
(٢) ساقطة من ا .
(٣) ا « فى » .

الشرح :

الفالج : الظافر الفائز ، فَلَج يَفْلُج ، بالضم ، وفى المثل : « مَنْ يأت الحَكَم وحده يَفْلُج » . والياسر : الذى يلعب بالقداح ، واليَسَر مثله ، والجمع أيسار . وفى الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : كالياسر الفالج ، أى كاللاعب بالقِداح المحظوظ منها ، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف ، كقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[1] ، وحَسَّن ذلك ها هنا أنّ اللفظتين صفتان ، وإن كانت إحداهما مرتّبةً على الأخرى .

وقوله : « ليست بتعذير » ، أى لَيست بذات تعذير ، أى تقصير ، لحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ * النَّارِ ﴾[2] أى ذى النّار .

وقوله : « هم أعظم الناس حَيْطة » كَبَيْعَة ، أى رعاية وكلاءة ، ويروى : « حِيطة » ، كَغيبة ، وهى مصدر حاط أى تحنّنا وتعطفا .

والخصاصة : الفقر ، يقول : القضاء والقَدَر ينزلان من السماء إلى الأرض كقطْر المطر ، أى مبثوث فى جميع أقطار الأرض إلى كلّ نفس بما قُسِم لها من زيادة أو نقصان ، فى المال والعمر والجاه والولد وغير ذلك . فإذا رَأى أحدُكم لأخيه زيادة فى رزق أو عمر أو ولد وغير ذلك ؛ فلا يكونَنّ ذلك له فِتْنَةً تُفضى به إلى الحسد ، فإنّ الإنسان المسلم إذا كان غيرَ مُواقِعٍ لدناءة وقبيح يَسْتحيى من ذكره بين الناس ، ويخشع إذا قرِّع به ، ويغرَى لئام الناس بهَتْك ستره به ، كاللاعب بالقِداح ؛ المحظوظ منها ، ينتظر أول فَوْزَة وغلبَة من قِدَاحه ، تجْلب له نفعا ، وتدفع عنه ضرّا ؛ كذلك مَنْ وصفْنا حالَه ، يصبر وينتظر إحدى الحسنيين ؛ إمّا أنْ يدعُوَه الله فيقبضَه إليه ، ويستأثِرَ به ، فالذى عند الله خير له . وإما أنْ يُنْسَأ فى أجَله ، فيرزقه اللهُ أهلا ومالا ، فيصبِحَ وقد اجتمع له ذلك مع حَسَبه ودينه ومروءته المحفوظة عليه .

ثم قال : « المال والبنون حرث الدنيا » ، وهو من قوله سبحانه : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ

(١) سورة فاطر ٢٧ . (٢) سورة البروج ٤ ، ٥

زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] ، ومن قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ ﴾[2] .

قال : وقد يجمعهما الله لأقوام ، فإنّه تعالى قد يرزقُ الرجل الصالح مالاً وبنين ، فتجتمِعُ له الدنيا والآخرة .

ثم قال : « فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه » ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿فَاتَّقُونِ﴾[3] ، وقال : ﴿فَارْهَبُونِ﴾[4] ، وقال : ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[5] ، وغير ذلك من آيات التحذير .

ثم قال : ولتكن التقْوى منكم أقصى نهايات جهدكم ، لا ذات تقصيركم ، فإنّ العمل القاصر قاصر الثواب ، قاصر المنزلة .

***

[فصل فى ذم الحاسد والحسد]

واعلم أن مصدرَ هذا الكلام النهيُ عن الحسد ، وهو من أقبح الأخلاق المذمومة . وروى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « ألا لا تعادُوا نعم الله » ، قيل : يا رسول الله ، ومن الذى يعادِى نعم الله ؟ قال : « الذين يحسدون الناس » .

وكان ابن عمر يقول : تعوّذوا بالله من قَدَرٍ وافق إرادةَ حسود .

(١) سورة الكهف ٤٦ .
(٢) سورة الشورى ٢٠ .
(٣) سورة البقرة ٤١ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ .
(٤) سورة البقرة ٤٠ . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ .
(٥) سورة المائدة ٤٤ .

قيل لأرسطو : ما بالُ الحسود أشدّ غمّا من المكروب ؟ قال : لأنه يأخذ نصيبَه من غموم الدنيا ، ويضاف إلى ذلك غمُّه بسرور الناس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإنّ كلّ ذى نعمة محسود » .

وقال منصور الفقيه[1] :

مُنَافَسَةُ ٱلْفَتَى فِيمَا يَزُولُ ... عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ
وَمُخْتَارُ ٱلْقَلِيلِ أَقَلُّ مِنْهُ ... وَكُلُّ فَوائِدِ الدُّنْيَا قَلِيلُ

ومن الكلام المروىّ عن أمير المؤمنين عليه السلام : لله درّ الحسد ! ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتَله .

ومن كلام عثمان بن عفان : يكفيك من انتقامك من الحاسد أنّه يغتمّ وقتَ سرورك .

وقال مالك بن دينار : شهادة القرّاء مقبولة فى كلّ شىء إلا شهادة بعضهم على بعض ، فإنّهم أشدُّ تحاسدا من السُّوس فى الوبَر .

وقال أبو تمّام :

وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ ، أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ[2]
لولا ٱشْتِعَالُ النَّارِ فِيما جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ ٱلْعُودِ
لَوْلَا مُحَاذَرَةُ ٱلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ ... لِلحاسِدِ النُّعْمَى عَلَى ٱلْمَحْسُودِ[3]

وتذاكر قوم من ظرفاء البَصْرة الحسَد ، فقال رجل منهم : إنّ النّاس ربّما حسدوا على الصَّلب ؛ فأنكروا ذلك ، ثم جاءهم بعد ذلك بأيام ، فقال : إنّ الخليفة قد أمر بصلْب

---

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عيسى التميمى أحد فقهاء الشافعية . طبقات السبكى ٢ : ٣١٧
(٢) ديوانه ١ : ٤٠٢ (٣) الديوان : « لولا التخوف للعواقب » .

الأحنف[1] بن قيس[1] ، ومالك بن مِسْمَع ، وحَمْدان الحجّام؛ فقالوا: هذا الخبيثُ يُصْلَب مع هذين الرئيسين ! فقال : ألم أقُلْ لكم إنّ الناس يحسُدون على الصَّلب !

وروَى أنس بن مالك مرفوعا: «إنّ الحسَد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطب».

وفى الكتب القديمة : يقول الله عز وجل : الحاسِد عدوّ نعمتى ، متسخّط لفعلى ، غير راضٍ بقسمتى .

وقال الأصمعىّ : رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ مائة وعشرين سنة ، فقلت له : ما أطولَ عمرَك ! فقال : تركتُ الحسدَ فبقِيت .

وقال بعضهم : ما رأيتُ ظالما أشبهَ بمظلوم من حاسد .

قال الشاعر :

تراهُ كأنّ الله يجدَعُ أنفَــه   وأذْنيه إنْ مولاه ثابَ إلى وَفْرِ

وقال آخر :

قُلْ للحسُود إذَا تنَفّس ضِغْنُهُ   ياظالِماً وَكأنّهُ مَظْلُومُ !

ومن كلام الحكماء : إيّاك والحسَد ، فإنّه يَبِينُ فيك ولا يَبين فى المحسود .

ومن كلامهم : من دناءة الحاسِدِ أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب .

وقيل لبعضهم : لزمتَ الباديةَ ، وتركتَ قومَكَ وبلدك ! قال : وهل بقِىَ إلا حاسدُ نِعمة ، أو شامتٌ بمصيبة !

بينا عبد الملك بن صالح يسيرُ مع الرّشيد فى موكبه ، إذ هتف هاتف : ياأميرالمؤمنين ، طأطئْ من إشرافه ، وقصِّر من عِنانه ، واشْدُدْ من شِكاله ـ وكان عبدُ الملك متّهما

---

(١) ساقط من ب

عند الرشيد بالطَّمَع في الخلافة ـ فقال الرّشيد : مايقول هذا ؟ فقال عبدُ الملك : مقالُ حاسد ودسيسُ حاقدٍ يا أمير المؤمنين . قال : قد صدقت ، نقصَ القومُ وفضلتَهم ، وتخلفّوا وسبقتَهم ؛ حتى برز شأوُك ، وقصّر عنك غيرُك ، ففي صدورهم جمراتُ التخلُّف ، وحزازاتُ التبلّد . قال عبد الملك : فأضرِمْها ياأمير المؤمنين عليهم بالمزيد .

وقال شاعر :

يَاطَالِبَ ٱلْعَيْشِ فِى أَمْنٍ وَفِى دَعَةٍ ... مَحْضــــاً بِلَا كَدَرٍ ، صَفْواً بِلَا رَنَقِ
خَلِّصْ فُؤَادكَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ ... فالغِلّ فى ٱلْقَلْبِ مثلُ الغُلِّ فى ٱلْعُنُقِ

ومن كلام عبد الله بن المعتز : إذا زال المحسودُ عليه ، علمتَ أنّ الحاسد كان يحسدُ على غير شيء .

ومن كلامه : الحاسدُ مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه .

ومن كلامه : لا راحةَ لحاسد ، ولا حَياةَ لحريص .

ومن كلامه : الميت يقلّ الحسدُ له ، ويكثر الكذبُ عليه .

ومن كلامه : ماذلّ قوم حتى ضَعفُوا ، وما ضَعفُوا حتى تفرّقوا ، وما تفرّقوا حتى اختلفوا ، وما اختلفوا حتّى تباغضوا ، وما تباغضوا حتى تحاسدوا ، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض .

وقال الشاعر :

إِنْ يَحْسُدُونِى فَإِنِّى غَـــيْرُ لَائِمِهِمْ ... قَبْلِى مِنَ النَّاسِ أَهلِ ٱلْفَضْلِ قَدْ حُسِدوا(1)
فَـــدَامَ لِى وَلَهُمْ مَابِى وَمَا بِهِمُ ... وَماتَ أَكْثَرُنَا غَيظـــاً بِمَا يَجِـدُ

(1) من أبيات في أمالي المرتضى ١ : ٤١٤ ، ونسبها إلى الكميت بن زيد ؛ وهي في شرح المختار من شعر بشار ٦٧ من غير نسبة ، وعيون الأخبار ٢ : ١١ ، وأمالي القالي ٢ : ١٩٨

ومن كلامهم : ماخلا جَسَدٌ عن حسد .

وحدُّ الحَسد هو أن تغتاظَ مما رُزِقَه غيرُك ، وتودّ أنه زال عنه وصار إليك . والغبطة : ألّا تغتاظ ولا تودّ زوالَه عنه ؛ وإنما تودّ أن تُرْزَقَ مِثْله ، وليست الغبطة بمذمومة .

وقال الشاعر :

حَسَدُوا ٱلْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالْكُلُّ أَعْـداءٌ لَهُ وَخُصُومُ (١)
كَضَرَائِرِ ٱلْحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ـ حَسَداً وَبَغْياً ـ إِنَّهُ لَدَمِيمُ

* * *

[فصل فى مدح الصبر وانتظار الفرج]

واعلم أنه عليه السلام بعد أن نهى عن الحَسد أمر بالصبر وانتظار الفرَج من الله ، إما بموتٍ مريح ، أو بظفرٍ بالمطلوب .

والصبرُ من المقامات الشريفة ، وقد وَرَدت فيه آثارٌ كثيرة ، روى عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ الصبر نصفُ الإيمان ، واليقين الإيمان كلّه » .

وقالت عائشة : لو كان الصبر رجلا لكان كريما .

وقال علىّ عليه السلام : الصّبر إمّا صبر على المصيبة ، أو على الطاعة ؛ أو عن المعصية؛ وهذا القسم الثالث أعْلَى درجةً من القسمين الأوّلين .

وعنه عليه السلام : الحياء زينة ، والتقوى كرم ، وخير المراكب مركب الصبر .

وعنه عليه السلام : القناعة سيفٌ لا ينبُو ، والصبر مَطِيّةٌ لا تكبو ، وأفضل العدّة الصبرُ على الشدّة .

قال الحسن عليه السلام : جَرّبْنا وجَرّب المجرِّبون ، فلم نرَ شيئا أنفعَ وِجدانا ، ولا أضرّ فِقدانا من الصبر ؛ تُدَاوَى به الأمور ، ولا يداوى هُوَ بغيره .

---

(١) لأبى الأسود الدؤلى ، ملحق ديوانه ٥١ .

وقال سعيد بن حُمَيد الكاتب[1] :

لَا تَعْتِبَنَّ عَلَى ٱلنَّوَائِبْ فَالدَّهْرُ يُرْغِمُ كُلَّ عَاتِبْ
وَاصْبِرْ عَلَى حَدَثَانِهِ إِنَّ الأُمورَ لهـا عَوَاقِبْ
كَمْ نِعْمَةٍ مَطْوِيَّةٍ لَكَ بَيْنَ أثناءِ النَّوَائِبْ[2]
وَمَسَرَّةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ حَيْثُ تَنْتَظِرُ ٱلْمَصائِبْ

ومن كلامهم : الصّبر مُرّ ، لا يتجرّعه إلا حُرّ .

قال أعرابىّ : كُنْ حُلْوَ الصَّبْر عِنْدَ مَرارة النّازلة .

وقال كسرى لِبُزُرْجُمِهر : ماعلامةُ الظفر بالأمور المطلوبة المستصعبَة ؟ قال :ملازمة الطّلب ، والمحافظة على الصبْر ، وكِتمان السر .

وقال الأحنف بن قيس : لست حليماً ؛ إنّما أنا صبور ، فأفادنى الصبر صِفَتِى بالحلْم .

وسئل علىّ عليه السلام : أىّ شىء أقربُ إلى الكفر ؟ قال : ذو فاقة لا صبر له .

ومن كلامه عليه السلام : الصّبر يُناضِل الحدَثان ، والجزع من أعوان الزمان .

وقال أعشى هَمْدان :

إنْ نِلْتُ لم أَفْرَحْ بشىء نِلْتُهُ وإذا سُبِقْتُ به فلا أتلهّفُ[3]
وَمَتَى تُصِبْك من الحوادثِ نَكْبَةٌ فاصْبِرْ فكلّ غَيَابَةٍ تتَكَشَّفُ

والأمر يذكر بالأمر ، وهذا البيت هو الذى قاله له الحجّاج يوم قتله ، ذكر ذلك أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارىّ فى "الأمالى" ، قال : لمّا أُتِىَ الحجاجُ بأعشى هَمْدان أسيرا ؛ وقد كان خرج مع ابن الأشعث ، قال له : يابن اللخْناء ! أنت القائل لِعدوّ الرحمن — يعنى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

(١) البيتان : الثالث والرابع فى شرح المختار من شعر بشار ٣١٤ ، من غير نسبة .
(٢) شرح المختار : «كم فرجة» .
(٣) ديوان الأعشين ٣٥ ، مع اختلاف فى الرواية والترتيب .

يابنَ الأشجِّ قريعِ كِنْـ دَةَ لا أبالى فيك عتبــا[1]
أنت الرئيسُ ابنُ الرئيـ سِ ، وأنتَ أعلى النّاسِ كَعْبَا[2]
نُبِّئتَ حجاجَ بن يوسـ فَ خَرّ مِنْ زَلَقٍ فَتَبّا
فَانْهَضْ هُـدِيتَ لَعَـلَّهُ يَجْلُو بكَ الرّحْمٰنُ كَرْبا[3]
وابعث عطيةَ فى الحرُو بِ يكبّهنّ عليه كبّا

ثم قال : عبد الرحمن خَرّ من زَلَقٍ فتَبّ ، وخسِر وانـكبّ ، وما لقىَ ما أحبّ . ورفع بها صوته ، واهتز منـكباه ، ودرّ وَدَجاه[4] ، واحمرّت عيناه ، ولم يبق فى المجلس إلا من هابه ، فقال : أيها الأمير ، وأنا القائل :

أبى اللهُ إلّا أنْ يُتَمِّمَ نُورَهُ وَيُطْفِئَ نَارَ الـكَافِرِينَ فتخمُدا[5]
ويُنْزِلَ ذُلًّا بالعراق وأهله كما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكّدا
وما لَبِثَ الحجّاج أنْ سَلّ سيفَه علينا ، فوَلّى جَمْعُنَا وتبــدّدا

فالتفت الحجّاج إلى مَنْ حضر ، فقال : ما تقولون ؟ قالوا : لقد أحسن أيها الأمير ، ومَحَا بآخِرِ قوله أولَهُ ، فليَسَعْه حِلْمُك . فقال : لاها الله ! إنه لم يُرِدْ ماظننتم ، وإنما أراد تحريضَ أصحابه ، ثم قال له : ويلك ! ألست القائل :

إنْ نِلْتُ لَمْ أَفْرَحْ بشىءٍ نِلْتُهُ وإذا سُبِقْتُ بهِ فَلَا أَتَلَهّفُ
وَمَتَى تُصِبْكَ مِنَ الحوادِثِ نَـكْبَةٌ فاصْـبِرْ ، فَـكُلُّ غيابةٍ تتَـكَشّفُ

أما والله لتُظْلِمَنّ عليك غَيَابَةٌ لا تنـكشف أبدا ، ألست القائل فى عبد الرحمن :

وإذا سألتَ المجدَ أين مَحَلّهُ فالمجـدُ بَيْنَ محمدٍ وسَعِيـدِ

---

(١) ديوان الأعشين ٣١٢ (٢) ديوان الأعشين : « أعلى القوم » .
(٣) ديوان الأعشين : « فديت » .
(٤) يقال : در العرق ، إذا امتلأ دماً ، والودجان : عرقان فى العنق .
(٥) ديوان الأعشين ٣٢٠ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

بَيْنَ الأَشَجِّ وَبَيْنَ قَيْسٍ نَازِلٌ　　بَخْ بَخْ لِوالِدِهِ وللمولودِ[(١)]

والله لا يُبَخْبِخُ[(٢)] بعدها أبدا : ياحرسيّ اضرب عُنُقَه .

* * *

ومما جاء فى الصبر قيل للأحنف : إنّك شيخٌ ضعيف ، وإنّ الصيام يَهُدّك . فقال : إنى أعدّه لشرٍّ يوم طويل ، وإنّ الصبرَ على طاعة الله أهونُ من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : مَنْ لم يَصْبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات . ربّ غيظٍ قد تجرّعتُه مخافة ماهو أشدّ منه .

يونس بن عبيد : لو أُمِرْنا بالجزَع لصبرنا .

ابن السّماك : المصيبة واحدة ، فإن جزِع صاحبُها منها صارت اثنتين . يعنى : فقد المصاب وفقد الثواب .

الحارث بن أسد المحاسبيّ : لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر .

جابر بن عبد الله : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة » .

وقال العتابىّ :

اصْبِرْ إذَا بَدَهَتْكَ نَائِبَةٌ　　مَاعَالَ مُنْقَطِعٌ إلى الصَّبْرِ

الصَّبْرُ أَوْلَى مَا اعْتَصَمْتَ بِهِ　　وَلَنِعْمَ حَشْوُ جَوانِحِ الصَّدْرِ

ومن كلام علىّ عليه السلام : الصّبر مفتاح الظّفر ، والتوكّل على الله رسول الفرَج .

ومن كلامه عليه السلام : انتظارُ الفرَج بالصَّبْرِ عبادة .

أكْثَم بن صَيْفيّ : الصبرُ على جُرَعِ الحِمَامِ أعذب من جنَا النَّدَم .

(١) ديوان الأعشين ٣٢٣ .

(٢) بخبخ الرجل ؛ إذا قال : بخ بخ ، وفى اللسان : « والله لابخبخت بعدها » .

ومن كلام بعض الزهّاد : واصْبِر عَلَى عملٍ لا غَناء بك عن ثوابه ، واصبرْ عن عملٍ لا صَبْرَ على عقابكَ به .

وكتب ابنُ العميد : أقرَأ فى الصَّبْرِ سُوَرا ، ولا أقرأ فى الجزع آية . وأحفَظُ فى التماسك والتجلُّد قصائد ، ولا أحفَظُ فى التهافُت قافية .

وقال الشاعر :

وَيَوْمٍ كيَوْمِ الْبَعْثِ مَا فِيهِ حَاكِمٌ ... وَلَا عَاصِمٌ إلاَّ قَنـاً وَدُرُوعُ
حَبَسْتُ بِهِ نَفْسِى عَلَى مَوْقِفِ الرَّدَى ... حِفَاظًا وَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ شُرُوعُ
وَمَا يَسْتَوِى عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ إنْ عَرَتْ ... صَبُورٌ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَجَزُوعُ

أبو حية النّميرىّ :

إنّى رَأَيْتُ وَفِى الْأَيَّام تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً محمودةَ الْأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِى أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ ... وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلّا فَازَ بالظَّفَرِ

ووصف الحسنُ البصرىّ عليًّا عليه السلام ، فقال : كان لا يَجْهَلُ ، وإنْ جُهِلَ عَلَيْهِ حَلُمَ . وَلَا يَظْلِمُ ، وَإنْ ظُلِم غَفَر . ولاَ يَبْخَلُ ، وإنْ بَخِلَتِ الدّنيا عليه صَبَر .

عبد العزيز بن زُرارَةَ الكلابىّ :

قَدْ عِشْتُ فِى الدَّهْرِ أطْوَاراً عَلَى طُرُقٍ ... شَتَّى فقَاسَيْتُ مِنْهُ الْحُلْوَ وَالْبَشِعَا[(١)]
كُلاًّ بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنى ... وَلَا تَخَشَّعْتُ مِن لأوائِهَا جَزَعَا
لَا يَمْلَأُ الْأَمْرُ صَدْرِى قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... وَلَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِى إذا وَقَعَا

ومن كلام بعضهم : مَن تَبَصّر تَصَبّر . الصّبْر يفسحُ الفرَج ، ويفتح المرتَتج . المِحْنة إذا تُلُقِّيت بالرّضا والصّبْر كانت نعمةً دائمة ، والنّعمة إذا خلت من الشُّكر كانت مِحْنَةً لازمة .

(١) ديوان المعانى ١ : ٨٨ ؛ وفى نسبة هذه الأبيات وروايتها خلاف ، انظره فى حواشى اللآلى ٤١٢ .

قيل لأبى مسلم صاحب الدولة . بِمَ أصَبْتَ ما أصَبْتَ ؟ قال : ارْتَدَيْتُ بالصّبر ، واتّزرت بالكِتْمان ، وحالفتُ الحزم ، وخالفْتُ الهوى ، ولم أجعل العدوّ صديقا ، ولا الصديقَ عدوّا .

منصور النَّمَرىّ فى الرّشيد .

وَلَيْسَ لأعْباءِ الأُمُورِ إذَا عَرَتْ بِمُكتَرِثٍ لـكِنْ لَهُنَّ صَبُورُ
يُرَى ساكِنَ الأَطْرافِ باسِطَ وَجْهِهِ يُرِيكَ الهُوَيْنَى والأُمُورُ تَطِيرُ

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أوصيكم بخمس لو ضربْتُم إليهنَّ آباطَ الإبل كانت لذلك أهلا : لا يرجُوَنّ أحدُكُمْ إلّا ربَّه ، ولا يخافَنَّ إلا ذَنْبَه ، ولا يَسْتَحِيَنّ إذا سئلَ عمّا لا يَعلم أنْ يقولَ لا أعلم ، ولا يستحيي إذا جهل أمرا أن يتعلّمه . وعليْكُم بالصّبر ، فإنّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فكما لا خَيْرَ فى جَسَدٍ لا رأس له ، لا خيرَ فى إيمانٍ لا صَبْر معه .

وعنه عليه السلام : لا يعدَم الصَّبور الظَّفَر ، وإن طال به الزّمان .

نهشل بن حَرِّىّ :

ويومٍ كأنّ المصطلينَ بحرّهِ وإنْ لم يكنْ جَمْراً قيامٌ على جَمْرِ
صَبَرْنا لَهُ حَتىّ تجلّى وإنّما تُفَرَّجُ أيامُ الكَرِيهَةِ بِالصَّبْرِ

علىّ عليه السلام : اطرَحْ عنك وارداتِ الهموم بعزائم الصَّبْر وحسن اليقين .

وعنه عليه السلام : وإن كنت جازعاً على ماتَفَلّتَ من يديْك ، فاجزَعْ عَلَى كلّ ما لم يصل إليك !

وفى كتابه عليه السلام الذى كتبه إلى عَقيل أخيه : ولا تحسبَنّ ابن أمّك — ولو أسلمه الناس — متضرّعا متخشعا ، ولا مقرّا للضيم واهنا ، ولا سَلِسَ الزمام للقائد ، ولا وطىء الظّهر للراكب ، ولكنّه كما قال أخو بنى سُلَيْم :

فإنْ تَسْأَلِينِي كَيفَ أنتَ فإنّني … صَبُورٌ على رَيْبِ الزّمانِ صَلِيبُ[1]
يَعِزّ عليّ أن تُرَى بِي كآبةٌ … فَيَشْمَتَ عادٍ أو يُساءَ حبيبُ

* * *

[فصل فى الرّياء والنهى عنه]

واعلم أنه عليه السلام، بعد أنْ أمَرنا بالصَّبر، نهى عن الرّياء فى العمل، والرّياء فى العمل منهيٌّ عنه، بل العملُ ذو الرِّياء ليس بعملٍ على الحقيقة، لأنّه لم يُقصَدْ به وجه الله تعالى. وأصحابُنا المتكلّمون يقولون: ينبغى أن يعمل المكلّف الواجبَ لأنه واجب، ويجتنبَ القبيح لأنه قبيح، ولا يفعل الطاعة ويترك المعصية رغبةً فى الثواب، وخوفا من العقاب؛ فإنّ ذلك يُخْرج عَمَلَه من أن يكون طريقا إلى الثواب؛ وشبّهوه بالاعتذار فى الشىء؛ فإنّ مَنْ يعتذِرُ إليك من ذنبٍ خوفا أن تعاقبَه على ذلك الذنب، لا نَدَماً على القبيح الذى سبق منه، لا يكون عُذْرُه مقبولا، ولا ذنبُه عندك مغفورا. وهذا مقامٌ جليلٌ لا يصِلُ إليه إلا الأفراد من ألوف الألوف.

وقد جاء فى الآثار من النّهى عن الرياء والسمعة كثيرٌ، روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «يُؤْتَى فى يوم القيامة بالرّجل قد عَمِلَ أعمال الخير كالجبال — أو قال: كجبال تِهامة — وله خطيئة واحدة، فيقال: إنما عَمِلْتَهَا لِيُقال عنك، فقد قيل؛ وذاك ثوابُك وهذه خطيئتك، أدخِلوه بها إلى جهنم».

وقال عليه السلام: «ليست الصلاة قيامَك وقعودَك، إنّما الصلاة إخلاصُك، وأنْ تُريدَ بها الله وحده».

وقال حبيب الفارسيّ: لو أنّ الله تعالى أقامنى يوم القيامة وقال: هل تعدّ سجدةً سَجدتَ ليس للشيطان فيها نصيب لم أقدِرْ على ذلك.

---

(١) مجموعة المعانى ٧٢، وهما لصخر بن عمرو السلمى، والأول من أبيات أربعة فى الأغانى ١٥: ٧٩

توصّل عبدُ الله بن الزُّبير إلى امرأة عبدالله بن عمر ـ وهى أخت المختار بن أبى عُبيد الثَّقفىّ ـ فى أنْ تُكلّم بعلَها عبدَ الله بن عمر أن يبايعَه . فكلّمته فى ذلك ، وذكرتْ صلاتَه وقيامه وصيامه ، فقال لها : أما رأيتِ البغَلات الشُّهْب التى كُنّا نراها تحت معاوية بالحِجْر إذا قدم مكة ؟ قالت : بلى ، قال : فإياها يطلب ابنُ الزُبَيْر بصومه وصلاته !

وفى الخبر المرفوع : « إنّ أخوف ما أخاف على أمّتى الرياء فى العمل ، ألا وإنّ الرياء فى العمل هو الشرْكُ الخفِىّ » :

صَلَّى وَصَامَ لأَمْرٍ كان يَطْلُبُهُ ... حَتَّى حَوَاهُ فَلاَ صَلَّى وَلاَ صَامَا

***

[فصل فى الاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة]

ثم إنه عليه السلام بعد نهيه عن الرياء وطلب السمعة ؛ أمر بالاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة ؛ فإنّ الإنسان لا يَستغنى عنهم وإن كان ذا مال ، وقد قالت الشعراء فى هذا المعنى كثيرا ؛ فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة (١) :

إذَا المَرْء لم يَغْضَبْ لَهُ حين يَغْضَبُ ... فَوَارِسُ إن قيل ارْكَبُوا الموتَ يَرْكَبُوا

ولم يَحْبُه بالنّصْرِ قَوْمٌ أعِزّةٌ ... مَقَاحِيمُ فِى الأمْرِ الّذِى يُتَهَيَّبُ (٢)

تَهَضَّمَهُ أدْنَى العُدَاةِ فَلَمْ يَزَلْ ... وإنْ كان عِضًّا بالظّلامَةِ يُضْرَبُ (٣)

فَآخِ لحال السّلم مَنْ شِئْتَ واعْلَمَنْ ... بأنّ سِوَى مَوْلاَكَ فى الحرْب أجْنَبُ

وَمَوْلاَكَ مَوْلاَكَ الّذِى إنْ دَعَوْتَه ... أجابَكَ طَوْعا والدِّمَاء تَصَبَّبُ

فَلاَ تَخْذُلِ المَوْلَى وإنْ كان ظَالِماً ... فإنّ بِهِ تُثْأَى الأُمُورُ وتُرْأَبُ (٤)

(١) فى الحماسة ٢ : ٢١١ : « قراد بن عباد » ، وصححه التبريزى : « قراد بن العيار » ، وقال : « أبوه العيار أحد شياطين العرب » .

(٢) مقاحيم : جمع مقحام ؛ وهو الذى يخوض قحمة الشىء ؛ أى معظمه .

(٣) تهضمه ، أى كسره وأذله . والعض : المنكر الشديد اللسان .

(٤) تثأى : تخرق وتفتق .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أفيقُوا بَنِى حَــزْنٍ وأَهْوَاؤُنَا مَعاً ... وَأَرْحَامُنَا مَوْصُــولَةٌ لَمْ تُقَضَّبِ[1]

لَعَمْرِى لرهطُ المَرْءِ خَــيْرُ بَقِيَّةٍ ... عَلَيْهِ وإنْ عالَوْا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ

إذا كُنْتَ فى قوم وأمّك منْهُمُ ... لتُعْزَى إليهِمْ فى خَبِيثٍ وَطَيِّبِ

وإنْ حَــدَّثَتْكَ النَّفْسُ أنّك قَادِرٌ ... على مَاحَوَتْ أيْدِى الرِّجالِ فَــكَذِّبِ

ومن شعر الحماسة أيضاً :

لَعمرُكَ ما أَنْصَفْتَنِى حين سُمْتَنِى ... هَوَاكَ مَعَ المَوْلَى وأنْ لَا هَوَى لِيَا[2]

إذا ظُلِمَ المــولى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ ... فحرَّقَ أحشــائِى وَهَرَّتْ كِلَابِيَا

ومن شعر الحماسة أيضاً :

وَمَا كُنْتُ أَبْغِى العمَّ يَمْشِى على شفاً ... وإنْ بَلَغَتْنِى مِنْ أَذَاهُ الجَنَادِعُ[3]

ولــكنْ أوَاسِيــهِ وأنسَى ذُنُوبَهُ ... لِتَرْجِعَــهُ يوماً إلىَّ الرَّوَاجِــعُ

وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وسُــوءِ صَنِيعَــةٍ ... مُناواةُ ذِى القُرْبَى وأَنْ قِيلَ قاطِــعُ[4]

ومن شعر الحماسة أيضاً :

ألاَ هَلْ أَتَى الأَنْصَارَ أنَّ ابنَ بَحْدَلٍ ... حُمَيْــداً شَفَى كَلْباً فَقَرَّتْ عيُونُهَا[5]

فإنّا وَكَلْباً كاليَدَيْنِ مَتَى تَقَعْ ... شِمَالُكَ فى الهَيْجَا تُعِنْهَــا يَمِينُهَا

---

(١) ديوان الحماسة (١ : ٣١٨) بشرح المرزوقى ، ونسبه التبريزى (٢ : ٢٩٧) إلى جندل بن عمرو . معا ، أى مجتمعة . والقضب : القطع ؛ ولم يرد فى الحماسة سوى البيت الأول .

(٢) ديوان الحماسة (١ : ٣٥٠) بشرح التبريزى ، ونسبه إلى حريث بن جابر .

(٣) ديوان الحماسة (١ : ٣٨٠) بشرح التبريزى ، ونسبه إلى محمد بن عبد الله الأزدى وروايته : « لأدفع ابن العم يمشى . . . » ، وشفا الشىء : حرفه . والجنادع : الدواهى .

(٤) يجوز فتح همزة « إن » وكسرها ، وانظر التبريزى .

(٥) ديوان (الحماسة ٢ : ٥٢٢) بشرح المرزوقى وهى هناك أربعة أبيات ؛ هنا الأول والرابع منها ، ونسبها إلى بعض بنى جهينة .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أخوكَ أخُوكَ مَنْ يَنأَى وَتَدْنُو مَوَدَّتُهُ وإنْ دُعِيَ اسْتَجابا(١)
إذا حارَبْتَ حارَبَ مَنْ تُعادِي وَزَادَ غَنـــاؤه مِنْكَ اقْتِرابا(٢)
يُواسِي فِي كَريهَتِـــه وَيَدْنُو إذَا مامُضْلِـعُ الْحَـدَثانِ نَابَا(٣)

***

[فصل فى حسن الثناء وطيب الأحدوثة]

ثم إنه عليه السلام ذكَر أنّ لسانَ الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خيرا له من المال يورِّثه غيرَه . ولسانُ الصّدق هوأن يُذكَرَ الإنسانُ بالخير،ويُثْنَى عليه به ، قال سبحانه : ﴿ وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ (٤) .

وقد ورد فى هذا المعنى من النثر والنظم الـكثير الواسع،فمن ذلك قولُعمر لابنة هَرِم: ما الذى أعطى أبوك زهيراً ؟ قالت:أعطاه مالاً يَفْنى ، وثيابا تَبْلى.قال : لـكنِ ما أعطاكم زُهير لا يُبْليه الدّهر ، ولا يُفْنيه الزمان .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

إذا أنْتَ أعْطِيتَ الغنى ثُمّ لم تَجُدْ بِفَضْلِ الْغِنَى أُلْفِيتَ مَالَكَ حامدُ(٥)
وقلّ غَناءً عنك مالٌ جمعتَه إذا كان ميراثاً وواراكَ لَاحِدُ

وقال يزيد بن المهلّب : المال والحياة أحبُّ شىء إلى الإنسان ، والثناء الحسَنُ أحبّ إلىّ منهما ؛ ولو أنى أعطِيتُ مالم يُعْطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يَـكون لى أُذُنٌ أسمع بهـا مايقال فىّ غدا وقد مِتُّ كريما .

وحكى أبو عثمان الجاحظ عن إبراهيم السندىّ ، قال : قلت فى أيام ولايتى الـكوفة

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢ : ٥٤٢ ، ونسبها إلى ربيعة بن مقروم .
(٢) الحماسة : « وزاد سلاحه » .
(٣) لم يذكر هذا البيت فى الحماسة . (٤) سورة الشعراء ٨٤ .
(٥) ديوان الحماسة ٣ : ١١٩٩ بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى محمد بن أبى شحاذ .

لرجل من وجُوهها ــ كان لا يجفّ لِبْدُه ولا يستريح قَلمُه ، ولا تسكُن حركته فى طلب حوائج الناس ، وإدخال السرور على قلوبهم ، والرِّفقِ على ضعفائهم ، وكان عفيفَ الطُّعمة . خبِّرنى عمّا هَوّن عليك النَّصَبَ ، وقوّاكَ على التّعب ؟ فقال : قد والله سمعتُ غِناء الأطيار بالأسحار ،على أغصانِ الأشجار ، وسمعتُ خَفْقَ الأوتارِ ، وتجاوُبَ العُودِ والمِزْمار ، فما طربتُ من صوتٍ قطّ طرَبى من ثنـاء حَسَن على رجل محسِن ، فقلت : لله أبوك ! فلقد مُلِئْت كَرَما .

وقال حاتم :

أماوِىّ إنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ ... مِنَ الأَرْضِ لا ماءٌ لدىّ ولا خَمْرُ[(١)]

تَرَىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضَرَّنى[(٢)] ... وأنّ يدى ممــا بخلْتُ به صِفْرُ

أماوِىّ مَا يُغْـنِى الــثّراء عَنِ الْفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ[(٣)]

بعض المحدثين :

مَنِ اشْتَرَى بمــالِهِ ... حُسْنَ الثّناء غُبِنَا

أفقَرَهُ سماحُــهُ ... وذلك الفقر الغِنَى

ومن أمثال الفرس : كلّ ما يُؤْكل ينتن ، وكلّ ما يُوهَب يأرَج .

وقال أبو الطيّب :

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُه الثَّانى وَحاجَتُهُ ... ما قاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أشْغَالُ[(٤)]

* * *

[فصل فى مواساة الأهل وصلة الرحم]

ثم إنه عليه السلام بعد أن قرّظ الثناء والذِّكر الجميل ، وفضّله على المال ، أمر بمواساة

---

(١) ديوانه ١١٨ .

(٢) الديوان : « ما أهلكت » .

(٣) الديوان : « إذا حشرجت نفس » .

(٤) ديوانه ٣ : ٢٨٨ .

الأهل ، وصلة الرحم ، وإنْ قلّ ما يواسى به ، فقال : «ألا لا يعدِلَنّ أحدُكم عن القرابة...» ، إلى آخر الفصل ، وقد قال الناس فى هذا المعنى فأكثروا .

فمن ذلك قول زهير :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ   عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ (١)

وقال عثمان : إنّ عمر كان يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطيتُهم ابتغاء وجه الله ، ولن تروْا مثل عمر .

أبو هريرة مرفوعا : « الرحِمُ مشتقّة من الرحمٰن ، والرحمٰن اسم من أسماء الله العظمى ، قال الله لها : من وصلك وصلتُه ، وَمَنْ قطعك قطعته » .

وفى الحديث المشهور : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقال طَرَفة يهجو إنسانًا بأنّه يصل الأباعد ويَقطع الأقارب :

وأنتَ على الأدنى شَمالٌ عَرِيّةٌ   شآمِيةٌ تزْوِى الوجـــوه بليلُ (٢)
وأنتَ على الأقصى صَبًا غَيْرُ قَرّةٍ   تَذَاءب مِنْهَا مَزْرَعٌ وَمَسِيـلُ (٣)

ومن شعر الحماسة :

لَهُمْ جُلُّ مالى إنْ تتَـــابَعَ لى غِنًى   وإنْ قَلَّ مَالى لا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا (٤)
وَلا أَحْمِـــلُ الحِقْدَ القديمَ عَلَيْهِمُ   وَلَيْسَ رَئِيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

---

(١) ديوانه ٣٠

(٢) ديوانه ١١٩ . الأدنى : الأقرب . والشمال : ريح غير محمودة . بليل : ريح باردة .

(٣) الأقصى : البعيد . والصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا ، وهى محمودة عندهم . وقرة : باردة .

(٤) المقنع الكندى ، الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١١٨٠ .

(٢٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَعَمْرِي ما عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ ، وَخَابَطَ الْغَيَّ ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلا إِيهَانٍ . فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ ، وَامْضُوا فِي الذِي نَهَجَهُ لَكُمْ ، وقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً .

* * *

الشَّرْحُ :

الإدْهان : المصانعة والمنافقة ، قال سبحانه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾(١) .

والإيهان : مصدر أوهنتُه ، أى أضعفته ، ويجوز وهنته ، بحذف الهمزة . ونَهَجه : أوضَحه وجعلَه نَهْجاً ، أى طريقا بيّنا . وعَصَبه بكم : ناطه بكم وجعله كالعِصابة التى تشدّ بها الرأس . والفلْج : الفوز والظفر .

وقوله : « وخابط الغيّ » كأنّه جعله والغيّ متخابِطَيْن ، يخبط أحدهما فى الآخر ؛ وذلك أشدّ مبالغة من أن تقول : خَبَط فى الغَيّ ، لأنّ من يَخْبِط ويَخْبِطه غيره يكون أشدّ اضطرابا ممن يخبِط ولا يخبطه غَيْرُه . وقوله : « وفِرّوا إلى الله من الله » ، أى اهربوا إلى رحمة الله من عذابه . وقد نظر الفرزدق إلى هذا فقال :

إِلَيْكَ فَرَرْتُ مِنْكَ وَمِنْ زِيَادٍ ... وَلَمْ أَحْسِبْ دَمِي لَكُمُ حَلَالَا(٢)

---

(١) سورة القلم ٩ .

(٢) ديوانه ٦٠٨ ، فى مدح سعيد بن العاصى ، وروايته : « ولم أجعل دمى » .

(٢٥)

الأَصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام وقد تواترت عليـه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد ، وقدم عليه عاملاه على اليمن ، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران ، لمّا غلب عليهما بسر بن أرطاة ، فقام عليـه السلام على المنبر ضجراً بِتثاقُل أصحابه عن الجهاد ، ومخالفتهم له فى الرأى ؛ فقال :

مَا هِىَ إِلَّا الْـكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا ، إِنْ لَمْ يَـكُنْ إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللهُ !

وتمثل بقول الشاعر :

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَاعَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلِ[1]

ثم قال عليه السلام :

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ ، وَإِنِّى وَاللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْـكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِـكُمْ عَنْ حَقِّـكُمْ ، وَبِمَعْصِيَتِـكُمْ إِمَامَـكُمْ فِى الْحَقِّ ؛ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِى الْبَاطِلِ ، وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِـكُمْ ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِى بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ .

اللّٰهُمَّ إِنِّى قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِى ، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِى ، فَأَبْدِلْنِى بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ

(١) الوضر : بقية الدسم فى الإناء .

وَأَبْدِلْهُمْ بِى شَرًّا مِنّى ! اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فى الْمَاءِ . أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لى بِكُمْ أَلْفَ فارِسٍ مِنْ بَنِى فِرَاسِ بنِ غَنْمٍ :

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ (١)

* * *

ثم نزل عليه السلام من المنبر :

قال الرضىّ رحمه الله :

أقُولُ : الأَرْمِيَةُ جمع رَمِىٍّ ؛ وهو السحابُ . والحَمِيمُ ها هنا : وقتُ الصَّيفِ ، وإنما خصَّ الشاعر سحابَ الصيفِ بالذِّكر لأنه أشدُّ جفُولاً ، وأسرعُ خُفُوقاً ، لأنه لا ماءَ فيه ، وإنما يكون السحابُ ثَقِيلَ السَّيْرِ لامْتِلائِهِ بالماءِ ؛ وذلك لا يكون فى الأكثرِ إلا زمانَ الشّتاءِ ؛ وإنما أراد الشاعر وصفَهُمْ بالسُّرْعةِ إذا دُعُوا ، والإغاثةِ إذا اسْتُغِيثُوا ، والدليل على ذلك قوله :

* هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ *

الشَّرْحُ :

تواترت عليه الأخبار ، مثل ترادفَتْ وتواصلت . الناس من يطعَن فى هذا ، ويقول : التواتر لا يكونُ إلا مع فترات بين أوقات الإتيان ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾(٢) ، ليس المراد أنهم مترادفون ، بل بين كلّ نبيّين فترة ، قالوا : وأصل « تترى » من الواو ، واشتقاقها من « الوتر » ، وهو الفرد : وعدّوا هذا الموضع مما تغلَط فيه الخاصة .

---

(١) البيت فى اللسان (١٩ : ٥٤) ، ونسبه إلى أبى جندب الهذلى ، وروايته : « رجال مثل أرمية الحميم » .

(٢) سورة « المؤمنون » ٤٤ .

[نسب معاوية بن أبى سفيان وذكر بعض أخباره]

ومعاوية هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صَخْر بن حَرْب بن أميّة ابن عَبْد شمس بن عبد مناف بن قُصَىّ .

وأمّه هِنْد بنت عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصىّ . وهى أم أخيه عُتْبة بن أبى سفيان . فأما يَزيد بن أبى سفيان ، ومحمد بن أبى سفيان ، وَعَنْبسة ابن أبى سُفْيان ، وحَنْظلة بن أبى سفيان ، وعمرو بن أبى سُفْيان ؛ فمن أمّهات شتى .

وأبو سفيان هو الذى قاد قُريشاً فى حُرُوبها إلى النّبى صلى الله عليه وآله؛ وهو رئيس بنى عبد شمس بعد قَتْل عُتْبة بن ربيعة بِبَدْر ، ذاك صاحب العِير ، وهذا صاحب النّفير ، وبهما يضرب المثل ، فيقال للخامل : « لا فى العير ولا فى النفير » .

وروى الزُّبَيْر بن بَكّار أنّ عبدالله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد فى أيّام عبد الملك ، فقال : لقد هممتُ اليوم يا أخى أن أفتِكَ بالوليد بن عبد الملك، قال: بئسما هَمَمْتَ به فى ابن أمير المؤمنين، وولىّ عهد المسلمين ! فما ذاك ؟ قال: إنّ خيلى مرّت به فعبِثَ بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الوليد مرّت به خيل ابن عَمّه عبد الله ، فعبث بها وأصغره — وكان عبدُ الملك مطرقاً — ، فرفع رأسه، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) ، فقال خالد: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (٢) ، فقال عبد الملك : أفى عبدِ الله تكلّمنى ! والله لقد دخل أمس علىّ فما أقام لسانَه لحنا ! قال

---

(١) سورة النمل ٣٤ (٢) سورة الإسراء ١٦ .

خالد : أفعَلَى الْوليد تعوّل يا أمير المؤمنين ! قال عبد الملك : إن كانَ الوليدُ يلحن فإنّ أخاه سليمان [لا][1] . فقال خالد : وإن كان عبدُ الله يلحَن ، فإنّ أخاه خالدا [لا][1] ، فالتفت الوليدُ إلى خالد وقال له : اسكتْ ويحَكَ ! فوالله ماتُعَدّ فى العير ولا فى النَّفِير ، فقال : اسمع يا أميرَ المؤمنين ، ثم التفت إلى الوليد ، فقال له : وَيْحكَ ! فمن صاحبُ العِير والنّفير غيرُ جدّى أبى سفيان صاحبِ العير ، وجدّى عُتْبة صاحب النفير ! ولكن لو قلت : غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف ، ورحم الله عثمان » ، لقلنا : صَدَقْت [2] .

* * *

وهذا مِنَ الكلام المستَحْسَن ، والألفاظ الفصيحة ، والجوابات المسكتة ؛ وإنما كان أبو سُفْيان صاحبَ العِير ، لأنّه هو الذى قدِم بالعيرِ التى رام رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه أن يعترضوها ، وكانت قادمةً من الشام إلى مكة تحمل العِطْر والبُرّ ، فنذِر بهم أبو سفيان ، فضرب وجُوه العِير إلى البحر ، فساحَل[3] بها حتى أنقذها منهم ، وكانتْ وقعة بدر العظمى لأجلها ، لأنّ قريشا أتاهم النذير بحالها ، وبخروج النبى صلى الله عليه وآله بأصحابه من المدينة فى طلبها ، لينفروا ، وكان رئيسُ الجيش النافر لحمايتها عُتْبة بن ربيعة ابن عبد شمس جدّ معاوية لأمه .

وأما « غُنيمات وحُبَيْلات ... » إلى آخر الكلام ، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما طرد الحكَم بن أبى العاص إلى الطائف لأمور نَقَمَها عليه ، أقام بالطّائف فى حُبْلة ابتاعها — وهى الكَرْمة — وكان يرعى غُنَيْمات اتّخذها ، يشرب من لبنها . فلما وَلِىَ أبو بكر ، شفع إليه عثمان فى أنْ يَرُدّه ، فلم يفعل ، فلما ولىَ عمر شفَع إليه أيضاً فلم يَفْعل ، فلما وَلِىَ هو الأمر ردّه . والحكَم جَدُّ عبد الملك ، فعيّرهم خالد بن يزيد به .

* * *

وبنو أمية صِنْفان : الأعياص والعنابس ، فالأعياص : العاص ، وأبو العاص ،

---

(١) من مجمع الأمثال .
(٢) الخبر فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٢ .
(٣) ساحل بها : أتى بها ساحل البحر .

والعِيص ، وأبو العِيص. والعَنَابس :حرب،وأبو حرب، وسفيان ،وأبوسفيان. فبنومروانَ وعثمان من الأعْياص ، ومعاوية وابنه من العَنابسَ؛ ولكلّ واحدمن الصِّنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل ، واختلاف شديد فى تفضيل بعضهم على بعض .

* * *

وكانت هند تذكر فى مكة بفجور وعُهْر .

وقال الزمخشرى فى كتاب " ربيع الأبرار" : كان معاوية يُعْزَى إلى أربعة : إلى مسافر بن أبى عمرو ، وإلى عُمارة بن الوليد بن المغيرة ، وإلى العباس بن عبد المطلب ، وإلى الصبّاح ؛ مُغنٍّ كان لعُمارة بن الوليد . قال : وقد كان أبو سفيان دَميماً قصيراً ،وكان الصبّاح عَسِيفاً[1] لأبى سفيان ، شابًّا وسيما ، فدعتْه هند إلى نفسها فغشِيَها .

وقالوا : إنّ عُتْبة بن أبى سفيان من الصبّاح أيضاً ، وقالوا : إنها كرهت أن تدَعه فى منزلها ، فخرجت إلى أجْيَاد ، فوضعته هناك . وفى هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل عام الفتح[2] :

لِمَنِ الصَّبِىّ بجانب البَطْحا   فى التُّرْبِ مُلْقًى غَيْرَ ذى مَهْدِ
نَجَلَتْ بِهِ بَيْضاء آنِسَةٌ   مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ صَلْتَةُ الْخَدِّ[3]

والذين نزّهوا هند عن هذا القذف رووا غير هذا . فروى أبو عُبيدة معمر بن المثنّى أن هندا كانت تحت الفاكه بن المغيرة المخزومىّ ، وكان له بيتُ ضيافة يَغْشاه النّاس ، فيدخلونه من غير إذْن ،فخلا ذلك البيتُ يوما ، فاضطجع فيه الفاكه وهند ،ثم قام الفاكه وترك هندا فى البيت لأمر عرض له ، ثم عاد إلى البيت ، فإذا رجل قد خرج من البيت ، فأقبل إلى هند فركَلَها برجله ، وقال : مَنِ الّذى كان عندكِ ؟ فقالت : لم يكن عندى

---

(١) العسيف : الأجير .   (٢) ديوانه ١٥٧
(٣) نجلت به : ولدته . وصلتة الحد ؛ الصلت : الأملس : وفى الأصول : « صلبة » تصحيف .

أحد ، وإنما كنت نائمة . فقال : الحقى بأهلك ، فقامت من فورها إلى أهلها ، فتكلّم الناس فى ذلك ، فقال لها عُتْبة أبوها : يابنيّة ، إنّ الناس قد أكثروا فى أمرك ، فأخبرينى بقصتك على الصّحة ، فإن كان لكِ ذنب دسستُ إلى الفاكه مَنْ يقتله ، فتنقطع عنك القالة . فحلفتْ أنها لا تعرف لنفسها جُرْما ، وإنه لكاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : إنك قد رميتَ ابنتى بأمر عظيم ، فهل لك أن تحاكِمَنى إلى بعض الكهنة ؟ فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عُتْبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، وأخرج معه هندا ونسوة معها ، فلما شارفوا بلادَ الكاهن تغيّرت حالُ هند ، وتنكّر أمرها ، واختطف لونُها . فرأى ذلك أبوها ، فقال لها : إنى أرى ما بكِ ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ! فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرُنا ! قالت : يا أبتِ ، إنّ الذى رأيتَ منى ليس لمكروه عندى ، ولكنى أعلم أنكم تأتون بَشراً يخطئ ويصيب ، ولا آمن أن يَسِمنِى مِيسَمًا يكون علىّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإنى سأمتحنه قبل المسألة بأمر . ثم صَفَر بفرس له فأدلى ، ثم أخذ حَبّة بُرّ فأدخلها فى إحليله ، وشدّه بسير وتركه ؛ حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمَهم ونحر لهم ، فقال عتبة : إنا قد جئناك لأمر ، وقد خبأتُ لك خبيئا أختبِرُك به ، فانظر ما هو؟ فقال : ثمرة فى كَمَرة ، فقال : أبْيَنُ من هذا ، قال : حَبّة بُرّ ، فى إحليل مهر ، قال : صدقت ، انظر الآن فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنُو من واحدة واحدة منهنّ ، ويقولِ : انهضى ، حتى صار إلى هند ، فضرب على كتفها ، وقال : انهضى غيرَ رَقْحاء ولا زانية ، ولتلدِنّ مَلِكا يقال له معاوية . فوثب إليها الفاكه ، فأخذها بيده وقال : قومى إلى بيتك ، فجذبت يدَها من يده ، وقالت : إليكَ عنّى ، فو الله لا كان منك ، ولا كان إلا من غيرك ! فتزوجها أبو سفيان بن حرب .

الرقحاء : البغىّ التى تكتسب بالفجور ، والرّقاحة : التجارة .

***

وولىَ معاوية اثنتين وأربعين سنة منها اثنتان وعشرون سنة ولىَ فيها إمارَة الشام منذ مات أخوه يزيد بن أبى سفيان ، بعد خمس سنين من خلافة عمر ، إلى أن قتل أمير المؤمنين على عليه السلام فى سنة أربعين . ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات فى سنة ستين .

ومرّ به إنسان وهو غلام يلعب مع الغلمان ، فقال : إنى أظنّ هذا الغلام سيسودُ قومَه ، فقالت هند : ثَكِلتُه إن كان لا يسود إلا قومَه !

ولم يزل معاويةُ ذا همّة عالية ، يطلب معالىَ الأمور ، ويرشّح نفسَه الرياسة ، وكان أحدَ كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وآله . والختلف فى كتابته له كيف كانَتْ ،فالّذى عليه المحقّقون من أهل السيرة أنّ الوحىَ كان يكتبه علىّ عليه السلام وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وأن حنظلة بن الربيع التيمىّ ومعاوية بن أبى سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل ، ويكتبان حوائجَه بين يديه ، ويكتبان ما يُجْبَى من أموال الصدقات وما يُقْسَم فى أربابها .

وكان معاوية على أسّ[1] الدهر مُبغِضاً لعلىّ عليه السلام ، شديدَ الانحراف عنه ، وكيف لا يُبغضه وقد قتل أخاه حَنْظلة يوم بدر ، وخالَه الوليد بن عتبة ، وشرِكَ عمّه فى جده وهو عُتْبة — أو فى عمه ، وهو شيبة ، على اختلاف الرواية — وقتل من بنى عمه عبد شمس نفراً كثيرا من أعيانهم وأماثلهم ؛ ثم جاءت الطامّة الكبرى واقعة عثمان ، فنسبها كلّها إليه بشبهة إمساكه عنه ، وانضواء كثير من قَتَلته إليه عليه السلام ، فتأكّدت البِغْضة،وثارت الأحقاد ، وتذكّرت تلك التِّرات الأولى؛حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفْضَى إليه .

وقد كان معاوية ، مع عِظَمِ قَدْرِ علىّ عليه السلام فى النفوس ، واعترافِ العرب بشجاعته ، وأنّه البطل الذى لا يُقامُ له ، يتهدده — وعثمان بعدُ حىّ — بالحرب والمنابذة ، ويراسله من الشام رسائلَ خشنة ؛ حتى قال له فى وجهه ما رواه أبو هلال العسكرى فى كتاب ” الأوائل “ ، قال :

---

(١) أس الدهر ؛ بفتح الهمزة أو ضمها أو كسرها : قدم الدهر ووجهه .

قدم معاوية المدينة قدمة أيام عثمان فى أواخر خلافته ، فجلس عثمان يوما للناس ، فاعتذر من أمور نُقِمَتْ عليه، فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قَبِل توبة الكافر، وإنى رددتُ الحكم عمّى لأنه تاب، فقبلت توبته ، ولو كان بينه وبين أبى بكر وعمر من الرَّحم ما بينى وبينه لآوياه . فأمّا ما نقمتم علىَّ أنّى أعطيتُ من مال الله ، فإنّ الأمر إلىّ ، أحكم فى هذا المال بما أراه صلاحا للأمة ، وإلا فلماذا كنت خليفة ! فقطع عليه الكلامَ معاوية وقال للمسلمين الحاضرين عنده : أيّها المهاجرون ، قد علمتم أنّه ليس منكم رجل إلّا وقد كان قبل الإسلام مغمورا فى قومه ، تُقطعُ الأمور من دونه، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه، وأبطأ عنه أهلُ الشرف والرياسة ، فسُدْتُم بالسّبق لا بغيره؛ حتى إنه ليقال اليوم : رهط فلان ، وآل فلان ؛ ولم يكونوا قبلُ شيئاً مذكورا ،وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم؛ فإنْ تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه وإلا خرج منكم ،ولا ينفعكم سبقُكم وهجرتكم.

فقال له علىّ عليه السلام : ما أنت وهذا يابن اللَّخْناء ! فقال معاوية : مهلا يا أبا الحسن عن ذكر أمّى ، فما كانت بأخسِّ نسائكم ، ولقد صافحها رسول الله صلى الله عليه يوم أسلَمَتْ ولم يصافح امرأةً غيرَها ، أما لو قالها غيرُك ! فنهض علىّ عليه السلام ليخرج مُغْضَبا ، فقال عثمان : اجلس ، فقال له : لا أجلس ، فقال : عزمت عليكَ لتجلسنّ ،فأبى وولّى، فأخذ عثمان طرفَ ردائه فترك الرداء فى يده وخرج ، فأتبعه عثمان بصرَه ، فقال: والله لا تصِلُ إليك ولا إلى أحد من ولدك .

قال أسامة بن زيد : كُنْتُ حاضرا هذا المجلس ، فعجِبْتُ فى نفسى من تألّى عثمان، فذكرته لسعد بن أبى وقّاص ، فقال : لا تعجب ، فإنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « لا ينالُها علىّ ولا ولده » .

قال أسامة : فإنّى فى الغد لَفِى المسجد ، وعلىّ وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين جُلوس ؛ إذ جاء معاوية ، فتآمروا بينهم ألّا يوسِّعوا له ، فجاء حتى جلس بين أيديهم ،

فقال : أتدرون لماذا جئت ؟ قالوا : لا ، قال : إنى أقسم بالله إن لم تتركوا شيخكم يموت على فراشه لا أعطيكم إلا هذا السيف ! ثم قام فخرج .

فقال علىّ عليه السلام : لقد كنت أحسب أنّ عند هذا شيئا ، فقال له طلحة : وأىّ شىء يكون عنده أعظم مما قال ! قاتله الله ! لقد رَمَى الْغَرَض فأصاب ؛ والله ما سمعتَ يا أبا الحسن كلمةً هى أملأ لصدرك منها .

ومعاوية مطعون فى دينه عند شيوخنا رحمهم الله ، يُرْمى بالزندقة .

وقد ذكرنا فى نقض " السفيانية " ، على شيخنا أبى عثمان الجاحظ مارواه أصحابنا فى كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وماتظاهر به من الجبر والإرجاء ؛ ولو لم يكن شىء من ذلك ، لكان فى محاربته الإمام مايكفى فى فساد حاله ، لا سيما على قواعد أصحابنا ، وكونهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبة .

* * *

[بسر بن أرطاة ونسبه]

وأمّا بُسْر بن أرطاة ، فهو بُسر بن أرطاة — وقيل ابن أبى أرطاة — بن عويمر بن عمران بن الحُلَيس بن سيّار بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

بعثه معاوية إلى اليمن فى جيش كثيف ، وأمره أن يقتل كلّ مَنْ كان فى طاعة علىّ عليه السلام ، فقتل خلقا كثيرا ، وقتل فيمن قتل ابنىْ عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانا غلامين صغيرين ، فقالت أمهما ترثيهما .

يامَنْ أَحَسّ بُنَيَّيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا ... كالدُّرَّتَيْنِ تَشَظَّى عَنْهُمَا الصَّدَفُ[1]

فى أبيات مشهورة .

(١) تشظى : تفرق شظايا . والأبيات فى الكامل ٨ — ١٥٨ — بشرح المرصفى .

[عبيد الله بن العباس وبعض أخباره]

وكان عبيد الله عاملَ علىّ عليه السلام على اليمن ، وهو عبيد الله بن العبّاس ابن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصىّ . أمه وأم إخوته عبد الله وقُثَم ومعبد وعبد الرحمن ، لبابة بنت الحارث بن حَزْن ، من بنى عامر بن صعصعة . ومات عبيد الله بالمدينة ، وكان جوادا ، وأعقب،ومن أولاده : قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ولّاه أبو جعفر المنصور المدينة ، وكان جوادا ممدوحا ، وله يقول ابن المولَى (١) :

يا ناقُ إنْ أدْنَيْتِنى مِنْ قُثَمْ ... أُعْفِيتِ مِنْ كُورٍ وَمِنْ رِحْلَةٍ

طُولٌ وفى العِرْنِينِ مِنْهُ شَمَمْ ... فِى وَجْهِهِ نورٌ وفى باعِهِ

ويقال : مارُئى قبور إخوة أكثر تباعُدا من قبور بنى العباس رحمه الله تعالى : قبر عبدالله بالطائف ، وقبر عبيدالله بالمدينة،وقبر قُثَم بسَمَرْقَنْد ، وقبر عبد الرحمن بالشام، وقبر مَعْبد بإفريقيَة .

* * *

ثم نعود إلى شرح الخطبة :

الأعاصير : جمع إعصار ، وهى الريح المستديرة على نفسها،قال الله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ (٢) .

والوضَرُ : بقيّة الدّسَم فى الإناء . وقد اطّلع اليمن ، أى غشِيَهَا وغزاها وأغار عليها .

وقوله : « سَيُدالون منكم »،أى يَغلبُونكم وتكون لهم الدولة عليكم.وماث زيدالملح فى الماء : أذابه .

وبنو فِراس بن غَنْم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حىٌّ مشهور بالشجاعة ؛ منهم

(١) كذا بهذه النسبة فى نسب قريش ٣٣ ، وهما من أبيات تنسب إلى داود بن سلم ، فى الأغانى ٦ : ٢٠ ، ٩ : ١٦٩ ، وفى الكامل ٢ : ٢٢٩ منسوبة إلى سليمان بن قته .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

علقمة بن فِراس ، وهو جِذْل الطِّعان. ومنهم رَبيعة بن مكدَّم بن حُرْثان بن جَذِيمة بن علقمة بن فِراس، الشجاع المشهور، حامى الظُّعُن حيًّا وميتاً، ولم يحم الحريمَ وهو ميت أحدٌ غيره؛ عرضَ له فُرْسان من بنى سُلَيم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وَحْدَه، فطاعنهم، فرماه نُبَيْشَة بن حبيب بسَهْم أصاب قَلْبه، فنصب رمحه فى الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت فى سَرْجه لم يَزُلْ ولم يمل. وأشار إلى الظعائن بالرّواح، فسِرْن حتى بَلَغْنَ بيوت الحىّ، وبنو سُلَيم قِيام إزاءه لا يُقْدِمون عليه، ويظنونه حَيًّا؛ حتى قال قائل منهم: إنى لا أراه إلّا ميتا، ولو كان حيًّا لتحرك؛ إنّه والله لمائل راتب على هيئة واحدة، لا يرفع يَده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدِم أحد منهم على الدنوّ منه، حتى رمَوْا فرسَه بسهم، فشبّ من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الظعائن.

وقال الشاعر:

لَا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ ... وَسَقَى الْغَوَادِى قَبْرَهُ بِذَنُوبِ[1]

نَفَرَتْ قَلُوصِى مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ

لَا تَنْفِرِى يَانَاقُ مِنْــهُ فَإِنَّهُ ... شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ

لَوْلَا السِّفَارُ وَبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو عَلَى الْعُرْقُوبِ

نِعْمَ الْفَــتَى أَدَّى نُبَيْشَةُ بَزَّهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ نُبَيْشَةُ بن حَبِيبِ

وقوله عليه السلام: « ماهىَ إلّا الكوفة »، أى مامَمْلَكَتِى إلا الكوفة. أقبضها وأبسطها، أى أتصرّف فيها كما يتصرّف الإنسان فى ثوبه، يقبضه ويبسطه كما يريد.

ثم قال على طريق صرف الخطاب: « فإن لم تكونى إلا أنت »، خرج من الغيْبة إلى خطاب الحاضر؛ كقوله تعالى: ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، يقول: إن لم يكنْ لى من الدنيا مُلْكٌ إلا مُلْك الكوفةِ ذاتِ الفِتن، والآراء المختلفة، فأبعدها الله!

(١) لحسان بن ثابت، وقيل هى لضرار بن الخطاب، وهى فى الأغانى ١٦ : ٥٨ والكامل ٤ : ٨٩ مع اختلاف فى الرواية.

وشبّه ما كان يحدُث من أهلها من الاختلاف والشّقاق بالأعاصير ؛ لإثارتها التراب وإفسادها الأرض . ثم ذكر عِلّة إدالة أهل الشام من أهل العراق ؛ وهي اجتماعُ كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم ، وأداؤهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم .

***

[أهل العراق وخطب الحجاج فيهم]

وقال أبو عثمان الجاحظ : العِلّة في عِصْيانِ أهلِ العراق على الأُمراء وطاعة أهلِ الشام أنّ أهلَ العراق أهلُ نظرٍ وذوو فِطَن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبَحْث يكون الطعن والقَدْح والترجيحُ بين الرجال ، والتمييزُ بين الرؤساء، وإظهارُ عيوب الأمراء . وأهلُ الشّام ذَوُو بلادة وتقليدٍ وجمود على رأى واحد؛لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيَّب الأحوال .

وما زال العراق موصوفاً أهلُه بقلّة الطاعة ، وبالشقاق على أولى الرئاسة .

***

ومن كلام الحجّاج (١) :

يا أهلَ العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق،ومساوئ الأخلاق ! أمَا والله لأَلْحُوَنَّكُمْ لَحْوَ العصا ، ولأَعْصِبَنَّكُمْ عَصْبَ السَّلَم ، ولأضرِبَنّكُمْ ضَرْب غرائب الإبل ؛ إنّى أسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذى يُراد به الترغيب؛ولكنّه تكبير التّرهيب. ألَا إنّها عجاجة تحتها قَصْفٌ (٢) ، يابنِي اللَّكِيعة (٣) ، وعبيدَ العصا ، وأبناء الإماء ! إنّما مَثَلِي وَمَثَلُكم كما قال ابنُ بَرّاقة (٤) :

وَكُنْتُ إذَا قَوْمٌ غَزَوْنِى غَزَوْتُهُمْ   فَهَلْ أنَا فِي ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ! (٥)

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ مع اختلاف فى الرواية .

(٢) العجاجة : شدة الغبار ، والقصف : شدة الريح .   (٣) اللكيعة : اللئيمة .

(٤) هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه بن شهر بن سهم الهمدانى ؛ وبراقة أمه ، ينسب إليها .

(٥) البيتان من قصيدة طويلة له ذكرها القالى فى الأمالى ٢ : ١٢٢ ، فى خبر له مع حريم المرادى حين أغار عليه .

مَتَى تَجْمَعِ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِماً وَأَنفاً حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ الْمَظَالِمُ

و الله لا تقرَع عَصاً عَصاً إلا جعلتها كأمْسِ الذّاهب .

وكانت هذه الخطبة عَقِيب سماعه تكبيراً مُنكَراً فى شوارع الكوفة ، فأشفق من الفتنة .

***

ومما خَطَب به فى ذمّ أهل العراق بعد وقعة دَيْرِ الجماجم (١) :

يا أهلَ العراق، يا أهل الشقاق والنفاق؛ إنّ الشيطان استَبْطَنَكُم، نخالط اللّحم والدم، والعَصَب، والمسامع والأطراف والأعضاء والشّغاف؛ ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصْماخ؛ ثم ارتفع فعشّش، ثم باض ففرّخ، لحشاكُمْ نِفاقا وشقاقا، وملأكُمْ غَدْراً وخلافا؛ اتّخذتموه دليلا تَتّبِعُونه، وقائدا تُطِيعونه، ومؤامَراً تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظُكم وَاقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يعصمكم ميثاق! ألَسْتُم أصحابى بالأهواز؛ حيث رُمْتُمُ المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أنّ الله يخذُل دينه وخلافته؛ وأنا أرميكم بطرْفى، وأنتم تتسلّلون لِواذاً، وتنهزمون سراعا! ثم يوم الزاوية (٢)، وما يوم الزاوية! بها كان فشَلُكم وتَنازُعكم وتخاذُلكم، وبراءةُ الله منكم، ونكُولُ وليِّكم عنكم؛ إذْ وَلَّيْتُم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النّوازع إلى أعْطانها؛ لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يَلْوِى الأبُ على بنيه؛ لمّا عضّكم السِّلاح، وقَصَمَتْكُم (٣) الرماح. ثم يوم دَيْرِ الجماجم، وما يوم دَيْرِ الجماجم!

---

(١) وقعة دير الجماجم، كانت بين الحجاج وابن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣، وهزم فيها ابن الأشعث. والخطبة فى البيان والتبيين ٢ : ١٣٨، والعقد ٤ : ١١٥، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ مع اختلاف فى الرواية.

(٢) الزاوية : موضع قرب البصرة كانت به وقعة بين الحجاج وابن الأشعث قتل فيهما خلق كثير، وذلك سنة ٨٢. الطبرى (حوادث ٨٢).

(٣) قصمتكم : كسرتكم وغلبتكم. وفى البيان : « وقصتكم » ، وهما بمعنى.

بها كانت المعارك والملاحم ، بِضَرْبٍ يزيل الهامَ عَنْ مقيله ؛ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله[1].

يا أهلَ العِراق ؛ يا أهلَ الشِّقاق والنِّفاق ! الكَفَرات بعد الفَجَرات ، والغَدَرات بعد الخَتَرات[2] ، والنَّزوة بعد النَّزَوات ! إن بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم[3] وخُنْتُم ، وإن أَمِنْتُم أَرْجَفْتُم ، وإن خِفْتُم نافقتم . لا تذكُرون حَسَنة ، ولا تَشْكُرون نعمة .

هل استخفَّكم ناكث ، أو استغْوَاكُم غاو ، أو استفزَّكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع إلا اتّبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكّيتموه !

يا أهلَ العِراق ؛ هل شغبَ شاغب ، أو نعبَ ناعب ، أو زَفَر كاذب[4] ؛ إلّا كُنْتُم أشياعه وأتباعه ، وحماته وأنصاره !

يا أهل العراق ؛ ألم تزجرْكم المواعظ ! ألم تُنَبِّهْكم الوقائع ! ألم تردعْكم الحوادث!

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال :

يا أهلَ الشام : إنما أنا لكم كالظَّليم الرامح[5] عن فِراخه ، ينفي عنها القَذَر[6] ويباعد عنها الحجَر ، ويُكِنّها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرُسها من الذئاب !

يا أهل الشام ؛ أنتم الجُنَّةُ والرداء ، وأنتم العُدّة والحذاء .

ثم نزل .

* * *

---

(١) أخذه من رجز عمار بن ياسر يوم صفين ؛ وفيه :

ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ومقيله : موضعه . وانظر وقعة صفين ٣٦٦ – ٣٨٧ .

(٢) الخترات : جمع خترة ، وهى الغدر والخديعة .

(٣) الغل هنا : الخيانة .

(٤) العقد : « زفر زافر » .

(٥) الظليم : ذكر النعام ، والرامح : المدافع .

(٦) البيان والعقد : « المدر » .

ومن خطبة له فى هذا المعنى وقد أراد الحجَّ[١] :

يا أهل الكوفة ؛ إنّى أريد الحجّ وقد استخلفتُ عليكم ابنى محمدا ، وأوصيته بخلاف وصية رسول الله صلى الله عليه فى الأنصار ، فإنه أمر أن يقبلَ من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؛ وإنى قد أوصيتُه ألّا يقبلَ من مُحْسِنكم ، ولا يتجاوزَ عن مُسيئكمْ . ألا وإنّكمْ ستقولون بعدى : لَا أَحْسَنَ اللهُ لَهُ الصَّحَابة ! ألَا وإنّى مُعَجِّلٌ لَكُم الجواب : لَا أحْسَنَ اللهُ لكُم الْخِلَافَةَ !

* * *

ومن خطبة له فى هذا المعنى :

يا أهل الكوفة ؛ إن الفتنة تُلْقَحُ بالنَّجْوى[٢] ، وتُنْتَجُ بالشَّكْوى ، وتُحْصَدُ بالسَّيف ؛ أما والله إن أبغضتمونى لا تضرُّونى ؛ وإن أحببتمونى لا تنفعونى ! وما أنا بالمستوحِش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ؛ زعمتم أنى ساحر وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾[٣] ، وقد أفلحتُ . وزَعمتم أنّى أعلَمُ الاسمَ الأكبر ؛ فلِمَ تقاتلون مَنْ يعلم مالا تعلمون !

ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

لَأزواجُكمْ أطيبُ من المِسْك ، ولَأبناؤكُم آنسُ بالقلب من الولد ؛ وما أنتم إلا كما قال أخو ذُبْيان :

إذا حاوَلتَ فى أسَدٍ فُجوراً ۝ فإنّى لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنّى[٤]

همُ دِرْعِى الّتى استلأمْتُ فيهَا ۝ إلى يومِ النِّسَارِ وَهُمْ مِجَنِّى[٥]

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢٤٥

(٢) النجوى : المسارّة .
(٣) سورة طه ٦٩

(٤) ديوانه ٧٩ (من مجموعة خمسة دواوين) .

(٥) استلأم : لبس اللأمة ؛ وهى الدرع . النسار : ماء لبنى عامر . والمجن : الترس .

ثم قال :

بلْ أنتم يا أهل الشام ؛ كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

* * *

وخطب مرة بعد موت أخيه وابنه قال :

بلغنى أنكمْ تقولون : يموتُ الحجاج ، ومات الحجاج ! فَمَهْ ! وما كان ماذا ! والله ما أرجو الخيرَ كلّه إلا بعد الموت ! وما رضِيَ الله البقاء إلّا لأهونِ المخلوقينَ عليه إبليس ؛ ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قال إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ (٢) . ثم قال : يا أهل العراق ؛ أتيتُكمْ وأنَا ذو لِمّةٍ وافرة أرْفُلُ فيها ؛ فما زال بى شِقَاقُكُمْ وعصيانُكُمْ حتى حَصَّ(٣) شعرى . ثم كشف رأسه وهو أصلع ، وقال :

مَنْ يَكُ ذا لِمّةٍ يُكَشِّفُهَا ... فإنّنِي غَيْرُ ضَائِرِي زَعَرِى(٤)
لا يمنع المرءَ أن يسودَ وأنْ ... يضربَ بالسّيف ـ قِلّةُ الشَّعَرِ

* * *

فأمّا قوله عليه السلام : « اللّهمّ أبدِلنى بهمْ خيراً منهم ، وأبْدِلْهم بى شرًّا مِنّى » ، ولا خيْرَ فيهم ولا شرَّ فيه عليه السلام ؛ فإن « أفعل » ها هنا بمنزلته فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَمَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾(٥) ، وبمنزلته فى قوله : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ﴾(٦) .

---

(١) سورة الصافات ١٧١ ـ ١٧٣
(٢) سورة الأعراف ١٤ ، ١٥
(٣) الحص : ذهاب الشعر .
(٤) الزعر : ذهاب أصول الشعر .
(٥) سورة فصلت ٤٠
(٦) سورة الفرقان ١٥ .

ويحتمل أن يكون الذى تمنّاه عليه السلام من إبداله بهم خيراً منهم قوماً صالحين ينصرونه ويوفّقون لطاعته .

ويحتمل أن يريد بذلك ما بعد الموت من مرافقة النبيّ صلى الله عليه وآله .

وقال القطبُ الراوندىّ : بنو فراس بن غَنْم هم الروم . وليس بجيّد ، والصحيح ما ذكرناه .

والبيت المتمثّل به أخيرا لأبى جُنْدَب الهذلى ، وأول الأبيات :

ألا يا أمَّ زِنْبَاعٍ أقِيمِى صُدُورَ الْعِيسِ نَحْوَ بنى تَمِيمِ

* * *

وهذه الخطبة ، خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صفين ؛ وانقضاء أمر الحكمين والخوارج ؛ وهى من أواخر خطبه عليه السلام .

* * *

تم الجزء الأول[1] من شرح نهج البلاغة بحمد الله ومنّه ؛ والحمد لله وحده العزيز ؛ وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

---

(١) من تجزئة المؤلف ؛ وهذه خاتمة نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ا : « هذا آخر الجزء الأول ، ويتلوه الجزء الثانى إن شاء الله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

---

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

[بعثُ معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى الحجاز واليمن]

فأمّا خبرُ بُسْرِ بن أرطاة العامرىّ؛ من بنى عامر بن لؤى بن غالب، وبَعْثُ معاوية له ليُغيرَ على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذى هاج معاوية على تسريح بُسْر بن أرطاة - ويقال ابن أبى أرْطاة - إلى الحجاز واليمن، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعْظِمون قتلَه، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلىّ عليه السلام على مافى أنفسهم؛ وعاملُ علىّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عُبيد الله بن عباس[1] وعامله على الجَنَد سعيد بن نِمْران[2].

فلمّا اختلف الناسُ على علىّ عليه السلام بالعِراق، وقُتِل محمدّ بن أبى بكر بمصر، وكَثُرتْ غاراتُ أهلِ الشام، تكلّموا ودعوْا إلى الطلّب بدم عثمان، فبلغ ذلك عُبيدَ الله ابن عبّاس، فأرسل إلى ناسٍ من وُجوههم، فقال: ما هذا الذى بلغنى عنكم؟ قالوا: إنّا لم نزَلْ نُنْكر قتل عثمان، ونرى مُجاهدة مَنْ سَعَى عليه. فحبسهم، فكتبوا إلى مَن بالجَنَد من أصحابهم، فثاروا بسعيد بن نِمْران، فأخرجوه من الجَنَد، وأظهروا أمرَهم، وخرج إليهم مَنْ كان بصَنْعاء، وانضمّ إليهم كلّ مَنْ كان على رأيهم، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم؛ إرادةَ أن يمنعوا الصدّقة، والتقى عُبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران، ومعهما شيعة علىّ عليه السلام، فقال ابنُ عباس لابن نِمْران: والله لقد اجتمع هؤلاء، وإنهم لنا

---

(١) عبيد الله بن العباس؛ كان أصغر من أخيه عبد الله بسنة، رأى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه، وحفظ عنه. الاستيعاب ٤٠٤.

(٢) سعيد بن نمران الهمدانى؛ كان كاتبا لعلى؛ وأدرك من حياة النبى عليه السلام أعواما. الاستيعاب ٥٤٢

لمقاربون ، وإن قاتلناهم لا نعلم على مَنْ تـكون الدائرة ؛ فهَلُمَّ لنـكتبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام[1] بخبرهم وقَدْحهم ، وبمنزلهم الذى هُم به .

فـكتبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام[1] :

أمّا بعدُ ، فإنّا نخبر أميرَ المؤمنين ، أنّ شيعةَ عثمان وثبوا بنا ، وأظهروا أنّ معاوية قد شَيَّد أمرَه ، واتسق له أكثرُ الناس ، وأنّا سِرْنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومَنْ كان على طاعته ، وأنّ ذلك أحْمَشَهم[2] وألّبهم ، فعبّئُوا[3] لنا ، وتداعَوْا علينا مِن كلّ أوْب ، ونصرَهم علينا مَنْ لم يكن له رأى فيهم ، إرادةَ أن يمنَع حقَّ الله المفروضَ عليه ؛ وليس يمنعُنا من مُناجزتهم إلّا انتظارُ أمرِ أمير المؤمنين ، أدام الله عزّه وأيّده ، وقضى له بالأقدار الصالحة فى جميع أموره . والسّلام .

فلمّا وصل كتابهما ، ساء عليًّا عليه السلام وأغضبه ، وكتب إليهما :

من علىّ أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران : سلامٌ الله عليكما ، فإنى أحمَدُ إليكما اللهَ الذى لا إله إلّا هو ؛ أمّا بعد ؛ فإنه أتانى كتابُكما تذكُران فيه خروجَ هذه الخارجة ، وتعظّمان مِن شأنها صغيراً ؛ وتُـكَثّران من عددها قليلا ؛ وقد علمتُ أنّ نَخْبَ[4] أفئدتـكما ، وصِغرَ أنفسكما ، وشَتات رأيـكما ، وسوءَ تدبيركما ، هو الذى أفسد عليكما مَن لم يكن عليكما فاسدا ، وجَرّأ عليكما مَن كان عن لقائـكما جبانًا ، فإذا قدم رسولى عليكما ، فامْضيا إلى القوم حتى تقرءا عليهم كتابى إليهم ، وتدعوَاهم إلى حظهم وتقوى ربّهم ؛ فإن أجابوا حَمِدنا الله وقَبِلناهم ، وإنْ حارَبوا استعنّا بالله عليهم ؛ ونابذناهم على سواء ؛ إن الله لا يحبّ الخائنين .

قالوا : وقال علىّ عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبىّ: ألَا ترى إلى ماصَنَع قومُك !

(١ — ١) ساقط من ا

(٢) أحمشهم : هاجهم وأغضبهم .

(٣) ب : « فتعبوا » .

(٤) النخب : الجبن وضعف القلب .

فقال : إنّ ظنى يا أمير المؤمنين بقومى لَحَسَنٌ فى طاعتك ، فإن شئتَ خرجتُ إليهم فكفيتَهم ، وإن شئتَ كتبتَ إليهم فتنظر مايجيبونك . فكتب علىّ عليه السلام إليهم (١) :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين ، إلى من شاقّ وغَدَر من أهل الجَنَد وصنعاء . أما بعد، فإنّى أحمَدُ الله الّذى لا إله إلا هو ، الذى لايُعقّب له حكم، ولا يُرَدّ له قضاء، ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين .

وقد بلغنى تجرُّؤكم وشِقاقُكم وإعراضُكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيعة ، فسألتُ أهلَ الدّين الخالص ، والورَع الصادق ، واللُّبّ الراجح ، عن بَدْء تحرّككم ، وما نويتم به ، وما أحْمَشكم له ؛ فحُدّثت عن ذلك بما لم أرَ لكم فى شىء منه عُذْرا مبينا، ولا مقالا جميلا، ولا حُجّة ظاهرة ؛ فإذا أتاكم رسولى فتفرقوا وانصرِفوا إلى رحالكم أعفُ عنكم ، وأصفحْ عن جاهلكم ، وأحفظْ قاصيَكم ، وأعملْ فيكم بحكم الكتاب ؛ فإن لم تفعلوا ، فاستعدّوا لقدوم جيش جَمٍّ الفرسان، عظيم الأركان ، يقصد لمن طَغَى وعَصَى (٢) ، فتُطحَنوا كطحن الرّحا ؛ فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربّك بظلام للعبيد.

ووجّه الكتاب مع رجل من هَمْدان ، فقدِم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خَيْر ، فقال لهم: إنّى تركت أميرَ المؤمنين يريد أن يوجّه إليكم يزيدَ بن قيس الأرحبىّ فى جيش كثيف ، فلم يمنعْه إلا انتظارُ جوابكم. فقالوا : نحن سامعون مطيعون ، إن عَزَل عنّا هذين الرجلين : عُبيدَ الله وسعيدا .

فرجع الهَمْدانىّ من عندهم إلى علىّ عليه السلام فأخبره خبر القوم .

قالوا : وكتبتْ تلك العصابة حين جاءها كتاب علىّ عليه السلام إلى معاوية يخبرونه، وكتبوا فى كتابهم :

مُعَاوِيَ إلّا تُسرِعِ السيرَ نَحْوَنَا نبايعْ عليًّا أو يزيدَ اليمانيَا

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) ساقطة من ا

فلما قدِم كتابهم ، دعا بُسْرَ بن أبى أرطاة ـ وكان قاسىَ القلب فَظًّا سفَّاكاً للدماء ، لا رأفةَ عنده ولا رحمة ـ فأمرَه أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكّة حتى ينتهىَ إلى اليمن ، وقال له : لا تنزِلْ على بلد أهلُه على طاعةِ علىّ ، إلّا بسطتَ عليهم لسانَك ؛ حتى يرَوْا أنهم لا نجاءَ لَهم ، وأنّك محيط بهم . ثم اكففْ عنهم،وادعُهم إلى البيْعة لى ، فمنْ أبى فاقتلْه ، واقتلْ شيعةَ علىّ حيث كانوا .

* * *

وروى إبراهيم بن هلال الثقفىّ فى كتاب " الغارات " عن يزيد بن جابر الأزدىّ ، قال :

سمعت عبد الرحمن بن مَسعدة الفزارىّ يحدّث فى خلافة عبدالملك ، قال : لما دخلتْ سنة أربعين ، تحدّث النـاس بالشام أنّ عليًّا عليـه السلام يستنفِرُ النّاس بالعراق فلا ينفِرون معه ، وتذاكروا أنْقد اختلفتْ أهواؤهم ، ووقعت الفُرقة بينهم ، قال:فقمت فى نَفَرٍ من أهل الشام إلى الوليد بن عُقْبة ، فقلنا له : إنّ الناس لا يشكّون فى اختلاف الناس على علىّ عليـه السلام بالعراق ، فادخلْ إلى صاحبك فمرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرّقهم ، أو يصلُحَ لصاحِبهم ماقد فسد عليـه من أمره . فقال : بلَى ، لقد قاولته فى ذلك وراجعته وعاتبته ، حتى لقد برِم بى ، واستثقل طَلْعتى ، وايمُ الله على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه مامشَيْتم [(١)] إلىّ فيه .

فدخل عليه نخبّره بمجيئنا إليه ، ومقالتنا له ، فأذن لنا ، فدخلْنا عليه ، فقال : ماهذا الخبرُ الذى جاءنى به عنكم الوليد ؟ فقلنا : هـذا خبرٌ فى الناس سائر ، فشمِّرْ للحرب ، وناهِض الأعداء ، واهتبِل الفرصة ، واغتنم الغِرّة ، فإنك لا تدرى متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التى هم عليها ؛ وأن تسيرَ إلى عدوِّك أعزُّ لك منأن يسيرُوا إليك . واعلم

(١) ا : « ماشئتم » .

والله أنّه لولا تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك . فقال لنا : ما أستغنى عن رأيكم ومشورتكم ، ومتى أحْتَجْ إلى ذلك منكم أدْعُكم . إنّ هؤلاء الذين تذكرون تفرّقهم على صاحبهم، واختلافَ أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندى بهم أن أكونَ أطمعُ فى استئصالهم واجتياحهم ، وأنْ أسيرَ إليهم مخاطرا بجندى ، لا أدرى علىّ تكونُ الدائرة أم لى ! فإيّاكم واستبطائى ، فإنى آخذُ بهم فى وجهٍ هو أرفقُ بكم ، وأبلغُ فى هَلَكَتِهم . قد شَنَنْتُ عليهم الغارات من كلّ جانب ؛ نخيْلى مرةً بالجزيرة ، ومرةبالحجاز ؛ وقدفتح الله فيما بين ذلك مصر ، فأعزّ بفتحها وليّنا ، وأذلّ به عدوّنا ، فأشرافُ أهل العراق لما يرون من حُسْن صنيع الله لنا ، يأتوننا على قَلائصِهم فى كلّ الأيام ، وهذا مما يزيدكم الله به وينقصهم ، ويقوّيكم ويُضعفهم ، ويُعِزُّكم ويذلّهم ؛ فاصبروا ولا تعجلوا ، فإنّى لو رأيت فرصتى لاهتبلْتُها .

فخرجنا من عنده ونحن نعرف الفَصْل[1] فيما ذكر ، فجلسنا ناحيةً ، وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسر بن أبى أرطاة ، فبعثه فى ثلاثة آلاف ، وقال : سِرْ حتى تمرّ بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخِفْ مَنْ مررت به ، وانهبْ أموال كلِّ مَنْ أصبت له مالا ؛ ممّن لم يكن دخل فى طاعتنا ، فإذا دخلتَ المدينة ، فأرِهم أنّك تريد أنفسَهم ، وأخبرْهم أنه لا براءةَ لهم عندك ولاعذر ؛ حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكففْ عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة ، ولا تعرِضْ فيها لأحد ، وأرْهِب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شُرُداً ؛ حتى تأتى صنعاء والجَنَد ، فإنّ لنا بهما شيعة ، وقد جاءنى كتابهم .

فخرج بُسْر فى ذلك البعْث ؛ حتى أتى دير مروان ، فعرضهم فسقط منهم أربعمائة ، فمضى فى ألفيْن وستمائة ، فقال الوليد بن عُقْبة : أشرْنا على معاوية برأينا أن يسيرَ

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « الفضل » .

إلى الكوفة ، فبعث الجيشَ إلى المدينة ، فمثلُنا ومثَلُه ، كما قال الأول : أُريها السُّها وتُريني القمَرْ (١) .

فبلغ ذلك معاوية ، فغضب وقال: والله لقد هممتُ بمساءة هذا الأحمق الذى لا يُحسِن التدبير ، ولا يدرِى سياسة الأمور . ثم كفّ عنه .

* * *

قلت : الوليد كان لشِدّة بغضه عليًّا عليه السلام القديم التالد ، لا يرى الأناة فى حَرْبه ، ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده ، ولا يشفِى غيظَه ولا يُبرِد حزازاتِ قلبه ؛ إلا باستئصاله نفسه بالجيوش، وتسييرها إلى دار مُلْكه، وسرير خلافته، وهى الكوفة، وأن يكون معاوية بنفسه هو الذى يسير بالجيوش إليه ؛ ليكونَ ذلك أبلغَ فى هلاك علىّ عليه السلام ، واجتثاث أصل سلطانه . ومعاوية كان يرى غيرَ هذا الرأى ، ويعلم أنّ السيرَ بالجيش للقاء علىّ عليه السلام خَطَر عظيم ؛ فاقتضت المصلحةُ عنده وما يغلِبُ على ظَنّه من حُسْن التدبير ، أن يثبُت بمركزه بالشام فى جمهور جَيْشه ، ويسرِّب الغارات على أعمال علىّ عليه السلام وبلاده ، فتجوس خلال الديار وتضعفها، فإذا أضعفتْها أضعفتْ بيْضة ملك علىّ عليه السلام ؛ لأنّ ضعف الأطراف يُوجب ضعف البَيْضة، وإذا أضعِفت البيضةُ كان على بلوغ إرادته ، والمسير حينئذ ـ إن استصوب المسير ـ أقدرَ .

ولا يلام الوليد على مافى نفسه ؛ فإنّ عليًّا عليه السلام قتل أباه عُقْبة بن أبى مُعيط صَبْراً (٢) يوم بدر ، وسُمّى الفاسقَ (٣) بعد ذلك فى القرآن ، لنزاع وقع بينه وبينه ،

(١) السها : كويكب صغير خفى الضوء فى بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم . والمثل فى اللسان ١٩ : ١٣٣ وانظر الميدانى ١ : ٢٩١ .

(٢) القتل صبرا : أن يحبس الإنسان ويرمى به حتى يموت .

(٣) يشير إلى ماذكروه من سبب نزول قوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ . وانظر الإصابة ٦ : ٦٣١ ، وأسباب النزول للواحدى ٢٩١ .

ثم جلده الحدّ فى خلافة عثمان ، وعزله عن الكوفة ، وكان عاملها . وببعض هذا عند العرب أرباب الدّين والتّقى تُستَحَلُّ المحارم ، وتُستباح الدماء ، ولا تبقى مراقبة فى شفاء الغيظ لدين ولا لعقاب ولا لثواب ، فكيف الوليد المشتمل على الفسوق والفجور ، مجاهرا بذلك ! وكان من المؤلفة قلوبهم ، مطعونا فى نسبه[1] ، مرميًّا بالإلحاد والزندقة .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : روى عَوانة عن الكلبيّ ولوط بن يحيى أن بُسراً لما أسْقَط مَن أسقط من جيشه ، سار بمن تخلّف معه ، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبلَ أهلِ ذلك الماء فركبوها ، وقادوا خيولهم حتى يرِدُوا الماء الآخر ، فيردّون تلك الإبل ، ويركبون إبل هؤلاء ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة .

قال : وقد روى أنّ قُضاعة استقبلتهم ؛ ينحَرُون لهم الجُزُر ، حتى دخلوا المدينة .

قال : فدخلوها ، وعامل علىّ عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصاريّ ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج عنها هاربا ، ودخل بُسْر المدينة ، فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ وتوعدهم ، وقال : شاهت الوجوه ! إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا . . . ﴾[2] الآية ، وقد أوقع الله تعالى ذلك المثلَ بكم وجعلكم أهله ؛ كان بلدُكم مهاجَر النبى صلى الله عليه ومُنْزَله ، وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده ؛ فلم تشكروا نعمةَ ربّكم ، ولم ترعَوْا حَقّ نبيكم ، وقُتِل خليفة الله بين أظهركم ، فكنتم بين قاتلٍ وخاذِل ، ومتربّص وشامت ، إن كانت للمؤمنين ، قلتم : ألم نكن معكم ! وإن كان للكافرين نصيب ، قلتم : ألم نستحوذْ عليكم ونمنعكم من

(١) ا : « دينه » .

(٢) سورة النحل ١١٢ ، وبقيتها : ﴿ رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

المؤمنين ! ثم شتم الأنصار ، فقال : يا معشرَ اليهود وأبنـاء العبيد : بنى زُرَيق ، وبنى النجار ، وبنى سَلِمة ، وبنى عبد الأشهل ؛ أما والله لأوقعنّ بـكم وقعة تَشفى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان ؛ أما والله لأدعنّـكم أحاديثَ كالأمم السالفة[١].

فتهددهم حتى خاف الناسُ أن يوقِع بهم ، ففزعوا إلى حُوَيْطِب بن عبد العُزّى – ويقال إنه زوْج أمّه – فصعِد إليه المنبر ، فناشده ، وقال : عِترتك وأنصار رسول الله ، وليْسُو بقتَلة عثمان ؛ فلم يزل به حتى سكن ، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه . ونزل فأحرقَ دورا كثيرة ، منها دار زُرارة بن حَرون ، أحد بنى عمرو بن عوف ، ودار رفاعة ابن رافع الزُّرَقِىّ ، ودار أبى أيوب الأنصارىّ . وتفقد جابر بن عبد الله ، فقال : مالى لا أرى جابرا يا بنى سلِمة ! لا أمان لـكم عندى ، أو تأتونى بجابر ؛ فعاذ جابر بأمّ سلمة رضى الله عنها ، فأرسلت إلى بُسر بن أرطاة ، فقال : لا أؤمّنه حتى يبايع ، فقالت له أم سَلمة : اذهب فبايع ، وقالت لابنها عمر : اذهب فبايع ، فذهبا فبايعاه[٢] .

قال إبراهيم : وروى الوليد بن كثير عن وهب بن كَيْسان ، قال : سمعت جابر ابن عبد الله الأنصارىّ يقول : لمّا خِفْتُ بُسْراً وتواريت عنه ، قال لقومى : لا أمانَ لـكم عندى حتى يحضر جابر ، فأتونى وقالوا : نَنْشُدُك الله لمـا انطلقْت معنا فبايعتَ ، فحقنتَ دمك ودماء قومك ؛ فإنك إن لم تفعـلْ قتلتَ مُقاتلينا ، وسبيْت ذرارينا . فاستنظرتُهم الليل ، فلما أمسيت دخلت على أمّ سلمة فأخبرتُها الخبر ، فقالت : يابنىّ ، انطلق فبايع ، احقِنْ دَمك ودماء قومك ؛ فإنى قد أمرت ابنَ أخى أن يذهبَ فيبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « فقال لها : ماذا ترين ؟ إنى قد خشيت أن أقتل ؛ وهـذه بيعة ضلالة ، فقالت : «أرى أن تبايع ، فإنى قد أمرت ابنى عمر بن أبى سلمة أن يبايع ، وأمرت ختنى عبدالله بن زمعة .. ».

قال إبراهيم : فأقام بُسْر بالمدينة أياماً ثم قال لهم : إنى قد عَفَوْت عنكم ؛ وإن لم تكونوا لذلك بأهل ؛ ما قومٌ قتِلَ إمامُهم بين ظَهْرانيهم بأهلٍ أن يُكَفّ عنهم العذاب ؛ ولئن نالكم العفو منى فى الدنيا ؛ إنى لأرجو ألّا تنالكم رحمة الله عز وجلّ فى الآخرة ، وقد استخلفتُ عليكم أبا هريرة ؛ فإياكم وخلافه . ثم خرج إلى مكة .

* * *

قال إبراهيم : وروى الوليد بن هشام ، قال : أقبل بُسْر ، فدخل المدينة ، فصعِد مِنْبَر الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم قال : يأهل المدينة ، خَضَبتم لحِاكم ، وقتلتم عثمان مخضوبا ، والله لا أدَعُ فى المسجد مخضوبا إلا قتلتُه ، ثم قال لأصحابه : خذُوا بأبواب المسجد — وهو يريد أن يستعرضهم — فقام إليه عبد الله بن الزّبير وأبو قيس أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فطلبا إليه حتى كفّ عنهم . وخرج إلى مكة ، فلما قرب منها هرب قُثَمُ ابن العباس — وكان عاملَ علىّ عليه السلام — ودخلَها بُسْر ، فشتَم أهلَ مكة وأنّبهم . ثم خرج عنها ، واستعمل عليها شَيْبة بن عثمان .

قال إبراهيم : وقد روى عَوانة عن الكلبى أن بُسْراً لمّا خرج من المدينة إلى مكّة قتل فى طريقه رجالاً ، وأخذ أموالا ، وبلغ أهلَ مكة خبرُه ، فتنحّى عنها عامّةُ أهلها ، وتراضَى الناس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثَم بن العباس عنها ، وخرج إلى بُسر قوم من قريش ، فتلقَّوْه ، فشتمهم ، ثم قال: أمَا والله لو تُرِكت ورأيى فيكم لتركتُكم ومافيكم روح تمشى على الأرض . فقالوا : نَنْشُدُكَ الله فى أهلك وعِتْرتك ! فسكت ثم دخل وطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، ثم خطبهم ، فقال :

الحمدُ لله الذى أعزّ دعوتنا ، وجمَع ألفتنا ، وأذَلّ[1] عَدُوَّنا بالقتل والتشريد ، هذا ابنُ أبى طالب بناحية العراق فى ضَنْك وضِيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بجَريرته ؛

(١) ا : « وخذل » .

فتفرّق عنه أصحابُه ناقمين عليه ، ووَلِىَ الأمرَ معاويةُ الطالبُ بدم عثمان ؛ فبايِعوا ولاتجعلوا على أنفسكم سبيلا . فبايَعوا .

وتفقّدَ سعيدَ بنالعاص فطَلَبه فلم يجده ، وأقام أياما ثم خطبهم فقال :

يأهلَ مكة ، إنى قد صفحت عنكم ، فإياكم والخلاف ، فوالله إنْ فعلتم لأقصِدَنّ منكم إلى التى تُبير الأصل ، وتحرُب المال ، وتخرِّب الديار .

ثم خرج إلى الطائف ، فكتب إليه المغيرة بن شعبة حين خرج من مكة إليها :

أما بعد ، فقد بلَغنى مسيرُك إلى الحجاز ، ونزولُك مكة ، وشِدّتُك على المريب ، وعفوُك عن المسىء ، وإكرامُك لأولى النُّهَىٰ ، فحَمِدتُ رأيك فى ذلك ، فدُمْ على صالحِ ما كنتَ عليه ، فإنّ الله عزَّ وجلّ لن يزيد بالخير أهلَه إلّا خيرا ؛ جعلنا الله وإيّاك من الآمرين بالمعروف ، والقاصِدين إلى الحقّ ، والذاكرين الله كثيرا .

قال : ووجّه رجلاً من قريش إلى تَبالة ، وبها قوم من شيعة علىّ عليهالسلام ، وأمره بقتلهم . وأخذهم ، وكُلّم فيهم وقيل له : هؤلاء قومُك ، فكفَّ عنهم حتى نأتيَك بكتابٍ من بُسْر بأمانهم ؛ فحبسهم . وخرج منيعٌالباهلىّ من عندهم إلى بُسر وهو بالطائف يستشفع إليه فيهم ، فتحمّل عليه بقوم من الطائف ، فكلّموه فيهم ، وسألوه الكتاب بإطلاقهم ، فوعدهم ، ومَطَلهم بالكتاب حتى ظن أنه قد قتلهم القرشىّ المبعوث لقتلهم ، وأن كتابه لايصل إليهم حتى يُقتلوا . ثم كتب لهم ، فأتى مَنيع منزله ، وكان قد نزل على امرأة بالطائف ورَحْله عندها ، فلم يجدها فى منزلها ، فوطِئَ على ناقته بردائه ، وركب فسار يومَ الجمعة وليلة السبت لم ينزل عن راحلته قطّ ، فأتاهم ضحوة ، وقد أخرِج القومُ ليقتلوا ، واستبطِئَ كتاب بُسر فيهم ، فقدِّم رجل منهم فضربه رجلٌ من أهل الشام ، فانقطع سيفه ، فقال الشاميّون بعضهم لبعض : شمِّسوا سيوفكم حتى تلين فهزُّوها . وتبصَّر منيع

الباهلى بريقَ السيوف ، فألمع بثوبه ، فقال القوم : هـذا راكب عنده خير ، فـكفُّوا ، وقام به بعيره فنزل عنه ، وجاء على رجليه يشتدّ فدفع الـكتاب إليهم فأطلِقوا . وكان الرجل المقدّم ــ الذى ضرب بالسيف فانـكسر السيف ــ أخاه .

***

قال إبراهيم : وروى علىّ بن مجـاهد ، عن ابن إسحاق أنّ أهلَ مكة لما بلغهم ما صنع بُسر ، خافوه وهربوا ، فخرج ابنا عبيد الله بن العباس ؛ وهما سليمان وداود ، وأمهما جُوَيْرِيَة ابنة خالد بن قَرَظ الـكنانية ، وتُـكْنَى أمّ حكيم ، وهم حلفاء بنى زُهرة ــ وهما غلامان ــ مع أهل مكة ، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضْرمِىّ ــ وميمون هذا هو أخو العَلاء بن الحضْرمى ــ وهجم عليهما بسر ، فأخذهما وذبحهما ، فقالت أمهما[(١)] :

هَامَنْ أَحَس بِابْنَىَّ اللَّذَيْن هما ... كالدُّرتَيْن تَشَظَّى عنهما الصَّدَف[(٢)]
هَامَنْ أحس بابنىّ اللَّذَين هما ... سمعِى وقلبى ؛ فقلْبِى اليومَ مُخْتَطَفُ
هَامَنْ أحس بابنىّ اللَّذين هما ... مُخّ العِظام ، فمخّى اليومَ مزدهَفُ[(٣)]
نُبِّئْتُ بسراً وماصدّقتُ مازعموا ... من قَوْلِهِمْ ومن الإفْكِ الذى اقْتَرَفُوا
أنْحَى عَلَى وَدَجَىْ إبنىَّ مُرهَفَةً ... مشحوذةً ، وكذاكَ الإثمُ يُقْـتَرَفُ[(٤)]
من دَلَّ والهة حَرّى مُسَلّبةً[(٥)] ... على صبيّين ضلاّ إذ مضى السلف[(٦)]

(١) الأبيات فى الـكامل ــ بشرح المرصفى ٨ : ١٥٨ ، وهى أيضاً مع الخبر فى الأغانى ١٥ : ٤٥ (طبعة الساسى) .

(٢) الـكامل والأغانى : « يامن أحس بنى » . وتشظى : تفرق .

(٣) مزدهف : ذهب به .

(٤) الـكامل : « على ودجى طفلى » ، وبعد هذا البيت فى رواية الأغانى :

حَتَّى لَقِيتُ رجالاً مِنْ أرومَتِهِ ... شُمّ الأنوفِ لهم فى قَوْمِهِمْ شرفُ
فالآن أَلْعَنُ بسراً حَقّ لَعْنَتِهِ ... هَذا لَعَمْرُ أبى بُسْرٍ هُوَ السَّرَفُ

(٥) الـكامل : « مفجعة » والأغانى : « مولهة » .

(٦) الـكامل : « على صبيين غابا » ، والأغانى : « إذ غدا السلف » .

وقد روى أن اسمهما قُثَم وعبد الرحمن. ورُوِى أنهما ضلاّ فى أخوالهما من بنى كنانة. وروى أن بُسْراً إنّما قتلهما باليمن ، وأنّهما ذبحا على دَرَج صنعاء (١) .

* * *

وروى عبد الملك بن نوفل بن مُساحق عن أبيه ، أنّ بُسْراً لما دخل الطائف، وقد كلّمه المغيرة ، قال له : لقد صدقتَنى ونصحتَنى ؛ فبات بها وخرج منها ، وشيّعه المغيرة ساعة ، ثم ودّعه وانصرف عنه، فخرَج حتى مَرَّ ببنى كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأمّهما. فلما انتهى بُسْر إليهم ، طلبهما، فدخل رجل من بنى كنانة ــ وكان أبوهما أوصاه بهما ــ فأخذ السيفَ من بيته وخرجَ ، فقال له بُسْر : ثَكِلَتْكَ أمّك ! والله ما كنا أردنا قَتْلك ، فلِمَ عرّضت نَفَسَك للقتل ! قال : أُقتلُ دون جارِى أعذَرُ لِى عند الله والناس . ثم شدّ على أصحاب بُسر بالسيف حاسرا ، وهو يرتجز :

آليتُ لا يمنع حافاتِ الدّارْ ولا يموت مصلِتاً دُونَ الجارْ (٢)
* إلّا فتًى أرْوَعُ غير غَدّارْ *

فضارب بسيفه حتى قُتل ، ثم قُدِّم الغلامان فقتلا. فخرج نسوة من بنى كنانة، فقالت امرأة منهنّ : هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ! والله ما كانوا يقتَلون فى جاهلية ولا إسلام، والله إنّ سلطانا لا يشتدّ إلا بقتل الضّرَع الضعيف، والشيخ الكبير ، ورفع الرحمة، وقطع الأرحام لَسُلطان سوء ؛ فقال بُسْر : والله لَهممتُ أن أضعَ فيكنّ السيف، قالت: والله إنه لأحَبُّ إلىّ إن فعلت !

* * *

قال إبراهيم : وخرج بُسر من الطائف ، فأتى نَجْران ، فقتل عبد الله بن عبد المدان وابنه مالكا ــ وكان عبد الله هذا صهرا لعبيد الله بن العباس ــ ثم جمعهم وقام فيهم، وقال:

(١) الدرج : الطريق .
(٢) المصلت : المجرد سيفه .

يأهلَ نجران ، يامعشرَ النصارى وإخوان القرود : أما والله إنْ بلغنى عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتى تقطع النَّسْل ، وتُهلِكُ الحرث ، وتخرّب الديار !

وتهدّدهم طويلا، ثم سار حتى [بلغ] أرْحَب، فقَتَل أبا كرِب — وكان يتشيّع — ويقال : إنه سيّد مَنْ كان بالبادية من هَمْدان ، فقدمه فقتله .

* * *

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران ، وقد استخلف عبيدُ الله عليها عَمْرو بن أراكة الثقفىّ ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله، فقتله بُسْر ، ودخل صنعاء ، فقتل منها قوما ، وأتاه وفْدُ مأرِب فقتلهم ، فلم ينجُ منهم إلا رجل واحد، ورجع إلى قومه ، فقال لهم : « أنعى قتلاَنا ، شيُوخا وشُبّانا » .

قال إبراهيم : وهذه الأبيات المشهورة لعبدالله بن أراكة الثقفىّ؛ يرثى بها ابنه عمرا[١] :

لَعَمْرِى لقد أرْدَى ابنُ أرْطَاةَ فَارِساً بصنعاء كاللّيْث الهِزَبْر أبى الأَجْرِ[٢]
تَعزَّ فإن كان البكا ردّ هالــكا على أحد ، فاجهَد بُـكَاكَ على عمرو[٣]
ولا تَبْكِ مَيْتاً بعـــد مَيْتٍ أجنّه علىّ وعباسٌ وآلُ أبِى بَـكْرِ

قال : وروى نُمَيْر بن وَعْلَة ، عن أبى وَدّاك[٤]، قال : كُنتُ عندَ علىّ عليه السلام لمّا قدم عليه سعيد بن نِمْران الكوفة ، فعتب عليه وعلى عبيد الله ألّا يكونا قاتلا بُسرا ،

---

(١) الأبيات فى الكامل — بشرح المرصفى ٨ : ١٥٧ ، وقبلهما فى روايته :

لَعَمْرِى لَئِنْ أتْبَعْتَ عَيْنَكَ مامَضَى به الدَّهْرُ أوساقَ الحِمامُ إلى الْقَبْرِ
لَتَسْتَنْفِــدَنْ ماءَ الشُّئونِ بأسْرِهِ وَلَوْ كُنْتَ تَمْرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ الْبَحْرِ

(٢) فى الكامل : « أبى أجر » ، وأجر : جمع جرو ؛ وهو هنا اسم لولد الأسد ؛ ويجمع على أجراء أيضاً .

(٣) رواية الكامل :

تبيّنْ فإنْ كانَ البكا رَدَّ هالــكا على أهــله فاشْدُدْ بُـكَاكَ على عمرو

(٤) هو جبر بن نوف الهمدانى ، أبو الوداك ، بفتح الواو وتشديد الدال . التقريب ٤١ .

فقال سعيد : قد والله قاتلت ، ولـكنّ ابن عباس خَذَلني وأبى أن يقاتل، ولقد خلوتُ به حين دنا منّا بُسْر ، فقلت : إنّ ابنَ عمك لا يرضى منّي ومنك بدون الجِدّ في قتالهم،قال: لا والله مالنا بهم طاقة ولا يَدَان ، فقمت في الناس،فحَمدت الله ثم قلت : يأهل اليمن ، مَنْ كان في طاعتنا وعلى بيعةأمير المؤمنين عليه السلام فإليّ إليّ .فأجابني منهم عِصابة،فاستقدمت بهم ، فقاتلت قتالا ضعيفا ، وتفرّق الناس عنّي وانصرفت .

قال: ثم خرج بُسر من صنعاء، فأتى أهل جَيْشَان[1] ـ وهم شيعة لعليّ عليه السلام ـ فقاتلهم وقاتلوه،فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعا، ثم رجع إلى صنعاء،فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس، لأنّ ابنى عبيدالله بن العباس كانا مستترين في بيت امرأة من أبنائهم، تعرف بابنة بُزُرْج.

***

وقال الـكلبيّ وأبو مِخْنف: فندب عليّ عليه السلام أصحابَه لبعث سرّية في إثر بُسْر ، فتثاقلوا ، وأجابه جارية بن قُدامة السعدىّ ، فبعثه في ألفين، فشخَص إلى البصرة،ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدِم اليمن ، وسأل عن بُسر فقيل : أخذ في بلاد بني تميم ، فقال : أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم . وبلغ بُسرا مسيرُ جارية ، فانحدر إلى اليمامة ، وأغذّ جارية بن قدامة السير ، مايلتفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن ، ولا يعرِّج على شيء إلّا أن يُرْمِل[2] بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته، أو يسقط بعير رجل أو تحفَى دابته،فيأمر أصحابه بأن يُعْقِبوه،حتى انتهوْا إلى أرض اليمن؛فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال،واتّبعهم شيعة عليّ عليه السلام،وتداعَتْ عليهم من كلّ جانب ، وأصابوا منهم، وصَمَد[3] نحو بُسْر ، وبسْر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة أخرى،حتى أخرجه من أعمال عليّ عليه السلام كلّها .

فلما فعل به ذلك،أقام جارية بجرَش نحوا من شهر ،حتى استراح وأراحَ أصحابه،ووثب الناس ببُسْر في طريقه لما انصرف من بين يدى جارية ، لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغَشْمه وأصاب بنو تميم ثِقْلامن ثقله في بلاده. وصحبه إلى معاوية ليبايعه على الطاعة ابنُ مَجّاعة

(١) جيشان : مخلاف باليمن ، شمال الحج (٢) يقال : أرمل القوم ؛ إذا نفد زادهم .
(٣) صمد : قصد .

رئيس اليمامة ، فلما وصل بُسر إلى معاوية قال : يا أميرَ المؤمنين ، هذا ابن مجّاعة قد أتيتُك به فاقتله ، فقال معاوية : تركتَه لم تقتله ، ثم جئتني به فقلت اقتله ! لا لعمري لا أقتله . ثم بايعه ووصله ، وأعاده إلى قومه .

وقال بُسر : أحمَد الله يا أمير المؤمنين أنى سرت فى هذا الجيش أقتل عدوّك ذاهبا جائيا لم يُنْكَب رجل منهم نكبة ، فقال معاوية : اللهُ قد فعل ذلك لا أنت .

وكان الذى قتلَ بسرٌ فى وجهه ذلك ثلاثين ألفا ، وحرّق قوما بالنار ، فقال يزيد ابن مفرِّغ :

تَعَلَّقَ مِنْ أَسْمَاءَ مَا قَدْ تَعَلَّقَا ... ومثلُ الذى لاقَى من الشوق أرّقَا[1]

سقى هَزِمُ الأرعاد منبعج الكُلَى ... منازلَها من مَسْرُقَانَ فَسُرّقَا

إلى الشّرف الأعلى إلى رَامَهُرْمُزٍ ... إلى قَرَيَاتِ الشَّيْخِ من نهر أَرْبَقَا

إلى دشتِ بارِينٍ إلى الشَّطِّ كلِّه ... إلى مجمع السُّلّانِ من بطن دَوْرَقا[2]

إلى حيث يُرْفا من دُجَيْلٍ سفينُهُ ... إلى مجمع النهْرين حيثُ تفرّقا

إلى حيث سار المرء بُسرٌ بجيشه ... فقتَّل بُسْرٌ ما استطاع وحَرّقا

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : اجتمع عُبيد الله بن العباس وبُسر بن أرطاة يوما عند معاوية بعد صلح الحسَن عليه السلام ، فقال له ابن عباس : أنت أمرتَ اللعين السيِّئَ الفَدْمَ أن يقتل ابنىّ ؟ فقال : ما أمرتُه بذلك ، ولودِدتُ أنه لم يكن قَتَلهما ، فغضب بُسْر ونزع سيفه فألقاه وقال لمعاوية : اقبِض سيفَك ، قلّدتنيه وأمرتَنى أن أخبط به الناس ففعلت ، حتى إذا بلغتُ ما أردتَ قلت : لم أهْوَ ولم آمُر ! فقال : خذْ سيفَك إليك ، فلعَمْرِى

(١) وردت هذه الأبيات فى الأغانى ١٧ : ٦٩ (ساسى) ، ومعجم ما استعجم ٢ : ١٢٢٥ — ١٢٢٦ ، ومعجم البلدان ٨ : ٥٢ ؛ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها . (٢) الدشت : الصحراء .

إنك ضعيف مائق حين تُلقِي السيفَ بين يدىْ رجلٍ من بنى عبد مناف ، قد قتلتَ أمسِ ابنيْه .

فقال له عبيد الله : أتحسبنى يامعاويةُ قاتلًا بُسراً بأحد ابنيّ ! هو أحقر وألأم من ذلك ؛ ولكنّى والله لا أرى لى مَقْنَعاً ، ولا أدرِك ثأْرا إلا أن أصيب بهما يزيدَ وعبد الله .

فتبسّم معاوية وقال : وما ذنبُ معاوية وابنىْ معاوية ! والله ما علمتُ ولا أمرتُ ، ولا رضِيت ولا هَوِيت . واحتمَلها منه لشرفه وسؤدده .

قال : ودعا علىّ عليه السلام علَى بُسْر فقال : اللهمإنّ بُسْراً باع دينَه بالدنيا ، وانتهك محارمَك ، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثرَ عنده مِمّا عندك . اللّهمّ فلا تُمِتْه حتى تَسْلُبَه عقلَه ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار . اللهمّ الْعن بُسْراً وعمراً ومعاوية ، ولْيحُلّ عليهمغضبُك ، ولْتنزل بهم نِقمَتُك، ولْيصِبْهم بأسُك ورِجْزُك الذى لا تردّه عن القوم المجرمين .

فلم يلبثْ بُسْرٌ بعد ذلك إلا يسيرا حتى وسوس وذهب عقلُه . فكان يهذِى بالسّيف ، ويقول : أعطُونى سيفا أقتلْ به ؛ لا يزال يردد ذلك حتى اتُّخِذ له سيف من خشب ، وكانوا يدنون منه المِرْفقة ، فلا يزال يضرِبُها حتى يُغشى عليه ، فلبث كذلك إلى أن مات .

قلت : كان مُسلم بن عُقْبة ليزيد وما عمِل بالمدينة فى وقعة الحرّة كما كان بُسر لمعاوية وما عمل فى الحجاز واليمن ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

تَبْنِى كَمَا كَانَتْ أوائِلُنَا ... تَبْنِى وَنَفْعَلُ مِثْلَ مافَعَلُوا[1]

---

(١) قبله :

إنّا وإن كَرُمَتْ أوائلنا ... لَسْنَا عَلَى الأحْسَابِ نتّكِلُ

وينسب البيتان للمتوكل الليثى ؛ وهما فى العقد ٣ : ٤١١ .

(٢٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِين ، وَأَمِيناً عَلَى ٱلتَّنْزِيلِ ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ ، وَفِي شَرِّ دَار ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ ، تَشْرَبُونَ ٱلْكَدِرَ ، وَتَأْكُلُونَ ٱلْجَشِبَ ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ . ٱلْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ .

* * *

الشرح :

يجوز أن يعنى بقوله : « بين حجارة خُشْن ، وحَيّات صُمّ » الحقيقةَ لا المجاز ؛ وذلك أنّ الباديةَ بالحجاز ونجْد وتهامة وغيرها من أرض العرب ذاتُ حيّاتٍ وحجارة خُشْن ، وقد يعنى بالحجارة الخُشْن الجبال أيضاً أو الأصنام ؛ فيكونُ داخلا فى قِسْم الحقيقة إذا فرضناه مُرادا ، ويكون المعنىّ بذلك وصفَ ما كانوا عليه من البؤس وشَظَف العيشة وسوء الاختيار فى العبادة ، فأبدلهم الله تعالى بذلك الرِّيف[1] ولين المهاد وعبادةَ من يستحقّ العبادة .

ويجوز أن يعنى به المجاز ، وهو الأحسن ؛ يقال للأعداء حَيّات . والحيّة الصماء أدْهَى من التى ليست بصّماء ، لأنّها لا تنزجز بالصوت . ويقال للعدوّ أيضا : إنه لحجر خَشِن المسّ ، إذا كان ألدّ الخصام .

والجَشِب من الطعام : الغليظُ الخَشِن .

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب وسعة فى المأكل والمشرب .

وقال أبو البَختريّ وهب بن وهب القاضى : كنتُ عند الرشيد يوما ، واستدعى ماء مبرّداً بالثلج ، فلم يوجد فى الخزانة ثلج ، فاعتذر إليه بذلك ، وأحضر إليه ماء غير مثلوج ، فضرب وجهَ الغلام بالكوز ، واستشاط غضبا ، فقلت له : أقول ياأمير المؤمنين وأنا آمِن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من الغِيَر بالأمس — يعنى زوال دَوْلة بنى أميّة — والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزْم ألّا تعوّد نفسَك الترفّه والنعمة ، بل تأكل اللّيّن والجشب ، وتلبس الناعم والخشِن ، وتشرب الحارَّ والقارّ ؛ فنفحنى بيده ، وقال : لا والله ، لا أذهب إلى ما تذهب إليه ، بل ألبسُ النعمة ما لبِسَتْنى ، فإذا نابتْ نَوْبة الدّهر عدت إلى نِصاب غير خَوّار(١) .

وقوله : « والآثام بكم معصوبة » ، استعارة ، كأنها مشدودة إليهم .

وعنى بقوله : « تسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم » ما كانوا عليه فى الجاهليّة من الغارات والحروب .

* * *

الأصل :

ومنها :

فَنَظَرْتُ فإذا لَيْسَ لِى مُعِينٌ إلَّا أَهْلَ بَيْتِى ، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى ٱلْقَذَى ، وَشَرِبْتُ عَلَى ٱلشَّجَى ، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ ٱلْكَظَم ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ ٱلْعَلْقَمِ .

* * *

---

(١) الخوار : الضعيف .

الشَّرْحُ

الكَظْم ، بفتح الظاء : مخرَج النَّفَس ، والجمع أكْظام . وضنِنْت ، بالكسر : بخلت . وأغضيت على كذا : غضضت طرفى ، والشَّجَى : مايعترض فى الحلق .

***

[حديث السقيفة]

اختلفت الروايات فى قِصّة السَّقِيفة ، فالذى تقوله الشيعة ـ وقد قال قوم من المحدِّثين بعضَه ورووا كثيرا منه ـ أنّ عليا عليه السلام امتنع من البَيْعة حتى أخرِج كُرْهاً ، وأنّ الزّبيرَ بن العوام امتنع من البَيْعة وقال : لاأبايع إلا عليًّا عليه السلام ، وكذلك أبو سفيان ابن حرب ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس ، والعبّاس بن عبد المطلب وبنوه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وجميعُ بنى هاشم . وقالوا : إنّ الزُّبير شَهَر سيفَه ، فلما جاء عمر ومعه جماعة من الأنصار وغيرهم ، قال فى جملة ماقال : خُذُوا سيفَ هذا فاضربوا به الحجر . ويقال : إنّه أخذ السّيف من يد الزبير فضرب به حَجراً فكسره ، وساقهم كلَّهم بين يديه إلى أبى بكر ، فحملَهم على بيعتِه ولم يتخلف إلا علىّ عليه السلام وحدَه ، فإنّه اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام ، فتحامَوْا إخراجه منه قَسْرًا ، وقامت فاطمة عليها السلام إلى باب البيت فأسمعت مَنْ جاء يطلبُه ، فتفرقوا وعلموا أنّه بمفرده لايضرّ شيئا ، فتركوه .

وقيل : إنهم أخرجوه فيمن أخرج وحمل إلى أبى بكر فبايعه . وقد روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى كثيرا من هذا [1] .

فأمّا حديث التّحريق وماجرى مجراه من الأمور الفظيعة ، وقول مَنْ قال إنّهم أخذوا عليًّا عليه السلام يُقادُ بعمامته والناس حوله ؛ فأمْرٌ بعيدٌ ، والشِّيعة تنفرد به ، على أن جماعة من أهل الحديث قد رووْا نحوه ، وسنذكر ذلك .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٣ ومابعدها .

وقال أبو جعفر : إنّ الأنصار لمّا فاتَها ماطلبت من الخلافة ، قالت ـ أو قال بعضها: لا نبايع إلا عليا . وذكر نحو هـذا علىّ بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلىّ فى تاريخه (١) .

فأمّا قوله : « لم يكن لى معين إلا أهل بيتى فضننْتُ بهم عن الموت » فقولٌ مازال علىّ عليـه السلام يقوله ، ولقد قاله عَقِيبَ وفاة رسول الله صلى الله عليـه وآله ، قال : لَوْ وَجدْتُ أربعين ذوى عزم !

ذكر ذلك نصر بن مُزاحم فى كتـاب '' صفين '' ، وذكره كثير من أرباب السيرة .

وأما الذى يقوله جمهور المحدّثين وأعيـانهم ، فإنّه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر ، ولزِم بيتَه ، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام ، فلما ماتت بايع طوْعاً .

وفى صحيحىْ مسلم والبخارىّ : كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعدُ ، فلما ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه الناس عنه ، وخرَج من بيته فبايع أبا بكر ، وكانت مدةُ بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر (٢) .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ ، (٣) عن ابن عباس رضى الله عنه، قال : قال لى عبد الرحمن بن عوف ، وقد حَجَجْنا مع عمر (٣) : شهدت اليومَ أمير المؤمنين عليه السلام بِمِنًى ، وقال له رجلٌ (٤) : إنّى سمعتُ فلانا يقول : لو قد مات عمر لبايعت فلانا ، فقال عمر (٥) : إنى لقائم العشيةَ فى الناس أحذِّرهم هؤلاء الرهْطَ الّذين يريدون أن

---

(١) الكامل ٢ : ٢٢٠ ومابعدها .

(٢) صحيح البخارى بسنده عن عائشة فى كتاب المغازى ، وصحيح مسلم بسنده أيضا عن عائشة ، فى كتاب الجهاد والسير .

(٣ـ٣) صدر الخبر فى الطبرى : « عن ابن عباس ، قال : كنت أقرئُ عبد الرحمن بن عوف ، قال : فحج عمر وحججنا معه ، قال : فإنى لفى منزل بمنى إذ جاءنى عبد الرحمن بن عوف فقال : شهدت » .

(٤) الطبرى : « وقام إليه رجل فقال » . (٥) الطبرى : « فقال أمير المؤمنين » .

يغتصبوا الناسَ أمرَهم . قال عبد الرحمن : فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الموسمَ يجمع رَعاع الناس وغَوْغاءهم،(١ وهم الذين يقربون من مجلسك ويغلبون عليه،وأخاف أن تقولَ مقالة لايَعونها ، ولا يحفظونها فيطيروا بها(١) ،ولـكن أمهلْ حتى تقدَم المدينة(٢) وتخلص بأصحاب رسول الله ، فتقول [ماقلت متمكّناً](٣) ، فيسمعوا(٤) مقالتك. فقال : والله لأقومَنّ بها أولَ مَقامٍ أقومُه بالمدينة .

قال ابن عباس :(٥ فلما قدمناها ، هجَّرتُ يوم الجمعة لحديث(٥) عبدالرحمن ، فلما جلس(٦ عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال(٦) بعد أن ذكر الرَّجْم وحدّ الزنا: إنه بلَغنى أنّ قائلا منكم يقول:لو مات أميرُ المؤمنين بايعت فلانا،فلا يغرّنّ امرأ أن يقول : إنّ بيعةَ أبى بكر كانت فَلْتَةً ، فلقد كانت كذلك ؛ ولـكن (٧) الله وقى شرّها ، وليس فيكم مَنْ تُقَطَّع إليه الأعناقُ كأبى بكر،وإنّه كان من خبَرنا حين توفى رسول الله صلى الله عليه . أن عليًّا والزبير تخلّفا عنا فى بيت فاطمة ومَنْ معهما ، وتخلّفت عَنّا الأنصار ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر ، فقلت له:انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار.فانطلقنا نحوهم ، فلقِيَنا رجُلان صالحان من الأنصار قد شهدا بدرا : أحدهما عويم بن ساعدة ، والثانى مَعْن بن عدىّ ، فقالا لنا : ارجعوا فاقضوا أمرَكم بينكم (٨) ؛ فأتينا الأنصار ، وهم مجتمعون فى سَقيفة

(١ـ١) عبارة الطبرى : « ولنهم الذين يغلبون مجلسك ، وإنى لخائف إن قلت اليوم مقالة ألا يعوها ولا يحفظوها ، ولا يضعوها على مواضعها ، وأن يطيروا بها كل مطير » .

(٢) الطبرى : « دار الهجرة والسنة » . (٣) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٤) الطبرى : « فيعوا » .

(٥ـ٥) الطبرى : « فلما قدمنا المدينة وجاء يوم الجمعة هجرت للحديث الذى حدثنيه عبد الرحمن فوجدت سعيد بن زيد قد سبقنى بالتهجير ، فجلست » .

(٦ـ٦) عبارة الطبرى : « فوجدت سعيد بن زيد قد سبقنى بالتهجير ، فجلست إلى جنبه عند المنبر ، ركبتى إلى ركبته ، فلما زالت الشمس لم يلبث عمر أن خرج ، فقلت لسعيد وهو مقبل : ليقولن أمير المؤمنين اليوم على هذا المنبر مقالة لم تقل قبله ، فغضب وقال : وأى مقالة يقول لم تقل قبله ! فلما جلس عمر على المنبر أذن المؤذنون ، فلما قضى المؤذن أذانه قام عمر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال ... »

(٧) الطبرى : « غير أن » .

(٨) بعدها فى الطبرى : « فقلنا والله لنأتينهم » .

بنى ساعدة، وبين أظهرهم رجل مُزَمَّل، فقلت : من هذا ؟ [(1] قالوا: سعد بن عبادة وجِع [1)].

فقام رجل منهم ، فحمد الله وأثنى عليه، فقال : أما بعدُ ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام وأنتم يامعشر قريش رَهْطُ نبيّنا ، قد دفّت إلينا دافّة من قومكم [(2)] ، فإذا أنتم تريدون أن تغصبونا الأمر .

فلما سكت ، [(3] وكنت قد زوّرت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر [3)] ، فلما ذهبت أتكلم ، قال أبو بكر : عَلَى رِسْلك ! فقام فحمِد الله وأثنى عليه ، فما ترك شيئا كنت زَوّرت [(4)] فى نفسى إلّا جاء به أو بأحسنَ منه ، وقال : يا معشرَ الأنصار ، إنكم لا تذْكرون فضلا إلّا وأنتم له أهل ، وإنّ العربَ لا تعرِف هذا الأمر إلا لقريشٍ ، أوسطِ العرب داراً ونسبا ، وقد رَضِيتُ لكم أحدَ هذيْن الرجلين — وأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح — والله ما كرِهْتُ من كلامه غيرَها ؛ إنْ كنتُ لَأُقَدَّم فتضربُ عُنقِى فيما لا يقرّبنى إلى إثم ؛ أحبّ إلىّ من أن أؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر .

فلما قضى أبو بكر كلامه ، قامَ رجل [(5)] من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجّب [(6)] ؛ منا أمير ومنكم أمير .

(١ـ١) عبارة الطبرى « فقلت : ماشأنه ؟ قالوا : وجع » .

(٢) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد .

(٣ـ٣) الطبرى : « قال : فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر ، وقد كنت زورت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر » .

(٤) زورت فى نفسى كلاما ، أى هيأت وأصلحت ، والتزوير : إصلاح الشىء .

(٥) هو الحباب بن المنذر الخزرجى ، ذكره الزمخشرى فى الفائق ١ : ١٨١ ، وأورد كلامه .

(٦) الجذيل فى الأصل : تصغير الجذل ؛ وهو عود ينصب للإبل الجربى تستشفى بالاحتكاك به . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والعذيق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة ؛ وهى خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا كثر وطال حمله ؛ والمعنى أنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل . الفائق ١ : ١٨١ ، ١٨٢ .

وارتفعت الأصوات واللغط ، فلما خفتُ الاختلاف ، قلتُ لأبي بكر : ابْسُطْ يدك أبايعْك ، فبَسط يده فبايعتُه وبايعه الناس ، ثم نزوْنا على سعد بن عبادة ، فقال قائلهم : قتلتم سعدا ! فقلتُ : اقتلوه قتله الله ، وإنّا والله ما وجدنا أمرا هو أقوَى من بيعة أبي بكر ، خشيت إنْ فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدِثوا بعدنا بيعة ، فإما أنْ نبايعَهم على مالا نرضى ، أو نخالفَهم فيكون فساد .

هذا حديث مُتّفَق عليه من أهل السِّيَرة ، وقد وردت الروايات فيه بزيادات ؛ روى المدائنيّ قال : لما أخذ أبو بكر بيدِ عمر وأبى عبيدة وقال للناس : قد رضيت لكم أحدَ هذين الرجلين ، قال أبو عبيدة لعمر : امْدُدْ يدَكَ نبايعْك ، فقال عمر : مالك في الإسلام فَهّةٌ [1] غيرها . أتقول هذا وأبو بكر حاضر ! [2] ثم قال للناس : أيّكم يَطيب نفساً أن يتقدم قدمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة ؟ رضيَك رسول الله صلى الله عليه لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا ! ثم مدّ يدَه إلى أبي بكر فبايعه .

وهذه الرواية هي التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله تعالى في كتاب " المغني " .

وقال الواقديّ في روايته في حكاية كلام عمر : والله لأنْ أقدّم فأُنحَرَ كما يُنْحَر البعير ، أحبُّ إليّ من أن أتقدّم على أبي بكر .

وقال شيخُنا أبو القاسم البلخيّ : قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : إنّ الرجل الذى قال : لو قد مات عمرُ لبايعت فلانا ، عمارُ بن ياسر ، قال : لو قد مات عمر لبايعت عليًّا عليه السلام . فهذا القولُ هو الذى هاج عمرَ أنْ خطب بما خطب به .

وقال غيره من أهل الحديث : إنما كان المعزوم على بيعته لو مات عمر ، طلحة ابن عبيد الله .

---

(١) الفهة : السقطة والجهلة ونحوها .

(٢) في رواية اللسان — فهه — : « أتبايعني وفيكم الصدّيق ثاني اثنين ! » .

فأما حديث الفَلْتة ، فقد كان سبق مِنْ عمر أن قال : إنّ بيعةَ أبى بكر كانت فَلْتة وقى الله شرها ؛ فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه .

وهـذا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف فيه حديث الفَلْتة ؛ ولكنه منسُوق على ماقاله أولا ، ألا تراه يقول : فلا يغرّنّ امْرَأً أن يقول : إن بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، فلقد كانت كذلك ، فهذا يُشعر بأنه قد كان قال مِنْ قبل : إنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتة .

وقد أكثر الناس فى حديث الفَلْتة ؛ وذكرها شيوخنا المتكلّمون ، فقال شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : الفلتة ليست الزلّة والخطيئة ، بل هى البَغْتة ، وما وقع فجأة من غير رويّة ولا مشاورة ، واستشهد بقول الشاعر :

مَنْ يأمَنِ الحدَثان بَعْدَ صُبَيْرَةَ القرشىّ ماتَا[1]
سَبَقَتْ مَنِيّتُهُ المَشِيبَ وكانَ مِيتَتُه افْتِلاتَا

يعنى بَغْتة .

وقال شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : ذكر الرّياشىّ أن العرب تسمّى آخر يوم من شوّال فَلْتَةً ، من حيث إنّ كلّ مَنْ لم يُدرك ثأره فيه فاته ؛ لأنهم كانوا إذا دخلوا فى الأشهر الحُرُم لا يطلبون الثأر ، وذو القعدة من الأشهر الحرم ، فسمّوا ذلك اليوم فَلْتة ، لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم ، فقد أدركوا ما كان يفوتهم . فأراد عمرُ أنّ بيعة أبى بكر تدَارَكها بعد أن كادت تفوت .

وقوله : « وقى الله شرّها » دليل على تصويب البَيْعة ، لأن المراد بذلك أنّ الله تعالى دفع شرّ الاختلاف فيها .

---

(١) البيان فى الكامل ١ : ٣٤٨ .

فأمّا قوله : « فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه » ؛ فالمراد مَنْ عاد إلى أن يُبايَع من غير مُشاورة ولا عدد يُثبت صحة البيعة به ، ولا ضرورة داعية إلى البَيْعة ، ثم بسط يده على المسلمين يدخلهم فى البيعة قهرا ، فاقتلوه (١) .

قال قاضى القضاة رحمه الله تعالى : وهل يشكّ أحدٌ فى تعظيم عمرَ لأبى بكر وطاعته إياه ! ومعلوم ضرورةً من حالِ عمر إعظامُه له ، والقول بإمامته والرّضا بالبيعة والثناء عليه ، فكيف يجوز أن يترك مايُعلم ضرورة لقولٍ محتَمِل ذى وجوه وتأويلات ! وكيف يجوز أن تحمَل هذه اللفظة من عمر على الذمّ والتّخطِئة وسوء القول !

واعلم أنّ هذه اللفظة من عمر مناسِبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ماجَبَله الله تعالى عليه من غِلَظ الطينة وجفاء الطبيعة ، ولا حيلة له فيها؛ لأنه مجبُولٌ عليها لا يستطيع تغييرَها، ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطَى أنْ يتلطّف ، وأن يُخرِجَ ألفاظه مخارج حسنة لطيفة ، فينزع به الطبع الجاسى ، والغريزة الغليظة ، إلى أمثال هذه اللفظات ، ولا يقصد بها سوءا، ولا يريد بها ذمًّا ولا تخطئة ، كما قدّمنا من قبلُ فى اللفظةِ (٢) التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكاللفظات (٣) التى قالها عام الحديبية وغير ذلك ، والله تعالى لا يجازى المكلّف إلا بما نَواه ، ولقد كانت نيتُه من أطهرِ النيّات وأخلصها لله سبحانه وللمسلمين. ومَن أنصف عَلِم أنّ هذا الكلام حقّ ، وأنّه يُغنى عن تأويل شيخنا أبى علىّ .

ونحن من بعدُ نذكر ماقاله المرتضى رحمه الله تعالى فى كتاب " الشافى " (٤) لما تكلم فى هذا الموضع ، قال : أمّا ما ادّعى من العلم الضرورىّ برضا عمر ببيعة أبى بكر وإمامته ، فالمعلوم ضرورةً بلا شبهة أنّه كان راضيا بإمامته ، وليس كلّ مَنْ رضِيَ شيئا

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٤١ . (٢) الجزء الأول ص ١٦١ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٦٥ .
(٤) كتاب الشافى فى الإمامة والنقض على كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار ، وقد اختصره أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ ، وطبع الكتاب والمختصر فى العجم سنة ١٣٠١ فى جزأين .

كان متديّنا به ، معتقداً لصوابه ؛ فإنّ كثيراً من الناس يرضوْن بأشياء من حيث كانت دافعةً لما هو أضرُّ منها ؛ وإن كانوا لا يروْنها صواباً ، ولو ملكوا الاختيار لاختاروا غيرَها ، وقد علمنا أنّ معاوية كان راضياً ببيعة يزيد وولاية[1] العهد له من بعده ، ولم يكن متديّناً بذلك ومعتقداً صحته ، وإنما رضيَ عمر ببيعة أبى بكر ، من حيث كانت حاجزةً عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولو ملك الاختيارَ لكان مصير الأمرِ إليه[2] أسرَّ فى نفسه ، وأقرَّ لعينه . وإن ادّعى أنّ المعلوم ضرورةً تديّنُ عمر بإمامة أبى بكر ، وأنّه أوْلى بالإمامة منه ، فهذا مدفوع أشدّ دفْع ، مع أنه قد كان يبدر من عمر[3] فى وقتٍ بعد آخر ما يدلُّ على ما أوردناه . روى الهيثم[4] بن عدىّ من عبد الله بن عياش الهمْدانى[5] عن سعيد بن جُبير ، قال : ذُكر أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر ، فقال رجل : كانا والله شمسىْ هذه الأمة ونورَيْها ، فقال ابن عمر : وما يُدْريك ؟ قال الرجل: أو ليسَ قد ائتلفا ! قال ابن عمر : بل اختلفا لو كنتم تعلمون ! أشهدُ أنّى كنتُ عند أبى يوماً ، وقد أمرنى أن أحبس الناس عنه ، فاستأذن عليه عبدُ الرحمن بن أبى بكر فقال عمر : دويبّة سوء ، ولهو خيرٌ من أبيه ، فأوحشنى ذلك منه ، فقلت : يا أبت ، عبد الرحمن خير من أبيه ! فقال: ومَنْ ليس بخير من أبيه لا أمّ لك ! ائذن لعبد الرحمن ، فدخل عليه فكلّمه فى الحطيئة الشاعر أنْ يرضى عنه — وقد كان عمر حبسه فى شعر قاله — فقال عمر : إنّ فى الحطيئة أَوَداً[6] فدعْنى أقوّمه بطول حبسه ، فألحّ عليه عبد الرحمن وأبَى عمر ،

(١) الشافى : « وولايته » . (٢) الشافى : « آثر » .

(٣) الشافى : « منه — أعنى عمر » .

(٤) هو الهيثم بن عدى الطائى المنبجى الكوفى ؛ كان أخباريا روى عن هشام بن عروة وعبد الله بن عياش ومجالد ؛ قال ابن عدى : إنما هو صاحب أخبار . وقال ابن المدينى : هو أوثق من الواقدى ولا أرضاه فى شىء . وقال النسائى : متروك الحديث . وقال أبو نعيم : يوجد فى حديثه المناكير . توفى سنة ٢٠٦ — لسان الميزان ٤ : ٢١٠ .

(٥) فى الأصول والشافى : « عباس » ، تصحيف ؛ وهو عبد الله بن عياش بن عبد الله الهمدانى الكوفى ؛ كان راوية للأخبار والآداب ؛ ويقع فى أخباره المناكير . مات سنة ١٥٨ ، لسان الميزان ٣ : ٣٢٢

(٦) الشافى : « إن الحطيئة لبذىء » .

فخرج عبد الرحمن ، فأقبلَ عليّ أبي وقال : أفي غفلة أنت إلى يومك هذا عمّا كان من تقدّم أحيمِق بني تَيْم عليّ وظلمه لي ! فقلت : لا علمَ لي بما كان من ذلك ، قال : يا بُنيّ فما عسيت أن تعلم ؟ فقلت : والله لَهُوَ أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم ، قال : إنّ ذلك لكذلك على رغم أبيك وسُخْطه ، قلت : يا أبت ، أفلا تجلّي عن فعله[(1)] بموقفٍ في الناس تُبيِّن ذلك لهم ؟ قال : وكيف لي بذلك مع ما ذكرتَ أنه أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم ! إذن يُرْضَخ[(2)] رأسُ أبيك بالجندل . قال ابنُ عمر : ثم تجاسر والله فجَسَر ، فما دارت الجمعة حتى قام خطيباً في الناس ، فقال : أيها الناس ؛ إنّ بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتة وقى الله شرَّها ، فمَنْ دعاكم إلى مثلها فاقتلوه .

وروى الهيثم بن عديّ ، عن مجالد[(3)] بن سعيد ، قال : غدوت يوماً إلى الشعبيّ وأنا أريد أن أسأله عن شيء بلغَني عن ابن مسعود أنه كان يقوله ، فأتيتُه وهو في مسجد حيِّه وفي المسجد قوم ينتظرونه ، فخرج فتعرّفت إليه ، وقلت : أصلحك الله ! كان ابن مسعود يقول : ما كنت محدّثاً قوماً حديثاً لا تبلُغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، قال : نعم ، كان ابن مسعود يقول ذلك ، وكان ابن عباس يقوله أيضاً — وكان عند ابن عباس دفائنُ علم يعطيها أهلَها ، ويصرِف عنها عن غيرهم — فبينا نحن كذلك إذ أقبل رجل من الأَزْد ، فجلس إلينا ، فأخذنا في ذكر أبي بكر وعمر ، فضحك الشعبيّ وقال : لقد كان في صدر عمر ضِبٌّ[(4)] على أبي بكر ، فقال الأزديّ : والله ما رأينا ولا سمعنا برجل قطّ كان أسلسَ قياداً لرجل ،

---

(١) الشافي : « أفلا تحكى عن فعله » . (٢) الرضخ : كسر الرأس بالحجر .

(٣) هو مجالد بن سعيد بن عمير الهمداني الكوفي . قال البخاري : كان يحيى بن سعيد يضعفه ، وكان ابن مهدي لا يروي عنه ، وكان أحمد بن حنبل لا يراه شيئاً . وقال ابن معين : ضعيف واهي الحديث . مات سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٩ .

(٤) الضب : الحقد والعداوة ؛ وجمعه ضباب ؛ قال الشاعر :

فَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَسُلُّ ضِغْنِي ... وَتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابِي

ولا أقْوَلَ فيه بالجميل من عمر فى أبى بكر ، فأقبل علىّ الشعبىّ وقال : هذا مما سألتَ عنه، ثم أقبل على الرّجل وقال : يا أخا الأَزْد، فكيف تصنع بالفَلْتَة التى وقى الله شرّها ! أترى عدوًّا يقول فى عدوٍّ يريد أن يهدم مابنى لنفسه فى الناس أكثر من قول عمر فى أبى بكر! فقال الرجل : سبحان الله ! أنت تقول ذلك يا أبا عمرو ! فقال الشعبىّ : أنا أقوله، قاله عمر ابن الخطاب على رءوس الأشهاد ، فلُمْه أو دَعْ . فنهض الرجل مُغضَبا وهو يُهَمْهِم فى الكلام بشىء لم أفهمه . قال مجالد : فقلت للشعبىّ : ما أحسب هذا الرجل إلا سينقل عنك هذا الكلام إلى الناس ويَبُثُّه فيهم ! قال : إذَنْ والله لا أحفِلُ به ، وشىء لم يحفِلْ به عمر حين قام على رءوس الأشهاد من المهاجرين والأنصار أحفل به أنا ! أَذيعوه أنتم عنّى أيضاً مابدا لَكُمْ .

وروى شريك بن عبدالله النّخعىّ(١)، عن محمد بن عمرو بن مُرّة عن أبيه، عن عبدالله ابن سلمة ، عن أبى موسى الأشعرىّ ، قال : حججتُ مع عمر ، فلما نزلنا وعُظْم الناس خرجت من رَحْلى أريده ، فلقِيَنى المغيرة بن شعبة ، فرافقنى ، ثم قال : أين تريد؟ فقلت: أميرَ المؤمنين ، فهل لكَ ؟ قال : نعم ، فانطلقنا نريد رَحْل عمر، فإنّا لَفِى طريقنا إذ ذكرْنا تولّىَ عمر وقيامَه بما هو فيه ، وحياطتَه على الإسلام ، ونهوضَه بما قِبَله من ذلك ، ثم خرجنا إلى ذكر أبى بكر ، فقلت للمغيرة : يالكَ الخير ! لقد كان أبو بكر مسدَّدا فى عمر، لكأنه ينظر إلى قيامه من بعده ، وجِدّه واجتهاده وغَنائه فى الإسلام ، فقال المغيرة : لقد كان ذلك ، وإن كان قوم كرهوا ولاية عمر ليزووها عنه، وما كان لهم فى ذلك من حظّ ، فقلت له : لا أبالك! ومَنِ القوم الذين كرهوا ذلك لعمر ؟ فقال المغيرة : لله أنت ! كأنك

---

(١) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى أبو عبد الله الكوفى ؛ قال ابن معين : شريك صدوق ثقة ؛ إلا أنه إذا خالف فغيره أحب إلينا منه . وقال ابن المبارك : شريك أعلم بحديث الكوفيين من الثورى . وقال الجوزجانى : شريك سيء الحفظ مضطرب الحديث مائل . مات سنة ١٧٧ . تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٥ .

لاتعرف هذا الحيّ من قريش وما خُصّوا به من الحسد ! فوالله لو كان هذا الحسدُ يُدرَك بحسابٍ لكان لقريش تسعة أعشاره وللناس كلِّهم عشر ، فقلت : مه يامغيرة ! فإن قريشا بانتْ بفضلها على الناس . فلم نزل فى مثل ذلك حتى انتهينا إلى رَحْل عمر فلم نجده ، فسألنا عنه فقيل : قد خرج آنفا ، فمضيْنا نقفو أثره حتى دخلْنا المسجد ، فإذا عمر يطوف بالبيت ، فطفْنا معه ، فلما فرغ دخل بينى وبين المغيرة ، فتوكأ على المغيرة وقال : مِنْ أين جئتما ؟ فقلنا : خرجنا نريدك يا أميرَ المؤمنين ، فأتينا رَحْلك فقيل لنا : خرج إلى المسجد ، فاتّبعناك . فقال : اتّبعكما الخير ، ثم نظر المغيرةُ إلىّ وتبسم ، فرمقه عمر ، فقال : مم تبسَّمْتَ أيها العبد ! فقال : مِنْ حديث كنت أنا وأبو موسى فيه آنفا فى طريقنا إليك ، قال : وما ذاك الحديث ؟ فقصَصْنا عليه الخبر حتى بلغْنا ذِكْر حَسَد قريش ، وذكر مَنْ أراد صرف أبى بكر عن استخلاف عمر ، فتنفس الصُّعَداء ثم قال : ثكلتْكَ أمّك يامغيرة ! وماتسعة أعشار الحسد ! بل وتسعةأعشار العشر ، وفى النّاس كلِّهمعشر العشر ، بل وقريش شركاؤهم أيضا فيه ! وسكت مليًّا وهو يتهادى بيننا ، ثم قال : ألا أخبركما بأحْسَد قريش كلها ؟ قلنا : بلى يا أمير المؤمنين ، قال : وعليكما ثيابكما ؟ قلنا : نعم ، قال : وكيف بذلك وأنتما ملبَسان ثيابكما ! قلنا يا أمير المؤمنين ، وما بالُ الثياب ! قال : خوف الإذاعة منها ، قلنا له : أتخاف الإذاعة من الثياب أنت ، وأنت من ملبِس الثياب أخوف ! وما الثياب أردت ! قال : هو ذاك ، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رَحْله ، فخلّى أيدينا من يده ، ثم قال : لا تَرِيما ، ودخل ، فقلت للمغيرة : لا أبالك ! لقد عثرنا[(1)] بكلامنا معه ، وما كنّا فيه ، وما نراه حبَسنا إلا ليذاكرنا إياها ، قال : فإنّا لكذلك إذ أخرج إذْنَه إلينا ، فقال : ادخلا ، فدخلنا فوجدناه مستلقيا على بَرْذَعة بِرَحْل ، فلما رآنا تمثّل بقول كعب بن زهير :

لَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ ذِى ثِقَةٍ ... أَوْلَى وأفضل ما اسْتَوْدَعْتَ أسْرَارا[(2)]

(١) كذا فى الشافى وهو الصواب ، وفى الأصول : « أثرنا » .
(٢) ملحق ديوانه ٢٠٧ ، وغرر الخصائص ١٨١ .

صدراً رحيباً وقَلْباً واسعاً قَمِناً ألاّ تخافَ متى أودعْت إظهارا

فعلمنا أنّه يريد أن نضمن له كتمانَ حديثه ،فقلت أنا له : ياأميرَ المؤمنين، الزِمْنَاوخُصَّنا وصِلْنا ، قال : بماذا ياأخا الأشعرين[1]؟ فقلت: بإفشاء سرّك وأن تَشْرَكنافى همّك فنعم المستشاران نحنُ لك ! قال :إنّكما كذلك ، فاسألا عمّابدا لـكما ، ثم قام إلى الباب ليُغلقه ، فإذا الآذنالذى أذن لناعليه فىالحجرة ، فقال :امض عنّا لا أمّ لك ! فخرج وأغلق الباب خَلْفه ،ثم أقبل علينا ، فجلس معنا، وقال : سَلَا تُخْبَرا ، قلنا : نريد أن يخبرنا أمير المؤمنين بأحْسَدقريش ، الذىلم يأمن ثيابناعلى ذكرهلنا، فقال : سألتُماعن مُعْضِلة ؛ وسأخبركمافليكن عندكما فى ذِمّةٍ منيعة وحرزٍ مابقيت ؛ فإذا مِتّ فشأنَكما وماشئتما من إظهار أو كتمان . قلنا : فإنّ لك عندنا ذلك. قال أبو موسى : وأنا أقول فى نفسى: مايريد إلا الذين كرهوا استخلاف أبى بكر له كطلحة وغيره ، فإنهم قالوا لأبى بكر : أتستخلف علينا فظّاًغليظا ! وإذا هو يذهبُ إلى غير مافى نفسى ، فعاد إلى التنفّس، ثم قال : مَنْ تَرَيانه ؟ قلنا : والله ماندرى إلا ظنّاً ! قال : ومَنْ تَظُنّان ؟ قلنا : عساك تريد القوم الذين أرادوا أبا بكر على صَرْفِ هذا الأمر عنك ؛ قال : كلّا والله ! بل كان أبوبكر أعقّ ، وهوالذىسألتماعنه، كانوالله أحسَد قريشٍ كلّها . ثم أطرق طويلا ، فنظر المغيرةإلىّ ونظرتُ إليه،وأطرقنامليّاً لإطراقه ، وطال السكوت منّا ومنه ،حتى ظننا أنه قد ندِم على مابدا منه . ثم قال:والهفاه على ضئيل بنى تيم بن مرة ! لقد تقدّمنى ظالمـا ، وخرج إلىّ منها آثما ، فقال المغـيرة : أمّا تقدّمه عليك يا أميرَالمؤمنين ظالماً فقد عرفناه ، كيف خرج إليك منها آثما ؟ قال :ذاك لأنه لم يخرج إلىّ منها إلا بعد يأس منها ، أما والله لوكنت أطمتُ يزيد بن الخطاب وأصحابَه لم يتلمّظ من حلاوتها بشىء أبدا ، ولـكنى قدّمت وأخّرت ، وصعّدت وصوّبت، ونقَضْت وأبرمت ، فلم أجدإلّا الإغضاءعلى مانشب به منها ، والتلهّف على نفسى ، وأمّلت إنابته ورجوعَه ، فوالله مافعل حتى نَغَر[2] بها بَشَماً .

---

(١) فى اللسان : « تقول العرب : جاء بك الأشعرون ، بحذف ياء النسب » . (٢) نغر ؛ أى امتلأ .

قال المغيرة : فما منعك منها يا أمير المؤمنين ، وقد عرّضك لها يوم السقيفة بدعائك إليها ! ثم أنت الآن تنقِم وتتأسّف . قال : ثَكِلَتْكَ أمّك يامغيرة ! إنى كنت لأَعدُّك[1] من دُهاة العرب، كأنّك كنت غائبا عمّا هناك ! إنّ الرجل ما كَرنى فما كَرتُه ، وألفانى أحْذَرَ من قطاة ؛ إنه لما رأى شَغَفَ الناس به ، وإقبالَهم بوجوههم عليه ، أيقن أنهم لا يريدون به بدلا ، فأحبّ لَمّا رأى من حرص الناس عليه ، وميلهم إليه أن يعلم ما عندى ، وهل تنازعنى نفسى إليها ؟ وأحبّ أن يبلوَنى بإطماعى فيها ، والتعريض لى بها ، وقد علم وعلمتُ لو قبلتُ ماعرضه علىّ ، لم يجب الناس إلى ذلك ، فألفانى قائما على أخمَصى مستوفزا حذِرا ، ولو أجبتُه إلى قبولها لم يسلّم الناس إلىّ ذلك، واختبأها ضِغنا علىّ فى قَلْبِهِ ، ولم آمن غائلته ولو بعد حين ؛ مع ما بدا لى من كراهة الناس لى ؛ أما سمعت نداءهم من كلّ ناحية عند عَرْضها علىّ : لا نريد سواك يا أبا بكر، أنت لها ! فرددتُها إليه عند ذلك ؛ فلقد رأيته التمع وجهُه لذلك سرورا . ولقد عاتبنى مرّة على كلام بلغَه عنّى، وذلك لما قُدِم عليه بالأشعث أسيرا ، فمنّ عليه وأطلقه ، وزوّجه أخته أم فَرْوة ، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه : ياعدوّ الله ، أكفرت بعد إسلامك ، وارتددت ناكصا على عَقِبيك ! فنظر إلىّ نظرا علمت أنه يريد أن يكلّمنى بكلام فى نفسه ، ثم لقِيَنى بعد ذلك فى سِكَك المدينة ، فقال لى : أنت صاحبُ الكلام يابن الخطاب ؟ فقلت : نعم ياعدوّ الله ؛ ولك عندى شرّ من ذلك ، فقال : بئس الجزاء هذا لى منك ! قلت : وعلام تريد منّى حُسْن الجزاء ؟ قال : لأَنفَتِى لك من اتّباع هذا الرجل ، والله ماجرّأنى على الخلاف عليه إلا تقدّمه عليك ، وتخلّفك عنها ، ولو كنتَ صاحبَها لما رأيتَ منى خلافا عليك . قلت : لقد كان ذلك ، فما تأمر الآن ؟ قال : إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر ، ومضى ومضيت . ولقى الأشعث الزِّبْرقان بن بدر فذكر له ماجرى بينى وبينه، فنقل ذلك إلى أبى بكر؛ فأرسل إلىّ بعتاب مؤلم، فأرسلت إليه: أما والله

(١) ب : « أعدك » .

لَتَكُفَنّ أو لأقولنّ كلمة بالغة بى وبك فى الناس، تحملها الركبان حيث ساروا ، وإن شئتَ استدمنا مانحن فيه عفوا ، فقال : بل نستديمه ، وإنها لصائرة إليك بعد أيام ، فظننت أنه لا يأتى عليه جمعة حتى يردّها علىّ ، فتغافل ، والله ماذا كرنى بعد ذلك حرفا حتى هلك .

ولقد مَدّ فى أمَدها عاضًّا على نواجذه حتى حضره الموت، وأيِسَ منها فكان منه مارأيتما ، فاكتما ماقلت لكما عن الناس كافة وعن بنى هاشم خاصة ، وليَكُن منكما بحيث أمرتكما . قوما إذا شئتما على بركة الله. فقمنا ونحن نعجب من قوله، فوالله ماأفشينا سرّه حتى هلك(١) .

قال المرتضى: وليس فى طَعْن عمرَ على أبى بكر مايؤدِّى إلى فساد خلافتِه، إذْ له أن يُثْبِت إمامةَ نفسه بالإجماع ، لابنصّ أبى بكر عليه . وأما الفلْتة فإنها وإن كانت محتمِلةً للبغْتة كما قاله أبوعلىّ رحمه الله تعالى؛ إلا أن قوله: «وقى الله شرّها » يخصصها بأنّ مخرَجَها مخرج الذمّ . وكذلك قوله: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»، وقوله: المراد وقى الله شرّ الاختلاف فيها، عدولٌ عن الظاهر ؛ لأنّ الشرّ فى الكلام مضاف إليها دون غيرها . وأبعدُ من هذا التأويل قوله : إن المراد مَنْ عاد إلى مثلها من غير ضرورة وأكْرَهَ المسلمين عليها فاقتلوه ؛ لأن ما جرى هذا المجرى لايكون مِثْلاً لبيعة أبى بكر عندهم ؛ لأنّ كلّ ذلك ماجرى فيها على مذاهبهم ؛ وقد كان يجب على هذا أن يقول : فمن عاد إلى خلافها فاقتلوه .

وليس له أن يقول : إنما أراد بالمِثْل وَجْهًا واحدا، وهو وقوعها من غير مشاورة، لأنّ ذلك إنّما تَمّ فى أبى بكر خاصة بظهور أمره واشتهار فضله. ولأنّهم بادروا إلى العقْد خوفا من الفتنة؛ وذلك لأنه غير منكر أن يتّفق من ظهور فضل غير أبى بكر واشتهار أمره وخوف الفتنة ما اتفق لأبى بكر ، فلا يستحقّ قتلا ولا ذمًّا ؛ على أنّ قوله : «مِثْلها» يقتضى وقوعَها على الوجه الذى وقعت عليه ، فكيف يكون ماوقع من غير مشاورة لضرورة داعية وأسباب موجبة مِثْلا لما وقع بلا مشاورة ، ومن غير ضرورة ولا أسباب اوالذى رواه عن أهل اللغة

(١) كتاب الشافى ٢٤١ ـ ٢٤٤

من أنّ آخر يوم من شوال يسمّى فَلْتة من حيث إنّ من لم يدرك فيه الثأر فإنه قول لا نعرفه ؛ والذى نعرفه أنّهم يسمون الليلة التى ينقضى بهـا آخرُ الأشهر الْحُرُم ويتم فلتة ، وهى آخر ليلة من ليالى الشهر ، لأنه ربما رأى الهلالَ قوم لتسع وعشرين ولم يبصره الباقون ، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غارّون(١) ، فلهذا سُمِّيت تلك الليلة فَلْتة ؛ على أنّا قد بيّنا أنّ مجموعَ الـكلام يقتضى ما ذكرناه من المعنى ، لو سُلِّم له ما رواه عن أهل اللغة فى احتمال هذه اللفظة .

قال : وقد ذكر صاحب كتاب " العين " أنّ الفلْتة الأمرُ الذى يقع على غير إحْـكام ، فقد صحّ أنّها موضوعة فى اللغة لهذا ، وإن جاز ألّا تختصّ به ، بل تـكون لفظة مشتركة .

وبعد ، فلو كان عمر لم يُرِدْ بقوله توهينَ بيعة أبى بكر ؛ بل أراد ما ظنه المخالفون ، لـكان ذلك عائدا عليه بالنقص ؛ لأنّه وضع كلامه فى غير موضعه ، وأراد شيئاً فعبّر عن خلافه ، فليس يَخْرج هذا الخبر من أن يكون طعنا على أبى بكر ؛ إلّا بأن يـكون طعنا على عمر (٢) .

* * *

واعلم أنّه لا يبعد أن يقال : إنّ الرضا والسخط ، والحبّ والبغْض ، وماشاكل ذلك ، من الأخلاق النفسانية وإن كانت أموراً باطنة ، فإنها قد تُعْلَم ويضطر الحاضرون إلى تحصيلها بقرائن أحوال تفيدهم العلم الضرورىّ ؛ كما يُعْلَم خوف الخائف وسرور المبتهج. وقد يكون الإنسان عاشقاً لآخر فيعلم المخالطون لهما ضرورةً أنه يَعْشَقُه ، لما يشاهدونه من قرائن الأحوال ، وكذلك يُعلم من قرائن أحوال العابد المجتهد فى العبادة ، وصوم الهواجر وملازمة الأوراد وسهر الليل ، أنه يتدين بذلك . فغيرُ منـكر أن يقول قاضى القضاة رحمه الله

(١) غارون : غافلون .
(٢) كتاب الشافى ٢٤٤ مع اختصار وتصرف .

تعالى : إنّ المعلوم ضرورةً من حالِ عمر تعظيم أبى بكر ورضاه بخلافته وتديّنه بذلك ، فالذى اعترضه رحمه الله تعالى به غيرُ وارد عليه.

وأما الأخبار التى رواها عن عمر فأخبار غريبة ؛ ما رأيناها فى الكتب المدوّنة ، وما وقفنا عليها إلا من كتاب المرتضى ، وكتاب آخر يعرف بكتاب " المسترشد "(١) لمحمد بن جرير الطبرىّ — وليس هو محمد بن جرير صاحب " التاريخ " ، بل هو من رجال الشيعة — وأظنّ أنّ أمه من بنى جرير من مدينة آمُل طَبَرِستان ، وبنو جرير الآمليّون شيعة مستهترون بالتشيّع ، فنسِب إلى أخواله ، ويدلّ على ذلك شعر مرويٌّ له وهو :

بآمُلَ مولِدِى وبنو جَرِيرٍ ... فأخوالى،ويحْكى المرءُ خالَهْ(٢)
فَمَنْ يَكُ رافضيًّا عن أبيهِ ... فإنى رافضىّ عن كَلَالَهْ

وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التى لا توجد فى الكتب المدونة كيف هى ؟

فأما إنكارُه ما ذكره شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى من أنّ الفلْتة هى آخر يوم من شوال ، وقوله : إنّا لانعرفه ؛ فليس الأمر كذلك بل هو تفسير صحيح ، ذكره الجوهرىّ فى كتاب " الصحاح " قال : الفلتة آخر ليلة من كل شهر ، ويقال : هى آخر يوم من الشهر الذى بعده الشهر الحرام(٣) . وهذا يدلّ على أن آخر يوم من شوال يسمى فَلْتة ، وكذلك آخر يوم من جمادى الآخرة ؛ وإنّما التفسيرُ الذى ذكره المرتضى غيرُ معروف عند أهل اللغة .

وأما ماذكره من إفساد حَمْلِ الفلتة فى الخبرِ على هذه الوجوه المتأوّلة فجيّد ، إلا أنّ الإنصاف أنّ عمرَ لم يخرِج الكلام مخرج الذمّ لأمر أبى بكر ؛ وإنما أراد باللفظة محض حقيقتها فى اللغة ، ذكر صاحب " الصّحاح " أنّ الفلتةَ الأمر الذى يُعمل فجأة من

(١) كتاب المسترشد فى الإمامة ، طبع فى النجف وفى الأصول : «المستبشر» وهو خطأ ، راجع النجاشى ٢٦٦
(٢) نسبهما ياقوت فى معجم البلدان (١ : ٦٣) إلى أبى بكر الخوارزمى ، وظن أنه قالها فى خاله الطبرى المؤرخ ؛ وحققه محمد باقر ، وذكر أن الأمر اشتبه على ياقوت . وانظر روضات الجنات ٦٧٣
(٣) الصحاح ١ : ٣٦٠

غير تردد ولا تدبّر ؛ وهكذا كانت بيعة أبى بكر ؛ لأنّ الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين ، وإنما وقعت بغتة لم تمحّصْ فيها الآراء ، ولم يَتناظر فيها الرجال ، وكانت كالشيء المستلَب المنتَهب ، وكان عمر يخاف أن يموت عن غير وصيّة ، أو يُقتل قتلا فيبايَع أحد من المسلمين بغتة كبيعة أبى بكر ، فخطب بما خطب به ، وقال معتذراً : ألَا إنه ليس فيكم مَنْ تُقطع إليه الأعناق كأبى بكر !

وأيضا قول المرتضى : قد يتّفق[1] من ظهورِ فضل غير أبى بكر وخوف الفتنة مثل ما اتفق لأبى بكر ، فلا يستحق القتل . فإنّ لقائل أن يقول : إنّ عمر لم يخاطب بهذا إلا أهلَ عصره ، وكان هو رحمه الله يذهبُ إلى أنه ليس فيهم كأبى بكر ، ولا من يُحتمل له أن يبايِع فَلْتة كما احتمِل ذلك لأبى بكر ؛ فإن اتفق أن يكون فى عصرٍ آخر بعد عصره مَنْ يظهر فضله ، ويكون فى زمانه كأبى بكر فى زمانه فهو غيرُ داخل فى نهى عمر وتحريمه .

واعلم أن الشيعة لم تسلِّم لعمر أن بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، قال محمد بن هانئ المغربىّ :

وَلَكِنّ أمراً كان أُبرِمَ بينهمْ ... وإن قال قوم فَلْتَةٌ غَيْرُ مُبْرَمِ[2]

وقال آخر :

زعموها فَلْتَةً فاجِئَةً ... لا وَرَبِّ البيت والرُّكْن المشيدِ
إنما كانتْ أمورا نُسِجَتْ ... بينهم أسبابُها نَسْجَ الْبُرود

* * *

وروى أبو جعفر أيضا فى[3] التاريخ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض اجتمعت الأنصار فى سَقِيفة بنى ساعدة ، وأخرجوا سعد بن عبادة ، ليولّوه الخلافة ، وكان

(١) ب : « سبق » ، تحريف صوابه من ج والشافى . (٢) ديوانه ٦٨٩ (طبع المعارف) .
(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٨ وما بعدها مع اختصار وتصرف .

مريضا ، فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه ، ثم ترادّوا الكلام فقالوا: فإنْ أبَى المهاجرون ، وقالوا : نحن أولياؤه وعِتْرته ؟ فقال قوم من الأنصار : نقولُ : مِنّا أمير ومنكم أمير ، فقال سعد: فهذا أول الوَهَن ! وسمِع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أبو بكر ، فأرسل إليه أن اخرج إليّ ، فأرسل: إني مشغول، فأرسل إليه عمر أن اخرج ، فقد حدث أمر لا بدّ أن تحضُرَه ، فخرج فأعلمه الخبر ، فمضيا مسرعَيْن نحوهم ، ومعهما أبو عُبيدة ، فتكلّم أبو بكر ، فذكر قُرْبَ المهاجرين من رسول الله صلى الله عليه وأنّهم أولياؤه وعِتْرته ، ثم قال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نفتاتُ عليكم بمشورة، ولا نقضِي دونكم الأمور .

فقام الُحباب بن المنذر بن الجموح فقال :

يامعشرَ الأنصار املِكوا عليكم أمرَكم ؛ فإنّ الناس في ظلِّكم ، ولن يجترِئ مجترِئ على خِلافكم ، ولا يَصدُرُ أحد إلا عن رأيكم . أنتم أهل العِزّة والمَنعة ، وأولو العَدَد والكثرة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس ماتصنعون ، فلا تختلِفوا فتفسد عليكم أمورُكم ، فإن أبى هؤلاء إلا ماسمعتم ؛ فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سَيْفانِ في غِمْد ، والله لا ترضى العرب أن تؤمِّرَكم ونبيُّها من غيركم ، ولا تمتنع[1] العربُ أن تولِّيَ أمرَها مَنْ كانت النبوّة منهم ؛ مَنْ ينازعنا سلطان محمد ، ونحن أولياؤه وعشيرته !

فقال الُحبَاب بن المنذر :

يامعشرَ الأنصار ، املِكوا أيديَكم ، ولا تسمعوا مقالةَ هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوْا عليكم فأجلُوهم من هذه البلاد ، فأنتم أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدِّين ؛ أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب،

---

(١) كذا في ج و تاريخ الطبري ، وفي ا ، ب : « تمنع » .

أنا أبو شِبْل فى عرِّيسَة الأسد ؛ والله إن شئتم لَنُعيدَنَّها جَذَعة .

فقال عمر : إذن يقتلكَ الله ، قال : بل إياكَ يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشرَ الأنصار ؛ إنكم أولُ مَنْ نصر وآزر ، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّرَ .

فقام بشير بن سعد ، والد النعمان بن بشير فقال : يامعشرَ الأنصار ؛ ألا إنّ محمدا من قريش ، وقومُه أوْلى به ، وايمُ الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر .

فقال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيَّهما شئتم ، فقالا : والله لا نتولّى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه فى الصلاة — وهى أفضلُ الدين — ابسط يدك . فلمّا بسط يدَه ليبايعاه سبَقَهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الُحباب بن المنذر : يابَشير ، عَقِقْتَ[١] عقاقِ ! أنَفِسْتَ على ابن عمّك الإمارة[٢] !

فقال أسيد بن حُضَير[٣] رئيس الأوس لأصحابه : والله لئنْ لم تبايعوا ليكونَنّ للخزرج عليكم الفَضيلةُ أبداً . فقاموا فبايعوا أبا بكر .

فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه ، وأقبل الناس يبايعون أبابكر مِنْ كلِّ جانب ، ثم حُمِل سعد بن عبادة إلى داره ، فبقى أياما ، وأرسل إليه أبو بكر ليبايع ، فقال : لا والله حتى أرمِيَكم بما فى كنانتى ، وأخضِّب سِنان رمحى ، وأضربَ بسيفى ما أطاعنى ، وأقاتلَكم بأهل بيتى ومن تبعَنى ، ولو اجتمع معكم الجنّ والإنسُ مابايعتكم حتى أعرَضَ على ربّى .

فقال عمر : لا تدعْه حتى يبايع ، فقال بشير بن سعد : إنه قد لجّ ، وليس بمبايع لكم

(١) عقاق : مبنية على الكسر ، مثل حذام وفى الطبرى « عققت عقاق » .

(٢) بعدها كما فى التاريخ : « فقال : لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقا جعله الله لهم » .

(٣) فى الطبرى : « ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش ؛ وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ؛ فقال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير . . . » ثم ذكر كلام أسيد .

حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يُقتلَ معه أهله وطائفة من عشيرته ، ولا يضرّكم تركه ؛ إنما هو رجل واحد ، فتركوه .

وجاءت أسلم فبايعت ، فقوِيَ بهم جانب أبى بكر ، وبايعه الناس .

* * *

وفى كتب غريب الحديث فى تتمة كلام عمر : فأيّما رجل بايع رجلا بغير مشورة من الناس فلا يؤمّر واحد منهما تَغِرّةً أن يقتلا[1] .

قالوا : غرّر تغريرا وتَغِرّة . كما قالوا : حلّل تحليلا وتَحِلّة ، وعلّل تعليلا وتَعِلّة ، وانتصب «تغرّةً» هاهنا لأنه مفعول له؛ ومعنى الكلام أنه إذا بايع واحد لآخر بغتةً عن غير شورى ، فلا يؤمّر واحد منهما ، لأنهما قد غررا بأنفسهما تَغِرّةً ، وعرّضاها لأن تُقتلا .

* * *

وروى جميع أصحاب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما توفِّىَ كان أبو بكر فى منزله[2] بالسُّنْح ، فقام عمر بن الخطاب فقال : ما مات رسول الله صلى الله عليه ، ولا يموت حتى يظهر دينَه على الدِّين كله، وليرجِعَنّ ، فَلَيُقطِّعنّ أيدىَ رجال وأرجلهم مِمّن أرْجَف بموته ، لا أسمع رجلا يقول : مات رسول الله إلا ضربته بسيفى . فجاء أبو بكر وكشَفَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : بأبى وأمى ! طِبْتَ حَيًّا وَمَيتاً ، والله لا يذيقك اللهُ الموتتيْن أبدا ، ثم خرج والناس حول عمر ، وهو يقول لهم: إنه لم يمت، ويحلف ، فقال له : أيها الحالف ، على رِسْلك ! ثم قال :مَنْ كان يعبد محمّدا فإن محمّدا قد مات ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[3]، وقال : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[4] ، قال عمر : فوالله

(١) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٥٦

(٢) السنح ؛ بالضم ثم السكون : إحدى محال المدينة ؛ كان بها منزل أبى بكر ؛ وهى منازل بنى الحارث ابن الخزرج بعوالى المدينة .

(٣) سورة الزمر ٣٠ (٤) سورة آل عمران ١٤٤

ماملكتُ نفسي حيث سمعتُها أن سقطتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أنّ رسول الله صلى الله عليه قد مات .

وقد تكلّمت الشّيعة في هذا الموضع ، وقالوا : إنه بلغ من قلّة عِلْمه أنّه لم يعلم أن الموتَ يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه أُسوة الأنبياء في ذلك ؛ وقال : لما تلا أبو بكر الآيات ، أيقنتُ الآن بوفاته . كأنّي[1] لم أسمع هذه الآية ، فلو كان يحفظ القرآن أو يتفكر فيه ، ماقال ذلك ، ومَنْ هذه حاله لا يجوز أن يكون إماما .

وأجاب قاضي القضاة رحمه الله تعالى في "المغني" عن هذا فقال : إنّ عمر لم يمنعْ من جواز موته عليه السلام ، ولا نَفَى كونه ممكنا ، ولكنه تأوّل في ذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2]، وقال: كيف يموت ولم يظهَر صلوات الله عليه على الدين كُلّه ! فقال أبو بكر : إذا ظهر دينُه فقد ظهر هو ، وسيظهر دينُه بعد وفاته .

فحَمَل عمر قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ ﴾ على تأخّر الموت ، لا على نفيه بالكلية ، قال: ولا يجب فيمن ذَهل عن بعض أحكام القرآن ألّا يحفظَ القرآن ، لأن الأمر لو كان كذلك لوجب ألّا يحفظَ القرآن إلا من عرف جميعَ أحكامه ؛ على أنّ حفظَ جميع القرآن غير واجب ، ولا يقدح الإخلال به في الفضل[3] .

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب "الشافي" هذا الكلام، فقال: لا يخلُو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال والاعتقاد أنّ[4] الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه ، أو يكون منكِرا لموته في

---

(١) الشافي : « وكأني » .

(٢) سورة التوبة ٣٣ .

(٣) نقله المرتضى في الشافي ٢٥٢ ص مع اختلاف في الروايتين .

(٤) ب : « لأن » ، والأصوب ما أثبته من ا .

تلك الحال من حيث لم يظهر على الدين كلِّه، فإن كان الأوّل فهو مما لا يجوز خلاف عاقل فيه، والعلم بجواز الموت على جميع البشر ضروريّ . وليس يحتاج فى حصول هذا العلم إلى تلاوة الآيات التى تلاها أبو بكر . وإنْ كان الثانى ، فأوّل مافيه أنّ هذا الاختلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر عليه من قوله : ﴿ إنّكَ مَيِّتٌ ﴾ ، لأن عمر لم ينكر على هذا الوجه جوازَ الموت عليه وصحتَه، وإنما خالف فى وقته . فكان يجب أن يقول لأبى بكر : وأىّ حجة فى هذه الآيات علىّ ! فإنى لم أمنع جوازَ موته ، وإنما منعتُ وقوع موته الآن ، وجوزته فى المستقبل ، والآيات إنما تدل على جواز الموت فَقَطْ ، لا على تخصيصه بحال معينة.

وبعد ، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عُمر من بين سائر الخلْق ! ومن أين زعم أنه سيعود فيقطع أيدىَ رجال وأرجلَهم ! وكيف لم يحصل له من اليقين لمّا رأى من الواعية[1] وكآبة الخلْق وإغلاق الباب وصُراخ النساء مايدفع به ذلك الوهْم والشبهة البعيدة، فلم يحتج إلى موقِّف !

وبعد ، فيجب إن كانت هذه شبهته أن يقول فى مرض النبى صلى الله عليه وآله ـ وقد رَأى جَزَعَ أهلِه وخوفهم عليه الموت، وقولَ أسامة صاحب الجيش ـ : لم أكنْ لأرحَل وأنت هكذا وأسأل عنك الرُّكْب؛ ياهؤلاء لا تخافوا ولا تجزعوا، ولا تخفْ أنت يا أسامة، فإنّ رسول الله صلى الله عليه لايموت الآن لأنّه لم يَظْهر على الدين كلِّه .

وبعد ، فليس هذا من أحكام الكتاب التى يُعْذَر من لا يعرفها على ما ظنّ المعتذِر له[2] .

***

ونحن نقول : إنّ عمر كان أجلّ قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه فى هذه الواقعة ؛

---

(١) الواعية : الصراخ على الميت .   (٢) الشافى ٢٥٢ مع اختصار وتصرف

ولـكنه لما علم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، خاف من وقوع فتنة فى الإمامة، وتقلّب أقوام عليها ، إمّا من الأنصار أو غيرهم، وخاف أيضا من حدوث رِدّة ، ورجوع عن الإسـلام ، فإنّه كان ضعيفاً بعد لم يتمكّن ، وخاف من تِراتٍ تُشَنّ ، ودماء تراق ، فإنّ أكثرَ العرب كان موتورا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لِقتْل مَنْ قَتَلَ أصحابُه منهم، وفى مثل ذلك الحال تنتهز الفرصة ، وتُهْتَبَلُ الغِرّة ، فاقتضت المصلحة عنده تسكينَ الناس بأنْ أظهر ما أظهره من كون رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمت ، وأوقَع تلك الشبهةَ فى قلوبهم ، فـكسر بها شِرّةَ كثير منهم، وظنوها حقًّا ، فثناهم بذلك عن حادث يُحدثونه ، تخيّلا منهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما مات؛ وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه ، وهكذا كان عمر يقول لهم : إنّه قد غاب عنكم كما غاب موسى عن قومه ، وليعودَنّ فليقطِّعنّ أيدىَ قوم أرجفوا بموته .

ومثلُ هذا الـكلام يقع فى الوهْم ، فيصدّ عن كثير من العزم؛ ألا ترى أنّ الملِك إذا مات فى مدينة وقع فيها فى أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكلّ مَنْ فى نفسه حِقْد على آخر بلَغ منه غرضه ، إمّا بقتلٍ أو جرح أو نهْب مال ؛ إلى أن تتمهّد قاعدةُ الملِك الذى يَلِى بعــده ؛ فإذا كان فى المدينة وزير حازم الرأى ، كتم موت الملك ، وسجن قوما ممن أرجف نداء بموته، وأقام فيهم السياسة ، وأشاع أن الملِك حىّ، وأنّ أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلزم ذلك الناموس إلى أن يمهِّد قاعـدة الملك للوالى بعده ؛ وكذلك عمر أظهر ما أظهر حِراسة للدين والدولة ، إلى أن جاء أبو بكر ـ وكان غائبا بالسُّنْح، وهو منزل بعيد عن المدينة ـ فلما اجتمع بأبى بكر قوِىَ به جأشُه ، واشتدّ به أزره ، وعَظُم طاعة الناس له وميلهم إليــه ، فسكت حينئذٍ عن تلك الدعوى التى كان ادّعاها ، لأنه قد أمِنَ بحضور أبى بكر من خَطْبٍ يحدث ، أو فساد يتجدّد ؛ وكان أبو بكر محبّبا إلى الناس ؛ لا سيّما المهاجرين .

ويجوز عند الشيعة وعند أصحابنا أيضا أن يقول الإنسان كلاما ظاهر الكذب على جهة المعاريض؛ فلا وَصْمَةَ على عمر إذا كان حَلَفَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يَمُتْ، ولا وَصْمَةَ عليه فى قوله بعد حضور أبى بكر وتلاوة ماتلا : كأنى لم أسمعها ، أو قد تيقنت الآن وفاته صلى الله عليه، لأنه أراد بهذا القول الأخير تشييدَ القول الأول، وكان هو الصواب، وكان من سيِّئ الرأى وقبيحه أن يقولَ : إنّما قلتهُ تسكينا لكم ، ولم أقله عن اعتقاد، فالذى بَدَأ به حَسن وصواب ، والذى ختم به أحسن وأصوَب .

* * *

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " عن عمر بن شبّة، عن محمد بن منصور، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال : كان النبى صلى الله عليه وآله قد بعثَ أبا سفيان ساعياً (١)، فرجع من سِعايته وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلقيَه قوم فسألهم ، فقالوا : مات رسول الله صلى الله عليه ، فقال : مَنْ ولىَ بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قال : أبو فَصِيل ! قالوا : نعم ، قال : فما فعل المستضعفان : علىّ والعباس ! أما والّذى نفسى بيده لأرفعنّ لهما من أعضادهما .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وذكر الراوى – وهو جعفر بن سليمان – أنّ أبا سفيانَ قال شيئا آخر لم تحفظه الرواة ؛ فلما قدم المدينة قال : إنّى لأرى عَجاجة لا يطفئها إلا الدم ! قال : فكلّم عمرُ أبا بكر ، فقال : إنّ أبا سُفيان قد قَدِم ، وإنا لا نأمن شَرّه ، فدَعْ له مافى يده ، فتركه فرضىَ .

وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لما بويع عثمان : كان هذا الأمر فى تَيْم ، وأنَّى لتَيْم هذا الأمر ! ثم صار إلى عدىّ فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قراره ، فتلقفوها تلقّفَ الكرة .

---

(١) السعاية : مباشرة أعمال الصدقات .

قال أحمد بن عبد العزيز : وحدّثنى المغيرة بن محمد المهلّبىّ قال : ذاكرت إسماعيل ابن إسحاق القاضى بهـذا الحديث ، وأنّ أبا سفيان قال لعثمان : بأبى أنت ! أنفق ولا تكنْ كأبى حجر ، وتداولوها يا بنى أمية تداول الولدانِ الكُرة ، فوالله مامن جنّة ولا نار ـ وكان الزّبير حاضرا ، فقال عثمان لأبى سفيان : اعْزُب ، فقال : يا بنىّ أهاهنا أحد! قال الزبير : نعم والله لا كتمتُها عليك ـ قال : فقال إسماعيل : هذا باطل. قلت : وكيف ذلك؟ قال : ما أنكِر هذا من أبى سفيان، ولكن أنكِر أن يكون سَمِعه عثمان، ولم يضرب عنقه.

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : جاء أبو سفيان إلى علىّ عليه السلام ، فقال : وليّتم على هذا الأمر أذلّ بيت فى قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبى فصيل خيلا ورجلا ، فقال علىّ عليه السلام : طالما غششتَ الإسلام وأهلَه فما ضررتَهُم شيئا! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك ، لولا أنّا رأينا أبا بكر لها أهلا ، لما تركناه .

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : لما بويع لأبى بكر كان الزبير والمقداد يختلفان فى جماعة من الناس إلى علىّ وهو فى بيت فاطمة، فيتشاورون ويتراجعون أمورهم، فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السلام ، وقال: يا بنتَ رسول الله، مامن أحد من الخلْق أحبّ إلينا من أبيك ، ومامن أحد أحبّ إلينا منك بعد أبيك ، وايمُ الله ماذاك بمانعى إن اجتمع هؤلاء النَّفَر عندك أنْ آمرَ بتحريق البيت عليهم . فلما خرج عمر جاءوها ، فقالت : تعلَمون أنّ عمر جاءنى ، وحلف لى بالله إن عُدتم لَيحرقَنّ عليكم البيت، وايمُ الله ليمضينّ لما حَلَف له ، فانصرفوا عنا راشدين . فلم يرجعوا إلى بيتها ، وذهبوا فبايعوا لأبى بكر .

***

وروى أحمد ـ وروى المبرّد فى '' الكامل '' صدر هذا الخبر[1] ـ عن عبدالرحمن

(١) والخبر أيضاً فى تاريخ الطبرى : (٣ : ٢٣٤) وما بعدها .

ابن عوف ، قال : دخلتُ على أبى بكر أعودُه فى مرضه الذى مات فيه ، فسلّمت ، وسألته: كيف به ؟ فاستوى جالسا ، فقلت : لقد أصبحتَ بحمد الله بارئا ، فقال : أما إنّى على ماترَى لوَجِـع، وجعلتم لى معشر المهاجرين شغلامع وجَعِى ، وجعلت لكم عهدا منى من بعدى ، واخترت لكم خيرَكم فى نفسى ، فكلّكم وَرِم[1] لذلك أنفُه رجاء أن يكون الأمر له ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ؛ والله لتتَّخِذُنّ ستورَ الحرير ونضائد الديباج[2] ، وتألمون ضجائع الصوف الأذربىّ[3]، كأنّ أحدَكم على حَسَك[4] السَّعْدَان . والله لأنْ يقدّم أحدكم فتضربَ عنقه فى غير حَدّ خَيْرٌ له من أن يَسْبَح فى غمرة الدنيا ، وإنكم غداً لأوّل ضالّ بالناس يجورون عن الطريق يمينا وشمالا ، ياهادىَ الطريق جُرْتَ ؛ إنما هو البَجْر أو الفَجْر[5]. فقال له عبد الرحمن : لاتُكْثر على مابك فيَهِيضَك[6]، والله ماأردتَ إلا خيرا[7]، وإن صاحبَك لذو خير ؛ وما الناس إلا رجلان : رجل رأى مارأيت ؛ فلا خلاف عليك منه، ورجل رأى غيرَ ذلك ؛ وإنما يشير عليك برأيه . فسكنَ وسكتَ هُنَيهةً ؛ فقال عبدُ الرحمن : ماأرى بك بأسا والحمد لله ، فلا تأسَ على الدنيا ، فوالله إن علمنَاك إلا صالحا مصلحا . فقال : أما إنى لا آسىَ إلا على ثلاث فعلتُهنّ ، ودِدت أنّى لم أفعلْهنّ ، وثلاث لم أفعلهنّ ودِدْت أنى فعلتُهنّ، وثلاث ودِدت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه عنهنّ :

فأما الثلاث التى فعلتُها وددت أنّى لم أكن فعلتُها : فودِدْت أنى لم أكنْ كشفتُ

(١) ورم أنفه : أى امتلأ من ذلك غضبا .
(٢) نضائد الديباج : واحدتها نضيدة ؛ وهى الوسادة وما ينضد من المتاع .
(٣) الأذربى : منسوب إلى أذربيجان .
(٤) السعدان : نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه .
(٥) قال فى الكامل : « وقوله : والله هو الفجر أو البجر ، يقول : إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » .
(٦) يهيضك : أى يعنتك ويؤذيك ؛ وأصله فى العظم إذا كسر بعد الجبور ؛ فإنه يكون أشد وجعا .
(٧) هذه آخر رواية المبرد — مع تصرف كثير فى العبارة — فى الكامل ١ : ٥٤ ، ٥٥ — بشرح المرصفى .

عن بيت فاطمة وتركتهُ ولو أُغلِق على حَرْب، ووددْت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمْرَ فى عُنق أحد الرجلين : عمر أو أبى عبيدة ، فكان أميراً وكنت وزيراً ؛ ووددت أنى إذ أتيت بالفُجَاءة[1] لم أكن أحرقته ، وكنت قتلته بالحديد أو أطلقته .

وأما الثلاث التى تركتها ووَدِدْت أنى فعلتها : فوددت أنّى يوم أتيت بالأشعث كنت ضربت عنقَه ، فإنه يخيل إلىّ أنه لا يرى شرًّا إلا أعان عليه ؛ ووددت أنّى حيث وجّهت خالداً إلى أهل الردّة أقمت بذى القَصّة، فإن ظَفِر المسلمون وإلا كنتُ رِدْءًا لهم ، ووددت حيث وجهت خالدا إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطتُ كلتا يدىّ: اليمين والشمال فى سبيل الله .

وأما الثلاث اللواتى وددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه عنهنّ: فوددت أنّى سألته فيمن هذا الأمر ، فكنا لا ننازعه أهلَه ؛[ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟][2] ووددت أنّى سألته عن ميراث العمّة وابنة الأخت ؛ فإنّ فى نفسى منهما حاجة .

ومن كتاب معاوية المشهور إلى علىّ عليه السلام :

وأعهدك أمس تحملُ قعيدةَ بيتِك ليلا على حمار ويَدَاك فى يدى ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق ، فلم تَدَع أحدا من أهل بَدْر والسوابقِ إلا دعوتهم إلى نفسك ، ومشيت إليهم بامرأتك ، وأدليْت إليهم بابنيك ، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلا أربعة أو خمسة ؛ ولَعَمْرِى لو كنت محقًّا لأجابوك ، ولكنك ادّعيتَ باطلا ، وقلت مالا تعرف ، ورُمْتَ مالا يُدرَك ، ومهما نسيتُ فلا أنسى قولك لأبى سفيان ، لمّا حرّكك وهَيّجك : لو وجدتُ أربعين ذوى عزم منهم لناهضتُ القوم؛ فما يوم المسلمين منك بواحد ، ولا بغْيُك على الخلفاء بطريف ولا مستبدَع .

(١) هو إياس بن عبد الله بن عبد ياليل السلمى ، وكان قد استعرض الناس يقتلهم ويأخذ أموالهم ، فأمر أبو بكر بإحراقه . وانظر تفصيل الخبر فى الطبرى ٣ : ٢٣٤ .

(٢) زيادة من الطبرى يقتضيها السياق .

وسنذكر تمام هذا الكتاوب وأوله عند انتهائنا إلى كتب علىّ عليه السّلام .

وروى أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهرىّ عن أبى المنذر وهشام بن محمد بن السّائب عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، قال : كان بين العباس وعلىّ مباعدة ، فلقىَ ابنُ عباس عليًّا ، فقال : إن كان لك فى النَّظَر إلى عمك حاجة فَأْتِه ، وما أَراكَ تَلْقاه بعدها . فوجَم(١) لها وقال . تقدَّمْنى واستأذن ، فتقدمتُه واستأذنت له ، فأذِن فدخلَ ، فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبَه ، وأقبل علىّ عليه السلام على يده ورجله يقبِّلهما ، ويقول : ياعمّ ، ارضَ عنى رضىَ الله عنك ، قال : قد رضيتُ عنك .

ثم قال : يا بنَ أخى ، قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل ، ورأيتَ فى عاقبتها ما كرهت ؛ وهأنذا أشير عليك برأى رابعٍ ، فإن قبلتَه ؛ وإلّا نالك ما نالك ممـا كان قبله . قال : وما ذاك ياعم ؟ قال : أَشرتُ عليك فى مرض رسول الله صلى الله عليـه أن تسأله ، فإن كان الأمر فينا أعطاناه ، وإن كان فى غيرنا أوصى بنا . فقلت : أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده(١) ، فمضت تلك . فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ، أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة ، فدعوْناك إلى أن نبايعَك ، وقلت لك : ابسُط يدك أبايعك ، ويبايعك هذا الشيخ ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبدمناف ، وإذا بايعك بنو عبدمناف لم يختلف عليك أحد(٢) من قريش ، وإذا بايعتْك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب ، فقلتَ : لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه شُغْل ، وهذا الأمر فليس نخشى عليه ؛ فلم نَلْبَثْ أن سمعنا التكبيرَ من سقيفة بنى ساعدة ، فقلت : ياعمّ ، ماهذا ؟ قلتُ : ما دعوناك إليه فأبيت ، قلت : سبحان الله ! أو يكون هذا ! قلتُ : نعم . قلتَ : أفلا يردّ ؟ قلتُ لك : وهل رُدّ مثلُ هذا قَطّ ! ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر فقلت : لاتُدْخِلْ نفسَك فى الشورى ، فإنك إن اعتزلتهم قدّموك ، وإن ساويتَهم تقدّموك ، فدخلتَ معهم فـكان ما رأيت .

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) ب : « قرشى » .

ثم أنا الآن أشيرُ عليك برأيٍ رابع ، فإن قبلتَه وإلّا نالك ما نالك ممّا كان قبله ؛ إنى أرى أنّ هذا الرجل ــ يعنى عثمان ــ قد أخذ فى أمور ، والله لكأنّى بالعرب قد سارت إليه حتى يُنْحَر فى بيته كما يُنْحَرُ الجمل . والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة ألزمك الناس به ؛ وإذا كان ذلك لم تنلْ من الأمر شيئا إلّا من بعد شرّ لاخير معه .

قال عبد الله بن عباس : فلما كان يوم الجمل عَرَضْتُ له ــ وقد قتِل طلحة ، وقد أكثر أهل الكوفة فى سَبِّه وغَمْصِه ــ فقال علىّ عليه السلام : أما والله لئن قالوا ذلك ، لقد كان كما قال أخو جُعفىّ[(١)] :

فَتًى كَانَ يُدْنِيه الْغِنى مِنْ صَدِيقِهِ ... إِذَا مَاهُو اسْتَغْنَى ويُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

ثم قال : والله لكأنّ عمّى كان ينظر من وراء سِتْرٍ رَقيق ؛ والله ما نلتُ من هذا الأمر شيئا إلا بعد شرٍّ لاخيرَ معه .

* * *

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز ، عن حُباب بن يزيد ، عن جرير بن المغيرة أنّ سَلْمان والزّبير والأنصار كان هواهم أن يُبايعوا عليًّا عليه السلام بعد النبىّ صلّى الله عليه وآله ، فلمّا بُويع أبو بكر ، قال سلمان : أصبتم الخِبْرَةَ وأخطأتم المَعْدِن .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبَّة ، قال : حدثنا علىّ بن أبى هاشم ، قال : حدّثنا عمرو بن ثابت ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : قال سلمان يومئذ : أصبتم ذا السنّ منكم ، وأخطأتم أهلَ بيت نبيّكم ؛ لوجعلتموها فيهم مااختلف عليكم اثنان ، ولأكلتموها رغَداً .

قال أبو بكر : وأخبرنا عمر بن شَبّة ، قال : حدّثنى محمد بن يحيى ، قال : حدثنا غسّان

(١) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة الجعفى ، من كلمة له يرثى فيها أخاه لأمه قيس بن سلمة . أمالى القالى ٢ : ٧٣

ابن عبد الحميد ، قال : لمّا أكثر الناس فى تخلُّف علىّ عليه السلام عن بيعة أبى بكر ، واشتدّ أبو بكر وعمر عليه فى ذلك ، خرجتْ أم مِسْطح بن أُثاثة ، فوقفتْ عند القبر ، وقالت :

كانتْ أمورٌ وأنبــــاء وَهَنْبَثَةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تَــكْثُرِ الخُطَبُ(١)

إنّا فَقَدْناكَ فَقْدَ الأرْضِ وَابِلَهــــا ... واختلّ قومُك فاشْهَدْهُمْ ولا تَغِبِ(٢)

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا إبراهيم بن المنذر ، عن ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن أبى الأسود ، قال : غضب رجالٌ من المهاجرين فى بيعة أبى بكر بغير مشورة ، وغضب علىّ والزبير ، فدخَلا بيت فاطمة عليها السلام ، معهما السلاح ، فجاء عمر فى عصابة ؛ منهم أُسَيْد بن حُضَير وسلَمة بن سَلَامة ابن وَقش ـ وهما من بنى عبد الأشهل ـ فصاحت فاطمة عليها السلام ، وناشدتْهم الله . فأخذوا سيفىْ علىّ والزبير ، فضربوا بهما الجدار حتى كسروهما ، ثم أخرجهما عمر يَسُوقهما حتى بايعا ، ثم قام أبو بكر فخطب الناس ، واعتذر إليهم ، وقال : إن بيعتى كانت فَلْتَة وقى الله شرّها ، وخشيتُ الفتنة ، وايمُ الله ماحرَصت عليها يوما قطّ ، ولقد قُلِّدت أمرا عظيما مالى به طاقة ولا يدان ، ولوَدِدْتُ أنّ أقوى الناس عليه مــكانى . وجعل يعتذر إليهم ، فقبل المهاجرون عذرَه . وقال علىّ والزبير : ما غَضِبْنا إلا فى المشورة ، وإنا لَـنَرَى أبا بكر أحقّ الناس بها ؛ إنه لصاحبُ الغار ، وإنا لنعرف له سِنّه ، ولقد أمّره رسول الله صلى الله عليه بالصلاة بالناس وهو حىّ .

قال أبو بكر ـ وقد روى بإسناد آخر ذكره ؛ أنّ ثابت بن قيس بن شَمّاس كان مع الجماعة الذين حَضَرُوا مع عمر فى بيت فاطمة عليها السلام ؛ وثابت هذا أخو بنى الحارث ابن الخزرج .

---

(١) الهنبثة ، واحدة الهنابث ؛ وهى الأمور الشداد المختلفة ؛ والبيتان فى اللسان (٣ : ٢٠) ، وذكر أنه جاء فى حديث أن فاطمة قالتهما بعد موت الرسول عليه السلام ؛ وذكر أيضا أنه ورد هـذا الشعر فى حديث آخر ؛ قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت صفية تلمع بثوبها وتقول البيتين » .

(٢) اللسان : « فاختل » .

وروى أيضاً أن محمد بن مسلمة كان معهم ، وأن محمدا هو الذى كسر سيف الزبير .

قال أبو بكر : وحدّثنى يعقوب بن شَيْبة ، عن أحمد بن أيوب ، عن إبراهيم بن سعد ، عن ابن إسحاق ، عن الزّهرىّ ، عن عبدالله بن عباس ، قال : خرج علىّ عليه السلام على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه فى مرضِه ، فقال له الناس : كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه ياأبا حسن ؟ قال : أصْبَح بحمد الله بارئاً ، قال : فأخذ العباس بيد علىّ ، ثم قال : ياعلىّ ، أنت عبد العصا بعد ثلاث ؛ أحلِف لقد رأيتُ الموتَ فى وجهه — وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب — فانطلِقْ إلى رسول الله صلى الله عليه فاذكر له هذا الأمر ؛ إن كان فينا أعْلَمَنا ، وإن كان فى غيرنا أوصَى بنا . فقال : لا أفعل ، والله إن منعَناه اليوم لا يؤتيناه الناسُ بعده ؛ قال : فتُوُفِّىَ رسول الله ذلك اليوم .

وقال أبو بكر : حدّثنى المغيرة بن محمد المهلبىّ من حفظه وعمر بن شَبّة من كتابه ، بإسنادٍ رفعه إلى أبى سعيد الخُدْرىّ ، قال : سمعت البَرَاء بن عازب يقول : لم أزلْ لبنى هاشم محبًّا ، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه تخوّفتُ أن تَمالأ قريشٌ على إخراج هذا الأمر عن بنى هاشم ، فأخذنى ماأخذ الوَالِهَ العَجُول .

ثم ذكر ماقد ذكرناه نحن فى أول هذا الكتاب[1] فى شرح قوله عليه السلام : « أما والله لقد تقَمّصها فلان » ، وزاد فيه فى هذه الرواية : فمكثتُ أكابد مافى نفسى ، فلما كان بليل ، خرجت إلى المسجد ، فلما صرت فيه تذكّرت أنّى كنت أسمع هَمْهَمة رسول الله صلى الله عليه بالقرآن ، فامتنعتُ من مكانى ، فخرجت إلى الفضاء ، فضاء بنى بيَاضة ، وأجد نفرا يتناجوْن ، فلما دنوتُ منهم سَكَتُوا ، فانصرفت عنهم ، فعرفونى وماأعرفهم ، فدعونى إليهم فأتيتُهم ، فأجد المقدادَ بنَ الأسود وعبادة بن الصامت ، وسلْمان الفارسىّ ، وأبا ذرّ ، وحُذيفة ، وأبا الهَيثم بن التيّهان ؛ وإذا حُذَيفة يقول لهم : والله ليكونَنّ ماأخبرتُكم

(١) الجزء الأول ص ١٥٩ وما بعدها .

به ، والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ؛ وإذا القوم يريدون أن يُعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال : ائتوا أُبيَّ بن كعب ، فقد علِم كما علمت . قال : فانطلقنا إلى أُبيّ ، فضربنا عليه بابه ؛ حتى صار خلف الباب ، فقال : من أنتم ؟ فكلّمه المقداد ، فقال : ما حاجتكم ؟ فقال له: افتح عليك بابَك، فإنّ الأمر أعظم من أن يُجْرَى من وراء حجاب ، قال : ماأنا بفاتح بابى ، وقد عرفتُ ماجئتم له ، كأنّكم أردتم النظر فى هذا العقد . فقلنا : نعم ، فقال: أفيكم حُذيفَة ؟ فقلنا : نعم، قال : فالقول ماقال ؛ وبالله ما أفْتَح [1] عنى بابى حتى يُجْرى على ما هى جارية ، ولَما يكون بعدها شرٌّ منها ، وإلى الله المشتكَى !

قال : وبلغ الخبرُ أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبى عُبيدة والمغيرة بن شُعْبة ، فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة : أن تَلْقَوُا العباس فتجعلوا له فى هذا الأمر نصيبا فيكون له ولعقِبه ، فتقطعوا به من ناحية علىٍّ ، ويكون لكم حُجّةٌ عند الناس على علىّ ، إذا مال معكم العباس .

فانطلقوا حتى دخلوا على العبّاس فى الليلةالثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم ذكر خطبة أبى بكر وكلام عمر وماأجابهما العباس به ، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب فى الجزء الأول .

وروى أبو بكر ، قال : أخبرنا أحمدبن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنا عبدالله بن عمر، عن حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، قال : لماتُوُفِّىَ النبى صلى الله عليه اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة ، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عُبيدة ، فقال الحُباب :

---

(١) ب : « مايفتح » .

ابن المنذر : منّا أمير ومنكم أمير ، إنّا والله ما ننْفِس[1] هذا الأمر عليكم أيها الرهط؛ ولكنا نخاف أن يَليَه بعدكم مَنْ قتلْنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم ؛ فقال عمر بن الخطاب : إذا كان ذلك قمت إن استطعت . فتكلّم أبو بكر فقال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، والأمر بيننا نصفان كشِقّ الأبْلُمة[2] . فبويع ، وكان أول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان ابن بشير .

فلما اجتمع الناس على أبى بكر ، قَسّم قَسْما[3] بين نساء المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى امرأة من بنى عدىّ بن النجار قَسْمَها مع زيد بن ثابت ، فقالت : ما هـذا ؟ قال : قَسْمٌ قَسَمه أبو بكر للنساء ، قالت : أتراشونني عن دينى ! والله لا أقبل منـه شيئاً . فردّته عليـه .

قلت : قرأت هـذا الخبر على أبى جعفر يحيى بن محمد العلوىّ الحسينىّ المعروف بابن أبى زيد نقيب البصرة رحمه الله تعالى فى سنة عشر وستمائة من كتاب السّقيفة لأحمد ابن عبد العزيز الجوهرىّ ، قال : لقد صدقتْ فِراسة الحُباب ، فإنّ الذى خافه وقع يوم الحرّة وأُخِذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر . ثم قال لى رحمه الله تعالى : ومن هذا خاف أيضا رسول الله صلى الله عليـه وآله على ذُرّيّته وأهله ، فإنه كان عليـه السلام قد وَتَر الناس، وعلم أنّه إن مات وترك ابنته وولدها سُوقة ورعيّة تحت أيدى الولاة ، كانوا بعرَض خطر عظيم ، فما زال يقرّر لابن عمه قاعدة الأمر بعده ، حفظاً لدمه ودماء أهل بيته ، فإنّهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقربَ إلى الصّيانة والعصمة مما إذا كانوا سوقة تحتَ يد وَالٍ من غيرهم ، فلم يساعده القضاء والقَدَر ، وكان من الأمر ما كان . ثم أفضى أمر ذرّيّته فيما بعد إلى ما قد علمت .

---

(١) ننفس : نحسد .

(٢) فى اللسان : (١٤ : ٣٢٠) وفى حديث السقيفة : « الأمر بيننا وبينكم كقد الأبلمة » ، والأبلمة ، بضم الهمزة واللام وفتحهما وكسرهما : خوصة المقل ، وهمزتها زائدة ، يقول : نحن وإياكم فى الحكم سواء ، لافضل لأمير على مأمور ، كالخوصة إذا شقت اثنتين متساويتين .

(٣) القسم هنا : العطاء .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : حدّثني يعقوب بن شيبة بإسناد رفعه إلى طلحة ابن مصرِّف ، قال: قلت لهذيل بن شُرَحبيل : إن الناس يقولون : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى عليّ عليه السلام ، فقال : أبو بكر يتأمّر على وصيّ رسول الله صلى الله عليه ! ودّ أبو بكر أنّه وجد من رسول الله صلى الله عليه عهدا نخزم أنفه .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان : محمد بن إسماعيل البخاريّ ومسلم بن الحجاج القُشَيريّ في صحيحيهما عن طلحة بن مصرّف ، قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى : أوصى[1] رسول الله صلى الله عليه؟ قال: لا ،قلت :فكيف كُتِب على المسلمين الوصيّة[2] أو كيف أمِر بالوصية ولم يوص[3] ؟ قال : أوصى بكتاب الله[4] . قال طلحة : ثم قال ابن أوفى : ما كان أبو بكر يتأمّر على وصيّ رسول الله صلى الله عليه ؛ ودّ أبو بكر أنه وَجَد مِنْ رسول الله صلى الله عليه عهدا ، نخزم أنفه بخزامه .

وروى الشيخان في الصحيحين عن عائشة أنه ذُكِر عندها أن رسول الله صلى الله عليه أوصى ، قالت : ومتى أوصى ؟ ومن يقول ذلك ! قيل :إنهم يقولون ، قالت : مَنْ يقوله ؟ لقد دعا بِطسْت ليبول ، وإنه بين سَحْري ونَحْري فانخنث[5] ، في صدري فمات وما شَعَرت[6] .

وفي الصحيحين أيضاً ، خرّجاه معا عن ابن عباس ، أنّه كان يقول : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى ، فقلنا : يابْنَ عباس ، وما يوم الخميس ؟

(١) لفظ مسلم : « هل أوصى ؟ » .
(٢) لفظ مسلم : « فلم كتب على المسلمين الوصية ؟ » .
(٣) لفظ مسلم : « أو فلم أمروا بالوصية ؟ » .
(٤) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٦ .
(٥) انخنث : مال وسقط .
(٦) لفظ مسلم ٣ : ١٢٥٧ بسنده عن الأسود بن يزيد : « ذكروا عند عائشة أن عليا كان وصيا ، فقالت : متى أوصى إليه ؟ فقد كنت مسندته إلى صدري — أو قالت حجري — فدعا بالطست ، فلقد انخنث في حجري ، وما شعرت أنه مات ، فمتى أوصى إليه ؟ » .

قال : اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وَجَعُه ، فقال : ائتونى بكتاب أكتُبه لكم[١] لا تضلّوا بعدى أبدا . فتنازعوا ، فقال : إنه لا ينبغى عندى تنازُع ،فقال قائل : ماشأنه ؟ أهَجَر ؟ استفهموه . فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعونى ، والذى أنا فيه خير من الذى أنتم فيه ، ثم أمَر بثلاثة أشياء ، فقال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحوما كنت أجيزُهم ؛ وسئل ابن عباس عن الثالثة ، فقال : إمّا ألّا يكون تكلّم بها، وإمّا أن يكون قالها فنسِيت[٢] .

وفى الصحيحين أيضا خرّجاه معا عن ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : لما احتُضِر[٣] رسول الله صلى الله عليه وآله، وفى البيت رجالٌ منهم عمر بن الخطاب ؛ قال النبىّ صلى الله عليه : هلمّ أكتبْ لكم كتابا لا تضِلّونَ بعده ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه قدغلب عليه الوجَع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول : قرِّبُوا إليه يكتبْ لكم كتابا لن تضلُّوا بعده ، ومنهم من يقول : القولُ ماقاله عمر ؛ فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام، قال لهم : قوموا ، فقاموا، فكان ابن عباس يقول : إن الرزيّة كلّ الرزيّة ماحال بين رسول الله صلى الله عليه وبين أن يكتب لكم[٤] ذلك الكتاب[٥] .

* * *

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ : وحدثنى أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنى عبد الله بن عمر بن معاذ ، عن ابن عون ، قال : حدثنى رجل من زُرَيق

---

(١) لفظ مسلم : « ائتونى أكتب لكم كتابا » .

(٢) لفظ مسلم : « قال : وسكت عن الثالثة أو قال : فأنسيتها » ، والحديث فى صحيحه ٣ : ١٢٥٧ ـ ١٢٥٨ .

(٣) لفظ مسلم : « حضر » ؛ وهما بمعنى حضره الموت .

(٤) لفظ مسلم : « لهم » .

(٥) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ .

أنّ عمر كان يومئذ ـ قال : يعني يوم بويع أبو بكر ـ محتجِزا[1] يهرول بين يدى أبى بكر ؛ ويقول : ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر . قال : فجاء أبو بكر حتى جلس على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أمّا بعد ، فإنّى ولِّيتُكم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسُنّت السنن ، وعلمنا فتعلمنا أنّ أكيس الكَيْس التقى ، وأحمق الحُمْق الفجور . وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بالحقّ ، وأضعفَكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق . أيها النّاس إنّما أنا متّبع ولست بمبتدع ، إذا أحسنتُ فأعينونى ، وإذا زُغْت فقوِّمونى .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا أحمد بن معاوية ، قال : حدّثنى النضْر بن شُمَيل ، قال : حدثنا محمد بن عمرو ، عن سلمة بن عبد الرحمن ، قال : لما جلس أبو بكر على المِنْبر ، كان علىّ عليه السلام والزبير وناسٌ من بنى هاشم فى بيت فاطمة ، فجاء عمر إليهم ، فقال : والّذى نفسى بيده لَتَخْرُجُنّ إلى البَيْعة أو لَأُحْرِقَنّ البيت عليكم ! فخرج الزبير مُصْلِتًا سيفه ، فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لَبيد . فبدر السيف ، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر : اضرِبْ به الحجر ، فدق به . قال أبو عمرو ابن حماس : فلقد رأيت الحجَر فيه تلك الضربة ، ويقال : هذه ضربةُ سَيف الزبير . ثم قال أبو بكر : دعوهم فسيأتى الله بهم ، قال : فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه .

قال أبو بكر : وقد رُوِى فى رواية أخرى أنّ سعد بن أبى وقّاص ، كان معهم فى بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً ، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليًّا عليه السلام ، فأتاهم عمر ليَحرِق عليهم البيت ، فخرج إليه الزُّبير بالسيف ، وخرجت فاطمة عليها السلام تبكى وتصيح ؛ فنُهنِهتْ من الناس ، وقالوا : ليس عندنا معصية ، ولا خلاف فى خير اجتمع عليه الناس ؛ وإنما اجتمعنا لنؤلِّف القرآن فى مصحف واحد . ثم بايعوا أبا بكر ، فاستمرّ الأمرُ واطمأنّ الناس .

(١) يقال : احتجز بالإزار إذا شده على وسطه .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد عمر بن شَبّة ، قال : أخبرنا أبو بكر الباهليّ ، قال : حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبيّ ، قال : سأل أبو بكر فقال : أين الزبير ؟ فقيل : عند عليّ وقد تقلّد سيفه ، فقال : قم ياعمر ، قم ياخالد بن الوليد ؛ انطلقا حتى تأتيانى بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ، وقام خالد على باب البيت من خارج ، فقال عمر الزبير : ماهذا السيف؟ فقال : نبايع عليًّا ، فاخترطه عمر فضرب به حجرا فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه ، وقال : ياخالد دونَكه فأمسكه ، ثم قال لعليّ : قم فبايع لأبى بكر ، فتلكّأ واحتبس ، فأخذ بيده ، وقال : قم ، فأبى أن يقومَ ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير فأخرجه ، ورأت فاطمةُ ماصنِع بهما ، فقامت على باب الحجرة ، وقالت : يا أبا بكر ، ما أسرع ما أغرتُم على أهلِ بيت رسول الله ! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله . قال : فمشى إليها أبو بكر بعد ذلك وشفَع لعمر ، وطلب إليها فرضيت عنه .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، قال : حدثنا محمد بن حاتم ، قال : حدثنا الحراميّ ، قال : حدثنا الحسين بن زيد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعليّ وعنده ابنُ عباس بفِناء داره ، فسلّم فسألاه : أين تريد ؟ فقال : مالى بيَنْبُع ، قال : عليّ : أفلا نصل جناحَك ونقوم معك ؟ فقال : بلى ، فقال لابن عباس : قم معه ، قال : فشبّك أصابعه فى أصابعى ، ومضى حتى إذا خَلّفنا البقيع ، قال : يابن عباس ، أما والله إن كان صاحبُك هذا أوْلى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلّا أنّا خفناه على اثنتين . قال ابن عباس : فجاء بمنطق لم أجد بُدًّا معه من مسألته عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ماهما؟ قال : خشيناه على حداثة سِنّه وحبّه بنى عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد ، قال : حدثنا هارون بن عمر ، بإسناد رفعه إلى ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : تفرّق الناس ليلة الجابية [1] عن عمر ، فسار

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، ذكر ياقوت أن عمر خطب فيها خطبته المشهورة .

كلّ واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة فى مسيرنا، فحادثته ، فشكا إلىّ تخلّف علىّ عنه . فقلت : ألم يعتذر إليك ؟ قال : بلى ، فقلت : هو ما اعتذر به ، قال : يابن عباس، إنّ أولَ من رَيَّثَكم عن هذا الأمر أبو بكر ؛ إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة ، قلت : لم ذاك يا أمير المؤمنين ؟ ألم نُنِلْهُمْ خيرا ؟ قال : بلى ، ولكنهم لو فعلوا لكنتم عليهم جَحْفًا جَحْفا (١) .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال: حدثنا عبد العزيز بن الخطاب ، قال : حدثنا علىّ بن هشام ، مرفوعا إلى عاصم بن عمرو بن قتادة ، قال : لقِىَ علىّ عليه السلام عمر ، فقال له علىّ عليه السلام: أنشُدك الله ، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه؟ قال : لا ، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك ؟ قال: أمّا صاحبى فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من عنقى إلى عُنُقك ، فقال: جَدَعَ الله أنف مَنْ يُنقِذك منها ! لا ولكن جعلنى الله علَما، فإذا قمتُ فمن خالَفنى ضَلّ .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، عن هارون بن عمر، عن محمد بن سعيد بن الفضل عن أبيه ، عن الحارث بن كعب ، عن عبد الله بن أبى أوفَى الْخزاعىّ ، قال : كان خالد ابن سعيد بن العاص مِنْ عُمّال رسول الله صلى الله عليه على اليَمَن ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه جاء المدينة ، وقد بايع الناس أبا بكر ، فاحتبس عن أبى بكر فلم يبايعه أياما، وقد بايع الناس، وأتى بنى هاشم، فقال : أنتم الظهر والبطن ، والشّعار دون الدثار (٢) ، والعصا دون اللِّحا (٣) ، فإذا رضيتم رضينا ، وإذا سخطتم سخطنا . حدّثونى إن كنتم قد بايعتمْ هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال: على برد ورِضاً من جماعتكم ؟ قالوا : نعم ، قال :

(١) جحفاً جحفاً ، أى فخراً فخرا وشرفا شرفا . النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٥ .
(٢) الشعار : مايلى شعر الجسد ؛ وهو تحت الدثار .
(٣) اللحا : ما على العصا من قشرها ، يمد ويقصر ؛ وفى خطبة الحجاج : « لألحونكم لحو العصا » .

فأنا أرضي وأبايع إذا بايعتم . أما والله يابنى هاشم، إنكم الطّوال الشجر الطّيّبو[1] الثمر . ثم إنه بايع أبا بكر ، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها ، و ضطغنها عليه عمر ، فلما ولاه أبو بكر الجند الذى استنفر إلى الشام ، قال له عمر : أتولّى خالداً وقد حَبسَ عليك بيعته، وقال لبنى هاشم ماقال ، وقد جاء بوَرِق من اليمن وعبيد وحُبْشان ودُروع ورماح ! ما أرى أن تولّيَه ، وما آمن خلافه. فانصرف عنه أبو بكر ؛ وولّى أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان وشُرَحْبيل بن حَسَنة .

***

واعلم أن الآثار والأخبار فى هذا الباب كثيرة جدًّا ، ومَنْ تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نصّ صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك، ولا تتطرّق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرسول صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام نصًّا صريحاجليا ليس بنصّ يوم الغدير[2] ، ولا خبر المنزلة[3]، ولا ماشابههما من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها، بل نصّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين ، وأمر المسلمين أن يسلّموا عليه بذلك ، فسلّموا عليه بها، وصرح لهم فى كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ولا ريب أنّ المنصف إذا سمع ماجرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم قطعاً أنّه لم يكن هذا النصّ ، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنّه قد كان هناك تعريض وتلويح ، وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مبتوت، ولعله صلى الله عليه وآله كان يصدّه عن التصريح بذلك أمرٌ يعلمه ، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى فى ذلك .

فأما امتناع علىّ عليه السلام من البيعة حتى أخرِج على الوجه الذى أخرج عليه، فقد

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : «الطيب».

(٢) هو غدير خم ، موضع بين مكة والمدينة ، نقل المحب الطبرى فى الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) أن الرسول عليه السلام قال يوم غدير خم : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

(٣) يشير إلى حديث : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى » .

ذكره المحدّثون ورواه أهل السير وقد ذكرنا ماقاله الجوهرىّ فى هذا الباب؛ وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين ، وقد ذكر غيرُه من هذا النحو مالا يحصى كثرة .

فأما الأمور الشنيعة المستهجَنة التى تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام ، وأنه ضربها بالسوط فصار فى عَضُدها كالدُّملج وبقى أثره إلى أن ماتت ، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار ، فصاحت : ياأبتاه يارسول الله ! وألقت جنينا ميتا ، وجُعل فى عنق علىّ عليه السلام حَبلٌ يقاد به وهو يُعتَل ، وفاطمة خلفه تصرخ وتنادى بالويل والثبور ، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان ، وأنّ عليًّا لما أحضِر سألوه البيعة فامتنع ، فتُهدِّد بالقتل ، فقال : إذن تقتلون عبدالله وأخا رسول الله ! فقالوا : أما عبدُالله فنعم ، وأما أخو رسول الله فلا ، وأنه طعن فيهم فى أوجههم بالنِّفاق ، وسطر صحيفة الغدر التى اجتمعوا عليها ، وبأنهم أرادوا أن ينفِّروا ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة؛ فكلّه لا أصل له عند أصحابنا ، ولا يُثبته أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ، وإنما هو شىء تنفرد الشيعة بنقله .

* * *

الأصْلُ :

ومنها :

وَلَمْ يُبَايِعْ حتّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا . فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ ، وَخَزِيَتْ أمانةُ الْمُبْتَاعِ ! فَخُذُوا لِلحَرْبِ أُهْبَتَهَا ، وَأعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا ، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا ، وَعَلاَ سَنَاهَا . وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ ، فإنَّهُ أَدْعَى إلى النَّصْرِ .

* * *

الشَّرْحُ

هذا فصل من كلام يذكر فيه عليه السلام عمرو بن العاص . وقوله : « فلا ظَفِرتْ يد البائع » يعنى معاوية . وقوله : « وخزِيَتْ أمانة المبتاع » يعنى عمرا ، وخزيت ، أى

خسرت وهانت. وفى أكثر النسخ: «فلا ظفرت يد المبايع»، بميم المفاعلة، والظاهر ما رويناه.

وفى بعض النسخ «فإنه أحزم للنصر»، من حَزَمْتُ الشىء إذا شددته، كأنه يشدّ النصر ويوثّقه، والرواية التى ذكرناها أحسن.

والأهبة: العدّة. وشبّ لظاها استعارة، وأصله صعود طرف النار الأعلى. والسنا بالقصر: الضوء. واستشعروا الصبر: اتخذوه شعارا، والشِّعار: ما يلى الجسد من الثياب؛ وهو ألزم الثياب للجسد؛ يقول: لازموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبَه الذى يلى جِلْدَه لا بدّ له منه، وقد يستغنى عن غيره من الثياب.

* * *

[قدوم عمرو بن العاص على معاوية]

لما نزل علىّ عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البَصْرة، كتب إلى معاوية كتابا يدعوه إلى البَيْعة، أرسل فيه[1] جرير بن عبد الله البَجَلىّ. فقدِم عليه به الشام. فقرأه واغتمّ بما فيه، وذهبت به أفكاره كلّ مذهب، وطاول جريرا بالجواب عن الكتاب، حتّى كلّم قوما من أهل الشام فى الطلب بدم عثمان؛ فأجابوه ووثّقوا له، وأحبّ الزيادة فى الاستظهار، فاستشار أخاه عتبة بن أبى سفيان، فقال له: استعِنْ بعمرو بن العاص، فإنّه من قد علمتَ فى دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان فى حياته، وهو لأمْرِك أشدّ اعتزالا؛ إلا أن يثمّن له دينُه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية:

أما بعد، فإنه كان من أمر علىّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مَرْوان بن الحكم فى نَفَر من أهل البصرة[2]، وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعة علىّ، وقد حبستُ نفسى عليك، [3]فأقبلْ أذاكرك أمورا لا تعدَم صلاح مَغَبّتها، إن شاء الله[3]

---

(١) ساقطة من ب. (٢) فى كتاب صفين: «فى رافضة أهل البصرة».

(٣ – ٣) فى صفين: «حتى تأتينى، أقبل أذاكرك أمرا».

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه : عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو ، فقال لهما : ماتريان ؟ فقال عبد الله : أرى أنّ رسول الله صلى الله عليه قُبِض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده ؛ وقُتِل عثمان وأنت عنه غائب ، فقَرّ فى منزلك ،فلست مجعولا خليفة ، ولا تزيد على[1] أن تكون حاشية لمعاوية، على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا ، فتَسْتَويا[2] فى عقابها . وقال محمد : أرى أنك شيخُ قريش، وصاحبُ أمرِها،وإن تصرّم هذا الأمر وأنت فيه غافل[3] تصاغَرَ أمرُك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يدا من أيديها ، طالبا بدم عثمان ، فإنه سيقوم بذلك بنو أميّة[4] .

فقال عمرو : أمّا أنت ياعبد الله ، فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ،وأنت يامحمدفأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر . فلما جنّه الليل رفع صوته وأهله يسمعون[5]،فقال:

تَطَاوَلَ لَيْلِى بِالْهُمُومِ الطَّوَارِقِ ... وَخَوْفِ التى تجلُو وجوهَ العوائِق[6]
وإنّ ابنَ هند سالنى أنْ أزورَه ... وتلك التى فِيهَا بناتُ البوائِقِ[7]
أتاه جَريرٌ مِن علىّ بخُطّةٍ ... أَمَرّتْ عليه العيش ذاتِ مضائِق
فإنْ نَال منى ما يؤمّلُ رَدّه ... وإن لم ينلْه ذلّ ذل المطابِق[8]
فوالله ماأدرِى وَمَا كُنْتُ هَكَذَا ... أكونُ وَمَهْمَا قادَنِى فهو سابِقِى
أخادِعُه إنّ الخداعَ دنيّةٌ ... أم أعطيه من نَفْسِى نصيحةَ وامِق

---

(١) فى كتاب صفين والإمامة والسياسة ١٥٨ : « ولا تريد أن تكون » .
(٢) كذا فى ا ، والإمامة والسياسة ، وفى ب . « وتسويا » ، وفى كتاب صفين « أو شك أن تهلك فتشقى فيها » .
(٣) فى صفين والإمامة والسياسة : « وأنت غافل » .
(٤) فى الإمامة والسياسة : « فإنك به تستميل بنى أمية » .
(٥) كتاب صفين : « ينظرون » .
(٦) فى صفين : « وخول التى تجلو » ، والعواتق : جمع عاتق ؛ وهى الشابة .
(٧) البوائق : جمع بائقة ؛ وهى الداهية ؛ وفى صفين : « سائلى أن أزوره »
(٨) المطابقة : المشى فى القيد .

أم أقعد فى بيتى وفى ذاك راحــــةٌ ... لشيخ يخاف الموتَ فى كلّ شارِقِ[1]
وقد قال عبـــدُ الله قولا تعلّقت ... بهِ النفس إن لم تقتطِعْنِى عَوَائِقِى[2]
وَخَالَفَهُ فيهِ أخوهُ محمـــدٌ ... وإنى لصُلْبُ العود عِنْدَ الحقائق[3]

فقال عبد الله : رحل الشيخ[4] . ودعا عمرو غلامه وَرْدان — وكان داهيا ماردا — فقال : ارحَلْ ياوَرْدان ، ثم قال : احْطُطْ يا وردان ، ثم قال : ارحَلْ ياوردان ، احْطُط يا وردان . فقال له وردان : خلطت أبا عبد الله ! أما إنك إن شئت أنبأتُك بما فى قلبك ، قال : هات ويحك ! قال : اعتركت الدّنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىّ معه الآخرة فى غير دنيا وفى الآخرة عوض من الدنيا ، ومعاوية معــه الدّنيا بغير آخرة ، وليس فى الدّنيا عِوَضٌ من الآخرة ، وأنت[5] واقف بينهما ، قال : قاتلك الله ! ما أخطأتَ ما فى قلبى ، فما ترى يا وردان ؟ قال : أرى أن تقيم فى بيتك ، فإن ظهر أهلُ الدين عشت فى عَفْو دينهم[6] ، وإن ظهر أهلُ الدنيا لم يستغنُوا عنك . قال : الآن لمـا أشهرت العرب سيرى إلى معاوية[7] ! فارتحل وهو يقول :

يا قاتَلَ الله وَرْدانا وَقَدْحَتَـــهُ ... أبْدَى لَعَمْرُكَ ما فِى النَّفْسِ وَردانُ[8]
لَمّا تَعرَّضَت الدُّنيَا عَرَضْتُ لَهَا ... بحرصِ نَفْسى وفى الأطباع إدْهَانُ[9]
نَفْسٌ تَعِفُّ وأخْرَى الحِرْصُ يَغْلِبُهَا ... والمرء يأكل تِبْنًا وَهْـــو غَرْثَانُ
أمّا علىٌّ فدِينٌ ليسَ يَشْرَكُهُ ... دُنْيَا ، وذاك له دنيـــا وسُلْطَانُ

---

(١) فى صفين : « أو اقعد » .
(٢) فى صفين : « إن لم يعتاقنى » .
(٣) الحقائق : مايجب على المرء حمايته من عرس أو مال .
(٤) فى صفين : « ترحل » .
(٥) فى صفين : « فأنت » .
(٦) عفو دينهم : أى فضل دينهم .
(٧) فى الإمامة والسياسة : « الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاوية » .
(٨) فى صفين : « وقدحته » . (٩) الإدهان : المصانعة .

فاخْتَرْتُ مِنْ طَمَعِى دُنْيَا عَلَى بَصَرٍ   وَمَا مَعِى بالَّذِى أَخْتَارُ بُرْهَانُ
إنّى لأعرف مافيها وأبْصِرُه   وفىّ أيضا لما أهواه ألوانُ
لكنّ نفسى تحبُّ العيشَ فى شَرَفٍ   وليس يرضى بذلِّ العيشِ إنْسَانُ

فسار حتى قدم على معاوية ، وعرَف حاجة معاوية إليه ، فباعده من نفسه ، وكايد كلّ واحد منهما صاحبه .

فقال له معاوية يوم دخل عليه : أباعبد الله ، طرقتْنا فى ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها وِرْد ولا صَدَر ، قال : وماذاك ؟ قال : منها أنّ محمد بن أبى حُذَيفة كَسَر سِجْن مصر فخرج هو وأصحابه ، وهو من آفات هذا الدين . ومنها أنّ قيصر زَحَف بجماعة الرّوم ليغلبَ على الشام . ومنها أن عليا نزل الكوفة ، وتهيّأ للمسير إلينا .

فقال عمرو : ليس كلّ ماذكرتَ عظيما ؛ أما ابنُ أبى حُذيفة ، فما يتعاظمُك من رجل خرج فى أشباهه أن تبعثَ إليه رجلا يقتله أو يأتيك به ، وإنْ قاتل لم يضرّك[1] ! وأما قيصر فأهدِ له الوصائفَ وآنية الذهب والفضة ، وسلْه الموادعة فإنّه إليها سريع . وأمّا علىّ فلا والله يامعاوية مايسوّى العرب[2] بينك وبينه فى شىء من الأشياء ، وإنّ له فى الحرب لحظًّا ماهو لأحد من قريش ؛ وإنه لصاحبُ ماهو فيه إلا أن تظلمه . هكذا فى رواية نصر بن مزاحم عن محمد بن عبيد الله[3] .

* * *

وروى نصر[4] أيضاً عن عمر بن سعد قال : قال معاوية لعمرو : ياأبا عبدالله ، إنى أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصى الله وشقّ عصا المسلمين ، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة ، وفرّق

(١) فى وقعة صفين : « وإن فاتك لايضرك » وفى الإمامة والسياسة : « وإن يقتل فلا يضرك » .
(٢) كذا فى ا ، وصفين ، وفى ب : « ما يسوى العربى » .
(٣) وقعة صفين ٣٩ — ٤٠ ، وفى ب : « عبد الله » ، وصوابه من ا .
(٤) وقعة صفين ٤٢ — ٥٢ .

الجماعة وقطَع الرّحِم ، فقال عمرو : مَنْ هو ؟ قال : علىّ ، قال : والله يامعاوية ماأنت وعلىّ بحملىْ [1] بعير ؛ليس لك [2] هِجْرَتُه ولاسابقته ، ولاصحبته ولاجهاده ، ولافقهه ولاعلمه . [3] ووالله إنّ له مع ذلك لَحظًّا فى الحرب ليس لأحد غيره ، ولـكنّى قد تعوّدت من الله تعالى إحسانا وبلاء جميلا [3] ؛ فما تجعل لى إنْ شايعتُك على حربه ، وأنت تعلم مافيه من الغَرر والخطر ؟ قال :حُـكْمَك ، فقال : مصر طُعْمة ، فتلكأ عليه معاوية .

قال نصر : وفى حديث غير عمر بن سعد : فقال له معاوية : ياأباعبدِ الله ، إنى أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنّك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا ، قال عمرو : دَعْنى عنك ، فقال معاوية : إنى لو شئت أنْ أمنّيَك وأخدعَك لفعلت ، قال عمرو :لا،لَعَمْرُ الله مامثلى يُخْدع، لَأَنا [4] أكْيَسُ من ذلك ؛ قال معاوية : ادْنُ منىَ أسارّك ، فدنا منه عمرو ليسارّه ، فعضّ معاوية أذنه ، وقال : هـذه خدعة ! هل ترى فى البيت أحدا ؟ ليس غيرى وغيرك .

* * *

قلت : قال شيخنا أبو القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى : قول عمرو له : « دعْنى عنك » كناية عن الإلحاد ، بل تصريح به ، أى دَعْ هذا الـكلام ؛ لا أصل له ، فإنّ اعتقاد الآخرة ، وأنّها لاتباع بعرَض الدنيا من الخرافات .

وقال رحمه الله تعالى : وما زال عمرو بن العاص مُلْحِداً ، ماتردّد قطُّ فى الإلحاد والزندقة ، وكان معاوية مثله ، ويكفى من تلاعبهمابالإسلام حديث السِّرار المروىّ ، وأن معاوية عضّ أذن عمرو ؛ أين هذا من سيرة عمر ؟ وأين هذا من أخلاق علىّ عليه السلام وشدته فى ذات الله ، وهما مع ذلك يعيبانه بالدّعابة !

(١) فى كتاب صفين : « بعكمى بعير » ، والعكمان : عدلان يشدان على جانبى الهودج .
(٢) فى صفين : « مالك هجرته » .
(٣ – ٣) وقعة صفين : « والله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظاوحظوة ، وبلاء من الله حسنا» .
(٤) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « لأنى » .

قال نصر : فأنشأ عمرو يقول :

مُعَاوِىَ لَاأُعْطِيكَ دِينِى وَلم أنَلْ ... بِهِ مِنْكَ دُنْيَا فانْظُرنْ كَيْفَ تَصْنَعُ
[فَإِنْ تُعْطِنِى مِصْراً فأرْبِحْ بصفْقَةٍ ... أخذتَ بهـا شيخاً يَضُرُّ وَيَنْفَعُ][1]
وَما الدِّينُ والدنيـا سواء وإنّنى ... لآخـذ ماتعطى وَرَأْسِى مُقَنَّعُ
وَلَـكِنَّنِى أُغضِى الْجفُون وَإِنَّنِى ... لَأَخدعُ نفسى ، والمخـادِعُ يُخْدَعُ
وَأُعْطِيكَ أمْراً فِيـهِ لِلْمُلْكِ قُوّةٌ ... وَأُلْفَى بهِ إن زلّتِ النعـل أُصْرَعُ[2]
وتمنعُنِى مِصْراً وليست بِرَغْبَـةٍ ... وإنى بِذَا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ

* * *

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : كانت مصر فى نفس عمرو بن العاص ، لأنه هو الذى فَتحهـا فى سنة تسعَ عشرةَ من الهجرة فى خلافة عمر ، فـكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره ، وماقد عرفه من أموالها وسعة الدنيا ، لا يستعظم أن يجعلها ثمنا من دينه ، وهذا معنى قوله :

* وإنّى بذا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ *

* * *

قال نصر : فقال له معاوية : ياأبا عبد الله ، أماتعلم أن مصر مثل العراق ! قال: بلى ، ولـكنها إنما تـكون لى إذا كانت لك ، وإنما تـكون لك إذا غلبت عليًّا على العراق .

قال : وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى علىّ عليه السلام .

فلما حضر عُتْبة بن أبى سفيـان قال لمعـاوية : أما ترضَى أن تشترىَ عَمْراً بمصر

(١) هذا البيت زيادة من كتاب صفين ، ولم يرد فى الأصول .
(٢) فى كتاب صفين :

* وإنّى به إن زَلّتِ النَّعْلُ أَصْرَعُ *

إن هي صفت لك ! ليتك لا أُغلَب على الشام . فقال معاوية : ياعتْبة ، بِتْ عندنا الليلة، فلما جنّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية ، وقال :

أيّها المانِعُ سَيْفاً لم يُهَزّ ... إنّما مِلْتَ عَلَى خَزّ وَقَزْ

إنما أنت خروف ماثلٌ ... بين ضَرْعَيْنِ وَصُوفٍ لم يُجَزْ

أعطِ عَمْراً إن عَمْراً تَارِكٌ ... دينَه اليوم لدنيـــا لم تُحَزْ

يالك الخيرُ نخذْ مِنْ دَرّهِ ... شَخْبَهُ الأوّلَ وابْعِدْ ماغَرَزْ

واسْحَبِ الذّيلَ وبادِرْ فُوقَهَا(١) ... وانتهزْها إنّ عمرا يَنْتَهِزْ

أَعطــه مِصْراً وزده مثلَها ... إنما مصر لمن عزّ فبزّ

وَاتْرُكِ الحِرْصَ عَلَيْهَا ضَلَّةً ... وَاشْبُبِ النَّارَ لمقرورٍ يَكِزْ(٢)

إنّ مصرا لعليّ أوْ لَنَا ... يُغْلَبُ اليوم عليها مَنْ عَجَزْ

قال : فلما سمع معاويةُ قولَ عتبة ، أرسل إلى عمرو، فأعطاه مصر ، فقال عمرو: لِىَ الله عليك بذلك شاهد؟ قال : نعم ، لك اللهُ عليّ بذلك إن فتح اللهُ علينا الكوفة ، فقال عمرو: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ . ﴾(٣).

فخرج عمرو من عنده ، فقال له ابناه : ماصنعتَ ؟ قال : أعطانا مصر طعمة ، قالا: ومامصر فى مُلْك العرب ! قال : لاأشبع الله بطونكما إن لم تُشبعكما [مصر](٤).

قال : (٥وكتب معاوية له بمصر كتابه ، وكتب٥) : « على ألّا ينقُضَ شرطٌ طاعةً »، فكتب عمرو : « على ألّا تنقض طاعةٌ شرطا » . فكايد كلٌّ واحد منهما صاحبه .

* * *

قلت : قد ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتابه '' الكامل''

---

(١) الفوق هنا : الطريق الأول .

(٢) الكزاز : داء يأخذ من شدة البرد ، وتعترى منه رعدة .

(٣) سورة القصص ٢٨ .

(٤) من كتاب وقعة صفين .

(٥ ــ ٥) فى كتاب وقعة صفين : « فأعطاه إياه ، وكتب له كتابا ، وكتب معاوية » .

ولم يفسره[1] ، وتفسيره أنّ معاوية قال للكاتب: «اكتب على ألّا ينقضَ شرط طاعةً »، يريد أخْذَ إقرار عمرو له أنه قد بايعه على الطاعة بيعة مطلقة غير مشروطة بشىء ، وهذه مكايدة له ؛ لأنه لو كتب ذلك لكان لمعاوية أن يرجع فى إعطائه مصر ، ولم يكن لعمرو أن يرجع عن طاعته ، ويحتجّ عليه برجوعه عن إعطائه مصر ، لأنّ مقتضى المشارطة المذكورة ، أنّ طاعة معاوية واجبة عليه مطلقا ، سواء أكانت مصر مسلّمة إليه أم لا .

فلما انتبه عمرو إلى هذه المكيدة منع الكاتب من أن يكتب ذلك ،وقال: بل اكتب : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطا» ، يريد أخذَ إقرار معاوية له بأنّه إذا كان أطاعه لا تنقض طاعته إياه ماشارطه عليه من تسليم مصر إليه .وهذا أيضامكايدة من عمرو لمعاوية ،ومنْع له من أن يغدر بما أعطاه من مصر .

قال نصر : وكان لعمرو بن العاص عمّ من بنى سَهْم ، أريبٌ[2] ، فلما جاء عمرو بالكتاب مسرورا عَجِب الفتى ، وقال : ألا تخبرنى يا عمرو ، بأىّ رأى تعيش فى قريش ! أعطيتَ دِينَك وتمنّيت دنيا غيرك ! أترى أهلَ مصر — وهم قتلة عثمان — يدفعونها إلى معاوية وعلىّ حىّ ! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرْف الذى قدّمه فى الكتاب ؟ فقال عمرو : يابن أخى ، إن الأمر لله دون علىّ ومعاوية ، فقال الفتى :

ألا ياهندُ أختَ بنى زيادِ ... رُمِى عمرو بداهية البلادِ[3]
رُمِى عمرو بأعْوَرَ عبشمىّ ... بعيد القَعْر مخشىّ الكِيَادِ[4]
لَهُ خُدَعٌ يَحار العقْل مِنْها ... مزخرفةٌ صوائدُ للفُؤادِ
فشرّطَ فى الكِتَابِ عَلَيْهِ حَرْفًا ... يناديه بِخُدْعَتِه المنادِى

(١) الكامل ٣ : ٢١٠ — بشرح المرصفى .
(٢) فى كتاب صفين : « وكان مع عمرو ابن عمٍ له ، فتى شاب ، وكان داهية حليما» ، وفى كتاب الإمامة والسياسة ١٦٠ « وكان مع عمرو بن العاص ابن أخ له جاءه من مصر » . وهو ما يناسب ما يجىء بعد .
(٣) كتاب صفين : « دهى عمرو » .
(٤) يريد أنه يخشى كيده .

وأثبتَ مثلَه عمرو عليـــهِ   كِلاَ المرأين حَيّةُ بطنِ وادِ
ألا يا عَمْرُو ما أحرزْتَ مِصْراً   ولا ملتَ الغَـــداة إلى الرّشادِ
أبِعْتَ الدّين بالدنيا خَسَاراً   فأنت بذاك من شَرّ العِبادِ
فلو كنتَ الغداةَ أخذْتَ مصرا   ولـكن دونها خَرْطُ القتادِ
وفَدتَ إلى معاوية بن حرب   فـكنتَ بها كوافدِ قَوْمِ عادِ
وأعطيتَ الذى أعطيت منها   بِطِرْسٍ فيـه نَضْحٌ من مدادِ
ألم تعرف أبا حسنٍ عليًّا   وما نالت يداه من الأعادى
عدلتَ به معاوية بنَ حرب   فيا بُعْدَ البياضِ من السَّوادِ !
ويا بُعْدَ الأصابع من سُهَيْلٍ   ويا بُعْدَ الصـــلاح من الفسادِ !
أتأمن أن تدَال على خِدَبّ   يحثُّ الخيـل بالأسَل الحِدادِ(١)
ينادى بالنِّزَال وأنت منه   قَريبٌ فانظرَنْ مَنْ ذا تعادى

فقال عمرو: يابن أخى ، لو كنتُ عندعليّ لوسعنى ، ولـكنى الآن عندمعاوية(٢). قال الفتى : إنك لو لم تُرِدْ معاوية لم يرِدْك ؛ ولـكنّك تريد دنياه ، وهو يريد دينَك . وبلغ معاويةَ قولُ الفتى فطلبه ، فهرب فلحق بعلىّ عليه السلام ، فحدّثه أمره فسُرّ به وقرّبه .

قال : وغضب مروان وقال: مابالى لاأُشترَى [كما اشترِىَ عمرو](٣) ! فقال معاوية: إنما يُشترى الرجال لك . فلما بلغ عليا عليه السلام ما صنع معاوية قال :

يا عجبا لقد سمعت مُنْكرا   كِذْباً على الله يُشِيبُ الشَّعَرا
يسترِقُ السَّمعَ ويُعْشِى البصرا   ما كان يَرضى أحمدٌ لو أخبِرا(٤)

---

(١) الخدب : الضخم . وفى صفين : « أن تراه » .
(٢) كذا فى ج وكتاب صفين، وفى ا ، ب : « ولـكنى الآن عنده » .
(٣) تـكملة من كتاب صفين .
(٤) صفين : « لو خبرا » .

أن يقرنوا وصيّه والأبترا شاني الرسول واللعينَ الأخزرا (١)
كلاهما في جنده قد عسكرا قد باع هذا دينه فأفجرا
من ذا بدنيا بيعه قد خسرا بملك مصر أن أصاب الظفرا !
إني إذا الموت دنا وحضرا شمّرتُ ثوبي ودعوت قنبرا (٢)
قدّم لوائي لا تؤخر حذرا لا يدفع الحذارُ ماقد قُدّرا
لمّا رأيتُ الموتَ موتاً أحمرا عبّأتُ همدان وعبّوا حميرا
حيٌّ يمانٍ يعظمون الخطرا قرنٌ إذا ناطح قرناً كسرا (٣)
قل لابن حرب لا تدبّ الخمرا أرود قليلاً أبدِ منك الضجرا (٤)
لا تحسبنّي يابن هند غمرا (٥) وسلْ بنا بدراً معاً وخيبرا
يومَ جعلناكم ببدرٍ جزرا (٦) لو أنّ عندي يابنَ هند جعفرا
أو حمزة القرمَ الهمام الأزهرا رأت قريش نجم ليلٍ ظهرا

قال نصر: فلما كتب الكتاب (٧)، قال معاوية لعمرو: ماترى الآن ؟ قال: أمضِ الرأيَ الأول. فبعث مالك بن هبيرة الكندىّ فى طلب محمد بن أبى حُذيفة، فأدركه فقتله، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه، ثم قال: ماترى فى علىّ ؟ قال: [أرى فيه

(١) الأخزر: الذى ينظر بمؤخر عينه.
(٢) قنبر: مولى على. (٣) يرى الأستاذ جاسم أنها: « قرن ». بالفتح على المجاز.
(٤) الخمر: ما واراك من الشجر والجبال ونحوها؛ والدبيب: المشى على هينة؛ يقال للرجل إذا ختل صاحبه: هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر. والإرواد: الإمهال.
(٥) الغمر: من لم يجرب الأمور.
(٦) الجزر: اللحم الذى تأكله السباع، وفى كتاب صفين.

* كانت قريشٌ يومَ بدرٍ جزرا *

وبعده:

* إذ وردوا الأمرَ فذمّوا الصّدرا *

(٧) فى كتاب صفين: « لمابات عمرو عند معاوية وأصبح أعطاه مصر طعمة له، وكتب له بها كتابا ».

خيرا] [1]، إنه قد أتاك فى طلب البَيْعة خيرُ أهل العراق،ومن عند خير الناس فى أنفس الناس ؛ ودعواك أهلَ الشام إلى رد هـذه البيعة خطر شديد ، ورأس أهل الشـام شُرَحْبِيل بن السِّمط الكِندىّ ، وهو عدوّ لجرير المرسَل إليك ، فابعث إليه ووطّن له ثقاتِك ، فَلْيُفْشُوا فى الناس أنّ عليا قتل عثمان ، وليكونوا أهل رضا عند شُرَحْبِيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحبّ ، وإن تعلقَتْ بقلب شُرَحبيل لم تخرج منـه بشىء أبدا .

فكتب إلى شُرَحبيل : إنّ جرير بن عبد الله قَدِم علينا من عند علىّ بن أبى طالب بأمر مفظِع ، فاقْدَم .

ودعا معاوية يزيدَ بن أسد ، وبُسر بن أرطاة ،وعمرو بن سفيان،ومخارق بن الحارث الزّبيدىّ،وحمزة بن مالك،وحابس بن سعد الطائى ـ وهؤلاء رءوس قحطان واليمن،وكانوا ثقاتِ معاويةَ وخاصته وبنى عمّ شُرَحْبيل بن السِّمط ـ فأمرهم أن يلقوْه ويُخبروه أنّ عليا قتل عثمان.فلما قدم كتابُ معاوية على شُرَحْبيل وهو بحِمْص،استشار أهلَ اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبدالرحمن بن غَنْم الأزدىّ ـ وهو صاحبُ معاذ بن جبل وخَتَنُه،وكان أفقهَ أهل الشام ـ فقال : ياشُرَحْبيل بن السِّمط ، إنّ الله لم يَزَلْ يزيدُك خيراً منذ هاجرت إلى اليوم، وإنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس ؛ وإنّ الله لا يغيِّر مابقوم حتى يُغَيِّروا مابأنفسهم.إنه قد أُلقِىَ إلى معاوية أنّ عليا قتل عثمان [2]،ولهذا يريدك،فإن كان قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار ، وهم الحكّام على الناس ، وإن لم يكن قتله،فعلامَ تصدّق معاوية عليه ! لا تُهلِكَنّ نفسك وقومك ؛ فإن كرهت أن يذهب بحظّها جرير،فسِرْ إلى علىّ ، فبايعه عن [3] شامك وقومك.فأبى شُرَحْبيل إلا أن يسير إلى معاوية ، فكتب إليه عياض الثّمالى ـ وكان ناسكا :

---

(١) من كتاب صفين .

(٢) فى كتاب صفين : « إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتل عثمان » .

(٣) صفين : « على شامك وقومك » .

يا شرحُ يابن السِّمط إنك بالغٌ ... بودِّ علىٍّ ما تريدُ من الأمْرِ [(١)]
وَ يا شُرَحُ إن الشام شامُك مابها ... سواكَ فَدَعْ عنك المضلِّلَ من فِهْرِ [(٢)]
فإنّ ابنَ هند ناصبٌ لك خُدْعَةً ... تكونُ علينا مثل راغيةِ البَكْرِ [(٣)]
فإن نال ما يرجُو بنا كان مُلْكنا ... هنيئاً له ، والحربُ قاصمة الظهرِ
فلا تبْغِيَنْ حرْبَ العراق فإنّها ... تحرِّمُ أطهارَ النِّساء من الذُّعْرِ
وإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِئَ الثرى ... من الهاشميين المداريك للوِتْرِ [(٤)]
له فى رِقابِ النّاسِ عهدٌ وذِمّــةٌ ... كعهدِ أبى حفصٍ وعهد أبى بكرِ
فبايع ولا ترجع على العَقْبِ كافراً ... أعيذك بالله العزيز من الـكفر !
ولا تسمَعَنْ قولَ الطّغاة فإنهمْ ... يريدون أن يُلقوك فى لُجّة البَحْرِ
وَماذَا عَلَيْهِمْ أن تُطاعِنَ دونهمْ ... عليًّا بأطْرافِ المثقَّفَةِ السُّمْرِ
فإن غَلَبُوا كانوا علينــا أئمّةً ... وكنا بحمْدِ الله مِنْ وَلَدِ الطُّهْرِ
وإنْ غُلِبُوا لَمْ يَصْلَ بالخطْبِ غَيْرُنا ... وكان علىٌّ حَرْبَنَا آخِرَ الدّهْرِ
يهونُ عَلَى عُلْيَا لؤىٍّ بن غالب ... دماء بنى قحطان فى ملـكهم تَجْرِى
فدعْ عنك عثمان بن عفان إنّما ـ ... لكَ الخيرـ لا تدرى بأنك لا تدرى
على أىّ حال كان مصرعُ جنبه ... فلا تَسْمَعَنْ قولَ الأُعَيْوِرِ أو عمرو

قال : فلما قدِم شُرَحبيل على معاوية ، أمر الناس أن يتلقّوْه ويعظِّموه ، فلما

---

(١) شرح : مرخم شرحبيل .
(٢) صفين : « فدع عنك المضلل » .
(٣) راغية البـكر ، يريد رغاء البـكر ، فوضع راغية موضع المصدر ؛ يشير إلى ما كان من رغاء بكر ثمود ، رغا بهم فأهلـكوا ، فضربته العرب مثـلا فى الشؤم ، وأكثرت فيه . انظر الـكامل للمبرد ١ : ٢٢ ـ بشرح المرصفى .
(٤) الوتر : الثأر والذحل .

دخل على معاوية ، تكلّم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا شُرَحبيل ، إن جريرَ ابن عبد الله قدِم علينا يدعونا إلى بَيْعة علىّ ، وعلىّ خير الناس ؛ لولا أنه قتل عثمان بن عفان ؛ وقد حبسْتُ نفسى عليك ، وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضُوا وأكره ما كرهوا .

فقال شُرَحبيل : أخرجُ فأنظر . فلقيه هؤلاء النفر الموطّئون له ، فكلّهم أخبره[1] أنّ عليا قتل عثمان ، فرجع مغضبا إلى معاوية فقال : يا معاوية ، أبى الناس إلا أنّ عليا قتل عثمان ، والله إن بايعتَ له لنخرجنّك من شامِنا أو لنقتلنّك . فقال معاوية : ما كنتُ لأخالِف عليكم ، ما أنا إلا رجل من أهل الشام . قال : فرُدّ هذا الرجل إلى صاحبه إذن . فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته فى حرب أهل العراق ، وأن الشام كله مع شرحبيل ، وكتب إلى علىّ عليه السلام ما سنُورده فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) كتاب صفين : « يخبره » .

(٢٧)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ ، فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى ، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ ، وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ ، وَشَمِلَهُ ٱلْبَلَاءُ ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءَةِ ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ ، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلْجِهَادِ ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ .

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ : اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ ؛ فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ ؛ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَوْطَانُ .

(١) فهٰذَا أَخُو غَامِدٍ ، قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلْأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ وَٱلْأُخْرَى ٱلْمُعَاهِدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا ، وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا ، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ . ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا !

فَيَا عَجَبًا عَجَبًا ! وَاللهِ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ ، وَيَجْلِبُ ٱلْهَمَّ ، مِنَ ٱجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ! فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًا ، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى ، يُغَارُ

(١) ج مخطوطة النهج : « هذا » .

عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ ، وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ !

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ : هٰذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هٰذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ ؛ كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ ؛ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ !

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ؛ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً — وَاللهِ — جَرَّتْ نَدَمًا وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا . قَاتَلَكُمُ اللهُ ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا ، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ ؛ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . لِلّٰهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مُقَاماً مِنِّي ! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ ؛ وَهَا أَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ ! وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ !

* * *

الشرح :

هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام ؛ قد ذكرها كثير من الناس ، ورواها أبو العباس المبرّد فى أول " الكامل " ، (١) وأسقط من هذه الرواية ألفاظا وزاد فيها ألفاظا ، وقال فى أولها :

« إنه انتهى إلى علىّ عليه السلام أنّ خيلاً وردت الأنبار لمعاوية ، فقتلوا عاملا له

(١) الكامل ١ : ٢٠ ، ٢١ ؛ يرويها عن عبيد الله بن حفص التيمى المعروف بابن عائشة .

يقال له : حسّان بن حسان ، فخرج مغضبا يجُرّ رداءه[1] ، حتى أتى النُّخَيلة[2] ، واتّبعه الناسُ ، فرقِيَ رُباوَة[3] من الأرض ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما بعد فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله الذلّ وسيما الخسْفِ » .

وقال فى شرح ذلك : قوله : « وسيما الخسفِ » ، هكذا حدّثونا به ، وأظنّه « سِيمَ الخسفَ » ، من قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَـكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[4] . وقال :[5] فإن نَصرنا ما سمعناه ، « فسيما الخسف »[5] ، تأويله علامة الخسف ، قال الله تعـالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ ﴾[6] ، وقال : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾[7] ، وسيما مقصور ؛ وفى معناه « سيمياء » ممدود ، قال الشاعر[8] :

غُـــلَامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يافعا   لَهُ سِيمِيَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرْ

ونحن نقول : إنّ السماع الذى حكاه أبو العباس غير مرضىّ ، والصحيح ما تضمّنه " نهج البلاغـة " وهو « سِيمَ الخسفَ » فعل ما لم يسمّ فاعله ، و « والخسفَ » منصوب ؛ لأنه مفعول ، وتأويله : أُولِيَ الخسفَ وكُلِّف إياه ، والخسف : الذلّ والمشقة .

وأيضا فإن فى " نهج البلاغة " لا يمكن أنْ يكون إلا كما اخترناه ؛ لأنه بين أفعال متعددة بُنيت للمفعول به ، وهى : « دُيِّثَ » و « ضُرِبَ » و « أُديل » و « مُنِـع » ،

---

(١) فى الـكامل : « ثوبه » .
(٢) النخيلة : اسم موضع خارج الـكوفة .
(٣) الرباوة : اسم لـكل ما ارتفع من الأرض ، كالرباة والربوة والرابية .
(٤) سورة البقرة ٤٩ .
(٥) كذا فى الأصول ، وعبارة الـكامل فيما لدينا من نسخه : « ومعنى قوله : « سيما الخسف » ، تأويله علامة ، هذا أصل هذا » .
(٦) سورة الفتح ٢٩ .
(٧) سورة الرحمن ٤١ .
(٨) فى زيادات الـكامل : « هو ابن عنقاء الفزارى فى عميلة الفزارى » ؛ وذكر بعده :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِى جَبِينِهِ   وَفِى أَنْفِهِ الشِّعْرَى وَفِى جِيدِهِ الْقَمَرْ

ولا يمكن أن يكون ما بين هـذه الأفعال معطوفا عليها إلا مثلُها ، ولا يجوز أن يكون اسما .

وأما قوله عليه السلام : « وهو لباس التقوى » ، فهو لفظة مأخوذة من الكتاب العزيز ، قال الله سبحانه : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ [١] .

والجُنّة : ما يُجْتَنّ به ، أى يستتر ، كالدّرع والحَجَفة [٢] .

وتركه رغبة عنه ، أى زهداً فيه ، رغبت عن كذا ، ضدّ رغبت فى كذا .

ودُيِّث بالصغار ، أى ذُلّل ، بعير مُدَيّث ، أى مُذَلّل ؛ ومنه الدَّيُّوث : الذى لا غيْرة له ، كأنّه قد ذُلّل حتى صار كذلك .

والصَّغَار : الذل والضيم .

والقَماء ؛ بالمد : مصدر قَمُؤ الرجل قَماء وقَماءة ، أى صار قميئاً ، وهو الصغير الذليل ، فأمّا قَمَأ ، بفتح الميم فمعناه سَمَن ، ومصدره القُمُوء والقموءة .

وروى الراوندىّ : « وديِّث بالصغار والقما » ، بالقصر ، وهو غير معروف .

وقوله عليه السلام : « وضُرِب على قلبه بالإسهاب » ، فالإسهاب هاهنا هو ذهاب العقل ؛ ويمكن أن يكون من الإسهاب الذى هو كثرة الكلام ؛ كأنه عوقب بأن يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته .

قوله : « وأديل الحق منه بتضييع الجهاد » ، قد يظنّ ظان [٣] أنه يريد عليه السلام : وأُدِيلَ الحق منه بأن أُضيعَ جهادُه ؛ كالباءات المتقدمة ، وهى قوله : « ودُيّث بالصغار » ، و « ضُرِب على قلبه بالإسهاب » . وليس كما ظنّ ، بل المراد : وأُدِيل الحقّ منه

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ . (٢) الحجفة : ضرب من الترسة ، وقيل : هى من الجلود خاصة .

(٣) ب ، ج : « فلان » ، وما أثبته عن ا .

لأجل تضييعه الجهاد ، فالباء هاهنا للسببية ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾[١].

والنّصَف : الإنصاف وعُقْر دارهم ، بالضم : أصل دارهم ، والعُقْر : الأصل ، ومنه العَقَار للنخل ، كأنه أصل المال . وتواكلتم ، من وكلت الأمرَ إليك ووكلتَه إليّ ، أى لم يتولّه أحد منّا ، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر ، ومنه رجل وَكِل ، أى عاجز يكلُ أمرَه إلى غيره ، وكذلك وُكَلَة .

وتخاذلتم ، من الخِذْلان .

وَشُنّت عليكم الغارات : فُرِّقت ، وما كان من ذلك متفرّقا نحو إرسال الماء على الوَجْه دَفْعة بعد دفعة ، فهو بالشين المعجمة ، وما كان أرسالا غيرَ متفرِّق ، فهو بالسين المهملة ؛ ويجوز شَنّ الغارة وأشنّها .

والمسالح: جمع مَسْلحة ، وهى كالثغر والمرقَب ، وفى الحديث: « كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العُذَيب »[٢]. والمعاهِدة : ذات العَهْد ، وهى الذمّيّة . والحِجْل : الخلخال ، ومن هذا قيل للفرس محجّل ، وسمِّى القيد حِجْلا ، لأنّه يكون مكان الخلخال . ورُعُثها: شُنُوفها ، جمع رِعاث بكسر الراء ، ورِعاث : جمع رَعْثة ، فالأول مثلُ خِمار وخُمُر ، والثانى مثل جَفْنة وجِفَان . والقُلُب : جمعُ قُلْب ، وهو السوار المصمَت . والاسترجاع ، قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[٣]. والاسترحام : أن تناشدَه الرحم . وانصرفوا وافرين ، أى تامّين ، وَفَر الشىء نفسُه أى تَمّ فهو وافر ، ووَفرْتُ الشىء ، متعدّ ، أى أتممته .

وفى رواية المبرّد « موفورين » ، قال : من الوفْر ، أى لم ينَلْ أحدمنهم بأن يُرْزَأ[٤] فى بدن أو مال .

---

(١) سورة الأنعام ١٤٦ .

(٢) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٣) سورة البقرة ١٥٦ .

(٤) لم يرزأ ؛ من الرزء وهو المصيبة .

وفى رواية المبرد أيضا : « فتوا كَلْمِم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهريا » ، قال : أى رميتمُ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه ، يقال فى المثل : لا تجعَلْ حاجتى منك بظَهْر ، أى لا تطرحها غيرَ ناظر إليها ، قال الفرزدق :

تَمِيمُ بنَ مُرٍّ لا تَكونَنَّ حاجَتِي بِظَهْرٍ ولا يَعْيَا عَلَيْكَ جَوَابُهَا[1]

والـكَلْم : الجراح. وفى رواية المبرد أيضا: « مات من دون هذا أسفا » ، والأسف : التحسر . وفى رواية المبرد أيضاً : « من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم » ، أى من تعاونهم وتظاهرهم . وفى رواية المبرد أيضا : « وَفَشَلِكم عن حقكم » ، الفشل : الجبن والنُّكولُ عن الشىء . فقبحا لـكم وتَرْحا ، دعاء بأن ينحّيَهم الله عن الخير ، وأن يخزيهم ويسوءهم. والغَرَض: الهدف. وحَمَارّة القيظ ، بتشديد الراء :شدّةُ حرّه . وَيُسَبِّخْ عَنَّا الحرّ ، أى يخفّ ، وفى الحديث أنّ عائشة أكثرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئا ، فقال لها النبى صلى الله عليه وآله : « لا تُسَبِّخى عنه بدعائك » .

وصبارّة الشتاء ، بتشديد الراء : شدّة برده ، ولم يرو المبرّد هذه اللفظة ، وروى: «إذا قلتُ لـكم اغزُوهم فى الشتاء قلتم هذا أوان قرّ وصِرّ ، وإن قلتُ لـكم اغزُوهم فى الصيف قلتم هـذه حَمَارّة القيظ أنظِرْنا ينصرمْ عَنّا الحر » . الصِّر : شدّة البرد قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾[2] .

ولم يروِ المبرّد : « حُلوم الأطفال » ، وروى عِوَضها : « ياطَغَام الأحلام » ، وقال : الطّغام : من لا معرفة عنده ، ومنه قولهم : « طغام أهل الشام » .

وربّات الحِجال: النساء، [والحِجال] جمع حَجَلة ، وهى بيت يزيّن بالستور والثياب والأسرّة

---

(١) اللسان ٦ : ١٩٥ وروايته : « تميم بن قيس » ، ورواية الديوان ٩٥ :

تَمِيم بنَ زَيْدٍ لَا تَهُونَنَّ حَاجَتِي لَدَيْكَ ، وَلَا يَعْيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

وبهذه الرواية لاشاهد فيه لهذا الموضع .

(٢) سورة آل عمران ١١٧ .

والسَّدَم : الحزن والغيظ . والقَيْح ما يكون في القَرْحة من صديدها .

وشحنتم : ملأتم .

والنُّغَب : جمع نَغْبة وهى الجَرْعة . والتَّهمام ، بفتح التاء : الهمّ ، وكذلك كلّ « تَفْعال » ، كالترداد ، والتَّكرار ، والتَّجوال ، إلا التِّبيان والتِّلقاء ، فإنهما بالكسر .

وأنفاساً ، أى جَرْعة بعد جَرْعة ، يقال : اكرع فى الإناء نَفَسين أو ثلاثة .

وذَرّفت على الستين ، أى زدت . ورواها المبرد : « نَيّفت » .

وروى المبرّد فى آخرها: فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال : يا أمير المؤمنين، إنى وأخى هذا ، كما قال الله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾ [1]، فمرنا بأمرك ، فوالله لننتهينّ إليه ولو حال بيننا وبينه جَمْر الغضا وشوك القتاد . فدعا لهما بخير وقال: وأين تقعان مما أريد ! ثم نزل .

* * *

[استطراد بذكر كلام لابن نُباتة فى الجهاد]

واعلم أنّ التحريضَ على الجهاد والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثروا ، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فمن جَيّد ذلك ماقاله ابنُ نُباتة[2] الخطيب :

أيّها الناس ،إلى كم تَسْمعون الذِّكر فلا تَعُون ، وإلى كم تُقْرعون بالزَّجْر فلا تُقْلِعون ! كأنّ أسماعَكم تمجُّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبكم بها استكبارٌ عن الحِفْظ ، وعدوّكم يعمل

(١) سورة المائدة ٢٥ .

(٢) هو أبو يحيي عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقى ؛ كان خطيب حلب ، وبها اجتمع مع أبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ؛ فكثرت خطبه فى الجهاد ليحض الناس على نصر سيف الدولة ، توفى سنه ٣٧٤ . ونباتة ، بضم النون وفتح الباء . ابن خلكان ١ : ٢٨٣ — ٢٨٤ .

فى دِيارِكم عَمَلَه ، ويبلغ بتخاذُلِكم عن جهاده أمله ، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقِّه فخالفتموه ، وهذه البهائمُ تناضلُ عن ذِمارها ، وهذه الطير تموت حَمِيّة دون أوكارها ، بلا كتاب أنزل عليها ، ولا رسولٍ أُرسِل إليها . وأنتم أهلُ العقول والأفهام ، وأهلُ الشرائع والأحكام ، تَنِدّون من عدوِّكم نَدِيد الإبل ، وتدّرِعون له مدارع العجز والفَشَل ، وأنتم والله أوْلى بالغزو إليهم ، وأحرى بالمُغار عليهم ، لأنكم أمناء الله على كتابه ، والمصدِّقون بعقابه وثوابه ، خصَّكم الله بالنجدة والباس ، وجعلكم خيرَ أمّة أخرِجَتْ للناس ؛ فأين حَمِيّة الإيمان ؟ وأين بصيرةُ الإيقان ؟ وأين الإشفاق من لهب النيران ؟ وأين الثقة بضمان الرحمن ؟ فقد قال الله عز وجل فى القرآن : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾[١] ؛ فاشترط عليكم التقوى والصبر ، وضَمِن لكم المعونةَ والنصر ؛ أفتتّهِمُونه فى ضَمانه ! أم تشكُّون فى عدله وإحسانه ! فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نَقِيّة ، ونفوسٍ أبيّة ، وأعمال رضيّة ، ووجوه مُضِيئة ؛ وخذوا بعزائمِ التّشمير ، واكشفوا عن رءوسكم عارَ التقصير ، وهبوا نفوسَكم لمن هو أملَكُ بها منكم ، ولا تركنوا إلى الجزَع فإنه لا يدفع الموت عنكم ، ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾[٢] . فالجهادَ الجهادَ أيها الموقِنُون ، والظفرَ الظفرَ أيها الصابرون ! والجنة الجنة أيّها الراغبون ! والنّارَ النارَ أيها الراهبون ! فإن الجهاد أثبتُ قواعدِ الإيمان ، وأوسعُ أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجِنان ، وإنّ مَنْ ناصح الله لَبيْنَ منزلتيْن مرغوبٍ فيهما ، مجمَع على تفضيلهما : إما السعادة بالظَّفَرِ فى العاجل ، وإما الفوز بالشهادة فى الآجل ؛ وأكرهُ المنزلتين إليكم أعظمُهما نعمة

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٦ .

عليكم ، فانصروا الله فإنّ نَصرَه حِرْزٌ من الهلكات حريز ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[1] ﴾ .

هذا آخر خطبة ابن نُباتة ، فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الإنصاف ، تجدها بالنسبة إليها كخنث بالنّسبة إلى فحل ، أو كسيفٍ من رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد . وانظرُ ما عليها من أثر التّوليد وشَيْن التكلّف وفجاجة كثير من الألفاظِ ؛ ألا ترى إلى فجاجة قوله : « كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ » ! وكذلك ليس يخفى نزول قوله : « تنِدُّون من عدوّكم نديد الإبل ، وتدّرعون له مدارع العجز والفشل » .

وفيها كثير من هذا الجنس ، إذا تأمله الخبير عرفه ، ومع هذا فهى مسروقة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ألا ترى أن قوله عليه السلام : « أما بعد ، فإن الجهادَ باب من أبواب الجنة » ، قد سرقه ابن نُباتة . فقال : « فإنّ الجهاد أثبتُ قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان » ! وقوله عليه السلام : « مِن اجتماع هؤلاء على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم » ، سرقه أيضا ، فقال : « صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، ونَدَبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه » . وقوله عليه السلام « قد دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم . . . » إلى آخره ، سرقه أيضا فقال : « كم تسمعون الذِّكر فلا تعُون ! وتقرَّعون بالزجر فلا تقلِعون » ! وقوله عليه السلام « حتى شُنَّتْ عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان » ، سرقه أيضا وقال : « وعدوّكم يعمل فى دياركم عمله ، ويبلغ بتخلّفكم عن جهاده أمله » . وأما باقى خطبة ابن نُباتة فمسروق من خُطَب لأمير المؤمنين عليه السلام أُخَرَ ، سيأتى ذكرها.

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

واعلم أنى أضرب لك مثلا تتّخذه دستورا فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكلام الكتّاب والخطباء بعده كابن نُباتة والصابى وغيرهما؛ انظر نسبةَ شعر أبى تمام والبحترىّ وأبى نواس ومسلم، إلى شعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى؛ هل إذا تأمّلت أشعار هؤلاء وأشعار هؤلاء، تجد نفسك حاكمةً بتساوى القبيلين أو بتفضيل أبى نواس وأصحابه عليهم؟ ما أظنّ أنّ ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك ، ولا يقوله إلا مَنْ لا يعرف علم البيان ، وماهية الفصاحة ، وكُنهَ البلاغة ، وفضيلة المطبوع على المصنوع ، ومزّية المتقدم على المتأخر ، فإذا أقررتَ من نفسك بالفرْق والفضل ، وعرفت فضلَ الفاضل ونقص الناقص ، فاعلم أنّ نسبة كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هؤلاء هذه النسبة ، بل أظهر ، لأنك تجدُ فى شعر امرئ القيس وأصحابه من التّعجرُف والكلام الُحوشِىّ ، واللفظ الغريب المستكرَه شيئا كثيرا ؛ ولا تجد من ذلك فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئا ، وأكثرُ فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك .

فإن شئت أن تزدادَ استبصارا ، فانظر القرآن العزيز — واعلم أنّ الناسَ قد اتفقوا على أنه فى أعلى طبقات الفصاحة — وتأمّلْه تأملا شافيا ، وانظر إلى ماخُصَّ به من مزية الفصاحة والبعد عن التقعير والتقعيب[1] والكلام الوحشىّ الغريب ، وانظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّك تجدُه مشتقًّا من ألفاظه ، ومقتَضَبا من معانيه ومذاهبه ، ومحذوًّا به حذْوَه ، ومسلوكا به فى منهاجه ، فهو وإن لم يكن نظيرا ولا ندّا ، يصلُح أن يقال إنه ليس بعده كلامٌ أفصح منه ولا أجزل ، ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل ، إلا أن يكونَ كلام ابن عمه عليه السلام ، وهذا أمر لا يعلمه إلا مَنْ ثبتت له قدم راسخة فى عِلم هذه الصناعة ، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر ، بل ولا لانتقاد الذهب ، ولكل صناعة أهل ، ولكل عمل رجال .

* * *

ومن خطب ابن نُباتة التى يحرّض فيها على الجهاد :

(١) التقعير : التعمق فى الكلام والتشدق به ، ومثله التقعيب .

«ألا وإنّ الجهاد كنزٌ وفّر الله منه أقسامكم، وحِرْزٌ طهّر الله به أجسامكم ، وعزٌّ أظهرَ الله به إسلامَكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعا وثُبَاتٍ[1] ، وشُنّوا على أعدائكم الغارات، وتمسكوا بعِصَم الإقدام ومعاقل الثّبات ، وأخلصوا فى جهاد عدوكم حقائق النّيات ، فإنه والله ماغُزِى قوم فى عُقْر دارهم إلا ذَلّوا ، ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلّوا . واعلموا أنّه لا يصلح الجهادُ بغير اجتهاد ، كما لا يصلح السفر بغير زاد ، فقدّموا مجاهدةَ القلوب ، قبل مشاهدةِ الحروب ، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء ، وبادروا بإصلاح السرائر ؛ فإنها من أنفس العدد والذخائر ، واعتاضوا من حياة لا بدّ من فنائها ، بالحياة التى لا ريب فى بقائها ، وكونوا ممن أطاع الله وشمّر فى مرضاته ، وسابِقوا بالجهاد إلى تملك جنّاته ؛ فإن للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحتُه زحف الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات فى معترك القتال ، ومدخله من مشرعةِ الصوارم والنبال » .

فلينظر الناظر فى هذا الكلام ، فإنه وإن كانَ قد أخذَ من صناعة البديع بنصيب ؛ إلا أنّه فى حضيض الأرض وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى أَوْج السماء ، فإنه لا ينكَر لزومُه فيه لما لا يلزمه اقتدارا وقوة وكتابة ، نحو قوله : « كنز » فإنّه بإزاء « حرز » و « عز » ، وقوله : «مشاهدة» بإزاء قوله : « مجاهدة » ، « ومغالبة » بإزاء « محاربة» ، و « حدوده » بإزاء « تشييده » ، لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كدار مبنيّة من اللبِن والطين ، مموّهة الجدران بالنقوش والتصاوير ، مزخرفة بالذهب من فوق الجِصّ والإسفيداج[2] ، بالقياس إلى دار مبنيّة بالصخر الأصمّ الصّلد ، المسبوك بينه عمد الرصاص والنحاس المذاب ، وهى مكشوفة غير مموّهة ولا مزخرفة. فإن بين هاتين الدارين بَوْنًا بعيدا ، وفرقا عظيما . وانظر قوله : «ماغُزِىَ قوم فى عُقْر دارهم إلا ذلّوا» ، كيف تَصِيحُ من بين الخطبة صياحا ، وتنادى على نفسها نداء فصيحا ، وتُعلِم سامعَها أنها ليست من المعدن

(١) ثبات : جماعة بعد جماعة .

(٢) الإسفيداج : رماد الرصاص .

الذى خرج باقى الكلام منه ، ولا من الخاطر الذى صدر ذلك السجع عنه ، ولعمر الله لقد جمّلت الخطبةَ وحسَّنَتْها وزانتها ، وما مثلُها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يُتمثّل بها فى رسالة أو خطبة ، فإنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تُزْهِر وتنير ، وتقوم بنفسها وتكتسى الرسالة بها رونقا ، وتكتسب بها ديباجة .

وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التى تكلّفها ليوازنها بها ، وهى قوله : « ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلّوا » ، فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلّف والغثاثة مايقوّى عندك صدق ماقلتُه لك .

على أنّ فى كلام ابن نُباتة فى هذا الفصل ماليس بجيّد ، وهو قوله : « وحرز طهّر الله به أجسامكم » فإنه لا يقال فى الحرز : إنه يُطهِّر الأجسام ، ولو قال عوض « طهّر » : حصّن الله به أجسامكم ، لكان أليق ، لكنه أراد أن يقول : « طهّر » ليكون بإزاء « وفّر » وبإزاء « أظهر » ، فأدّاه حبُّ التقابلُ إلى ماليس بجيّد .

[غارة سفيان بن عوف الغامدىّ على الأنبار]

فأما أخو غامد الذى وردتْ خيله الأنبار ، فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدىّ ، وغامد قبيلة من اليمن ، وهى من الأزد ؛ أزد شنوءة . واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وسُمِّى غامدا لأنه كان بين قومه شرّ فأصلحه وتغمّدهم بذلك .

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفىّ[(١)] فى كتاب " الغارات " عن أبى الكنود ، قال : حدّثنى سفيان بن عوف الغامدىّ ، قال : دعانى معاوية ، فقال : إنى باعثُك فى جيش كثيف ، ذى أداةٍ وجَلادة ، فالزم لى جانب الفُرات ، حتى تمرّ بهِيت[(٢)]

---

(١) إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد الثقفى ؛ من علماء أصبهان ، ذكره أبو نعيم فى تاريخه وقال : كان غاليا فى الرفض ، مات سنة ٢٨٠ هـ . لسان الميزان ١ : ١٠٢ .

(٢) هيت : بلد على الفرات فوق الأنبار .

فتقطعها ، فإن وجدت بها جندا فأغِرْ عليهم ؛ وإلا فامضِ حتى تغير على الأنبار ، فإن لم تجد بها جندا فامضِ حتى تُوغل فى المدائن ؛ ثم أقبل إلىّ واتق أن تقرُب الكوفة . واعلم أنك إن أغرتَ على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغَرْت على الكوفة ؛ إنّ هذه الغارات ياسُفيان على أهل العراق تُرَعِّبُ قلوبَهم ، وتُفْرِح كلّ مَنْ له فينا هوًى منهم، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر ؛ فاقتل مَنْ لقيتَه ممن ليس هو على مثل رأيك ، وأخرب كلّ مامررتَ به من القرى ، واحرَب الأموال ، فإنّ حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب .

قال : فخرجتُ من عنده فعسكرت ، وقام معاوية فى الناس فخطَبهم ، فقال : أيّها الناسُ ، انتدِبوا[1] مع سفيان بن عوف ، فإنّه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة فيه أوْبتكم إن شاء الله . ثم نزل .

قال : فوالّذى لا إله غيره مامررْتُ ثالثة حتى خرجت فى ستة آلاف ، ثم لزمت شاطئَ الفرات ، فأغذَذْتُ السير حتى أمُرَّ بهيت ، فبلغهم أنّى قد غشيتهم فقطعوا الفرات ، فمررت بها وما بها عَرِيب،[2] كأنّها لم تُحْلَلْ قطّ ، فوطئتُها حتى أمرّ بصندوداء[3]، ففرّوا فلم ألق بها أحدا ، فأمضِى حتى أفتتحَ الأنبار ، وقد نَذِرُوا بى ، فخرجَ صاحب المسْلَحة إلىّ ، فوقف لى فلم أقدم عليه حتى أخذت غلمانا من أهل القرية ، فقلت لهم : أخبرونى، كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام ؟ قالوا : عدّة رجال المسلَحة خمسمائة ، ولكنهم قد تبدّدُوا ورجعوا إلى الكوفة ؛ ولا ندرى الذى يكون فيها ، قد يكون مائتى رجل ؛ فنزلت فكتّبتُ أصحابى كتائب ، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبةً بعد كتيبة فيقاتلهم والله ويصبر لهم ، ويطاردهم ويطاردونه فى الأزقّة ، فلما رأيتُ ذلك أنزلتُ إليهم نحواً من مائتين ،

(١) انتدبوا : خفوا للقتال .

(٢) عريب : أى ما بها أحد .

(٣) صندوداء : قرية كانت فى غربى الفرات فوق الأنبار .

وأتبعتُهم الخيل ، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشى ؛ لم يكن شىء حتى تفرّقوا ، وقُتِل صاحبهم فى نحوٍ من ثلاثين رجلا ، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال ؛ ثم انصرفت ، فوالله ماغزوتُ غزاةً كانت أسلمَ ولا أقرّ للعيون ، ولا أسرّ للنفوس منها . وبلَغنى والله أنها أرعبتِ الناس ، فلما عدت إلى معاوية ؛ حدثته الحديث على وجهه ، فقال : كنتَ عند ظنّى بك ، لاتنزل فى بلد من بُلدانِى إلا قضيتَ فيه مثل مايقضِى فيه أميرُه ، وإن أحببت توليتَه وليّتُك ، وليس لأحد من خلْق الله عليك أمر دونى .

قال : فوالله مالبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجالَ أهلِ العراق يأتوننَا على الإبل هُرّابا من عسكر علىّ عليه السلام .

قال إبراهيم : كان اسم عامل علىّ عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسّان البكرىّ .

* * *

وروى إبراهيم عن عبدالله بن قيس ، عن حبيب بن عفيف ، قال : كنتُ مع أشرس بن حسّان البكرىّ بالأنبار على مسلحتها ، إذ صَبّحنا سُفيان بن عَوْف فى كتائب تلمعُ الأبصارُ منها ، فهالُونا والله ، وعلِمْنا إذْ رأيناهم أنّه ليس لنا طاقة بهم ولا يَد ، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرّقْنا فلم يلقهمْ نصفُنا ، وايمُ الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم ؛ حتى كرهونا ، ثم نزل صاحبنا ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] . ثم قال لنا : مَنْ كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج عن القرية مادمنا نقاتِلهم ، فإنّ قتالَنَا إياهُمْ شاغل لهم عن طلب هارب ، ومن أراد ماعند الله فما عند الله خير للأبرار . ثم نزل فى ثلاثين رجُلاً ، فهممت بالنزول معه ، ثم أبتْ نفسى ، واستقدم هو وأصحابه ، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله ، وانصرفنا نحن منهزمين .

---

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

قال إبراهيم: وقَدِم[١] عِلْجٌ من أهل الأنبار على عليّ عليه السلام ، فأخبره الخبر، فصعِد المنبر فخطب الناس ، وقال :

إنّ أخاكم البكريّ قد أصيب بالأنبار ، وهو معتزّ لا يخاف ما كان ، واختار ما عند الله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم ، فإن أصبتم منهم طرفا أنْكَلْتُموهم عن العراق أبدا ما بقُوا .

ثم سكت عنهم رَجاءَ أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم ، فلم ينبِس أحدٌ منهم بكلمة ، فلما رأى صَمْتَهم نزل ، وخرج يمشى راجلا حتى أتى النُّخَيْلة ، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم ، فقالوا : ارجع ياأميرَ المؤمنين ونحن نكفيك ، فقال : ماتكفونني ولا تَكْفُون أنفسكم ! فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله ، فرجع وهو واجم كئيب ، ودعا سعيد بن قيس الهمْدانيّ ، فبعثه من النُّخَيلة فى ثمانية آلاف ، وذلك أنه أخبر أن القوم جاءوا فى جمع كثيف .

فخرج سعيد بن قيس على شاطىء الفُرات فى طلب سفيان بن عوف ؛ حتى إذا بلغ عانات[٢] ، سرّح أمامه هانئ بن الخطاب الهمْدانيّ ، فاتّبع آثارهم حتى دخل أدانِىَ أرض قِنّسرين وقد فاتوه ، فانصرف .

قال: ولبث عليّ عليه السلام ، تُرى فيه الكآبة والحزن ، حتى قدم عليه سعيد بن قيس ، وكان تلك الأيام عليلا ، فلم يَقْوَ على القيام فى الناس بما يريده من القول ، فجلس بباب السُّدّة التى تصل إلى المسجد ، ومعه ابناه حسن وحسين عليهما السلام ، وعبد الله بن جعفر ، ودعا سعدا مولاه ، فدفع إليه الكتاب ، وأمره أن يقرأه على الناس ، فقام سعد بحيث يستمع عليّ عليه السلام صوتَه ، ويسمع مايردّ الناس عليه ، ثم قرأ هذه الخطبة التى نحن فى شرحها .

***

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .

(٢) عانات : بلد بين الرقة وهيت قريبة من الأنبار .

وذكر أنّ القائم إليه ، العارض نفسه عليه جندب بن عفيف الأزديّ، هو وابن أخ له يقال له : عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف .

قال : ثم أمر الحارث الأعور الهمدانيّ، فنادى في الناس : أين مَنْ يَشْترى نفسه لربه ويبيع دنياه بآخرته ؟ أصبحوا غداً بالرّحبة إن شاء الله، ولا يحضُر إلا صادق النّيّة في السير معنا ، والجهاد لعدوّنا فأصبح وليس بالرّحبة إلا دُون ثلاثمائة ، فلما عرضهم، قال : لو كانوا ألفا كان لى فيهم رأى .

وأتاه قوم يعتذرون ، فقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ [1]، وتخلّف المكذّبون، ومكث أياما بادياً حزنه شديد الكآبة ، ثم جمع الناس فخطبهم فقال : أما بعد ، أيّها الناس، فوالله لأهلُ مصركم في الأمصار أكثرُ من الأنصار في العرب، وما كانوا يوم أعطَوا رسول الله صلى الله عليه أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلّغ رسالات ربّه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما، ماهما بأقدَم العرب ميلادا ، ولا بأكثرهم عددا . فلما آووا النبى صلى الله عليه وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ، رمتْهم العرب عن قوس واحدة ، فتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم القبائل قبيلةً بعد قبيلة، فتجرّدُوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من الحِلْف، ونصبوا لأهل نجد وتِهامة وأهل مكة واليمامة، وأهل الحزْن والسهل، وأقاموا قَناة الدين، وصبروا تحت حَماس الجلاد، حتى دانت العرب لرسول الله صلى الله عليه، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عزّ وجل إليه، وأنتم اليوم فى الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان في العرب .

فقام إليه رجُل آدمُ طُوال ، فقال : ما أنت بمحمد ، ولا نحن بأولئك الذين

---

(١) سورة التوبة ٩٠ .

ذكرتَ ، فقال عليه السلام: أحسِن سَمْعاً تُحسِنْ إجابة! ثكلتْكم الثَّواكل! ماتزيدونني إلا غَمًّا! هل أخبرتُكم أنّى محمد، وأنكم الأنصار! إنما ضربت لكم مثلا، وإنما أرجو أن تتأَسَّوْا بهم.

ثم قام رجل آخر، فقال: ما أحوجَ أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النَّهْرَوان.
ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته: استبان فَقْدُ الأشتر على أهل العراق! أشهد لو كان حَيًّا لقلّ اللَّغَط، ولعلم كلّ امرئٍ مايقول.

فقال علىّ عليه السلام: هبِلتكم الهوابل! أنا أوْجَبُ عليكم حقا من الأشتر؛ وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم!

فقام حُجْر بن عدىّ الكندىّ وسعيد بن قيس الهَمْدَانىّ، فقالا: لا يسوءك الله ياأمير المؤمنين، مُرْنا بأمرك نتبعه، فوالله مانُعظِم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتِلتْ فى طاعتك. فقال: تجهّزوا للمسير إلى عدوّنا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا علىّ برجل صَلِيب ناصح، يحشر الناس من السّواد. فقال له سعيد بن قيس: يا أمير المؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقِل بن قيس التميمى، قال: نعم.
ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاعٍ [١] ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ ، وَغَداً السِّبَاقَ ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ ، وَالْغَايَةُ النَّارُ .

أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ ! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ !

أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ ، مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ ؛ فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ . وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ .

أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ ، كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ .

أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا ، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا .

أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى ، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى .

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ؛ وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً .

* * *

(١) ا : « على اطلاع » .

قال الرضى رحمه الله :

وَأَقُولُ : إِنَّهُ لَو كَانَ كلامٌ يَأْخُذ بِالأَعْنَاقِ إِلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنيا ، وَيَضْطَرُّ إِلَى عَمَلِ الآخِرَةِ لَكَانَ هَذَا الْكَلاَمَ . وَكَفَى بِهِ قَاطِعاً لِعلاَئِقِ الآمال ، وَقَادِحاً زِنَادَ الاتِّعَاظِ وَالازدِجار . ومن أَعْجَبِهِ قولُه عليهِ السَّلاَم : « أَلاَ وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَداً السِّبَاقَ ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّار » ، فَإِنَّ فِيهِ مَعَ فَخَامَةِ اللَّفْظِ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْمَعْنَى ، وَصَادِقِ التَّمْثِيلِ ، وَوَاقِعِ التَّشْبِيهِ ، سِرًّا عَجِيباً ، وَمَعْنًى لَطِيفاً ، وَهُوَ قَوْلُه عَلَيْهِ السَّلاَمُ « وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّار » ، فَخَالَفَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ لاخْتِلاَفِ الْمَعْنَيَيْنِ ، وَلَمْ يَقُلْ « السَّبَقَةُ النَّارُ » كَمَا قَالَ : « السَّبَقَةُ الْجَنَّةُ » لِأَنَّ الاسْتِبَاقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى أَمْرٍ مَحْبُوبٍ وَغَرَضٍ مَطْلُوبٍ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْجَنَّةِ ، وَلَيْسَ هَذا الْمَعْنَى مَوجُوداً فِي النَّار ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا ! فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَقُولَ : « والسَّبَقَةُ النَّارُ » بلْ قال: « وَالْغَايَةُ النَّار » ، لِأَنَّ الغايَةَ قَدْ يَنْتَهِي إِليهَا مَنْ لاَ يَسُرُّهُ الانْتِهَاء إِليهَا ، وَمَنْ يَسُرُّهُ ذَلِكَ فَصَلَحَ أَنْ يُعَبَّرَ بِهَا عَنِ الأَمْرَيْنِ مَعاً ، فَهِيَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَالْمَصِيرِ وَالْمَآلِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[1] ، وَلاَ يَجُوزُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُقَال : فَإِنَّ « سَبَقَتَكُمْ إِلى النَّارِ » . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فَبَاطِنُهُ عَجِيب ، وَغَوْرُهُ بَعِيدٌ لَطِيفٌ ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ كَلاَمِهِ عَليهِ السَّلاَم .

***

وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « وَالسُّبْقَةُ الْجَنَّةُ[2] » بضمِّ السِّين ، والسُّبْقَةُ عِنْدَهُمْ : اسْمٌ لِمَا يُجْعَلُ لِلسَّابِقِ ، إِذَا سَبَقَ مِنْ مال أَوْ عَرَضٍ ؛ وَالْمَعْنَيان مُتَقَارِبَان ، لِأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ جَزَاء عَلَى فِعْلِ الأَمْرِ الْمَذْمُوم ، وَإِنَّمَا يَكُونُ جَزَاء عَلَى فِعْلِ الأَمْرِ الْمَحْمُود .

---

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

(٢) وهى رواية مخطوطة النهج .

الشّرْحُ

آذنت : أعلمت . والمضْمار : منصوب ، لأنّه اسم « إنّ » . واليوم ظرف ، وموضعه رفع ، لأنّه خبر « إن » ، وظرف الزمان يجوز أن يكون خبرا عن الحدَث ، والمضمار : وهو الزمان الذى تضمّر فيه الخيل للسباق ، والضّمْر : الهزال وخفة اللّحم . وإعراب قوله : « وغدا السباق » ؛ على هذا الوجه أيضا .

ويجوز الرّفع فى الموضعين على أن تجعلهما خبر « إنّ » بأنفسهما .

وقوله عليه السلام : « ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه » أخذه ابن نُباتة مصالتةً[1] ، فقال فى بعض خطبه : « ألا عاملٌ لنفسه قبل حلول رَمْسِه » .

قوله : « ألا فاعملوا فى الرغبة » ، يقول : لا ريب أنّ أحدَكم إذا مسّه الضُّر من مرض شديد ، أو خوف مُقْلِق ، من عدوّ قاهر ؛ فإنه يكون شديد الإخلاص والعبادة ، وهذه حال من يخاف الغرق فى سفينة تتلاعب بها الأمواج ، فهو عليه السلام أمر بأن يكون المكلّف عاملا أيام عدم الخوف ، مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام هذه العوارض .

قوله : « لم أر كالجنة نام طالبها » ؛ يقول : إنّ مِن أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام ! ومن أعجب العجائب من يوقن بالنار ، كيف لا يهرب منها وينام ! أى لا ينبغى أن ينام طالب هذه ولا الهارب من هذه .

وقد فسر الرضىّ رحمه الله تعالى معنى قوله : « والسبَقة الجنة » .

[نبذ من أقوال الصالحين والحكماء]

ونحن نورد فى هذا الفصل نكتا من مواعظ الصالحين يرحمهم الله، تناسب هذا المأخذ . فمما يؤثر عن أبى حازم الأعرج ــ كان فى أيام بنى أمية ــ قوله لعمر بن عبد العزيز ،

(١) المصالتة عند الشعراء ، أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى ؛ وهى من أقبح السرقات الشعرية ، من الصلت بمعنى اللص .

وقد قال له : يا أبا حازم ، إنّى أخافُ الله مما قد دخلتُ فيه ، فقال : لست أخاف عليك أن تخاف ؛ وإنما أخاف عليك ألّا تخاف .

وقيل له : كيف يكون الناسُ يوم القيامة ؟ قال : أما العاصى فآبقٌ قُدِم به على مولاه ، وأما المطيع فغائب قَدِم على أهله .

ومن كلامه : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ؛ أما أمسِ فلا يجدون لذته ، ولا أجد شدّتَه ، وأما غدا فإنى وإياهم منه على خطر ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون !

ومن كلامه : إذا تتابعتْ عليك نِعَمُ ربك وأنت تعصيه فاحْذَره .

وقال له سليمان بن عبد الملك : عِظْنى ، فقال : عَظِّم ربَّك أن يراك حيث نَهاك ، أو يفقِدك حيث أمرك.

وقيل له : ما مالك ؟ قال : شيآن لا عُدْم بى معهما : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس .

ومن كلامه : عجبا لقوم يعملون لدارٍ يَرْحلون عنها كلّ يوم مرحلة ، ويتركون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة !

ومن كلامه : إن عوفينا من شرّ ما أعطانا ، لم يضرّنا فَقْدُ ما زُوِىَ عنا .

ومن كلامه : نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوب ، ونحن لا نتوب حتى نموت .

ولما ثقِلَ عبدُ الملك رأى غسالاً يلوِى بيده ثوباً ، فقال : وددت أنى كنت غسالا مثل هذا ، أعيش بما أكتسب يوما فيوما ؛ فذكِرَ ذلك لأبى حازم ، فقال : الحمد لله الذى جعلهم عند الموت يتمنَّوْن ما نحن فيه ، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه .

* * *

ومن كلام غيره من الصالحين : دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك

فى الكعبة ، فكلمه هشام ، ثم قال له : سَلْ حاجَتك ، قال : معاذ اللهِ أن أسأل فى بيت الله غيرَ الله .

وقيل لرابعة القَيْسِيّة : لو كلّمتِ أهلكِ أن يشتروا لك خادما يكفيكِ مؤنة بيتك ! قالت : إنّى لأستحى أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها ، فكيف مَنْ لا يملكها !

وقال بكر بن عبد الله : أطفئوا نارَ الغضب بذكْر نار جهنم .

عامر بن عبد القيس : الدّنيا والدة للموت ، ناقضة للمبرَم ، مرتجعة للعطية ، وكلّ مَنْ فيها يجرى إلى مالا يدرى ، وكلّ مستقرّ فيها غير راضٍ بها ؛ وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار .

باع عتبة بن عبد الله بن مسعود أرضاً له بثمانين ألفاً ، فتصدّق بها ، فقيل له : لو جعلتَ هذا المال أو بعضه ذُخراً لولدك ! قال : بل أجعل هذا المال ذُخْراً لى ، وأجعل الله تعالى ذُخْراً لولدى .

رأى إياس بن قتادة شيبةً فى لحيته ، فقال : أرى الموت يطلُبنى ، وأرانى لا أفوته . فلزم بيتَه وترك الاكتساب . فقال له أهله : تموت هُزالا ! قال : لأَنْ أموتَ مؤمناً مهزولا أحبُّ إلىّ من أعيش مُنافقا سمينا .

بكر بن عبد الله المزنىّ : ما الدّنيا ليت شعرى ! أمّا مامَضَى منها فحُلْم ، وأما مابقى فأمانىّ !

مُوَرّق العجلىّ : خَيْرٌ من العُجْبِ بالطاعة ألّا تأتىَ بالطاعة .

ومن كلامه : ضاحِكٌ معترف بذنبه ، خير من باك مُدِلّ على ربه .

ومن كلامه : أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خَدَمنى فاخدُميه ، ومن خَدَمك فاستخدميه .

قيل لرابعة : هل عملتِ عملا ترين أنّه يُقبل منك ؟ قالت : إن كان نخوفى أنْ يُرَدَّ علىّ .

نظر حبيب إلى مالك بن دينار ، وهو يقسّم صدقته علانية ، فقال : يا أخى ، إنّ الكنوزَ لَتُسْتَر ، فما بال هذا يُجْهَرُ به !

قال عمرو بن عُبيد للمنصور : إن الله أعطاك الدنيا بأسْرِها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هـذا الذى أصبح اليوم فى يدك لو كان مما يبقى على الناس لبقى فى يد مَنْ كان قبلك ، ولم يصر إليك ، فاحـذَرْ ليلة تمخّض بيوم لا ترى بعده إلا يوم القيامة . فبكى المنصور ، وقال : ياأبا عثمان ، سلْ حاجـة ، قال : حاجتى ألّا تعطيَنى حتى أسألك ، ولا تدْعنى حتى أجيئك ، قال : إذن لا نلتقى أبدا ، قال : فذاك أريد .

كان يقال : الدّنْيا جاهلة ، ومِنْ جَهْلها ، أنّها لا تعطى أحداً ما يستحقّه ؛ إما أن تزيدَه ، وإما أن تَنْقُصَه .

قيل لخالد بن صفوان : مَنْ أبلغُ الناس ؟ قال : الحسَن ، لقوله : فضح الموتُ الدنيا.

قيل لبعض الزهاد : كيف سُخْط نفسك على الدنيا ؟ قال : أيقنت أنى خارج منها كرها ، فأحببت أن أخرُج منها طوعا .

مرّ إبراهيم بن أدهم بباب أبى جعفر المنصور ، فنظر السلاح والحرس ، فقال : المريب خائف .

قيل لزاهـد : ما أصبرَك على الوحدة ! قال ، كلاّ أنا أجالسُ ربّى ، إذا شئت أن يناجيَنى قرأت كتابَه ، وإذا شئت أن أناجيَه صلّيت .

كان يقال : خف الله لقدرته عليك ، واستحِ منه لقربه منك .

قال الرشيد[1] للفُضَيل بن عياض : ماأزهدك ! قال : أنت ياهارون أزهَدُ منى ، لأنّى زَهِدتُ فى دنيا فانية ، وزهدتَ فى آخرةٍ باقية .

وقال الفُضَيل : يارَبِّى ، إنى لأستحيى أن أقول : توكّلت عليك ؛ لوتوكلت عليك ماخفتُ إلّا منك ، ولا رجوتُ إلا إيّاك .

عوتب بعض الزهاد عَلَى كثرة التصدق بماله ، فقال : لو أراد رجل أن ينتقل من دارٍ إلى دارٍ ، ماأظنّه كان يترك فى الدار الأولى شيئا !

قال بعض الملوك لبعض الزهّاد : مالك لاتغشى بابى وأنت عَبْدى ! قال : لو علمتَ أيها الملك ، لعلمتَ أنك عبدُ عبدى ، لأنّى أملك الهوى والهوى يملِكك .

دخل متظلّم على سليمان بن عبد الملك ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، اذكر يوم الأذان ، قال : ومايومُ الأذان ؟ قال : اليوم الذى قال تعالى فيه : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ﴾[2]، فبكى سليمان وأزال ظلامته .

سئل الفُضَيل بن عياض عن الزّهد ، فقال : يجمعه حرفان فى كتاب الله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[3].

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرّشيد : مايمرُّ يومٌ من نعيمك إلا ويمرُّ يوم من بؤسى ، وكلاهما إلى نفادٍ .

قيل لحاتم الأصمّ : علام بنيتَ أمرَك ؟ قال : على أربع خصال : علمتُ أنّ رزقى لايأكله غيرى فلم أهتمّ به ، وعلمت أنّ عملى لايعمله غيرى فأنا مشغول به ، وعلمت أنّ الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنّى بعين الله فى كلّ حال فاستحييت منه .

---

(١) ب : « قال بعض الملوك » ، وما أثبته من ا ، ج .

(٢) سورة الأعراف ٤٤ .

(٣) سورة الحديد ٢٣ .

نظر بعضُ الصالحين إلى رجل يفحُش فى قوله ، فقال : ياهذا إنما تُملى على حافِظيك كتابا إلى ربك ، فانظر ماتودعه .

كان يقال : مثلُ الدنيا والآخرة مثل ضَرّتيْن لبعلٍ واحد ، إنْ أرضى هـذه أسخط الأخرى .

قيل لبعضهم : مامَثَلُ الدنيا ؟ قال : هى أقلّ من أن يكون لها مَثَل .

دخل لصّ على بعض الزهاد الصالحين ، فلم يَرَ فى داره شيئاً ، فقال له : يا هذا ، أين متاعك ؟ قال : حوّلته إلى الدار الأخرى .

قيل للربيع بن خيثم : ياربيعُ ، مانراك تذُمّ أحدا ! فقال : ما أنا عن نفسى براض ، فأتحوّل من ذمّى إلى ذَمّ النـاس ؛ إنّ الناس خافوا الله على ذنوب العبـاد وأمِنوه على ذنوبهم .

قال عيسى بن موسى لأبى شيبة القاضى : لم لاتأتينا ؟ قال : إن قرّبْتنِى فتنْتنى ، وإنْ أقصيتَنى أحزنْتَنى ، وليس عندى ما أخافك عليه ، ولا عندك ماأرجوك له .

من كلام بعض الزهاد : تأمّل ذا الغنى ، ما أشدّ نَصَبَه ، وأقل راحتَه ، وأخسّ من ماله حظّه ، وأشدّ من الأيام حذره ! هو بين سلطانٍ يتهضّمه ، وعدوٍّ يبغى عليه ، وحقوق تلزمه ، وأكفاء يحسدونه ، وولد يودّ فراقَه ، قد بعث عليه غناه من سلطانه العَنت ، ومن أكفائه الحسَد ، ومن أعدائه البغْى ، ومن ذوى الحقوق الذمّ ، ومن الولد الملالة .

ومن كلام سُفيانَ الثورىّ : يابن آدم ، جوارحك سلاح الله عليك ، بأيّها شاء قَتَلك .

ميمون بن مهران فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[١] ، قال : إنها لتعزية المظلوم ، ووعيد للظالم .

---

(١) سورة إبراهيم ٤٢ .

دخل عبد الوارث بن سعيد على مريضٍ يعوده ، فقال له : ما نمتُ منذ أربعين ليلة ، فقال : ياهذا ، أحصيت ليالىَ البلاء ، فهل أحصيت ليالى الرخاء !

بعضُهم : واعجباه لمن يفرح بالدنيا ، فإنما هى عقوبة ذنب !

ابن السّماك : خَفِ الله حتّى كأنّك لم تُطِعْه قطّ ، وارْجُه حتى كأنك لم تعصه قَطّ .

بعضهم : العلماء أطبّاء هذا الخلْق ، والدنيا داء هذا الخلق ؛ فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره !

قيل لمحمد بن واسع : فلان زاهد ، قال : وما قَدْر الدنيا حتى يُحْمَدَ مَنْ يزهد فيها ؟

رُئِىَ عبد الله بن المبارك واقفا بين مقبرة ومَزْبلة ، فقيل له : ما أوقفك ؟ قال : أنا بين كنزيْن من كنوز الدنيا فيهما عِبْرة : هذا كنز الأموال ، وهذا كنز الرجال .

قيل لبعضهم : أتعبتَ نفسك ؛ فقال : راحتَها أطلب .

دخل الإسكندرُ مدينة فتحها ، فسأل عمّن بقى من أولاد الملوك بها ، فقيل : رجل يسكن المقابر ، فدعا به ، فقال : ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر ؟ فقال : أحببت أن أميّز بين عظام الملوك ، وعظام عبيدهم ، فوجدتها سواء . فقال : هل لك أن تتّبعنى فأحيىَ شرفك وشرف آبائك ، إن كانت لك همة ! قال : همّتى عظيمة ، قال : وما همتُك ؟ قال : حياةٌ لا موت معها ، وشباب لا هرم معه ، وغنًى لا فقر معه ، وسرور لا مكروه معه ، فقال : ليس هذا عندى ، قال : فدعْنِى ألتمسه ممن هو عنده .

مات ابنٌ لعمر بن ذرّ ، فقال : لقد شغلنى الحزنُ لك يابنىّ عن الحزن عليك .

كان يقال : مِنْ هَوَان الدنيـا على الله ألا يُعْصَى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلّا بتركها .

ومن كلام عبد الله بن شداد : أرى دواعى الموت لاتقلع ، وأرى مَنْ مَضَى لا يرجع ،

فلا تزهدنّ فى معروف ، فإن الدّهر ذو صروف . كم من راغب قد كان مرغوبا إليه ! والزمانُ ذُو ألوان ، من يصحب الزمان يرَ الهوان ، وإن غُلِبتَ يوماً على المال فلا تُغْلَبَنَّ على الحيلة على كلّ حال ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقلَّ ماتكون فى الباطن مآلا .

كان يقال : إن مما يعجّل الله تعالى عقوبته : الأمانة تُخان ، والإحسان يُكْفَر ، والرّحم تُقْطَع ، والبغى على الناس .

الربيع بن خَيْثم : لو كانت الذنوب تفوح روائحُها لم يجالس أحد إلى أحد .

قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ قال : آسفا على أمسِى ، كارها ليومى ، متّهِماً لغدى .

وقيل لآخر : لم تركت الدنيا ؟ قال : أنِفْتُ مِنْ قليلها ، وأنِفَ منى كثيرُها . وهذا كما قال بعضهم ، وقد قيل له : لم لا تقول الشعر ؟ قال : يأبانى جَيِّده ، وآبى رديئه .

بعض الصالحين : لو أنزل الله تعالى كِتاباً : « إنى معذِّب رجلا واحدا » ، خِفْتُ أن أكونه ، أوإنه راحم رجلا واحدا ، لرجوت أن أكونه .

مطرّف بن الشِّخِّير : خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحَقْحَقة(١) . وهذا الكلام قد روى مرفوعا .

يحيى بن معاذ : إنّ لله عليك نعمتين : فى السراء التذكّر ، وفى الضّراء التصبّر ؛ فكن فى السرّاء عبدا شكورا ، وفى الضّرّاء حرّا صبورا .

دخل ابن السّماك على الرّشيد ، فقال له : عِظْنى ، ثم دعا بماء ليشربه ، فقال له : ناشدتُك الله ؛ لومنَعك الله من شربه ما كنت فاعلا ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكى . قال : فاشربه ، فلما شرب ، قال : ناشدتك الله ! لومنعك الله من خروجه ما كنت فاعلا ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكى ، قال : إنّ مُلْكا يُفْتَدى به شربة ماء ، لخليق ألّا ينافَس عليه .

قال المنصور لعمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى : عِظْنى ، قال : بما رأيتُ أم بما سمعتُ ؟

---

(١) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر .

قال : بما رأيتَ . قال : رأيتُ عمر بن عبد العزيز ، وقد مات ، فخلّف أحد عشراً ابنا ، وبلغتْ تركتُهُ سبعة عشر دينارا ، كُفّن منها بخمسة دنانير ، واشترِىَ موضع قبره بدينارين ، وأصاب كلّ واحد من ولده دون الدينار . ثم رأيتُ هشام بن عبد الملك ، وقد مات وخلّف عشرة ذكور ، فأصاب كلّ واحد من ولده ألف ألف دينار . ورأيت رجلا من ولد عمر بن عبد العزيز ، قد حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله ، ورأيت رجلا من ولد هشام ، يسأل الناس ليتصدقوا عليه .

حسان بن أبى سنان : ما شىء أهونُ من وَرَعٍ ؛ إذا رابك شىء فدَعْه .

مورِّق العِجْلىّ : لقد سألت الله حاجة أربعين سنة ، ما قضاها ولا يئست منها ، قيل : وما هى ؟ قال : تَرْكُ ما لا يعنينى .

قَتادة : إنّ الله ليُعطِى العبد على نِيّة الآخرة ما يسأله من الدنيا ، ولا يعطيه على نية الدنيا إلا الدنيا .

من كلام محمد بن واسع : ليس فى النار عذابٌ أشدّ على أهلها من علمهم بأنه ليس لكربهم تنفيس ، ولا لضيقتهم ترفيه ، ولا لعذابهم غاية ؛ وليس فى الجنّة نعيم أبلغُ من علم أهلها بأن ذلك الملك لا يزول عنهم .

قال بعض الملوك لبعض الزّهاد : اذْمُم لى الدنيا ، قال : أيّها الملك ، هى الآخذة لما تُعطِى ، المورّثة بعد ذلك الندم ، السّالبة ما تكسو ، المورّثة بعد ذلك الفضوح ، تسدّ بالأراذل مكان الأفاضل ، وبالعجزَة مكان الحَزَمة ، تجد فى كلٍّ من كلٍّ خَلَفا ، وترضَى بكلٍّ من كلٍّ بدلا ، تُسْكِن دارَ كل قَرْنٍ قرنا ، وتُطعِم سُؤْرَ كلٍّ قوم قوما .

ومن كلام الحجاج ـ وكان مع غَشْمِه وإلحاده واعظا بليغا مفوّها ـ خطب فقال : اللهمّ أرنى الغيّ غيًّا فأتجنّبَه ، وأرنى الهدى هدًى فأتّبِعَه ، ولا تكلْنى إلى نفسى فأضلّ

ضلالا بعيدا ؛ والله ما أحبّ أن ما مضى من الدنيا بعمامتى هذه ، ولَمَا بقِىَ منها أشبه بما مضى من الماء بالماء .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إلى الجمعة ، فجلست قريبا من المِنْبر ، فصَعِد الحجّاج ، فَسَمعته يقول : امرؤ زَوّرَ عمله ، امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ فكّر فيما يقرؤه فى صحيفته ، ويراه فى ميزانه ، امرؤ كان عند قلبه زاجر ، وعند همّه آمر ، امرُؤ أخذ بعنان قلبه ، كما يأخذ الرجل بخِطَام جمله ، فإن قاده إلى طاعة الله تَبِعه ، وإن قاده إلى معصية الله كَفّه ؛ إننا والله ما خلِقنا للفناء ؛ وإنّما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وخطب يوما(١) ، فقال : إن الله أمرَنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدنيا ؛ فليته كفانا مئونة الآخرة ، وأمرنا بطلب الدنيا . فقال الحَسَنُ : ضالّة المؤمن خرجتْ من قلب المنافق .

ومن الكلام المنسوب إليه — وأكثرُ الناس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام : أيّها الناس ، اقدعوا هذه الأنفس ؛ فإنها أسأل شىء إذا أعطِيَت ، وأبخل لشىء إذا سُئِلَتْ ، فرَحِم الله امرأ جعل لنفسه خِطاما وزماما ، فقادها بخِطامها إلى طاعة الله ، وعَطَفَها بزمامها عن معصية الله ؛ فإنى رأيت الصبر عن محارم الله أيسرَ من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : إن امرأ أتَتْ عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربّه ، ويستغفر من ذنبه ، ويفكّر فى معاده ، لجدير أن يطول حُزْنه ، ويتضاعف أسفُه . إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ؛ فلا يغرّنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقْهَرُوا طولَ الأمل بقصَر الأجل .

(١) أى الحجاج .

ونقلت من " أمالى " أبى أحمدَ العسكرىّ رحمه الله تعالى ؛ قال : خطب الحجاج يوما ، فقال : أيّها الناس ، قد أصبحتُم فى أجلٍ منقوص ، وعمل محفوظ . ربّ دائب مُضيعٌ وساع لغيره . والموت فى أعقابكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، وممّا فى أيديكم لما بين أيديكم ، فكأن ما قد مضى من الدّنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ؛ وكلّ ما ترَوْنه فإنّه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوكُ الأولون ! أين الجبابرةُ المتكبّرون ! المحاسبُ الله ، والصِّراط منصوب ، وجهنم تَزْفِرُ وتتوقّد ، وأهل الجنة يَنْعَمُون ، هم فى روضة يُحْبَرُون ، جعلنا الله وإيّاكم من الذين ، ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾(١) .

قال : فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول : ألا تعجبون من هذا الفاجر ! يَرْقَى عَتَبات المِنْبر فيتكلّم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتِك فتكَ الجبّارين ، يوافق الله فى قوله ، ويخالفه فى فعله !

* * *

[استطراد بلاغى فى الكلام على المقابلة]

وأما ما ذكره الرضىّ رحمه الله تعالى من المقابلة بين السَّبَقَة والغاية ، فنكتة جيّدة من علم البيان ؛ ونحن نذكر فيها أبحاثا نافعة ، فنقول :

إمّا أنّ يُقابلَ الشىء ضدَّه أو ما ليس بضدّه .

فالأول كالسواد والبياض ؛ وهو قسمان :

أحدهما : مقابلُه فى اللفظ والمعنى .

(١) سورة الفرقان ٧٣ .

والثانى : مقابله فى المعنى لا فى اللفظ .

أما الأول ، فكقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾(١)، فالضَّحِك ضدّ البكاء ، والقليل ضدّ الكثير . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(٢) . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم : « خير المالِ عينٌ ساهرة لعين نائمة » . ومن كلام المؤمنين عليه السلام لعثمان : إن الحقّ ثقيلٌ مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ؛ وأنت رجل إن صُدِقْتَ سَخِطت ، وإن كُذِبت رَضِيت .

وكذلك قوله عليه السلام لما قالت الخوارج : لا حكمَ إلا لله : « كلمة حق أريد بها باطل » .

وقال الحجاج لسعيد بن جُبَير لما أراد قتله : ما اسمُك ؟ فقال : سعيد بنُ جُبَير ، فقال : بل شَقِىّ بن كُسَير .

* * *

وقال ابن الأثير فى كتابه المسمى بـ " المثل السائر " : إن هذا النوع من المقابلة غيرُ مختصٍّ بلغة العرب ، فإنه لما مات قُباذ أحد ملوك الفرس ، قال وزيره : حرّكنا بسكونه .

وفى أول كتاب الفصول لبقراط فى الطبّ : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان(٣) .

قلت : أىّ حاجة به إلى هذا التكلّف ! وهل هذه الدعوى من الأمور التى يجوز أن يعترِىَ الشكّ والشبهة فيها ، ليأتىَ بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتجّ بها ! أليس كلّ قبيلة وكلّ أمّة لها لغة تختص بها ! أليس الألفاظ دلالاتٍ على مافى الأنفس

---

(١) سورة التوبة ٨٢ .

(٢) سورة الحديد ٢٣ .

(٣) المثل السائر ٢ : ٢٨٠ ، من فصل عقده للتناسب بين المعانى .

من المعانى ! فإذا خطر فى النفس كلام يتضمّن أمرين ضدّين فلا بد لصاحب ذلك الخاطر — سواء أكان عربيا أم فارسيًّا أم زنجيًّا أم حبشيًّا — أن ينطق بلفظ يدل على تلك المعانى المتضادة ، وهذا أمر يعمّ العقلاء كلّهم ؛ على أنّ تلك اللفظة التى قالها ، ما قيلت فى موت قُباذ ، وإنّما قيلت فى موت الإسكندر ، لما تكلّمت الحكماء وهم حول تابوته بما تكلّموا به من الحِكَم .

* * *

ومما جاء من هذا القسم من المقابلة فى الكتاب العزيز قوله تعالى فى صفة الواقعة : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾(١) ؛ لأنها تخفض العاصين ، وترفع المطيعين .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٣) .

ومن هذا الباب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنّكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطّمع » .

ومما جاء من ذلك فى الشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير :

يَسْتَيْقِظُون إلى نَهِيقِ حَمِيرِهِمْ ... وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ(٤)

وقال آخر :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِى المَالَ والجدُّ مُقْبِلٌ ... وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِى المَالَ والجدُّ مُدْبِرُ(١)

---

(١) سورة الواقعة ٣ .
(٢) سورة الحديد ١٣ .
(٣) سورة المائدة ٥٤ .
(٤) ديوانه : ٤٥ ، وروايته : « إلى نهاق حميرهم » .
(٥) فى المثل السائر ٢ : ٢٨٣ من غير نسبة .

وقال أبو تمام :

ما إنْ تَرَى الأحْسابَ بِيضاً وُضّحاً إلّا بحيثُ تَرَى المنَـايا سُودَا (١)

[وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا] (٢) :

شَرَفٌ عَلَى أولَى الزَّمَانِ وإنَّمَا خَلَقُ المَنَاسِبِ مايكُون جَدِيدَا (٣)

وأما القسم الثانى من القسم الأول ؛ وهو مقابلةُ الشىء بضدِّه بالمعنى لا باللفظ ، فكقول المقنّع الكِنْدِيّ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِى إنْ تَتَابَعَ لِى غِنًى وإنْ قَلَّ مَالِى لَا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا (٤)

فقوله : « إن تتابع لى غنًى » فى قوّة قوله : « إن كَثُر مالى » ، والكثرة ضدّ القلة ، فهو إذنْ مقابل بالمعنى لا باللفظ بعينه .

ومن هذا الباب قول البحترىّ :

تَقيّضُ لى مِنْ حَيْثُ لا أعلمُ النَّوَى وَيَسْرِى إلىّ الشوقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلمُ (٥)

فقوله : «لا أعلم» ليس ضدًّا لقوله : « أعلم » ؛ لكنّه نقيضٌ له ؛ وفى قوّة قوله : « أجهل » ، والجهل ضدّ العلم .

ومن لطيف ماوقعت المقابلة به من هذا النوع قولُ أبى تمام :

مَهَا الْوحْشِ إلَّا أنَّ هَاتَا أوانِسٌ قَنَا الخطِّ إلا أنّ تِلْكَ ذَوَابلُ (٦)

---

(١) ديوانه ١ : ٤٢٢ .

(٢) تكملة من كتاب المثل السائر .

(٣) ديوانه ١ : ٤١٩ .

(٤) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢ : ١١٨٠ .

(٥) ديوانه ٢ : ٢٢٩ .

(٦) ديوانه ٣ : ١١٦ ، قال الصولى فى شرحه يقول : « هن كبقر الوحش فى تهاديهن وحسن عيونهن ؛ وهن كقنا الخط فى القد ، إلا أن القنا ذوابل ؛ وهن طراء . وقيل للقنا: ذوابل ؛ لأنها تلين عند الطعن فلا تنكسر » .

فقابل بين « هاتا » وبين « تلك » ، وهى مقابلة معنوية لا لفظية ؛ لأنّ « هاتا » للحاضرة ، و « تلك » للغائبة ، والحضور ضدّ الغيبة .

وأما مقابلة الشيء لما ليس بضدّه ، فإمّا أن يكون مِثْلاً أو مخالفا .

والأوّل على ضربين : مقابلة المفرد بالمفرد ، ومقابلة الجملة بالجملة .

مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾(١) ، وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾(٢) ، هكذا قال نصر الله ابن الأثير(٣) .

قال : وهذا مراعًى فى القرآن الكريم إذا كان جوابا كما تقدم من الآيتين ، وكقوله . ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾(٥) .

قال : وقد كان يجوز أن يقول : «من كفر فعليه ذنبُه » ، لكنّ الأحسن هو إعادة اللفظ ، فأما إذا كان غير جواب لم تلزم فيه هذه المراعاة اللفظيّة ، بل قد تقابَل اللفظةُ بلفظة تفيد معناها ؛ وإن لم تكن هى بعينها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾(٦) ، فقال : « يفعلون » ولم يقل « يعملون » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾(٧) ، ولم يقل : « قالوا لا تفزع » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾(٨) ، ولم يقل : « كنتم تخوضون وتلعبون » .

---

(١) سورة الحشر ١٩ .
(٢) سورة النمل ٥٠ .
(٣) المثل السائر ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨
(٤) سورة الشورى ٤٠ .
(٥) سورة الروم ٤٤ .
(٦) سورة الزمر ٧٠ .
(٧) سورة ص ٢٢ .
(٨) سورة التوبة ٦٥ .

قال : ونحو ذلك من الأبيات الشّعرية قولُ أبى تمّام :

بَسَطَ الرَّجاءَ لَنَا بِرَغْمِ نوائبٍ كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصارِعُ الآمالِ (١)

فقال : « الآمال » عوَض « الرجاء » ، قال أبو الطيب :

إنّى لأعْلَمُ واللَّبيبُ خَبِـــــيرُ أنّ الحياةَ – وإن حَرَصْتَ – غُرُورُ (٢)

فقال : « خبير » ولم يقل : « عليم » .

قال : وإنما حَسُن ذلك ، لأنّه لَيس بجواب ؛ وإنما هو كلام مبتدأ .

قلت : الصّحيح أنّ هذه الآيات،وهى قوله تعالى : ﴿ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وما شابهها ليست من باب المقابلة التى نحن فى ذكرها ، وأنّهـا نوع آخر ؛ ولو سُمِّيت : المماثلة أوالمـكافأة لـكان أولى؛والدليل على ذلك أنّ هذا الرجل حَدّ المقابلةفى أوّل الباب الذى ذُكِر هذا البحث فيه ، فقال : إنّها ضدُّ التجنيس ؛ لأنّ التجنيس أن يكونَ اللفظُ واحداً مختلف المعنى ؛ وهذه لابدّ أن تتضمّن معنيين ضدّين ، وإن كان التضادّ مأخوذا فى حدّها ، فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة ، وكانت نوعا آخر .

وأيضاً فإنّ قوله تعـالى : ﴿ وَمَـكَرُوا مَـكْراً وَمَـكَرْنَا مَـكْراً ﴾ ليس من سِلْك الآيات الأخرى؛لأنهبالواو والآيات الأخرى،بالفاء ، والفاء جواب،والواو ليست بجواب.

وأيضا ، فإنّا إذا تأملنا القرآن العزيز لم نجد ماذكره هذا الرجل مطّردا ، قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (٣)،فلم يقل فى الثانية : « وأمّا من جاءك يسعى وهو فقير » .

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ

(١) ديوانه ٣ : ١٥١ .
(٢) ديوانه ٢ : ١٢٨ .
(٣) سورة عبس ٥ — ١٠ .

بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾[١]، فقابل بين «أعطى» و«بخل» ولم يقابل بين «اتقى» و«استغنى»، ومثل هـذا فى القرآن العزيز كثير؛ وأكثر من الكثير.

وقد بانَ الآن أنّ التقسيمَ الأوّل فاسد، وأنه لامقابلة إلا بين الأضداد ومايجرى مجراها.

وأمّا مقابلةُ الجملة بالجملة فى تقابل المتماثلين، فإنه إذا كانتْ إحداهما فى معنى الأخرى وقعت المقابلة؛ والأغلب أن تُقابَل الجملةُ الماضية بالماضية، والمستقبَلةُ بالمستقبَلة.

وقد تُقابَل الجملة الماضية بالمستقبلة؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾[٢]، فإنّ هذا تقابل من جهة المعنى؛ لأنه لو كان من جهة اللفظ لقال: «وإن اهتديت فإنّما أهتدى لها».

ووجه التقابُل المعنوىّ، هو أن كلّ ماعلى النفس فهو بها، أعنى كلّ ماهو عليها وبالٌ وضرر فهو منها وبسببها؛ لأنها الأمّارة بالسوء، وكلّ مالها مما ينفعها فهو بهداية ربّها وتوفيقه لها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[٣]، فإنه لم يراع التقابُلَ اللفظىّ، ولو راعاه لقال: والنهار ليبصروا فيه، وإنّما المراعاة لجانب المعنى؛ لأنّ معنى «مبصرا» ليبصروا فيه طرق التقلّب فى الحاجات.

وأما مقابلةُ المخالف؛ فهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون بين المقابِل والمقابَل نوع مناسبة وتقابُل، كقول القائل:

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهل الظُّلْمِ مَغْفِرَةً   وَمِنْ إساءة أَهْـــل السُّوء إِحْسَانَا[٤]

---

(١) سورة الليل ٥ — ١٠.

(٢) سورة سبأ ٥٠.

(٣) سورة النمل ٨٦.

(٤) لأنيف بن قريط العنبرى من أبيات فى ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ١ : ٢٢.

فقابل الظلم بالمغفرة ، وهى مخالفة له ، ليست مثله ولا ضدّه ، وإنما الظلم ضدّ العدل؛ إلا أنّه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حَسُنت المقابلة بينها وبين الظلم ؛ ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(١)، فإنّ الرحمة ليستْ ضِدًّا للشدّة، وإنما ضدّ الشدة اللين ؛ إلا أنّه لما كانت الرحمة سبباً للّين حَسُنت المقابلة بينها وبين الشدّة .

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا ﴾(٢)، فإنّ المصيبة أخصُّ من السّيئة ؛ فالتقابل هاهنا من جهة العموم والخصوص .

الوجه الثانى : ما كان بين المقابِل والمقابَل بُعْد؛ وذلك مما لا يحسُن استعماله ، كقول امرأة من العرب لابنها ، وقد تزوج بامرأة غير محمودة :

تَرَبَّصْ بِها الْأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا ... سَتَرْمِى بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ (٣)

فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلٰهُهُ ... بِمَذْمُومَةِ الأَخْلَاقِ واسعةِ الْحِرِ

ف «مذمومة» ليست فى مقابلة «واسعة»، ولو كانت قالت: «بضيّقة الأخلاق»، كانت المقابلة صحيحة ، والشعر مستقيما . وكذلك قول المتنبى :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لم تُرِدْ بِهَا ... سُرورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ ! (٤)

فالمقابلة الصحيحة بين المحبّ والمبغض ؛ لا بين المحبّ والمجرم .

قلت : إنّ لقائلٍ أن يقول : هلاّ قلت فى هذا ماقلت فى السيئة والمصيبة ! ألستَ القائل : إن التقابُلَ حَسَنٌ بين المصيبة والسيئة ، لكنه تقابُل العموم والخصوص ! وهذا الموضع مثله أيضا ، لأنّ كل مبغض لك مجرم إليك ، لأنّ مجرد البغضة جُرْم ، ففيهما عموم وخصوص .

بل لقائل أن يقول : كلّ مُجْرِمٍ مُبْغِض ، وكلُّ مُبْغِض مُجْرم ، وهذا صحيح مطّرد.

(١) سورة الفتح ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ٥٠ .

(٣) من أبيات نسبها أبو تمام فى الحماسة بشرح التبريزى (٤ : ٣٤) إلى أم القحيف . والجاحم : النار الشديدة التأجج .

(٤) ديوانه ٤ : ١٤١ .

(٢٩)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُم ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، كَلَامُكُمْ يُوهِي ٱلصُّمَّ ٱلصِّلَابَ ؛ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ ٱلْأَعْدَاءَ .

تَقُولُونَ فِي ٱلْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ : حِيدِي حَيَادِ ! مَاعَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ ، وَلَا ٱسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ . أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ ؛ دِفَاعُ ذِي ٱلدَّيْنِ ٱلْمَطُولِ .

لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ ٱلذَّلِيلُ ، وَلَا يُدْرَكُ ٱلْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ .

أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ ! وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ ! ٱلْمَغْرُورُ وَٱللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَٱللهِ بِالسَّهْمِ ٱلْأَخْيَبِ ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .

أَصْبَحْتُ وَٱللهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ، وَلَا أُوعِدُ ٱلْعَدُوَّ بِكُمْ .

مَا بَالُكُمْ ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ ؟ مَا طِبُّكُمْ ؟ ٱلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ .

أَقَوْلًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ ، وَطَمَعًا فِي غَيْرِ حَقٍّ !

* * *

الشَّرْحُ :

حِيدِي حَيَادِ ، كلمة يقولها الهارب الفارّ ، وهى نظيرة قولهم : « فيحى فَيَاحِ » [1] ،

(١) فى اللسان : فياح مثل قطام : اسم للغارة ، وكان يقال للغارة فى الجاهلية : فيحى فياح ، وذلك إذا دفعت الخيل المغيرة فاتسعت .

أى اتّسعى ، وصَمّى صَمامِ ، للداهيــة[1]. وأصلُها من حاد عن الشىء ، أى انحرفَ ، وحَيَادِ ، مبنيّة على الـكسر، وكذلك ما كان من بابهــا ، نحو قولهم : بَدَارِ ، أى ليأخذْ كلّ واحدٍ قِرْنه . وقولهم : خَراجِ فى لعبة للصبيان ، أى اخرجوا .

والباء فى قوله : « بأضاليل » متعلقة بـ « أعاليل » نفسها ، أى يتعلّلون بالأضاليل التى لاجَدْوى لها .

والسّهم الأفْوَق : المـكسور الفُوق ، وهو مَدْخَل الوتَر . والناصل : الذى لانَصْل فيه ؛ يخاطبهم فيقول لهم : أبدانـكم مجتمعة وأهواؤكم مختلفة ، متكلّمون بما هو فى الشدّة والقوة يُوهِى الجبال الصّمّ الصلْبة ، وعند الحرب يظهر أنّ ذلك الـكلام لم يكن له ثمرة.

تقولون فى المجالس كَيْتَ وكَيْت ، أى سنفعل وسنفعل ، وكَيْت وكَيْت كناية عن الحديث، كما كُنِىَ بفلان عن العلَم ، ولاتستعمل إلا مكرّرة ، وهما مخفّفان من «كَيّة» وقد استعملتْ على الأصــل ، وهى مبنية على الفتح . وقد رَوَى أئمة العربية فيهــا الضمّ والـكسر أيضا .

فإذا جاء القتال فررتم وقلتم : الفِرارَ الفِرارَ .

ثم أخذ فى الشكوى ، فقال : مَنْ دعاكم لم تعزّ دعوتُه، ومَنْ قاساكم لم يسترِحْ قلبُه. دأبُــكم التعلّل بالأمور الباطلة ، والأمانىّ الـكاذبة . وسألتمونى الإرْجاء وتأخُّر الحرب كمن يمطُل بديْن لازم له . والضَّيْم لايدفعه الذليل ، ولا يدرَك الحقّ إلا بالجِدّ فيــه والاجتهاد وعدم الانكماش .

وباقى الفصل ظاهر المعنى .

---

(١) صمى صمام ، أى زيدى

وقوله : « القوم رجال أمثالكم » مثل قول الشاعر :

قَاتِلوا القومَ يا خُزَاعَ وَلَا يَدْخُلُكُمْ من قتالِهِمْ فَشَلُ
القومُ أمثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ فى الرَّأْسِ لا يُنْشَرون إن قُتِلوا

* * *

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام فى غارة الضحاك بن قيس ، ونحن نقصّها هنا :

* * *

[غارة الضحاك بن قيس ونتف من أخباره]

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفىّ فى كتاب " الغارات " قال : كانت غارة الضّحاك بن قيس بعد الحكَمَيْن ، وقبل قتال النّهْرَوَان ، وذلك أنّ معاويةَ لمّا بلغه أنّ عليًّا عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلًا ، هاله ذلك ، فخرَج من دِمَشْق معسكراً ، وبعث إلى كُور الشام ، فصاح بها (١) : إنّ عليًّا قد سار إليكم . وكتب إليهم نسخة واحدة ، فقرِئَتْ على الناس :

أمّا بعد ، فإنّا كنا كتبْنا كتابا بيننا وبين علىّ ، وشرطْنا فيه شروطا ، وحكّمْنا رجُلين يحْكُمان علينا وعليه بحُكْم الكتاب لا يعدُوَانه ، وجعلْنا عهدَ الله وميثاقَه على مَنْ نكث العهد ولم يُمْضِ الحُكْم ، وإنّ حَكَمِى الذى كنت حكّمْتُهُ أثبتنى ، وإنّ حكَمه خلعه ، وقد أقبل إليكم ظالما ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (٢) ، تجهّزوا للحرب بأحسن الجهاز ، وأعدّوا آلة القتال ، وأقبِلوا خِفافاً وثقالًا ، يسّرنا الله وإياكم لصالح الأعمال !

---

(١) ب : « فيها » .

(٢) سورة الفتح ١٠ .

فاجتمع إليه الناس من كلّ كُورة (١) وأرادوا المسيرَ إلى صِفّين ، فاستشارهم ، وقال : إنّ عليًّا قد خرج من الكوفة ، وعَهْد العاهد به أنه فارق النُّخَيْلة (٢) .

فقال حبيب بن مسلمة : فإنى أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذى كنّا فيه ، فإنه منزل مبارك ، وقد متّعنا الله به وأعطانا من عدوّنا فيه النَّصَف .

وقال عمرو بن العاص: إنى أرى لك أن تسيرَ بالجنود حتى تُوغِلَها فى سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإنّ ذلك أقوى لجندك ، وأذلُّ لأهلِ حَرْبك . فقال معاوية : والله إنى لأعرف أنّ الذى تقول كما تقول ، ولكنّ الناس لا يطيقُون ذلك . قال عمرو : إنها أرضٌ رفيقة ، فقال معاوية : إنَّ جهدَ الناس أن يَبْلُغوا منزلهم الذى كانوا به ـ يعنى صِفّين .

فمكثوا يُجيلون الرأىَ يومين أو ثلاثة ، حتى قدِمت عليهم عيونُهم أن عليًّا اختلف عليه أصحابُه ففارقتْه منهم فرقة أنكرت أمرَ الحُكومة ، وأنه قد رجع عنكم إليهم . فكبّر الناس سُروراً لانصرافه عنهم ، وما ألقى الله عزّ وجل من الخلاف بينهم . فلم يَزَلْ معاوية مُعَسْكِراً فى مكانه ، منتظراً لما يكون من علىٍّ وأصحابه؛ وهل يُقبل بالناس أم لا؟ فما برِح حتى جاء الخبر أن عليًّا قد قَتَل أولئك الخوارج ، وأنّه أراد بعد قتلهم أن يُقبل بالناس ، وأنهم استنظروه ودافعوه . فسرّ بذلك هو ومَن قِبَله من الناس .

قال : ورَوى ابنُ أبى سيف (٣) ، عن يزيد بن يزيد بن جابر ، عن عبد الرحمن بن مسعدة الفزارىّ ، قال : جاءنا كتاب عُمارة بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط ، وكان بالكوفة مقيما ، ونحن معسكرون مع معاوية ، نتخوف أن يفرُغ علىٌّ من الخوارج ثم يقبل إلينا ، ونحن نقول : إن أقبلَ إلينا كان أفضلُ المكانِ الذى نستقبله به المكانَ الذى لقيناه فيه العام الماضى . فكان فى كتاب عُمارة بن عُقْبة : أما بعد ؛ فإنّ عليًّا خرج عليه قرّاء

(١) الكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر ، يجمع اسمها . معجم البلدان ١ : ٣٦ .

(٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة .

(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « سفيان » .

أصحابه ونُسّاكهم ، فخرج إليهم فقتلهم،وقد فسد عليه جندُه وأهلُ مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرّقوا أشدّ الفرقة ، وأحببت إعلامَك لتحمَد الله ، والسلام .

قال عبد الرحمن بن مَسْعدة : فقرأه معاوية على وجه أخيه عُتْبة ، وعلى الوليد ابن عُقْبة ، وعلى أبي الأعور السُّلَمِيّ ؛ ثم نظر إلى أخيه عُتبة وإلى الوليد بن عُقبة ، وقال للوليد : لقد رَضِيَ أخوك أن يكونَ لنا عينا . فضحِك الوليد وقال : إنّ في ذلك أيضاً لَنَفْعاً .

وروى أبو جعفر الطبريّ ، قال : كان عُمارة مُقيما بالكوفة بعد قَتْل عثمان ، لم يهجْه عليّ عليه السلام ولم يَذْعَرْه ، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سرًّا .

ومن شعر الوليد لأخيه عُمارة يحرِّضه :

إنْ يَكُ ظَنِّي في عُمارَةَ صادِقاً ... يَنَمْ ثُمّ لا يطلُبْ بذَحْلٍ ولا وِتْرِ [١]

يَبِيتُ وأوتارُ ابن عَفّانَ عِنْدَهُ ... مُخَيِّمَةٌ بين الخوَرْنَقِ فالقَصْرِ

تمشَّى رَخيّ البال مُسْتَشْزِرَ القُوَى ... كأنّكَ لَمْ تَسْمَعْ بقتلِ أبي عَمْرِو [٢]

ألَا إنّ خيرَ النّاسِ بعد ثلاثةٍ ... قتيلُ التُّجيبيّ الّذِي جاءَ مِنْ مِصْرِ [٣]

قال : فأجابه الفضل بن العباس بن عتبة [٤] :

أتطْلُبُ ثأراً لستَ منه ولَا لَهُ ... وما لابْنِ ذَكْوانَ الصَّفُوريّ والوِتْرِ [٥]

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٢٦ ؛ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات . والوتر والذحل : الثأر .

(٢) لم يذكره فى الطبرى ، ومستشزر القوى : مستحكم ، وأصله فى الحبل المفتول .

(٣) التجيبى ؛ هو كنانة بن بشر بن عتاب الرياحى ؛ أحد قتلة عثمان ؛ قال الطبرى : « ضرب كنانة ابن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود جديد ، فخر لجبينه » (٦ : ١٣٢) .

(٤) فى الأصول : « عبد المطلب » ، وهو خطأ .

(٥) الطبرى :

* وأيْنَ ابنُ ذَكْوانَ الصَّفُورِيُّ مِنْ عَمْرِو *

كما افْتَخَرَتْ بنتُ الحمار بأمّها   وتنسى أباها إذ تَسامى أولو الفَخْرِ (١)
ألا إنَّ خيرَ النّاس بعد نبيهمْ   وصيُّ النبي المصطفى عند ذِى الذِّكْرِ (٢)
وأوّل مَنْ صَلَّى وصِنْوُ نبيِّه   وأولُ مَنْ أردَى الغُواةَ لدى بَدْرِ (٣)

أما معنى قوله : « وما لابن ذكوان الصَّفُورِىّ » ، فإنَّ الوليدَ ، هو ابن عُقْبة ابن أبى مُعَيْط بن أبى عمرو ، واسمه ذَكْوان بن أمية بن عبد شمس . وقد ذكَر جماعة من النسّابين أنّ ذكوان كان مولًى لأمية بن عبد شمس ، فتبنّاه وكنّاه أبا عمْرو ، فبنُوه مَوالٍ وليسوا من بنى أميّة لِصُلْبه . والصَّفُورى : منسوب إلى صَفُّورِيّة ؛ قرية من قرى الروم .

* * *

قال إبراهيم بن هلال الثقفى : فعند ذلك دعا معاوية الضّحّاكَ بن قيس الفِهْرىّ ، وقال له : سِرْ حتى تمرَّ بناحية الكوفة وترتفعَ عنها ما استطعت ، فمَنْ وجدْتَه من الأعراب فى طاعة علىّ فَأغِرْ عليه ، وإن وجدتَ له مَسْلَحَةً (٤) أو خيلا فأغِرْ عليها ، وإذا أصبحتَ فى بلدة فأمْسِ فى أخرى ، ولا تقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها قد سُرِّحت إليك لتلْقاها فتقاتلها . فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف .

فأقبل الضّحاك ، فنهب الأموال وقتل مَنْ لقِىَ من الأعراب ، حتى مر بالثّعْلَبيّة (٥)

---

(١) رواية الطبرى :

كَمَا اتّصَلَتْ بِنْتُ الْحِمَارِ بأمِّهَا   وَتَنْسَى أبَاهَا إذْ تُسَامِى أولى الْفَخْرِ

(٢) الطبرى : « بعد محمد » .

(٣) بعده فى الطبرى :

فَلَوْ رَأَتِ الْأنْصَارُ ظُلْمَ ابْنِ عَمِّكُمْ   لَكانُوا لَهُ مِنْ ظُلْمِهِ حَاضِرِى النَّصْرِ
كَفَى ذَاكَ عَيْباً أَنْ يُشِيرُوا بِقَتْلِهِ   وَأَنْ يُسْلِمُوهُ لِلْأَحَابِيشِ مِنْ مِصْرِ

(٤) المسلحة هنا : القوم ذوو سلاح .

(٥) الثعلبية : من منازل طريق مكة إلى الكوفة .

فأغار على الحاجّ ، فأخذ أمتعتهم ، ثم أقبل فالقى عمرو بن عُمَيس بن مسعود الُهذَلىّ ، وهو ابن أخى عبدالله بن مسعود ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقتله فى طريق الحاجّ عند القُطْقُطانة (١) . وقتلَ معه ناسا من أصحابه .

قال :فروى إبراهيم بن مبارك البجَلِيّ عن أبيه ، عن بكر بن عيسى ، عن أبى رَوْق ، قال : حدّثنى أبى ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، وقد خرج إلى الناس ، وهو يقول على المِنبر :

ياأهلَ الكوفة ، اخرُجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس ، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طَرَف ، اخرجوا فقاتلوا عدوّكم ، وامنعوا حريمَكم إن كنتم فاعلين .

فردّوا عليه ردًّا ضعيفاً ، ورأى منهم عَجْزاً وفَشَلا ، فقال : والله لودِدت أنّ لى بكلّ ثمانية منكم رجلا منهم ! ويحكم اخرجوا معى ، ثم فرّوا عنّى مابدا لكم ؛ فوالله ما أكره لقاء ربِّى على نيّتى وبصيرتى ، وفى ذلك رَوْح لى عظيم ، وفرَج من مناجاتكم ومقاساتكم . ثم نزل .

فخرج يمشى حتى بلغ الغَرِيَّيْنِ ، ثم دعا حُجْر بن عدىّ الكِنْدىّ ، فعقَد له على أربعة آلاف .

وروى محمد بن يعقوب الكُلَيْنِيّ ، قال : استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناسَ عَقِيبَ (١) غارة الضحاك بن قيس الفهرىّ على أطراف أعماله ، فتقاعدُوا عنه ، فخطبهم فقال : ما عزَّتْ دعوةُ مَنْ دعاكم ، ولا استراح قلبُ مَنْ قاساكم . . . الفصل إلى آخره .

* * *

قال إبراهيم الثقفىّ : فخرج حُجْر بن عدىّ حتى مرّ بالسَّماوة — وهى أرض كلْب —

---

(١) قال فى المصباح : « وأما عقيب مثال كريم فاسم فاعل من قولهم : عاقبه معاقبة وعقبه تعقيبا ، فهو معاقب ومعقب وعقيب » .

فلقىَ بها امرأ القيس بن عدىّ بن أوْس بن جابر بن كعب بن عُلَيم الـكلْبىّ ـوهم أصهارُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ـ فـكانوا أدِلاّءه فى الطريق وعلى الميـاه ، فلم يزل مُغِذًّا فى أثر الضحّاك ، حتى لقيَه بناحية تَدْمُر ، فواقعه فاقتتلوا ساعة ، فقتِل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، وقُتِل من أصحاب حُجر رجلان ، وحجز الليل بينهم. فمضى الضّحاك ، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثرا . وكان الضّحاك يقول بعـد : أنا ابنُ قيس ، أنا أبو أنيس ! أنا قاتل عمرو بن عُمَيْس .

* * *

قال : وكتب فى أثر هذه الوقعة عَقِيل بن أبى طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليـه السـلام ، حين بلغه خِذْلان أهل الـكوفة ، وتقاعدهم به :

لعبـد الله علىّ أمير المؤمنين عليـه السلام من عَقيل بن أبى طالب . سلام عليك ، فإنّى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعـد ؛ فإنّ الله حارِسُك من كلّ سوء ، وعاصمُك من كلّ مكروه ، وعلى كلّ حال ؛ إنّى قد خرجت إلى مكة معتمرا ، فلقيت عبـدَ الله بن سعد بن أبى سَرْح فى نحو من أربعين شابًّا من أبناء الطُّلَقَاء ، فعرفتُ المنـكرَ فى وجوههم ، فقلت : إلى أين ياأبناء الشانئين ! أبمعاوية تلحقون ! عداوة والله منـكم قديما غيرُ مستنـكَرة ؛ تريدُون بها إطفاء نور الله ، وتبديلَ أمره . فأسمَعنى القومُ وأسمَعْتُهم ، فلماقدِمْتُ مكة ، سمعت أهلَها يتحدثون أنّ الضّحاك بن قيس أغار على الحيرة ، فاحتمل من أموالها ماشاء ، ثم انكفأ راجعاً سالما. فأفٍّ لحياة فى دهر جرّأ عليك الضّحاك! وماالضحاك! فَقْعٌ بقَرْقر[1] ! وقد توهّمت حيث بلغنى ذلك أنّ شيعتَك وأنصارك خذلوك فاكتب إلىّ يابن أمىّ برأيك ، فإن كنتَ الموتَ تريد ، تحمّلت إليك ببنى أخيك ،

---

(١) القرقر : الأرض المستوية ، والفقع : ضرب من أردأ الـكمأة ، يقال للرجل الذليل : هو فقع قرقر؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها .

وولد أبيك ، فعِشنا معك ما عشت ، ومِتْنا معك إذا متّ ؛ فوالله ما أحِبّ أن أبقى فى الدنيا بعدك فُوَاقاً .

وأُقسِم بالأعزّ الأجَلّ ، إنّ عيشاً نعيشُه بعدك فى الحياة لغيرُ هنىء ولا مرىء ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته(١) .

* * *

فكتب إليه عليه السلام : من عبد الله على أمير المؤمنين : إلى عَقيل بن أبى طالب . سلام الله عليك ، فإنى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد : كلأنا الله وإياك كلاءة مَنْ يخشاه بالغيب ، إنه حميد مجيد . قد وصل إلىّ كتابُك مع عبد الرحمن بن عبيد الأزْدىّ ، تذكر فيه أنّك لقيت عبد الله بن سَعْد بن أبى سَرْح مقبلا من قُدَيْد(٢) فى نحو من أربعين فارساً من أبناء الطُّلقاء ، متوجِّهين إلى جهةِ الغرب . وإنّ ابن أبى سَرْح طالما كاد الله ورسوله وكتابه ، وصدّ عن سبيله وبغاها عِوَجاً ؛ فدع ابنَ أبى سرح، ودعْ عَنْكَ قريشاً ، وخلِّهم وترْكاضَهم فى الضلال ، وتجْوالهم فى الشّقاق. ألا وإنّ العرب قد أجمعتْ على حربِ أخيك اليوم إجماعَها على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقّه ، وجحدوا فضله ، وبادروه العداوة ، ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كلّ الجهد ، وجرُّوا إليه جيش الأحزاب . اللهمّ فاجز قريشاً عنّى الجوازى(٣) ! فقد قَطَعتْ رَحِمى ، وتظاهرَتْ علىّ ، ودفعتنى عن حَقّى ، وسلبتنى سلطانَ ابن أمّى ، وسلّمت ذلك إلى مَنْ ليس مثلى فى قرابتى من الرسول ، وسابقتى فى الإسلام إلاّ أنْ يَدّعىَ مدّعٍ مالا أعرفه ،ولا أظنّ الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال. فأما ماذكرتَه من غارة الضّحاك على أهل الحيرة ، فهو أقلّ وأزلّ من أن يلمّ بها

(١) الفواق : قدر ما بين الحلبتين .
(٢) الأغانى ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ — بيروت .
(٣) الجوازى : جمع جازية ؛ وهى المكافأة على الشىء .

أو يدنو منها؛ ولكنّه قد كان أقبل فى جريدة خيل ، فأخذ على السّماوة ، حتى مرّ بواقصة[١] وشَرَاف[٢] والقُطْقُطَانة ؛ مما والَى ذلك الصُّقْع ، فوجهت إليه جندا كثيفاً من المسلمين ، فلما بلغه ذلك فرّ هاربا ، فاتّبعوه فلحقوه ببعض الطريق وقد أمعن ، وكان ذلك حين طَفَلت[٣] الشمس للإياب ، فتناوشوا القتال قليلا كلا ولا[٤] ، فلم يصبر لوقع المشرفيّة[٥] ، وولّى هاربا ، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلا ، ونجا جَرِيضا[٦] بعد ما أخذ منه بالمخنق ، فلأْيا بلأْيٍ ما نجا . فأمّا ما سألتنى أنْ أكتبَ لك برأيى فيما أنا فيه ، فإنّ رأيى جهادُ المحِلّين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرةُ الناس معى عِزّة ، ولا تفرّقهم عنّى وَحشة ، لأنى محقّ والله مع المحقّ ؛ ووالله ماأكره الموت على الحقّ وما الخيرُ كلُّه إلا بعد الموت لمن كان محقًّا.

وأما ما عرضت به من مَسِيرك إلىّ ببنيك وبنى أبيك فلا حاجة لى فى ذلك ؛ فأقِمْ راشداً محموداً ، فوالله ما أحبّ أن تهلكوا معى إن هلكت ، ولا تحسَبَنّ ابنَ أمك — ولو أسلمه الناس — متخشّعا ولا متضرّعا ، إنه لكما قال أخو بنى سُلَيْم[٧] :

فإنْ تسأليني كَيْفَ أنْتَ فإنّنى صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزمان صَلِيبُ
يَعزّ عَلَىّ أنْ تُرَى بى كآبَةٌ فيشمتَ عادٍ أو يُساء حَبِيبُ

* * *

قال إبراهيم بن هلال الثقفىّ : وذكر محمد بن مخنف أنّه سمع الضّحّاك بن قيس بعد ذلك بزمان يخطُب على مِنْبر الكوفة ، وقد كان بلَغه أنّ قوما من أهلها يَشْتِمون عثمان

(١) واقصة : منزل فى طريق مكة .
(٢) شراف ، بفتح أوله : موضع قريب من واقصة فى طريق مكة أيضاً .
(٣) طفلت الشمس : مالت إلى المغيب .
(٤) قال فى اللسان : العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل قالوا : كان فعله كلا ، وربما كرروا فقالوا : كلا ولا (٢٠ : ٣٧٥) .
(٥) المشرفية : السيوف ؛ منسوبة إلى مشارف الشام ، قرى من أرض العرب تدنو من الريف .
(٦) جريضا : مجهودا يكاد يقضى .
(٧) هو صخر بن الشريد السلمى .

ويبرءون منه ، قال : فسمعتُه يقول : بلغنى أنّ رجالا منكم ضُلّالا يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافَنا الصالحين ؛ أما والّذى ليس له نِدٌّ ولا شريك ؛ لئن لم تنتهوا عمّا يبلُغنى عنكم ، لأضَعَنّ فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدونى ضعيف السَّوْرة(١) ، ولا كليلَ الشَّفْرة. أما إنى لصاحبُكم الّذى أغرتُ على بلادكم ، فكنتُ أولَ مَنْ غزاها فى الإسلام، وشرب من ماء الثَّعْلَبيّة ومن شاطئ الفرات ، أعاقِبُ مَنْ شِئت ، وأعفو عمن شئت؛ لقد ذعَرتُ المخدَّرَاتِ(٢) فى خُدورِهِنّ ، وإن كانت المرأة ليبكى ابنُها فلا ترْهِبُه ولا تسكّته إلا بذكر اسمى. فاتّقوا الله يا أهلَ العراق ؛ أنا الضَّحاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو بن عُميس!

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : صدقَ الأمير وأحسن القول ، ماأعرَفنا والله بما ذكرت ! ولقد لَقِيناك بغربى تَدْمُر ، فوجدناك شجاعا مجرّبا صبورا . ثم جلس وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أوّل ماقَدِم ! وايمُ الله لأذكِّرنّه أبغضَ مواطنه إليه. قال . فسكتَ الضحاك قليلا ، وكأنه خَزِيَ واستحيا ، ثم قال : نعم كان ذلك اليوم! فأخذه بكلام ثقيل ، ثم نزل .

قال محمد بن مِخْنف : فقلت لعبد الرحمن بن عبيد ــ أو قيل له : لقد اجترأتَ حين تُذَكِّره هذا اليوم ، وتُخبره أنّك كنت فيمن لقيَه ! فقال : لَنْ يُصِيبنَا إلّا ما كتبَ الله لنا .

قال : وسأل الضّحاك عبدَ الرحمن بن عبيد حين قدم الكوفة ، فقال : لقد رأيتُ منكم بغربى تَدْمُر رجلا ما كنت أرى أنّ فى الناس مثلَه ، حمل علينا ، فما كذب حتى ضرب الكتيبة التى أنا فيها ، فلما ذهب ليولّى حملت عليه ، فطعنتهُ ، فوقع ثم قام

---

(١) السورة : الشدة .

(٢) المخدرة : المرأة فى الخدر ؛ وهو ستر يمد فى ناحية البيت .

فلم يضرّه شيئاً ، ثم لم يلبث أنْ حمَل علينا فى الكتيبة التى أنا فيها ، فصرع رجلا ثم ذهب لينصرف ، فحملتُ عليه فضربته على رأسه بالسيف ، فخيِّل إلىّ أنّ سيفى قد ثبت فى عَظْم رأسه فضربنى ؛ فوالله ماصنع سيفُه شيئاً ، ثم ذهب فظننت أنّه لن يعود ، فوالله ما راعنى إلّاوقد عصب رأسه بعمامة ، ثم أقبل نحو نافقلت: ثكِلَتْك أمُّك ! أما نهتك الأولَيان عن الإقدام علينا ! قال : إنهما لم تَنْهَيانى ، إنماأحتسب هذا فى سبيل الله . ثم حمل ليطعنَنى ، فطعنته وحمل أصحابُه علينا ، فانفصلنا ، وحال الليل بيننا ، فقال له عبد الرحمن : هذا يوم شَهده هذا ـ يعنى ربيعة بن ماجد ـ وهو فارس الحىّ ، وما أظنه يخفَى أمرُ هذا الرجل . فقال له : أتعرفُه ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال : فأرِنى الضربةَ التى برأسك ، فأراه فإذا هى ضَرْبةٌ قَدْ بَرَتِ العظم مُنكَرة ، فقال له : فما رأيُك اليوم ؟ أهو كرأيك يومئذ ! قال : رأيي اليوم رأىُ الجماعة ، قال : فما عليكم من بأس ، أنتم آمنون مالم تُظْهِرُوا خلافا ، ولكن العَجَب كيف نجوتَ من زياد لم يقتلك فيمن قتل ، أو يُسيّرك فيمن سيَّر ! فقال : أما التسيير فقد سَيّرنى ، وأما القتل فقد عافانا الله منه !

* * *

قال إبراهيم الثّقفى : وأصاب الضّحاكَ فى هرَبه من حُجْر عطش شديد ، وذلك لأنّ الجمل الذى كان عليه ماؤه ضلّ فعطش ، وخَفَق برأسه خَفْقتين لنُعاسٍ أصابه ، فترك الطريق وانتبه ، وليس معه إلا نفر يسير من أصحابه ، وليس منهم أحد معه ماء ، فبعث رجالا منهم فى جانب يلتمسون الماء ولا أنيس ، فكان الضحاك بعد ذلك يحكى ، قال : فرأيت جادّة فلزمتها ، فسمعت قائلا يقول :

دَعَانِى الهوَى فازْدَدْتُ شوْقاً وربّما ... دَعَانى الهوَى مِنْ سَاعَةٍ فأجيبُ
وَأرّقَنِى بَعْدَ المنَامِ وَرُبّما ... أرِقْتُ لسارِى الهمّ حين يئوب

فإن أكُ قَدْ أَحْبَبْتُكُمْ ورأيتُكُمْ فإنى بدَارَىْ عَامِرٍ لَغَرِيبُ

قال: وأشرف علىّ رجل ، فقلت :ياعبد الله ، اسقنى ماء ، فقال :لا والله ،حتى تعطيَنى ثمنه ، قلت : وما ثمنهُ ! قال : ديتُك ، قلت : أما ترَى عليك من الحقّ أن تقرِىَ الضيف ، فتطعمهَ وتسقيه ! قال : ربّما فعلنا وربما بخلنا ، قال : فقلت : والله ما أراك فعلت خيراً قطّ ، اسقنى ، قال : ما أطيق ،قلت : فإنّى أحسِنُ إليك وأكسوك ، قال :لا والله لا أنقص شَرْبةً من مائة دينار ، فقلت له : وَيْحَك ! اسقِنِى ! فقال : وَيْحَك ! أعطنى ، قلت : لا والله ماهى معى ، ولكنّك تسقينى ، ثم تنطلق معى أعطيكها ، قال : لا والله ، قلت: اسقِنى وأرهَنُك فرسى حتى أوفّيكها ، قال : نعم ،ثم خرج بين يدى واتبعته ، فأشرفنا على أخْبِيةٍ وناس على ماء فقال لى : مكانَكَ حتى آتيَك . فقلت : بل أجىء معك ، قال : وساءه حيث رأيت الناس والماء ،فذهب يشتدّ حتى دخل بيتا ، ثم جاء بماء فى إناء ،فقال :اشرَبْ،فقلت: لاحاجةَ لى فيه . ثم دنوت من القوم ، فقلت : اسقونى ماء ،فقال شيخ لابنته : اسقيه ، فقامت ابنتهُ فجاءت بماء ولبن ، فقال ذلك الرجل : نَجّيتك من العطش ، وتذهب بحقى ! والله لا أفارقك حتى أستوفِىَ منك حَقّى ، فقلت : اجلس حتى أوفّيَك . فجلس : فنزلت فأخذت الماء واللبن من يد الفتاة ، فشربت واجتمع إلىّ أهلُ الماء ، فقلت لهم : هذا ألأم الناس ! فعل بى كذا وكذا ! وهذا الشيخ خيرٌ منه وأسدى ، استسقيتُه فلم يكلّمنى وأمر ابنته فسقَتْنى ،وهو الآن يُلزمنى بمائة دينار .فشتمه أهل الحىّ ، ووقعوا به ، ولم يكن بأسرع من أن لحِقنى قوم من أصحابى ، فسلّموا علىّ بالإمْرة ، فارتاب الرجل وجزع ، وذهب يريد أن يقوم ، فقلت : والله لاتبرح حتى أوفّيَك المائة ، فجلس مايدرى ماالذى أريد به ! فلما كثُر جندِى عندى سرّحت إلى ثَقَلى(١) ، فأتيت به ، ثم أمرت بالرجل فجلِد مائة جلدة ، ودعوتُ الشيخ وابنته فأمرتُ لهما بمائة دينار وكسوتهما ، وكسوت أهلَ الماء

---

(١) الثقل : متاع المسافر .

ثوبا ثوبا ، وحرمتُه . فقال أهل الماء : كان أيها الأمير أهلا لذلك . وكنتَ لما أتيت من خير أهلا .

فلما رجعتُ إلى معاوية ، وحدّثته عجِب ، وقال : لقد رأيتَ فى سفرك هذا عجبا .

ويَذكُر أهلُ النَّسب أنّ قيسا أبا الضحاك بن قيس كان يبيع عَسْب الفحول[1] فى الجاهلية .

* * *

ورووا أن عَقِيلا رحمه الله تعالى ، قدِم على أمير المؤمنين ، فوجده جالسا فى صحن المسجد بالكوفة ، فقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته — وكان عَقيل قد كُفّ بصره — فقال : وعليك السلام يا أبا يزيد ، ثم التفت إلى ابنه الحسن عليه السلام ، فقال : قم فأنْزِل عمّك ، فقام فأنزله ، ثم عاد فقال : اذهب فاشترِ لعمّك قميصا جديدا ، ورداء جديدا وإزارا جديدا ونعلا جديدا ، فذهب فاشترى له ، فغدا عَقِيل على علىّ عليه السلام فى الثّياب ، فقال : السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ، قال : وعليك السلام يا أبا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أراك أصبتَ من الدنيا شيئا ، وإنى لا ترضى نفسى من خلافتك بما رضيتَ به لنفسك ، فقال : يا أبا يزيد ، يخرج عطائى فأدفعه إليك .

فلما ارتحل عن أمير المؤمنين عليه السلام أتى معاويةَ فنُصبت له كراسيُّه ، وأجلَس جلساءه حوله ، فلما وَردَ عليه أمر له بمائة ألف فقبَضها ، ثم غدا عليه يوما بعد ذلك ، وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، وبيعة الحسن لمعاوية ، وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد ، أخبِرْنى عن عسكرى وعسكر أخيك ، فقد وردتَ عليهما ، قال : أخْبِرك ، مررت والله

---

(١) العسب هنا : ماء الفحل .

بعسكر أخى ، فإذا ليلٌ كليل رسول الله صلى الله عليــه وآله ، ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلّا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فى القوم ؛ ما رأيتُ إلا مصليا ، ولا سمعت إلا قارئا . ومررت بعسكرك ، فاستقبلنى قومٌ من المنافقين ممن نفر برسول الله ليلة العقبة ، ثم قال : مَنْ هذا عن يمينك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذى اختصم فيه ستة نفر ، فغلب عليه جزّار قريش ! فمن الآخر ؟ قال : الضحاك بن قيس الفِهْرى قال : أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس ؟ فمن هذا الآخر ؟ قال: أبو موسى الأشعرى ، قال : هذا ابنُ السَّرّاقة ، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره عن نفسه ، قال فيه سوءاً ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء ، فيذهب بذلك غضبُ جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول فىّ ؟ قال : دعنى من هذا ! قال : لتقولَنّ ، قال : أتعرف حمامة ؟ قال : ومَنْ حمامة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتُك ، ثم قام فمضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة ، فدعاه ، فقال : مَنْ حمامة ؟ قال : ولى الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمامةُ جدتك أم أبى سفيان ، كانت بَغِيًّا فى الجاهليــة صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتُــكم وزدت عليــكم فلا تغضبوا .

(٣٠)

ومن خطبة له عليه السلام فى معنى قتل عثمان .

الأصلُ :

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً ؛ غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : خَذَلَه مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى : وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَه ؛ اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجزَعَ ، وَلِلّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِى الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ .

* * *

الشّرحُ :

هذا الكلام بظاهره يقتضى أنّه ما أمر بقتله ، ولا نهى عنه ، فيكون دمُه عنده فى حكم الأمور المباحة التى لا يؤمر بها ، ولا ينهى عنها .غير أنه لا يجوز أنْ يحمل الكلام على ظاهره ، لما ثبت من عِصْمة دم عثمان . وأيضاً فقد ثبت فى السِّيَر والأخبار أنه كان عليه السلام ينهَى الناس عن قَتْله ؛ فإذن يجب أن يُحمَل لفظ النهى على المنع كما يقال : الأمير ينهى عن نهب أموال الرعيّة ، أى يمنع ، وحينئذ يستقيم الكلام ؛ لأنه عليه السلام ما أمر بقتلِه ولا منع عن قتله ، وإنما كان ينهى عنه باللسان ولا يمنع عنه باليد .

فإن قيل : فالنّهىُ عن المنكر واجب ، فهلّا منعَ مِنْ قتله باليد ؟

قيل : إنما يجب المنع باليد عن المنكر إذا كان حسنا ؛ وإنما يكون الإنكار حسنا

إذا لم يغلب على ظنّ الناهى عن المنكر أن نهيَه لا يؤثر ، فإن غَلب على ظنّه أن نهيَه لا يؤثر قَبُح إنكار المنكر ، لأنه إن كان الغرض تعريفَ فاعل القبيح قبحَ ما أقدم عليه ؛ فذلك حاصل من دون الإنكار ؛ وإن كان الغرضُ ألا يقع المنكر ، فذلك غير حاصل ؛ لأنه قد غلب على ظنه أن نهيَه وإنكاره لا يؤثر ؛ ولذلك لا يحسُن من الإنسان الإنكار على أصحاب المآصر[١] ما هم عليه من أخذ المكوس ، لما غلَب على الظن أن الإنكار لا يؤثر ؛ وهذا يقتضى أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام قد غلب على ظنه أن إنكاره لا يؤثر ؛ فلذلك لم ينكِر .

ولأجلِ اشتباه هذا الكلام على السامعين ، قال كعب بن جُعيل ، شاعر أهل الشام الأبيات التى منها[٢] :

أرَى الشّام تكرهُ أهلَ العِراقِ ... وأهْلُ العِراقِ لهمْ كارِهُونَا[٣]
وَكلٌّ لصاحِبه مبغِضٌ ... يرى كل ما كان من ذاك دِينَا
إذا ما رَمَوْنَا رَمَيْنَاهمُ ... وَدِنّاهمُ مِثْلَ مَا يقْرِضُونَا[٤]
وَقَالُوا : عَلِيٌّ إمامٌ لَنَا ... فقلنا : رضِينا ابنَ هِنْدٍ رَضِينَا
وَقَالُوا : نَرَى أن تدِينُوا لنا ... فقلنا : ألا لا نَرَى أن ندينَا[٥]
وَمِنْ دُون ذلك خَرْطُ الْقتادِ ... وَطَعْنٌ وَضَرْبٌ يفرِّ الْعيونَا[٦]

(١) المآصر : المواضع المعدة لحبس المارة عن المسير لأخذ العشور .

(٢) الأبيات فى وقعة صفين ٦٣ ، ٦٤ ، وأورد المبرد فى الكامل (٤ — ٢١٢ — بشرح المرصفى) الستة الأبيات الأولى منها ؛ وقال : « وفى آخر هذا الشعر ذم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أمسكنا عن ذكره » .

(٣) وقعة صفين « والكامل » : « ملك العراق » .

(٤) دناهم : من الدين ، وهو القرض : ويقرضونا ، حذفت النون من غير ناصب ولا جازم ، وهو جائز فى العربية ، وانظر خزانة الأدب (٣ : ٥٢٥ — ٥٢٦) .

(٥) هذه رواية ابن أبى الحديد ؛ وهى توافق رواية المبرد ؛ وفى صفين :

وَقُلْنَا نَرَى أن تَدِينوا لَنَا ... فقالوا لَنَا : لا نَرَى أنْ ندينَا

(٦) قال المبرد : « وأحسن الروايتين : يفض الشئونا » .

وَكُلٌّ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ يَرَى غَثَّ ما في يَدَيْهِ سَمِينَا
وَمَا في عَلِيٍّ لِمُسْتَعْتِبٍ مَقَالٌ سِوَى ضَمِّهِ المُحْدِثِينَا
وإيثارِهِ اليومَ أَهْلَ الذُّنُوب وَرَفْعِ القِصَاصِ عَنِ القَاتِلِينَا
إذا سِيلَ عَنْهُ حَذَا شبهةً وَعَمَّى الجوابَ عَلَى السَّائِلِينَا(١)
فليس براضٍ وَلَا ساخِطٍ ولا في النُّهاةِ وَلَا الآمِرِينا
وَلَا هُوَ سَاءَ وَلَا سَرَّهُ وَلَا بُدَّ مِنْ بَعْضِ ذَا أَنْ يَكُونا

وهذا شعر خبيث مُنْكَر ، ومقصد عميق ، وما قال هذا الشعر إلّا بعد أن نُقِل إلى أهل الشام كلامٌ كثيرٌ لأمير المؤمنين عليه السلام فى عثمان يجرى هذا المجرى ، نحو قوله : ما سرّنى وَلاَ ساءنى . وقيل له : أرضِيتَ بقتله ؟ فقال : لم أرضَ ، فقيل له : أسخِطْتَ قتلَه ؟ فقال : لم أسخط . وقوله تارة : الله قتله وأنا معه ، وقوله تارة أخرى : ما قتلت عثمان ولا مالأتُ فى قتله . وقوله تارة أخرى : كنتُ رجلا من المسلمين أوردتُ إذْ أوْرَدُوا ، وأصدرت إذْ أصدروا .

ولكل شىء من كلامه إذا صحّ عنه تأويل يعرفه أولو الألباب .

فأمّا قوله : « غير أنّ مَنْ نصره » ، فكلام معناه أنّ خاذِليه كانوا خيرا من ناصريه ؛ لأنّ الذين نصروه كان أكثرُهم فُسّاقا ، كمرْوان بن الحكم وأضرابه ، وخذله المهاجرون والأنصار .

فأما قوله : « وأنا جامع لكم أمره ... » إلى آخر الفصل ؛ فمعناه أنه فَعَل ما لا يجوز ، وفعلتم مالا يجوز ، أما هو فاستأثر فأساء الأثرة ، أى استبدّ بالأمور فأساء فى الاستبداد ، وأمّا أنتم فجزِعتم مما فعل أى حزنتم فأسأتم الجزع ، لأنكم قتلتموه ، وقد كان الواجب عليه أن

(١) حذا : أعطى ، وفى صفين : « حدا » ، أى ساق .

يرجع عن استئثاره ، وكان الواجب عليكم ألّا تجعلوا جزاءه عمّا أذنب القتل ، بل الخلع والحبس وترتيب غيره فى الإمامة .

ثم قال : ولله حُكْم سيحكم به فيه وفيكم .

***

[اضطراب الأمر على عثمان ثم أخبار مقتله]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتِل .

وأصحّ ماذكر فى ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطّبرى فى " التاريخ "(١) .

وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثا مشهورة نَقِمَها النّاس عليه ، من تأمير بنى أميّة ، ولا سيّما الفساقُ منهم وأربابُ السَّفَه وقلّة الدّين ، وإخراجِ مال الفىء إليهم ، وماجرى فى أمر عمّار وأبى ذرّ وعبدالله بن مسعود ، وغير ذلك من الأمور التى جرتْ فى أواخر خلافته. ثم اتفق أنّ الوليد بن عُقْبة لمّا كان عاملَه على الكوفة وشُهد عليه بشرْب الخمر ، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه ، فقدم سعيد الكوفة ، واستخلص من أهلها قوما يسمُرون عنده ، فقال سعيد يوما : إنّ السواد بستانٌ لقُرَيْش وبنى أمية. فقال الأشتر النّخعىّ : وتزعمُ أنّ السوادَ الذى أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك ! فقال صاحب شُرْطته: أتردّ على الأمير مقالته ! وأغلظ له ، فقال الأشتر لمن كان حوله من النَّخَع وغيرهم من أشراف الكوفة : ألا تسمعون ! فوثبوا عليه بحضْرَة سعيد فوطِئُوه وطأ عنيفا ، وجَرّوا برجْله ، فغلُظ ذلك على سعيد، وأبعد سُمّاره فلم يأذن بعدُ لهم ، فجعلوا يشتِمون سعيدا فى مجالسهم ، ثم تعدّوا ذلك إلى شتم عثمان ، واجتمع إليهم ناس كثير ، حتى غلُظ أمرُهم ، فكتبَ سعيد إلى عثمان فى أمرهم ، فكتب إليه أن يسيّرَهم إلى الشام؛ لئلاّ يُفْسِدوا أهلَ الكوفة، وكتب إلى معاوية وهو والى الشام: إنّ نفرا من أهل الكوفة

(١) فى حوادث سنة ٣٣ — ٣٥ ، مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل .

قد همُّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتُهم إليك، فانههم ؛ فإن آنستَ منهم رُشْداً فأحسن إليهم، واردُدْهم إلى بلادهم .

فلما قدموا على معاوية — وكانوا : الأشتر ، ومالك بن كعب الأرْحَبىّ ، والأسود بن يزيد النَّخَعىّ ، وعلقمة بن قيس النخعىّ ، وصعصعة بن صُوحان العبدىّ ، وغيرهم — جمَعَهم يوما ، وقال لهم : إنَّكم قوم من العَرب ، ذوو أسنان وألسِنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرَفًا ، وغلبتم الأمم ، وحويتم مواريثهم ؛ وقد بلغنى أنَّكم ذممتم قريشا ، ونقِمتم على الولاة فيها ؛ ولولا قريشٌ لكنتمْ أذِلّة ؛ إنّ أئمتكم لكُم جُنَّة ، فلاَ تفرَّقُوا عن جُنّتكم ، إنّ أئمتكم لَيَصبرُون لكم على الجوْر ، ويحتملون منكم[1] العِتاب ؛ والله لتنتهُنّ أو ليبتلينَّكُم الله بمن يسومُكم الخسف ، ولا يحمَدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم ، وبعد وفاتكم .

فقال له صعصعة بن صُوحان : أمّا قريش فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنَعها فى الجاهلية ، وإنّ غيرَها من العرب لأكثرُ منها كان وأمنع .

فقال معاوية : إنك لخطيب القوم ، ولا أرى لك عقلا ، وقد عرفتُكم الآن ، وعلمتُ أنّ الذى أغراكم قلةُ العقول . أعَظِّمُ عليكم أمر الإسلام فتُذكِّرنى الجاهلية ! أخزَى الله قوماً عظّموا أمرَكُمْ ! افقهوا عَنِّى ولا أظنكم تفقهون ؛ إنّ قريشا لم تعِزّ فى جاهلية ولا إسلام إلا بالله وحده ؛ لم تكن بأكثرِ العرب ولا أشدِّها ، ولكنّهم كانوا أكرمَهم أحسابا ، وأمحضَهم[2] أنسابا ، وأكملَهم مروءة ؛ ولم يمتنعوا فى الجاهلية — والناس يأكل بعضُهم بعضا — إلّا بالله ، فبوّأهم حَرَماً آمنا يُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حوله . هل تعرفون عربا أو عجما ، أو سودا أو حمرا إلا وقد أصابهم الدهر فى بلدهم وحرمهم ، إلّا ما كان من قريش ؛ فإنه لم يُرِدْهم أحدٌ من النّاس بكيد إلّا جعل الله خدَّه الأسفل ؛ حتى أراد الله تعالى أن يستنقِذ مَنْ أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا ، وسوء مردّ الآخرة ، فارتضى لذلك خَيْرَ

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فيكم » .
(٢) يقال : عربى محض ؛ أى خالص النسب .

خلقه ، ثم ارتضى له أصحابا ، وكان خيارُهم قريشا . ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعلَ هذه الخلافة فيهم،فلا يصلُح الأمرُ إلا بهم؛وقد كان الله يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم؛ أفتراه لايحوطهم وهم على دينه ! أفٍّ لك ولأصحابك ! أما أنتَ ياصعصعة،فإنّ قريتَك شرُّ القرى ؛ أنتَنُها نَبْتاً وأعمقُها واديا ، وألأمها جيرانا ، وأعرفها بالشّر ؛ لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلا سُبّ بها ، نُزَّاع الأمم وعبيد فارس.وأنت شرّ قومك . أحين أبرزك الإسلام ، وخَلَطك بالناس ، أقبلت تبغِى دينَ الله عوجا ، وتنزع إلى الغواية ! إنه لن يضرّ ذلك قريشا ولا يضعهم ، ولا يمنعهم من تأدية ماعليهم ؛ إنّ الشيطانَ عنكم لَغير غافل ، قد عرَفكم بالشرّ ، فأغرا كم بالناس ، وهو صارعكم ؛ وإنّكم لا تُدْرِكون بالشرّ أمراً إلا فُتِح عليكم شرّ منه وأخزى . قد أذنتُ لكم فاذهبوا حيث شئتم ، لا ينفع الله بكم أحدا أبدا ولا يضرّه ، ولستم برجال منفعة ولا مضرّة ، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتَكم ولا تُبطِرَنّكم النعمة ؛ فإن البَطَر لا يجرّ خيرا. اذهبوا حيث شئتم، فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم .

وكتب إلى عثمان :

إنه قَدِم علىّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل،لا يريدون الله بشىء، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة ، والله مبتليهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين نخاف نكايتَهم ، وليسوا بأكثرَ ممّن له شَغَب ونكير .

ثم أخرجهم من الشام (١) .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ أنه كان لهم مع معاوية بالشام مجالس طالت فيها المحاورات والمخاطبات بينهم ، وأنّ معاوية قال لهم فى جملة ماقاله : إنّ قريشا قد عرفتْ أنّ أبا سفيان

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣٣ ـ ٣٣٥

كان أكرمَها وابنَ أكرمِها ، إلاّ ماجعل الله لنبيه صلى الله عليه ، فإنّه انتجبه [١] وأكرمه ، ولو أنّ أبا سفيان ولد الناس كلَّهم لكانوا حلماء [٢] .

فقال له صعصعة بن صُوحان : كذبت ! قد ولدهم خيرٌ من أبى سفيان ! مَنْ خَلَقه الله بيده ، ونَفَخ فيه من روحه ، وأمرَ الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البرّ والفاجر ، والكيّس والأحمق .

* * *

قال : ومن المجالس التى دارت بينهم أن معاوية قال لهم : أيّها القومُ ردُّوا خيرا أو اسكتوا ؛ وتفكّروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين ، فاطلبوه وأطيعونى .

فقال له صعصعة : لستَ بأهل ذلك ، ولا كرامةَ لك أنْ تُطاع فى معصية الله .

فقال : إنّ أوّلَ كلام ابتدأتُ به أن أمرتُكم بتقوى الله وطاعة رسوله ، وأنْ تعتصموا بحبل الله جميعا ولَا تَفرّقوا .

فقالوا [٣] : بل أمرتَ بالفُرْقة وخلاف ماجاء به النبى صلى الله عليه وآله .

فقال : إن كنتُ فعلتُ فإنى الآن أتوب ، وآمرُكم بتقوى الله وطاعته ، ولزوم الجماعة ، وأنْ توقِّروا أئمتَكم وتُطيعوهم .

فقال صعصعة : إن كنت تبتَ فإنا نأمرُك أن تعتزِل عملك [٤] فإنّ فى المسلمين مَنْ هو أحقُّ به منك ، ممّن كان أبوه أحسنَ أثرا فى الإسلام من أبيك ، وهو أحسنُ قَدَماً فى الإسلام منك .

فقال معاوية : إنّ لِى فى الإسلام لَقَدَماً ، وإن كان غيرى أحسنَ قَدَماً منى ؛ لكنّه

(١) انتجبه : اصطفاه واختاره ، وفى الطبرى : « انتخبه » .
(٢) عبارة الطبرى : « ولو ولد الناس لم يلد إلا حازما » .
(٣) فى الأصول : « فقال » وصوابه من الطبرى .
(٤) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « أمرك » .

ليس فى زمانى أحد أقوَى على ماأنا فيه منّى ، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك ، فلو كان غيرى أقوَى منّى لم يكن عند عمر هَوادة لى ولا لغيرى ، ولم أحدث [1] ماينبغى له أنْ أعتزِل عملى ، فلو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لـكتب إلىّ [بخطّ يده] [2] فاعتزلت عمله ؛ فمهلا فإنّ فى دون ما أنتم فيه مايأمُرُ فيـه الشيطان وينهَى . ولَعَمْرى لو كانت الأمور تُقْضَى على رأيكم وأهوائـكم ما استقام الأمر لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ؛ فعاودوا الخيرَ وقولوه ؛ فإنّ الله ذوسَطَوات ؛ وإنى خائف عليكم أن تَتَتابعوا إلى مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن. فيُحِلَّـكم ذلك دارَ الهون فى العاجل والآجل .

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته فقال : مه ! إنّ هذه ليست بأرض الـكوفة، والله لو رأى أهلُ الشام ماصنعتم بى [وأنا أمامهم] [2] ماملـكتُ أن أنهاهم عنـكم حتى يقتلوكم ؛ فلَعَمْرِى إنّ صنيعَـكم يُشْبِه بعضُه بعضا .

ثم قام من عندهم ، وكتب إلى عثمان فى أمرهم [3] ؛ فـكتب إليه أنْ رُدّهم إلى سعيد ابن العاص بالـكوفة . فردّهم ، فأطلقوا ألسنتهم فى ذمّه وذمّ عثمان وعيبهما. فـكتب إليه عثمان أن يسيِّرَهم إلى حِمْص ، إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فسيّرهم إليها .

* * *

(١) ب . « ولا ح ث » .

(٢) من الطبرى .

(٣) ذكر الطبرى كتاب معاوية إلى عثمان ، وهذا نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معـاوية بن أبى سفيان ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ، ويأتون الناس — زعموا — من قبل القرآن ، فيشبهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ؛ وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم ، وتمـكنت رقى الشيطان من قلوبهم؛ فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الـكوفة ، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم ؛ فارددهم إلى مصرهم ؛ فلتـكن دارهم فى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ، والسلام » .

وروى الوقدىّ ، قال : لما سِيرَ بالنفر الذين طردهم عثمان عن الكوفة إلى حِمْص — وهم : الأشتر ، وثابت بن قيس الهَمْدانىّ ، وكُمَيل بن زياد النَّخَعىّ ، وزيد بن صُوحان ، وأخوه صعصعة ، وجندَب (١) بن زهير الغامدىّ ، وجندب (١) بن كعب الأزدِىّ وعروة بن الجَعْد ، وعمرو بن الحمِق الخزاعىّ ، وابن الكَوَّاء — جمعهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، بعد أن أنزلهم أياما ، وفرض لهم طعاما ، ثم قال لهم يا بنى الشَّيْطان ، لا مرحبا بكم ولا أهلا ؛ قد رجع الشيطان محسورا . وأنتم بَعْدُ فى بساط ضلالكم وغَيِّكم ! جزى الله عبد الرحمن إن لم يؤذِكم ! يا معشر مَنْ لا أدرِى أعرب هم أم عجم ! أتراكم تقولون لى ماقلتم لمعاوية ! أنا ابن خالد ابن الوليد ! أنا ابن مَنْ عَجَمَتْه العاجمات ، أنا ابن فاقئ عين الرِّدّة ؛ والله يا ابن صُوحان لأطيرنّ بك طَيْرَة بعيدة المهوَى إن بلغنى أنّ أحداً ممّن معى دق أنفك فأقنعت (٢) رأسك .

قال : فأقاموا عنده شهرا ؛ كلّما ركب أمشاهم معه ، ويقول لصعصعة : يا ابن الخطيئة ، إنّ مَنْ لم يُصلحْه الخيرُ أصلَحه الشرّ ؛ مالك لا تقول كما كنتَ تقول لسعيد ومعاوية ! فيقولون : سنتوب إلى الله ، أقِلْنا أقالك الله ! فما زال ذاك دأبه ودأبهم ، حتى قال : تاب الله عليكم . فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم ، ويسأله فيهم ، فردّهم إلى الكوفة .

* * *

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ رحمه الله تعالى : ثم إنّ سعيد بن العاص قَدِم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته . فلمّا دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصحابة ، فذكروا سعيدا وأعماله ، وذكروا قَرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين ، وعابوا أفعالَ عثمان ، فأرسلوا إليه عامرَ بن عبد القيس — وكان متألّها (٣) ، واسم أبيه عبد الله ، وهو من تميم ، ثم من بنى العَنْبَر — فدخلَ على عثمان ، فقال له : إنّ ناساً من الصحابة

(١) ا ، ج : « حبيب » ، وما أثبته من ب والطبرى .
(٢) أقنعت رأسك : رفعتها .
(٣) المتأله : المتعبد المتنسك .

اجتمعوا ونظروا فى أعمالك ، فوجدوك قد رَكِبْتَ أمورا عِظاما ، فاتّقِ الله وتبْ إليه.
فقال عثمان : انظروا إلى هذا ، تزعم الناس أنّه قارئ ، ثم هو يجئ إلىّ فيكلّمنى فيما لا يعلمه ! والله ماتدرِى أين الله ! فقال عامر : بلَى والله إنى لأدْرِى أنّ الله لَبِالمِرصاد(١).

فأخرجه عثمان ، وأرسل إلى عبد الله بن سعْد بن سَرْح ، وإلى معاوية وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر ــ وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم ــ فشاورهم ، وقال : إنّ لكلّ أميرٍ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونُصَحائى وأهلُ ثقتى ، وقد صنع الناسُ ماقد رأيتم ، وطلبوا إلىّ أنْ أعزِلَ عُمّالى وأن أرجعَ عن جميع مايكرهون إلى مايحبون ، فاجتهدُوا رأيَكم .

فقال عبد الله بن عامر : أرَى لكَ ياأمير المؤمنين أن تَشْغَلَهم عنك بالجهادحتى يَذِلُّوا لك ، ولا تكون همّةُ أحدِهم إلّا فى نفسه ، وما هو فيه من دَبَر دابته(٢) وقَمَل فَرْوته .

وقال سعيد بن العاص : احْسِم عنك الداء واقطَعْ عنك الذى تخاف ؛ إنّ لكلّ قوم قادة مَتى يَهْلِكوا يتفرّقوا ولا يجتمعْ لهم أمرٌ .

فقال عثمان : إنّ هذا لهو الرأيُ لولا مافيه .

وقال معاوية : أشيرُ عليك أن تأمُرَ أمراء الأجْناد ، فيكفِيَكَ كلّ رجل منهم ما قِبَله ، فأنا أكفيكَ أهلَ الشام .

وقال عبد الله بن سعد : إنّ الناسَ أهلُ طَمَع ، فأعطِهمْ مِنْ هذا المال تعطِفْ عليك قلوبهم .

فقال عمرو بن العاص : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنك قد ركِبْتَ الناس(٣) ببنى أمية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدِلْ أو اعتزِل ، فإن أبيتَ فاعزِمْ عزما ، وامض قُدُما .

---

(١) فى الطبرى : « فإن ربك بالمرصاد لك ؛ فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبى سفيان . . » .
(٢) الدبرة ، بالتحريك : قرحة الدابة والبعير ، وجمعها دبر ، بفتحتين .
(٣) عبارة الطبرى : « قد ركبت الناس بما يكرهون » .

فقال له عثمان : مالكَ قَمِلَ فَرْوُك ! أهذا بجدٍّ (١) منك !

فسكت عمرو حتى تفرّقوا ، ثم قال : والله يا أميرَ المؤمنين ، لأنتَ أكرمُ عليّ من ذلك ؛ ولكنّي علمت أنّ بالباب مَنْ يبلّغ الناس قول كلِّ رجل مِنّا فأردت أن يبلغَهم قولى ، فيثقوا بى ، فأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شرّاً .

فردّ عثمان عُمّاله إلى أعمالهم ، وأمرهم بتجهيز النّاس فى البُعوث ، وعَزَم على أن يحرِمَهم أعطياتِهم ليُطيعوه ، وردّ سعيدَ بن العاص إلى الكوفة ، فتلقاه أهلها بالجرَعَة (٢) — وكانوا قد كرِهوا إمارته ، وذمّوا سيرتَه — فقالوا له : ارجع إلى صاحبك ، فلا حاجة لنا فيك . فهمّ بأن يَمضِيَ لوجهه ولا يرجع ، فكثُر الناس عليه ، فقال له قائل : ماهذا ! أتردّ السيلَ عن أدراجه ! والله لا يُسكِّن الغوغاء إلا المَشْرفيّة (٣) ، ويوشِكُ أنْ تنتَضِى بعد اليوم ، ثمّ يتمنّوْن ماهم اليوم فيه فلا يردّ عليهم . فارجع إلى المدينة ، فإنّ الكوفة ليست لك بدار .

فرجع إلى عثمان ، فأخبره بما فعلوا . فأنفذَ أبا موسى الأشعرىّ أميراً على الكوفة ، وكتب إليهم : أما بعد ، فقد أرسلتُ إليكم أبا موسى الأشعرىَ أميراً ، وأعفيتُكم من سعيد ، ووالله لأفوّضنّكم عِرْضى ، ولأبذلَنّ لكم صَبْرِى ، ولأستصلِحَنّكم جَهْدِى ، فلا تَدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصَى اللهُ فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا كرهتموه لا يُعصَى الله فيه إلا استعفيتم منه ؛ لأكونَ فيه عندما أحببتُم وكرهتم ؛ حتى لا يكونَ لكم على الله حجة ، والله لنصبِرَنّ كما أمِرْنا ، وسيجزى الله الصابرين .

* * *

(١) الطبرى : « أهذا الجد منك ! » .

(٢) الجرعة ، بالتحريك — وقيل بسكون الراء : موضع قرب الكوفة ، بين النجف والحيرة .

(٣) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف ، قرى قرب حوران .

قال أبو جعفر : فلمّا دخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين ؛ تكاتب أعداء عثمان وبنى أمية فى البلاد ، وحرّض بعضُهم بعضا عَلَى خَلع عثمان عن الخلافة ، وعَزْل عمّاله عن الأمصار ، واتصل ذلك بعثمان ، فكتب إلى أهل الأمصار :

أمّا بعد ، فإنه رُفِع إلىّ أنّ أقواما منكم يَشْتِمهم عمّالى ويضربونهم ، فمنْ أصابه شىء من ذلك فليوافِ الموسمَ بمكة ، فليأخذ بحقّه منّى أو من عمّالى فإنى قد استقدمتُهم ، أو تصدّقوا فإن الله يجزى المتصدقين .

ثم كاتب عمّاله واستقدَمهم ، فلما قَدِموا عليه جَمَعهم ، وقال : ماشِكايةُ الناس منكم؟ إنّى لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، ومايُعْصَبُ هذا الأمرُ إلا بى . فقالوا له : والله ماصدَق مَنْ رفَعَ إليك ولا برّ ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا . فقال عثمان : فأشيروا علىّ ، فقال سعيد بن العاص : هذه أمورٌ مصنوعة تُلقَى فى السرّ فيتَحدّث بها الناس ، ودواء ذلك السيف .

وقال عبدُ الله بن سعد : خُذْ من النّاس الذى عليهم إذا أعطيتَهم الذى لهم .

وقال معاوية : الرأىُ حسنُ الأدب .

وقال عمرو بن العاص : أرى لك أن تلزَم طريقَ صاحبيْك ، فتلينَ [فى][1] موضع اللين ، وتشتدّ [فى][1] موضع الشدة .

فقال عثمان : قد سمعتُ ماقلتم ؛ إنّ الأمرَ الذى يُخاف على هذه الأمة كائن لا بُدّ منه ، وإنّ بابه الذى يُغلَق عليه لَيُفتَحَنّ ؛ فكفكفوهم[2] باللين والمدارة إلا فى حدود الله ، فقد عَلِم الله أنّى لم آلُ الناسَ خيرا ، وإنّ رَحا الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكْها ! سكّنوا النّاسَ وهبوا لهم حقوقَهم[3] ، فإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تدهنوا فيها[4] .

---

(١) تكملة من الطبرى .

(٢) كفكفوهم : اصرفوهم .

(٣) المداهنة : المصانعة ، وفى الطبرى وج : « فلا تدهنوا » ، والإدهان : المصانعة .

(٤) فى الأصول : « حقوقكم » ، وما أثبته عن الطبرى .

ثم نفرَ فقدِم المدينة ، فدعا عليًّا وطلحةَ والزبير ، فحضروا وعنده معاوية ، فسكت عثمان ولم يتكلّم ، وتكلّم معاوية ، فحمِد الله ، وقال :

أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وخِيرتُه من خَلْقه ، وولاةُ أمرِ هذه الأمة ، لا يطمع فيه أحدٌ غيرُكم ، اخترتم صاحبَكم عن غير غَلَبة ولا طمع ؛ وقد كَبِر[١] وولّى عمرُه ، فلو انتظرتُم به الهرَم كان قريبا ؛ مع أنى أرجو أن يكونَ أكرمَ على الله أن يبلّغه ذلك ، وقد فَشَتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم ، فما عِبْتم فيه من شىء فهذه يَدى لكم به رَهْنًا[٢] ، فلا تُطمِعوا النّاسَ فى أمرِكم ؛ فوالله إن أطمَعْتُموهم لا رأيتمُ أبدا منها إلا إدبارا .

فقال علىّ عليه السلام : ومالَك وذاك لا أمّ لك ! فقال : دعْ أمّى فإنّها ليست بشر أمّهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبىّ صلى الله عليه ، وأجِبْنى عمّا أقول لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أخى ، أنا أخبركم عنّى وعمّا وَلِيت ؛ إن صاحبىّ اللّذيْن كانا قبلى ، ظَلَما أنفسَهما ومَنْ كان منهما بسبيل احتسابا . وإنّ رسول الله صلى الله عليه كان يعطى قرَابته ، وأنا فى رهطٍ أهل عَيْلة وقلّة معاش ، فبسطتُ يدى فى شىء من ذلك لما أقومُ به فيه ؛ فإن رأيتُم ذلك خطأ فرُدّوه ، فأمرى لأمركم تبَع .

قالوا : أصبتَ وأحسنتَ ؛ إنّك أعطيت عبدَ الله بن خالد بن أسِيد خمسين ألفا ، وأعطيتَ مَرْوانَ خمسة عشر ألفًا ، فاستعدْها منهما . فاستعادها ، فخرجوا راضين .

* * *

قال أبو جعفر : وقال معاويةُ لعثمان : اخرُج معى إلى الشّام ، فإنّهم على الطاعة

---

(١) الطبرى : « كبرت سنه » .
(٢) كلمة « رهنا » ساقطة من الطبرى .

قبل أن يهجُم عليك ما لا قِبَل لك به ، فقال : لا أبيعُ جوارَ رسول الله صلى الله عليه بشيء ، وإن كان فيه [قطع] (١) خيط عنقى . قال : فأبعثُ إليك جُندا من الشام يُقيم معك لنائبة إن نابت [المدينة أو إياك] (١) . فقال : لا أضيِّقُ على جيران رسول الله صلى الله عليه ، فقال : والله لَتُغتَالَنّ ، فقال : حسبي الله ونعم الوكيل .

* * *

قال أبو جعفر : وخرج معاوية من عند عثمان ، فمرّ على نَفر من المهاجرين ، فيهم علىّ عليه السلام وطلحة والزبير ، وعَلَى معاويةَ ثيابُ سفره ، وهو خارج إلى الشام ، فقام عليهم ، فقال : إنكم تعلَمون أن هذا الأمرَ كان الناس يتغالَبون عليه ، حتى بعث الله نبيَّه ، فتفاضلوا بالسَّابقة والقُدْمة والجهاد ؛ فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم ، والنّاسُ لهم تَبَع ، وإن طلبوا الدّنيا بالتغالُب سُلِبوا ذلك ، وردّه الله إلى غيرهم ، وإن الله على البَدَل لقادر . وإنى قد خلّفت فيكم شيخنا ، فاستوصوا به خيرا وكانفوه ، تكونوا أسعد منه بذلك . ثم ودّعهم ومضى . فقال علىّ عليه السلام : كنت أرى فى هذا خيرا . فقال الزبير : والله ما كان أعظَم قطّ فى صدرك وصدورنا منه اليوم .

* * *

قلت : مِنْ هذا اليوم أنشبَ معاوية أظفارَه فى الخلافة ؛ لأنه غلب على ظَنّه قتلُ عثمان ، ورأى أنّ الشام بيده ، وأن أهلَها يطيعونه ، وأنّ له حجّة يحتجّ بها عليهم ، ويجعلُها ذريعةً إلى غرضه ؛ وهى قتلُ عثمان إذا قُتِل ، وأنّه ليس فى أمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش ، واستمالة العرب ، فبنَى أمرَه من هذا اليوم على الطّمع فى الخلافة . ألا ترى إلى قوله لصعصعة من قبل : إنّه ليس أحدٌ أقوَى منّى على الإمارة ، وإن عمر

(١) تكملة من الطبرى .

استعملنى ورضىَ سيرتى ! أوَ لا ترى إلى قوله للمهاجرين الأولين : إن شرعتم فى أخذها بالتغالُب ، وملتم على هذا الشيخ ، أخرجها الله منكم إلى غيركم وهو على الاستبدال قادر ، وإنما كان يعنى نفسَه ، وهو يَكْنِى عنها ، ولهذا تربّض(١) بنصرة عثمان لما استنصره ولم يبعث إليه أحدا .

* * *

وروى محمد بن عمر الواقدىّ رحمه الله تعالى ، قال : لما أجلَب الناسُ عَلَى عثمان ، وكَثُرت القالة فيه ، خرج ناس من مِصْر ؛ منهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوىّ ، وكنانة ابن بِشْر اللّيثى، وسُودان بن حُمْران السَّكُونىّ ، وقتيرة بن وهب السَّكْسَكِىّ ؛ وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقىّ ، وكانوا فى ألفين . وخرج ناس من الكوفة ، منهم زيد بن صُوحان العبدى ، ومالك الأشتر النَّخعىّ ، وزياد بن النضْر الحارثى ، وعبد الله بن الأصم الغامدِىّ ، فى ألفين . وخرج ناسٌ من أهل البصرة ، منهم حُكَيم بن جَبَلة العبْدِىّ ، وجماعة من أمرائهم ، وعليهم حُرقُوص بن زهير السّعدىّ ؛ وذلك فى شوال من سنة خمس وثلاثين ، وأظهروا أنّهم يُريدون الحج . فلما كانوا من المدينة عَلَى ثلاث ، تقدّم أهلُ البصرة ، فنزلوا ذا خُشُب(٢) — وكان هواهم فى طلحة — وتقدم أهلُ الكوفة ، فنزلوا الأعوَص(٣) — وكان هواهم فى الزبير — وجاء أهلُ مصر فنزلوا المرْوَة(٤) — وكان هواهم فى علىّ عليه السلام — ودخل ناسٌ منهم إلى المدينة يَخْبُرُون ما فى قلوب الناس لعثمان ، فلقُوا جماعةً من المهاجرين والأنصار ، ولقُوا أزواج للنبى صلى الله عليه وآله ، وقالوا : إنما نريد الحجّ ، ونستعفِى من عمالنا .

ثم لقىَ جماعة من المصريين عليًا عليه السلام ،وهو متقلّد سيفَه عند أحجار الزَّيْت(٥) ،

(١) تربض : قعد ولم ينصره . (٢) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة .
(٣) أعوص: موضع قرب المدينة على أميال منها. (٤) المروة: جبل بمكة ينتهى إليه السعى من الصفا .
(٥) أحجار الزيت : موضع بالمدينة .

فسلموا عليه ، وعَرَضوا عليه أمرَهم ، فصاح بهم وطردهم ، وقال : لقد عَلِم الصالحون أن جَيْش المرْوَة وذى خُشُب والأعوص مَلْعونون على لسانِ محمد صلى الله عليه .

فانصرفوا عنه .

وأتى البصريون طلحةَ ؛ فقال لهم مثلَ ذلك ، وأتى الكوفيون الزبيرَ ، فقال لهم مثلَ ذلك . فتفرّقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم .

فلما أمِنَ أهلُ المدينة منهم واطمأنّوا إلى رُجُوعهم لم يشعروا إلّا والتكبيرُ فى نواحى المدينة ، وقد نزلوها ، وأحاطوا بعثمان ، ونادى مناديهم : يأهلَ المدينة ، مَنْ كفّ يده عن الحرب فهو آمن . فحصَرُوه فى منزله ، إلّا أنّهم لم يمنعوا الناسَ من كلامه ولقائه ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين ، وسألوهم : ماشأْنُهم ؟ فقالوا : لا حاجةَ لنا فى هذا الرجل ، لِيَعْتَزِلْنا لنُوَلّىَ غيرَه ، لم يزيدوهم على ذلك .

فكتبَ عثمان إلى أهل الأمصار ، يستنجدُهم ويأمرُهم بتعجيل الشُّخوص إليه للمنع عنه ، ويعرِّفُهم ما النّاس فيه . فخرج أهل الأمصار على الصَّعْب والذَّلول ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهرىّ ، وبعث عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح معاوية بن حُدَيج ، وخرج من الكوفة القَعْقاع بن عمرو ؛ بعثه أبو موسى .

وقام بالكوفة نفرٌ يحرّضون الناسَ على نَصْر عثمان وإعانة أهل المدينة ، منهم عُقْبة ابن عمر ، وعبد الله بن أبى أوْفى ، وحنظلةُ الكاتب ، وكلّ هؤلاء من الصحابة ، ومن التابعين مَسْروق ، والأسود ، وشُرَيح ، وغيرهم .

وقام بالبصرة عِمران بن الُحصين وأَنس بن مالك ، وغيرهما من الصحابة . ومن التابعين كعب بن سُور(١) ، وهَرِم بن حَيّان وغيرهما .

(١) فى الأصول : « شور » ، وصوابه من الطبرى والقاموس .

وقام بالشام ومصر جماعة من الصحابة والتابعين .

وخَرج عثمان يوم الجمعة ، فصلى بالناس ، وقام على المنبر ، فقال : ياهؤلاء ، الله اللهَ؛ فوا الله إنّ أهلَ المدينة يَعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه ، فامحوا الخطأ بالصواب .

فقام محمد بن مَسْلَمة الأنصاريّ ، فقال : نعم أنا أعلم ذلك ، فأقعده حُكَيْم بن جَبَلة. وقام زيد بن ثابت فأقعده قُتيرة بن وهب . وثار القوم فحصَبُوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صُرِع عن المنبر مغشيا عليه ؛ فأدخِل دارَه ؛ واستقتل نفرَ من أهل المدينة مع عثمان ؛ منهم سعد بن أبي وَقّاص ، والحسن بن عليّ عليه السلام، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ؛ فأرسل إليهم عثمان : عزمت عليكم أن تنصرفوا ؛ فانصرفوا .

وأقبلَ على وطلحة والزّبير ، فدخلوا على عثمان يعودونه من صَرْعَتِه،ويشكون إليه مايجدُون لأجله ؛ وعند عثمان نفر من بنى أميّة ، منهم مَرْوان بن الحكم ، فقالوا لعليّ عليه السلام:أهلكتَنا وصنعت هذا الذى صنعت ! والله إن بلغتَ هذا الأمر الذى تريده لنُمِرّنّ عليك الدنيا ؛ فقام مغضَبا ، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم .

***

وروى الواقدىّ ، قال : صلى عثمان بعد ماوثبوا به فى المسجد شهرا كاملا ، ثم منعوه الصلاة ، وصلّى بالناس أميرُهم الغافقىّ .

وروى المدائنىّ ، قال : كان عثمان محصوراً محاطا به ، وهو يصلّى بالناس فى المسجد ، وأهلُ مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خَلْفه ، وهم أدقّ فى عينه من التراب .

***

قال أبو جعفر فى التاريخ : ثم إنّ أهل المدينة تفرّقوا عنه ، ولزِموا بيوتَهم،لايخرج أحد منهم إلا بسيفِهِ يمتنع به ؛ فكان حصاره أربعين يوما .

وروى الكلبىّ والواقدىّ والمدائنىّ أنّ محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حُذيفة كانا بمصر يحرّضان الناس على عثمان ، فسار محمد بن أبى بكر مع مَنْ سار إلى عثمان، وأقام محمد بن أبى حذيفة بمصر ، ثم غلَب عليها لما سار عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح عامل عثمان عنها إلى المدينة فى أثر المصريين ، بإذن عثمان له ، فلما كان بأيْلة ، بلغه أنّ المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول ، وأنّ محمد بن أبى حذيفة قد غلب على مصر ، فعاد عبدالله إلى مصر ، فمُنع عنها ، فأتى فلسطين ، فأقام بها حتى قُتِل عثمان .

وروى الكلبىّ،قال : بعث عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح رسولاً من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض مَنْ نهض من مصر إليه،وأنهم قد أظهروا العُمْرة ، وقصدُهم خَلْعُه أو قتله، فخطب عثمان الناس ، وأعلمهم حالهم،وقال : إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عُمْرى، والله إن فارقتُهم ليتمنَّيَنّ كلٌّ منهم أنّ عمرى كان طال عليهم مكان كلِّ يوم سَنَة؛ بما يرون من الدماء المسفوكة والإحَن والأثَرة الظاهرة ، والأحكام المغيرة .

***

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرّض على عثمان ويُغرى به ، ولقد خطب عثمان يوما فى أواخر خلافته ، فصاح به عمرو بن العاص : اتق الله ياعثمان ، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نَتُبْ . فناداه عثمان : وإنك هاهنا يابن النابغة ! قَمِلَتْ والله جُبّتُك منذ نزعتُك عن العمل . فنودى من ناحية أخرى : تب إلى الله . ونودى من أخرى مثل ذلك ، فرفع يديْه إلى السماء ، وقال : اللّهمّ إنى أول التائبين . ثم نزل .

***

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص شديدَ التحريض والتأليب على عثمان ، وكان يقول: والله إن كنتُ لألْقَى الراعى فأحرّضه على عثمان، فضلا عن الرؤساء والوجوه. فلما سُعِّرَ الشرّ بالمدينة ، خرج إلى منزله بفلسطين ، فبينا هو بقصره ومعه ابناه : عبد الله ومحمد ؛ وعندهم سَلاَمة بن روح الجُذامىّ، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان، فقال: محصور، فقال عمرو : أنا أبو عبدالله! قد يضرط العَيْر والمكواة فى النار. ثم مرّ بهم راكب آخر، فسألوه ، فقال : قُتِل عثمان فقال عمرو : أنا أبو عبد الله، إذا نكأتُ قَرْحَةً أدميتُها [(١)] . فقال سلامة بن روْح : يامعشرَ قريش ؛ إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه ، فقال : نعم أردنا أن يخرُجَ الحقّ من خَاصِرَةِ الباطل ، ليكون الناس فى الأمر شَرَعاً سواء .

وروى أبو جعفر ، قال : لما نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتلَ عثمان إن لم ينزِعْ عمّا يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل علىّ عليه السلام، فدخل وقال: يابنَ عَمّ ، إنّ قرابتى قَريبة ، ولى عليك حَقّ ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مُصَبِّحِىّ ، ولك عند الناس قَدْر ، وهمْ يسمعون منك ، وأحبُّ أنْ تركب إليهم فتردّهم عنى ، فإنّ فى دخولهم علىّ وهْناً لأمرى ، وجُرْأَةً علىّ . فقال عليه السلام : عَلَى أى شىء أردّهم ؟ قال : على أنْ أصيرَ إلى ما أشرتَ به ، ورأيتَه لى . فقال علىّ عليه السلام : إنى قد كلّمتك مَرة بعد أخْرَى ، فكل ذلك تخرج وتقول ، وتَعِد ثم ترجع ! وهذا من فعل مَرْوان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد ؛ فإنك أطعتَهم وعصيتَنى ! قال عثمان : فإنى أعصيهم وأطيعُك .

فأمر علىّ عليه السلام الناسَ أن يركبوا معه ، فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين

---

(١) الطبرى : «حككت قرحة نكأتها» .

والأنصار ، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأبو جَهْم العدوىّ ، وجُبَير بن مُطعِم، وحَكِيم بن حِزام ، ومَرْوان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتّاب ابن أسِيد .

ومن الأنصار أبو أسَيْد الساعدىّ ، وزيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وغيرهم .

فأتوا المصريّين فكلموهم ،فكان[1] الذى يكلّمهم علىّ ومحمد بن مَسْلمة ، فسمعوا منهما ، ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر ، ورجع علىّ عليه السلام حتى دخل على عثمان ، فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناسُ منه ، ليسكنوا إلى مايعدهم به من النزوع[2] . وقال له : إنّ البلاد قد تمخضَت عليك ، ولا آمن أن يجىء رَكْب من جهة أخرى ، فتقول لى : ياعلىّ ، اركب إليهم ؛ فإن لم أفعل رأيتَنى قد قطعتُ رحمك ، واستخففت بحقك .

فخرج عثمان ، فخطب الخطبة التى نزَع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة ، وقال لهم : أنا أولُ مَن اتعظ ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه ، فمثْلى نزع وتاب ؛فإذا نزلت فلْيأتنى أشرافُكم فليرَوْا رأيهم ، وليذكر كلّ واحدظُلامته ؛ لأكشفها ،وحاجته لأقضيَها ، فوالله لئن ردنى الحقُّ عبداً لأستنّ بسنة العبيد ، ولأذلَّنّ ذُلّ العبيد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، والله لأُعطِينّكم الرضا ، ولأُنحِّيَنَّ مرْوَانَ وذويه ، ولا أحتجب عنكم .

فرَقّ الناسُ له وبَكَوْا حتى خَضَلُوا لحاهم ، وبكى هو أيضاً ، فلما نزل وجد مَرْوان وسعيداً[3] ونفراً من بنى أمية فى منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته؛ ولكنها بلغتْهم؛ فلما جلس ، قال مَروان : ياأمير المؤمنين ، أأتكلم أم أسكتُ ؟فقالت نائلة ابنةُ الفَرافصة امرأة عثمان : لا بل تسكت ، فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله ؛إنه قد قال مقالة لا ينبغى له

(١) ا ، ج : « وكان » . (٢) نزع عن الأمر نزوعاً : انتهى منه . (٣) هو سعيد بن العاص.

أن ينزع عنها . فقال لها مَرْوان : وما أنت وذاك ! والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! فقالت : مهلا يامَرْوان عن ذكر أبي إلا بخير ؛ والله لولا أنّ أباك عمّ عثمان، وأنه يناله غمّه وعيبه ، لأخبرتُك مِنْ أمره بما لا أكذب فيه عليه .

فأعرض عنه عثمان ، ثم عاد فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أأتكلّم أم أسكت ؟ فقال : تكلم ، فقال : بأبي أنت وأمّي ! والله لَوَدِدْتُ أنّ مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع ، فكنتُ أوّلَ مَنْ رَضِيَ بها وأعان عليها ؛ ولكنّك قلت ماقلت ، وقد بلغ الحزَامُ الطُّبيَين ، وجاوز السّيلُ الزُّبَى(١) ، وحين أعطى الخطةَ الذليلة الذليل ؛ والله لإقامةٌ على خَطِيئة تستغفر الله منها ، أجملُ من توبة تُخوّف عليها ، مازدتَ على أن جرّأت عليك الناس .

فقال عثمان : قد كان من قَوْلي ما كان ، وإنّ الفائت لا يُرَدّ ، ولم آلُ خيرا .

فقال مروان : إنّ الناسَ قد اجتمعوا ببابك أمثالَ الجبال ، قال : ماشأنهم ؟ قال: أنتَ دعوتهم إلى نفسك ، فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل من عُمّالك عنه ، وهذا ماجَنَيْت عَلَى خلافتك ، ولو استمسكتَ وصبرت كانَ خيراً لك.

قال : فاخرُجْ أنت إلى الناس فكلِّمهم فإنّي أستحيي أنْ أكلِّمهم وأردّهم .

فخرج مَرْوانُ إلى الناس ، وقد رَكِبَ بعضُهم بعضا ، فقال : ماشأنُكم ؟ قداجتمعتُم كأنّكم جئتم لنهْب ؛ شاهت الوجوه(٢) ! أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اعزُبوا عنّا ؛ والله إنْ رُمْتُمونا لَنُمِرّنّ عليكم ماحلَا ، ولنُحِلّنّ بكم مالا يسركم ، ولاتحمدوا فيه غِبّ(٣) رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله غيرُ مغلوبين على ما في أيدينا .

---

(١) جاوز الحزام الطبيين ؛ مثل ؛ يقال لمواضع الأخلاف من الناقة أطباء ؛ واحدها طبي ؛ بضم الطاء وكسرها ، فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى في المكروه . ومثله جاوز السيل الزبى ؛ والزبى جمع زبية ؛ وهي مصيدة الأسد ؛ ولا تتخذ إلا في قلة أو هضبة أو رابية .

(٢) شاهت الوجوه : قبحت .

(٣) غب رأيكم ، أي عاقبة رأيكم .

فرجع الناس خائبين يشتمون عثمان ومَرْوان، وأتى بعضُهم عليًّا عليه السلام فأخبره الخبر، فأقبل عليّ عليه السلام عَلَى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزّهريّ، فقال: أحَضرتَ خطبة عثمان؟ قال: نعم، قال: أحَضرتَ مقالة مروان للناس؟ قال: نعم، فقال: أي عبادَ الله، يالله للمسلمين! إنى إن قعدتُ فى بيتى، قال لى: تركتَنى وخذلتنى! وإن تكلّمت فبلّغت له مايريد، جاء مَرْوان فتلعّب به حتى قد صار سيِّقةً[(١)] له؛ يسوقه حيث يشاء، بعد كِبَر السنّ وصحبته الرسول صلى الله عليه. وقام مغضباً من فَوْرِه حتى دخل عَلَى عثمان، فقال له: أما يرضى مَرْوان منك إلّا أن يحرفك عن دينك وعقْلك! فأنتَ معه كجمل الظّعينة، يُقاد حيث يُسارُ به؛ والله مامرْوان بذى رأىٍ فى دينه ولاعقله، وإنى لأراه يُورِدك ثم لا يُصْدِرك، وما أنا عائدٌ بعد مقامى هذا لمعاتبتك؛ أفسدتَ شرفَك، وغُلبت عَلَى رأيك. ثم نَهَض.

فدخلت نائلة بنت الفَرافصة، فقالت: قد سمعتُ قول عليّ لك، وإنه ليس براجعٍ إليك ولا معاود لك، وقد أطعتَ مَرْوان يقودُك حيث يشاء. قال: فما أصنعُ؟ قالت: تتّقِي الله وتتّبع سنة صاحبيك، فإنّك متى أطعتَ مَرْوان قَتَلَك، وليس لمرْوان عند الناس قَدْر ولا هَيْبة ولا محبّة، وإنما تركَك الناس لمكانه، وإنما رجع عنك أهلُ مصر لقول عليّ؛ فأرسِلْ إليه فاستصلِحْه؛ فإنّ له عند الناس قَدَما، وإنّه لا يُعصى.

فأرسل إلى عليّ فلم يأته وقال: قد أعلمتُه أنّى غير عائد.

قال أبو جعفر: فجاء عثمانُ إلى عليّ بمنزله ليلا، فاعتذرَ إليه، ووعد من نفسه الجميل، وقال: إنى فاعل، وإنى غير فاعل؛ فقال له عليّ عليه السلام: أبَعْدَ ماتكلّمت على منبر رسول الله صلى الله عليه، وأعطيتَ من نفسك، ثم دخلتَ بيتك، وخرج مَرْوان

---

(١) سيقة له: أى مسوقاً.

إلى النّاس يشتمهم على بابك ! فخرج عثمان من عنده ، وهو يقول : خذلتنى ياأبا الحسن ! وجرّأت الناس علَىّ ! فقال علىّ عليه السلام : والله إنى لأكثرُ الناس ذَبًّا عنك ؛ ولكنّى كلّما جئتُ بشىء أظنه لك رضا ، جاء مَرْوان بغيره فسمعت قوله ، وتركتَ قولى .

ولم يغْدُ علىّ إلى نَصْر عثمان ؛ إلى أن مُنِع الماء لمّا اشتد الحِصار عليه ، فغضب علىّ من ذلك غضبا شديداً ، وقال لطلحة : أدخلوا عليه الرّوايا ، فكره طلحة ذلك وساءه ، فلم يزل علىّ عليه السلام حتى أدخل الماء إليه .

* * *

وروى أبو جعفر أيضاً أنّ عليًّا عليه السلام كان فى ماله بخَيْبر لمّا حُصِر عثمان ، فقدم المدينة والناس مجتمعون عَلَى طلحة ، وكان لطلحةَ فى حصار عثمان أثر ، فلما قَدِم علىّ عليه السلام أتاه عثمان ، وقال له : أما بَعْد ؛ فإن لى حقّ الإسلام وحقّ الإخاء والقرابة والصِّهر ، ولو لم يَكُن من ذلك شىء وكنّا فى جاهلية ، لكان عاراً عَلَى بنى عبد مناف أن يبتزّ بنو تَيْم أمرَهم — يعنى طلحة — فقال له علىّ : أنا أكفيك ، فاذهب أنت .

ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد ، فتوكأ على يده حتى دخل دار طَلحة وهى مملوءة من الناس ، فقال له : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى صنعتَ بعثمان ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعد أن مَسّ الحزام الطُّبْيَيْن ! فانصرف علىّ عليه السلام حتى أتى بيتَ المال ، فقال : افتحوه ، فلم يجدوا المفاتيح ، فكسَر الباب ، وفرّق ما فيه على النّاس ؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بَقِىَ وحده ، وسُرّ عثمان بذلك ؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّى أردت أمراً فحال اللهُ بينى وبينه ، وقد جئتك تائباً ، فقال : والله ما جئتَ تائباً ولكن جئت مغلوباً ؛ الله حسيبُك ياطلحة !

* * *

قال أبو جعفر : كان عثمان مستضعَفا ، طمع فيه الناس ، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بنى أمية عليه ، وكان ابتداء الجرأة عليه أنّ إبلا من إبل الصَّدَقة قُدِم بها عليه ؛ فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبى العاص ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عَوْف ، فأخذها وقسّمها بين الناس وعثمان فى داره ، فكان ذلك أوّل وَهَن دخل على خلافة عثمان .

وقيل : بل كان أول وَهَنٍ دخل عليه ، أن عثمان مَرّ بجبلة بن عمرو الساعدىّ ، وهو فى نادى قومه ، وفى يده جامعة ، فسلّم ، فردّ القوم عليه ، فقال جَبَلة : لِمَ تردُّون على رَجُل فعل كذا وفعل كذا ؟ ثم قال لعثمان : والله لأطرحَنّ هذه الجامعة فى عُنُقك أو لتتركنّ بِطانتَك هذه الخبيثة ؛ مروان وابن عامر وابن أبى سَرْح ، فمنهم مَنْ نَزَل القرآن بذمّه ، ومنهم من أباح رسول الله صلى الله عليه دمَه .

وقيل : إنه خَطَب يوما وبيده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها جَهْجَاه الغِفارىّ من يده ، وكسرها على رُكبته ، فلما تكاثرتْ أحداثه ، وتكاثر طمعُ الناس فيه ، كتب جَمْعٌ من أهل المدينة من الصّحابة وغيرِهم إلى مَنْ بالآفاق : إن كنتم تُريدون الجهاد ، فهلُمّوا إلينا فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه ، فاختلفتْ عليه القلوب ، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث .

* * *

وروى الواقدىّ والمدائنىّ وابن الكلبىّ وغيرهم ، وذكره أبو جعفر فى التاريخ ؛ وذكره غيرُه من جميع المؤرخين : أن عليا عليه السلام لما ردّ المصريّين ، رَجعوا بعد ثلاثة أيام ، فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رَصاص ، وقالوا : وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف

بالبُوَيْب[1] على بعير من إبل الصدقة ، ففتشنا متاعه ؛ لأنا استربْنا أمره ، فوجدنا فيه هذه الصحفيفة ، مضمونها أمْرُ عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح بجلْد عبد الرحمن بن عُدَيس وعمرو بن الحمِق ، وحَلْق رءوسهما ولحاهما وحبْسهما ، وصلب قوم آخرين من أهل مصر .

وقيل : إنّ الذى أُخِذَتْ منه الصحيفة أبو الأعور السلمىّ ، وإنهم لما رأوه وسألوه عن مسيره ، وهل معه كتاب ؟ فقال : لا ، فسألوه : فى أى شىء هو ؟ فتغير كلامه ، فأخذوه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه ، وعادوا إلى المدينة . وجاء الناس إلى علىّ عليه السلام ، وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال ، فقام فجاء إليه فسأله ، فأقسم بالله ما كتبتُه ولا علمتُه ، ولا أمرت به ، فقال محمد بن مسلمة : صدق ، هذا من عَمَلِ مَرْوان ، فقال : لا أدرى — وكان أهل مصر حضورا — فقالوا : أفيجترأُ عليك ويبعَثُ غلامُك على جمل من إبل الصدقة ؛ وينقش على خاتمك ، ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة ، وأنت لاتدرى ! قال : نعم ، قالوا : إنّك إمّا صادق أو كاذب ، فإن كنت كاذبا فقد استحقَقْتَ الخلع ؛ لما أمرتَ به من قتلنا وعقوبتنا بغير حقّ ، وإن كنتَ صادقا فقد استحقَقْتَ الخلع ، لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك ، وخبث بِطانتك ، ولا ينبغى لنا أن نتركَ هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته ، فاخلع نفسك منه . فقال : لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، ولكنّى أتوب وأنزع ، قالوا : لو كان هذا أوّل ذنب تبت منه لقبلنا ، ولكنّا رأيناك تتوب ثم تعود، ولسناَ بمنصرفينَ حتى نخلَعَك أو نقتلك أو تلحق أرواحُنا بالله ، وإن منعك أصحابُك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك . فقال : أمّا أنْ أبرأ من خلافة الله فالقتلُ أحبُّ إلىّ من ذلك ! وأما قتالُكم مَنْ يمنعُ عَنّى ، فإنى لا آمر أحدا بقتالكم ، فمن قاتلَكم فبغير أمرى قاتَل، ولو أردتُ قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا

(١) البويب : مدخل أهل الحجاز إلى مصر .

علىّ أو لحقتُ ببعض الأطراف . وكثرت الأصوات واللغط ، فقام علىّ فأخرج أهل مصر معه ، وخرج إلى منزله .

* * *

قال أبو جعفر : وكتبَ عُثمان إلى معاويةَ وابنِ عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ، ويأمر بالعَجَل والبِدار وإرسال الجنود إليه ، فتربّص به معاوية ، فقام فى أهل الشام يزيد ابن أسد القَسْرِى جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق ، فتبِعه خَلْقٌ كثير ، فسار بهم إلى عثمان ، فلما كانوا بوادى القُرَى بلَغهم قتلُ عثمان ، فرجعوا .

وقيل : بل أشخص معاويةُ من الشّام حبيبَ بن مسلمة الفِهرىّ ، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السُّلَمىّ ، فلما وصلوا الرَّبذة[1] ، ونزلت مقدمتهم الموضع المسمى صِرارا[2] بناحية المدينة ، أتاهم قتلُ عثمان ، فرجعوا . وكان عثمان قد استشار نُصَحاءه فى أمره ، فأشاروا أن يرسل إلى علىّ عليه السلام ، يطلب إليه أن يردّ الناس ويعطيَهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى تأتيه الأمداد ، فقال : إنّهم لا يقبلون التعليل ، وقد كان منى فى المرأة الأولى ما كان ، فقال مَرْوان : أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك ، فإنهم قوم قد بغَوْا عليك ، ولا عهد لهم .

فدعا عليا عليه السلام ، وقال له : قد ترَى ما كان من الناس ، ولستُ آمَنهُم على دمى ، فارددْهم عنّى ، فإنى أُعْطِيهم ما يُريدون من الحق من نفسى ومن غيرى .

فقال علىّ : إن الناسَ إلى عَدْلِك أحوجُ منهم إلى قتلك ، وإنهم لا يرضوْن إلا

(١) الربذة : من قرى المدينة ، على ثلاثة أميال منها ، بها قبر أبى ذر الغفارى .
(٢) صرار : موضع قريب من المدينة ، على طريق العراق .

بالرضا ، وقد كنتَ أعطيتَهم مِنْ قبلُ عهدا فلم تف به ، فلا تغرّر فى هذه المرة ، فإنى معطيهم عنك الحقّ ، قال : أعطِهم فو الله لأُفِيَنّ لهم .

فخرج علىّ عليه السلام إلى الناس ، فقال : إنكم إنما تطلبون الحقّ وقد أُعطيتموه ، وإنه منصفكم من نفسه ، فسأله الناس أن يستوثقَ لهم ، وقالوا : إنا لا نرضى بقول دون فعل ، فدخل عليه فأعلمه ، فقال : اضرب بينى وبين الناس أجلاً ، فإنى لا أقدر على تبديل ما كرهوا فى يوم واحد ، فقال علىّ عليه السلام : أما ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه ، وأما ما غاب فأجلُه وصولُ أمرِك ، قال : نعم ، فأجّلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . فأجابه إلى ذلك ، وكتب بينه وبين الناس كتابا على ردّ كلّ مظلمة ، وعزل كلّ عامل كرهوه . فكفّ الناس عنه ، وجعل يتأهّب سرا للقتال ، ويستعدّ بالسلاح ، واتّخذ جُندا ، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئا ثار به الناسُ ، وخرج قوم إلى مَنْ بذى خُشُب من المصريين ، فأعلموهم الحالَ ، فقدموا المدينة ، وتكاثر الناس عليه ، وطلبوا منه عزْلَ عماله وردّ مظالمهم ؛ فكان جوابُه لهم : إنى إن كنت أستعمِل مَنْ تريدون لا مَنْ أريد ، فلست إذن فى شىء من الخلافة ، والأمر أمرُكم فقالوا : والله لتفعلنّ أو لتُخلعنّ أو لنقتلنّك . فأبى عليهم وقال : لا أنزع سِرْبالاً سربلنيه الله . فحصروه وضيّقوا الحصار عليه .

* * *

وروى أبو جعفر : لما اشتدّ على عثمان الحِصار ، أشرفَ على الناس ، فقال : يأهل المدينة ، أستودِعكم الله وأسأله أن يُحْسِن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال : أنشُدكم الله ، هل تعلمون أنكم دعوتُم الله عندمصاب عُمَر أنْ يختار لكم ويجمعكم على خيركم ! أفتقولون : إن الله لم يستجِبْ لكم ، وهُنْتم عليه ، وأنتم أهلُ حَقّه وأنصار نبيّه[1] ، أم تقولون : هان على الله

(١) ب : « دينه » .

دينه فلمْ يبالِ من وَلّى ، والدين لم يتفرّق أهله بعد ! أم تقولون : لم يكنْ أخذ عن مشورة ، إنّما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة ـ إذ عصَتْه ولم يتشاوروا في الإمامة ـ إلى أنفسها ! أم تقولون : إن الله لم يَعْلمْ عاقبة أمرى ! فمهلا مهلا ! لا تقتلونى ، وإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة : زانٍ بعد إحصان ، أو كافر بعد إيمان ، أو قاتل نفس بغير حق . أمَا إنكم إن قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لا يرفعه الله عنكم أبدا . فقالوا : أما ماذكرت من استخارة الناس بعد عمر ، فإن كلّ مايصنعه الله الخيرة ، ولكنّ اللهَ جعلَكَ بليّة ابتَلى بها عبادَه ، ولقد كانت لك قَدم وسابقة ، وكنتَ أهلاً للولاية ، ولكن أحدثتَ ماتعلمُه ، ولا نترك اليوم إقامةَ الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا . وأما قولك : لا يحلّ دم إلا بإحدى ثلاث : فإنّا نجد فى كتاب الله إباحة دم غير الثلاثة : دم مَنْ سَعَى فى الأرض بالفساد ، ودَم مَنْ بغى ثم قاتل على بغيه ، ودَم مَنْ حال دون شىء من الحقّ ومنعه وقاتل دونه ؛ وقد بغيتَ ومَنَعْت الحقّ ، وحُلْتَ دونه ، وكابرت عليه ، ولم تُقِد من نفسك مَنْ ظلمتَه ، ولا مِنْ عُمّالك ، وقد تمسّكت بالإمارة علينا . والذين يقومون دونك ويمنعونك ، إنما يمنعونك ويقاتلوننا لتسميتك بالإمارة ؛ فلو خلعت نفسَك لانصرفوا عن القتالِ معك .

فسكت عثمانُ ولزم الدّار ، وأمر أهلَ المدينة بالرجوع ، وأقسم عليهم فرجعوا ، إلّا الحسن بن علىّ ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزُّبَير وأشباها لهم ، وكانت مدة الحصار أربعين يوما .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إنّ محاصرِى عثمان أشفَقُوا مِنْ وصول أجْناد من الشام والبصرة تمنعه ، فحالُوا بَيْن عثمان وبين الناس ، ومنَعُوه كلّ شىء حتى الماء ، فأرسل عثمانُ سرًّا إلى علىّ عليه السلام ، وإلى أزواج النبىّ صلى الله عليه أنهم قد منَعونا الماء ، فإنْ قدرتُم أنْ

تُرسلوا إلينا ماء فافعلوا . فجاء علىّ عليه السلام فى الغَلَس وأمُّ حبيبة بنتُ أبى سفيان ، فوقف علىّ عليه السلام على الناس فوعظهم ، وقال : أيّها الناس ؛ إنّ الذى تفعلون لايشبِهُ أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين ؛ إنّ فارس والروم لتَأسِر فتُطعِم وتَسْقِى ، فالله الله ! لاتقطعُوا الماء عن الرجل ؛ فأغلظوا له وقالوا : لانَعَم ولا نَعْمَة عين[1] . فلما رأى منهم الجِدّ نزعَ عمامته عن رأسه ، ورمى بها إلى دار عثمان ، يُعلِمه أنه قد نهض وعاد .

وأما أمّ حبيبة ـ وكانت مشتملة على إداوة ـ فضربوا وجه بَغْلَتها ، فقالت : إنّ وصايا أيتام بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببتُ أن أسأله عنها لئلا تَهلِكَ أموالُ اليتامى ، فشتموها ، وقالوا : أنت كاذبة ، وقطعوا حبل[2] البغلة بالسيف ، فَنَفَرَتْ وكادت تسقط عنها ، فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : أشرف عثمان عليهم يوما ، فقال : أنشُدُكم الله ، هل تعلمون أنّى اشتريتُ بئر رُومة[3] بمالى ، أستعذب بها ، وجعلت رِشائى فيها كرجل من المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : فَلِمَ تمنعونى أنْ أشرَبَ منها حتى أُفطِرَ على ماء البحر ! ثم قال : أنشُدُكم الله ، هل تَعْلَمُون أنّى اشتريتُ أرضَ كذا ، فزدتُها فى المسجد ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل علمتم أنّ أحداً مُنِع أن يُصَلِّيَ فيه قبلى !

(١) نعمة العين : قرتها .

(٢) الحبل للدابة : رسنها .

(٣) بئر رومة فى عقيق المدينة ، روى عن بشير الأسلمى ، قال : لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكان لرجل من بنى غفار بئر يقال لها بئر رومة ، كان يبيع منها القربة بالمد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعنيها بعين فى الجنة ، فقال : يارسول الله ، ليس لى ولا لعيالى غيرها ، لا أستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم . . وتصدق بها كلها . (معجم البلدان ١ : ٤)

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عَيّاش بن أبى رَبيعة المخزومىّ ، قال : دخلتُ على عثمان ، فأخذ بيدى فأسمعنى كلامَ مَنْ على بابه من الناس ، فمنهم مَنْ يقول : ماتنتظرون به ؟ ومنهم مَنْ يقول : لاتعجلوا ، فعساه ينزِع ويراجع ؛ فبينا نحن إذ مرّ طلحة ، فقام إليه ابنُ عُدَيْس البلَوِىّ ، فناجاه ، ثم رجع ابنُ عُدَيس ، فقال لأصحابه : لاتتركوا أحدا يدخل إلى عثمان ، ولا يخرج من عنده ، قال لى عثمان : هذا ماأمر به طلحة ، اللهمّ اكفِنِى طَلْحة ، فإنه حَمَل هؤلاء القوم وألّبَهُم علىّ ، والله إنى لأرجو أن يكونَ مِنْها صِفْرا ، وأن يُسفَكَ دمه ! قال : فأردت أن أخرج ، فمنعونى حتى أمرهم محمد بن أبى بكر ، فتركونى أخرج(١).

***

قال أبو جعفر : فلما طال الأمرُ وعلم المصريون أنّهم قد أجرموا إليه جرماً كجُرم القتل ، وأنّه لافرقَ بَيْن قتله وبين ماأتوْا إليه ، وخافوا على نفوسهم مِنْ تركه حَيًّا ، راموا الدخولَ عليه من باب داره ، فأغلقوا الباب ، ومانَعهم الحسنُ بن علىّ ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومَرْوان ، وسعيد بن العاص ؛ وجماعة معهم من أبناء الأنصار ، فزجَرَهم عثمان ، وقال : أنتم فى حِلٍّ من نُصْرتى ، فأبوْا ولم يرجعوا .

وقام رجل من أسْلَمَ يقال له نِيَار بن عياض — وكان من الصّحابة — فنادى عثمان ، وأمره أن يخلَعَ نفسه ، فبينا هو يُناشِده ويسومُه خَلْع نَفسه ، رماه كَثِير بن الصّلْت الكِنْدِىّ — وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار — بسَهْم فقتله ، فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك : ادفعوا إلينا قاتلَ ابن عياض لنقتله به ، فقال عثمان : لم أكن لأدفعَ إليكم رجلا نَصَرنى وأنتم تريدون قتلى ! فثاروا إلى البــاب ، فأغلِق دونهم ، فجاءوا بنار فأحرقوه وأحرقوا السّقيفة التى عليه ، فقال لمن عنده من أنصاره : إنّ رسول الله صلى الله عليه عهد

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

إلىّ عَهْدًا فأنا صابر عليه ، فأحَرّج على رجل يقاتل دونى ! ثم قال للحسن : إنّ أباك الآن لَفِى أمر عظيم مِنْ أجلك ، فاخرج إليه ، أقسمت عليك لَمَا خرجت إليه ! فلم يفعل ، ووقف محاميا عنه .

وخرج مروان بسيفه يجالد الناس ، فضَرَبه رَجل من بنى لَيْث على رقبته ، فأثبته[١] وقطع إحدى عِلْبَاويه[٢] ، فعاش مَرْوان بعد ذلك أوْقَص[٣] ، وقام إليه عُبَيْد بن رفاعة الزُّرَقِىّ لِيُذَفِّف عليه[٤] ، فقامت دونه فاطمة أمّ إبراهيم بن عدىّ — وكانت أرضعت مروان وأرضعت له — فقالت له : إن كنت تُريد قتلَه فقد قُتِل ، وإن كنت إنّما تريد أن تتلعّب بلحمه فأقبح بذلك ! فتركه ، فخلّصتْه وأدخلتْه بيتها ، فعرف لها بنوه ذلك بعد ، واستعملوا ابنها إبراهيم ، وكان له منهم خاصة[٥] .

وقُتِلَ المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق ، وهو يحامى عن عثمان بالسيف ، واقتحَم القومُ الدّار ، ودخل كثير منهم الدُّور المجاورة لها ، وتسوّروا من دار عمرو بن حزم إليها حتى ملئوها ، وغلب النّاس على عثمان ونَدَبوا رجلا لقتله ، فدخل إليه البيت ، فقال له : اخلعها ونَدَعك ، فقال : ويحك ! والله ما كشفتُ عن امرأةٍ فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تعيّنت[٦] ولا تمنّيت ، ولا وضعت يمينى على عَوْرتى مذ بايعت رسول الله ، ولست بخالِع قميصا كسانيه الله ، حتى يكرم أهل السعادة ، ويهين أهل الشقاوة .

فخرجَ عنه فقالوا له : ماصنعت ؟ قال : إنّى لم أستحلّ قتله ، فأدخلوا إليه رجلا من الصحابة ، فقال له : لستَ بصاحبى ؛ إن النبىّ صلى الله عليه دَعَا لك أن يحفَظك يوم كذا ، ولن تَضِيع ؛ فرجع عنه .

---

(١) أثبته : جعله ثابتاً فى مكانه لايتحرك من أثر الجراحة .
(٢) علباوان : مثنى علباء ؛ وهى عصب العنق .
(٣) الوقص : قصر العنق .
(٤) يذفف على الجريح : يجهز عليه .
(٥) والخاصة : من تخصه بنفسك .
(٦) تعين الرجل : تأنى ليصيب شيئاً بعينه .

فأدخلوا إليه رجلا من قريش، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا، فلن تُقارِف دما حراما، فرجع عنه.

فدخل عليه محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان : ويحك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جُرْم إلا أني أخذت حقَّ الله منك؟ فأخذ محمد بلحيته، وقال : أخزاك الله يا نعثل[1]! قال : لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين؛ فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان! فقال عثمان : يابن أخي، دَعْها من يدك، فما كان أبوك ليقبض عليها، فقال : لو عملتَ ما عملت في حياة أبي لقبض عليها، والذي أريد بك أشدُّ من قبضي عليها، فقال : أستنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج.

وقيل : بل طَعن جبينه بِمِشْقَصٍ[2] كان في يده، فثار سُودان بن حُمْران، وأبو حرب الغافقيّ وقُتَيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ، فضربه الغافقيّ بعمود كان في يده، وضرب المصحف برجله — وكان في حجره — فنزل بين يديه وسال عليه الدمُ. وجاء سُودان ليضربه بالسيف، فأكبّتْ عليه امرأته نائلة بنت الفَرافصة[3] الكلبية، واتقت السيف بيدها وهي تَصْرخُ، فنفح أصابعها فأطنّها[4]، فولّت، فغمز بعضُهم أوراكها، وقال : إنّها لكبيرة العجُز، وضرب سُودان عثمان فقتله.

وقيل : بل قتَلَه كنانة بن بشر التُّجِيبِيّ وقيل : بل قتيرة بن وهب ودخل غلمان عثمان ومواليه، فضرَب أحدُهم عنقَ سودان فقتله، فوثب قُتَيرة بن وهب على ذلك الغلام

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية؛ قيل : إنه كان يشبه عثمان، قال أبو عبيد : وشاتمو عثمان رضي الله عنه يسمونه نعثلا (اللسان).

(٢) المشقص، كمنبر : نصل عريض.

(٣) الفرافصة؛ قال في اللسان : ليس في العرب من سمي الفرافصة بالألف واللام غيره، ونقل ابن بري عن القالي عن ابن الأنباري عن أبيه عن شيوخه، قال : كل ما في العرب فرافصة، بضم الفاء إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رضي الله عنه. بفتح الفاء لا غير. تاج العروس ٤ : ٤١٥.

(٤) أطنها : قطعها.

فقتله ، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله ، ونهبت دار عثمان ، وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال ، وكان فيه غِرارتان دراهم . ووثب عمرو بن الحمِق على صَدْر عثمان وبه رَمق فطعنه تِسْع طعنات ، وقال : أما ثلاثٌ منها فإني طعنتهن لله تعالى ، وأما ستّ منها فلِمَا كان في صدرى عليه . وأرادُوا قَطْعَ رأسه ، فوقعت عليه زوجتاه : نائلة بنت الفَرافصة وأمّ البنين ، ابنة عُيينة بن حِصْن الفَزارىّ ، فصِحْن وضربن الوجوه ، فقال ابن عُدَيس : اتركُوه ، وأقبل عمير بن ضابئ البُرْجُمىّ فوثب عليه ، فكسر ضِلعين من أضلاعه ، وقال له : سجنت أبى حتى مات في السجن ! وكان قتله يوم الثامن عَشَر من ذى الحِجّة من سنة خمس وثلاثين . وقيل : بل في أيام التشريق ، وكان عمره ستا وثمانين سنة .

قال أبو جعفر : وبقىَ عثمان ثلاثة أيام لا يدُفن . ثم إنّ حَكِيم بن حزام وجُبَير بن مُطْعِم كلما عليا عليه السلام في أن يأذن في دفنه ففعل ، فلما سمع الناس بذلك قَعَد له قوم في الطريق بالحجارة ، وخرج به ناس يسير من أهله ، ومعهم الحسن بن علىّ وابن الزُّبير ، وأبو جَهم بن حُذيفة بين المغرب والعشاء ، فأتوا به حائطا من حيطان المدينة ، يعرف بحَشّ كوكب(١) وهو خارج البَقِيع ، فصلّوا عليه . وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ، فأرسل علىّ عليه السلام ، فمنَعَ مَنْ رجم سريره ، وكفّ الذين راموا مَنْع الصلاة عليه ، ودفن في حَشّ كوكب ، فلما ظهر مُعاوية على الأمر ، أمر بذلك الحائط فهُدِم ، وأدخِل في البَقِيع ، وأمر الناس أن يدفِنُوا موتاهم حول قبره ؛ حتّى اتّصل بمقابر المسلمين بالبقيع .

وقيل : إن عثمان لم يغسّل ، وإنه كُفِّن في ثيابه التى قتل فيها .

---

(١) حش كوكب : موضع بجانب البقيع ، اشتراه عثمان وزاد فيه (مراصد الاطلاع) .

قال أبو جعفر : وروِىَ عن عامر الشعبيّ أنه قال : ما قُتِل عمر بن الخطاب حتى ملّته قريش واستطالت خلافته ، وقد كان يعلم فتنتَهم، فحصرهم فى المدينة وقال لهم : إنّ أخوَف ما أخاف على هذه الأمّة انتشارُكم فى البلاد . وإن كان الرجل ليَستأذِنه فى الغزو، فيقول: إنّ لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه مايكفيك، وهو خير لك من غَزْوك اليوم، وخيرٌ لك من الغَزْو ألّا ترى الدنيا ولا تراك . فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكّة ، فلما ولىَ عثمان الخلافة خلّى عنهم فانتشروا فى البلاد، وخالطهم الناس ، وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه ، وكان عثمان أحبّ إلى الرعيّة من عمر .

* * *

قال أبو جعفر : وكان أوّلَ منكَر ظهر بالمدينة فى خلافة عثمان حين فاضت الدنيا على العرب والمسلمين طيرانُ الحمام والمسابقة بها ، والرمى عن الُجلاهقات — وهى قسىّ البندق — فاستعمل عثمان عليها رجلا من بنى ليث فى سنة ثمان من خلافته ، فقصّ الطيور وكسر الُجلَاهقات .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : سأل رجل سعيدَ بن المسيّب عن محمد بن أبى حُذيفة: مادعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان يتيما فى حجْر عثمان ، وكان والىَ أيتام أهل بيته ومحتمِل كَلّهم ، فسأل عثمانَ العمل ، فقال : (١ يابنىّ لو كنت رِضًا لاستعملتُك ، قال : فَأْذَنْ لى فأخرج فأطلب الرزق ١) ، قال: اذهب حيث شئت ، وجهّزه من عنده ، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه ؛ لأنّه منعه الإمارة . فقيل له : فعمّار بن ياسر ؟ قال :

(١ — ١) عبارة الطبرى . يابنى ، لوكنت رضاً ، ثم سألتنى العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك، قال : وأذن لى ، فلأخرج فلأطلب مايقوتنى » .

كان بينه وبين العباس بن عُقْبة بن أبى لهب كلام فضربهما عثمان ، فأورث ذلك تماديا بين عمّار وعثمان . وقد كان تقاذفا قبلَ ذلك(١) .

قال أبو جعفر : وسئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبى بكر : مادعاه إلى ركوب عثمان ؟ فقال : لزمه حقٌّ ، فأخذ عثمان من ظهره ، فغضب ، وغرّه أقوام فطمع ؛ لأنه كان من الإسلام بمكان ، وكانت له دالّة ، فصار مذمّما بعد أنْ كان محمّدا ، وكان كعب ابن ذى الحبكة النهدىّ يلعب بالنِّيرنجات(٢) بالكوفة ، فكتب عثمان إلى الوليد أن يوجعه ضربا ، فضربه وسيّره إلى دُنباوند(٣) .

وكان ممّن خرج إليه وسار إليه ، وحُبس ضابئُ بن الحارث البُرْجِمِىّ ، لأنه هجا قوما فنسبهم إلى أنّ كلْبَهُمْ يأتى أمّهم ، فقال لهم :

فأمُّكُمُ لَا تَتْرُكُوها وَكَلْبَكُمْ ... فإنَّ عُقوقَ الوالدين كَبِيرُ(٤)

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٩٩ .

(٢) النيرنجات : أخذٌ تشبه السحر ، وليست بحقيقة .

(٣) دنباوند : جبل بنواحى الرى ، ويقال له : دباوند .

(٤) ذكر الطبرى ٤ : ٤٠٢ أن ضابئ بن الحارث البرجمى استعار فى زمان الوليد بن عقبة كلبا من قوم من الأنصار ، يدعى قرحان ، لصيد الظباء ؛ فحبسه عنهم ، فنافره الأنصاريون ، واستغاثوا عليه بقومه ، فكاثروه فانتزعوه منه ، وردوه على الأنصار ، فهجاهم وقال فى ذلك :

تَجَشَّمَ دُونِى وَفْدُ قرحَانَ خُطّةً ... تَضِلُّ لَهَا الْوَجْنَاءُ وَهِىَ حَسِيرُ

فَباتُوا شِبَاعًا نَاعِمِينَ كَأَنَّمَا ... حَبَاهُمْ بِبَيْتِ الْمَرْزُبَانِ أَمِيرُ

فَكَلْبَكُمْ لَاتَتْرُكُوا فَهو أُمُّكُمْ ... فَإنَّ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ كَبِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان ، فأرسل إليه ، فعزره وحبسه ، كما كان يصنع بالمسلمين ، فاستثقل ذلك ، فما زال فى الحبس حتى مات فيه ، وقال فى الفتك يعتذر إلى أصحابه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى ... فَعَلْتُ وَوَلَّيْتُ الْبُكَاءَ حَلَائِلُهْ

وَقَائِلَةٍ قَدْ مَاتَ فِى السِّجْنِ ضَابِئٌ ... أَلَا مَنْ لِخَصْمٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُجَادِلُهْ !

وَقَائِلَةٍ لَا يُبْعِدُ اللهُ ضَابِئًا ... فَنِعْمَ الْفَتَى تَخْلُو بِهِ وَتُحَاوِلُهْ

فاستعدَوْا عليه عثمان ، فحبسه فمات فى السجن ، فلذلك حَقَد ابنه عُمَير عليه وكسر أضلاعه بعد قتله .

* * *

قال أبو جعفر : وكان لعثمان عَلَى طلْحة بن عُبيد الله خمسون ألفاً ، فقال طلحة له يوما: قد تهيأ مالُك فاقبِضْه ، فقال : هو لك معونة على مروءتك ، فلما حُصِر عثمان ، قال علىّ عليه السلام لطلحة : أنْشُدك الله إلا كففْتَ عن عثمان ! فقال : لا والله حتى تُعْطِىَ بنو أمية الحقَّ من أنفسها . فكان علىّ عليه السلام يقول : لحا الله ابن الصَّعبة ! أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به مافعل !

* * *

(٣١)

ومن كلام له عليه السلام لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته (١) :

الأصْلُ :

لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَه ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ : هُوَ الذلُول ؛ وَلَـكِن الْقَ الزُّبَيْرَ ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً ، فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالحِجَازِ ، وَأَنْكَرْتَنِي بِالعِرَاق ؛ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا !

قال الرضيّ (٢) رحمه الله :

وهو عليه السَّلام أوَّلُ مَنْ سُمِعت منه هذه الكلمة ـ أعْني : « فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا » .

* * *

الشَّرْحُ :

ليستفيئه إلى طاعته ، أي يسترجعه ؛ فاء ، أي رجع ، ومنه سُمِّيَ الفيء للظلّ بعد الزوال. وجاء في رواية : «فإنك إن تَلْقَه تُلْفِه» أي تجده ، ألفيتُه على كذا ، أي وجدته.

وعاقصاً قَرْنه ، أي قد عَطَفه ؛ تَيْس أعقص، أي قد التوى قرناه على أذنيْه ، والفعل فيه عَقَص الثور قرنه ، بالفتح . وقال القطب الراوندىّ : عَقِص ؛ بالكسر ؛ وليس بصحيح ، وإنّما يقال : عَقِص الرجلُ ، بالكسر ، إذا شحّ وساء خلقه ، فهو عقِص .

وقوله : « يركب الصَّعْب » ، أي يستهين بالمستصعَب من الأمور ، يصفه بشَراسة

---

(١) ا ، ج بعد هذه الكلمة : « قال عليه السلام » .

(٢) مخطوطة النهج : « السيد » .

الخُلُق والبَأْو[1]، وكذلك كان طلحة ، وقد وصَفَه عمر بذلك . ويقال: إنّ طلحة أحدَثَ يومَ أُحُدٍ عنده كِبْراً شديدا لم يكن ، وذاك لأنه أغْنَى [2] فى ذلك اليوم ، وأبلى بلاء حسنا .

والعريكة هاهنا : الطبيعة ، يقال : فلان لَيِّن العريكة ، إذا كان سَلِساً .

وقال الراوندىّ:العريكة : بقية السَّنَام ؛ ولقد صدق،ولكن ليس هذا موضع ذاك.

وقوله عليه السلام لابن عباس : « قل له يقول لك ابن خالك » لطيف جدا ، وهو من باب الاستمالة والإذْكار بالنَّسب والرحِم ، ألا تَرَى أنّ له فى القلْب من الموقع الدّاعى إلى الانقياد ماليس لقوله : « يقول لك أمير المؤمنين » ! ومن هـذا الباب قوله تعالى فى ذكر موسى وهارون : ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾[3]،لما رأى هارون غضبموسى واحتدامه،شرع معه فىالاستمالة والملاطفة،فقال له : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾،وأذكره حقّ الأُخوّة ، وذلك أدعَى إلى عَطْفِه عليهمن أن يقول له : « ياموسى » ، أو « يأيها النبىّ ».

فأمّا قولُه : « فما عَدَا مما بدا » ، فعدَا بمعنى صَرَف ؛ قال الشاعر :

وإنّى عَدَانى أن أزورَكَ مُحكَمٌ ... مَتَى مَا أُحَرِّكْ فيه سَاقَىَّ يَصخَبِ

و « من » هاهنا بمعنى « عن »؛وقد جاءت فى كثير من كلامهم كذلك ، قال ابنُ قتيبة فى ” أدب الكاتب “ : قالوا : حدّثنى فلان من فلان،أى عن فلان، ولهيت من كذا ، أي عنه [4] ؛ ويصير ترتيبُ الكلام وتقديره : فما صرَفك عمّا بدا منك ! أى

---

(١) البأو : الفخر والادعاء .
(٢) أغنى ، أى صرف الأعداء وكفهم .
(٣) سورة الأعراف ١٥٠ .
(٤) أدب الكاتب ص ٥٠٥ مع اختلاف فى العبارة .

ظَهَر ، والمعنى: ما الّذى صدَّك عن طاعتى بعد إظهارك لها ! وَحَذْفُ الضمير المفعول المنصوب كثير جدا ، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾[(١)]، أى أرسلناه، ولا بدّ من تقديره ؛ كى لا يبقى الموصولُ بلا عائد .

وقال القطب الراوندىّ: قوله: « فما عَدَا مِمّا بَدَا » له معنيان؛ أحدهما : ما الّذى منعك ممّا كان قد بَدَا منك من البَيْعة قبل هذه الحالة ؟ والثانى: ما الّذى عاقك ؟ ويكون المفعول الثانى لـ « عدا » محذوفا ، يدلّ عليه الكلام ، أى ماعداك ! يريد ما شغلك وما منعك ممّا كان بَدَا لك مِنْ نُصْرَتى ! من البَدا الذى يبدُو للإنسان . ولقائل أن يقول : ليس فى الوجه الثانى زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة ؛ أما إنه ليس فيه زيادة ، فلأنّه فَسَّر فى الوجه الأول « عدا » بمعنى منع ، ثم فسّره فى الوجه الثانى بمعنى عاقَ ، وفسر عاق بمنع وشغل ، فصار « عدا » فى الوجه الثانى مِثْلَ « عدا » فى الوجه الأول.

وقوله : « ممّا كان بدا منك » ، فَسّره فى الأول والثانى بتفسير واحد، فلم يبق بين الوجهين تفاوت. وأما الزيادة الفاسدة فظنّه أنّ «عدا» يتعدى إلى مفعولين، وأنّه قد حذف الثانى، وهذا غير صحيح ، لأنّ « عدا » ليس من الأفعال التى تتعدّى إلى مفعولين بإجماع النحاة، ومن العجَب تفسيره المفعول الثانى المحذوف على زعْمه بقوله : أى ماعَداك ، وهذا المفعول المحذوف هاهنا هو مفعول «عدا» الذى لا مفعول لها غيره ، فلا يجوز أن يقال إنه أول ولا ثان .

ثم حكى القطب الراوندىّ حكاية معناها أنّ صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبيدا، [(٢)]ثم ماتت[(٢)]، ثم مات العبيد ولم يخلّفوا وارثا إلّا مواليَهم، وطلب علىّ عليه السلام ميراثَ العبيد بحقّ التعصيب ، وطلَبه الزبير بحق الإرْثِ من أمه . وتحاكما إلى عُمَر ، فقضى عمر بالميراث للزبير .

---

(١) سورة الزخرف ٤٥ .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب .

قال القطب الراوندىّ رحمه الله تعالى ، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: هذا خلافُ الشَّرْع ، لأنّ وَلَاءَ مَعْتَق المرأة - إذا كانت ميّتة - يكونُ لعَصَبَتِها، وهم العاقلة ، لا لأولادها .

قلت : هذه المسألة مختلف فيها بين الإمامية ، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمُفيد[1] ، يقول : إنّ الولاء لولَدها، ولا يُصحِّح هذا الخبرَ ، ويطعَن فى راويه؛ وغيرُه من فقهاء الإمامية كأبى جعفر الطوسىّ[2] ومن قال بقوله يذهبون إلى أنّ الولاء لعَصبتها لا لولدها ، ويصحِّحون الخبر، ويزعمون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام سكَت ولم ينازِع، على قاعدته فى التّقيّة ، واستعمال المجامَلة مع القوم .

فأمّا مذاهبُ الفقهاء غير الإماميّة فإنّها متفقة على أنّ الولاءَ للولَد لا للعَصَبة ، كما هو قولُ المفيد رحمه الله تعالى .

وروى جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه عن جَدّه، عليهم السلام ، قال : سألتُ ابنَ عباس رضى الله عنه عن ذلك، فقال : إنّى قد أتيت الزُّبيرَ ، فقلت له، فقال : قل له : إنى أريد ماتريد - كأنه يقول : الملك - لم يَزِدْنِى على ذلك . فرجعت إلى علىّ عليه السلام فأخبرته .

وروى محمد بن إسحاق والكلبىّ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قلت الكلمة للزُّبير فلم يزدنى على أن قال : قُلْ له :

* إنّا مع الخوْفِ الشديد لَنطمَعُ *

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادى المعروف بالمفيد ؛ أحد أعيان الشيعة وعلمائهم ؛ انتهت إليه رياسة الإمامية فى وقته . وله قريب من مائتى مصنف ؛ وفيها حفظت أقوال الشيعة وآراؤهم وشرحهم وتفصيل مذاهبهم ؛ وعنه تلقى الشريف المرتضى الفقه والتفسير وعلم الكلام ، وتوفى سنة ٤١٣ . روضات الجنات ٥٣٦ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن على بن محمد الطوسى المشهدى ؛ أحد تلاميذ الشيخ المفيد ، ثم الشريف المرتضى من بعده . وكان إماماً واعظاً ؛ ألف الوسيلة والواسطة والفتاوى على مذهب الشيعة ، وغيرها . توفى سنة ٤٠٦ . روضات الجنات ٥٦٧ .

قال : وسئل ابنُ عباس عمّا يَعْنِى بقوله هذا ، فقال: يقول : إنّا على الخوف لنطمع أن نَلِىَ من الأمر ما وليتم .

وقد فسره قوم تفسيراً (١) آخر ، وقالوا: أراد : إنّا مع الخوف من الله لنَطمع أن يُغفر لنا هذا الذنب .

قلت : وعلى كلا التفسيرَيْن لم يحصل جواب المسألة .

* * *

[من أخبار الزبير وابنه عبد الله]

كان عبدُ الله بن الزبير هو الذى يصلّى بالنّاس فى أيام الجمل ، لأنّ طلحة والزبير تَدافعا الصلاة ، فأمرت عائشة عبدَ الله أن يصلّىَ قطعاً لمنازعتهما ، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة ، تستخلف مَنْ شاءت .

وكان عبدُ الله بن الزُّبير يَدّعى أنه أحقُّ بالخلافة من أبيه ومن طلحة ، ويزعم أنّ عثمان يوم الدار أوصى بها إليه .

واختلفت الرواية فى كيفية السَّلام على الزبير وطلحة، فرُوِىَ أنه كان يسلّم على الزبير وحدَه بالإمْرة ، فيقال : السّلام عليك أيّها الأمير ؛ لأن عائشةَ ولّتْه أمْرَ الحرب .

ورُوِى أنه كان يسلّم على كلٍّ واحدٍ منهما بذلك .

لما نزل علىّ عليه السّلام بالبصرة ووقف جيشُه بإزاء جيش عائشة قال الزبير : والله ما كان أمرٌ قطّ إلا عرفتُ أين أضعُ قَدَمىّ فيه إلا هذا الأمرَ ، فإنى لا أدرى : أمقبلٌ أنا فيه أم مُدْبِر! فقال له ابنُه عبدُ الله : كلاّ ولكنّك فَرِقْتَ(٢) سيوفَ ابن أبى طالب، وعرفْتَ أنّ الموتَ الناقع تحت راياته . فقال الزبير : مالك أخزاكَ اللهُ من ولد ! ما أشأمك!

---

(١) كذا فى ا ، ج . وفى ب : « بتفسير » . (٢) فرقت : خفت .

كان أميرُ المؤمنين عليه السلام ، يقول : ما زالَ الزُّبَيْر مِنّا أهلَ البيت ، حتى شبّ ابنُه عبدُالله .

برزَ علىّ عليه السلام بينَ الصّفين حاسرا ، وقال : لِيَبْرُزْ إلىّ الزبير ، فبرز إليه مُدَجَّجاً ؛ فقيل لعائشة : قد بَرَزَ الزُّبير إلى علىّ عليه السلام ، فصاحت : وازبيراه ! فقيل لها : لا بأسَ عليه منه ، إنه حاسر والزبير دارع[(١)] ـ فقال له : ما حملك يا أبا عبدالله على ماصنعت ؟ قال : أطلب بدم عثمان، قال : أنت وطلحة وليتماه ، وإنّما تَوْبَتُك من ذلك أن تُقِيدَ به نفْسَك وتُسلِّمها إلى وَرَثته ، ثم قال : نَشَدْتُك الله ! أتذكُر يومَ مررتَ بى ورسول الله صلى الله عليه وسلّم متكىء على يدك ، وهوجاء من بنى عَمْرو بن عَوْف ، فسلّم عَلَىّ وضحك فى وجهى، فضحكتُ إليه ،لم أزِدْهُ على ذلك، فقلتَ : لايترك ابنُ أبى طالب يارسول الله زَهْوَه ! فقال لك : « مَهْ إنّه ليس بذى زَهْو ، أَمَا إنّك ستقاتله وأنت له ظالم » ! فاسترجَع الزبير وقال : لقد كان ذلك ؛ ولكنّ الدهرَ أنسانيه ، ولأنصرِفَنّ عنك، فرجع، فأعْتَقَ عبدَه سرجِس تَحَلُّلاً[(٢)] من يمين لزمتْه فى القتال ، ثم أتى عائشة ، فقال لها: إنى ما وقفت موقفاً قطّ ، ولا شهدتُ حَرْباً إلا ولى فيه رأىٌ وبصيرة إلا هذه الحرب ، وإنى لَعَلَى شَكّ من أمرى ، وما أكاد أبصِر موضع قدمى . فقالت له : يا أبا عبدالله ، أظنك فَرِقتَ سيوفَ ابن أبى طالب ؛ إنها والله سيوف حِداد ، مُعَدّة للجلاد ، تحملها فتْية أنجاد ؛ ولئن فَرِقْتَها لقد فَرِقَها الرجال قَبْلَك ، قال : كلاّ ، ولكنّه ما قلتُ لكِ .

ثم انصرف .

***

وروى فَرْوَة بن الحارث التميمىّ ، قال : كنتُ فيمن اعتزل عن الحرب بوادى السِّباع[(٣)] مع الأحنف بن قيس ، وخرج ابنُ عمٍّ لى يقال له الجَوْن ، مع عسكر البصرة ، فنهيته ،

(١) الحاسر : من لادرع له ولا جنة ، والدارع : لابس الدرع .

(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « عللا » .

(٣) وادى السباع : موضع بين البصرة ومكة .

فقال : لاأرغبُ بنفسِي عَنْ نُصْرَة أمّ المؤمنين وجواري رسول الله . فخرج معهم ، وإنّى لجالس مع الأحنف ، يستنبئ الأخبار ، إذا بالجون بن قتادة ، ابن عمى مُقْبِلا ، فقمتُ إليه واعتنقتُه ، وسألتُه عن الخبرِ ، فقال : أخبرُك العَجَب ، خرجت وأنا لا أريد أن أبرحَ الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين ، فبينا أنا واقف مع الزُّبير ، إذ جاءه رجل فقال : أبْشِرْ أيّها الأمير ، فإنّ عليًّا لمّا رأى ما أعدّ الله له من هذا الجَمْع ، نكَصَ على عَقِبيْه ، وتفرّق عنه أصحابه . وأتاه آخر ، فقال له مثل ذلك ، فقال الزُّبير : ويحكم ! أبو حسن يرجع ! والله لو لم يجدْ إلّا العَرْفج لدبّ إلينا فيه . ثم أقبل رجل آخر ، فقال : أيّها الأمير ، إنّ نفراً من أصحاب علىّ فارقوه ليدخلوا معنا ، منهم عمّار بن ياسر ، فقال الزبير : كلا وربِّ الكعبة ؛ إنّ عمّاراً لا يفارقه أبدا ، فقال الرجل : بَلَى والله ، مرارا.

فلمّا رأى الزُّبير أنّ الرجلَ ليس براجع عن قوله ، بعث معه رجلا آخر ، وقال : اذْهَبا فانظرا ، فعادا وقالا : إنّ عمّاراً قد أتاك رسولاً من عند صاحبه ، قال جوْن : فسمعتُ والله الزبير يقول : واانْقِطاعَ ظهراه ! واجَدْعَ أنفاه ! واسوادوجهاه ! ويكرّر ذلك مِراراً ، ثم أخذته رِعْدة شديدة ، فقلت : واللهِ إنّ الزبير ليس بجَبان ، وإنّه لمِنْ فُرْسان قريش المذكورين ، وإنّ لهذا الكلام لشأنًا ، ولا أريد أن أشهدَ مشهدًا يقولُ أميرُه هذه المقالة ، فرجعتُ إليكم ؛ فلم يكن إلا قليلٌ حتى مرّ الزبير بنا مُتارِكاً للقوم ، فأتبعه عمير ابن جُرْموز فقتله .

* * *

أكثرُ الروايات على أنّ ابن جُرْموز قُتِل مع أصحاب النهر ، وجاء في بعضها أنّه عاش إلى أيّام ولاية مُصْعب بن الزبير العراق ، وأنّه لما قدم مصعب البصرة خافه ابن جُرْموز فهرب ، فقال مصعب : لِيَظْهر سالما ، وليأخُذْ عطاءه موفوراً ، أيَظُن أنى أقتله بأبي عبدالله وأجعله فداء له ! فكان هذا من الكِبْر المستحسَن .

كان ابن جُرْموز يدعو لدنياه، فقيل له: هلا دعوتَ لآخرتك! فقال: أَيِسْتُ من الجنّة .

الزبير أوّلُ مَنْ شهرَ سيفَه فى سبيل الله ، قيل له فى أول الدعوة : قد قُتِل رسول الله ، فخرج وهو غلام يسعى بسيفه مشهوراً .

وروى الزّبير بن بكار فى " الموفقيّات[1] " قال : لما سارَ علىّ عليه السلام إلى البصرة ، بعثَ ابن عباس فقال : ائت الزّبير ، فاقرأ عليه السلام ، وقل له : يأبا عبد الله ، كيف عرفتَنا بالمدينة وأنكرتَنا بالبصرة ! فقال ابنُ عباس : أفلا آتى طلحة ؟ قال : لا ؛ إذاً تجده عاقصاً قَرْنه فى حَزْن ، يقول : هذا سهل .

قال : فأتيتُ الزبير ، فوجدته فى بيت يتروّح فى يوم حارّ وعبد الله ابنه عنده ، فقال : مرحباً بك يابن لُبابة ! أجئت زائراً أم سفيراً ؟ قلت : كلاًّ ، إنّ ابن خالك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : يأبا عبد الله ، كيف عرفتنا بالمدينة ، وأنكرتنا بالبصرة ! فقال :

عَلِقتُهُمْ أنى خُلِقتُ عُصْبَهْ قَتَــادَةً تعلّقتْ بنُشْبَهْ[2]

لنْ أدَعَهم حتى أؤلّف بينهم ! قال : فأردت منه جوابا غيرَ ذلك ، فقال لى ابنُه عبد الله : قل له : بيننا وبينك دَمُ خليفة ووصيّة خليفة ، واجتماع اثنين ، وانفرادُ واحد ، وأمّ مبرورة ، ومشاورة العشيرة . قال : فعلمتُ أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب ؛ فرجعت إلى علىّ عليه السلام فأخبرته .

---

(١) كتاب الموفقيات فى الأخبار ؛ ألفه الزبير بن بكار للموفق بالله ؛ وكان الزبير بن بكار علامة نسابة أخبارياً ؛ وكتبه فى الأنساب عليها الاعتماد . توفى سنة ٢٥٦ . معجم الأدباء ١١ : ١٦١ .

(٢) فى اللسان : « وفى حديث الزبير بن العوام لما أقبل نحو البصرة وسئل عن وجهه فقال :

عَلِقْتُهُمْ أنى خُلِقْتُ عُصْبَهْ قَتَادَةً مَلْوِيَّةً بِنُشْبَــهْ

قال شمر : وبلغنى أن بعض العرب قال :

غَلَبْتُهُمْ إنى خُلِقْتُ عُصْبَهْ قَتَادَةً مَلْوِيَّةً بِنُشْبَــهْ

قال : والعصبة نبات يلتوى على الشجر ؛ وهو اللبلاب ، والنشبة من الرجال : الذى إذا علق بشىء لم يكد يفارقه . ويقال للرجل الشديد المراس : قتادة لويت بعصبه ، والمعنى : خلقت عصبة لخصومى ، فوضع العصبة موضع العلقة ، ثم شبه نفسه فى فرط تعلقه وتشبثه بهم بالقتادة إذا استظهرت فى تعلقها واستمسكت بنشبة ، أى شديد النشوب .

قال الزبير بنُ بكار : هذا الحديث كان يرويه عمّى مصعب ، ثم تركه ، وقال : إنى رأيت جَدّى أبا عبد الله الزُّبير بن العوّام فى المنام ، وهو يعتذر من يوم الجمل ، فقلت له : كيف تعتذِرُ منه ، وأنت القائل :

عَلِقتهمُ أنى خُلِقْتُ عُصْبَهْ قتادةً تعلّقتْ بِنُشْبَهْ

لن أدعَهم حتى أؤلف بينهم ! فقال : لم أقله .

***

[استطراد بلاغىّ فى الكلام على الاستدراج]

واعلم أن فى علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج ، يناسب ما يذكره فيه علماء البيان قولَ أمير المؤمنين عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك : عرفْتَنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق » !

قالوا : ومن ذلك قولُ الله تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١) ، فإنّه أخذ معهم فى الاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : هذا الرجلُ إما أن يكون كاذباً فكَذِبُه يعودُ عليه ولا يتعدّاه،وإمّا أن يكون صادقا فيصيبكم بعضُ ما يعِدُكم به ، ولم يقل: « كلّ ما يَعِدُكم به » مخادعةً لهم وتلطّفا ؛ واستمالةً لقلوبهم كى لا ينفِروا منه لو أغلظ فى القول ، وأظهرَ لهم أنه يهضمه بعضَ حقّه .

وكذلك تقديمُ قِسْم الكذب على قسم الصدق ، كأنه رَشَاهم ذلك ، وجعله بِرْطِيلاً (٢) لهم ، ليطمئنّوا إلى نصحه .

---

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) البرطيل هنا : الرشوة .

ومن ذلك قول إبراهيم على ماحكاه تعالى عنه فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾(١) ، فطلب منه فى مبدأ الأمر السّبب فى عبادته الصّنم والعلّة لذلك ، ونبّهه على أنّ عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئا قبيحة ، ثم لم يقل له : إنّى قد تبحّرت فى العلوم، بل قال له : قد حصَل عندى نوعٌ من العلم لم يحصل عندك . وهذا من باب الأدب فى الخطاب ، ثم نبّهه على أنّ الشيطانَ عاصٍ لله ، فلا يجوز اتّباعه، ثم خوّفه من عذاب الله إن اتّبع الشيطان ، وخاطبه فى جميع ذلك بقوله : ﴿ يا أَبَتِ ﴾؛ استعطافا واستدراجا، كقول علىّ عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك » ، فلم يُجِبْه أبوه إلى ما أراد، ولا قال له : « يابنىّ » بل قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فخاطبه بالاسم ، وأتاه بهمزة الاستفهام المتضمّنة للإنكار ، ثم توعّده فقال : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ .

قالوا : ومن هذا الباب ما رُوى أنّ الحسينَ بن علىّ عليهما السلام كلّم معاوية فى أمر ابنه يزيد ، ونهاه عَنْ أن يَعهَد إليه ، فأبى عليه معاوية حتى أغضب كلٌّ واحد منهما صاحبَه ، فقال الحسين عليه السلام فى غضون كلامه : أبى خيرٌ من أبيه وأمّى خيرٌ من أمّه ، فقال معاوية : يابن أخى ؛ أمّا أمّك فخيرٌ من أمّه ، وكيف تُقاس امرأةٌ من كَلْب بابنةِ رسول الله(٢) صلى الله عليه ! وأما أبوه فحاكَم أباك إلى الله تعالى، فحكم لأبيه على أبيك .

---

(١) سورة مريم ٤٢ — ٤٥ .
(٢) فى المثل السائر : « وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب » .

قالوا : وهـذا من باب الاستدراج اللطيف ، لأن معاويةَ عَلم أنه إنْ أجابه بجواب يتضمّن الدعْوى لـكونه خيراً من علىّ عليه السلام لم يلتفِتْ أحدٌ إليه ، ولم يكن له كلام يتعلّق به ، لأن آثارَ علىّ عليه السلام فى الإسلام ، وشرفَه وفضيلته تَجِلّ أن يُقاس بها أحدٌ ، فعدَلَ عن ذِكر ذلك إلى التعلّق بما تعلّق به ، فـكان الفَاجَ له .

ذَكر هذا الخبر نصرُ الله بن الأثير فى كتابة المسمى بـ « المثل السائر » فى باب الاستدراج[1] .

وعندى أنّ هذا خارج عن باب الاستدراج ، وأنّه من باب الجوابات الإقناعيّة التى تسمِّيها الحـكماء الجدَليّات والخطـابيـات ، وهى أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق ، وكانت ببادئ النظر مُسْـكِتةً للخَصْم ، صالحة لمصادمته فى مقام المجادلة .

ومثل ذلك قولُ معاوية لأهل الشام حيث التحق به عَقيل بنُ أبى طالب : يأهلَ الشام ، ماظنُّـكم برجل لم يصلح لأخيه !

وقوله لأهل الشام : إنّ أبا لهب المذموم فى القرآن باسمه عمّ علىّ بن أبى طالب . فارتاع أهل الشام لذلك ، وشتموا عليًّا ولَعنوه .

ومن ذلك قول عمر يوم السَّقيفة : أيّـكُم يَطيبُ نَفْساً أن يتقدّم قَدَمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة !

ومن ذلك قول علىّ عليه السلام مجيباً لمن سأله : كم بينَ السماء والأرض؟ فقال : دَعْوة مستجابة .

---

(١) المثل السائر ٢ : ٦٨ — ٧١ .

وجوابه أيضاً لمن قال له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال : مسيرة يوم للشمس .

ومن ذلك قول أبي بكر ـ وقد قال له عمر : أَقِدْ خالداً بمالك بن نُوَيْرة ـ : سيف الله فلا أغمِده .

وكقوله ـ وقد أشير عليه أيضاً بأن يُقيد من بعض أمرائه ـ : أنا أقيد من وَزَعَةِ [1] الله ! ذكر ذلك صاحب " الصحاح " في باب « وزع » [2] .

والجوابات الإقناعية كثيرة ، ولعلّها جمهورُ ما يتداوله النّاس ، ويُسْكِتُ به بعضهم بعضا .

---

(١) الوزعة : جمع وازع ، وهو الذى يتقدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .
(٢) الصحاح ١٢٩٧ .

(٣٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُود ، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ[1] ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً ، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً ، لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا . وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَاف :

مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلَالَةُ حَدِّهِ ، وَنَضِيضُ وَفْرِه .

وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ؛ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ ؛ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُه ، وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً !

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى .

---

(١) ج : « كنود » .

وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ؛ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا.

فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ، وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ. وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ.

***

قال الرضى رحمه الله :

وهذه الخُطْبَةُ رُبَّمَا نسبها من لا عِلْمَ له إلى معاوية ؛ وَهِيَ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الَّذِى لَا يُشكُّ فِيه . وأين الذَّهبُ من الرَّغام وأين العذْبُ من الأُجَاجِ ! وقد دَلَّ على ذلك الدَّليلُ الخِرِّيت ، ونقده النَّاقِدُ البَصِيرُ ، عَمْرُو بن بحرٍ الجاحِظ ، فإنهُ ذكر هذه الخطبة فى كتاب "البيان والتبيين" (١) وذكرَ من نَسَبَهَا إلى مُعَاوية . ثمَّ تكلّم من بعدها بكلام فى معناها ، جملته أنه قال : وهذا الكلام بكلام علىٍّ عليه السلامُ

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٩ ـ ٦١ ؛ عن شعيب بن صفوان ؛ وقال : « وزادفيها اليقطرى وغيره » ، وقال : « لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، فقال: ويحك ! ولم ؟ قال : لاأدرى ؛ قال : فوالله مالهم بعدى إلاالذى يسوءهم ؛ وأذن للناس فدخلوا» . ثم أورد الخطبة بروايته ؛ وقال فى آخرها : « وفى هذه الخطبة : ـ أبقاك الله ـ ضروب من العجب ؛ منها أن الكلام لايشبه السبب الذى من أجلهم دعاهم معاوية ، ومنها أن هـذا المذهب فى تصنيف الناس ، وفى الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف أشبه بكلام على رضى الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ؛ وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ؛ والله أعلم بأصحاب الأخبار ، وبكثير منهم » .

أشبهُ وَ بمذهبهِ فى تصنيف النَّاسِ وفى الإخبارِ عمَّاهُمْ عليهِ من القَهر وَالإذْلالِ، ومن التقيَّةِ والخوْفِ أَلْيقُ . قَالَ: ومتى وجدنا معاويةَ فى حال من الأحوال يسلُكُ فى كلامه مسلك الزُّهَّاد ، ومذاهبَ العُبَّاد !

* * *

الشَّـرْحُ :

دهر عَنود : جائر، عَنَد عن الطريق ؛ يعنُد بالضم، أى عَدَل وجار . ويمكن أن يكون من عَنَدَ يَعْنِد بالكسر ، أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه ؛ إلّا أنّ اسم الفاعل المشهور فى ذلك عاند وعَنِيد ؛ وأما عَنود فهو اسم فاعل ؛ من عَنَد يعنُد بالضم .

قوله: «وزمن شديد»، أى بخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، [1] أى وإنّه لبخيل لأجل حُبّ الخير ، والخير: المال. وقد روى : «وزمن كنود» وهو الكفور، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [2] .

والقارعة : الخطْب الذى يقْرَع ، أى يصيب .

قوله: «ونضيض وفره»، أى قلّة ماله، وكان الأصل «ونضاضة وفْره» ليكون المصدرُ فى مقابلة المصدر الأول، وهو « كلالة حدّه »؛ لكنه أخرجه على باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، كقولهم : عليه سَحْقُ عمامة ، وجَرْد قَطيفة ، وأخلاق ثياب .

قوله : « والمجلِب بخيله ورجلِهِ » ، المجلِب : اسم فاعل من أجلَب عليهم ، أى أعان عليهم .

والرَّجْل: جمع راجل ، كالرَّكْب جمع راكب، والشَّرْب جمع شارب؛ وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [3] .

---

(١) سورة العاديات ٨ .

(٢) سورة العاديات ٦ .

(٣) سورة الإسراء ٦٤ وقراءة حفص بكسر الجيم فى « رجلك » ، وباقى القراءات بسكون الجيم . اتحاف فضلاء البشر ٢٨٠ .

وأشرط نفسه ؛ أى هيّأها وأعدّها للفساد فى الأرض .

وأوبق دينه : أهلكه . والحطام : المال ؛ وأصله ما تكسّر من اليبيس . ينتهزه : يختلسه .

والمِقْنَب : خيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

ويَفْرَعُه : يعلوه . وطامَن من شخصه ، أى خَفَض . وقارب مِنْ خَطْوِه : لم يسرع ومشى رويدا .

وشمّر من ثوبه : قصّره . وزخرف من نفسه : حسّن ونمّق وزين ، والزّخرف : الذهب فى الأصل .

وضُئولة نفسه : حقارتها . والنادّ : المنفرد . والمكعوم ، من كعمت البعير ، إذا شددتَ فمه . والأُجاجُ : الملح .

وأفواههم ضامزة ، بالزاى ؛ أى ساكنة ، قال بشر بن أبى خازم :

لَقَدْ ضَمَزَتْ بجِرَّتها سُلَيْمٌ مَخَافَتَنَا كما ضَمَزَ الحِمَارُ [(١)]

والقرظ : ورَق السَّلَم ، يُدْبَغ به ، وحُثالته : ما يسقط منه .

والجلَم : المقصّ تُجَزّ به أوبارُ الإبل . وقراضته : ما يقع من قَرْضه وقطعه .

فإن قيل : بَيِّنوا لنا تفصيلَ هذه الأقسام الأربعة .

قيل : القسم الأول مَنْ يقعدُ به عن طلب الإمْرة قلة ماله وحقارتُه فى نفسه .

والقسم الثانى : مَنْ يُشَمِّر ويطلب الإمارة ويُفْسد فى الأرض ويكاشف .

والقسم الثالث : مَنْ يُظْهِر ناموس الدين ويطلب به الدنيا .

والقسم الرابع : مَنْ لا مال له أصلا ، ولا يكاشف ، ويطلب المُلْك ولا يطلب الدّنيا

(١) ديوانه ٧٠ ، واللسان (٧ : ٢٣٢) ، ونسبه إلى ابن مقبل ؛ وقال فى شرحه : « معناه قد خضعت وذلت كما ضمز الحمار ؛ لأن الحمار لا يجتر ؛ وإنما قال : ضمزت بجرتها على جهة المثل ، أى سكتوا فما يتحركون ولا ينطقون » .

بالرياء والناموس ، بل تنقطع أسبابُه كلُّها فيخلُد إلى القناعة ، ويتحلّى بحِلْية الزّهادة فى اللّذات الدنيوية ، لا طلبا للدنيا بل عَجْزاً عن الحركة فيها ، وليس بزاهد على الحقيقة .

فإن قيل : فهاهنا قسم خامس ، قد ذكره عليه السلام ؛ وهم الأبرار الأتقياء الّذين أراقَ دموعَهم خوفُ الآخرة .

قيل : إنّه عليه السلام إنما قال : «إنّ الناس على أربعة أصناف» ، وعَنَى بهم مَنْ عَدَا المتقين ؛ ولهذا قال لما انقضى التقسيم : « وبقى رجال غضَّ أبصارَهم ذِكْرُ المرجع » ،فأبان بذلك عن أنّ هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة .

***

[فصل فى ذكر الآيات والأخبار الواردة فى ذم الرياء والشهرة]

واعلم أنّ هذه الخطبة تتضمّن الذمّ لكثير لمن يَدّعِى الآخرة من أهلِ زماننا ، وهم أهلُ الرّياء والنّفاق ، ولابسُو الصوف والثّياب المرقوعة لغير وجه الله .

وقد وردَ فى ذمّ الرياء شىء كثير ، وقد ذكرنا بعضَ ذلك فيما تقدّم .

ومن الآيات الواردة فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ١٤٢ .
(٢) سورة الكهف ١١٠ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٢) .

ومن الأخبار النبويّة قوله صلى الله عليه وآله ، وقد سأله رجل : يارسولَ الله ، فيم النجاة ؟ فقال : « ألّا تعمَل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وفى الحديث : « مَنْ راءى راءى اللهُ به ، ومَنْ سمّع سمّع الله به » .

وفى الحديث : « إن الله تعالى يقول للملائكة : إنّ هذا العمل لم يردْ صاحبُه به وجْهِى ، فاجعلوه فى سجّين » (٣) .

وقال صلى الله عليه وآله : « إنّ أخوف ماأخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغر » ،قالوا: وما الشركُ الأصغر يارسول الله ؟ قال : «الرياء ، يقول الله تعالى إذاجازى العبَادَ بأعمالهم: اذهبو إلى الذين كنتم تراءونهم فى الدنيا ، فاطلبوا جزاءكم منهم » .

وفى حديث شَدَّاد بن أوْس : رأيتُ النبىّ صلى الله عليه وسلّم يبكى ، فقلت : يارسولَالله ، مايبكيك ؟ فقال : « إنّى تخوّفت على أمتى الشرك ، أمَا إنّهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .

ورأى عمرُ رجلًا يتخشّع ، ويُطَأطئُ رقَبَته فى مِشْيته ، فقال له : ياصاحبَ الرّقبة ، ارفع رقَبَتَك ، ليس الخشوع فى الرقاب .

ورأى أبو أمامة رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده ، فقال له : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك !

(١) سورة الإنسان ٩ .
(٢) سورة الماعون ٥ — ٧ .
(٣) سجين : واد فى جهنم .

وقال علىّ عليه السلام : للمرائى أربع علامات : يكسلُ إذا كان وحدَه ، وينْشَطَ إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أُثْنِىَ عليه ، وينَقُص منه إذا لم يُثْنَ عليه .

وقال رجل لعبادة بن الصّامت : أقاتِل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجهَه ومَحْمَدة النـاس ، قال : لاشىء لك ، فسأله ثلاث مرات ، كلّ ذلك يقول : لاشىء لك ! ثم قال فى الثالثة : يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك . . . الحديث .

وضرب عُمر رجلاً بالدِّرَّة ، ثم ظهر له أنّه لم يأتِ جُرْما ، فقـال له : اقتصّ منى ، فقال : بل أدَعُها لله ولك ، قال : ماصنعتَ شيئا ؛ إما أن تدَعها لى فأعرف ذلك لك ، أو تَدَعها لله وحده .

وقال الحسن : لقدْ صحبتُ أقواماً ، إن كان أحدُهم لتَعرِضُ له الـكلمة لو نطق بها لنفعتْه ونفعت أصحابه ، مايمنعه منها إلا مخافةُ الشهرة ، وإنْ كان أحدُهم ليمرّ فيرَى الأذى على الطريق فما يمنعه أن ينحّيَه إلا مخافة الشهرة .

وقال الفُضَيْل : كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون .

وقال عِـكْرمة : إن الله تعالى يُعطِى العبد على نِيّته مالا يُعطيه على عمله ؛ لأنّ النية لارياء فيها .

وقال الحسن :المرائى يريد أن يَغْلِبَ قَدَرَ الله تعالى ، هو رجل سَوْء ، يريدأن يقول الناس : هـذا صالح ؛ وكيف يقولون وقد حلَّ من ربه محلّ الأردئاء [1] ، فلا بدَّ لقلوب المؤمنين أن تعرفَه .

وقال قَتـادة : إذا راءى العبدُ ، قال الله تعـالى لملائـكته : انظروا إلى عبدِى يستهزئُ بى .

وقال الفُضَيْل : مَنْ أراد أنْ ينظُر مُرائيا فلينظر إلىّ .

---

(١) أردئاء : جمع ردىء .

وقال محمد بن المبارك الصُّورىّ: أَظْهِر السَّمْتَ[1] بالليل، فإنه أشرفُ من سَمْتِك بالنهار؛ فإنّ سَمْت النهار للمخلوقين، وسَمْت الليل لربّ العالمين.

وقال إبراهيمُ بن أدْهَم: ما صدق اللهَ مَنْ أحبّ أن يَشْتهر.

ومن الكلام المعزوّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام: إذا كان يومُ صومِ أحدكم فَلْيَدْهُنْ رأسَه ولحيته، وليمسَحْ شفتيه، لئلا يعلم الناس أنه صائم. وإذا أعطَى بيمينه، فلْيُخْفِ عن شماله، وإذا صلّى فَلْيُرْخِ سِتْرَ بابه، فإنّ الله يَقْسِم الثناء كما يَقْسِم الرزق.

ومن كلام بعض الصالحين: آخرُ ما يخرج من رُءوس الصدّيقين حبُّ الرياسة.

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «بحسْب المرء من الشّرّ — إلّا مَنْ عَصمه الله من السوء — أن يُشِيرَ الناسُ إليه بالأصابع فى دينه ودنياه؛ إنّ الله لا ينظر إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وقال علىّ عليه السلام: تَبَذّلْ لا تشتهرْ، ولا ترفَعْ شخْصَك لتُذْكَر بعلم، واسكُتْ واصمت تَسْلم، تَسُرّ الأبرار، وتَغيظ الفجّار.

وكان خالد بن مَعْدان إذا كثُرَت حَلْقتُه قام مخافة الشهرة.

ورأى طلحة بن مصرِّف قوما يَمْشون معه نحو عشرة، فقال: فَرَاش نار، وذِبّان طمع.

وقال سليمان بن حَنْظلة: بينا نحنُ حوالىْ أُبَىّ بن كعب نمشى، إذ رآه عُمر فعلاه بالدِّرة، وقال له: انظُرْ مَنْ حولك! إنّ الذى أنت فيه ذِلّة للتابع، فتنة للمتبوع.

وخرج عبد الله بن مسعود من منزله، فاتبعه قوم، فالتفت إليهم وقال: عَلامَ تتبعونني؟ فوالله لو تعلمون منّى ما أُغلِقُ عليه بابى لما تَبِعنى منكم اثنان.

وقال الحسن: خفْقُ النّعال حولَ الرّجال مما يُثَبِّت عليهم قلوبَ الحمْقَى.

---

(١) السمت: حسن المذهب فى الدين.

وروى أنّ رجلا صَحِبَ الحسن فى طَريق ، فلما فارقه قال : أوصنى رَحِمك الله ! قال : إن استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعْرَف ، وتَمشِىَ ولا يُمْشَىَ إليك ، وتَسْأَل ولا تُسْأل ، فافعل .

وخرج أيوب السَّختِيانىّ فى سَفَر ، فشيّعه قوم ، فقال : لولا أنِّى أعلمُ أنّ الله يعلم مِنْ قلبى أنّى لهذا كاره ، لَخَشيتُ المَقْتَ من الله .

وعوتب أيّوب على تطويل قَمِيصه ، فقال : إنّ الشهرة كانت فيما مَضَى فى طوله ، وهى اليومَ فى قِصَره .

وقال بعضهم : كنت مع أبى قُلابة ، إذْ دخل رجل عليه كِساء ، فقال : إياكم وهذا الحمار النّاهق — يشير به إلى طالب شهرة .

وقال رجل لبِشْر بن الحارث : أوصِنى ، فقال : أَخْمِل ذِكْرَكَ ، وَطيِّب مَطْعمك .

وكان حَوْشب يبكى ويقول : بلَغ اسمِى المسجد الجامع .

وقال بشر : ما أعرِف رجلًا أحبّ أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس .

فهذه الآثار قليل مما ورد عن الصالحين رحمهم الله فى ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة .

* * *

[فصل فى مدح الخمول والجنوح إلى العزلة]

وقد صرح أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مَدْح الأبرار — وهم القسمَ الخامس — بمدح الخمول ، فقال : « قد أخملتْهم التّقيّة » — يعنى الخوف .

وقد ورد فى الأخبار والآثار شىء كثير فى مَدْح الخمول .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ربّ أشْعَثَ أغبَرَ ذى طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له ،

لو أقْسَم على الله لأبرّ قَسَمه » . وفى رواية ابن مسعود : « ربّ ذِى طِمْرَين لا يُؤْبَه له ، ولو سأل الجنّة لأعْطيها » .

وفى الحديث أيضاً عنه صلى الله عليه وسلّم : « ألا أدلّكم على أهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مستضعَف ، لو أقْسَم على الله لأبرّه ؛ ألا أدُلّكم على أهل النار ؟ كلّ متكبِّر جَوّاظ »(١) .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « إنّ أهلَ الجنة الشُّعْثُ الغُبْر ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤْذَنْ لهم ، وإذا خَطَبوا لم يُنْكَحوا ، وإذا قالوا لم يُنْصَتْ لهم ؛ حوائج أحدهم تَتَلَجْلَجُ فى صدره ، لو قُسِمَ نورهم يوم القيامة على الناس لوسعهم » .

وروى أنّ عمر دخل المسجد ، فإذا بمعاذ بن جَبل يَبْكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ اليَسيرَ من الرياء لشِرْكٌ ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا ، وإذا حَضَروا لم يُعْرَفوا ، قلوبُهُم مصابيح الهدَى ، يَنْجُون من كلّ غبراءَ مُظْلِمة » .

وقال ابن مسعود : كونوا ينابيعَ العلم ، مصابيح الُهدَى ، أحْلاسَ البيوت . سُرُجَ الليل ، جُدُدَ القلوب ، خُلْقَانَ الثِّياب ، تُعْرَفون عند أهل السماء ، وتَخْفَوْن عند أهل الأرض .

وفى حديث أبى أمامة ، يرفعه : « قال الله تعالى : إنّ أغْبَط أوليائى لَعبدٌ مؤمن ، خفيف الحاذِ(٢) ، ذو حظٍّ من صلاة ، وقد أحسنَ عبادة ربِّه ، وأطاعه فى السرّ ، وكان غامضا فى الناس ، لا يُشار إليه بالأصابع » .

وفى الحديث : « السعيد من خَمَلَ صيتُه ، وقلّ تُراثه ، وسَهُلت منيَّتُه ، وقَلّت بواكيه » .

---

(١) الجواظ : الجموع المنوع .

(٢) الحاذ والحال واحد ، وأصل الحاذ طريقة المتن ، وهو مايقع عليه اللبد من ظهر الفرس ؛ أى خفيف الظهر من العيال . نهاية ابن الأثير .

وقال الفُضَيل : رُوى لى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمنّ به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أُخمِل ذكرك !

وكان الخليل بن أحمد يقول فى دعائه : اللّهم اجْعلْنِى عندك من أرْفَع خَلْقك ، واجعلنى عِنْد نفسى من أوْضَع خَلْقك ، واجْعلْنى عِنْدَ الناس من أوْسَطِ خلقك .

وقال إبراهيم بن أدْهم : ما قرّت عينى ليلة قَطّ فى الدنيا إلا مرّة ، بتُّ ليلة فى بعض مساجد قُرَى الشام ، وكان بى علّة البطن ، فجرّنى المؤذن برِجْلى حتى أخرجنى من المسجد .

وقال الفُضَيْل : إن قَدَرْتَ على ألا تُعرف ، فافْعل ، وما عليك ألا تعرف ! وما عليك ألاّ يُثْنَى عليك ! وما عليك أن تكونَ مذموما عند الناس ؛ إذا كنت محموداً عند الله تعالى !

* * *

فإن قيل: فما قولُك فى شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأكابر الفقهاء المجتهدين ؟ قيل : إنّ المذمومَ طلبُ الشهرة ؛ فأمّا وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم ؛ بل لا بُدّ من وجود إنسان يَشْتهر أمره ؛ فإنّ بطريقه يَنْصلِح العالم ؛ ومثال ذلك الغرقَى الذين بينهم غريقٌ ضعيف ، الأوْلى به ألاّ يعرفه أحد منهم ، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلِكوا معه ؛ فإن كان بينهم سابح قوىّ مشهور بالقوّة ، فالأولى ألّا يكون مجهولا ، بل ينبغى أن يُعرف ليتعلّقوا به، فينجُو هو ويتخلّصوا من الغرق بطريقه .

(٣٣)

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة :

الأَصْـلُ :

قال عبد الله بنُ العباس : دخلت على أمير المؤمنين بذى قار وهو يخصف نعـله ، فقال لى : ماقيمة هذا النعل ؟ فقلت : لا قيمةَ لها ، فقال : والله لَهِيَ أحبُّ إليَّ من إِمْرَتكم ؛ إلا أن أقيم حقًّا ، أو أدفعَ باطلا ، ثم خرج فخطب الناس فقال :

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَـدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً ؛ فَسَاقَ ٱلنَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ .

أَما وَٱللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا ، حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِها ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَإِنَّ مَسِيرِى هَٰذَا لِمِثْلِهَا ؛ فَلَأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ ٱلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ .

مَا لِي وَلِقُرَيْش ! وَٱللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِين ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ ؛ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ ٱلْيَوْمَ . وَٱللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ ٱللهَ ٱخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

أَدَمْتَ لَعَمْرِى شُرْبَكَ ٱلْمَحْضَ صَابِحاً وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ ٱلْمُقَشَّرَةَ ٱلْبُجْرَا(١)
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ ٱلْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ عَلِيًّا ، وَحُطْنَا حَوْلَكَ ٱلْجُرْدَ وَٱلسُّمْرَا

* * *

(١) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة .

الشَّرْحُ :

ذو قَار : موضع قريبٌ من البَصْرة ، وهو المكان الذى كانت فيه الحربُ بين العرب والفرس ، ونُصِرت العرب على الفرس قبل الإسلام .

ويخصِف نعله ، أى يَخْرِزها .

وبوّأهم محلّتهم : أسكنهم مَنْزلهم ، أى ضرب النّاس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه ، ومثله « وبلّغهم منجاتهم » إلّا أن فى هذه الفاصلة ذكر النّجاة مصرّحا به .

فاستقامتْ قناتُهم : استقاموا على الإسلام ، أى كانت قناتهم معوجّة فاستقامت .

واطمأنت صَفاتُهم ؛ كانت متقلقلة متزلزلة ، فاطمأنّت واستقرّت .

وهذه كلّها استعارات .

ثم أقسم أنّه كان فى ساقتها حتى تولّتْ بحذافيرها ؛ الأصل فى « ساقتها » أن يكون جمع سائق كحائِض وحاضة ، وحائك وحاكة ، ثم استعملت لفظة « الساقة » للأخير ، لأن السائق إنما يكون فى آخر الرّكْب أو الجيش .

وشبّه عليه السلام أمرَ الجاهلية ؛ إمّا بعَجاجة ثائرة ، أو بكتِيبة مُقْبلة للحرب ، فقال : إنّى طردتُها فولّت بين يدىّ ، ولم أزل فى ساقتها أنا أطرُدها وهى تنطرد أمامى ؛ حتى تولّتْ بأسْرِها ولم يبق منها شىء ، ما عجزْت عنها ، ولا جَبُنْت منها .

ثم قال : وإنّ مسيرى هذا لِمِثْلِها ، فَلَأَنقُبَنّ الباطل ؛ كأنه جعل الباطل كشىء قد اشتمل على الحق ، واحتوَى عليه ، وصار الحقُّ فى طَيّه ، كالشىء الكامن المستتِر فيه ، فأقسم لينقبنّ ذلك الباطل إلى أن يخرُج الحقُّ من جنبه .

وهذا من باب الاستعارة أيضاً .

ثم قال : « لقدْ قاتلتُ قريشا كافرين ، وَلَأُقاتلنَّهُم مفتونين » ؛ لأنّ الباغيَ على الإمام مفتون فاسق .

وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا : إنّ أصحاب صِفِّين والجمل ليسوا بكفار ؛ خلافاً للإمامية ، فإنهم يزعمون أنهم كفار .

* * *

[خبر يوم ذى قار]

روى أبو مِخْنف عن الكلبيّ ، عن أبى صالح ، عن زيد بن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلنا مع علىّ عليه السلام ذا قار ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ ! فقال : والله لَيأتينّى منهم ستة آلاف وخمسمائةٍ وستون رجلا ؛ لا يزيدون ولا ينقصون .

قال ابن عباس : فدخلَنى والله من ذلك شكٌّ شديد فى قوله ، وقلت فى نفسى : والله إن قدِمُوا لأعُدّنّهم .

قال أبو مِخْنف : فحدث ابن إسحاق ، عن عمه عبد الرحمن بن يسار ، قال : نفَر إلى علىّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة فى البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ؛ أقام علىّ بذى قار خمسة عشر يوما ، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله .

قال : فلما سار بهم منقلة(١) ، قال ابنُ عباس: واللهِ لأعُدّنّهم ، فإن كانوا كما قال ، وإلا أتممتُهم من غيرهم ؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله . قال : فعرضتُهم فو الله ما وجدتُهم يزيدون رجلا ، ولا ينقصون رجلا ، فقلت : الله أكبر ! صدق الله ورسوله ! ثم سرنا .

قال أبو مِخْنف: ولما بلغ حُذَيفةَ بن اليمَان أنّ عليا قد قَدِم ذا قار ، واستنفرَ الناس ، دعا

---

(١) المنقلة : مرحلة السفر .

أصحابه فوعظهم وذكّرهم الله وزهدهم فى الدنيا ، ورغّبهم فى الآخرة ، وقال لهم : الحقُوا بأمير المؤمنين ووصىِّ سيد المرسلين، فإنّ من الحقّ أنْ تنصروه ؛ وهذا الحسن ابنُه وعمّار قد قدما الكوفة يستنفران الناس ، فانفِروا .

قال : فنفر أصحابُ حذيفة إلى أمير المؤمنين ، ومكث حُذَيفة بعد ذلك خمس عشرة ليلة ، وتوفى رحمه الله تعالى .

قال أبو مِخْنف : وقال هاشم بن عُتْبة المِرْقال ، يذكُر نفورهم إلى علىٍّ عليه السلام :

وَسِرْنَا إلى خَـيْرِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا ... عَلَى عِلْمِنَا أنّا إلَى اللهِ نَرْجِـعُ
نُوَقِّرُهُ فى فَضْـلِهِ ونُجِلّهُ ... وفى الله مانَرْجُو وما نتوقّعُ
وَنَخْصِفُ أخْفَافَ المطىّ عَلَى الوجا ... وَفِى الله مانُزْجِى وَفى الله نُوضِعُ
دَلَفْنَا بجَمْعٍ آثرُوا الحقّ والهُدَى ... إلى ذِى تُقًى فى نَصْرِه نَتَسَرَّعُ
نـكافحُ عنه والسُّيُوفُ شهيرةٌ ... تصافح أعناقَ الرِّجال فتقطعُ

قال أبو مخنف : فلما قدم أهلُ الكوفة على علىّ عليه السلام ، سلّموا عليه ، وقالوا : الحمدُ لله ياأمير المؤمنين الّذى اختصّنا بموازرتك ، وأكرمنا بنُصرتك ؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين ، فمُرْنا بأمرك .

قال : فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

مرحبًا بأهل الكوفة ، بيوتاتِ العرب ووُجوهها ، وأهل الفضل وفرسانها ، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته ؛ ولذلك بعثتُ إليكم واستصرختُكم عند نَقْضِ طلحة والزبير بَيْعتى ، عن غَيْر جَوْرٍ منى ولا حَدَثٍ ؛ ولَعمرى لو لم تنصرُونى يأهلَ الكوفة ؛ لرجوت أن يكفِيَنى الله غوغاء الناس ، وطَغَام أهل البصرة ، مع أنّ عامّة مَنْ بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها ، ورغبوا عنها .

فقام رءوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر ، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة .

(٣٤)

ومن خطبة له عليه السلام فى استنفار الناس إلى أهل الشام :

الأَصْلُ :

أُفٍّ لَكُمْ ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ . أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً ، وَبِالذُّلِّ مِنَ العِزِّ خَلَفاً ! إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ؛ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ .

يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حِوَارِي فَتَعْمَهُونَ ؛ فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ . مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ؛ فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ .

لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلَا تَمْتَعِضُونَ ؛ لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ . غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ !

وَايْمُ اللهِ ؛ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ ؛ قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ .

وَاللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ؛ يَعْرُقُ لَحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ .

أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ

لَــكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِــكُمْ عَلَيْــكُم ،وَتَعْلِيمُــكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا ،وَتَأْدِيبُــكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْــكُمْ فَالْوَفَاءِ بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

أُفٍّ لــكم : كلمة استقذار ومَهانة ؛ وفيها لغات . ويرتج : يغلَق . والحِوار : المحاورة والمخاطبة . وتَعْمَهون ؛ من العَمَه وهو التحيّر والتردد ، الماضى عَمِه بالــكسر .

وقوله : «دارت أعينكم» من قوله تعالى: ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (١) ، ومن قوله : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (٢) .

وقلوبكم مألوسة ، من الأَلْس ، بسكون اللام ، وهو الجنون واختلاط العقل .

قوله : «مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي» كلمة تقال للأبد،تقول:لا أفعلُه سَجِيسَ اللّيالى ، وسَجيسَ عُجَيْس ، وسَجِيسَ الأَوْجَسِ ،معنى ذلك كله الدهر ، والزمان، وأبدا.

قوله : « ما أنتم بركنٍ يُمَالُ بكم » ، أى لستم بركن يُستَند إليكم ، ويُمال على العدوّ بعزّكم وقوّتــكم .

قوله : «ولا زوافرعزّ»،جمع زافرة،وزافرة الرجل:أنصاره وعشيرته؛ويجوزأن يكون زَوافِرِ عِزّ ، أى حوامل عِزّ ، زفرتُ الجملَ أزفره زفرا ، أى حمّلته .

قوله : «سُعْر نار الحرب» جمع ساعر ، كقولك : قوم كُظَّمٌ للغيظ ، جمع كاظم ،

---

(١) سورة محمد ٢٠ .
(٢) سورة الأحزاب ١٩ .

وتمتعضون : تأنفون وتَغْضَبُون. وحَمِس الوَغَى: اشتدّ ، وأصلُ الوغَى الصوت والجَلَبة، ثم سُمِّيت الحربُ نفسها وَغى ، لما فيها من الأصوات والجَلَبة . واستحرّ الموت، أى اشتدّ.

وقوله : « انفرجتم انفراج الرأس » ، أى كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يَمْنَةً ونصفه شَأْمَة . والمشرفيّة : السيوف المنسوبة إلى مَشارِف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، ولا يقال : مشارفىّ ، كما لا يقال : جعافرىّ ، لمن ينسب إلى جعافر .

وفراش الهام : العظام الخفيفة تلى القِحْف .

وقال الرّاوندىّ فى تفسير قوله « انفراج الرأس » أراد به انفرجْتُمْ عَنّى رأسا ، أى قطعاً ، وعرّفه بالألف واللام ، وهذا غير صحيح لأنّ « رأسا » لا يعرّف . قال: وله تفسير آخر ؛ أن يكون المعنى انفراج رأس من أدنى رأسه إلى غيره ، ثم حرّف رأسه عنه .

وهذا أيضا غيرُ صحيح ، لأنّه لا خُصوصيّة للرأس فى ذلك ، فإنّ اليدَ والرِّجْل إذا أدنيتَهما من شخص ، ثم حرّفتهما عنه فقد انفرج ما بين ذلك العضو وبينه ، فأىّ معنى لتخصيص الرأس بالذِّكْر !

فأما قوله : « أنت فكن ذاك » فإنه إنّما خاطب مَنْ يمكِّن عدوَّه من نفسه كائنا مَنْ كان ؛ غير معيّن ولا مخصَّص ؛ ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس ، فإنه روى أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم : هلّا فَعَلْتَ فِعْل ابن عفان ! فقال له : « إنّ فعل ابن عفان لمخزاة على مَن لا دين له، ولا وثيقَة معه ، إنّ امرأ أمكن عدوّه من نفسه يهشِمُ عظمه ، ويفرِى جلده ، لضعيفٌ رأيه مَأْفُونٌ عقله . أنت فكن ذاك إن أحببتَ ، فأما أنا فدُون أن أعطِىَ ذاك ضَرْبٌ بالمشرفيّة . . . » الفصل .

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة ، والخطاب عام لكلّ من أمكن من نفسه ، فلا منافاة بينهما .

وقد نظمتُ أنا هذه الألفاظ فى أبيات كتبتها إلى صاحب لى فى ضمن مكتوب اقتضاها ، وهى :

إنّ امرأً أمكنَ من نفسِهِ ... عدُوّه يجدَعُ آرابَهُ(١)

لا يَدْفَعُ الضَّيْمَ ولا ينكرُ الذّلّ ولا يُحْصِنُ جِلْبابَهُ

لَفائلُ الرأىِ ضعيفُ القُوَى ... قَدْ صرم الخِذْلانُ أسبابَهُ

أنت فكن ذاكَ فإنى امرؤ ... لا يَرْهَبُ الخطبَ إذا نابَهُ

إنْ قال دَهْرٌ لم يُطِعْ أو شحا ... له فَمٌ أدْرَدَ أنيابَهُ(٢)

أو سَامَه الخسفَ أبَى وانْتَضَى ... دُونَ مَرام الخسْف قِرْضَابَهُ(٣)

أخْزَرُ غضْبَانُ شَديد السّطَا ... يَقْدِرُ أنْ يَتْرُكَ مَارَابَهُ

خَطَبَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلام بهذه الخطبة ، بعد فَراغِه من أمْرِ الخوارج ، وقد كان قام بالنّهْروان ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وقال :

أمّا بعد ، فإنّ الله قد أحسنَ نصرَكم ، فتوجّهوا من فَوْرِكم هذا إلى عَدُوّكم من أهل الشام .

فقاموا إليه ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، نَفِدت نِبالُنا ، وكَلّت سيوفُنا ، وانصلتَتْ(٤) أسِنّةُ رماحنا ، وعادأ كثرُها قِصَداً(٥) . ارجع بنا إلى مِصْرنا ، نستعدّ بأحسن عُدّتنا ؛ ولعلّ أميرَ المؤمنين يزيدُ فى عَددِنا مثل مَنْ هَلَكَ منّا ، فإنّه أقوى لنا على عدونا .

---

(١) آرابه : جمع إرب ؛ وهو العضو .

(٢) شحافاه : فتحه . والدرد : سقوط الأسنان .

(٣) القرضاب : السيف .

(٤) انصلتت . انجردت .

(٥) قصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة من القناة أو الرمح .

فكان جوابه عليه السلام : ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾[١].

فتلكئوا عليه ، وقالوا إن البردَ شديد .

فقال : إنّهم يجدون البَرْد كما تَجدُون . فتلكئوا وأبَوْا ، فقال : أفٍّ لكم إنها سُنّة جرت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾[٢].

فقام منهم ناس فقالوا: ياأميرَ المؤمنين، الجِراحُ[٣] فاشية في النّاس ـ وكانَ أهلُ النَّهْرَوان قد أكثروا الجِراح في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام ـ فارجع إلى الكوفة ، فأقم بها أياما ثم اخرج ، خار الله لك !

فرجَع إلى الكُوفة عَنْ غير رضا .

* * *

[أمر الناس بعد وقعة النَّهْروان]

وروى نصر بن مزاحم ، عن عمر بن سعد ، عن نُمير بن وَعْلة ، عن أبي وَدّاك ، قال: لما كره القومُ المسيرَ إلى الشام عَقيب واقعة النهروان ، أقبل بهم أمير المؤمنين ، فأنزلهم النُّخيلة ، وأمرَ الناس أن يَلْزَموا معسكرهم ، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يُقِلُّوا زيارةَ النساء وأبنائهم ؛ حتى يسيرَ بهم إلى عَدُوّهم ؛ وكان ذلك هو الرأى لو فعلوه ؛ لكنهم لم يفعلوا ، وأقبلوا يتسللون ويدخُلون الكوفة . فتركوه عليه السلام وما معه من النّاس إلا رجالٌ من وجوههم قليل ، و بَقِيَ المعسكر خاليا ، فلا مَنْ دخل الكوفة خرجَ إليه ، ولا مَنْ أقام معه صَبَر . فلما رأى ذلك دخل الكوفة .

(١) سورة المائدة ٢١ .

(٢) سورة المائدة ٢٢ .

(٣) الجراح : جمع جراحة .

قال نصر بن مزاحم : فخطب النّاس بالكوفة ، وهى أولُ خطبة خطبها بعدقدومه من حرب الخوارج ، فقال :

أيّها الناس ؛ استعدُّوا لقتال عدوّ في جهادهم القربةُ إلى الله عزّ وجلّ ، ودَرْكُ الوسيلة عنده ؛ قوم حيارَى عن الحقّ لا يُبصِرونه ، مُوزَعِين[1] بالجوْر والظلم لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب ، نُكُبٌ عن الدّين ، يَعْمَهُون فى الطغيان ، ويتسكّعون فى غمرة الضلال ، فأعِدّوا لهمْ ما استطعتُم من قُوّة ومن رباط الخيل ، وتوكّلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا .

قال : فلم ينفِرُوا ولم يُنْشَروا[2] ، فتركهم أياما ، ثم خطبهم ، فقال : أفٍّ لكم لقد سئمتُ عتابَكم . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا ... الفصل الذى شرحناه آنفا إلى آخره . وزاد فيه : « أنتم أسودُ الشّرى فى الدَّعة ، وثعالبُ رَوّاغة حين البأس . إنَّ أخا الحرْب اليقظان ؛ ألَا إنّ المغلوبَ مقهور ومسلوب » .

* * *

وروى الأعمش عن الحكم بن عتيبة ، عن قيس بن أبى حازم ، قال : سمعتُ عليًّا عليه السلام على مِنبَر الكوفة ، وهو يقول :

ياأبناءالمهاجرين ؛ انفروا إلى أئمةالكُفْر ، وبقيةالأحزاب ، وأولياءالشيطان . انفِرُوا الى مَنْ يقاتل على دم حَمّال الخطايا ، فوالله الّذى فَلَق الحبّة ، وبرأ النَّسَمة ؛ إنّه ليَحْمِل خطاياهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً .

قلت : هذا قيس بن أبى حازم ؛ وهو الذى روى حديث : « إنّكم لترون ربّكم يوم القيامة، كما ترون القمرَ ليلة البَدْر لا تُضامون فى رؤيته » . وقدطعن مشايخنا المتكلّمون فيه، وقالوا : إنه فاسق ، ولا تُقبَلُ روايته ؛ لأنه قال : إنّى سمعت عليا يخطُب على منبرالكوفة،

(١) يقال : أوزعه بالشىء ؛ إذا أغراه به .
(٢) لم ينشروا : أى لم يتفرقوا .

ويقول : انفِروا إلى بقية الأحزاب ؛ فأبغضتُه ، ودخل بُغْضُه فى قلبى ، ومن يُبْغِضْ عليا عليه السلام لاتُقْبَلْ روايته .

فإن قيل : فما يَقُول مشايخكم فى قوله عليه السلام : « انفروا إلى مَنْ يُقاتل على دَمِ حَمَّال الخطايا » ؟ أليس هذا طَعْنا منه عليه السلام فى عُثمان !

قيل : الأشهرُ الأكثرُ فى الرواية صَدْر الحديث ، وأما عَجُز الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة ، وإن صحّ حمَلْناه على أنه أراد به معاوية ؛ وسمّى ناصريه مقاتلين على دمه ، لأنهم يُحامون عن دمه ، ومَنْ حَامَى عن دَمِ إنسان فقد قاتل عليه .

وروى أبو نُعَيْم الحافظ ، قال : حدّثنا أبو عاصم الثقفىّ ، قال . جاءت امرأة من بنى عَبْس إلى علىّ عليه السلام ، وهو يخطب بهذه الخُطْبة على مِنْبَر الكوفة ، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، ثلاثٌ بَلْبَلْنَ القلوبَ عليك ، قال : وما هُنّ ويحك ! قالت : رِضاكَ بالقَضِيّة ، وأخْذُك بالدنيّة ، وجزَعُك عِند البَلِيّة . فقال : إنّما أنتِ امرأة ، فاذْهَبى فاجلسى على ذَيلك ، فقالت : لا والله مامن جلوس إلا تحت ظلال السيوف .

وروى عمرو بن شمر الجُعْفىّ ، عن جابر ، عن رُفَيْع بن فرقد البَجَلىّ ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، يقول :

ياأهلَ الكوفة ، لقد ضرَبْتُكُم بالدِّرَّة التى أعِظُ بها السفهاء فما أراكم تنتهون ! ولقد ضَرَبْتُكُمْ بالسِّيَاط التى أقيم بها الحدودَ ، فما أراكم ترْعَوُون ! فلم يبق إلا أنْ أضرِبَكم بسيفى ؛ وإنّى لأعلمُ مايُقَوِّمُكُمْ ؛ ولكنّى لا أحبُّ أنْ ألِىَ ذلك منكم . واعجباً لكُم ولأهل الشام ! أميرُهم يَعْصِى الله وهم يطيعونه ، وأميرُكُم يطيع الله وأنتم تَعْصُونه ! والله لو ضربتُ خَيْشُومَ المؤمن بسيْفى هذا على أن يُبْغِضَنِى ما أبغضنى ؛ ولو سُقْتُ الدنيا بحذافيرها إلَى الكافر لما أحبّنى ؛ وذلك أنّه قضى ماقضى على لسان النبىِّ الأمىِّ أنّه لا يُبْغِضُنى

مؤمن ، ولا يُحِبّني كافر ؛ وقد خاب مَنْ حَمل ظُلْماً . والله لتَصْبِرُنّ بأهل الكوفةِ على قتال عدوّكم أو ليُسَلِّطَنّ الله عليكم قوما أنتم أولى بالحق منهم فليعذبُنّكم ! أفمِنْ قتلة بالسيف تحيدون إلى مَوْتةٍ على الفراش ! والله لَمَوْتةٌ على الفِراش أشدُّ من ضَرْبة ألفِ سيف .

قلت : ما أحسن قول أبى العيناء ، وقد قال له المتوكل : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم ! فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وهذا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وهو سَيِّدُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، يمدح الكوفة وأهلها عقيبَ الانتصار على أصحاب الجمل ، بما قد ذكرنا بعضَه وسنذكر باقيَه ، مَدْحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر ، ويقول للكوفة عند نظره إليها : أهلاً بك وبأهلك ! ما أرادكِ جَبّارٌ بكيْدٍ إلا قَصَمَه الله . ويُثْنى عليها وعلى أهلها حَسَبَ ذمِّه للبَصْرة وعيبه لها ودعائه عليها وعلى أهلها ، فلما خذَله أهلُ الكوفة يومَ التحكيم ، وتقاعدوا عن نَصْره على أهل الشام ، وخرجَ منهم الخوارج ، ومَرَق منهم المُرّاق ، ثم استنفرَهم بَعْدُ فلم ينفِروا ، واستصْرَخهم فلم يُصرِخوا [1] ، ورأى منهم دلائلَ الوَهَن وأمارات الفشل ، انقلبَ ذلك المدح ذَمّاً ؛ وذلك الثناء استزادةً وتقريعا وتهجينا .

وهذا أمرٌ مركوز فى طبيعة البشر ، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، والقرآن العزيز أيضاً كذلك ، أثنى على الأنصار لمّا نَهَضُوا ، وذَمّهم لما قعدوا فى غزاة تبوك ، فقال : ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [2] الآيات ، إلى أن رضى الله عنهم ، فقال : ﴿وَعَلَى

---

(١) لم يصرخوا : لم يغيثوا .
(٢) سورة التوبة ٨١ .

الثَّلَاثَةِ الَّذِين خُلِّفُوا ﴾ أى عن رسول الله ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾[1] الآية .

***

[مناقب على وذكر طُرَف من أخباره فى عدله وزهده]

روى علىّ بن محمد بن أبى سيف[2] المدائنىّ عن فُضَيل بن الجعْد ، قال : آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْر المال ، فإنه لم يكنْ يفضِّلُ شريفاً على مشروف ، ولا عربيًّا على عَجَمىّ ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه . وكان معاوية بخلاف ذلك ، فترك الناس عليا والتحقوا بمعاوية ؛ فشكا علىّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه ، وفرار بعضهم إلى معاوية ، فقال الأشتر: ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة ، ورأيُ الناس واحد ، وقد اختلفوا بعد ، وتعادَوْا وضعفت النيّة ، وقلّ العدد ، وأنت تأخُذُهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق ، وتُنْصِف الوضيع من الشريف ؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ منزلةٍ على الوضيع ، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به ، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف ، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا ، وقَلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يجتوى الحقّ ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا، فإن تَبْذُلِ المال ياأميرَ المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال ، وتَصْفُ نصيحتُهم لك، وتَسْتَخْلِصْ وُدّهم ، صنع الله لك ياأمير المؤمنين! وكبَت أعداءك ، وفضّ جمعهم، وأوهن كيدَهم، وشتّت أمورَهم ، إنه بما يعملون خبير .

فقال علىّ عليه السلام :

---

(١) سورة التوبة ١١٨ .

(٢) ب : « يوسف » ؛ والصواب ماأثبته من فهرس ابن النديم ١٠٠ ، وانظر ص ٢٠٣ من هذا الجزء

أمّا ماذكرت من عَمَلنا وسيرتنا بالعَدْل ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[١] ؛ وأنا من أن أكون مُقصِّراً فيما ذكرتَ أخوَفُ .

وأما ماذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك ، فقد علم الله أنّهم لم يفارقونا من جَوْر ، ولا لجئوا إذ فارقونا إلى عَـدْل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها ؛ وَلَيُسْأَلُنّ يوم القيامة : أللدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟

وأمّا مَاذكرْتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال ، فإنّه لا يَسَعُنا أن نؤتىَ امرأً من الفيء أكثر مَن حقّه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٢] وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وحْدَه ، فكثّره بعد القلة ، وأعزّ فئته بعد الذِّلّة ، وإنْ يُرِدِ الله أنْ يوليَناهذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه ، ويُسَهِّل لنا حَزْنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عزّ وجل رضاً ، وأنت من آمنِ الناسِ عندى ، وأنصحِهم لى ، وأوْثقِهم فى نفسى إنْ شاء الله .

***

وذكر الشّعبيّ ، قال : دخلت الرَّحبة بالكوفة — وأنا غلام — فى غلمان ؛ فإذا أنا بعليّ عليه السلام قائما على صُبرتين[٣] من ذهب وفضة ، ومعه مِخْفَقَة ، وهو يطرد الناس بمِخْفَقته ثم يرجع إلى المال فيقسّمه بين الناس ؛ حتى لم يبق منه شيء ، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا . فرجعت إلى أبى فقلت له : لقد رأيتُ اليوم خَيْرَ النّاس أو أحْمَق النّاس ، قال : مَنْ هُوَ يابُنَيّ ، قلت : عليّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ، رأيته يصنع كذا ، فقصصت عليه ، فبكى ، وقال : يابنيّ ، بل رأيتَ خيرَ الناس .

***

(١) سورة فصلت ٤٦ . (٢) سورة البقرة ٢٤٩ .

(٣) الصبرة ، بالضم : ماجمع من الطعام بلا كيل ولا وزن .

وروى محمد بن فُضَيْل عن هارون بن عنترة ، عن زاذان ، قال : انطلقتُ مع قَنْبَر غلام علىّ عليه السلام ، فإذاهو يقول : قم ياأمير المؤمنين ، فقد خَبَأت لك خبيئاً ، قال: وما هو ويحك ! قال : قُمْ معى ، فانطلق به إلى بيته ، وإذا بغرارة مملوءة من جامَاتٍ ذهباً وفضة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، رأيتُك لا تتركُ شيئاً إلا قَسَمْتَه ، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك يا قَنْبر ! لقد أحببتَ أن تُدْخِلَ بيتى ناراً عظيمة . ثم سلّ سيفَه وضربه ضَرَبات كثيرة ، فانتثرتْ من بين إناء مقطوع نصفه ، وآخر ثلثه ، ونحو ذلك ، ثم دعا بالناس ، فقال : اقسموه بالحصَص، ثم قام إلى بيت المال، فقسّم ماوَجَد فيه ، ثم رأى فى البيت إبَراً ومَسالّ ، فقال : وَلْتَقْسِموا هذا ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه ـ وقد كان علىّ عليه السلام يأخُذُ من كلّ عاملٍ مما يَعْمَل ـ فضحك ، وقال : لَيُؤْخَذَنّ شَرُّه مع خيره .

* * *

وروى عبدُالرحمن بن عَجْلان ، قال : كانَ علىّ عليه السلام يَقْسم بين النّاس الأبزارَ والُحرْف(١) والكمُّون ، وكذا وكذا .

وروى مجمع التيمىّ ، قال : كان علىّ عليه السلام يكنس بيتَ المال كلّ جُمُعة، ويصلّى فيه ركعتين ، ويقول : ليشْهَدْ لى يوم القيامة .

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُلَيب الجَرْمىّ ، عن أبيه ، قال : شهدتُ عليًّا عليه السلام وقد جاءه مال من الجَبَل ، فقام وقمنا معه ، وجاء الناس يزدحمون ، فأخذ حِبالا فوصلها بيده ، وعقَد بعضَها إلى بعض ، ثم أدارَها حول المال ، وقال : لا أحِلّ لأحَدٍ أن يجاوز هذا الحبْل ،قال : فقعد الناسُ كلُّهم من وراء الحبل ، ودخل هو،فقال: أين رءوسُ الأسْبَاع ؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعا ـ فجعلوا يحمِلون هذه الجُوَالق إلى هذه الجُوالق ، وهذا إلى هذا ، حتى استوت القِسْمة سبعة أجزاء ، ووُجد مع المتاع

(١) الحرف ، بالضم : الخردل .

رغيف ، فقال : اكسروه سَبْعَ كِسَر ، وضعوا على كل جزء كِسْرة ، ثم قال :

هَٰذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلّ جَانٍ يَدُه إِلَى فِيهِ [1]

ثم أقرع عليها ودفعها إلى رءوس الأسباع ، فجعل كلّ رجل منهم يدعو قومَه فيحملون الجواليق .

* * *

وروى مُجَمِّع ، عن أبي رَجاء ، قال: أخرج عليّ عليه السلام سيفاً إلى السُّوق، فقال : مَنْ يشتري مِنِّي هذا ؟ فوالذي نفسُ عليٍّ بيده، لو كان عندي ثمن إزار مابعتُه ، فقلت له: أنا أبيعُك إزاراً وأنسئُك ثمنَه إلى عطائك ، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه ، فلما قبض عطاءه دفع إليّ ثمنَ الإزار .

وروى هارون بن سعيد ، قال : قال عبدُ الله بن جَعفر بن أبي طالب لعليّ عليه السلام : يا أميرَ المؤمنين ، لو أمرتَ لي بمعونةٍ أو نفقة ! فوالله ما لي نفقة إلّا أن أبيعَ دابّتي ، فقال : لا والله ما أجدُ لك شيئا إلّا أن تأمُرَ عمّك أن يسرقَ فيعطيَك .

وروى بكر بن عيسى ، قال : كانَ عليّ عليه السلام يقول : يا أهلَ الكوفة ، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان ؛ فأنا خائن فكانتْ نفقتُه تأتيه من غَلّتِه بالمدينة بينبُع ، وكان يُطعم الناسَ منها الخبز واللحم ، ويأكل هو الثّريد بالزيت .

وروى أبو إسحاق الهَمْدانيّ أنّ امرأتين أتتَا عليًّا عليه السلام : إحداهما من العرب والأخرى من الموالي ، فسألتاه ، فدفع إليهما دراهمَ وطعاما بالسَّواء ، فقالت إحداهما :

---

(١) البيت أنشده عمرو بن عدي حين كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون الملك (جذيمة بن الأبرش) الكمأة ؛ فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقي إلى الملك ، وكان عمرو لايأكل منه ، ويأتي به كما هو وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ وحديث علي ورد مفصلا في حلية الأولياء ١ : ٨١ .

إنّى امرأة من العرب،وهذه من العجم ؛ فقال:إنى والله لا أجدُ لبنى إسماعيل فى هذا الفئ فضلا على بنى إسحاق .

وروى معاوية بن عمّار عن جعفر بن محمد عليهما السلام ، قال : ما اعتَلَج على علىّ عليه السلام أمران فى ذات الله ، إلا أخذ بأشدّهما ، ولقد علمتم أنه كان يأكل — ياأهل الكوفة — عندكم من ماله بالمدينة ؛ وأنْ كان ليأخذُ السَّويق فيجعلُه فى جراب ، ويختم عليه مخافة أن يُزاد عليه من غيره ؛ وَمَنْ كان أزهد فى الدنيا من علىّ عليه السلام !

وروى النَّضْر بن منصور ، عن عُقْبة بن علقمة ، قال : دخلتُ على علىّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذتْنى حُموضته، وكِسَرٌ يابسة ، فقلت: يا أمير المؤمنين،أتأكلُ مثل هذا ! فقال لى : يا أبا الجَنُوب ، كان رسول الله يأكل أيْبَس من هذا ، ويلبَسُ أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإنْ أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألّا ألحق به .

***

وروى عمران بن مسلمة ، عن سُوَيْد بن عَلْقمة ، قال : دخلت على علىّ عليه السلام بالكوفة ، وإذا بين يديه قَعْب لبن أجدُ ريحه من شدة حموضته ، وفى يده رغيف ، ترى قُشار الشَّعير على وجهه وهو يكسره ، ويستعين أحيانا برُكْبته ، وإذا جاريتُه فِضّة قائمة عَلَى رأسه ، فقلت : يا فضّة ، أما تتّقون الله فى هذا الشيخ ! ألا نخلْتم دقيقه ؟ فقالت : إنّا نكره أن نؤْجَر وَيَأْثَمَ ، نحن قد أخذ علينا ألّا ننخُلَ له دقيقا ماصَحِبْناه — قال : وعلىّ عليه السلام لا يسمع ما تقول — فالتفت إليها فقال : ماتقولين ؟ قالت : سَلْه ، فقال لى : ماقلتَ لها ؟ قال : فقلت إنى قلت لها : لو نَخَلْتم دقيقه ! فبكى ، ثم قال : بأبى وأمّى مَنْ لم يشبع ثلاثامتوالية [من] خبز برّ حتى فارق الدنيا ، ولم يَنْخُل دقيقه ! قال : يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله .

وروى يُوسف بن يعقوب ، عن صالح بيّاع الأكسية ، أنّ جَدّته لقيتْ عليًّا عليه السلام بالكوفة ، ومعه تمرٌ يحمله ، فسلّمت عليه ، وقالت له : اعطِنى ياأمير المؤمنين هذا التمر أحمِله عنك إلى بيتك ، فقال : أبو العيال أحقُّ بحمْله ، قالت : ثم قال لى : ألا تأكلين منه ؟ فقلت : لاأريد ، قالت . فانطَلق به إلى منزله ثم رجع مُرْتَديًا بتلك الشَّملة ، وفيها قشور التمر ؛ فصلّى بالناس فيها الجمعة .

وروى محمد بن فُضَيْل بن غَزْوَان ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام : كم تتصدّق ! كم تُخْرِجُ مالك ! ألا تُمْسِك ! قال : إنى والله لو أعلم أنّ الله تعالى قَبِلَ مِنّى فرضًا واحداً لأمسكت ؛ ولكنى والله ما أدرى ؛ أقبل مِنّى سبحانه شيئا أم لا !

وروى عَنْبَسة العابد ، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن ، قال : أعتق علىّ عليه السلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفَ مملوك مما مَجِلت[1] يداه ، وعرق جبينه؛ولقد وَلِىَ الخلافةَ ،وأتته الأموال،فما كان حَلْواه إلا التمر،ولا ثيابه إلاالكرابيس .

وروى العوام بن حَوْشب ، عن أبى صادق ، قال : تزوّج علىّ عليه السلام ليلَى بنت مسعود النهشليّة ، فضربت له فى داره حَجَلة ، فجاء فهتكها ، وقال : حَسْبُ أهل علىّ ما هم فيه !

وروى حاتم بن إسمعيل المدنىّ ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : ابتاعَ علىّ عليه السلام فى خلافته قميصا سَمِلًا[2] بأربعة دراهم ، ثم دعا الخيّاط ، فمدّ كُمّ القميص ، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع .

***

وإنما ذكرنا هذه الأخبار والروايات ـ وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل ـ لأن الحال اقتضى ذكرها ، من حيث أردنا أن نبيّن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ

---

(١) مجلت يده : عملت .

(٢) السمل : الخلق من الثياب .

يذهب فى خلافته مذهَب الملوك الذين يُصانِعون بالأموال ويصرّفونها فى مصالح ملكهم وملاذّ أنفسهم ، وأنه لم يكنْ من أهل الدنيا ، وإنما كان رجلا متألهاً صاحب حقّ ، لا يريد بالله ورسوله بدلا .

* * *

وروى علىّ بن محمد بن أبى يوسف المدائنىُّ أنّ طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام مَشَوْا إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعْطِ هذه الأموال وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمل مَنْ تخاف خلافَه من الناس وفِراره ، وإنما قالوا له ذلك لِمَا كان معاوية يَصْنَع فى المال ، فقال لهم : أتأمُرونِّى أن أطلبَ النَّصْر بالجوْر ! لا والله لا أفعلُ ما طلعتْ شمس ، وما لاح فى السماء نجْم ، والله لو كانَ المالُ لى لواسيتُ بينهم ، فكيف وإنما هى أموالُهم ! ثم سكت طويلا واجما ، ثم قال : الأمرُ أسرعُ من ذلك ؛ قالها ثلاثا .

(٣٥)

ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم :

الأصْـلُ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ ، تُورِثُ الْحَسْرَةَ ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي ؛ لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ

* * *

الشَّـرْحُ :

الخطْب الفادح : الثقيل . ونخَلْت لكم ، أى أخلصتُه ، من نَخَلْتُ الدقيق بالمُنخُل .

وقوله : «الحمد لله وإن أتى الدهر» ، أى أحمده على كلّ حال من السّرّاء والضراء.

وقوله : «لو كان يطاع لقصير أمر» ، فهو قصير صاحب جَذِيمة ، وحديثه مع جَذِيمة ومع الزّبّاء مشهور ، فضرب المثل لكلّ ناصح يُعصى بقصير .

وقوله : « حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقَدْحه » ، يشير إلى نفسه ؛ يقول : خالفتمونى حتى ظننت أن النصح الذى نصحتكم به غيرُ نصح ، لإطباقكم وإجماعكم على خلافى ؛ وهذا حقّ ؛ لأن ذا الرأى الصواب إذا كثر مخالفوه يَشُكّ فى نفسه .

وأما ضَنّ الزّند بقَدْحه ، فمعناه أنّه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح ، لشدّة مالقيت منكم من الإباء والخلاف والعصيان ؛ وهذا أيضاً حقّ ، لأنّ المشير الناصح إذا اتُّهم واستُغِشّ عَمِىَ قلبُه وفسد رأيُه .

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْد بن الصِّمة ، والأبيات مذكورة فى الحماسة ، وأولها :

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ ... وَرَهْطِ بَنِى السَّوْدَاءِ والقومُ شُهَّدى (١)
فقلت لهم ظُنّوا بأَلْفَىْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ فى الفارسىّ المسرّدِ (٢)
أَمَرْتُهُمُ أمرى بمنعَرَجِ اللِّوَى ... فلم يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلّا ضُحَى الْغَدِ (٣)
فَلَمّا عَصَوْنِى كنتُ منهم وقد أرى ... غَوايَتَهُم وأنّنى غيرُ مُهْتَدِ
وَمَا أَنَا إلّا مِنْ غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيّة أَرْشُدِ (٤)

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى (٢ : ٨١٣) . وكان من خبر هذا الشعر أن عبدالله ـ وهواسم آخر لعارض وهو أخو دريد ـ كان أسود إخوته ، فغزا بنى جشم وبنى نصر ابنى معاوية بن بكر بن هوازن ؛ وغنم مالا عظيما بمنعرج اللوى ؛ فنعه دريد عن اللبث ، وقال : إن غطفان ليست بغافلة عنا ؛ فخالف أنه لايريم حتى يقسم ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . شرح التبريزى (٢ : ٣٠٤) .

(٢) ظنوا : قال المرزوقى : يجوز أن يكون معناه : ظنوا كل ظن قبيح بهم إذا غزوكم فى أرضكم وعقر دياركم . ويجوز أن يكون معنى ظنوا أيقنوا ؛ لأن الظن يستعمل فى اليقين ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ . والمدجج : التام السلاح ؛ من الدجة ؛ وهى الظلمة . وسراتهم : خيارهم ؛ وعنى بالفارسى المسرد ، الدروع .

(٣) فى الحماسة ذكر هذا البيت بعد تاليه .

(٤) فى الحماسة : وهل أنا إلا من غزية رهطه .

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عليه السلام بعد خديعة ابن العاص لأبى موسى وافتراقهما ، وقَبْلَ وقْعة النَّهْرَوان .

* * *

[قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج]

ويَجِبُ أن نذكُر فى هذا الفصل أمْرَ التحكيم ؛ كيف كان ، وما الّذى دعا إليه ! فنقول :

إنّ الذى دَعا إليه طَلبُ أهل الشام له ، واعتصامُهم به من سيوفِ أهلِ العراق ؛ فقد كانت أماراتُ القهر والغلَبة لاحتْ ، ودلائل النّصر والظفَر وضحت ، فعدلَ أهلُ الشام عن القِراع إلى الخِداع ؛ وكان ذلك برأْيِ عمرو بن العاص .

وهذه الحالُ وقعتْ عَقِيب ليلة الهَرير[1] ، وهى الليلةُ العظيمة التى يُضرب بها المثل .

ونحن نذكر ماأورده نصر بن مُزاحم فى كتاب صِفّين فى هذا المعنى ، فهو ثِقَة ثَبْت ،صحيح النقل ، غير منسوب إلى هوًى ولا إدْغال؛ وهو من رجال أصحاب الحديث. قال نصر :

حدّثنا عمرو بن شَمِر ، قال : حدّثنى أبو ضِرار ، قال : حدّثنى عمّار بن ربيعة،قال : غَلَّس علىّ عليه السلام بالناس صَلاة الغداة يوم الثلاثاء ، عاشرَ شهر ربيع الأول ، سنة سبع وثلاثين ـ وقيل: عاشر شهر صفر ـ ثم زحف إلى أهلِ الشام بعسكر العراق ،والناسُ على راياتهم وأعلامهم،وزَحَف إليهم أهلُ الشام،وقد كانت الحرب أكلتِ الفريقين؛ولكنّها

(١) من هرير الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع ؛ وهو صوت دون النباح .

فى أهل الشام أشدُّ نِكاية ، وأعظم وَقْعا ، فقد ملُّوا الحربَ ، وكرهوا القتال ، وتضعضعت أركانهم .

قال : فخرج رجلٌ من أهلِ العراق ، على فرس كُمَيْت ذَنوبٍ[(١)] ، عليه السّلاحُ لايُرى منه إلا عيناه ؛ وبيده الرُّمْح . فجعل يضرب رءوسَ أهلِ العراق بالقناة ، ويقول: سوُّوا صفوفَكم رحمكم الله ! حتى إذا عدّلَ الصّفوف والرايات ، استقبلهم بوجهه ، وولّى أهلَ الشام ظهره ، ثم حمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

الحمدُ لله الّذى جعل فينا ابنَ عَمِّ نبيّه ، أقدمَهم هجرة ، وأوّلَهم إسلاما ، سيفٌ من سيوف الله على أعدائه ، فانظروا إذا حَمِىَ الوطِيس[(٢)] ، وثار القَتام[(٣)] ، وتكسّر المُرّان[(٤)] ، وجالت الخيلُ بالأبطال ، فلا أسمعُ إلّا غمغمة أو همهمة ؛ فاتبعونى وكونوا فى أثرى .

ثم حمل على أهلِ الشام فكسر فيهم رمحه ، ثم رجع فإذا هو الأشتر .

قال : وخرج رجلٌ من أهلِ الشام ، فنادَى بين الصَّفَّين : ياأبا الحسن ، ياعلىّ ، ابرُز إلىّ . فخرج إليه علىّ عليه السلام ، حتى اختلفتْ أعناقُ دابتيْهما بين الصّفّين ، فقال: إنّ لك ياعلىّ لَقَدَماً فى الإسلام والهجرة[(٥)] ، فهل لكَ فى أمر أعرِضُه عليك ، يكون فيه حَقْنُ هذه الدماء ، وتأخّر[(٦)] هذه الحروب ؛ حتى ترى رأيك؟ قال: وماهو؟ قال : ترجع إلى

---

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب .

(٢) الوطيس فى الأصل : التنور ، أو حفرة تحتفر ويختبز فيها ويشوى . وقيل : الوطيس : شىء يتخذ مثل التنور يختبز فيه ؛ وقيل : هى تنور من حديد وبه شبه حر الحرب . وحمى الوطيس ، مثل يضرب للأمر إذا اشتد . اللسان (٨ : ١٤٢) .

(٣) القتام : الغبار .

(٤) المران : جمع مرانة ؛ وهى الرماح الصلبة اللدنة .

(٥) وقعة صفين : « وهجرة » .

(٦) وقعة صفين : « تأخير » .

عِرَاقِك ، فنخلِّيَ بينك وبين العراق ، ونرجع نحنُ إلى شامنا فتُخلِّيَ بيننا وبين الشام[١] .

فقال على عليه السلام : [٢] قد عرفتُ ماعرضت ، إن هذه لنصيحةٌ وشفقة [٢] ، ولقد أهمَّنِي هذا الأمر وأسهرنى ،وضربتُ أنفَه وعينه فلم أجِدْ إلا القتال أو الكفرَ بما أنزل الله على محمد . إن الله تعالى ذِكْرُه لم يرضَ من أوليائه أن يُعْصَى فى الأرض وهم سكوت مُذعنون ؛ لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهوْن عن منكر ؛ فوجدتُ القتالَ أهونَ علىّ من معالجة فى الأغلال فى جهنم .

قال : فرجع الرّجلُ [٣] وهو يسترجع ، وزحف النّاس بعضُهم إلى بعض فارتموْا بالنَّبْل والحجارة حتى فَنِيتْ ،ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسّرت واندقّت. ثم مشى القومُ بعضُهم إلى بعض بالسيوف وعُمُد الحديد ، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض ؛ لَهو أشدُّ هولاً فى صدور الرجال من الصّواعق ، ومن جبال تِهامَة يدكُّ بعضُها بعضا،وانكسفت الشمس بالنَّقْع،وثار القَتام والقَسْطل[٤] ،وضلَّت الألوية والرّايات،وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة، فيأمر كلّ قبيلة أو كَتِيبة من القرّاء بالإقدام على التى تليها[٥]؛ فاجتلَدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد ؛ من صلاة الغَداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل ، لم يصلّوا لله صلاةً . فلم يزل الأشتر يفعلُ ذلك حتى أصبح والمعركة خَلْف ظهره ، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم، وتلك الليلة وهى ليلة الهرير المشهورة.وكان الأشترُ فى ميمَنة النـاس وابنُ عباس فى الميسَرة ، وعلىّ عليـه السلام فى القَلْب ، والناس يقتتلون .

ثم استمرّ القتالُ من نصف اللّيل الثانى إلى ارتفاع الضُّحى ، والأشتر يقول لأصحابه:

---

(١) صفين : « شامنا » .

(٢ ـ ٢) صفين : « لقد عرفت ، إنما عرضت هذه النصيحة شفقة » .

(٣) صفين « الشامى » .

(٤) القسطل : الغبار . (٥) كذا فى ج ، وفى ب : « بينها » .

وهو يزحَفُ بهم نحو أهل الشام: ازحَفُوا قِيدَ رمحى هذا ، ويُلقى رمحَه ، فإذا فعلوا ذلك، قال : ازحفوا قَابَ هذا القوس(١) ،فإذا فعلوا ذلك(٢) سألهم مثل ذلك(٢) ، حتى ملّ أكثرُ الناس من الإقدام، فلمّا رأى ذلك قال : أعيذكم بالله أن تَرْضَعُوا الغنم سائر اليوم . ثم دعا بفرسه، وركز رايته ـ وكانت مع حيّان بن هوذة النَّخَعِيّ ـ وسار بين الكتائب، وهو يقول: ألا مَنْ يشترِى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر ؛ حتى يظهر أو يَلْحَق بالله ! فلا يزالُ الرجلُ من الناس يخرج إليه فيقاتل معه (٣) .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو قال : حدثنى أبو ضرار ، قال : حدّثنى عمّار بن ربيعة ، قال : مرّ بى الأشتر ، فأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذى كان به ، فقام فى أصحابه، فقال : شُدُّوا ـ فِداً لكم عَمِىّ وخالى ـ شدّة تُرضُون بها الله، وتعزّونَ بها الدين. (٤) إذا أنا حملت فاحملوا (٤) ثم نزل ، وضرَب وَجْهَ دابّتـه ، وقال لصاحب رايتـه : أقْدِم فتقدّم(٥) بها ، ثم شدّ على القوم ، وشدّ معه أصحابُه ، فضرب أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم ، فقاتلوا عنـد المعسكر قتالا شديدا ، وقُتِل صاحبُ رايتهم ، وأخذ علىّ عليه السلام ـ لما رأى الظفر قد جاء من قِبَله ـ يَمدُّه بالرجال (٦) .

* * *

ورَوَى نصر عن رجاله ، قال : لَمّا بلغ القومُ إلى ما بلغوا إليـه ، قام علىّ عليه السلام خطيبا ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

(١) القاب : مابين المقبض والسية ، والقوس : يذكر ويؤنث .
(٢ ـ ٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .
(٣) وقعة صفين ٥٤٠ ـ ٥٤٤ .
(٤ ـ ٤) وقعة صفين : « فإذا شدت فشدوا » .
(٥) صفين : « فأقدم بها » .
(٦) وقعة صفين ٥٤٤

أيها الناس ، قد بلغ بكم الأمر وبعدوِّكم ماقد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نَفَس ، وإن الأمورَ إذا أقبلت اعْتُبِر آخرُها بأوّلها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغْنَا منهم مابلغْنَا ، وأنا غادٍ عليهم بالغَداة أحاكمهم إلى الله .

قال : فبلغ ذلك معاوية،فدعا عمرو بن العاص ، وقال : ياعمرو ؛ إنما هى الليلة ، حتى يغدُوَ علىّ علينا بالفَيْصَل (١) ؛ فما ترى ؟

قال : إنّ رجالك لا يقومون لرجاله ، ولستَ مِثْلَه ، هو يقاتلُك على أمر وأنت تقاتِلُه على غَيْره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهلُ الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم ؛ ولكِن ألقِ إلى القوم أمرا إنْ قَبِلوه اختلفُوا ، وإن ردّوه اختلفوا،ادعُهم إلى كتاب الله حَكَمًا فيما بينك وبينهم؛فإنك بالغٌ به حاجتك فى القوم ؛ وإنى لم أزل أؤخِّر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه .

فعرف معاوية ذلك وقال له : صدقت (٢) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر عن جابر بن عمير (٣) الأنصارىّ ، قال : والله لكأنِّى أسمع عليًّا يوم الهَرِير ، وذلك بعد ماطحنت رَحا مَذْحِج ، فيما بينها وبين عَكّ ولَخْم وجُذام والأشعريّين بأمر عظيم تشيبُ منه النواصى ، حتى (٤) استقلّتِ الشمس ، وقام قائم الظهر (٤) ، وعلىّ عليه السلام يقول لأصحابه : حَتّى متى نُخَلِّى بين هذين الحيّيْن ! قد فَنِيَا وأنتم وقوف تنظرون ! أما تخافُون مَقْتَ الله ! ثم انفتل (٥) إلى القِبْلة ، ورفع

---

(١) ب : « بالفصل » ، وما أثبته من ا ، ج .
(٢) وقعة صفين ٥٤٥
(٣) فى الأصول : « نمير » ، وصوابه من كتاب صفين .
(٤ــ٤) صفين : « من حين استقلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة » واستقلت الشمس : ارتفعت .
(٥) ب : « استقبل » ، والصواب ما أثبته من ا ، ج .

بديه إلى الله عزّ وجل، ونادى : ياألله ، يارحمن، يارحيم ، ياواحد ، ياأحد ، ياصمد ! ياألله، يا إله محمد ؛ اللهم إليك نُقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورُفعت الأيدى ، ومُدّت الأعناق، وشَخَصت الأبصار، وطُلبت الحوائج ! اللّهم إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عَدوِّنا ، وتشتّت أهوائنا ، ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١) سيروا على بركة الله .

ثم نادى : لا إله إلا الله والله أكبر ، كلمة التقوى .

قال : فلا والّذى بعث محمدًا بالحقّ نبيًّا ، ماسمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات والأرض أصاب بيده فى يوم واحد ما أصاب ؛ إنه قتَل — فيما ذكر العادّون — زيادة على خمسمائة من أعلام العرب ؛ يخرج بسيفه مُنحنيا ، فيقول : معذرة إلى الله وإليكم من هذا . لقد هممت أن أفلقه (٢) ؛ ولكن يحجزنى عنه أنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقول : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علىّ » . وأنا أقاتل به دونه صلى الله عليه .

قال : فكنا نأخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به فى عرض الصّف ، فلا والله ماليثٌ بأشدّ نكاية منه فى عدوّه ، عليه السلام (٣) .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر،قال : سمعت تميم بن حُذَيْم ، يقول : لما أصبحنا من ليلة الهرير ، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات ، أمام أهل الشام فى وسط الفَيْلق ،

---

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٢) صفين : « أصقله » .

(٣) كتاب صفين ٥٤٥ — ٥٤٦

حيال موقف على ومعاوية ، فلما أسفرْنا إذا هى المصاحف قد رُبطت فى أطراف الرّماح ، وهى عظام مصاحف العَسْكر ، وقد شَدُّوا ثلاثة أرماح جميعا ، ورَبطوا عليها مصحف المسجد الأعظم ، يمسكه عشرة رهط .

قال نصر : وقال أبو جعفر وأبو الطفيل : استقبَلوا عليا بمائة مصحف ، ووضعوا فى كلّ مُجَنِّبَةٍ(١) مائتى مصحف ، فكان جميعها خمسمائة مصحف .

قال أبو جعفر : ثم قام الطفيل بن أدْهم حيال علىّ عليه السلام ، وقام أبو شريح الجذامِىّ حيال الميمنة ، وقام ورقاء بن المعمّر حِيال الميسرة ، ثم نادوا : يامعشَر العرب ، الله الله فى النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنِيتم ! الله الله فى دِينكم ! هذا كتابُ الله بيننا وبينكم .

فقال علىّ عليه السلام : اللهم إنّك تعلم أنهم ما الكتابَ يريدون ، فاحْكُمْ بيننا وبينهم إنك أنت الحكَم الحق المبين .

فاختلف أصحاب علىٍّ عليه السلام فى الرأى ؛ فطائفة قالت القتال ، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب ، ولا يحلّ لنا الحرب ، وقد دُعينا إلى حُكْم الكتاب ؛ فعندذلك بَطَلَت الحرب ووضعت أوزارها(٢) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن علىّ ابن الحسين ، قال : لما كانَ اليوم الأعظم ، قال أصحابُ معاوية : والله لا نَبْرَحُ اليوم العَرْصَة حَتّى نموتَ أو يُفتح لنا ، وقال أصحاب علىّ عليه السلام : لا نبرَحُ اليوم العَرْصة حتى نموتَ أو يُفْتَح لنا ، فبادروا القتال غُدْوَةً فى يوم من أيام الشِّعْرَى(٣) طويل ، شديد

(١) المجنبة ، بكسر النون المشددة : ميمنة الجيش وميسرته .
(٢) وقعة صفين ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .
(٣) الشعرى : كوكب نير يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه فى شدة الحر . (اللسان) .

الحرّ فترامَوْا حتى فَنِيت النّبال، وتطاعَنُوا حتّى تقصّفَتِ الرماح، ثم نزل القومُ عن خُيُولِهم، ومشى بعضُهم إلى بعض بالسيوفِ حتّى كُسِّرتْ جفونُها، وقام الفُرْسَان فى الرُّكَب، ثم اضطربوا بالسُّيوف وبعَمَدِ الحديد، فلم يَسمع السامعون إلا تغمْغُم القوم، وصليلَ الحديد فى الهام، وتَكادُمَ الأفْواه وكُسِفتِ الشمس، وثار القتَام، وضَلَّتِ الألْوِية والرايات، ومرّتْ مواقيتُ أربعِ صلوات، مايُسْجَدُ فيهنّ لله إلا تكبيراً، ونادتِ المشيَخةُ فى تلك الغمَرات: يامعشرَ العرب؛ اللهَ اللهَ فى الحرُماتِ من النّساء والبنات!

قال جابر: فبكى أبو جعفر وهو يحدّثنا بهذا الحديث.

قال نصر: وأقبل الأشترُ عَلَى فَرسٍ كُمَيْتٍ مَحْذُوفٍ، وقد وَضع مِغْفرَه على قَرَبُوس السَّرْج، وهو ينادى: اصبروا يامعشرَ المؤمنين، فقد حَمِيَ الوطِيسُ، ورجعتِ الشمسُ من الكسوف، واشتدّ القتال، وأخذتِ السباعُ بعضُها بعضا، فهم كما قال الشاعر [1]:

مَضَتْ واسْتَأْخَرَ القُرَعاءُ عَنْهَا ... وَخُلِّىَ بَيْنَهُمْ إلَّا الْوَرِيعُ [2]

قال: يقول واحدٌ لصاحبه فى تلك الحال: أىّ رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه: وأىّ نية أعظمُ من هذه ثَكِلَتْك أمّك وهبِلتك! إنّ رجُلا كما ترَى قد سَبَح فى الدّم، وما أضجرتْه الحرب، وقد غلَتْ هامُ الكُماة من الحرّ، وبلغت القلوبُ الحناجر، وهو كما تراه جزَعا يقول هذه المقالة! اللّهم لا تُبْقِنا بعد هذا!

قلت: لله أمّ قامت عن الأشتر! لو أنّ إنسانا يُقسِم أنّ الله تعالى ماخلق فى العرب

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب، من الأصمعية التى مطلعها:

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِى السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِى وَأَصْحَابِى هُجُوعُ

وهى فى الأصمعيات ١٩٨ – ٢٠٢ وخزانة الأدب ٣: ٤٦٢ – ٤٦٣.

(٢) القرعاء: جمع قريع، وهو المغلوب المهزوم. وفى الخزانة والأصمعيات: «الأوغال» جمع وغل وهو الضعيف. والوريع: الضعيف الذى لاعناء عنده.

ولا فى العجم أشجعَ منه إلا أستاذه عليه السلام لمَا خشِيتُ عليه الإثم ! ولله درّ القائل، وقد سُئِل عن الأشتر : ما أقول فى رجُل هَزَمَتْ حياتُه أهلَ الشام ، وهَزَم موتُه أهلَ العراق !

وبحقٍّ ماقال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : كان الأشترُ لى كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه[1] .

* * *

قال نصر : ورَوَى الشَّعبىّ عن صَعْصعة ، قال : وقد كانَ الأشعثُ بن قيس بَدَر منه قَوْلٌ ليلةَ الهرير ، نقله النّاقلون إلى معاوية ،فاغتنمَه و بَنَى عليه تدبيرَه ؛ وذلك أنّ الأشعث خطب أصحابَه من كندة تلك الليلة ، فقال : الحمدُ لله ، أحمَدُه وأستعينه ، وأومِنُ به وأتوكّل عليه ، وأستنصره واستغفره ، وأستجِيرُه وأستهديه، وأستشيره وأستشهد به؛فإنّ مَنْ هداه[2] الله فلا مضلّ له ، ومن يُضلِل الله فلا هادىَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله صلى الله عليه .

ثم قال : قد رأيتم يامعشرَ المسلمين ماقد كانَ فى يومكم هذا الماضى ، وماقد فَنِىَ فيه من العرب ؛ فوالله لقد بَلَغْتُ من السِّنّ ماشاء الله أن أبْلُغَ ، فما رأيت مثلَ هذا اليوم قطّ . ألا فليبَلّغ الشاهدُ الغائب ؛ إنا نحن إن تواقَفْنا غداً ، إنه لفناء العرب وضَيْعَة الحُرُمات[3] ! أما والله ما أقولُ هذه المقالَة جزَعاً من الحرب ، ولكنّى رجلٌ مُسِنٌّ أخاف على النساء والذرارِىّ غداً إذا فَنِينا ، اللّهم إنّك تعلم أنّى قد نظرتُ لقومى ولأهل دينى فلم آلُ ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأىُ يُخطِىء ويُصيب،

(١) وقعة صفين ٥٤٧ ـ ٥٤٩ .

(٢) صفين : « من يهد الله » .

(٣) فى ب : «لفنيت العرب وضيعت الحرمات» وما أثبته عن كتاب صفين .

إذا قَضَى الله أمراً أمْضاه عَلَى ما أحبَّ العباد أو كرهوا ، أقولُ قولى هذا وأستغفر الله العظيمَ لى ولكم !

قال الشعبيّ : قال صَعْصة : فانطلقت عيونُ معاوية إليه بخطبة الأشعث ، فقال : صابَ وربِّ الكعبة ! لَئنْ نحن التقينا غداً لتَميلنّ على ذَرَارِيّ أهلِ الشام ونسائهم ، لتَميلنّ فارسُ عَلَى ذَرارِيّ أهلِ العراق ونسائهم ! إنّما يبصر هذا ذَوُو الأحلام والنُّهى ؛ ثم قال لأصحابه : اربطوا المصاحفَ عَلَى أطراف القَنَا .

فثار أهل الشام فى سَوَاد الليل ينادون عن قول معاوية وأمْرِه : يأهلَ العِراق ، مَنْ لذرارينا إن قتلتمونا ! ومَنْ لذرارِيّكم إذا قَتلنا كم ! الله الله فى البقية ! وأصبَحُوا وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرّماح ، وقد قلّدوها الخيل [والناس على الرايات قد اشتهوْا مادُعوا اليه][(1)] ، ومصحفُ دِمشق الأعظم يحمله عشرة رجال عَلَى رءوس الرِّماح ، وهم ينادون : كتاب الله بيننا وبينكم .

وأقبل أبو الأعور السُّلَمِيّ على بِرْذَونٍ أبيض ، وقد وَضَع المصحفَ عَلَى رأسه ، ينادى : يأهلَ العِراق ، كتاب الله بيننا وبينكم .

قال : فجاء عدىّ بن حاتم الطائىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنه لم يُصَبْ مِنَّا عُصْبة إلا وقَدْ أُصيبَ منهم مثلها[(2)] ، وكلٌّ مقروح ؛ ولكنّا أمثلُ بقيةً منهم ، وقد جَزِع القومُ ، وليس بعد الجَزَع إلا ماتحبّ ، فناجِزْهم[(3)] .

وقام الأشتر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّ معاوية لا خَلَف له من رجاله ؛ ولكنْ

---

(١) من كتاب صفين .
(٢) كتاب صفين : « إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق ، فإنه لم يصب ... » .
(٣) فى كتاب صفين : « فناجز القوم » ، والمناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ؛ وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه ، أو يقتل أحدهما .

بحمدِ الله لك الخلف ، ولو كان لهمثلُ رجالك لم يكن له مثلُ صَبْرك ولا نصرك ،فاقْرَعِ الحديدَ بالحديد ، واستعِنْ بالله الحميد .

ثم قام عمرو بن الحمِق ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا والله ما أجَبْنَاكَ ولا نصرناك عَلَى الباطل ، ولا أجَبْنا إلا الله ، ولَا طَلَبْنا إلا الحقّ ، ولو دعانا غيرُكَ إلى مادعوتَنَا إليه لاسْتَشْرَى[1] فيه اللّجاج ، وطالت فيه النَّجْوى ، وقد بلغ الحقُّ مقطَعه ، وليس لنا معك رأْيٌ .

فقام الأشعث بن قيس مُغْضَباً ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا لك اليوم عَلَى ما كنّا عليه أمس ، وليس آخرُ أمرِنا كأوّله ، وما من القوم أحدٌ أحْنَى عَلَى أهل العراق ولا أوتَرَ لأهلِ الشام مِنِّى ! فأجِب القوم إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، فإنّك أحقُّ بهمنهم، وقد أحبَّ الناسُ البقاء ، وكرهوا القتال .

فقال علىّ عليه السلام : هذا أمر يُنظر فيه .

فتنادَى الناسُ من كلِّ جانب : الموادعة .

فقال علىّ عليه السلام : أيها الناسُ، إنّى أحقُّ مَنْ أجاب إلى كتاب الله ، ولكنّ مُعاوية وعَمْرو بن العاص وابن أبى مُعيط وابن أبى سَرْحٍ وابن مَسْلَمة ليسوا بأصحابِ دين ولا قرآن ، إنّى أعرَفُ بهم منكم ، صحِبتُهم صغارا ورجالا ، فكانوا شرَّ صِغار ، وشَرّرجال . وَيْحكم إنّها كلمة حَقٍّ يُراد بها باطل ! إنّهم مارفعوها؛أنّهم يعرفونَها ويعملون بها، ولكنّها الخديعةوالوَهن والمكيدة ! أعيرونىسواعدَكُم وجَماجمكم ساعة واحدة ، فقد بَلغ الحقُّ مقطَعه ، ولم يبق إلّا أن يُقْطَعَ دابرُ الذين ظلموا .

فجاءه من أصحابه زُهاء عشرين ألفا مُقَنَّعِين فى الحديد ، شاكى السلاح،سُيوفُهم عَلَى

---

(١) استشرى : اشتد .

عواتقهم ، وقد اسودّت جباههم من السُّجود ، يتقدمهم مِسْعَر بن فَدَكِيّ وزيد بن حُصين وعِصابة من القُرّاء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمْرة المؤمنين : يا عليّ ، أجبِ القوم إلى كتاب الله إذْ دُعيت إليه ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابْنَ عفان ، فو الله لنفعلَنّها إن لم تُجبهم !

فقال لهم : وَيْحَكم ! أنا أوّلُ مَنْ دعا إلى كتاب الله ، وأوّلُ مَنْ أجاب إليه ؛ وليس يحلّ لى ، ولا يَسَعُنِى فى دينى أن أُدْعَى إلى كتاب الله فلا أقبَلَه ، إنى إنما قاتلتُهم ليَدِينوا بحكم القرآن ؛ فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرَهم ، ونقضُوا عهدَه ، ونبذوا كِتابه ، ولكنّى قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم ؛ وأنهم ليس العملَ بالقرآن يريدون . قالوا : فابعَث إلى الأشتر ليأتينّك ، وقد كان الأشتر صبيحةَ ليلة الهرير أشرف على عَسْكر معاوية ليدخله .

* * *

قال نصر : فحدثنى فُضَيل بن خَدِيج [عن رجل من النَّخَع](١) قال : سأل مصعب (٢) إبراهيم بن الأشتر(٢) عن الحال كيف كانت ؟ فقال : كنت عند عليّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيَه ، وقد كان الأشتر أشرَف على مُعَسْكَر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه عليّ عليه السلام يزيدَ بن هانىء : أن ائتنى ، فأتاه فأبلغه(٣) ، فقال الأشتر : ائته فقل له : ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تُزِيلنى عن موقفى ؛

(١) من كتاب صفين .
(٢ ـ ٢) ب : « سأل مصعب بن إبراهيم » ، وصوابه من ا ، ج .
(٣) كتاب صفين : « فبلغه » .

إنّى قد رجوت[1] الفتح فلا تُعْجِلْنى . فرجعَ يزيد بن هانئ إلى علىّ عليه السلام فأخبره ؛ فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرّهج ، وعلت الأصوات من قبَل الأشتر ، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخِذْلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم لعلىّ : والله ما نراك أمرتَه إلا بالقتال ! قال : أرأيتمونى ساررت[2] رسولى إليه ! أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابْعَثْ إليه فليأتك ؛ وإلا فو الله اعتزلناك ! فقال : وَيحك يا يزيد ! قل له : أقبِلْ إلىّ ، فإن الفتنة قد وقعت . فأتاه فأخبره ، فقال الأشتر : أبرفْعِ[3] هذه المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : أما والله لقد ظننتُ أنّها حينَ رُفِعَتْ ستُوقع خلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن النّابغة[4] ! ثم قال ليزيد بن هانئ : وَيحك ! ألا ترى إلى الفتح ! ألا تَرَى إلى ما يلقوْن ! ألا تَرَى إلى الذى يَصْنَعُ الله لنا ؟ أينبغى أن نَدَعَ هذا وننصرف عنه ! فقال له يزيد : أتحبّ أنك ظَفِرتَ ها هنا وأنّ أميرَ المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يُفْرَجُ عنه ، ويُسْلَم إلى عدوّه ! قال : سُبحان الله ! لا والله لا أحبّ ذلك ، قال : فإنّهم قد قالوا له ، وحلَفوا عليه ، لَتُرْسِلَنّ إلى الأشتر فَليأتِيَنّك ، أو لنقتلُنّك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لَنُسْلِمَنّك إلى عدوّك .

فأقبل الأشتَرُ حتّى انتهى إليهم ، فصاحَ : يأهلَ الذلّ والوهن ، أحِينَ عَلَوتم القوم ، وظنّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا[5] المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سُنّةَ مَنْ أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ! أمهلونى فُوَاقا[6] فإنى

---

(١) كتاب صفين : « إنى قد رجوت الله أن يفتح لى » .
(٢) ب : « شاورت » ، وصوابه من ا ، ج ، وكتاب صفين .
(٣) كتاب صفين : « ألرفع » .
(٤) كتاب صفين : « يعنى عمرو بن العاص » .
(٥) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى ٦ : ٢٧ ، وفى كتاب صفين : « ورفعوا » .
(٦) الفواق : ما بين الحلبتين ؛ يقال : انتظرتك فواق ناقة .

قد أحسستُ بالفتح ، قالوا : لا نمهلك ، قال : فأمهلونى عَدْوةَ الفَرَس ؛ فإنى قد طمعْتُ فى النصر ، قالوا : إذَنْ ندخُلَ معك فى خطيئتك .

قال : فحدِّثونى عنكم ، وقد قُتِل أماثِلُكم ، وبقىَ أراذِلُكم ؛ متى كنتم مُحِقّين ! أحين كنتم تَقْتُلون أهلَ الشام ! فأنتم الآن حين أمسكتم عن قتالهم مبطلون ! أم أنتم الآن فى إمساكِكم عن القتال محقّون ! فقتلاكم إذَن الّذين لا تنكرون فضلهم ، وإنّهم خيرٌ منكم فى النّار ، قالوا : دَعْنا منك ياأشتر ، قاتلناهم فى الله ونَدَعُ قتالهم فى الله ؛ إنّا لسنا نطيعُك فاجتَنِبْنا ، فقال : خُدِعتم والله فانخدعتم ، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ؛ يا أصحاب الجباه السود ، كنّا نظنّ صلاتَكم زَهادةً فى الدنيا وشوقا إلى لقاء الله ! فلا أرى فرارَكم إلا إلى الدنيا من الموت ؛ ألا فقبحاً يا أشباه النِّيب[1] الجلّالة ، ما أنتم برائين بعدها عِزًّا أبدا ، فابعَدُوا كما بعِدَ القومُ الظالمون .

فسَبُّوه وسبَّهم ، وضربُوا بسياطهم وجهَ دابّته ، وضرب بسوطه وجوه دوابِّهم ، وصاح بهم علىّ عليه السلام ، فكَفّوا . وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ، احمِل الصفَّ على الصفّ تَصْرَع القوم . فتصايحوا : إنّ أمير المؤمنين قد قَبِلَ الحكومة ، ورَضِى بحكم القرآن . فقال الأشتر : إنْ كان أمير المؤمنين قد قَبِل ورضىَ ، فقد رضيت بما رضى به أمير المؤمنين ، فأقبل الناسُ يقولون : قد رَضِىَ أميرُ المؤمنين ، قد قَبِل أميرُ المؤمنين ، وهو ساكت لَا يَبِضّ[2] بكلمة ، مُطْرِقٌ إلى الأرض .

ثم قام فسكت النّاس كلهم ، فقال : أيّها النّاس ، إنّ أمرى لم يزَلْ معكم على ما أحبّ إلى أن أخذَتْ منكم الحرب ، وقد والله أخذَتْ منكم وتركَتْ ، وأخذَت من عدوِّكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنْهَك ، ألَا إنى كنتُ أمسِ أميرَ المؤمنين فأصبحت اليوم

(١) النيب . جمع ناب ؛ وهى الناقة المسنة .
(٢) لا يبض بكلمة : لا يتكلم .

مأمورا، وكنت ناهياً فأصبحت منهيًّا ، وقد أحببتم البقاء ، وليس لى أن أحملكم على ماتكرهون .
ثم قعد .

قال نصر : ثم تكلّم رؤساء القبائل ، فكلٌّ قال مايراه ويهواه ، إمّا من الحرْب أو من السِّلم ، فقام كُردوس بن هانئ البكريّ فقال : أيّها الناس ؛ إنّا والله ماتولّيْنا معاوية منذ تبرّأنا منه ، ولا تبرّأنا من علىّ منذ توليناه ، وإنّ قتلانا لشهداء ، وإن أحياءنا لأبرار ؛ وإنّ عليا لَعلى بينة من ربه ، وما أحدث إلا الإنصاف ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هلك .
ثم قام شقيق بن ثور البكريّ ، فقال : أيّها الناس ، إنا دعونا أهلَ الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا ، فقاتلناهم عليه ؛ وإنهم قد دعونا اليوم إليه[(١)] ؛ فإن رَدَدْناه عليهم حلّ لهم منّا ما حلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يَحيفَ اللهُ علينا ورسوله ، ألا إنّ عليًّا ليس بالراجع الناكس ، ولا الشاكّ الواقف ؛ وهو اليوم على ما كان عليه أمس ؛ وقد أكلتْنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلّا فى الموادعة[(٢)] .

* * *

قال نصر : ثم إنّ أهلَ الشام لما أبطأ عنهم عِلْمُ حالِ أهل العراق : هل أجابوا إلى الموادعة أم لا ؟ جَزِعوا فقالوا : يامعاوية ، مانرى أهلَ العراق أجابوا إلى مادعوناهم إليه ، فأعِدْها جَذَعة[(٣)] ، فإنّك قد غَمرْت بدعائك القوم ، وأطمعتَهم فيك .

فدعا معاوية عبدَ الله بن عَمْرو بن العاص ، فأمَره أنْ يكلّم أهلَ العراق ، ويستَعْلِم له ماعندهم ، فأقبل حتى إذا كان بين الصَّفّيْن نادى : يأهلَ العراق ، أنا عبدُ الله بن

---

(١) كتاب وقعة صفين : « إلى كتاب الله » .
(٢) كتاب صفين ٥٦١ — ٥٦٤ ، ثم ٥٥٣ — ٥٥٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٥٧ بسنده عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه .
(٣) أعدها جذعة ؛ أى ابدأ بها مرة أخرى . وفى اللسان : « وإذ طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم : « إن شئتم أعدناها جذعة ، أى أول ما يبتدأ منها » . وفى الأصول « خدعه » والصواب ما أثبته من كتاب صفين .

مرو بن العاص ؛ إنه قد كانت بيننا وبينكم أمورٌ للدين أو الدنيا[1] فإن تكن للدّين فقد والله أعْذَرْنا وأعذرتم ، وإن تكنْ الدنيا فقد والله أسْرَفْنا وأسرفتم ؛ وقد دعوناكم إلى أمرلو دعوتمونا إليه لأجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله . فاغتنموا هذه الفُرْصة ، عسى أن يعيش فيها المحترِف[2] ويُنْسَى فيها القتيل ؛ فإن بقاء المهلِك بعد الهالك قليل .

فأجابه سعد بن قيسٍ الهمْدَانيّ ، فقال : أمّا بعدُ يأهل الشام ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامَيْنا فيها على الدين والدنيا ، وسمّيتُموها غَدْراً وسَرَفاً ، وقد دعوتُمونا اليوم إلى ماقاتلناكم عليه أمس ، ولم يكن ليرجعَ أهلُ العراق إلى عراقهم ، وأهلُ الشام إلى شامهم ، بأمْرٍ أجمل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه ؛ [فالأمر فى أيدينا دونكم ؛ وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم][3] .

فقام النّاس إلى على عليه السلام ، فقالوا له : [4] أجبِ القوم إلى المحاكمة ، قال : ونادى إنسان من أهل الشام فى جوف الليل بشِعر سمعه الناسُ ، وهو[4] :

رُءوسَ العِرَاق أجِيبوُا الدُّعـاءَ ... فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الشِّـدَّهْ
وقَدْ أوْدَتِ الحربُ بالعـالَمِينَ ... وأهلِ الحفائظِ والنَّجْـدَهْ
فَلَسْنـاَ وَلَسْتُم مِنَ المُشْرِكِينَ ... وَلَا المُجْمِعِينَ عَلَى الرِّدَّهْ
وَلَـكِنْ أُناسٌ لَقُوا مِثْلَهُمْ ... لَنـاَ عِدَّةٌ وَلَـكُمْ عِـدَّهْ[5]

---

(١) كتاب وقعة صفين : « للدين والدنيا » .
(٢) فى ج : « المحترق » وفى حواشيها : « الحزق ، محركة : الدهش من الخوف » .
(٣) تكملة من كتاب صفين .
(٤–٤) فى كتاب صفين : « أجب القوم الى ما دعوناك إليه ؛ فإنا قد قبلنا ، ونادى إنسان من أهل الشام فى سواد الليل بشعر سمعه الناس ، وهو » .
(٥) كتاب وقعة صفين : « ولهم عده » .

[فَقَاتَلَ كُلٌّ عَلَى وَجْهِهِ ... يُقَحِّمُهُ الجِدُّ والحِدَّهْ][1]
فَإِنْ تَقْبَلُوهَا فَفِيهَا البَقَاءُ ... وَأَمْنُ الفَرِيقَيْنِ وَالبَلْدَهْ
وَإِنْ تَدْفَعُوهَا فَفِيهَا الفَنَاءُ ... وَكُلُّ بَلَاءٍ إِلَى مُدَّهْ
فَحَتَّى مَتَى مَخْضُ هَذَا السِّقَاءِ ... وَلَابُدَّ أَنْ تَخْرُجَ الزُّبْدَهْ
ثَلاثَةُ رَهْطٍ هُمُ أَهْلُهَا ... وَإِنْ يَسْكُتُوا تَخْمُدِ الوَقْدَهْ
سَعِيدُ بنُ قَيْسٍ وَكَبْشُ العِرَاقِ ... وذاكَ المُسَوَّدُ مِنْ كِنْدَهْ

قال : فأمّا المسوّد من كِنْدة ، وهو الأشعث ؛ فإنه لم يرضَ بالسكوت ، بل كان من أعظم الناس قولاً فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة . وأما كبش العِراق ، وهو الأشتر ، فلم يكن يرَى إلّا الحرب ، ولكنه سكت على مَضَضٍ . وأما سعيد بن قيس ، فكان تارة هكذا وتارة هكذا[2] .

***

وذكر ابن ديزيل[3] الهَمْدانىّ فى كتاب " صفّين " قال :

خرج عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية ، فارتجز فخرج إليه جارية بن قدامة السعدىّ ، فارتجز أيضاً مجيبا له ثم اطّعَنَا[4] فلم يصنعا شيئا ، وانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه ، فقال عمرو بن العاص لعبدالرحمن : اقْحُم يابن سيفِ الله ، فتقدم عبدُ الرحمن بلوائه ، وتقدّم أصحابه ، فأقبل علىّ عليه السلام عَلَى الأشتر ، فقال له : قد بلغَ لواء معاوية حيث

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) كتاب وقعة صفين : ٥٥١ ـ ٥٥٣ .
(٣) ابن ديزيل ، هو إبراهيم بن الحسين بن على بن مهران بن ديزيل الكسائى الهمذانى ، أحد كبار الحفاظ ومتكلميهم ؛ ذكره ابن حجر فى لسان الميزان (١ : ٤٩) ، وقال : « مات فى آخر يوم من شعبان سنة إحدى وثمانين ومائتين » .
(٤) اطعنا : أى تطاعنا .

ترى ، فدونك القوم . فأخذ الأشتر لواء علىّ عليه السلام ، وقال [1] :

إنّى أنا الأشْتَرُ معروف الشَّتَرْ [2] إنّى أنا الأفعى العِراقىُّ الذَّكَرْ

لستُ رَبِيعِيًّا ولَسْتُ مِنْ مُضَرْ [3] لٰكِنَّنِى مِنْ مَذْحِجَ الشُّمِّ الغُرَرْ

فضارب القومَ حتّى ردّهم ، فانتدَب [4] له همام بن قَبِيصة الطائىّ ـ وكان مع معاوية ـ فشدّ عليه فى مَذْحِج ، فانتصر عدىُّ بن حاتم الطائىّ للأشتر ، فحمل عليه فى طيِّئ ، فاشتدّ القتال جدًّا ، فدعا علىّ ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله فركِبها ، ثم تعصَّب بعمامة رسول الله ، ونادى : أيّها الناس ، مَنْ يَشرى نفسه لله ! إنّ هذا يومٌ له مابعده ، فانتدبَ معه مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفا ؛ فتقدّمهم علىّ عليه السلام ، وقال :

دُبُّوا دبيبَ النَّمْلِ لَا تَفوتُوا وأَصْبِحُوا أمرَكُمْ أوْ بِيتُوا [5]

* حَتّى تَنَالُوا الثَّأْرَ أو تَمُوتوا *

وحمل وحمل الناسُ كلهم حَمْلةً واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صَفٌّ إلا أزالوه ، حتى أفضَوْا إلى معاوية ، فدعا معاوية بفرسه ليفرّ عليه .

وكان معاوية بعد ذلك يحدّث فيقول : لَمّا وضعتُ رجلى فى الرّكاب ، ذكرت قول عَمرِو بنِ الإطنابة [6] :

أَبَتْ لى عِفَّتِى وَأَبَى بَلَائى وَأَخْذِى الْحَمْدَ بالثَّمن الرَّبِيحِ

---

(١) الأبيات ذكرها نصر بن مزاحم فى وقعة صفين ٤٥١ ، والمسعودى فى تاريخه ٢ : ٣٩٠ .

(٢) الشتر : انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه .

(٣) رواية المسعودى :

* لَسْتُ مِنَ الْحَىِّ رَبِيعٍ أَوْ مُضَرْ *

(٤) انتدب له : خف له .

(٥) فى وقعة صفين ٥٥٩ المنقرى : « وأصبحوا بحربكم » ، وفيما يأتى من شرح النهج (٢٨٦:٢) : « وأصبحوا فى حربكم » .

(٦) الخبر والأبيات فى الكامل (٨: ٢١٥) ـ بشرح المرصفى ، وأمالى القالى (١ : ٢٥٨) ، وعيون الأخبار (١٢٦:١) ، والإطنابة : اسم أمه ؛ وهو عمرو بن عامر من بنى الحارث بن الخزرج .

وإقْدَامى عَلَى المـــكروهِ نفْسى ... وَضَرْبِى هَامَـــةَ البَطَلِ المُشِيحِ (١)
وَقَوْلى كُلّمَا جَشَأَتْ وَجاشَتْ : ... مَـكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحى (٢)

فأخرجتُ رِجلى من الرّكاب وأقمت ، ونظرت إلى عمرو فقلت له : اليومَ صَبْرٌ وغداً فَخْر ، فقال : صدقت .

قال إبراهيم بن ديزيل : وروى عبدُ الله بن أبى بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ، عن معاوية ، قال : أخــذتُ بمعْرَفةِ فرَسى ، ووضعت رِجْــلِى فى الركاب للهَرَب ، حتى ذكرت شعرَ ابن الإطْنابة ، فعدت إلى مقعدى ، فأصبتُ خير الدُّنيا ، وإنى لرَاجٍ أنْ أصيب خير الآخرة .

قال إبراهيم بن ديزيل : فـكان ذلك يومَ الهرير ، ثم رفعت المصاحف بعده .

وروى إبراهيم ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ربيعة بن لَقِيط ، قال : شَهِدْنا صِفّين ، فمطرتِ السّماء علينا دماً عبيطاً .

وقال : وفى حديث اللَّيث بن سعد أنْ كانوا لَيأخذونه بالصِّحاف والآنية . وفى حديث ابن لهيعة : حتى إنّ الصِّحاف والآنية لتمتلىءُ ونُهَرِيقُها .

قال إبراهيم : وروى عبدُ الرحمن بن زياد ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عمن حدثه ممن حضر صِفِّين أنهم مطروا دما عبيطا ، فتلقّاه الناس بالقِصاع والآنية ، وذلك فى يوم الهرير ، وفزِع أهلُ الشام وهمُّوا أن يتفرّقوا ، فقام عمرو بن العاص فيهم فقال : أيّها الناس ، إنما هذه آيةٌ من آيات الله ، فأصلح امرؤٌ ما بينه وبين الله ، ثمّ لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان . فأخذوا فى القتال .

---

(١) فى الـكامل : «وإجشامى على المـكروه نفسى» ، والمشيح : المقبل على عدوه ، المانع لما وراء ظهره .
(٢) جشأت وجاشت ، أى ارتفعت من الفزع .

قال إبراهيم : وروى أبو عبد الله المكيّ ، قال : حدّثنا سُفيان بن عاصم بن كلَيب الحارثيّ عن أبيه ، قال : أخبرني ابنُ عباس قال : لقد حدّثني معاوية أنّه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً له أنثى ، بعيدة البطن من الأرض ، ليهرُب عليها ؛ حتى أتاه آتٍ من أهل العراق ، فقال له : إنّي تركتُ أصحاب عليّ في مثل ليلة الصَّدَر [1] من مِنًى ، فأقمت ، قال : فقلنا له : فأخبِرْنا مَنْ هو ذلك الرجل ؟ فأبى وقال : لا أخبرُكم مَنْ هو .

* * *

قال نصر وإبراهيم أيضاً : وكتب معاويةُ إلى عليّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنّ هذا الأمرَ قد طال بيننا وبينك ، وكلٌّ واحدٍ منّا يرى أنه على الحق فيما يطلبُ من صاحبه ، ولن يُعْطِيَ واحدٌ منّا الطاعة للآخر ، وقد قُتِلَ فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقِيَ أشدّ مما مضى ؛ وإنّا سوف نُسْألُ عن ذلك الموطن ، ولا يحاسَبُ [به] [2] غيري وغيرُك ، وقد دعوتُك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعذْر ، وبراءة وصلاح للأمّة ، وحقْن الدماء ، وألْفة الدِّين ، وذهاب للضغائن والفِتن ، أن نحكّم بيني وبينكم حكَمَيْن مَرضيّيْن ، أحدُهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خيرٌ لي ولك ، وأقطَع لهذه الفِتَن ؛ فاتق الله فيما دُعيت إليه ، وارض بحُكْم القرآن إن كنت من أهله ، والسلام .

فكتب إليه عليّ عليه السلام :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإنّ أفضل ما شغَل به المرء نفسه اتّباع ما حسَّن به [3] فعلَه ، واستوجب فضلَه ، وسَلِم من عيبه [3] ،

(١) الصدر : اليوم الرابع من أيام منى .
(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقرى .
(٣-٣) وقعة صفين . « ما يحسن به فعله ، ويستوجب فضله ، ويسلم من عيبه » .

وإنّ البغيَ والزورَ يُزريان بالمرء فى دينه ودنياه ، فاحـذر الدنيا ، فإنّه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها ؛ ولقد علمتَ أنّك غيرُ مدركٍ ماقضى فواته ، وقد رام قومٌ أمراً بغير الحقّ ، وتأوّلوه (١) على الله جلّ وعزّ ، فأكذبهم ومتّعهم قليلا ، ثم اضطرهم إلى عذابٍ غليظ ، فاحذَرْ يوماً يَغتَبِط فيه مَنْ حَمِد عاقبة عمله ، ويندَم فيه مَنْ أمكن الشيطانَ من قياده [ولم يحادّه] (٢)، وغرّته الدنيا واطمأنّ إليها . ثم إنّك قد دَعَوْتَنى إلى حكم القرآن،ولقد علمتَ أنّك لستَ من أهلِ القرآن ولاحكمَه تريد؛والله المستعان، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه ، ولسْنَا إياكَ أجَبْنَا ؛ ومَنْ لم يرضَ بحُكْم القرآن فقد ضلّ ضلالا بعيدا (٣) .

فكتب معاوية إلى علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ عافانا الله وإيّاك ، فقد آنَ لك أن تُجيب إلى مافيه صلاحُنا وألفة بيننا ، وقد فعلتُ الذى فعلتُ وأنا أعرفُ حَقّى، ولكنى اشتريتُ بالعفو صلاحَ الأمة،ولم أُكْثِر فرحا بشىء جاء ولا ذهب ؛ وإنّما أدخلَنى فى هـذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغى والمبغىّ عليه ، والأمر بالمعروف والنّهى عن المُنْكَر ؛ فدعوْت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك ؛ فإنّه لا يجمعُنا وإياك إلا هو ، نحيى ما أحيا القرآن ، ونُميت ما أمات القرآن ، والسلام (٤) .

* * *

قال نصر : فكتَب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، يعظه ويُرشده .

---

(١) وقعة صفين : « فتأولوا على الله » .
(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقرى .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٦٥ ـ ٥٦٦ .
(٤) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ .

أما بعد ؛ فإنّ الدنيا مَشْغَلة عَنْ غَيرِها ، ولن يصيبَ صاحبُها منها شيئاً إلا فَتَحَتْ له حِرْصا يزيدُه فيها رغبة ، ولن يستغنىَ صاحبُها بما نَالَ عمّا لم يبلُغ [(١)] ، ومِنْ وراء ذلك فراقُ ماجَمع ، والسعيدُ مَنْ وُعظ بغيره ؛ فلا تُحْبِطْ أبا عبد الله أجْرَك ، ولا تُجَارِ معاوية فى باطله ، والسلام .

فكتب إليه عمرو الجواب :

أما بعد أقول ، فالذى [(٢)] فيه صلاحنا وألفتُنا الإنابةُ إلى الحق ، وقد جعلْنا القرآن بيننا حكما ، وأجَبْنا إليه، فصبرَ الرّجلُ منّا نفسَه على ماحكم عليه القرآن ، وعَذَره النّاسُ بعد المحاجزة ، والسلام .

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ فإنّ الذى أعجبَكِ من الدنيا مما نازعتْك إليه نفسُك ، ووثقت به منها لمُنْقلِب عنك ، ومفارقٌ لك ؛ فلا تطمئنّ إلى الدنيا فإنّها غَرّارة ، ولو اعتبرتَ بما مضى لحفِظْتَ ما بقى ، وانتفعْتَ منها بما وعظت به . والسلام .

فأجابه عمرو :

أما بعد ، فقد أنصفَ مَنْ جعل القرآن إماما ، ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبِرْ أبا حسن ، فإنّا غير مُنيليك إلا ما أنالك القرآن ، والسلام [(٣)] .

* * *

قال نصر : وجاء الأشعث إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أرى النّاس إلا قد رَضُوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى مادَعَوْهم إليه من حكم القرآن ؛

(١) وقعة صفين : « لم يبلغه » .
(٢) وقعة صفين : « فإن ما فيه صلاحنا » .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ — ٥٧١ .

فإنْ شِئْتَ أتيتُ معاوية فسألتُه مايريد ، ونظرت ما الذى يسأل ؛ قال : فأْتِه إن شئت ؛ فأتاه ، فسأله : يامعاوية : لأىّ شىء رفعتم هـذه المصاحف ؟ قال : لنَرْجِـع نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به فيها [١] ، فابعثوا رجلا منكم تَرْضَوْن به ، ونبعث منّا رجلا ، ونأخذ عليهما أن يَعْمَلا بما فى كتاب الله ولا يَعْدُوانه ، ثم نتَّبِع ما اتفقا عليه . فقال الأشعث : هذا هو الحق .

وانصرف إلى علىّ عليه السلام ، فأخبره ، فبعث علىّ عليـه السلام قُرّاءً من أهل العراق ، وبعث معاوية قُرّاءً من أهل الشام ، فاجتمعوا بين الصَّفَّين ، ومعهم المصحف ، فنظروا فيه وتدارسوا [٢] واجتمعوا على أن يُحْيُوا ما أحيا القرآن، ويُميتوا ما أمات القرآن، ورجع كلُّ فريق إلى صاحبه ، فقال أهلُ الشام : إنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : قد رَضِينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعرىّ ، فقال لهم علىّ عليـه السلام : فإنّى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أولّيَه ، فقـال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعر بن فَدَكِىّ فى عصابة من القراء : إنّا لا نرضى إلا به ، فإنه قد كان حذَّرَنا ماوقعنا فيه . فقال علىّ عليـه السلام : فإنه ليس لى برضاً ، وقد فارقنى وخَذّل الناس عنّى، وهرب منى حتى أمّنتُه بعد أشهر ، ولـكن هذا ابن عباس أولِّيه ذلك . قالوا : والله مانُبالى ، أكنت أنت أو ابن عباس ! ولا نُريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر . قال علىّ عليه السلام : فإنى أجعلُ الأشتر ، فقال الأشعث : وهل سَعّر الأرض علينا إلا الأشتر ! وهل نحن إلا فى حُـكْم الأشتر ! قال علىّ عليه السلام : وماحكمه ؟ قال : حكمُه أن يضرب بعضُنا بعضاً بالسيف حتّى يكون ما أردتَ وما أراد [٣] .

* * *

(١) وقعة صفين : « فى كتابه » .

(٢) صفين : « وتدارسوه » .

(٣) وقعة صفين المنقرى ٥٧٢ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبى جعفر محمد بن علىّ ، قال : لما أرادَ الناس عليًّا أن يَضَع الحَكَمَيْن ، قال لهم : إنّ معاويةَ لم يكُن لِيَضَعَ لهذا الأمر أحداً هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ؛ وإنه لا يصلح للقرشىّ إلا مثله ،فعليكم بعبد الله بن العباس فارمُوه به ؛ فإن عَمْراً لا يَعْقِدُ عُقْدَةً إلّا حلّها عبد الله ، ولا يحُلّ عُقدةً إلا عقدها ، ولا يُبرِمُ أمراً إلا نقضه ، ولا يَنقُضُ أمراً إلا أبرمه ، فقال الأشعث : لا والله ، لا يحكُم فينا مُضَرِيّان حتّى تقومَ الساعة ، ولكن اجعل رجلًا من أهل اليمن إذ جَعَلُوا رجلا من مُضَر ، فقال علىّ عليه السلام : إنّى أخافُ أن يُخدَعَ يمنيُّكم ،فإنّ عَمْراً ليس من الله فى شىء إذا كانَ له فى أمرٍ هوى . فقال الأشعث :والله لأنْ يحكما ببعض مانكره ، وأحدُهما من أهلِ اليَمن ، أحبُّ إلينا من أن يكون بعض مانحبّ فى حكمهما وهما مُضَريّان .

قال : وذكر الشعبىّ أيضاً مثل ذلك[1] .

* * *

قال نصر : فقال علىّ عليه السلام : قد أبَيْتُم إلّا أبا موسى ! قالوا : نعم ، قال : فاصنَعوا ماشئتم ، فبعثوا إلى أبى موسى — وهو بأرضٍ من أرض الشام يقال لها عُرْض[2] قد اعتزل القتال — فأتاه مولًى له ، فقال : إنّ الناس قد اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال : وقد جعلوك حكماً ، فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر علىّ عليه السلام ، وجاء الأشتر عليا،فقال : ياأميرَ المؤمنين ألِزَّنى[3] بعمرو بن العاص ، فوالذى لا إله غيره ، لئن ملأتُ عينى منه لأقتلنّه .

---

(١) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٣ .
(٢) عرض : بلد بين تدمر ورصافة الشام .
(٣) ألزه به : ألزمه إياه .

وجاء الأحنفُ بن قيس عليا ، فقال: ياأميرَ المؤمنين ، إنّك قد رُميت بحجَرِ[1] الأرض؛ ومَنْ حارَبَ اللهَ ورسولَه أنفَ[2] الإسلام ، وإنى قد عجمتُ هـذا الرجل ـ يعنى أبا موسى ـ وحلبْتُ أشطُره ، فوجدته كليلَ الشَّفْرة قريب القَعْر ؛ وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجلٌ يدنُو منهم حتّى يكونَ فى أكفِّهم ، ويتباعدُ منهم حتى يكونَ بمنزلة النَّجْم منهم ،[3] فإن شِئْت أن تجعلَنى حَكَما فاجعلنى ، وإنْ شئت أن تجعلَنى ثانياأو ثالثا[3]،فإنّ عمراً لا يعقد عقدة إلا حلَّها ، ولا يُحلّ عقدة إلا عقدتُ لك أشدَّ منها .

فعَرَض علىّ عليه السلام ذلك على الناس فأبوْه ، وقالوا : لا يكونُ إلا أباموسى[4] .

* * *

قال نصر : مال الأحنف إلىّ على عليه السلام ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنى خَيّرتُك يومَ الجمل أن آتيَك فيمنْ أطاعنى ، أو أكفَّ عنك بنى سعد ، فقلت : كفَّ قومك ، فكَفى بكفّك نصيرا ، فأقمتُ بأمرك، وإنّ عبد الله بن قيس[5] رجل قد حلبتُ أشطره، فوجدتُه قريبَ القعر ، كليلَ المُدْية ، وهو رجلٌ يمانٍ وقومه مع معاوية ، وقد رُميتَ بحجَر الأرض ، وبمَنْ حارب الله ورسوله ، وإنّ صاحب القوم مَنْ ينأى حتى يكونَ مع النجم ، ويدنُو حتى يكون فى أكُفِّهم ، فابعثنى ، فوالله لا يحلُّ عنك عقدةً إلاعقدتُ لك أشدّ منها ، فإن قلت : إنّى لست من أصحاب رسول الله ، فابعثْ رجلاً من أصحاب رسول الله ، وابعثنى معه .

(١) فى اللسان ٥ : ٢٣٧ : « ويقال : رمى فلان بحجر الأرض ؛ إذا رمى بداهية من الرجال ؛ وفى حديث الأحنف بن قيس : أنه قال لعلى حين سمى معاوية أحد الحكمين عمرو بن العاص : إنك قد رميت بحجر الأرض . . . » .

(٢) أنف كل شيء : أوله ؛ يقال : سار فى أنف النهار ؛ أى أوله .

(٣ــ٣) وقعة صفين : « فإن تجعلنى حكما فاجعلنى ، وإن أبيت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانيا أو ثالثا » .

(٤) وقعة صفين ٥٧٤ .

(٥) عبد الله بن قيس هوأبو موسى الأشعرى .

فقال علىّ عليه السلام : إنّ القومَ أتونى بعبد الله بن قيس مُبَرْنساً ، فقالوا : ابعث هذا ، رَضِينا به والله بالغ أمره[١] .

* * *

قال نصر : وروى أنّ ابن الكوّاء ، قام إلى علىّ عليه السلام ، فقال : هذا عبدالله ابن قيْس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى عليه وصاحب مَقاسم أبى بكر[٢] وعامل عمر ، وقد رضى به القوم ، وعرضْنا عليهم ابنَ عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ظَنُون[٣] فى أمرك .

فبلغ ذلك أهلَ الشام ، فبعث أيمن بن خُرَيم الأسدىّ ، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات ، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق :

لَوْ كانَ لِلقَوْمِ رَأْىٌ يُعْصَمُونَ بِهِ … من الضَّلاَلِ رَمَوْكُمْ بابْنِ عَبَّاسِ
لِلّهِ دَرُّ أبيهِ أيُّما رَجُلٍ … مَا مِثْلُهُ لِفصَالِ الخُطْبِ فِى النَّاسِ !
لَكِنْ رَمَوْكُمْ بِشَيْخٍ مِنْ ذَوِى يَمَنٍ … لاَ يَهْتَدِى ضَرْبَ أخْمَاسٍ لأسداسِ[٤]
إنْ يَخْلُ عمرو بِهِ يَقْذِفْهُ فى لُجَجٍ … يَهْوِى به النَّجْمُ تَيْسًا بين أتياسِ
أبْلِغْ لديْكَ عليًّا غيرَ عاتِبِهِ[٥] … قولَ امرئٍ لا يرى بالحقِّ من بَاسِ
ما الأشْعَرِىُّ بمأمونٍ أبا حَسَنٍ … فاعْلَم هُدِيتَ وليس العَجْزُ كالرّاسِ
فاصْدِمْ بصاحِبِك الأدنى زعيمَهُمُ … إنّ ابن عَمِّكَ عباسٍ هو الآسى

فلما بلغَ الناسَ هذا الشعر ، طارت أهواء قومٍ من أولياء علىّ عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس ، وأبتِ القُرّاء إلا أبا موسى[٦] .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٥ .
(٢) صاحب المقاسم : الذى يتولى أمر قسمة المغانم ونحوها .
(٣) الظنون : المتهم ، كالظنين .
(٤) وقعة صفين والمسعودى ٢ : ٤١٠ : « لم يدر ما ضرب أخماس » .
(٥) صفين : « عائبه » .
(٦) وقعة صفين : ٥٧٥ — ٥٧٦ .

قال نصر : وكان أيمن بن خُرَيْم رجلًا عابدا مجتهدا ، وقد كان معاوية جعل له فلسطين ، على أن يُتابعه ويشايعه على قتال علىّ عليه السلام ، فقال أيمن ، وبعث بها إليه :

وَلَسْتُ مُقَاتِلاً رجلًا يُصَلِّى   على سلطانِ آخَر مِنْ قُرَيْشِ
له سلطانُه وَعَلَىّ إثْمِى   معاذَ الله من سفهٍ وَطَيْشِ
أَأَقْتُلُ مُسْلِماً فِى غَيْرِ جُرْمٍ   فَلَيْسَ بنافِعِى مَاعِشْتُ عَيْشِى !

قال نصر : فلما رضِىَ أهلُ الشام بعمرو ، وأهل العراق بأبى موسى ، أخذوا فى سَطْرِ كتاب الموادعة ، وكانت صورته :

« هذا ما تقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان » . فقال معاوية : بئسَ الرجلُ أنا إن أقررتُ أنه أمير المؤمنين ثمّ قاتلتُه ! وقال عمرو : بل نكتُب اسمه واسم أبيه ؟ إنما هو أميرُكم ، فأما أميرنا فلا . فلما أُعِيد إليه الكتابُ أمرَ بمحْوِه ، فقال الأحنف : لا تمحُ اسمَ أمير المؤمنين عنك ؛ فإنى أتخوّفُ إن محوتَها ألّا ترجع إليك أبدا ، فلا تمحُها . فقال علىّ عليه السلام : إنّ هذا اليوم كيوم الْحُدَيْبِيَة حين كتب الكتّاب عن رسول الله صلى الله عليه : هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو ، فقال سُهَيْل : لو أعلم أنك رسول الله لم أقاتِلْك ، ولم أخالِفْك ، إنى إذاً لظالم لك إن منعتُك أن تطوفَ ببيت الله الحرام وأنت رسوله ؛ ولكن اكتب : « من محمد بن عبد الله » ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه : « يا علىّ ، إنى لرسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، ولن يمحوَ عنّى الرسالة كتابى لهم من محمد بن عبد الله ، فاكتبها وامحُ ما أراد محوه ، أمَا إنّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهَد » .

قال نصر : وقد رُوى أنّ عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى علىّ عليه السلام ، فطلب منه أن يمحوَ اسمَه من إمْرَة المؤمنين فقصّ عليه وعلى مَنْ حضر قِصَّةَ صلح الحُدَيْبية ،

قال : إنّ ذلك الكتاب أنا كتبتُه بيننا وبين المشركين ، واليوم أكتُبه إلى أبنائهم ، كما كان رسول الله صلى الله عليه كتبه إلى آبائهم شِبْها[1] ومِثْلا ، فقال عمرو : سبْحان الله ! أتشبِّهنا[2] بالكفار ، ونحن مسلمون ! فقال علىّ عليه السلام : يابن النابغة ، ومتى لم تكنْ للكافرين وليًّا وللمسلمين عدوًّا ! فقام عمرو ، وقال : والله لا يجمع بينى وبينك مجلسٌ بعد اليوم . فقال علىّ : أمَا والله إنى لأرجو أن يُظهر الله عليك وعلى أصحابك .

وجاءت عِصابة قد وضعتْ سيوفها على عواتقها ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، مُرْنا بما شئتَ ، فقال لهم سهل بن حُنَيف : أيها الناس ، اتَّهموا رأيكم ، فلقد شَهِدْنا صُلْحَ رسول الله صلى الله عليه يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا[3] .

وزاد إبراهيم بن ديزيل: لقَد رأيتُنى يومَ أبى جَنْدَل ــ يعنى الحديبية ــ ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه لرددته ، ثم لم نرَ فى ذلك الصلح إلا خيرا .

قال نصر : وقد روى أبو إسحاق الشيبانىّ ، قال : قرأتُ كتاب الصلح عند سعيد ابن أبى بُردة فى صحيفة صفراء ، عليها خاتمان : خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها ، على خاتم علىّ عليه السلام : « محمد رسول الله » ، وعلى خاتم معاوية « محمد رسول الله » . وقيل لعلىّ عليه السلام ، حين أراد أن يكتب الكتابُ بينه وبين معاوية وأهل الشام : أتُقِرّ أنهم مؤمنون مسلمون ! فقال علىّ عليه السلام : ماأقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ؛ ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ، ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه ، ويسمِّى نفسَه بما شاء وأصحابه ، فكتبوا :

هذا ماتقاضَى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى علىّ بن أبى طالب

---

(١) وقعة صفين : « سنة ومثلا » .
(٢) صفين : « شبهتنا بالكفار ونحن مؤمنون » !
(٣) كتاب صفين ٥٨٢ ــ ٥٨٣ .

على أهل العراق ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبى سفيان على أهل الشام ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، إننّا نَنزل عند حُكم الله تعالى وكتابه ، ولا يجمع بيننا إلا إياه . وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيى ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن ، فإن وَجَد الحكمان ذلك فى كتاب الله اتبعاه ، وإن لم يجداه أخذا بالسنَّة العادلة غير المفرقة . والحكمان : عَبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد أخذ الحَكَمان مِنْ علىّ ومعاوية ومن الجندَيْن أنّهما آمنان على أنفسهما وأموالهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار ؛ وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عَهْدُ الله أن يعملوا بما يقضيان عليه ؛ مما وافق الكتاب والسُّنّة ، وإن الأمْن والموادعة ووضع السلاح متّفق عليه بين الطائفتين ؛ إلى أن يقَع الحكم ، وعلى كلٍّ واحد من الحَكَمين عَهْدُ الله ، ليَحكُمَنَّ بين الأمة بالحق ، لا بالهوى . وأجَلُ الموادعة سنة كاملة ؛ فإن أحبّ الحكمان أن يُعجِّلا الحُكم عجّلاه ، وإن تُوفِّىَ أحدُهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً ؛ لا يألو الحقّ والعدل ، وإن تُوفِّىَ أحدُ الأميرين كان نَصْبُ غيره إلى أصحابه ممن يرضَوْن أمره ، ويحمَدُون طريقته . اللهم إنّا نستنصرُك على مَنْ ترك ما فى هذه الصحيفة ، وأراد فيها إلحاداً وظلماً .

قال نصر : هذه رواية محمد بن علىّ بن الحسين والشعبىّ ، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة :

هذا ماتقاضَى عليه ابن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتُهما فيما تراضيا به من الحُكم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ قضيّة علىّ على أهل العراق ومَنْ كان مِنْ شيعته مِنْ شاهد أو غائب ، وقضيّة معاوية على أهل الشام ومَنْ كان من شيعته مِنْ شاهد أو غائب ؛ إنّنا رضينا أن ننزل عند حُكم القرآن فيما حكم ، وأن نَقِفَ عند أمره فيما أمَر ؛ فإنه لايجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلْنا كتاب الله سبحانه حَكَمًا بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى

خاتمته ، نحيي ماأحيسا القرآن ، ونميت ماأماته ؛ على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإن عليا وشيعته رضُوا أن يبعثُوا عبدَ الله بن قيس ناظرا ومُحا كما ؛ ورضِيَ معاويةُ وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظرا ومحا كما ؛ على أنّهم أخذُوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد مِنْ خَلْقه لَيَتَّخِذانِ الـكتاب إماما فيما بعثا إليه ، لا يعدُوَانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطورا ، ومالم يجداه مسمًّى فى الـكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافا ، ولا يتّبعان هوى ، ولا يدخلان فى شبهة ؛ وقد أخذ عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص على علىّ ومعاوية عهدَ الله وميثاقه بالرِّضا بما حكما به من كتاب الله وسنّة نبيه ، وليس لهما أن ينقُضَا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره ؛ وأنهما آمنان فى حُـكْمهما على دمائهما وأموالهما وأهلهما ، مالم يعدُوَا الحق ؛ رضى بذلك راضٍ أو أنـكره مُنْـكِر . وإنّ الأمة أنصارٌ لهما على ماقَضَيَا به من العَدْل ، فإن تُوفِّى أحدُ الحـكمين قبل انقضاء الحـكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانَه رجـلا ، لا يألون عن أهل المَعْدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهـد والميثاق والحـكْم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مِثلُ شرط صاحبه ، وإن مات أحـد الأميرَيْن قبل القضاء ، فلشيعته أن يولُّوا مكانه رجلاً يرضون عَدْله . وقد وقعت هذه القضيّة ، ومعها الأمن والتفاوض ، ووضع السلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحـكَمَيْن عهد الله وميثاقُه ألّا يألُوَا اجتهادا ، ولا يتعمَّدا جَوْراً ، ولا يدخلا فى شبهة ، ولا يعدوَا حُـكْم الـكتاب ، فإن لم يفعلا برئت الأمة من حُـكْمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة ، وقد وجبت القضيّة على ماقد سُمِّيَ فى هـذا الـكتاب من مَواقع الشروط على الحـكَمَيْن والأميرين والفريقين ، والله أقرب شهيدا ، وأدنى حفيظا . والناس آمنوُن على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مـدّة الأجل ، والسلاحُ موضوع ، والسُّبل مخلّاة ، والشاهـد والغائب من الفريقين سواء فى الأمن ، وللحكَمين أن ينزلا منزلاً عَدْلًا بين أهل العراق والشام ، لا يحضرهما فيه إلا مَنْ أحبَّا عن ملإٍ منهما وتراضٍ ،

وإنّ المسلمين قد أجّلوا هـذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان ، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وُجّهاله عجّلاها ، وإن أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما ، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول فى الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهُمْ يَدٌ على مَنْ أراد فيه إلحادا وظُلْما ؛ أو حاول له نَقْضاً . وشهد فيه من أصحاب علىّ عشرة ، ومن أصحاب معاوية عشرة ؛ وتاريخ كتابته لليلة بَقِيَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين[١] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عَمْرو بن سعيد ، قال : حدثنى أبو جَناب ، عن ربيعة الجَرْمىّ ، قال : لما كتبت الصحيفة دُعِىَ لها الأشتر ، ليشهدَ مع الشهود عليه ، فقال: لاصحبتْنى يمينى ولا نفعنى بعدَها الشّمال إن كُتِب لى فى هذه الصحيفة اسم على صُلْح أو موادعة ، أوَلَسْتُ على بيّنة من أمرى ويقين من ضلالة عَدُوّى ! أو لستُم قد رأيتم الظّفر إن لم تُجْمِعوا على الخور ! فقال له رجل [من الناس][٢] : والله ما رأيتُ ظَفراً ولا خَوَراً ، هلمّ فأشهِدْ على نفسك ، وأقرِرْ بما كُتِب فى هذه الصحيفة ، فإنه لارغبة لك عن الناس . فقال : بلى والله ، إنّ لى لرغبةً عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة ؛ ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت عندى بخير منهم ، ولا أحرمَ دما .

قال نصر بن مزاحم : الرجلُ هو الأشعث بن قيس ؛ قال : فكأنما قُصِع[٣] على أنفه الحميم ثم قال : ولكنّى قد رضيتُ بما يرضى به أمير المؤمنين ؛ ودخلتُ فيما دخلَ فيه ، وخرجتُ مما خرجَ منه ، فإنه لا يدخلُ إلا فى الهدى والصواب .

(١) وقعة صفين ٥٧٨ — ٥٨٦ .

(٢) من صفين .

(٣) القصع : الدلك والضرب . وفى صفين : « الحم » .

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد عن أبي جناب الكلبيّ عن إسماعيل بن شفيع [1] عن سفيان بن سلمة [2] ، قال : فلما تمّ الكتاب وشهدتْ فيه الشهود ، وتراضَى الناسُ خرج الأشعث ، ومعه ناسٌ بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس، ويعرِضُها عليهم ، فمرّ به على صفوف من أهل الشام ، وهم على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضُوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق ، وهُمْ على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضوا به ، حتى مرّ برايات عَنَزة ، وكان مع عليّ عليه السلام من عَنَزَة بصفّين أربعة آلاف مجفَّف [3] ، فلما مرّ بهم الأشعث يقرؤه عليهم ، قال فَتَيان منهم: لا حكم إلا لله ، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما، فقاتلا حتى قُتلا على باب رِواق معاوية — فهما أولُ مَنْ حكّم . واسماها جَعْد ومَعْدان — ثم مرّ بهما على مُراد ، فقال صالح بن شقيق ، وكان من رءوسهم :

ما لعليٍّ في الدِّماء قَدْ حَكَمْ   لو قاتل الأحزابَ يَوْماً ما ظَلَمْ

لا حكم إلا لله ، ولو كره المشركون . ثم مرّ على رايات بني راسب ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْم إلا لله ، لا نرضى ولا نحكِّم الرجال في دين الله . ثم مر على رايات تميم ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْم إلا لله ، يقضي بالحق وهو خير الفاصلين . فقال رجل منهم لآخر : أمَّا هذا فقد طعن طعنةً نافذة .وخرج عروة بن أُدَيّة، أخو مرداس بن أدّية التميميّ ، فقال : أتحكِّمُون الرجال في أمر الله لا حُكْم إلا لله! فأين قتلانا يا أشعث ! ثم شدّ بسيفه ليضرِب به الأشعث ، فأخطأه ، وضرب عَجُز دابته ضربة خفيفةً ؛ فصاح به الناس : أن إملك [4] يدك ، فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه ، فمشى الأحنف إليه ومَعْقل بن قيس ومِسْعَر بن فَدَكيّ ، ورجال من بني تميم ، فتنصّلوا واعتذروا ، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى عليّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي

(١) كتاب صفين . « سميم » بالتصغير .
(٢) كتاب صفين : « عن شقيق بن سلمة » .
(٣) المجفف : لابس التجفاف ، وأصله ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة .
(٤) صفين : « أن أمسك » .

عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام ، وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : رضينا ، حتى مَرَرْتُ برايات بنى راسب، ونَبْذٍ[1] من الناس سواهم ، فقالوا : لا نرضَى، لا حُكْم إلا لله فَمِلْ[2] بأهل العراق وأهل الشام عليهم حتى نقتلهم . فقال علىّ عليه السلام : هل هى غيرُ رايةٍ أو رايتَين ونَبْذٍ من الناس ؟ قال : لا ، قال : فدعْهم .

قال نصر : فظَنّ علىّ عليه السلام أنّهم قليلون لا يُعبأ بهم ، فما راعهُ إلا نداء الناس من كلِّ جهة ومن كلِّ ناحية : لا حُكم إلا لله ! الحكم لله يا علىّ لا لك ! لا نَرْضَى بأنْ يُحَكِّم الرجالُ فى دين الله . إن الله قد أمضى حُكْمَه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حُكْمنا عليهم[3]، وقد كنّا زَلَلْنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين، وقد بان لنا زَلَلُنا وخَطَؤنا فرجعنا إلى الله وتُبْنا ، فارجع أنت يا علىّ كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تُبْنا، وإلا بَرِئْنا منك . فقال علىّ عليه السلام : ويْحَكُم ! أبعدَ الرِّضا والميثاق والعهد نرجع ! أليس الله تعالى قد قال : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[4] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾[5] فأبى علىّ أن يرجع ، وأبت الخوارجُ إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من علىّ عليه السلام وبَرِئ علىّ عليه السلام منهم[6] .

قال نصر : وقام إلى علىّ عليه السلام محمد بن جريش[7] فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ! فوالله إنى لأخاف أن يُورِثَ ذلاً ، فقال علىّ عليه

(١) نبذ من الناس ، أى عدد قليل منهم .
(٢) صفين : « فلنحمل » .
(٣) صفين : « أو يدخلوا فى حكمنا عليهم » .
(٤) سورة المائدة ١ .
(٥) سورة النحل ٩١ .
(٦) وقعة صفين ٥٨٩ — ٥٩٠ .
(٧) كتاب صفين : « محرز بن جريش » ؛ وقال : « وكان محرز يدعى مخضخضا ، وذلك أنه أخذ عنزة بصفين ؛ وأخذ معه إداوة من ماء ؛ فإذا وجد رجلا من أصحاب على جريحا سقاه من اللبن ، وإذا وجد رجلا من أصحاب معاوية خضخضه بالعنزة حتى يقتله » .

السلام : أبعد أن كتبناه ننقضه ! إنّ هذا لا يَحِلّ (١) .

* * *

قال نصر ؛ وحدّثنى عمر بن نمير بن وعْلة ، عن أبى الودّاك ، قال : لما تداعَى النّاس إلى المصاحف ، وكُتِبَتْ صحيفةُ الصلح والتحكيم ، قال علىّ عليه السلام : إنّما فعلتُ مافعلتُ لِمَا بدَا فيكم من الخَوَر والفَشَل عن الحرب (٢) ؛ فجاءت إليه هَمْدان كأنها ركن حَصِير (٣) فيهم سعيد بن قيس وابنُه عبد الرحمن ؛ غلام له ذؤابة فقال سعيد : هأنذا وقومى،لانردّ أمرَك (٤)فقلْ ماشئتَ نعمله ؛ فقال:أمّا لو كان هذا قبل سَطْر الصحيفة (٥) لأزلتُهم عن عسكرهم ، أو تنفردَ سالِفَتى (٦)[قبل ذلك] (٧)،ولكن انصرفوا راشدين ، فلعمرى ما كنت لأعرِّض قبيلة واحدة للناس (٨) .

* * *

قال نصر : وروى الشعبىّ أنّ عليًّا عليه السلام ، قال يوم صِفِّين حين أقرّ الناس بالصلح: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا لِيُنيبوا إلى الحقّ،ولا لِيُجيبوا (٩) إلى كلمة سواء حتّى يُرْمَوا بالمناسر (١٠) تتبعها العساكر ؛ وحتى يُرْجَموا بالكتائب تَقْفُوها الجلائب (١١)،

(١) كتاب صفين ٥٩٦ .
(٢) صفين : « لما بدا فيكم الخور والفشل ــ هما الضعف » .
(٣) وفى صفين : « فجمع سعيد بن قيس قومه ، ثم جاء فى رجراجة من همدان كأنها ركن حصير يعنى جبلا باليمن » .
(٤) صفين . « لا نرادك ولا نرد عليك » .
(٥) صفين : « أما لو كان هذا قبل رفع المصاحف » .
(٦) السالفة : صفحة العنق ؛ وفى حديث الحديبية : « لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى » ، قال فى اللسان : كنى بانفرادها عن الموت ؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت .
(٧) من كتاب صفين .
(٨) كتاب صفين ٥٩٦ ، ٥٩٧ .
(٩) صفين : « ليفيئوا » .
(١٠) المناسر : جمع منسر ، بكسر الميم ؛ وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .
(١١) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش .

وحتى يجرّ ببلادهم الخميسُ يَتْلوه الخميس[1] ؛ وحتى يدعوا الخيولَ في نواحي أرضهم ، وبأحناء مسارِبهم ومسارحهم ؛ وحتى تشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ ؛ وحتى يَلْقاهم قومٌ صُدُقٌ صُبُرٌ ، لا يزيدُهم هلاكُ مَنْ هَلَكَ مِن قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلا جِدًّا في طاعة الله ، وحرْصاً على لقاء الله ؛ ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأخوالنا وأعمامنا ، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليما ، ومُضِيًّا على أمَضِّ الألم ،وجِدًّا على جهاد العدوّ ، والاستقلال بمبارزة الأقران ، ولقد كان الرَّجُل مِنّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تَصَاول الفَحْلين ، يتخالسان أنفسهما أيُّهما يسقِي صاحبَه كأس المنون ، فمرة لنا من عدوّنا ، ومرة لعدوّنا مِنّا ، فلما رآنا الله صُدُقا صُبراً أنزل بعدوّنا الكَبْت ، وأنزلَ علينا النّصر ؛ ولعمري لو كنّا نأتي مثل الّذي أتيتم ماقام الدّين ولا عزّ الإسلام[2] ، [وايمُ اللهِ لتحلِبُنَّها دماً ، فاحفظوا ما أقول لكم][3] .

* * *

وروى نصر عن عمرو بن شَمِر ، عن فضيل بن خَديج ، قال : قيل لعليّ عليه السلام لَمَّا كُتِبت الصحيفة : إنّ الأشتر لم يرضَ بما في الصحيفة ، ولا يرى إلا قتالَ القوم؛ فقال عليّ عليه السلام : بَلَى إنَّ الأشتر ليَرْضَى إذا رضيتُ ، وقد رضيتُ ورضيتم ،ولا يصلحُ الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديلُ بعد الإقرار ؛ إلا أنْ يُعصَى الله أو يتعدّى ما في كتابه. وأمّا الذى ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه ، فليس من أولئك ولا أعرفه[4] على ذلك، وليت فيكم مثلَه اثنين ، بل ليت فيكم مثلَه واحدا ، يرى في عدوِّي مثل رأيه،إذًا لَخَفَّتْ مؤنتكم عليّ ، ورجوت أن يستقيم لي بعض أوَدِكم[6] .

* * *

(١) الخميس : الجيش الجرار ؛ سمى بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق .
(٢) كتاب صفين ٥٩٧ ، ٥٩٨ .
(٣) تكملة من كتاب صفين .
(٤) كتاب صفين : « وليس أتخوفه » .
(٥) كتاب صفين ٥٩٨ .

قال نصر : وروى أبو عبد الله زيد الأوْدِيّ أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أوْس ، قاتل مع عليّ عليه السلام يوم صفّين ، فأسَرَه معاويةُ فى أسْرَى كثيرة ، فقال له عمرو بن العاص : اقتلْهم ، فقال له عمرو بن أوس : لا تقتلنى يامعاوية ، فإنك خالى ، فقامت إليه بنو أوْد(١) فاستوهبوه ، فقال : دَعُوه ، فلعمرى إن كان صادقا فيما ادّعاه من خئولتى إيّاه ليستغنِيَنّ عن شفاعتكم ؛ وإلّا فشفاعتكم من ورائه ؛ ثم استدناه ، فقال : من أينَ أنا خالُك ؟ فوالله مابين بنى عبدشمس وبين أوْد من مُصاهرة ! قال : فإن أخبرتُك فعرفتَ فهو أمانٌ عندك ؟ قال : نعم ، قال : أليستْ أمّ حبيبة(٢) أختك أمّ المؤمنين ؟ فأنا ابنها وأنت أخوها ، فأنت إذاً خالِى . فقال معاوية : لله أبوه ! أمَا كان فى هؤلاء الأسْرَى مَنْ يَفطِن إلى هذا غيره ! ثم خلّى سبيله(٣) .

* * *

وروى إبراهيم بن الحسين بن علىّ الكسائىّ المعروف بابن ديزيل الهَمْدانىّ ؛ فى «كتاب صفين» ، قال : حدّثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدّثنا عمرو بن محمد ، قال : دعا معاويةُ بن أبى سُفيان عمرو بن العاص ، ليبعثَه حكَما ، فجاء وهو متحزّم ، عليه ثيابه وسيفه ، وحوله أخوه وناس من قريش ، فقال له معاوية : ياعمرو ؛ إنّ أهلَ الكوفة أكرهُوا عليًّا على أبى موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضُمّ إليك رجل طويل اللسان ، كليل المُدْية ، وله بعدُ حَظّ من دِين ؛ فإذا قال فدَعْه يقلْ ، ثم قلْ فأوجز ، واقطع المفْصِل ، ولا تَلْقه بكلّ رأيك ، واعلم أنّ خَبء(٤) الرأى زيادة فى العقل ، فإنْ خَوّفك بأهلِ العراق فخوّفه بأهل الشام ، وإن خوّفك بعلىّ فخوّفه بمعاوية ، وإن

(١) أود : بطن فى قيس عيلان .
(٢) أم حبيبة ؛ هى رملة بنت أبى سفيان .
(٣) كتاب صفين ٥٩٤ ، ٥٩٥ .
(٤) الخبء : ماخبىء وغاب من الشىء ، وفى ج : « خبىء » وهما سواء .

خَوَّفك بمصر نخوّفه باليمن ، وإن أتاكَ بالتفصيل فأْتِه بالُجمل . فقال له عمرو : يامعاوية ، أنت وعلىّ رجُلا قريش ، ولم تنلْ فى حربك مارجوت ، ولم تأمن ماخفت ، ذكرتَ أنّ لعبد الله دِيناً ، وصاحبُ الدين منصور ، وايمُ الله لَأُفنيَنّ [عليه][1] عِلّه ، ولأستخرِجنّ خَبْأه[2] ، ولكن إذا جاءنى بالإيمان والهجرة ومناقب علىّ ، ماعسِيتُ أن أقول ! قال : قل ماترى ، فقال عمرو : وهل تَدَعُنى وما أرى ! وخرج مُغضَباً كأنه كره أن يُوصَى ثقةٌ بنفسه ؛ وقال لأصحابه حين خرج : إنما أراد معاوية أن يصغّر أمرَ أبى موسى، لأنه علم أنى خادعه غدا ، فأحبّ أن يقول : إن عَمْراً لم يخدَعْ أريباً ، فقد كدتُه بالخلاف عليه . وقال فى ذلك :

يُشَجِّعنى معاويةُ بن حَرْبٍ ... كأنّى للحوادثِ مستكينُ
وإنّى عَنْ معاويةٍ غنىٌّ ... بحمْدِ اللهِ واللهُ المعينُ
وهوّن أمرَ عبدِ اللهِ عَمْداً ... وقال له على ما كان دينُ
فقلتُ له ولم أردُدْ عَلَيْه ... مقالتَهُ وللشَّا كِى أنينُ
ترى أهلَ العراقِ يَذُبّ عنهمْ ... وَعَنْ جيرانِهمْ رَجُلٌ مَهِينُ !
فلَوْ جهِلوه لم يجهَل علىٌّ ... وغثّ القولِ يحمِلُه السّمينُ
ولكن خطبه فيهم عظيمٌ ... وفَضْلُ المرء فيهمْ مُسْتَبِينُ
فإنْ أظفَرْ فلم أظفَرْ بِوَغْدٍ ... وإنْ يَظْفَرْ فقد قُطِعَ الْوَتِينُ

فلما بلغ معاوية شعره ، غضب من ذلك وقال : لولا مسيره لكان لى فيه رأى ! فقال له عبدالرحمن بن أمّ الحكم : أمَا والله إنّ أمثاله فى قريش لكثير ؛ ولكنّك ألزمت نفسك الحاجة إليه ، فألزمها الغَناء عنه ، فقال له معاوية : فأجبه عن شعره ، فقال عبدالرحمن يعيّره بفراره من علىّ يوم صِفّين :

---

(١) تكملة من ج .

(٢) ج : « خبيئة » .

أَلَا ياعمرو عمرو قَبيلِ سَهْمٍ أَمِنْ طِبٍّ أصابَكَ ذا الْجُنون!
دع البغيَ الذى أصبحتَ فيــه فإنّ البَغْىَ صَاحِبُه لَعِينُ
ألم تَهْرُبْ بنَفْسِك من علىّ بصفّين وأنت بِهَا ضَنِينُ
حِـذَاراً أنْ تلاقِيَكَ المنـايا وكلّ فتًى سيُـدرِكه المنــونُ
وَلَسْنَـا عَائبين عليك إلّا لقولك إنّنى لا أستَـكِينُ

* * *

قال نصر : ثم إنّ الناس أقبلوا على قَتْلاهم فدفنوهم ، قال : وقد كان عمر بن الخطاب دعا فى خلافته حابس بن سعد الطائىّ ، فقال له : إنّى أريدُ أنْ أولّيَك قضاء حِمْص ، فكيف أنت صانع ؟قال : أجتهدُ رأيى وأستشير جلسائى ، قال: فانطلِقْ إليها .فلم يمش[1] إلا يسيرا حتى رجع ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّى رأيتُ رؤيا أحببتُ أنْ أقصّها عليك، قال : هاتِها ، قال : رأيتُ كأنّ الشمس أقبلتْ من المشرق، ومعها جَمْع عظيم ، وكأنّ القمر قد أقبل من المغرب ومعه جَمْع عظيم ، فقال له عمر : مع أيِّهما كنت ؟ قال : كنتُ مع القمر ، قال : كنتَ مع الآية الممحوّة ، اذهب فلا والله لا تلِى لى عملا ، وردّه. فشهِدمع معاوية صِفّين ، وكانتْ رايةُ طيّئٍ معه ، فقتِل يومئذ ، فمرّ به عدىّ بن حاتم،ومعه ابنه زيد ، فرآه قتيلا ،فقال له : ياأبتِ[2] هذاوالله خالى ،قال: نعم،لعنَ الله خالك افبئس والله المَصرع مصرعه ! فوقف زيدٌ وقال : مَنْ قتل هذا الرجل ؟ مرارا ، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل ،طُوالٌ يخضِب، فقال : أنا قتلتُه ،فقال له : كيف صنعتَ به ؟فجعل يخبره، فطعنه زيد بالرمح فقتله ، وذلك بعد أن وضعت الحربُ أوزارها ؛ فحمل عليه عدىّ أبوه يسبُّه ويشتِم[3] أمّه ، ويقول : يابنَ المائقة، لستُ على دين محمد إن لم أَدْفعك إليهم،فضرب

---

(١) صفين : « فلم يمض » . (٢) صفين : « ياأبه » .
(٣) صفين « ويسب أمه » .

زيد فرسَه فالحِق بمعاوية ، فأكرمه وحمله وأدنى مجلسَه ، فرفع عدىٌّ يديه فدعا عليه ، وقال : اللهمّ إنّ زيداً قد فارق المسلمين ، ولحِق بالملحدين(١) ، اللهم فارمِه بسهم من سهامك لا يُشوِى(٢) — [أو قال لايخطىء — فإنّ رَمْيَتَك لا تُنْمِى](٣)، والله لا أكلّمه من رأسى كلمة أبدا ، ولا يُظِلّنى وإياه سقف أبدا . وقال زيد فى قتل البكرىّ :

مَنْ مبلغٌ أبناءَ طَىٍّ بأنّنى ... ثأرتُ بخالى ثُمّ لم أتأثّمِ

تركتُ أخا بكرٍ ينوء بصدْرِه ... بصِفِّينَ مخضوبَ الجبين من الدّم(٤)

وَذَكّرَنى ثأرِى غَداةَ رأيتُه ... فأوْجَرْتُه رُمحِى فَخَرّ على الفَمِ

لقد غادرَتْ أرماحُ بكرِ بن وائلٍ ... قتيلا عن الأهوال ليس بمُحْجِمِ

قتيلاً يظلّ الحىُّ يُثنون بعدَهُ ... عليه بأيدٍ مِنْ نداه وأنعُمِ

لَقَدْ فُجِعَتْ طىٌّ بحِلْمٍ ونائلٍ ... وصاحبِ غاراتٍ ونَهْبٍ مُقَسَّمِ

لقدْ كانَ خالِى ليسَ خالٌ كمثلِه ... دِفاعاً لِضَيْمٍ واحتمالا لمغْرَمِ(٥)

* * *

قال نصر : وروَى الشّعبىّ ، عن زياد بن النّضْر أنّ عليًّا عليه السلام بعث أربعمائة ، عليهم شُرَيح بن هانىء الحارثىّ ، ومعه عبدالله بن عباس يصلّى بهم ، [وَيَلِى أمورَهم](٦) ، ومعهم أبو موسى الأشعرىّ ، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة(٧) ، ثم إنهم

(١) صفين : « الملحدين »

(٢) أشوى : رمى فأصاب الشوى — وهى الأطراف — ولم يصب المقتل .

(٣) تكملة من كتاب صفين . ويقال : أنمى الصيد ، إذا رماه فأصابه ، ثم ذهب عنه فمات

(٤) صفين . « مخضوب الجيوب »

(٥) صفين ٥٩٩ — ٦٠٠ ، والمغرم : الدية .

(٦) من كتاب صفين .

(٧) فى كتاب صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فكان إذا كتب على بشىء أتاه أهل الكوفة فقالوا : ما الذى كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ فيكتمهم ، فيقولون له : كتمتنا ما كتب به إليك ! إنما كتب فى كذا وكذا . ثم يجىء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يدرى فى أى شىء جاء ، ولا فى أى شىء ذهب ، ولا يسمعون حول صاحبهم لغطا ، فأنب ابن عباس أهل الكوفة بذلك وقال : إذا جاء رسول قلتم بأى شىء جاء ؟ فإن كتمكم قلتم : لم تكتمنا؟ جاء بكذا وكذا ، فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا ، فليس لكم سر ! » .

خلوْا بين الحكمين، فكان رأىُ عبدالله بن قيس [أبو موسى [١]] فى عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وكان يقول : والله إن استطعت لأُحْيِيَنّ سنة عمر [٢] .

***

قال نصر : وفى حديث محمد بن عبيدالله ؛ عن الجرجانىّ قال: لما أراد أبو موسى المسيرَ قام إليه شُرَيْح بن هانئ ، فأخذ بيده ، وقال : يا أبا مُوسى ، إنّك قد نُصِبْتَ لأمرٍ عظيم لا يُجْبَرُ صَدْعُه ، ولا تُستقالُ فتنتُه [٣]، ومهما تقُلْ من شىء عليك أو لَكَ ، يَثْبتْ حقه وتُرَ صحتُه وإنْ كان باطلا ، وإنه لا بقاءَ لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم علىّ ، وقد كانت منك تَثْبيطة أيامَ الكوفة والجمل، فإن تشفعها بمثلها يكن الظنُّ بك يقينا ، والرجاء منك يأسا ، ثم قال له شُريح فى ذلك :

أبا مُوسَى رُميتَ بِشَرٍّ خَصْمٍ   فلا تُضِعِ العِراقَ فدتْك نَفْسِى
وأعطِ الحقّ شَامَهُمُ وخُذْهُ   فإنّ اليوم فى مَهَلٍ كأمْسِ
وإنّ غداً يجىء بما عَلَيْهِ   كذاك الدهر من سَعْدٍ ونَحْسِ [٤]
ولا يخدعْك عمرٌو إنّ عمراً   عدُوّ الله مَطْلَعَ كلّ شمسِ
لَهُ خُدَعٌ يَحَارُ العقل منها   مُمَوَّهةٌ مُزَخْرَفَةٌ بلَبْسِ
فلا تجعلْ مُعاويةَ بن حَرْبٍ   كشَيْخٍ فى الحوادثِ غَيْرِ نِكْسِ
هداه الله للإسلام فَرْداً   سوى عِرسِ النّبىّ، وأىّ عِرْسِ! [٥]

فقال أبو موسى : ما ينبغى لقومٍ اتّهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا ، أو أجرّ إليهم حقا .

***

(١) من كتاب صفين .

(٢) كتاب صفين ٦١٤

(٣) كتاب صفين : « ولا يستقال فتقه » .

(٤) فى صفين : « يدور الأمر » .

(٥) كتاب صفين . « سوى بنت النبى » .

وروى المدائنيّ [١] في ''كتاب صِفِّين'' قال: لما أجمعَ أهلُ العراق على طلب أبي موسى، وأحضروه للتّحكيم على كُرْهٍ من عليّ عليه السلام، أتاه عبدُ الله بن العباس، وعنده وجوهُ النّاس وأشرافهم، فقال له: يا أبا موسى، إنّ الناس لم يرضَوْا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضلٍ لا تشارَك فيه، وما أكثرَ أشباهَك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك؛ ولكنّ أهلَ العراق أبوْا إلّا أن يكون الحكَم يمانيا، ورأوْا أنّ [٢] معظمَ أهلِ الشام يمانٍ، وايمُ الله، إني لأظنّ ذلك شرًّا لك ولنا؛ فإنه قد ضُمّ إليك داهية العرب، وليس في معاوية خَلّة يستحِقّ بها الخلافة، فإن تقذفْ بحقّك على باطله تدركْ حاجتَك منه، وإن يطمع باطلهُ في حقّك يدركْ حاجتَه منك. واعلم يا أبا موسى أنّ معاويةَ طليقُ الإسلام، وأنّ أباه رأسُ الأحزاب، وأنّه يدّعي الخلافةَ من غير مشورة ولا بَيْعة، فإنْ زعم لك أنّ عمر وعثمان استعملاه فلقد صدقَ؛ استعمله عمر وهو الوالي عليه، بمنزلة الطبيب يحميه مايشتهي، ويُوجرُه ما يكره؛ ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثرَ من استعملا ممّن لم يدّعِ الخلافة. واعلم أنّ لعمرٍو مع كلّ شيء يسرُّك خبيئا يسوءك؛ ومهما نسيتَ فلا تنسَ أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بَيْعة هدى، وأنّه لم يقاتِلْ إلا العاصين والناكثين.

فقال أبو موسى: رحمك الله! والله مالي إمامٌ غير عليّ، وإني لواقف عندما رأى، وإنّ حق الله أحبُّ إليّ من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلا بالله.

***

وروى البلاذُريّ [٣] في كتاب ''أنساب الأشراف''، قال: قيل لعبدالله بن عباس:

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني؛ صاحب التصانيف الكثيرة في السيرة وأخبار القبائل والخلفاء، والفتوح والمغازي وغيرها؛ توفي سنة ٢١٥ الفهرست لابن النديم ١٠٠–١٠٤

(٢) كذا في ب، ج، وفي ا «الآن».

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري؛ صاحب كتاب البلدان، وأنساب الأشراف، توفي سنة ٢٧٩. الفهرست ١١٣، ومعجم الأدباء ٩ : ٨٥

مامنع عليًّا أن يبعثَك مع عَمْرو يومَ التحكيم ؟ فقال : منعه حاجزُ القَدر ، ومِحْنة الابتلاء، وقِصَر المدة ؛ أما والله لو كنت، لقعدت على مَدارج أنفَاسه، ناقضا ماأبرم، ومبرما مانَقَض، أطير إذا أسَفَّ ، وأسِفُّ[1] إذا طار ؛ ولكن قد سَبَق قَدَر ، وَبَقِيَ أسف ، ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين .

***

وذكر البلاذُرِىّ أيضا ، قال : قام عمرو بن العاص بالموسم ، فأطْرَى معاوية وبنى أميّة ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهِده بصِفّين ويوم أبى موسى ، فقام إليه ابن عباس، فقال : ياعمرو ، إنك بعتَ دينَك من معاوية ، فأعطيتَه مافى يدك ، ومنّاك مافى يد غيره؛ فكان الذى أخذه منك فوق الذى أعطاك ، وكان الّذى أخذتَ منه دون ما أعطيتَه ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى؛فلما صارت مصر فى يدك ، تتّبعك بالنّقض عليك والتعقّب لأمرك ، ثم بالعزل لك ؛ حتى لو أنّ نفسَك فى يدك لأرسلتَها . وذكرت يومك مع أبى موسى،فلا أراك فَخَرْت إلا بالغدر،ولا مُنِيت إلّا بالفجور والغِشّ . وذكرت مشاهدك بصِفّين ؛ فوالله ماثقلتْ علينا وطأتك،ولا نكأتْ فينا جرأتك ؛ ولقد كنت فيها طويلَ اللسان،قصير البنان ، آخرَ الحرب إذا أقبلت،وأولها إذا أدبرت. لك يدانِ: يد لاتقبضها عن شرّ ، ويد لا تبسطها إلى خير،ووجهان: وجه مؤنِس ، ووجه مُوحِش ؛ ولَعمرى إنّ مَنْ باع دينه بدنيا غيره لحرِىّ حزنه على ماباع واشترى . أما إنّ لك بيانًا ولكنْ فيكَ خطل ، وإن لك لرأيا ولكن فيك فَشَل؛وإنّ أصغرَ عيبٍ فيك لأعظمُ عيبٍ فى غيرك.

***

قال نصر : وكان النجاشىّ الشاعر صديقا لأبى موسى ، فكتب إليه يحذّره من عمرو بن العاص :

يؤمّلُ أهلُ الشام عَمْراً وإنّنِي لآملُ عبدَ الله عندَ الحقائقِ

---

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض .

وإنّ أبا موسى سيُدرِكُ حَقَّنا　　إذا ما رمى عَمْراً بإحدى البَوائقِ (١)

فلله ما يُرْمَى العِراقُ وأهلُه　　به منه إن لم يَرْمِهِ بالصَّواعِق (٢)

فكتب إليه أبو موسى : إنى لأرجو أن يَنْجَلِيَ هذا الأمرُ ، وأنا فيه على رضا الله سبحانه .

قال نصر : ثم (٣) إن شريح بن هانئ جَهّز أبا موسى جهازا حسنا، وعَظّم أمرَه فى الناس ليشرُف فى قومه ، فقال الأعور الشَّنِّيُّ فى ذلك يخاطب شُرَيحا :

زَفَفْتَ ابنَ قَيْسٍ زِفَافَ العروسِ　　شُرَيْحُ إلى دُومةِ الجَنْدَلِ

وفى زَفِّكَ الأشعرىَّ البلاءُ　　وَمَا يُقْضَ مِنْ حَادِثٍ يَنْزِلِ

وما الأشعرىّ بذى إرْبَةٍ　　ولا صاحبِ الخُطّةِ الفَيْصَلِ (٤)

وَلَا آخِذاً حظَّ أهلِ العراقِ　　ولو قيلَ ها خُذْهُ لم يفعلِ

يحاولُ عَمْراً وعمرٌو له　　خَدَائِعُ يأتى بها من عَلِ (٥)

فإن يحكما بالهُدَى يُتْبَعَا　　وإن يحكما بالهوى الأميلِ

يكونا كَتَيْسَيْنِ فى قَفْرةٍ　　أكِيلَىْ نقيفٍ من الحنظلِ (٦)

فقال شريح : والله لقد تَعَجَّلَتْ رجالٌ مَساءتنا فى أبى موسى، وطعنوا عليه بأسوأ (٧) الظّن ، وظنّوا فيه ما الله عَصَمه (٨) منه ، إن شاء الله .

---

(١) كتاب صفين ٦٨٥ : «الصواعق» ، وبعده فيه :

وَحقَّقَهُ حَتّى يَدِرَّ وريدُه　　ونحن على ذاكم كأحنق حانقِ

على أن عمراً لا يُشَقُّ غُبارُهُ　　إذا ما جَرى بالجَهْدِ أهْلُ السوابِقِ

(٢) صفين : « بالبوائق » .　　(٣) صفين ٦١٦ .

(٤) صفين : « صاحب الحطبة » .　　(٥) من على ، بياءساكنة ، لغة فى « عل » .

(٦) الحنظل المنقوف : الذى يكسر ليستخرج حبه .

(٧) كتاب صفين : « بسوء الظن »

(٨) صفين : « عاصمه » .

قال : وسار مع عمرو بن العاص شُرَحبيل بن السِّمط فى خَيْل عظيمة ؛ حتى إذا أمِن عليه خيل أهل العراق ودّعه ، ثم قال له : يا عمرو ؛ إنّك رجلُ قريش ؛ وإنّ معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنّك لا تؤتَى مِن عجز ولا مكيدة ، وقد عرفت أنى وطّأتُ هذا الأمرَ لك ولصاحبك ؛ فكنْ عند ظنّى بك . ثم انصرف وانصرف شُرَيح بن هانئ حين أمِنَ خيل أهلِ الشام على أبى موسى ، وودّعه .

وكان آخر مَنْ ودّعَ أبا موسى الأحنفُ بن قيس ، أخذ بيده ، ثم قال له : ياأباموسى ، اعرف خَطْبَ هذا الأمر ، واعلم أنّ له ما بعده ، وأنك إن أضعت العراق فلا عِراق ؛ اتّق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك ، وإذا لقيت غدا عمْراً فلا تبدأه بالسلام ، فإنها وإن كانت سُنّة إلا أنّه ليس من أهلها ، ولا تعطِه يدَك فإنها أمانة ؛ وإيّاك أن يُقعِدك على صَدْر الفراش فإنها خُدعة ، ولا تَلْقَهُ إلّا وحده . واحذَرْ أن يكلِّمك فى بيت فيه[1] مخدع تُخبأ لك فيه الرجال والشهود . ثم أراد أن يُثوِّرَ[2] ما فى نفسه لعلىّ ، فقال له : فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلىّ ، فليختر أهلُ العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليَخْتَرِ أهلُ الشام من قريش العراق من شاءوا .

فقال أبو موسى : قد سمعتُ ما قلتَ ، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علىّ .

فرجع الأحنف إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : أخرَج أبو موسى والله زُبْدَةَ سِقائه فى أول مَخضه ؛ لا أُرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خَلْعك . فقال علىّ : الله غالب على أمره[3] .

* * *

قال نصر : وشاع وفشا أمرُ الأحنف وأبى موسى فى الناس ، فبعث الصَّلَتانُ العبدىّ وهو بالكوفة إلى دُومة الجندل بهذه الأبيات :

(١) ا ، ح : « له » .

(٢) يثور : « يختبر » ، وفى ا ، ب : « يبلو » ، وفى صفين : « يبور » وكله بمعنى .

(٣) كتاب صفين ٦١٦ ، ٦١٧ .

لَعَمْرُكَ لا أُلفِى مَدَى الدَّهرِ خالعاً   عليًّا بقول الأشعرىّ ولا عمرِو
فإن يحكما بالحقّ نقبــله منهما   وإلّا أثرناهـا كراغيةِ البَـكْرِ[1]
ولسنا نقولُ الدَّهرَ ذاكَ إليهما   وفى ذاكَ لو قلناهُ قاصِمَةُ الظهرِ
ولكن نقول:الأمرُ والنهىُ كله   إليه ، وفى كَفّيْه عاقبةُ الأمرِ
وما اليوم إلا مثل أمسِ وإنّنا   لفى وشَلِ الضَّحْضاح أو لُجة البَحْرِ[2]

قال : فلما سمع النّاس قول الصَّلْتان شحَذَهم ذلك على أبى موسى ، واستبطأه القومُ وظنّوا به الظّنون ، ومكث الرَّجُلان بدُومة الجَنْدل لا يقولان شيئا . وكان سعد ابن أبى وقّاص قد اعتزَل عليًّا ومعاوية ، ونزل على ماء لبنى سُلَيْم بأرض البادية ، يتشوّفُ[3] الأخبار ـ وكان رجلاً له بأس ورأى ومكان فى قُريش ، ولم يكنْ له هوًى فى علىّ ولا فى معاوية ـ فأقبل راكبٌ يُوضِع[4] من بعيد ، فإذا هو ابنه عمر ، فقال له أبوه : مهيَم[5] ؟ فقال : التقَى النّاس بصِفّين ، فكان بينهم ما قد بلَغك حتى تفانَوْا . ثم حكّموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ؛ وقد حضر ناسٌ من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ومن أهل الشورى، ومن قال له النبىّ صلى الله عليه : « اتّقُوا دَعْوَته » ، ولم تدخل فى شىء مما تكره الأمة ، فاحضُر دُومَةَ الجَنْدَل ، فإنّك صاحبها غدا . فقال : مهلاً ياعمر ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « تكون بعدى فِتْنة ، خيرُ الناس فيها التقىّ الخَفِىّ » ، وهذا أمر لم أشهد أوله ، فلا أشهدُ آخرَه ،

(١) الراغية : الرغاء ، والبكر : ولد الناقة ، وفى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٣٥٢ : « راغية البكر ، من أمثال العرب ، وعن أبى عمرو . قولهم : كانت عليهم كراغية البكر ؛ أى استؤصلوا استئصالا ، يعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار » .
(٢) الوشل : المقدار اليسير من الماء .
(٣) يتشوف الأخبار ، أى يتطلع اليها .
(٤) يوضع فى سيره : يسرع .
(٥) مهيم ، أى ما وراءك وما حالك ؟ وهى كلمة استفهام بلغة اليمن .

ولو كنتُ غامساً يدى فى هذا الأمر لغمستُها مع علىّ بن أبى طالب (١) ؛ وقد رأيتَ أباك كيف وهب حقّه من الشورى ، وكَرِه الدّخول فى الأمر . فارتحل عمر ، وقد استبان له أمرُ أبيه. (٢)

* * *

قال نصر : وقد كان الأجنادُ (٣) أبطأتْ عَلَى معاوية ، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يُعينوه فى حَرْبه : إنّ الحرب قد وضعتْ أوزارَها ، والتقى هذان الرجلان فى دُومةِ الجندل ، فاقدَموا علىّ .

فأتاه عبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهْم بن حُذيفة العَدَوِىّ ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزُّهرىّ ، وعبدالله بن صفوان الُجمحىُّ . وأتاه المغيرة ابن شعبة ــ وكان مقيما بالطائف لم يشهد الحرب ــ فقال له : يامغيرة ، ماترى؟ قال : يامعاوية ، لو وَسِعنى أن أنصرَك لنصرتُك ، ولكنْ عَلَىّ أن آتيك بأمر الرّجلين . فرحل حتى أتى دُومةَ الجندل ، فدخل عَلَى أبى موسى كالزائر له ، فقال : يا أبا موسى ، ماتقول فيمن اعتزل هذا الأمرَ وكره الدماء ؟ قال : أولئك خيرُ (٤) النّاس ، خَفّت ظهورُهم من دمائهم ، وخَمَصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى عمراً ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر ، وكره الدماء ؟ قال : أولئك شِرار الناس ؛ لم يعرفوا حقًّا ، ولم يُنكِروا باطلا . فرجع المغيرةُ إلى معاوية ، فقال له : قد ذُقْتُ الرّجُلين ، أمّا عبد الله

---

(١) فى كتاب وقعة صفين بعد هذه الكلمة : « قد رأيت القوم حملونى على حد السيف فاخترته على النار ؛ فأقم عند أبيك ليلتك هذه . فراجعه حتى طمع فى الشيخ ، فلما جنه الليل رفع صوته ليسمع ابنه ؛ فقال . . . » وذكر أبياتا مطلعها :

دَعَوْتَ أباكَ اليَوْم واللهِ للّذِى ... دَعَانِى إليهِ القومُ والأمرُ مُقْبِلُ

(٢) صفين : ٦١٨ ــ ٦٢٠ .

(٣) وقعة صفين : « الأخبار » .

(٤) وقعة صفين : « خيار »

ابن قيس نخالعٌ صاحبَه ، وجاعلُها لرجل لم يشهد هذا الأمر ، وهَوَاه [فى][1] عبد الله ابن عمر ،وأماعمرو بن العاص فهو صاحبك الذى تَعرف ،وقد ظَنّ الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لايرى أنّك أحقُّ بهذا الأمر منه[2] .

* * *

قال نصر فى حديث عمرو بن شَمِر ، قال : أقبل أبو موسى على عمرو ، فقال : ياعَمْرو ، هل لك فى أمرٍ هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضاً ؟ نولّى هذا الأمرَ عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، الذى لم يدخل فى شىء من هذه الفتنة، ولا هذه الفرقة . قال:وكان عبدُ الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير قريبيْن يسمعان هذا الكلام ، فقال عمرو : فأين أنت ياأبا موسى عن معاوية ! فأبى عليه أبو موسى ، [قال : وشهدهم عبدالله ابن هشام ، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدوىّ والمغيرة ابن شعبة][1]، فقال عمرو : ألستَ تعلم أنّ عثمان قُتِل مظلوماً ؟ قال : بلى ، قال : اشهدوا[3]، ثم قال: فما يمنعُك من معاوية وهو ولى عثمان ،وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾[4]؟ ثم إنّ بيتَ معاوية من قريش ماقد علمتَ ، فإنْ خَشِيتَ أن يقول الناس : ولّى معاوية وليستْ له سابقة ؛ فإنّ لك حجّة ؛ أن تقول : وجدته ولِىَّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة، الحسَنَ التدبير؛وهو أخو أمّ حَبِيبة أم المؤمنين ، وزوْج النبى صلى الله عليه ، وقد صحبه ، وهو أحد الصحابة . ثم عرّض له بالسلطان ، فقال له : إن هو وَلِىَ الأمر أكرَمك كرامة لم يكرِمْك أحدٌ قطّ مثلها ؛ فقال أبو موسى : اتقِ الله ياعمرو ! أمّا ماذكرت من شرف معاوية ، فإنّ هذا

---

(١) من كتاب صفين .
(٢) وقعة صفين ٦٢٠ ، ٦٢١
(٣) ب : « اشهد » .
(٤) سورة الإسراء ٣٣

الأمر ليس على الشّرف يُوَلّاه أهله ؛ لوكان عَلَى الشرف كان أحقَّ الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصبّاح ؛ إنما هو لأهل الدين والفضل ؛ مع أنّى لو كنت أعطيه أفضلَ قريش شرفًا لأعطيتُه علىَّ بن أبى طالب . وأمّا قولُك : إنّ معاوية ولىّ عثمان فولّه هذا الأمر ؛ فإنى لم أكن أولّيه إياه لنسبته من عثمان ، وأدَع المهاجرين الأولين ، وأمّا تعريضُك لى بالإمْرة والسلطان ؛ فوالله لوخرج لى من سلطانه ماوليتُه ، وما كنت أرْتَشِى فى الله ، ولكنّك إن شئَت أحيينا سُنّة عمر بن الخطاب[1] .

قال نصر : وحدّثنى عمر بن سعد عن أبى جناب أنّ أبا موسى قال غير مَرّة : والله إن استطعتُ لأُحْيِيَنّ اسم عمر بن الخطاب ، قال : فقال عمرو بن العاص : إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فما يمنعُك من ابنى عبد الله ، وأنت تعرفُ فضلَه وصلاحه ! فقال : إنّ ابنَك لَرجُلُ صدق ، ولكنّك قد غمستَه فى هذه الفتنة[2] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، عن نافع ، قال : قال أبو موسى لعمرو : ياعمرو ، إن شئت ولّيْنا هذا الأمر الطيّب ابن الطيّب ، عبدَ الله ابن عمر ، فقال له عمرو : ياأبا موسى ، إن هذا الأمرَ لايصلح له إلا رجل له ضِرْسٌ يأكل ويُطْعِم ، وإنّ عبد الله ليس هناك .

قال نصر : وقد كان فى أبى موسى غفلة[3] ، فقال ابنُ الزبير لابن عمر : اذْهب إلى عمرو ابن العاص فارشُه ، فقال ابن عمر : لاوالله لاأرشُو عليها بشىء أبدا ماعشت ، ولكنّه قال له : إنّ العربَ قدأسندت إليك أمرها بعدماتقارعتْ بالسيوف ، وتطاعَنت بالرماح ، فلاتردّهم فى فتنة ؛ واتّق الله[4] .

---

(١) وقعة صفين ٦٢٢ — ٦٢٣ .   (٢) وقعة صفين ٦٢٢ .

(٣) وكذا فى صفين ، وفى الطبرى : « ابن عمر » .   (٤) وقعة صفين ٦٢٣ .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أزهر العبسىّ عن النّضر بن صالح ، قال : كنت مع شريح بن هانئ فى غزوة سِجِسْتان ، فحدثنى أن عليًّا عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص ، وقال له : قُلْ لعمرو إذا لقيتَه : إنّ عليًّا يقول لك : إنّ أفضلَ الخلق عند الله مَنْ كان العملُ بالحقّ أحبّ إليه وإن نقَصه ، وإنّ أبعد الخلق من الله من كان العملُ بالباطل أحبّ إليه وإن زاده ؛ والله ياعمرو إنّك لتعلم أين موضعُ الحقّ ، فلِمَ تتجاهل ؟ أ بِأَنْ أوتيت طمعا يسيرا صرت لله ولأليائه عدوًّا ! فكأنْ والله ماقد أوتيت قد زال عنك ، فلا تكن للخائنين خصيما ، ولا للظالمين ظهيرا . أمَا إنّى أعلم أنّ يومَك الذى أنت فيه نادم هو يومُ وفاتك ،وسوف تتمنّى أنك لم تُظْهِر لى[(1)] عداوة ،ولم تأخذ على حكم الله رِشْوة . قال شريح : فأبلغتهُ ذلك يوم لقيتُه ، فتمعّر وجهه[(2)] وقال : متى[(3)] كنتُ قابلا مشورة علىّ أو منيبا إلى رأيه ، أو معتدًّا بأمره[(3)] ! فقلت : وما يمنعُك يابنَ النابغة أن تقبلَ من مولاك وسيد المسلمين بعد نبّيهم مشورتَه ! لقد كان مَنْ هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه : فقال : إن مِثْلِى لا يكلّم مثلَك ، فقلت : بأىّ أبويك ترغَبُ عن كلامى ! بأبيك الوَشِيظ[(4)] أم بأمّك النابغة ! فقام من مكانه وقمت[(5)] .

***

قال نصر : وروى أبو جناب الكلبىّ أن عمرا وأبا موسى لمّا التقيا بدُومة الجَنْدل ، أخذ عمرو يقدّم أبا موسى فى الكلام ، ويقول : إنك صحِبْتَ رسول الله صلى الله عليه قبلى ، وأنت أكبر منى سِنًّا ، فتكلمْ أنت ، ثم أتكلم أنا ، فجعل ذلك سُنّة وعادة بينهما

(١) صفين : « لمسلم » .
(٢) وقعة صفين : « فتمعر وجه عمرو » . وتمعر : تغير وجهه غيظا .
(٣ ـ ٣) وقعة صفين : « متى كنت أقبل مشورة على أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ! » .
(٤) الوشيظ : الخسيس والتابع .
(٥) وقعة صفين ٦٢٤

وإنما كان مكرا وخديعة واغترارا له أن يقدّمه ، فيبدأ بخلع عليّ ثم يرى رأيه .

* * *

وقال ابن ديزيل فى " كتاب صفّين " : أعطاه عمرو صَدْر المجلس ، وكان لا يتكلم قبله ، وأعطاه التقدّم فى الصلاة وفى الطعام ، لا يأكل حتى يأكل ، وإذا خاطبه فإنّما يخاطبه بأجَلّ الأسماء ، ويقول له : ياصاحبَ رسول الله ؛ حتى اطمأنّ إليه ، وظَنّ أنه لا يغشّه .

* * *

قال نصر : فلما امخضَتِ الزُّبدة بينهما ، قال له عَمْرو : أخبرني مارأيك ياأبا موسى؟ قال : أرى أن أخلع هذين الرجُلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون من شاءوا ، فقال عمرو : الرأى والله مارأيت . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلّم أبو موسى ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ رأيي ورأى عمرو قد اتفق على أمرٍ نرجوأن يُصلح الله به شأنَ هذه الأمة ؛ فقال عمرو : صدق ، ثم قال له : تقدّم ياأبا موسى ؛ فتكلّم ، فقام ليتكلّم ، فدعاه ابن عباس ، فقال له : ويحك ! والله إنّى لأظنّه خَدَعك ؛ إن كنتُما قد اتّفقتُما على أمرٍ فقدّمه قبلَك ليتكلّم به ثم تكلّمْ أنت بعده ؛ فإنّه رجل غَدّار ، ولاآمن أن يكون قد أعطاك الرِّضا فيما بينك وبينه ؛ فإذا قمتَ به فى النّاس خالفك ـ وكان أبو موسى رجلا مُغَفَّلا ـ فقال : إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا !

فتقدم أبو موسى ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ إنا قد نظرنا فى أمرِ هذه الأمّة ، فلم نر شيئاً هو أصلحُ لأمرِها ولا ألمّ لَشَعَثها من ألّا تتباينَ أمورُها ، وقد أجمع رأيي ورأيُ صاحبي على خَلْع عليّ ومعاوية ، وأن يُستقبلَ هذا الأمرُ ، فيكونَ شورى بينَ المسلمين ، يولّون أمورَهم مَنْ أحبّوا ، وإنى قد خلعتُ عليا ومعاوية ؛ فاستقبِلوا

أموركم ، وولُّوا مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص فى مقامه : فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبَه ، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه ، وأثبتُ صاحبى معاوية فى الخلافة ، فإنه ولىّ عثمان ، والطالب بدمِه ، وأحقّ الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : مالك لا وفّقك الله قد غدرت وفجرت ! إنّما مثلُك ﴿ كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تَحْمِلْ عليه يَلهثْ أوْ تتركْهُ يَلْهَثْ ﴾(١) . فقال له عمرو : إنما مثلك ﴿ كمثلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾(٢) .

وحمل شُريح بن هانئ على عمرو فقنّعه بالسوط ، وحمل ابن عمرو على شُريح فقنّعه بالسوط ، وقام الناس فحجزوا بينهما ، فكان شُريح يقول بعد ذلك : ما ندمتُ على شىء ندامتى ألا أكون ضربتُ عمرا بالسيف بدلَ السوط ، أتى الدهر بما أتى به !

والتمس أصحابُ علىّ عليه السلام أبا موسى فركِب ناقته ، ولحِق بمكة . وكان ابن عباس يقول : قَبح الله أبا موسى ! لقد حذّرته وهديتُه إلى الرأى فما عَقَل . وكان أبو موسى يقول : لقد حذّرنى ابنُ عباس غَدْرَة الفاسق ، ولكنى اطمأننت إليه ، وظننت أنّه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة(٣) .

* * *

قال نصر : (٤ ورجع عمرٌو إلى منزله من دُومة الجنْدَل ، فكتب إلى معاوية٤) :

أَتتْكَ الخلافةُ مَزْفُوفَةً هَنيئاً مريئاً تُقِرّ العيُونا

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٢) سورة الجمعة ٥

(٣) كتاب صفين ٦٢٧ — ٦٢٩ مع تصرف .

(٤ — ٤) العبارة كما وردت فى كتاب صفين ٦٣٠ : « ولما فعل عمرو مافعل ، واختلط الناس ، رجع إلى منزله ، فجهز راكبا إلى معاوية يخبره بالأمر من أوله إلى آخره ، وكتب فى كتابه على حده ».

تُزَفُّ إليكَ زِفَافَ العروس(١) بأَهْوَنَ مِنْ طَعْنِكَ الدَّارِعِينَا
وَمَا الأشْعَرِيُّ بِصَلْدِ الزِّنَادِ ولا خامِلِ الذِّكْرِ فى الأشْعَرِينا
وَلَكِنْ أُتِيحَتْ لهُ حَيَّةٌ يَظَلُّ الشُّجَاعُ لَهَا مُسْتَكِينا
فقَالُوا وقلتُ وَكُنْتُ امْرأً أُجَهْجِهُ بِالْخَصْمِ حَتَّى يَلِينا(٢)
فَخُذْهَا ابنَ هِنْدٍ عَلَى بُعْدِها(٣) فَقَدْ دَافَعَ الله ما تحذرُونا
وَقَدْ صَرَفَ اللهُ عَنْ شَامِكُمْ عَدُوًّا مبينا وَحَرْبًا زَبُونا(٤)

قال نصر : فقام سعد بن قيس الهَمْدانىّ ، وقال : والله لو اجتمعتُما على الهُدَى ما زدتمانا على ما نحن الآن عليه ، وما ضلالُكما بلازم لنا ، وما رجعتما إلا بما بدأتما به ، وإنّا اليوم لَعلى ما كنا عليه أمس .

وقام كُردوس بن هانئ مغضباً ، فقال(٥) :

أَلَا ليت مَنْ يَرْضَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ بعمرو وعبد الله فى لُجَّةِ الْبَحْرِ
رَضِينَا بِحُكْمِ اللهِ لَاحُكْمَ غَيْرُهُ وبالله رَبًّا والنبىِّ وبالذِّكْرِ
وبالأصْلَعِ الهادِى عَلِيٍّ إمامِنا رَضِينا بِذَاكَ الشَّيْخِ فى الْعُسْرِ والْيُسْرِ
رَضِينَا بِهِ حَيًّا ومَيْتاً ، وإنَّهُ إمامُ هُدًى فى الحكْمِ والنَّهْىِ والأمْرِ
فَمَنْ قَال لاَ قُلْنَا بَلَى إن أمرَهُ لأفْضَلُ ما نُعْطَاهُ فى ليلةِ القَدْرِ
وَما لابْنِ هِنْدٍ بَيْعَةٌ فى رِقَابِنَا وما بَيْنَنَا غَيْرُ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

(١) كتاب صفين « كزف العروس » .
(٢) أجهجه : قال الجوهرى : « جهجهت بالسبع ، صحت به ليكف » .
(٣) كتاب صفين : « على بأسها »
(٤) كتاب صفين : « عدوا شنيا » . وحرب زبون : تزبن الناس ، أى تصدمهم وتدفعهم .
(٥) كتاب صفين ٦٣٠ والعبارة هناك : « وتكلم الناس غير الأشعث بن قيس ، وتكلم كردوس بن هانئ ، فقال : أما والله إنى لأظنك أول راض بهذا الأمر ياأخا ربيعة ، فغضب كردوس فقال » .

وَضربٍ يُزيلُ الهـامَ عَنْ مُسْتَقَرِّه   وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الرِّضا آخِرِ الدَّهْرِ !
أبت لِيَ أشياخُ الأراقمِ سُبَّـــةً   أُسَبُّ بِهـا حَتَّى أُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ (١)

وتـكلّم يزيد بن أسَدٍ القسريّ ـ وهو مِن قوّاد معاوية ـ فقال : يأهل العراق ، اتقوا الله ؛ فإنّ أهونَ ماتردُّنا وإياكم إليه الحرب ما كنّا عليـه بالأمس ؛ وهو الفناء ؛ وقد شَخصتِ الأبصارُ إلى الصّلح ، وأشرفَتِ الأنفسُ على الفَناء ، وأصبح كلّ امرئ يبـكى عَلَى قَتيل ؛ مالـكم رضيتم بأوّلِ أمرِ صاحبكم وكرهتم آخره ! إنّه ليس لحكم وحدَكم الرّضا .

قال : وقال بعض الأشعريّين لأبى موسى(٢) :

أبا مُوسَى خُدِعْتَ وَكُنْتَ شَيْخاً   قَرِيبَ الْقَعْرِ مَدْهُوشَ الْجِنَانِ
رَمَى عمرٌو صَفَاتَكَ يابنَ قَيْس   بأمْرٍ لا تَنُوءُ بـــه اليَـدَانِ
وَقَدْ كُنّا نُجَمْجِمُ عَنْ ظُنُـونٍ   فَصرَّحَتِ الظُّنُون عن العيـــانِ
فَعَضَّ الـكفَّ مِنْ نَدَمٍ وَمــاذَا   يردّ عليــك عَضُّكَ بالبَنَانِ !

قال : وَشَمِتَ أهلُ الشام بأهْلِ العراق . وقال كَعْبُ بن جُعَيل شاعرُ معاوية :

كأنّ أبـا موسى عَشِيَّـــةَ أَذْرُحٍ   يطوفُ بلقمانَ الحـكيمِ يُوَارِبُهْ(٣)
وَلَمّا تـلاَقَوْا فى تُرَاثِ محمّـــدٍ   نَمَتْ بابن هِنْدٍ فى قُرَيْشٍ مَنَاسِبُهْ(٤)
سَعَى بابن عَفَّانٍ لِيُـــدْرِكَ ثَأْرَهُ   وَأَوْلَى عِبـــــادِ الله بالثَّأْرِ طَالِبُهْ

---

(١) الأراقم : أحياء فى تغلب ، والسبة : العار .
(٢) فى كتاب صفين : « فتشاءم عمرو وأبو موسى من ليلته ، فإذا ابن عم لأبى موسى يقول » .
(٣) كتاب صفين ٦٣٠ ومعجم البلدان ١ ـ ١٦٢ ؛ وأذرح : بلد فى أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز ؛ وكان فيها أمر الحـكمين فى أحد القولين ، وثانيهما فى دومة الجندل . ويعنى بلقمان الحـكيم عمرو بن العاص .
(٤) كتاب صفين وياقوت : « مضاربه » .

وَقَدْ غَشِيَتْنَا فى الزُّبَيْرِ غَضَاضَــةٌ وَطَلْحَــةُ إِذْ قَامَتْ عَلَيْــهِ نَوادِبُهْ
فَرَدَّ ابنُ هِنْـدٍ مُلْـكَهُ فى نِصَابِهِ وَمَنْ غَالَبَ الأَقْدَارَ فاللّهُ غَالِبُــهْ
وَمَا لابنِ هِنْـدٍ من لؤىٍّ بن غالبٍ نظـيرٌ وإنْ جاشَتْ عَلَيْـهِ أَقَارِبُهْ
فَهَذَاكَ مُلْكُ الشَّــامِ وافٍ سَنَامُــهُ وهَذَاكَ مُلْكُ القَوْمِ قدْ جُبَّ غَارِبُهْ
يُحَـاوِلُ عَبْـدُ اللهِ عَمْراً وإنَّهُ لَيَضرِبُ فى بَحْرٍ عَرِيضٍ مَذَاهِبُــهْ
دَحَـا دَحْوَةً فى صَـدْرِهِ فَهَوَتْ بِهِ إلى أَسْفَـلِ الجبّ الظنون كَوَاذِبُهْ(١)

* * *

قال نصر : وكان علىّ عليه السلام لما خدع عمرو أباموسى بالـكوفة ، كان قد دَخَلَها منتظراً مايحـكُم به الحـكَمان ؛ فلما تمّ على أبى موسى ماتمّ من الحيلة ، غَمّ ذلك عليًّا وساءه ، ووَجَم له ، وخطب الناس ، فقال :

« الحمدُ للّه وإن أتى الدّهر بالخطْب الفادِح ، والحدَث الجليل... » الخطبة التى ذكرها الرضىّ رحمه الله تعالى ؛ وهى التى نحن فى شرحها ، وزاد فى آخرها بعد الاستشهاد ببيت دُريد : « ألَا إنّ هذيْن الرَّجُلين اللّذَيْن اخترتموها قد نَبَذا حُـكم الـكتاب ، وأحييَا ماأمات ، واتّبَع كلّ واحدٍ منهما هواه ، وحَـكم بغير حُجّة ولا بيِّنة ولا سُنّة ماضية ، واختلفا فيما حـكما ، فـكلاهما لم يرُشِد الله . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم كذا » .

(١) الظنون : البئر لايدرى أفيها ماء أم لا ، وفى كتاب صفين :

* إلى أسْفَلِ المهوى ظنونٌ كَوَاذِبُهْ *

فرد عليه رجل من أصحاب على فقال :

غَدَرْتُم وَكانَ الْغَدْرُ مِنْـكُمْ سَجِيَّةً فَمَا ضَرَّنَا غَـدْرُ اللّئِيم وَصَاحِبُــهْ
وَسَمَّيْتُمُ شَرَّ الْبَرِيَّةِ مُؤمِنــــاً كَذَبْتُمْ فَشَرُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ كاذِبُهْ

قال نصر : فكان عليّ عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغَدَاة والمغرب ، وفرغ من الصّلاة وسلّم ، قال : اللهمّ العن معاوية ، وعمرا ، وأبا موسى ، وحبيب بن مسلمة ، وعبدَ الرحمن بن خالد ، والضحاكَ بن قيس ، والوليدَ بن عُقْبة ؛ فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا صلّى لعن عليًّا ، وحسنا ، وحسينا ، وابنَ عباس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، والأشتر.

وزاد ابن ديزيل فى أصحاب معاوية أبا الأعور السُّلَمِىّ .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا مُوسى كتب من مكّة إلى علىّ عليه السلام : أمّا بعدُ ، فإنّى قد بلغنى أنّك تلعننى فى الصّلاة ويؤمّن خَلْفَك الجاهلون ، وإنّى أقول كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

وروى ابن ديزيل ، عن وَكِيع ، عن فضل بن مرزوق ، عن عطية ، عن عبد الرحمن ابن حَبيب ، عن علىّ عليه السلام ، أنه قال : « يؤتَى بِي وبمعاوية يوم القيامة ، فنجىء ونختصم عند ذى العَرْش ، فأيّنا فَلَج فَلَج أصحابُه(٢) » .

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القارئ ، عن أبيه ، قال : سئِل علىّ عليه السلام عن قَتْلى صفين ، فقال : إنّما الحساب علىّ وعلَى معاوية .

ورويَ أيضا عن الأعمش ، عن موسى بن طريف ، عن عَبَايَة(٣) ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، وهو يقول : أنا قسيمُ النار ، هذا لى وهذا لك .

وروى أيضاً عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، دَعْوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مَرَقَتْ منهم مارقة ؛ يقتلهم أوْلى الطائفتين بالحقّ » .

---

(١) سورة القصص ١٧ (٢) فلج ، أى غلب .

(٣) عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج الأنصارى .

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدّثنا سعيد بن كَثير، عن عُفَير، قال: حدثنا ابن لَهيعة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش الصَّنْعانيّ، قال: جئت إلى أبي سعيد الخُدْريّ، وقد عَمِيَ، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتوننا فنخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحبا بك يا حنش المصريّ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: «يخرج ناس يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقِيَهم، يمرُقُون من الدِّين كما يمرُق السهم من الرميّة، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئاً، فينظر في قُذَذه[1] فلا يرى شيئاً؛ سبق الفرثَ والدم، يَصْلَى بقتالهم أَوْلى الطائفتين بالله»، فقال حنش: فإن عليًّا صَلِيَ بقتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع عليًّا أن يكون أولى الطائفتين بالله!

* * *

وذكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد: حضرتُ الحكومة، فلمّا كان يوم الفَصْل جاء عبد الله بن عباس، فقعد إلى جانب أبي موسى وقد نشر أُذُنَيْه؛ حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمتُ أن الأمر لا يتمّ لنا مادام هناك؛ وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلّمت ابنَ عباس كلمة استطعمتُه جوابها فلم يجب، فكلّمته أخرى فلم يُجب، فكلمته ثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حِوارك الآن، فجبهته، وقلت: يابَني هاشم، لا تتركون بأْوكم[2] وكِبْركم أبدا! أما والله لولا مكانُ النبوّة لكان لي ولك شأن. قال: فحمِيَ وغضب، واضطرب فِكْرُه ورأيُه، وأسمعني كلاما يسوء سماعه، فأعرضْتُ عنه، وقمت فقعدت إلى جانب عَمْرو بن العاص، فقلت: قد كفيتك التِّقوالة[3]، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحْكم أنت أمرك. قال:

(١) القذذ جمع قذة، وهي: ريش السهم. (٢) البأو: التفاخر.
(٣) التقوالة: الكثير القول.

فذُهِل والله ابن عباس عن الكلام الدائر بين الرَّجُلين، حتى قام أبو موسى ، نخلع عليًّا .

* * *

وروى الزبير بن بكار فى '' الموفقيّات '' ، ورواه جميع الناس ممن عُنِى بنقل الآثار والسِّيَر، عن الحسن البصرىّ [قال]: أربع خصال كنّ فى معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهنّ لكانت مُوبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرَها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده ابنَه يزيد ؛ سِكِّيراً خِمِّيرا ؛ يلبس الحرير ويَضرب بالطنابير ، وادعاؤه زيادا ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجَر » ، وقتله حُجْر بن عدىّ وأصحابه ؛ فياويله من حُجْر وأصحاب حُجْر !

وروى فى '' الموفقيات '' أيضاً الخبر الذى رواه المدائنىّ، وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبى موسى ، وقوله : إن الناس لم يرتضوك لفضلٍ عندك لم تشارَك فيه . . وذكر فى آخره : فقال بعض شعراء قريش :

وَٱللهِ مَا كَلَّم الأقوامَ مِنْ بَشَرٍ ... بَعْدَ الْوَصِىِّ علىّ كابنِ عَبّاسِ
أوْصَى ابنَ قَيْسٍ بأمرٍ فيه عصمتُه ... لو كان فيها أبو موسى مِنَ النّاسِ
إنى أخاف عليه مكرَ صاحِبِه ... أرْجُو رَجاءً مَخُوفٍ شِيبَ بالْيَاسِ

* * *

وذكر الزّبير أيضاً فى '' الموفَّقيات '' أن يزيد بن حُجَيّة التيمىّ، شهد الجمل وصِفّين ونَهْروان مع علىّ عليه السلام ، ثم ولّاه الرَّىّ ودَسْتَبَى (١)، فسرَق من أموالها ، ولَحَق بمعاوية ، وهجا عليًّا وأصحابَه ، ومدح معاوية وأصحابه ، فدعا عليه علىّ عليه السلام ، ورفع أصحابُه أيديَهم فأمّنوا ، وكتب إليه رجل من بنى عمه كتابا يقبّح إليه

(١) دستبى ، بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء والباء المقصورة : كورة كبيرة كانت مقسومة بين الرى وهمدان . ياقوت .

ماصنع ، وكان الكِتاَب شعرا ، فكتب يزيد بن حُجَيّة إليه : لو كنتُ أقول شعرا لأجبتُك ، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث ؛ لاترون معهنّ شيئا مما تحبّون ؛ أما الأولى فإنّكم سرتم إلى أهل الشام ؛ حتى إذا دخلتم بلادَهم ، وطعنتموهم بالرماح ، وأذقتموهم ألم الجِراح ، رفَعوا المصاحفَ فسخِرُوا منكم ، وردّوكم عنهم ؛ فوالله ووالله لادخلتُموها بمثل تلك الشوكة والشّدة أبدا . والثانية أنّ القوم بعثوا حَكَما ، وبعثتم حكما ؛ فأمّا حكَمُهم فأثبتَهم ، وأما حكَمُكم فخلعكم ، ورجع صاحبُهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ،ورجعتم متضاغنين . والثالثة أن قرّاءكم وفقهاءكم وفُرسانكم خالفوكم ، فعدوْتم عليهم، فقتلتموهم . ثم كتب فى آخر الكتاب بيتين لعفّان بن شُرَحبيل التّيميّ :

أحببتُ أهلَ الشام مِنْ بَيْنِ المَلاَ وبكيتُ مِنْ أسفٍ عَلَى عُثمانِ
أرضاً مُقَدّسَـــــةً وقوماً منهمُ أهــلُ اليقين وتابعو الفُرْقَانِ

وذكر أبوأحمد العسكرى[1] فى كتاب " الأمالى " أن سعدَبن أبىوقّاص دخل على معاوية عام الجماعة ، فلم يسلِّم عليه بإمْرَةِ المؤمنين ، فقال له معاوية : لو شئت أن تقولَ فى سلامك غير هذا لقلت،فقال سعد : نحن المؤمنون ولم نؤمِّرك، كأنك قد بهجْتَ[2] بما أنت فيه يامعاوية ! والله مايسرّنىما أنت فيه وأنّى هَرَقْت المِحْجمة[3] دم. قال : ولكنّى وابن عمّك عليا ياأبا إسحاق قد هَرَقْنا أكثر من محجمة ومحجمتين ، هلمّ فاجلس مَعِى على السرير ، فجلس معه ، فذكر له معاوية اعتزالَه الحرب، يعاتبه ، فقال سعد : إنّما كان مثلى ومثلُ الناس كقوم أصابتهم ظُلْمة ،فقال واحد منهم لبعيره إخْ ، فأناخ حتىأضاء له الطريق

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى أبو أحمد ؛ أحد أعلام اللغة والأدب ، أخذ عن ابن دريد وطبقته ؛ وصاحب كتاب التصحيف توفى سنة ٣٨٠ : (إنباه الرواة ١ : ٣١٠).

(٢) بهج بالشيء : فرح به . (٣) المحجمة : قارورة الحجام .

فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق[1]، مافى كتاب الله « إخ » وإنما فيه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى فَقَاتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ ٱللهِ ﴾[2] ؛ فوالله ماقاتلتَ الباغية ولا المبغىّ عليها . فأفحمه .

وزاد ابن ديزيل فى هذا الخبر زيادة ذكرها فى ''كتاب صفين ''، قال : فقال سعد : أتأمرنى أنْ أقاتل رجلا قال له رسول الله صلى الله عليه : « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى » ! فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك ؟ قال: فلان وفلان وأمّ سلمة، فقال معاوية : لو كنتُ سمعتُ هذا لما قاتلته .

---

(١) أبو إسحاق كنية سعد بن أبى وقاص . (٢) سورة الحجرات ٩

(٣٦)

ومن خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النّهروان :

الأصْلُ :

فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ .

وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ ؛ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ ؛ وَلَمْ آتِ ـ لَا أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً ، وَلَا أَرَدْتُ بِكُمْ ضُرًّا .

* * *

الشَّرْحُ :

الأهضام : جمع هَضْم ؛ وهو المطمئنّ من الوادى . والغائط : ماسَفَل من الأرض .

واحْتَبَلَكم المقدار : أوقعكم فى الحِبالة .

والبُجْر : الداهية والأمر العظيم . ويروى : «هُجْرا» ، وهو المستقبَح من القول . ويروى «عُرًّا» ، والعُرّ : قروح فى مشافر الإبل ، ويستعار للداهية .

* * *

[أخبار الخوارج]

قد تظافرت الأخبار حتى بلغت حدّ التواتر بما وعد الله تعالى قاتِلِي الخوارج من الثوابِ ، على لسان رسوله صلى الله عليه وآله . وفى الصِّحاح المتّفق عليها أنّ

أقوال أهل البرية ، صلاتُهم أكثر من صلاتكم ، وقراءتهم أكثر من قراءتكم ، لايجاوز إيمانُهم تراقيَهم ــ أو قال: حناجرهم ــ يمرُقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرميّة ، فاقتلوهم ، فإنّ قتلَهم أجر لمن قتلَهم يوم القيامة » .

* * *

وفى '' كتاب صفين '' أيضا للمدائنىّ عن مسروق ، أنّ عائشة قالت له لما عرفت أنّ عليا عليه السلام قتل ذا الثُّدَيّة : لعن الله عمرو بن العاص ! فإنه كتب إلىّ يخبرنى أنه قتله بالإسكندرية ، ألا إنّه ليس يمنعنى مافى نفسى أن أقول ماسمعته من رسول الله صلى الله عليه ، يقول : « يقتله خير أمتى من بعدى » .

* * *

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى '' التاريخ '' أنّ عليًّا عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثيرٌ من الخوارج ، وتخلّف منهم بالنُّخَيْلة وغيرها خَلْق كثير لم يدخلوها ، فدخل حُرْقوص بن زُهَيْر السَّعْدىّ ، وزُرْعة بن البُرْج الطائىّ ــ وهما من رءوس الخوارج ــ على علىّ عليه السلام ، فقال له حُرْقوص : تُبْ من خطيئتك ، واخْرُج بنا إلى معاوية نجاهده ، فقال له علىّ عليه السلام : إنى كنت نهيتُكم عن الحكومة فأبيتم ، ثم الآن تجعلونها ذَنْبا ! أما إنّها ليست بمعصية ، ولكنّها عَجْز من الرأى ، وضَعف فى التدبير ، وقد نهيتُكم عنه ، فقال زُرْعة : أما والله لئن لم تَتُبْ من تحكيمك الرجال لأقتلنّك(١) أطلُبُ بذلك وجه الله ورضوانه ، فقال علىّ عليه السلام : بؤساً لك ما أشقاك ! كأنّى بك قتيلاً تَسْفِى عليك الرياح ! قال زُرْعة : وَدِدْتُ أنه كان ذلك(٢) .

قال : وخرج علىّ عليه السلام يخطُب النّاسَ فصاحوا به من جَوانب المسجد :

---

(١) الطبرى : « قاتلتك » .

(٢) تاريخ الطبرى ٥ : ٧٢ .

لا حُكْم إلا لله ، وصاح به رَجُلٌ [منهم واضع إصبعه فى أذنيه ، فقال](١) : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾(٢) ، فقال له علىّ عليه السلام : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾(٣) .

* * *

وروى ابن ديزيل فى كتاب " صفين " ، قال: كانت الخوارج فى أوّل ما انصرفت عن رايات على عليه السلام تُهدِّد الناس قتلا ، قال : فأتت طائفةٌ منهم على النّهر إلى جانب قَرية، فخرج منها رجل مذعُوراً آخذاً بثيابه ، فأدركوه فقالوا له : رَعَبْنَاك ؟ قال: أجل ؛ فقالوا له : قد عرَفْنَاك ، أنت عبد الله بن خَبّاب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه ، قال : نعم، قالوا: فما سمعت من أبيك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه ؟

قال ابن ديزيل : فحدّثهم أنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « إنّ فتنةً جائية ، القاعدُ فيها خير من القائم . . . » الحديث .

وقال غيره : بل حدّثهم: « إنّ طائفة تمرُق من الدين كما يمرُق السّهم من الرميّة ، يقرءون القرآن ، صلاتهم أكثر من صلاتكم ... » الحديث . فضربوا رأسه ، فسال دمُه فى النهر ، ما امذقرّ ، (أى ما اختلط بالماء) ، كأنّه شِراك ، ثم دَعَوْا بجارية له حُبْلى فبَقرُوا عمّا فى بطنها .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال: عزَم علىّ عليه السلام على الخروج من الكُوفة إلى الحرُورية(٤)، وكان فى أصحابه منجّم فقالَ له : ياأمير المؤمنين ، لا تَسِر فى هذه الساعة ،

(١) تكملة من تاريخ الطبرى .
(٢) سورة الزمر ٦٥
(٣) سورة الروم ٦٠ والخبر فى الطبرى ٥ : ٧٣
(٤) الحرورية : نسبة إلى حروراء : قرية على ميلين من الكوفة ؛ كان اجتماع الخوارج فيها. فنسبوا إليها.

وسِرْ على ثلاث ساعات مضيْن من النهار ؛ فإنّك إنْ سرت فى هذه الساعة أصابك وأصحابَك أذًى وضُرٌّ شديد ، وإن سرتَ فى الساعه التى أمرتُك بها ظَفِرت وظهرت ، وأصبْت ما طلبْتَ . فقال له علىّ عليه السلام : أتدرى ما فى بَطْن فرسى هذه ؛ أذكر هو أم أنثى ؟ قال : إن حسَبتُ عَلِمْت ، فقال علىّ عليه السلام : مَنْ صدّقك بهذا فقد كذّب بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ... ﴾ (١) الآية ، ثم قال عليه السلام :

إن محمدا صلى الله عليه ما كان يدّعى علم ما ادّعيت علمه ؛ أتزعُم أنك تَهْدِى إلى الساعة التى يصيب النفعَ مَنْ سارفيها ، وتصرِفُ عن الساعة التى يَحيق السوء بمن سار فيها ! فَمَنْ صدّقك بهذا فقد استغنَى عن الاستعانة بالله جَلّ ذكره فى صَرْف المكروه عنه . وينبغى الموقِن بأمْرِك أن يوليَكَ الحمد دونَ الله جلّ جلاله ، لأنك بزعمك هَدَيْته إلى الساعة التى يُصِيب النفعَ مَنْ سار فيها ، وصرفتَه عن الساعة التى يَحيق السوء بمَنْ سار فيها ؛ فمن آمن بك فى هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضِدًّا ونِدًّا . اللهم لا طيرَ إلا طيرُك ، ولا ضُرّ إلا ضُرّك ، ولا إله غيرك . ثم قال : نُخالف ونسيرُ فى الساعة التى نهيتَنا عنها ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيّها النّاسُ ، إياكم والتعلّم للنّجوم إلّا ما يُهْتدَى به فى ظُلُمات البر والبحر ، إنما المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالكافر ، والكافر فى النار . أما والله لئن بَلَغنى أنّك تعمل بالنّجوم لأخلدنّك السجنَ أبدا ما بقِيتُ ، ولأحرِمنّك العطاءَ ما كان لى من سلطان .

ثم سار فى الساعة التى نهاهُ عنها المنجِّم ، فظفِرَ بأهل النّهر وظهر عليهم ، ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرَنا بها المنجّم لقال الناس : سارَ فى الساعة التى أمَر بها المنجّم فظفِر وظهر ، أما إنه ما كان لمحمد صلى الله عليه منجّم ، ولا لنا من بعده ؛ حتى فتح الله علينا بلاد كِسْرَى وقَيْصر . أيها الناس ، توكّلوا على الله وثِقُوا به ، فإنه يكفى ممّن سواه .

(١) سورة لقمان ٣٤ .

قال : فروى مُسلم الضّبى عن حَبّة العُرَنِىّ ، قال : لما انتهينا إليهم رمَوْنا ، فقلنا لعلىّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين قد رمَوْنا ، فقال لنا : كُفّوا ، ثم رموْنا ، فقال لنا عليه السلام : كُفّوا ، ثم الثالثة ، فقال : الآن طابَ القتالُ ، احملوا عليهم .

وروى أيضا عن قَيْس بن سعد بن عبادة أنّ عليا عليه السلام لما انتهى إليهم ، قال لهم : أقيدونا بدم عبد الله بن خَبّاب ، فقالوا : كُلُّنا قتله ، فقال : احملوا عليهم .

***

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابُ " الأوائل " أنّ أول من قال : « لا حُكم إلا لله » ، عُرْوة بن حُدَير ، قالها بصِفّين ؛ وقيل : زيد بن عاصم المحارِبىّ . قال : وكان أميرُهم أوّلَ ما اعتزلوا ابنَ الكَوّاء ، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبىّ — وكان أحَد الخطباء — فقال لهم عند بيعتهم إياه : إيّاكم والرأىَ الفَطير(١) ، والكلام القَضِيب(٢) ، دعوا لرأى يَغبُ(٣) ، فإن غُبُوبه يكشف للمرء عن قُضته(٤) ، وازدحام الجواب مَضِلّة للصواب ، وليس الرأى بالارتجال ، ولا الحزم بالاقتضاب ، فلا تدعونّكم السلامة من خطأ مُوبِق ، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والتماس الربح من جهته . إنّ الرأى ليس بنهْنهىّ(٥) ، ولا هو ما أعطتك البديهة ، وإنّ خَميرَ الرأى خيرٌ من فطيره ؛ ورب شىء غابُّه خير من طَرِيّه ، وتأخيرُه خير من تقديمه .

***

وذكر المدائنىّ فى كتاب " الخوارج " قال : لما خرج علىّ عليه السلام إلى أهل النهر أقبلَ رجل من أصحابِه ممن كان على مقدّمته يركُض ؛ حتى انتهى إلى علىّ عليه السلام ،

(١) الرأى الفطير : الذى يبدو بديها من غير ترويه ، خلاف الخمير .
(٢) الكلام القضيب : المرتجل .
(٣) يغب ، أى يمضى عليه وقت .
(٤) القضة : العيب .
(٥) النهنهى : نسبة إلى النهنه ، وهو الثوب الرقيق النسيج .

فقال : البشرى يا أميرَ المؤمنين ! قال : ما بُشراك ؟ قال : إنّ القوم عَبروا النهر لمّا بلغهم وصولُك ، فأبْشِر ؛ فقد منحك الله أكتافَهم ؛ فقال له : آللهِ أنت رأيتَهم قد عبروا ! قال : نعم ، فأحلفه ثلاث مرات ، فى كلّها يقول : نعم ، فقال علىّ عليه السلام : والله ما عَبَروه ولن يعبرُوه ؛ وإن مصارعهم لَدُون النطفة ؛ والذى فَلَق الحبّة ، وبرأ النسمة ، لن يبلغوا الأَثْلاث ولا قصر بَوَازِن ، حتى يقتلَهم الله ، وقد خاب من افترى . قال : ثم أقبل فارس آخر يركُض ، فقال كقول الأول ، فلم يكترث علىّ عليه السلام بقوله ، وجاءت الفرسان تركُض ، كلّها تقول مثلَ ذلك ؛ فقام علىّ عليه السلام فجالَ فى متن فرَسه . قال : فيقول شابّ من الناس : والله لأكونَنّ قريبا منه ، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سِنانَ هذا الرمح فى عينه ؛ أيدّعى علم الغيب ! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كَسَروا جفونَ سيوفهم ، وعرقَبُوا خيلهم ، وجَثَوْا على رُكَبهم ، وحكّموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زَجل فنزل ذلك الشابّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى كنت شككت فيك آنفا ، وإنى تائب إلى الله وإليك ، فاغفر لى ، فقال علىّ عليه السلام : إن الله هو الذى يغفر الذنوب ، فاستغفره .

* * *

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى " الكامل " قال : لما واقفهم علىّ عليه السلام بالنّهروان ، قال : لاتبدءوهم بقتال حتى يبدءوكم ، فحمل منهم رجل على صفّ علىّ عليه السلام ، فقتل منهم ثلاثة ؛ ثم قال :

أَقْتُلُهُمْ وَلَا أَرَى عَلِيّا ولو بدا أوجرتُه الخَطِّيّا (١)

فخرج إليه علىّ عليه السلام فضربه ، فقتله ، فلما خالطه سيفُه ، قال : يا حبّذا الرَّوْحة إلى الجنة ! فقال عبد الله بن وهب : والله ماأدرى إلى الجنة أم إلى النار ! فقال رجل منهم

(١) أوجرته الخطى : طعنته بالرمح .

من بنى سَعْد : إنما حضرتُ اغترارا بهذا الرجل ـ يعنى عبد الله ـ وأراه قد شكّ واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس، ومال ألفٌ منهم إلى جهة أبى أيوّب الأنصارى ؛ وكان على ميمنة علىّ عليه السلام، فقال علىّ عليه السلام لأصحابه : احملوا عليهم ؛ فوالله لا يُقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة(١). فحمل عليهم فطحنهم طحْنا ، قُتِل من أصحابه عليه السلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية(٢).

* * *

وذكر أبو العبّاس ـ وذكر غيره أيضا ـ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لما وجّه إليهم عبدَ الله بن عباس ليناظرَهم قال لهم : ماالذى نَقَمتم على أمـير المؤمنين ؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكّم فى دين الله خَرَج من الإيمان؛ فليتُبْ بعـد إقراره بالكفر نَعُد إليه(٣)؛ قال ابن عباس : ماينبغى لمؤمن لم يشُبْ إيمانَه بشَكّ أنْ يُقِرّ على نفسه بالكفر، قالوا : إنّه حكّم ، قال: إنّ الله أمر بالتّحكيم فى قتل صَيْد ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾(٤)، فكيف فى إمامةٍ قد أشكلتْ على المسلمين ! فقالوا : إنّه حُكِم عليه فلم يَرْض ، فقال : إنّ الحكومة كالإمامة ، ومتى فَسَق الإمام وَجَبت معصيتُه ؛ وكذلك الحكَمان لَمّا خالفا نُبِذَتْ أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : اجعلوا احتجاجَ قريش حُجّة عليهم ؛ فإنّ هذا من الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(٥)، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾(٦).

قال أبو العباس : ويقالُ: إنّ أولَ مَنْ حكّم عروة بن أُدَيّة ـ وأديّة جدّة له جاهلية ـ وهو عروة بن حُدَيْر ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة . وقال قوم : أولُ من حكّم رجل من بنى

(١) فى الكامل : « ولا يفلت » .
(٢) الكامل ٣ : ١٨٧ .
(٣) ب : « نعد له » .
(٤) سورة المائد ٩٥
(٥) سورة الزخرف ٥٨
(٦) سورة مريم ٩٧ ، والخبر فى الكامل ٣ : ١٦٥ .

محارب بن خَصَفَة بن قَيْس بن عَيْلان ، يقال له سعيد . ولم يختلفوا فى اجتماعهم[1] على عبد الله بن وهب الراسبىّ، وأنه امتنع عليهم، وأومأ إلى غيره فلم يقنعوا إلّا به ،فكان إمام القوم، وكان يُوصف برأى . فأمّا أولُ سيف سُلّ من سيوف الخوارج فسيف عُروة بن أُدَيّة ، وذاك أنه أقبل على الأشعث ، فقال له : ماهذه الدنيّة ياأشعث ؟ وماهذا التحكيم ؟ أشرطٌ أوثقُ من شَرط الله عزّ وجلّ ! ثم شَهَر عليه السيفَ ، والأشعثُ مولٍّ ؛ فضرب به عَجُز بغلته .

قال أبو العباس : وعروة بن حُدَيْر هذا من النفر الذين نَجَوْا من حرب النَّهْروان،فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية ، ثم أُتِيَ به زياد ومعه مولى له ،فسأله عن أبى بكر وعمر فقال : خيرا ، فقال له : فما تقولُ فى أمير المؤمنين عثمان وفى أبى تراب ؟ فتولّى عثمانَ ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر ، وفعل فى أمر علىّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكّم ثم شهد عليه بالكُفر ، ثم سأله عن معاوية فسبّه سبًّا قبيحاً ، ثم سأله عن نفسه ؛ فقال له: أوّلك لِزِنْية[2] وآخرك لِدَعْوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربّك . فأمر به فضُربتْ عنقه ، ثم دعا مولاه فقال له : صفْ لى أمورَه ، قال : أأُطنب أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ،قال: ماأتيتُه بطعام بنهار قطّ ، ولافرشت له فراشا بليل قطّ[3] !

قال أبو العباس: وسبب تسميتهم الحرورية أنّ علياعليه السلام لما ناظرَهم بعدمناظرة ابن عباس إياهم ، كان فيما قال لهم : ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لما رفَعُوا المصاحف قلت لكم : إنّ هذه مكيدةٌ ووَهْن[4] ، وأنهم لوقصدوا إلى حُكْم المصاحف لأتوْنى ،وسألونى[5] التحكيم ! أفتعلمون أنّ أحداً كان أكرهَ للتحكيم منى ؟ قالوا : صدقت ، قال : فهل تعلمون أنّكم استكرهتمونى على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أنّ حُكْمَهما نافذ ما حكَما

(١) الكامل : « إجماعهم » .

(٢) لزنية ، يشير إلى ما كان من أبى سفيان فى جاهليته من غشيانه أمه سمية .

(٣) الكامل ٣ : ١٧٩ — ١٨١

(٤) ب : « مكيدة وهن » .

(٥) الكامل : « ثم سألونى » .

بحكم الله ، فمتى خالفاه ، فأنا وأنتم من ذلك برآء ، وأنتم تعلمون أنّ حُكم الله لا يعدُونى؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وكان معهم فى ذلك الوقت ابن الكوّاء[١]، قال : وهذا من قبل أن يذبحوا عَبْد الله بن خبّاب ، وإنما ذبحوه فى الفُرْقة الثانية بكسكر[٢]، فقالوا له : حكّمت فى دين الله برأينا ونحن مقرون بأنّا كنا كفَرْنا ، ولكنا الآن تائبون فأقِرَّ بمثل ما أقررنا به ، وتُبْ ننهضْ معك إلى الشام ، فقال : أما تعلمون أن الله تعالى قد أمر بالتحكيم فى شقاق بين الرجل وامرأته ، فقال سبحانه : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب كأرنب يساوى نصف درهم ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ! فقالوا له : فإنّ عَمْراً لما أبى عليك أن تقول فى كتابك : « هذا ما كتبه عبد الله علىّ أمير المؤمنين » محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت : « علىّ بن أبى طالب » ، فقد خلعت نفسك ، فقال : لى فى رسول الله صلى الله عليه أسوةٌ حين أبَى عليه سُهيل بن عمرو أن يكتب : « هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُهيل بن عمرو » ، وقال له : لو أقررتُ بأنك رسولُ الله ما خالفتُك ، ولكنى أقدّمك لفضلك ؛ فاكتب « محمد بن عبد الله » ، فقال لى : يا علىّ ، امحُ « رسول الله » ، فقلت : يا رسول الله ، لا تشجّعُنى نفسى[٣] على محو اسمك من النبوة ، قال : فقفى عليه ، فمحاه بيده ، ثم قال : « اكتب محمد بن عبد الله » ، ثم تبسم إلىّ وقال : يا علىّ ، أما إنك ستسام مثلها فتعطِى ، فرجع معه منهم ألفان من حَرُوراء وقد كانوا تجمّعوا بها ، فقال لهم علىّ : ما نسمّيكم ؟ ثم قال : أنتم الحرُورية ، لاجتماعكم بحَرُوراء[٤].

* * *

وروى جميعُ أهل السِّيَر كافةً أنّ عليا عليه السلام لما طَحن القوم طلب ذا الثُّدَيّة طلباً

(١) ابن الكواء ، هو عبد الله بن الكواء ؛ من بنى يشكر بن بكر بن وائل .

(٢) كسكر : كورة بين الكوفة والبصرة .

(٣) الكامل : « لا تسخو نفسى » .

(٤) الكامل ٣ : ١٨١ ، ١٨٢ .

شديداً ، وقلَب القتلَى ظَهْراً لبطن ، فلم يقدر عليه ، فساءه ذلك ، وجعل يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبْت ، اطلبوا الرجل ، وإنه لفى القوم ؛ فلم يزل يتطلّبه حتى وجده ، وهو رجل مُخْدَجُ اليد (١) ، كأنها ثدىٌ فى صدره .

* * *

وروى إبراهيم بن ديزيل فى كتاب " صفين " عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، قال : لما شَجَرهم علىّ عليه السلام بالرّماح ، قال : اطلبوا ذا الثُّدَيّة ، فطلبوه طلبا شديدا ، حتى وجدوه فى وَهْدَةٍ من الأرض تحت ناسٍ من القتلى ، فأُتِيَ به ، وإذا رَجُلٌ على ثَدْيه مثل سَبَلات (٢) السّنّور ، فكبّر علىّ عليه السلام ، وكبّر الناس معه سرورا بذلك .

وروى أيضا عن مسلم الضّبىّ عن حَبّة العُرَنىّ ، قال : كان رجلا أسود مُنْتِن الريح ، له ثدى كثدْى المرأة ، إذا مُدّت كانتْ بطول اليد الأخرى ، وإذا تركت اجتمعت وتقلّصَتْ ، وصارت كثدى المرأة ، عليها شعرات مثل شوارب الهرّة ، فلما وجدوه قطعوا يده ، ونصبوها على رُمْح . ثم جعل علىّ عليه السلام يُنادِي : صدق الله وبلّغ رسوله ؛ لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غَرَبت الشمس أو كادت .

وروى ابن دِيزيل أيضا ، قال : لما عِيلَ (٣) صبرُ علىّ عليه السلام فى طلب المخدَج ، قال : ائتونى ببغلة رسول الله صلى الله عليه ، فركبها واتبعه الناس ، فرأى القتلَى ، ويقول : اقلِبوا ، فيَقلِبون قتيلا عن قتيل ، حتى استخرجوه ، فسجد علىّ عليه السلام .

وروى كثير من الناس أنّه لما دعا بالبغلة ليركبها ، قال : ائتونى بها فإنها هادية ، فوقفتْ به على المخدَج ، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين .

وروى العوّام بن حَوْشب عن أبيه ، عن جدّه يزيد بن رُوَيم ، قال : قال علىّ عليه

---

(١) مخدج اليد ، أى ناقص اليد .
(٢) السبلة : ماعلى الشارب من الشعر ، وجمعه سبلات .
(٣) عيل صبره : أعوزه الصبر .

السلام : يُقتَلُ اليوم أربعة آلاف من الخوارج،أحدهم ذو الثُّدَيّة ، فلما طُحِن القومُ ورام استخراج ذِى الثُّدَيّة فأتبعه، أمرنى أن أقطع له أربعة آلاف قَصَبة،وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه ، وقال : اطرح على كلّ قتيل منهم قَصَبة ، فلم أزل كذلك وأنا بين يديْه ، وهو راكب خَلفى،والناس يتبعونه حتى بَقِيَت فى يدى واحدة ، فنظرت إليه وإذا وجهه أربَد ، وإذا هو يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، فإذا خريرُ ماء عند موضع دالية ، فقال : فَتِّش هذا ففتشته ، فإذا قتيل قد صار فى الماء ، وإذا رجلُه فى يدى ، فجذبتها ، وقلت : هـذه رِجْلُ إنسان ، فنزل عن البغلة مسرعا ، فجذب الرِّجْلَ الأخرى ، وجررناه حتى صار عَلَى التراب،فإذا هو المخدَج ، فـكبّر علىّ عليه السلام بأعلى صوته ، ثم سجد ، فـكبّر الناس كلهم .

وقد روى كثير من المحدّثين أن النبى صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوما : «إنّ منكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن ، كما قاتلت عَلَى تنزيله » ، فقال أبو بكر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا » ، فقال عمر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا ، بل خاصف النعل » ، وأشار إلى علىّ عليه السلام .

* * *

وقال أبو العباس فى "الـكامل" : يقال : إنّ أوّلَ مَنْ لَفظ بالحـكومة ولم يُشِدْ (١) بها رجل من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرّ ، من بنى صَريم ، يقال له الحجاج بن عبد الله ، ويعرف بالبُرَك ؛ وهو الذى ضرب آخرا معاوية عَلَى أليَتِه ، يقال : إنّه لما سمع بذكر الحـكمين ، قال : أيحكِّم أميرُ المؤمنين الرجالَ فى دين الله ! لا حُـكم إلا لله ، فسمعه سامع ، فقال : طَعَن والله فأنفذ .

قال أبو العباس : وأول من حكّم بين الصّفين رجـلٌ من بنى يَشْـكُر بن بكر

---

(١) لم يشد ، من أشاد به ، إذا رفع صوته .

ابن وائل ، كان من أصحاب علىّ عليه السلام ، فحمل عَلَى رجل منهم فقتله غِيلة ، ثم مرق بين الصّفّين يُحكِّم ، وحمل عَلَى أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع إلى ناحية علىّ عليه السلام ، فخرج إليه رجل من هَمْدان فقتله ، فقال شاعر هَمْدان :

وَمَا كانَ أغْنَى اليَشْكُرِىَّ عن الَّتِى تَصَلَّى بِهَا جَمْراً من النَّارِ حَامِيَا
غَداة ينادى والرماحُ تَنُوشُهُ خلعتُ عليًّا بادئًا ومعاوِيا[1]

قال أبو العباس: وقد روى المحدّثون[2] أن رجلا تلا بحضرة علىّ عليه السلام: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[3] ، فقال علىّ عليه السلام : أهلُ حَرُوراء منهم .

قال أبو العباس: ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا اختلافَ فيه أنه قاله — وكان يردّده — أنهم لما ساموه أنّه يُقِرّ بالكفر، ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام، فقال: أبعدَ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقّه فى الدين أرجع كافرا ! ثم قال :

يا شاهِدَ اللهِ عَلَىَّ فاشْهَدِ أنّى عَلَى دِينِ النبىّ أحْمَدِ
* مَنْ شَكَّ فى الله فإنّى مُهْتَدِ[4] *

وذكر أبو العباس أيضاً فى " الكامل " أن عليًّا عليه السلام فى أولِ خُروج القوم عليه ، دعا صعصعة بن صُوحان العبدىّ — وقد كان وجّهه إليهم — وزياد بن النّضر الحارثىّ ، مع عبدالله بن عباس ، فقال لصعصعة : بأىّ القوم رأيتهم أشدّ إطافة[5]؟ قال: بيزيد بن قيس الأرحبىّ، فركب علىّ عليه السلام إلى حَرُوراء ، فجعل يتخلّلهم حتى صار إلى مَضْرِب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتّكأ على قوسه ، وأقبل

(١) تنوشه : تتناوله .
(٢) فى الكامل : « وجاء فى الحديث » .
(٣) سورة الكهف ١٠٤ .
(٤) الكامل ٣ : ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٥) إطافة ، مصدر أطاف بالشىء ؛ إذا أحاط به .

عَلَى [الن]اس ، فقال : هذا مَقامُ مَنْ فَلَج (١) فيــه فَلَجَ يوم القيامة . ثم كلّمهم وناشدهم ، فقالو[ا] : إنّا أذنبْنا ذنبا عظيما بالتّحكيم ، وقد تُبْنا ، فتب إلى الله كما تُبْنا نَعُدْ لك . فقال عليّ [عليه] السلام : أنا أستغفر الله من كلّ ذنب ، فرجعوا معــه وهم ستة آلاف ، فلما استق[رّ]وا بالــكوفة أشاعوا أنّ عليًّا عليه السلام رجع عن التحكيم ، ورآه ضلالا ، وقالوا: إنّما نتظر أميرُ المؤمنين أن يسمَن الــكُراع (٢) وتُجْبَى الأموال ، ثم ينهضُ بنا إلى الشام. فأتى الأشعثُ عليًّا عليــه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأي[ت] الحــكومة ضلالا والإقامة عليها كفرا ، فقام عليّ (٣) عليه السلام يخطب ، فقال : مَن زعم أنى رجعت عن الُحــكومة فقد كَذَب ، ومَنْ رآها ضَلالا فقد ضلّ ؛ فخرجت حين[ئذ] الخوارجُ من المسجد فحــكّمت (٤) .

* * *

قلت : كلّ فساد كانَ فى خلافة عليّ عليه السلام ، وكلّ اضطراب حَدَث فأصلُه الأ[شع]ث ، ولولا محاقّته (٥) أميرالمؤمنين عليه السلام فى معنى الحــكومة فى هذه المرّة لم تَــكن حَر[ب] النّهرَوان ، ولــكانَ أميرُ المؤمنين عليــه السلام ينهضُ بهم إلى معاوية ، ويملك الش[ا]م ؛ فإنه صلوات الله عليه حاوَل أن يَسلُك معهم مسلك التّعريض والمواربة ؛ وفى المَثل الن[بو]يّ صلوات الله على قائله : « الحرب خُدْعة » ، وذاك أنّهم قالوا له : تُبْ إلى الله

(١) عبارة الــكامل : « من فلج فيه فلج يوم القيامة ؛ أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للح[ك]ومة منى ! قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنــكم أكرهتمونى حتى قبلتها ! قالوا : اللهم نعم ، قال : فع[لا]م خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما ، فتب إلى الله منه ، واستغفره نعد لك ، فقــال علي . . . » ، والفلج : الظفر والانتصار .

(٢) الــكراع : اسم للخيل

(٣) الــكامل : « فخطب على الناس » .

(٤) الــكامل ٣ : ٢١٠ ــ ٢١٢ .

(٥) المحاقة : أن يقول كل واحد من الطرفين : « أنا أحق » ؛ هذا أصلها ، والمرادالمحاجة والمجادلة .

مما فعلت ، كما تبنا نهض معك إلى حرب أهل الشام ، فقال لهم كلمة مجملة مُرْسَلة يقولها الأنبياء والمعصومون ، وهى قوله : « أستغفر الله من كلّ ذنب » ، فرضُوا بها وعدّوها إجابةً لهم إلى سؤلهم ، وصفَتْ له عليه السلام نيّاتُهم ، واستخلصَ بها ضمائرَهم ، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافا بكفرٍ أو ذنب ، فلم يتركْه الأشعثُ ، وجاء إليه مستفسرا وكاشفا عن الحال ، وهاتكا سِتْر التورية والكناية ، ومُخرِجا لها من ظلمة[1] الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسِد التدبير ، ويُوغِر الصدور ، ويعيد الفتنة ؛ ولم يستفسرْه عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دَخَن[2] ، ولا ترقيقا عن صَبُوح[3] ، وألجأه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما فى نفسه ، ولا يترك الكلمة عَلَى احتمالها ، ولا يطويها عَلَى غرّها[4] ، فخطب بما صَدَع به عن صورة ما عنده مجاهرة ، فانتقض ما دبّره ، وعادت الخوارج إلى شُبْهتها الأولى ، وراجعوا التحكيم والمُروق ؛ وهكذا الدول التى تظهر فيها أمارات الانقضاء والزوال ، يُتاحُ لها أمثال الأشعث من أولى الفساد فى الأرض ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[5] .

* * *

قال أبو العباس : ثم مضى القومُ إلى النّهروان ، وقد كانوا أرادوا المضىّ إلى المدائن ، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا فى طريقهم مُسلما ونصرانيًّا ، فقتلوا المسلَم لأنّه عندهم كافر ؛ إذ كان على خلاف معتقدهم ، واستوصَوْا بالنصرانىّ ، وقالوا : احفظوا ذمّة نبيّكم[6]

(١) ب : « مظلمة » ، تصحيف ، صوابه من ا ، ج .

(٢) هدنة على دخن مثل ، والهدنة فى الأصل : اللين والسكون ، ويطلق على المصالحة . والدخن : تغير الطعام . وانظر الميدانى ٢ : ٣٨٢ .

(٣) أصل المثل : « عن صبوح ترقق » ، والصبوح : مايشرب صباحا ، وترقيق الكلام تزيينه ، يضرب لمن كنى عن شىء ويريد غيره . وانظر الميدانى ٢ : ٢١ .

(٤) أصل المثل : « طويت الثوب على غره » أى كسره .

(٥) سورة الأحزاب ٦٢ .

(٦) الكامل : ٣٠ : ٢١٢

قال أبو العباس : ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل فى رُفْقةٍ فأحسوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة : إنّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا ودَعُونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطَب ، فقالوا : شأنَك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابُك ؟ فقال: قومٌ مشركون مستجيرون بكم ، ليسمعوا كلامَ الله ، ويفهموا حدوده ، فقالوا : قد أجرْناكم ، قال : فعلّمُونا ، فجعلوا يعلّمُونهم أحكامهم ، ويقول واصل : قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا : فامْضُوا مصاحَبين ، فقد صرتم[1] إخواننا ، فقال : بل تُبْلغُونَنا مأمننا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[2] ، قال : فينظر[3] بعضُهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن[4] .

* * *

قال أبو العباس : ولقِيَهم عبد الله بن خَبّاب فى عنقه مصحف ، على حِمار ، ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له : إنّ هذا الذى فى عُنُقك لَيأمُرُنا بقتلك ، فقال لهم : ما أحياه القرآن فأحيُوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجل منهم على رُطَبة سقطت من نَخْلة فوضعها فى فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورُّعا . وعرض لرجل منهم خِنْزِيرٌ فضربه فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، وأنكَرُوا قتل الخِنزير ، ثم قالوا لابن خَبّاب : حَدّثنا عن أبيك ، فقال : إنى سمعتُ أبى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « ستكون بعدى فتنة

---

(١) الكامل : « فإنكم إخواننا » .
(٢) سورة التوبة ٦ .
(٣) الكامل : « فنظر بعضهم إلى بعض » .
(٤) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بَدَنُه ، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فكنْ عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل» ، قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ فى علىّ قبل التحكيم ، وفى عثمان فى السنين الستّ الأخيرة ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ فى علىّ بعد التحكيم والحكومة ؟ قال : إنّ عليا أعلم بالله وأشدُّ توقِّياً على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنّك لست تتّبع الهدى ، إنما تتبعُ الرجال على أسمائهم ، ثم قرّبوه إلى شاطئ النهر ، فأضجعوه فذبحوه[1] .

قال أبو العباس : وساوَمُوا رجلا نصرانيًّا بنخْلة له ، فقال : هى لكم ، فقالوا : ما كنا لنأخذها إلّا بثمن ، فقال : واعجباه ! أتقتلون مثل عبد الله بن خَبّاب ، ولا تقبلون جَنَا نخلة إلا بثمن[1] !

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنَّى ، قال : طُعن واحدٌ من الخوارج يوم النّهروان ، فمشى فى الرمح ، وهو شاهر سيفه ، إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله ، وهو يقرأ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[2] .

وروى أبو عبيدةَ أيضا ، قال : استنطقهم علىّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خَبّاب ، فأقرّوا به ، فقال : انفردوا كتائبَ لأسمع قولَكم كَتِيبة كَتِيبة ، فتكتّبوا كتائبَ ، وأقرّت كلُّ كتيبة بمثل ما أقرّتْ به الأخرى ؛ من قتل ابن خَبّاب ، وقالوا : ولنقتلنّك كما قتلناه ؛ فقال علىّ : والله لو أقرّ أهلُ الدنيا كلّهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم ؛ ثم التفت إلى أصحابه ، فقال لهم : شدُّوا عليهم ؛ فأنا أولُ من يشدّ عليهم . وحَمَل

(١) الكامل ٣ : ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٢) سورة طه ٨٤ .

بذى الفقار حملةً منكرةً ثلاث مرات ، كلّ حملةٍ يضرب به حتى يعوجَّ متْنُه ، ثم يخرج فيسوِّيه بركبتيه ، ثم يحمل به حتى أفناهم .

وروى محمد بن حبيب ، قال : خَطَب علىّ عليه السلام الخوارج يوم النّهر ، فقال لهم : نحن أهلُ بيت النبوّة ، وموضع الرسالة ، ومختلَف الملائكة ، وعنصر الرحمة ، ومعدِن العلم والحكمة ، نحن أفق الحجاز ، بنا يلحَق البطىء ، وإلينا يرجع التائب ؛ أيها القومُ ، إنى نذيرٌ لكم أن تُصبِحُوا صَرْعى بأهْضام هذا الوادى ... إلى آخر الفصل .

(٣٧)

ومن كلام له عليه السلام يجرى مجرى الخطبة :

الأصل :

فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا ، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا ، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا ، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً ، وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً ، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا ، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا .

كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ ؛ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ ، وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ ؛ الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ .

رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ ، وَسَلَّمْنَا لِلَّهِ أَمْرَهُ . أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ ، فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي ؛ فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي ؛ وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي .

* * *

الشرح :

هذه فصول أربعة ، لا يمتزج بعضها ببعض ، وكلّ كلام منها ينحو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه بالآخر ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى التقطها من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر ، قاله بعد وقعة النّهروان ، ذكر فيه حاله منذ توفى رسول الله صلى الله

عليه وآله ، وإلى آخر وقت ؛ فجعل الرضىّ رحمه الله تعالى ما التقطه منه سَرْداً ، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصدا واحدا .

* * *

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله : « واستبددت برهانها » ؛ يذكر فيه مقاماتِه فى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أيامَ أحداث عثمانَ ، وكَوْن المهاجرين كلّهم لم ينكِروا ولم يُواجهوا عثمانَ بما كان يواجِههُ به وينهاه عنه ؛ فهذا هو معنى قوله : « فقمت بالأمر حين فَشِلوا » ، أى قمت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله عنه . والفَشَل : الخوَر والُجبْن .

قال : « ونطقتُ حين تمتعوا » ، يقال: تعتع فلان ؛ إذا تردّد فى كلامه من عِىّ أو حَصَر[1] .

قوله : « وتطلّعتُ حين تقبّعوا » ، امرأةٌ طُلَعة قُبَعَة ، تطلع ثم تقبَع رأسها ، أى تدخله كما يقبَعُ القنفذُ ، يدخُل برأسه فى جلده ، وقد تقبّع الرجُل ، أى اختبأ ، وضدّه تطلّع .

قوله : « وكنت أخفضهم صوتا ، وأعلاهم فَوْتا » يقول : علوتُهم وفتّهم وشأوتُهم سَبْقا ، وأنا مع ذلك خافِض الصوت ، يشير إلى التواضع ونفى التكبّر .

وقوله : « فطرت بعنانها ، واستبددت برهانها » يقول : سبقتهم ، وهذا الكلامُ استعارة من مُسابقة خَيْل الحلْبة . واستبددت بالرهان ، أى انفردت بالخطَر[2] الذى وقع التراهُنُ عليه .

* * *

الفصل الثانى فيه ذكر حالهِ عليه السلام فى الخلافة بعد عثمان ، يقول : كنتُ لمّا وَليتُ الأمر كالجبل لا تحرّكه القواصِف ، يعنى الرياح الشديدة ، ومثله العواصف .

والمهمز : موضِع الهمز ؛ وهو العيب ، وكذلك المغمز .

(١) ج : « من عى وحصر » .
(٢) الخطر : السبق الذى يترامى عليه فى الرهان .

ثم قال : « الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوىّ عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه » ؛ هـذا آخر الفصل الثانى ، يقول : الذليل المظلوم أقُوم بإعْزازه ونَصْره ، وأقوّى يدَه إلى أن آخذ الحقّ له ، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التى كان عليها قبل أن أقومَ بإعزازه و نصره ، والقوىّ الظالم أستضعِفه وأقهرُه وأذلّه إلى أن آخذَ الحقّ منه ، ثم يعود إلى الحالة التى كان عليها قَبْل أن أهتضِمَه ، لاستيفاء الحق .

* * *

الفصل الثالث من قوله : « رضينا عن الله قضاءه » ، إلى قوله : « فَلاَ أَكُونُ أَوّلَ مَنْ كذَب عليه » ؛ هـذا كلامٌ قاله عليـه السلام لمّا تفرّس فى قوم من عَسْكره أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبىّ صلى الله عليه وآله من أخبار الملاَحِم والغائبات ، وقد كان شكّ منهم جماعة فى أقواله ؛ ومنهم مَنْ واجهه بالشكّ والتهمة[1] .

[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام علىّ بالأمور الغَيبيّة]

روى ابن هلال الثقفىّ فى كتاب ''الغارات'' عن زكريا بن يحيى العطّار ، عن فُضَيْل ، عن محمد بن علىّ ، قال : لما قال على عليه السلام : سَلُونى قَبْل أن تفقِدونى ، فوالله لا تسألوننى عن فئة تُضِلّ مائة ، وتَهدِى مائةً إلا أنبأتكم بناعِقتها وسائقتها ، قام إليه رجل فقال : أخبِرْنى بما فى رأسى ولِحْيَتى من طاقة شَعْر ، فقال له على عليه السلام : والله لقد حَدّثنى خليلى أنّ على كلّ طاقة شَعْرٍ من رأسك مَلَكاً يلعنُك ، وأَنّ على كلِّ طاقة شعر مِنْ لحيتك شيطانا يُغويك ؛ وأَنّ فى بيتك سَخْلا يقتلُ ابنَ رسول الله صـلى الله عليـه — وكان ابنُه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلا يحبو — وهو سنان بن أنس النَّخَعِىّ .

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالىّ ، عن سويد بن غفلة أنّ عليا عليه السلام ، خطب ذات يوم ، فقام رجل من تحت مِنْبره ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّى مررتُ بوادى

(١) انظر الـكلام عن الفصل الرابع ص ٢٩٥ .

القُرى ، فوجدتُ خالد بن عُرْفطة قد مات ، فاستغفر له ، فقال عليه السلام : والله مامات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حِمار . فقام رجل آخر من تحت المِنْبر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أنا حبيب بن حِمار ، وإنى لك شيعة ومحبّ ، فقال: أنت حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : والله إنّك لحبيب بن حمار ؟ فقال : إى والله ! قال : أما والله إنّك لحامِلُها ولتحمِلنّها ، ولتدخُلَنّ بها من هذا الباب ـ وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة .

قال ثابت : فوالله مامتّ حتى رأيتُ ابنَ زياد ، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين ابن علىّ عليه السلام،وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحبَ رايته، فدخل بها من باب الفيل .

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البَجَلىّ ، قال : أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهىّ ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : قال على عليه السلام على المنبر : مَا أحدٌ جرت عليه المواسى إلا وقد أنزل الله فيه قرآنا ؛ فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له : فما أنزل الله تعالى فيك ؟ فقام الناس إليه يضربونه ؛ فقال : دعوه ، أتقرأ سورة هود؟ قال:نعم ، قال:فقرأ عليه السلام:﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾[1] ثم قال : الذى كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه ، والشاهد الذى يتلوه أنا .

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن بكير ، عن حكيم بن جُبير ، قال : خطب علىّ عليه السلام فقال فى أثناء خطبته : « أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، لا يقولها أحدٌ قبلى ولا بعدى إلا كذب ؛ ورِثْتُ نبىَّ الرحمة ، ونكَحْتُ سيدة نساء هذه الأمة ، وأنا خاتم الوصيين » .

---

(١) سورة هود ١٧ .

فقال رجل من عَبْس : [و] مَنْ لا يحسِنُ أن يقول مثل هذا ! فلم يرجع إلى أهله حتى جُنّ وصُرِع ، فسألوه: هل رأيتم به عَرَضا قبل هذا ؟ قالوا : مارأينا به قبل هذا عَرَضا.

وروى محمد بن جبلة الخيّاط ، عن عِكْرمة ، عن يزيد الأحمسيّ أنّ عليا عليه السلام كان جالسا فى مسجد الكوفة ، وبين يديه قوم منهم عمرو بن حُرَيث ؛ إذ أقبلت امرأة مختمِرة لا تُعرف ، فوقفت فقالت لعليّ عليه السلام : يامَنْ قتل الرجال ، وسفك الدماء وأيتمَ الصبيان، وأرمل النساء ! فقال عليه السلام : وإنّها لهى هذه السَّلَقْلَقة الجِلِعة المَجِعَةُ ، وإنّها لهى هذه؛ شبيهة الرجال والنساء ؛ الّتى مارأتْ دماً قطّ ؛ قال : فولّت هاربة منكِّسة رأسَها ، فتبعها عمرو بن حريث ، فلمّا صارت بالرّحبة ، قال لها : والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل ، فادخلِي منزلى حتى أهبَ لك وأكسوَك ، فلما دخلتْ منزلَه أمر جواريَه بتفتيشها وكشْفها ونَزْع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها ، فبكتْ وسألتْه ألّا يكشِفها ؛ وقالت: أنا والله كما قال ، لى رَكَب النساء ، وأنْثيان كأنثى الرجال ؛ ومارأيت دماً قَطّ . فتركها وأخرجها. ثم جاء إلى عليّ عليه السلام فأخبره ، فقال : إنّ خَليلى رسولَ الله صلى الله عليه أخبرنى بالمتمرِّدين عليّ من الرجال والمتمرّدات من النساء إلى أن تقومَ الساعة .

قلت : السَّلَقْلَقة : السّليطة، وأصله من السَّلْق وهو الذئب، والسَّلْقة : الذئبة. والجِلِعة المَجِعة : البذيئة اللسان . والرّكَب : مَنبِت العانة .

وروى عثمان بن سعيد ، عن شريك بن عبدالله ، قال : لما بلغ عليًّا عليه السلام أنّ الناسَ يتّهمونه فيما يذكره من تقديم النبيّ صلى الله عليه وآله وتفضيله [إياه] على النّاس، قال: أنشدُ اللهَ مَنْ بَقِيَ ممّن لقى رسول الله صلى الله عليه وسمع مقاله فى يوم غَدِير خُمّ[1] إلّا قام

(١) خم : واد بين مكة والمدينة عند الجحفة ، به غدير عرف به .

فشهد بما سمع ، فقام ستة ممن عن يمينه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وستة ممن على شماله من الصحابة أيضاً ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم ، وهو رافع بيدىْ علىّ عليه السلام : « مَنْ كنتُ مولاه فهذا علىّ مولاه ، اللّهم والِ مَنْ والاه ، وعاد من عاداه ، وانصُر مَنْ نصره ، واخذُل مَنْ خذله ، وأحبَّ مَنْ أحبّه ، وأبغِضْ مَنْ أبغضه »[١] .

وروى عُثمان بن سعيد عن يحيى التَّيْمىّ ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، قال: قام أعْشَى همْدان[٢] — وهو غلام يومئذٍ حَدَث — إلى علىّ عليه السلام ، وهو يخطب ويذكر الملاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماأشبه هذا الحديث بحديث خُرافة ! فقال على عليه السلام : إنْ كنتَ آثماً فيما قلتَ ياغلام ، فرماك الله بغلام ثَقيف ؛ ثم سكت ، فقام رجال فقالوا : ومَنْ غلامُ ثَقيف يا أمير المؤمنين؟ قال : غلام يملِك بلدتَكم هذه لا يتركُ لله حرمةً إلا انتهكها ، يضرب عُنُق هذا الغلام بسيفه ، فقالوا : كم يملكُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين إن بلغها ، قالوا : فيُقتَلُ قتلا أم يموت موتا ؟ قال : بل يموتُ حَتْفَ أنفه بداء البَطْن ، يثقب سريره لكثرة مايخرج من جوفه .

قال إسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رأيتُ بعينِي أعْشَى باهلة ، وقد أحضِر فى جملة الأسرى الذين أسِروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدى الحجاج ، فقرّعه ووبّخه ، واستنشده شِعْرَه الذى يحرِّض فيه عبدَ الرحمن على الحرب ، ثم ضرب عنقه فى ذلك المجلس .

وروى محمد بن على الصوّاف ، عن الحسين بن سفيان ، عن أبيه ، عن شُمَير بن سَدِير الأزدىّ ، قال : قال علىّ عليه السلام لعمرو بن الحمِق الُخزاعىّ : أين نزلت ياعمرو؟ قال:

(١) نقله المحب الطبرى فى الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) ، وتحدث عن طرقه هناك .
(٢) أعشى همدان ، أسره الحجاج ثم قتله ؛ وانظر الأغانى ٦ : ٥٨ — ٦٢ .

فى قومى ، قال: لا تنزلنّ فيهم، قال : فأنزلُ فى بنى كِنانة جيراننا؟قال : لا ، قال : فأنزل فى ثَقِيف ؟ قال : فما تصنع بالمَعرّة والجِرة ؟ قال : وماهما ؟ قال: عُنُقان من نار ، يخرجان من ظهر الكوفة ، يأتى أحدهما على تميم وبكر بن وائل ؛ فقلّما يُفلِت منه أحدٌ ، ويأتى العنق الآخر ، فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة ، فقلَّ منْ يصيبُ منهم،إنما يدخل الدارَ فيحرِق البيتَ والبيتين . قال : فأين أنزِل؟قال : انزِل فى بنى عمرو بن عامر ، من الأزد ـ قال : فقال قوم حضروا هذا الكلام : مانراه إلّا كاهنا يتحدّث بحديث الكَهَنَة ـ فقال : ياعمرو ، إنك المقتول بعدى ؛ وإنّ رأسَك لمنقول ؛ وهو أوّلُ رأسٍ ينقَل فى الإسلام ؛ والويل لقاتِلك ! أما إنّك لا تنزِل بقوم إلا أسلموك برُمّتك(١) ؛ إلا هذا الحىّ من بنى عمرو بن عامر من الأزْد ، فإنّهم لن يُسلموك ولن يَخْذُلوك ؛ قال : فوالله مامضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحمِق فى خلافة معاوية فى بعض أحياء العرب، خائفا مذعورا ، حتى نزل فى قومه من بنى خُزاعة ، فأسلموه ، فقتِل وحُمِل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام ؛ وهو أوّلُ رأس حُمِل فى الإسلام من بلد إلى بلد .

* * *

وروى إبراهيم بن ميمون الأزدىّ عن حَبّة العرنىّ ، قال : كان جويرية بن مِسهر العبدىّ صالحا ، وكان لعلى بن أبى طالب صديقا ، وكان علىّ يحبّه، ونظر يوما إليه وهو يسير ، فناداه: ياجويرية،الحَقْ بى ، فإنى إذا رأيتُك هَوِيتُك؛ قال إسماعيل بن أبان: فحدّثنى الصبّاح ، عن مسلم عن حَبّة العُرنىّ، قال : سرنا مع على عليه السلام يوما فالتفت فإذا جُويرية خَلْفه بعيدا ، فناداه : ياجُويرية ، الحَقْ بى لا أبالك ! ألا تعلم أنّى أهواك وأحِبّك! قال : فركَض نحوه، فقال له : إنى محدّثك بأمور فاحفظها، ثم اشتركا فى الحديث سرّا ، فقال له جُويرية : ياأمير المؤمنين ، إنى رجلٌ نسِىّ(٢)، فقال له : إنى أعيدُ عليك

---

(١) أسلموك برمتك ، أى أسلموك بجميع ما معك .

(٢) النسى : الكثير النسيان .

الحديثَ لتحفظه ، ثم قال له فى آخر ماحدّثه إياه : ياجويرية ، أحبِب حبيبنَا ما أحبَّنا ، فإذا أبغضنا فأبغِضْه ، وأبْغِض بغيضَنا ما أبغضَنا ، فإذا أحبّنا فأحبّه .

قال : فكان ناسٌ ممن يشكّ فى أمر على عليه السلام يقولون : أتراه جعل جُوَيرية وصيّه كما يدّعى هو من وصية رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : يقولون ذلك لشدّة اختصاصه له ، حتى دخل على علىّ عليه السلام يوما ، وهو مضطجع ، وعنده قوم من أصحابه ، فناداه جويرية : أيّها النائم ، استيقظ ، فلتُضْرَبنّ على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك ، قال : فتبسّم أميرُ المؤمنين عليه السلام ؛ قال : وأحدّثك ياجويرية بأمرك ؛ أما والّذى نَفْسى بيده لتُعتَلَنّ(١) إلى العُتُلّ الزنيم ، فليقطعنّ يدَك ورِجْلَك وليصلبنّك تحت جذع كافر ، قال : فوالله مامضت إلا أيّام على ذلك حتى أخذ زياد جُويرية ، فقطع يدَه ورِجْلَه وصَلَبه إلى جانب جذع ابن مكعبر ، وكان جِذْعا طويلا ؛ فصلَبه على جِذْع قصير إلى جانبه .

وروى إبراهيم فى كتاب ” الغارات “ ، عن أحمد بن الحسن المِيثمىّ ، قال : كان ميثم التّمّار مولى علىّ بن أبى طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بنى أسد ، فاشتراه علىّ عليه السلام منها وأعتقه ، وقال له : ما اسمك ؟ فقال : سالم ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه أخبرنى أنّ اسمَك الّذى سماك به أبوك فى العجم « مِيثَم » ، فقال : صدَق الله ورسوله ، وصدقتَ ياأمير المؤمنين ، فهو والله اسمى ، قال : فارجع إلى اسمك ، ودَعْ سالما ، فنحن نكنيك به ؛ فكناه أبا سالم . قال : وقد كان قد أطلعه علىّ عليه السلام على علم كثير ، وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدّث ببعض ذلك ، فيشكّ فيه قوم من أهل الكوفة ، وينسُبون عليا عليه السلام فى ذلك إلى المَخرقة(٢) والإيهام والتدليس ؛ حتى قال له يوما بمحضَرٍ من خَلْق كثير من أصحابه ، وفيهم الشاكّ والمخلِص : ياميثم ،

---

(١) يقال : عتله عتلا ؛ إذا أخذه بمجامعه وجره جرا عنيفا .

(٢) المخرقة : اختلاق الكذب .

إنك تُؤخَذ بعدى وتُصْلب ، فإذا كان اليوم الثانى ابتدر مُنْخُراك وفمك دماً ، حتى تُخضَب لحيتُك ، فإذا كان اليومُ الثالث طعِنْت بحربة يُقضى عليك ، فانتظِر ذلك . والموضع الذى تصْلَب فيه على باب دار عمرو بن حريث ؛ إنك لَعاشِرعشرة أنت أقصرُهم خشبة ، وأقربهم من المطهّرة — يعنى الأرض — ولأرينَّك النَّخْلة التى تُصْلَب على جِذْعها ، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين ، وكان مِيْثم يأتيها ، فيصلِّى عندها ، ويقول : بورِكتِ مِنْ نخلة لكِ خُلِقتُ ، ولِى نبتِّ ، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علىّ عليه السلام ، حتى قُطِعت ، فكان يَرْصُد جذعها ، ويتعاهده ويتردّد إليه ، ويبصره ، وكان يَلْقَى عمرو بن حريث ، فيقول له : إنّى مجاورُك فأحسِنْ جوارى ، فلا يعلم عمرو مايريد ، فيقول له : أتريدُ أن تشترِىَ دار ابن مسعود ، أم دار ابن حكيم !

قال : وحجّ فى السَّنَة التى قتل فيها ، فدخل على أمّ سلمة رضى الله عنها ، فقالت له : مَنْ أنت ! قال : عِراقىّ ، فاستنسبَتْه ، فذكر لها أنه مولى علىّ بن أبى طالب ، فقالت: أنت هيثم ، قال : بل أنا مِيثم [1] ، فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يوصى بك عليًّا فى جوف الليل ، فسألها عن الحسين بن علىّ ، فقالت : هو فى حائط[2] له ، قال : أخبريه أنى قد أحببتُ السّلام عليه ، ونحن ملتقُون عند ربّ العالمين ، إن شاء الله ، ولا أقدر اليوم على لقائه ، وأريد الرجوع ، فدعتْ بطِيب فطيّبت لحيته ، فقال لها : أما إنها ستخضب بدم ، فقالت : مَن أنبأك هذا ؟ قال : أنبأنى سيدى ، فبكت أمُّ سلمة ، وقالت له : إنه ليس بسيّدك وحدَك ؛ هو سيّدى وسيد المسلمين ، ثم ودّعته .

---

(١) ميثم ، ضبطه صاحب القاموس بكسر الميم .
(٢) الحائط : البستان .

فقدم الكوفة ، فأخِذ وأدخِلَ على عُبيد الله بن زياد . وقيل له : هذا كان من آثرِ الناس عند أبى تراب ، قال : وَيحكم ! هـذا الأعجمىّ ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله : أين ربُّك ؟ قال : بالمرصاد ، قال : قد بلغنى اختصاصُ أبى تراب لك ، قال : قد كان بعضُ ذلك ، فما تريد ؟ قال : وإنه ليقال إنّه قد أخبرك بما سَيَلْقاك ، قال : نعم ؛ إنه أخبرنى ، (١قال : ماالذى أخبرك أنى صانع بك١) ؟ قال : أخبرنى أنّك تصلُبنى عاشر عشرة وأنا أقصرُهم خشبة ، وأقربهم من المطهرة ، قال : لأخالفنّه ، قال : ويحك ! كيف تخالفُه ؟ إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر رسول الله عن جبرائيل ، وأخبر جبرائيل عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفتُ الموضع الذى أُصْلَب فيه أين هو من الكوفة ؟ وإنّى لأوّل خَلق الله أُلجِم فى الإسلام بلجام كما يُلْجَم الخيل . فحبسه وحبس معه المختار بن أبى عبيدة الثقفىّ ، فقال ميثَم للمختار وهما فى حبس ابن زياد : إنّك تُفلِت وتخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام ، فتقتل هذا الجبّار الذى نحن فى سجنه[٢] ، وتطأ بقدمك هذه على جَبْهته وخَدّيه . فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتلَه طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد ، يأمره بتخلية سبيله ؛ وذاك أن أخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألتْ بعلَها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع ، فأمضى شفاعته ، وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد ، فوافى البريد ، وقد أخرج ليضرب عنقه ، فأطلق . وأما ميثم فأخرج بعده ليُصْلَب ؛ وقال عبيد الله : لأمْضِيَنّ حكْم أبى تراب فيه ، فلقيَه رجل ، فقال له : ما كان أغناك عن هذا يا ميثم ؟ فتبسم ، وقال : لها خلقتُ ، ولى غُذِيتْ ؛ فلما رُفِع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث ، فقال عمرو : لقد كان يقول لى : إنى مجاورك ، فكان يأمر جاريته كلّ عشية أن تكنُس تحت خشبته وترشّه ، وتجمّر بالمجمر تحته ، فجعل ميثم يحدّث بفضائل بنى هاشم ، ومخازى

(١ — ١) ساقط من ا

(٢) كذا فى ا : ج ، وفى ب : « حبسه » .

بنى أميّة ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هـذا العبد ، فقال : ألجموه ، فألجم ، فـكان أول خَلق الله ألجِم فى الإسلام . فلمـا كان فى اليوم الثانى فاضت مُنخراه وفمه دما ، فلما كان فى اليوم الثالث طُعِن بحربة فمـات .

وكان قَتْلُ ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام .

قال إبراهيم : وحدّثنى إبراهيم بن العباس النَّهْدِىّ ، حدّثنى مبـارك البَجَلىّ ، عن أبى بكر بن عياش ، قال: حدثنى المجالد ، عن الشّعبى ، عن زياد بن النضر الحارثىّ ، قال: كنتُ عند زياد ، وقد أُتِىَ برشيد الهجَرىّ — وكان من خَواصّ أصحاب علىّ عليه السلام — فقال له زياد : ماقال خليلُك لك إنّا فاعلون بك ؟ قال : تَقْطعُون يدىّ ورِجْلىّ ، وتصلُبونى ، فقال زياد : أمَا والله لأكذِّبنّ حديثه ؛ خلّوا سبيلَه ، فلما أراد أن يخرُجَ قال : ردُّوه ، لانجد شيئاً أصلحَ مما قال لك صاحبُك ؛ إنّك لاتزال تبغى لنا سوءا إن بقيت ؛ اقطعوا يديْه ورجْليْه ؛ فقطَعوا يديه ورجليْه ، وهو يتكلّم ، فقال : اصلُبوه خَنْقا فى عُنُقه ، فقال رشيد: قد بقى لِى عندكم شىء ماأراكم فعلتموه ، فقال زياد : اقطعوا لسانَه ، فلما أخرجوا لسانه ليُقطع قال : نَفِّسُوا عَنِّى أتـكلّم كلمة واحدة ، فنفّسوا عنه ، فقال : هـذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرَنى بقطع لسانى . فقطعوا لسانه وصلبوه .

وروى أبو داود الطَّيَالسىّ ، عن سليمان بن رُزَيق ، عن عبد العزيز بن صُهيب ، قال: حدثنى أبو العالية ، قال : حدّثنى مزرع[1] صاحبُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: لَيُقبِلَنّ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداء ، خُسِفَ بهم . قال أبو العالية : فقلت له : إنّك لَتُحدِّثُنِي بالغيب ! فقال : احفَظْ ماأقوله لك ، فإنما حدَّثنى به الثِّقة علىّ بن أبى طالب . وحدثنى أيضا شيئاً آخر : لَيُؤْخَذَنّ رجل فليقتلنّ ولَيُصْلَبَنَّ بين شُرْفتيْن من شُرَفِ المسجد؛ فقلت له : إنّك لَتحَدِّثُنِي بالغيب ! فقال : احفَظْ ماأقول لك ؛ قال أبو العالية : فوالله ماأتتْ

(١) مزرع ، ذكره صاحب تنقيح المقال ٢ : ٢١٠ ، ولم يزد على ما نقله من خبره هنا .

علينا جُمّة حتى أُخذ مزرع ، فقتل وصُلِب بين شرفتين من شُرَف المسْجد .

قلت : حديث الخَسْف بالجيش قد خرّجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يَعُوذ قومٌ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء[(١)] خُسِف بهم » ، فقلت : يارسولَ الله ، لعلّ فيهم المكرَه أو الكاره ،فقال : « يُخْسَف بهم ،ولكن يحشرون » ـأو قال : « يُبْعَثون على نياتهم[(٢)] يوم القيامة » .

قال : فسئِل أبو جعفر محمد بن على : أهى بيداء من الأرض ؟ فقال : كَلّا والله إنها بيداء المدينة . أخرج البخارى بعضه وأخرج مسلم الباقى[(٣)] .

وروى محمد بن موسى العَنَزِىّ ، قال : كان مالك بن ضَمْرة الرؤاسىّ من أصحاب علىّ عليه السلام، وممن استبطن من جهته علما كثيرا ، وكان أيضا قد صَحِب أبا ذَرّ ، فأخذمن علمه ، وكان يقول فى أيام بنى أمية : اللهم لاتجعلنى أشْقَى الثلاثة ، فيقال له : وما الثلاثة ؟ فيقول: رجلٌ يرمَى من فوقطَمارٍ[(٤)] ، ورجل تُقطعُ يداه ورجلاه ولسانه ويصلب،ورجل يموت على فراشه . فكان من الناس مَن يهزأ به ، ويقول : هذامن أكاذيبأبى تراب .

قال : وكان الذى رُمِى به من طَمارٍ هانىء بن عُرْوة[(٥)] ، والذى قُطِع وصلب رشيد الهجرىّ ، ومات مالك على فراشه .

* * *

الفصل الرابع وهو من قوله : « فنظرت فى أمرى .. » إلى آخر الكلام ، هذه كلمات

(١) البيداء : كل أرض ملساء لاشىء فيها . (٢) لفظ مسلم : « ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته » .

(٣) صحيح مسلم ٤ : ٢٢٠٩ . (٤) طمار ، كقطام : المكان المرتفع .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى معجم البلدان ٦ : ٥٨ أن الذى رمى به من طمار مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، أمر بإلقائه عبيد الله بن زياد ، وأنشد :

فإن كُنتِ ماتَدْرينَ ماالموتُ فانظرى ... إلى هانئٍ فى السُّوقِ وابن عَقيـل

إلى بَطَلٍ قد عَقّر السّيفُ وجهَه ... وآخرَ يَهْوِى مِنْ طَمار قتيـل .

مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه كان معهودا إليه ألّا ينازِعَ فى الأمر ، ولا يثيرَ فتنة ، بل يطلبه بالرفق ؛ فإن حَصَل له وإلا أمسك .

هكذا كان يقول عليه السلام ، وقوله الحق ، وتأويلُ هذه الكلمات : فنظرت فإذا طاعتِي لرسول الله صلى الله عليه ، أى وجوب طاعتى ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

قد سَبَقَت بيعتى للقوم ؛ أى وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه علىّ ، ووجوب امتثالى أمرَه سابقٌ على بَيْعَتِى للقوم ، فلا سبيل لى إلى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله أمرَنى بها .

وإذا الميثاق فى عُنُقى لغيرى ؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ علىّ الميثاق بترك الشِّقاق والمنازعة ، فلم يحلّ لى أن أتعدّى أمرَه ، أو أخالف نهيَه .

فإن قيل : فهذا تصريح بمذهب الإمامية .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين ؛ لأنّهم يزعمون أنه الأفضل والأحقّ بالإمامة ، وأنّه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أنّ الأصلح للمكلّفين من تقديم المفضول عليه ، لكان مَنْ تقدّم عليه هالكا ، فرسول الله صلى الله عليه وآله أخبره أنّ الإمامة حقّه ، وأنه أولى بها من الناس أجمعين ، وأعلمه أنّ فى تقديم غيره وصَبْره على التأخّر عنها مصلحةً للدين راجعة إلى المكلّفين ، وأنّه يجب عليه أن يُمسك عن طلبها ، ويُغْضِى عنها لمن هو دون مَرْتَبته ، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يخرجه تقدّم مَنْ تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحقّ . وقد صرّح شيخنا أبو القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى بهذا ، وصرّح به تلامذتُه ، وقالوا : لو نازع عَقِيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ سيفه لحكَمنا بهلاك كلّ

من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك مَنْ نازعه حين أظهر نفسه ، ولـكنّه مالك الأمر ، وصاحب الخلافة ؛ إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق مَنْ ينازعه فيها ، وإذا أمسك عنها وجب علينا القولُ بعدالة مَنْ أغضى له عليها ، وحكمه فى ذلك حكمُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت عنه فى الأخبار الصحيحة أنه قال : « علىّ مع الحقّ ، والحق مع علىٍّ يدور حيثما دار » ، وقال له غير مرة : « حربُك حربى وسِلْمك سِلْمى » .

وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندى ، وبه أقول .

(٣٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الحَقَّ ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى . وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا[1] الضَّلَالُ ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى .

فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّه .

* * *

الشَّرْحُ :

هذان فصلان ، أحدهما غير ملتئم مع الآخر ، بل مبتور عنه ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطا ، ومراده أن يأتيَ بفصيح كلامه عليه السلام ، وما يجري مجرَى الخطابة والكتابة ، فلهذا يقعُ في الفصل الواحد الكلامُ الذي لا يناسِبُ بعضُه بعضا ؛ وقد قال الرضيّ ذلك في خطبة الكتاب[2] .

* * *

أما الفصل الأول فهو الكلام في الشُّبْهة ، ولماذا سمِّيت شبهة ، قال عليه السلام : « لأنّها تُشْبِه الحقّ » ؛ وهذا هو محضُ ما يقوله المتكلّمون ؛ ولهذا يسمّون ما يحتجّ به أهلُ الحقّ دليلا ، ويسمون ما يحتجّ به أهل الباطل شُبهة .

قال : « فأمّا أولياء الله فضياؤهم في حلّ الشبهة اليقين ، ودليلُهم سَمْتُ الهُدى » ؛ وهذا حقّ لأنَّ من اعتبر مقدّمات الشُّبْهَة ، وراعى الأمور اليقينيّة ، وطلَب المقدِّمات المعلومة قطعا ، انحلّت الشُّبْهة ، وظهر له فسادهامِنْ أين هو ؟ ثم قال : «وأما أعداء الله فدعاؤهم

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .
(٢) الجزء الأول ص ٥٣ .

الضّلال ، ودليلهم العَمَى ، وهذا حقّ ؛ لأن المبطِل ينظر فى الشُّبْهة ، لا نظر مَنْ راعى الأمور اليقينية ، ويحلّل المقدمات إلى القضايا المعلومة ؛ بل يَغْلِبُ عليه حبّ المذهب ، وعصبية أسلافه ، وإيثار نصره مَنْ قد ألزم بنصرته ، فذاك هو العمى والضلال ، اللّذان أشار أمير المؤمنين إليهما ، فلا تنحلّ الشبهة له ، وتزداد عقيدته فسادا ، وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية الكلامَ فى توليد النظر للعلم ؛ وأنه لا يولّد الجهل .

***

الفصل الثانى ، قوله : « فما ينجُو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطَى البقاء مَنْ أحبّه » ؛ هذا كلام أجنبىّ عمّا تقدم ، وهو مأخوذ مِن قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٤

(٢) سورة النساء ٧٨ .

(٣) سورة الأعراف ٣٤ .

(٣٩)

ومن خطبة له عليه السلام

الأصلُ :

مُنِيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ ، وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ ، لَاأَبَا لَكُمْ ! مَاتَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ ! أَمَادِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَاحَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً ، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا ، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْراً ، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَأْرٌ ، وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَام .

دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ؛ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السّلام : « مُتَذَائِبٌ » أى مُضْطَرِب ؛ مِن قولهم : تَذَاءبَتِ الرِّيحُ ، أى اضْطَرَبَ هُبُوبهَا ، وَمِنه سُمِّيَ الذِّئْبُ ذِئْباً لِاضْطِرابِ مِشْيَتِه .

* * *

الشَّرحُ :

مُنِيتُ ، أى بُلِيتُ . وتُحْمِشُكم : تُغْضِبُكم ، أحمشه أى أغضبه . والمستصرِخ : المستنصر . والمتغوّث : القائل : واغوثاه !

والـ جرة : صوت يردِّده البعير فى حَنْجَرته ؛ وأكثرُ مايكون ذلك عند الإعياء والتعب . والجمل الأسَرّ : الذى بِكِرْكِرَتِه دَبَرة[1] . والنِّضو : البعير المهزول والأدْبَر : الذى به دَبَر ؛ وهو المعقور من القَتَب وغيره .

هذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام فى غارة النّعمان بن بشير الأنصارىّ على عين التّمر[2] .

* * *

[أمر النعمان بن بشير مع علىّ ومالك بن كعب الأرحبىّ]

ذكر صاحبُ الغارات أنّ النعمانَ بن بشير قَدِم هو وأبوهريرةَ على علىّ عليه السلام من عند معاوية ، بعد أبى مسلم الخَوْلانىّ ، يسألانه أن يدفع قَتلةَ عثمان إلى معاوية ليُقيدَهم بعثمان ؛ لعلّ الحرب أنْ تُطفَأ ؛ ويصطلح الناس ؛ وإنما أراد معاويةُ أن يرجعَ مثلُ النّعمان ، وأبى هريرة من عند علىّ عليه السلام إلى الناس ، وهمْ لمعاويةَ عاذِرون ولعلىّ لائمون ؛ وقد علِم معاوية أنّ عليًّا لا يدفع قَتلة عثمان إليه ، فأراد أن يكون هذان يشهدان له عند أهل الشام بذلك ، وأن يظهر عذره ، فقال لهما : ائتيا عليًّا فانشُداه الله ، وسَلاه بالله لَمَا دفعَ إلينا قتلةَ عثمان ؛ فإنّه قد آواهم ومنعهم ؛ ثم لا حربَ بيننا وبينه ، فإن أبى فكونوا شهداء الله عليه .

وأقبلا عَلَى الناس فأعلماهم ذلك ، فأتيا إلى علىّ عليه السلام ، فدخلا عليه ، فقال له أبو هريرة : ياأبا حسَن ، إنّ الله قد جعل لك فى الإسلام فضلا وشرفا ؛ أنتَ ابنُ عم محمد رسول الله صلى الله عليه ؛ وقد بعثَنا إليك ابنُ عمّك معاوية ، يسألك أمرا تسكُن به هذه

(1) الكركرة ، بالكسر : زور البعير . والدبرة : قرحة الدابة .

(2) عين التمر : بلدة فى طرف البادية ؛ على غربى الفرات .

الحرب ، ويُصلح الله تعالى ذاتَ البين ؛ أن تدفع إليه قتلةَ عثمان ابن عمه ، فيقتلَهم به ، ويجمع الله تعالى أمرَك وأمره ، ويصلح بينكم ، وتَسْلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة . ثم تكلّم النعمانُ بنحوٍ من ذلك[1] .

فقال لهما : دَعَا الكلام فى هذا ؛ حدِّثنى عنك يانعمان ، أنت أهدى قومك سبيلا ؟ يعنى الأنصار ، قال : لا ، قال : فكلّ قومك قد اتّبعنى إلّا شُذّاذاً ؛ منهم ثلاثة أو أربعة ؛ أفتكون أنت من الشُذّاذ ! فقال النعمان : أصلحك الله ، إنّما جئتُ لأكونَ معك وألزمَك ؛ وقد كان معاويةُ سألنى أن أؤدِّىَ هذا الكلام ، ورجوتُ أن يكونَ لى موقف أجتمع فيه معك ، وطمعتُ أن يُجْرِىَ اللهُ تعالى بينكما صلحا ؛ فإذا كان غير ذلك رأيُك ، فأنا مُلازمك وكائن معك .

فأما أبو هريرةَ فلحِق بالشام ، وأقام النعمانُ عند علىّ عليه السلام ، فأخبرَ أبو هريرة معاويةَ بالخبر ، فأمره أن يُعلِم الناس ، ففعل ، وأقام النعمان بعدَه شهرا ، ثم خرج فارّا من علىّ عليه السلام ، حتى إذا مَرّ بعين التَّمْر أخذه مالك بن كعب الأرحبى — وكان عامل علىّ عليه السلام عليها — فأرادَ حبسه ، وقال له : مامرّ بك بيننا[2] ! قال : إنّما أنا رسولٌ بلّغتُ رسالةَ صاحبى ، ثم انصرفت ، فحبسه وقال : كما أنتَ ؛ حتى أكتبَ إلى علىّ فيك . فناشده ، وعَظُم عليه أن يكتبَ إلى علىّ فيه ، فأرسل النعمانُ إلى قَرَظَة بن كعب الأنصارىّ — وهو كاتب عين التَّمْر يجبِى خراجَها لعلىّ عليه السلام — فجاءه مسرعا ، فقال لمالك بن كعب : خلِّ سبيلَ ابن عمى ؛ يرحمك الله ! فقال : ياقَرَظَة ؛ اتّق الله ولا تتكلّم فى هذا ، فإنه لو كان من عُبّاد الأنصار ونُسّاكهم لم يهرُب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين .

فلم يزلْ به يقسِم عليه حتى خلّى سبيلَه ، وقال له : ياهذا ، لك الأمان اليوم والليلة .

---

(١) ب : « هذا » .
(٢) ب : « هاهنا » .

وغدا ، والله إنْ أدركتُك بعـدَها لأضربنّ عنقك ، فخرج مسرعا لا يلوِى على شىء ، وذهبتْ به راحلتُه ، فلم يدرِ أين يتسكّعُ من الأرض ثلاثة أيام ، لا يعلم أين هو ! فـكان النعمان يحدِّث بعـد ذلك ، يقول : والله ما علمتُ أين أنا ، حتّى سمعت قول قائلة تقول وهى تطحَن :

شَرِبْتُ مع الجوزاءِ كأساً رَوِيَّةً [١] وَأخْرَى مع الشِّعرى إذا ما اسْتَقَلَّتِ
مُعَتّقَةً كانت قريشٌ تَصُونُهـــا فلمّا استحلُّوا قتــلَ عثمانَ حلّتِ

فعلمتُ أنى عند حىّ من أصحاب معاوية ، وإذا الماء لبنى القَيْن ، فعلمت أنى قد انتهيتُ إلى الماء [٢] .

ثم قدِم على معاوية فخبَّره بما لَقِىَ ، ولم يزل معه مصاحباً ؛ لم يجاهِدْ عليا ، ويتتبّع قتلة عثمان ؛ حتى غزَا الضّحاكُ بنُ قيس أرضَ العراق ؛ ثم انصرف إلى معاوية ؛ وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة : أمَا من رجل أبعثُ به [٣] بجريدة خيل ؛ حتى يُغِيرَ على شاطئ الفرات ، فإنّ الله يُرعِبُ بها أهلَ العراق ! فقال له النعمان : فابْعثنى ؛ فإنّ لى فى قتالهم نيّة وهوًى ـ وكان النعمان عثمانيا ـ قال : فانتدب على اسمِ الله ، فانتدَبَ ونَدَب معه ألفَىْ رجل ، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات ، وألّا يُغير إلا على مَسْلَحة ، وأن يعجّل الرجوع .

فأقبلَ النعمانُ بن بشير ؛ حتى دنا من عين التَّمْر ، وبها مالك بن كعب الأرحبىّ الذى جرى له معه ما جَرى [٤] ، ومع مالك ألفُ رجل ؛ وقد أذِن لهم ، فرجعوا إلى الـكوفة ، فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها ، فـكتب مالك إلى علىّ عليه السلام : أما بعد ؛ فإنّ النعمان ابن بشير ، قد نَزَل بى فى جمع كَثِيف ، فَرَ رأيَك ، سدّدك الله تعالى وثبّتك . والسلام .

فوصل الـكتابُ إلى علىّ عليه السلام ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) ب : « ردية » ، وصوابه من ج . (٢) كذا فى الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها «الأمان» .
(٣) ب : « معه » . (٤) ب : « ماذكرناه » .

اخرجُوا هـداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإنّ النعمان بن بشير قد نَزَل به فى جمع من أهل الشام ؛ ليس بالـكثير ؛ فانهضوا إلى إخوانـكم ، لعلّ اللهَ يقطعُ بـكم من الـكافرين طرَفا . ثم نزل .

فلم يخرجوا ، فأرسل إلى وُجُوههم وكُبَرائهم ، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير ، فلم يصنعوا شيئًا ، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أوْ دونها ، فقام عليه السلام ، فقال : ألا إنى مُنيت بمنْ لا يطيع . . . الفصل الذى شرحناه إلى آخره ، ثم نزل .

فدخل منزله ، فقام عدىّ بن حاتم ، فقال : هذا والله الخِذلان ؛ على هذا بايعْنا أميرَ المؤمنين ! ثم دخلَ إليه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ معى من طيّئ ألفَ رجل لا يعصوننى ؛ فإن شئتَ أن أسير بهم سرت . قال : ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للنـاس ولـكن اخرج إلى النُّخَيلة فعسكر بهم . وفرض علىّ عليه السلام لـكلّ رجل سبعمائة ؛ فاجتمع إليه ألفُ فارس ، عدا طَيّئا أصحاب عدىّ بن حاتم .

وورد عَلَى علىّ عليه السلام الخبرُ بهزيمة النّعمان بن بشير ونُصْرة مالك بن كعب ؛ فقرأ الـكتاب على أهل الـكوفة ، وحمِد الله وأثنى عليه ، ثم نظر إليهم وقال : هذا بحمْدِ الله وذمّ أكثركم .

* * *

فأما خبرُ مالك بن كعب مع النعمان بن بشير ؛ قال عبدالله بن حوزة الأزدىّ : قال : كنتُ مع مالك بن كعب حين نزل بنا النعمان بن بشير ، وهو فى ألفين ؛ وما نحن إلّا مائة فقال لنا : قاتلُوهم فى القرية ، واجعلوا الجُدُر فى ظهوركم ، ولا تلقُوا بأيديكم إلى التّهلـكة ؛ واعلموا أنّ الله تعالى ينصُر العشرة على المائة ، والمائة على الألف ، والقليل على الـكثير . ثم قال : إنّ أقرب مَنْ ها هنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قَرَظة بن كعب

ومِخْنَف بن سُلَيم ؛ فاركض إليهما ، فأعلمْهما حالنا ، وقل لهما : فلينصُرانا ما استطاعا[١] ، فأقبلتُ أركض ؛ وقد تركتهُ وأصحابَه يرمون أصحابَ ابن بشير بالنَّبْل ، فمررت بقَرَظة فاستصرختُه ، فقال : إنّما أنا صاحبُ خراج ؛ وليس عندى من أعينه به . فمضيت إلى مِخْنَف بن سليم ، فأخبرته الخبر ، فسرّح معى عبد الرحمن بن مخنف فى خمسين رجلا ، وقاتل مالكُ بن كعب النعمانَ وأصحابه إلى العصر ، فأتيناه وقد كسَر هو وأصحابُه جفونَ سيوفهم،واستقبلوا الموت[٢]،فلو أبطأنا عنهم هلكوا، فما هو إلا أنْ رآنا أهلُ الشام،وقد أقبلْنا عليهم ؛ فأخذوا ينكُصون عنهم ويرتفعون ، ورآنا مالكٌ وأصحابه ، فشدّوا عليهم حتى دفعوهم عن القَرْية ، فاستعرضناهم ، فصرعنا منهم رجالًا ثلاثة ، وارتفع القومُ عنا ، وظنّوا أنّ وراءنا مددا ؛ ولو ظنّوا أنه ليس غيرنا لأقبلوا علينا ولأهلكونا،وحال الليل بيننا وبينهم ، فانصرفوا إلى أرضهم . وكتب مالك بن كعب إلى علىّ عليه السلام:

أما بعدُ ، فإنّه نزل بنا النعمان بن بشير فى جَمْع من أهل الشام ، كالظاهر علينا ، وكان عُظْم[٣] أصحابى متفرّقين ، وكنّا للذى كان منهم آمنين ؛ فخرجنا إليهم رجالًا مصلِتين[٤] ، فقاتلناهم حتى المساء ، واستصرخْنا مِخنف بن سُليم،فبعث إلينا رجالًا من شيعة أميرالمؤمنين وولده ؛ فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا ؛ فحملنا على عدوّنا وشددنا عليهم ، فأنزل الله علينا نصرَه ، وهزم عدوّه ، وأعزّ جنده . والحمد لله رب العالمين ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

* * *

---

(١) كذا فى ا ، ح ، وفى ب : « بما استطاعا » .
(٢) ب : « واستسلموا للموت » .
(٣) عظم الشىء ؛ أى معظمه .
(٤) يقال : أصلت الرجل السيف ؛ إذا جرده من غمده .

وروى محمد بن فرات الجرْمِيّ ، عن زيد بن على عليه السلام ، قال : قال علىّ عليه السلام فى هـذه الخطبة : أيها الناس ، إنى دعوتـكم إلى الحقّ فتوليتم عنى ، وضربتكم بالدِّرّة فأعييتمونى ؛ أما إنه سَيليكم بعـدى ولاةٌ لا يرضوْن عنكم بذلك حتى يعذّبوكم بالسياط وبالحديد ، فأمّا أنا فلا أعذّبكم بهما ؛ إنه من عذّب الناس فى الدّنيا عذّبه الله فى الآخرة ؛ وآية ذلك أن يأتيَـكم صاحبُ اليمن، حتى يحلّ بين أظهركم ؛ فيأخذ العمال وعمال العمال [1]؛ رجل يقال له يوسف بن عمرو ؛ ويقوم عنـد ذلك رجـل منّا أهلَ البيت ، فانصروه فإنه داع إلى الحق .

قال : وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام .

(١) ساقطة من ب .

(٤٠)

ومن كلام له عليه السلام للخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » قال :

الأصْـلُ :

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا باطل ؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُـكْمَ إِلَّا لِلّٰهِ ،وَلَـكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ [1] . وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِن ، وَيَسْتَمْتِـعُ فِيهَا الْـكَافِر ، وَيُبَلِّغُ اللّٰهُ فِيهَا الأَجَل ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْء ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُل ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ .

وفى رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحـكيمهم قال :

حُـكْمَ اللّٰهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ .

وقال :

أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا [2] الشَّقِيُّ ؛ إِلَى أَنْ تَنْقَطِـعَ مُدَّتُه ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُه .

* * *

[اختلاف الرأى فى القول بوجوب الإمامة]

الشَّـرْحُ :

هذا نصٌّ صريح منه عليه السلام ؛ بأنّ الإمامةَ واجبة ؛ وقد اختلف الناس فى هذه

(١) ب : « لا إمرة إلا لله » وما أثبته عن ا ، ج ومخطوطة النهج .
(٢) ا : « بها » .

المسألة فقال المتكلّمون كافّة : الإمامة واجبة ؛ إلّا مايحكى عن أبي بكر الأصمّ من قدماء أصحابنا أنها غيرُ واجبة ؛ إذا تناصفت الأمة ؛ ولم تتظالم .

وقال المتأخّرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمة؛لأنه إذا كان لا يجوز فى العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم ؛ فقد قال بوجوب الرياسة على كلّ حال ؛ اللّهم إلا أن يقول : إنه يجوز أن تَستقيم أمورُ الناس من دون رئيس ؛ وهذا بعيد أن يقوله ؛ فأما طريق وجوب الإمامة ماهى ؟ فإنمشايخنا البصريّين رحمهم الله يقولون : طريق وجوبها الشرع ، وليس فى العقل ما يدلّ على وجوبها .

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى : إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة ؛ وهو قول الإمامية ، إلا أنّ الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذى توجب الإمامية منه الرياسة ، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرياسة عَلَى المكلّفين ، من حيث كان فى الرياسة مصالح دنيوية ، ودفع مضارّ دنيوية . والإمامية يُوجبون الرياسة عَلَى الله تعالى ، من حيث كان فى الرياسة لُطْف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابِق مايقوله أصحابنا ، ألَا تراه كيف علّل قوله : « لابدّ للناس من أمير » ، فقال فى تعليله : « يُجمَع به الفىء ، ويقاتَل به العدوّ وتؤمَّن به السُّبل ، ويؤخذ للضعيف من القوىّ » ! وهذه كلّها من مصالح الدنيا .

فإنْ قيل : ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام،فكيفَ يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنّهم يقولون : « لا إمرة » !

قيل : إنهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك،ويذهبون إلى أنّه لاحاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَ الله بن وهب الرّاسبيّ .

* * *

فإن قيل : فسّروا لنا ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام .

قيل : إنّ الألفاظَ كلَّها ترجع إلى إمرة الفاجر .

قال : يعمل فيها المؤمن ، أى ليست بمانعة للمؤمن من العمَل ، لأنه يمكنه أن يصلّيَ ويصوم ويتصدّق ؛ وإن كان الأمير فاجرا فى نفسه .

ثم قال : « ويستمتع فيها الكافر » أى يتمتّع بمدته ، كما قال سبحانه للكافرين : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (١) .

ويبلّغ الله فيها الأجل،لأنّ إمارة الفاجر كإمارة البرّ،فى أنّ المدة المضروبة فيها تنتهى إلى الأجل المؤقت للإنسان .

ثم قال : « ويُجمَع به الفىء ، ويُقاتَل به العدو،وتأمن به السبل ، ويُؤخذ به للضّعيف من القوىّ » ، وهذا كلّه يمكن حصوله فى إمارة الفاجر القوىّ فى نفسه،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:« إنّ الله ليؤيّد هذا الدِّينَ بالرجُل الفاجر »،وقد اتفقت المعتزلة عَلَى أنّ أمراء بنى أميّة كانوا فُجّاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد . وكان الفىء يُجْمَع بهم ، والبلاد تُفْتَح فى أيامهم ، والثغورُ الإسلامية محصنة محوطة ، والسُّبُل آمنة،والضعيف منصور على القوىّ الظالم ؛ وما ضرّ فجورُهم شيئا فى هذه الأمور. ثم قال عليه السلام : فتكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريحَ برّ بموته،أو يُستراح من فاجر بموته أو عزله .

فأما الرواية الثانية ، فإنّه قد جعل التقىّ يعمل فيها للإمرة البرّة خاصة (٢) . وباقى الكلام غنىّ عن الشرح .

* * *

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

(٢) كذا فى ج ، وهو الوجه ، وفى ب : « يعمل فيها التقى الإمرة خاصة » .

[من أخبار الخوارج أيضاً]

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدّث فى كتاب " صِفّين " ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن خالد بن حميد المصرىّ ، عن عمر مولى غَفْرة ، قال : لما رجع علىّ عليه السلام من صِفّين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى جَمُّوا[1] ، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حَرُورَاء ، فنادَوْا : لا حكْمَ إلا لله ولو كره المشركون ؛ ألا إنّ عليًّا ومعاوية أشركا فى حُكْم الله .

فأرسل علىّ عليه السلام إليهم عبدَ الله بن عباس ، فنظر فى أمرِهم وكلّمهم ، ثم رجع إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : مارأيت ؟ فقال ابنُ عباس : والله ما أدرِى ما هم ! فقال له علىّ عليه السلام : رأيتَهم منافقين ؟ قال : والله ما سيماهُم بسِيما المنافقين ؛ إنّ بينَ أعينهم لأثرَ السجود ، وهم يتأوّلون[2] القرآن . فقال علىّ عليه السلام : دَعُوهم ما لم يسفِكوا دما ، أو يغصِبوا مالا ، وأرسل إليهم : ما هذا الذى أحدثتم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نخرُجَ نحن وأنت ومَنْ كان معنا بصِفّين ثلاث ليال ، ونتُوب إلى الله من أمرِ الحَكَمين ، ثم نسير إلى معاوية ، فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه . فقال علىّ عليه السلام : فهلا قلتم هذا حين[3] بعثْنا الحَكَمين ، وأخذنا منهم العهد ، وأعطيناهمُوه ! ألا قلتم هذا حينئذ ! قالوا : كنا قد طالت الحرب علينا ، واشتدّ البأس ، وكَثُر الجراح ، وخلا الكُراع والسلاح ، فقال لهم : أفحِين اشتدّ البأس عليكم ، عاهدتم ، فلما وجدتُم الجَمام قلتم: ننقضُ العهد ! إنّ رسول الله كان يفِى للمشركين ، أفتأمرُونني بنقضِه !

فمكثوا مكانَهم لا يزالُ الواحد منهم يرجع إلى علىّ عليه السلام ، ولا يزال الآخر

(١) الجمام ، بالفتح : الراحة . (٢) ا : « ويتأولون » .
(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « حيث » .

خرج من عند علىّ عليه السلام ، فدخل واحد منهم عَلَى علىّ عليه السلام بالمسجد ،
والناس حوله ، فصاح : لا حُكم إلا لله ولو كره المشركون ، فتلفّت الناس ، فنادَى :
لا حكم إلا لله ولو كره المتلفّتون ، فرفع (١) علىّ عليه السلام رأسه إليه ، فقال :
لا حكم إلا لله ولو كره أبو حسن . فقال علىّ عليه السلام : إن أبا الحسن (٢) لا يكره
أن يكون الحكم لله (٢) ، ثم قال : حكم الله أنتظر فيكم ، فقال له الناس : هلا مِلْتَ
يا أمير المؤمنين عَلَى هؤلاء فأفنيتَهم ! فقال : إنهم لا يفنون ، إنهم لفى أصلاب الرجال
وأرحام النساء إلى يوم القيامة .

وروى أنَس بن عِياض المدنىّ ، قال : حدثنى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ،
عن أبيه عن جَدّه ، أنّ عليًّا عليه السلام كان يوما يؤمّ الناس ، وهو يجهَر بالقراءة ،
فجهر ابنُ الكوّاء من خلفه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾(٣) ، فلما جهر ابنُ الكوّاء
وهو خلفه بها سكت علىّ ، فلما أنهاها ابنُ الكواء عاد علىّ عليه السلام ، فأتم قراءته ،
فلما شرع علىّ عليه السلام فى القراءة أعاد ابن الكوّاء الجهر بتلك الآية ، فسكت علىّ ،
فلم يزالا كذلك يسكت هذا ، ويقرأ ذاك مرارا ، حتى قرأ علىّ عليه السلام : ﴿ فَٱصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(٤) ، فسكت ابن الكوّاء ، وعاد
عليه السلام إلى قراءته .

---

(١) ب : « فرجع » ، وما أثبته عن ا ، ج .
(٢ ــ ٢) ب : « لا يكره أن يكون الحكم إلا لله » .
(٣) سورة الزمر ٦٥ .
(٤) سورة الروم ٦٠ .

(٤١)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

إنَّ[1] الْوَفَاءَ تَوْءَمُ الصِّدْقِ ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ ، وَما[2] يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ .

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً ، وَنَسَبَهُم أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ .

مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقال : هذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، وهما توءمان ؛ وإنما جُعل الوفاء توءم الصدق ؛ لأنّ الوفاء صدقٌ فى الحقيقة ؛ ألَا ترى أنّه قد عاهد عَلَى أمرٍ وصدق فيه ولم يُخْلِف ؛ وكأنهما أعمّ وأخصّ ، وكل وفاء صدق وليس كلّ صدقٍ وفاء ، فإن امتنع من حيث الاصطلاح تسميةُ الوفاء صدقا فلأمرٍ آخر ؛ وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول ، ولا يكون الصدق إلاّ فى القول ؛ لأنّه نوع من أنواع الخبر ، والخبر قول .

(١) قبلها فى مخطوطة النهج : « أيها الناس » .

(٢) ب « ولا » .

ثم قال : « ولا أعلم جُنّة » أى درعا . أوقى منه ، أى أشدّ وقاية وحفظا ، لأنّ الوفىّ محفوظ من الله ، مشكور بين الناس .

ثم قال : « وما يغدر مَنْ عَلِمَ كيف المرجع » ، أى مَنْ علم الآخرة وطوَى عليها عقيدته ، منعه ذلك أن يغدِر ؛ لأنّ الغدر يُحْبِط الإيمان .

ثمّ ذكر أنّ الناس فى هذا الزمانِ ينسبون أصحاب الغدر إلى الكَيْس ، وهو الفِطْنة والذكاء ، فيقولون لمن يخدَع ويغدِر ، ولأرباب الجريرة والمكْر : هؤلاء أذكياء أكياس ؛ كما كانوا يقولون فى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وينسُبون أرباب ذلك إلى حسن الحيلة وصحّة التدبير .

ثم قال : « ما لهم قاتلَهم الله » ! دعاء عليهم .

ثم قال : قد يَرى الحوّل القلّبُ وجهَ الحيلة ، ويمنعه عنها نهىُ الله تعالى عنها ، وتحريمه بعد أن قَدَر عليها ، وأمكنه . والحوّل القلّب : الذى قد تحوّل وتقلّب فى الأمور وجرّب ، وحنّكته الخطوب والحوادث .

ثم قال : « وينتهز فُرْصتها » ، أى يبادر إلى افتراصها ويغتنمها . مَنْ لاحريجة له فى الدين ، أى ليس بذى حَرَج ، والتحرّج : التأثّم . والحريجة : التقوى ؛ وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته ، مَلَكَ أهلُ الشام الماء عليه ، والشريعة بصفّين ، وأرادوا قتْلَه وقتلَ أهل العراق عطشا ؛ فضاربَهم على الشريعة حتى مَلَكها عليهم ، وطردَهم عنها ، فقال له أهل العراق : اقتُلْهُم بسيوف العطش ، وامنعهم الماء ، وخذهم قَبْضاً بالأيدى ؛ فقال : إنّ فى حدّ السيف لغنًى عن ذلك ، وإنى لاأستحلّ منعَهم الماء . فأفْرَجَ لهم عن الماء فوردوه ، ثم قاسمهم الشريعة شَطْرَيْن بينهم وبينه . وكان الأشتر يستأذنه أن يبيّت[1] معاوية ، فيقول :

---

(١) يقال : بيت العدو ، أى قصده فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، وهو البيات .

إنّ رسول الله صلى الله عليه نهى أن يُبَيَّتَ المشركون ، وتوارث بنوه عليه السلام هذا الخلُق الأبيّ .

أراد المضاء أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبدالله[1] .

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد وُلِّيَ لأبى جعفر المنصور بعضَ أعمالٍ بفارس ، فقال له : هل عندك مال ؟ قال : لا ، قال : آلله ؟ قال : آلله . قال : خلُّوا سبيله ، فخرج ابن قَحْطبة ،وهو يقول بالفارسة : ليس هذا من رجال أبى جعفر. وقال لعبد الحميد بن لاحق : بلغنى أن عندك مالا للظلمة ، يعنى آل أبى أيوب المورياني كاتب المنصور ، فقال : مالهم عندى مال ، قال : تقُسِم بالله ! قال : نعم ، فقال : إن ظهرَ لهم عندك مال لأعدّنك كذابا[2] .

وأرسل إلى طلحة الغدريّ ـ وكان للمنصور عنده مال ـ : بلغنا ؛ أنّ عندك مالا فأْتِنا به ، فقال : أجل ، إنّ عندى مالا ، فإن أخذتَه منى أغرمَنيه أبو جعفر ، فأضرب عنه .

وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبى طالب من هذا النوع أخبار كثيرة ،وكان القوم أصحابَ دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنما يطلبونها ليقيمُوا عمود الدين بالإمرة فيها، فلم يستقم لهم ، والدنيا إلى أهلها أميل .

* * *

---

(١) هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ دخل البصرة على عهد أبى جعفر المنصور ودعا الناس إلى أخيه محمد بن عبد الله فبايعه كثيرون من أهلها، ثم استولى على الأهواز وواسط، ولم يزل بها حتى أتاه نعى أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام ، فأرسل إليه أبو جعفر قائده عيسى بن موسى ، فخرج إبراهيم لملاقاته ؛ والتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى ، وقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥ ، والمضاء أحد رجاله . مقاتل الطالبيين ٣١٥ وما بعدها ، وتاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٤٥) .

(٢) مقاتل الطالبيين ٣٣٣ .

[الأخبار والأحاديث والآيات الواردة فى مدح الوفاء وذم الغدر]

ومن الأخبار النبوية المرفوعة فى ذم الغَدْر : « ذمة المسلمين واحدة ، فإن جارت عليهم أمة منهم ، فلا تَخْفِروا جوارها ، فإنّ لكل غادر لواء يعرَف به يوم القيامة »[1].

وروى أبو هريرة ، قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يبيع طعاما فسأله: كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأمر أبا هريرة أن يدخِل فيه يدَه ، فأدخلها فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ليس منّا من غشّ » .

قال بعضُ الملوك لرسولٍ وردَ إليه من ملك آخر : أطلِعْنى على سِرّ صاحبك ، فقال : أيها الملك ، إنّا لا نستحسن الغدر ، وإنه لو حُوِّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قُبْحه ، ولكان سماجة اسمه وبشاعة ذكره ناهِيَيْن عنه .

مالك بن دينار : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة .

وقّع جعفر بن يحيى على ظهر كتابٍ كتبه علىّ بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد ، يسعى[2] فيه بالبرامكة ، فدفعه الرشيدُ إلى جعفر ، يمنّ به عليه ، وقال : أجِبْه عنه ، فكتب فى ظاهره : حبّب الله إليك الوفاء يا أخى فقد أبغضتَه ، وبغّض إليك الغدَر فقد أحببتَه ، إنّى نظرت إلى الأشياء حتى أجدَ لك فيها مشبها فلم أجد ، فرجعت إليك ، فشبّهتك بك ؛ ولقد بلغ من حسن ظنّك بالأيام أنْ أمّلْت السلامة مع البغى ، وليس هذا من عاداتها . والسلام .

كان العهد فى عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كتَبه السفّاح ، فلما طالت أيامُ المنصور ، سامه أن يخلع نفسَه من العهد ، ويقدّم محمداً المهدىّ عليه ، فكتب إليه عيسى :

بَدَتْ لِى أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُها ... أرى ما بدا منهـا سَيُمطِرُكُمْ دَمَا

(١) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ٣٠ عن الحاكم ، مع اختلاف فى الرواية .
(٢) السعى هنا : الوشاية .

وَمَا يعلَمُ العــالِى مَتَى هبطــاتُه   وإن سار فى ريح الغُرورِ مُسَلَّمــا

أبو هريرة يرفعه : « اللهمّ إنى أعوذ بك من الُجوع فبئسَ الضّجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة ! » .

وعنه مرفوعا : «المكر والخديعة والخيانة فى النار ».

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب ، عند زوال أمره : أرى أن تصير إلى هؤلاء، فلعلّك أن تنفَعنى فى مخلفى ، فقال : وكيف لِى بعلْم الناس جميعاً أنّ هذا عن رأيك ! إنّهم لَيقولون كلّهم : إنى غَدَرْتُ بك ، ثم أنشد :

وغَدْرِى ظاهرٌ لاشكّ فيه   لمبصره وعذرِى بالْمَغيبِ

فلما ظفر به عبد الله بن علىّ، قَطَع يديه ورجْليه ، ثم ضرب عُنقه .

كان يقال :لا يغدِر غادر إلّا لصغر هِمّته عن الوفاء ، واتّضاع قَدْره عن احتمال المكاره فى جَنْب نَيْل المكارم .

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام :الوفاء لأهل الغدر غَدْر ،والغدرُ بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى .

قلت : هذا إنّما يريد به إذا كان بينهما عَهْد ومُشارطة ، فغدَر أحد الفريقين ،وخاس بَشرْطه ، فإنّ للآخر أن يغدر بشرطه أيضاً ولا يفى به .

ومن شعر الحماسة ، واسم الشاعر العارق الطائى[(١)] :

---

(١) واسمه أيضاً قيس بن جروة الطائى ؛ والأبيات فى ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ . قال الشارح : « كان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق ورجع منفضا ، فمر بطيء — وكانوا فى ذمته — بكتاب عقدا كتتبه لهم ، وعهدأحكمه معهم ، فقال زرارة بن عدس له : أبيت اللعن ! أصب من هذا الحى شيئا . قال : ويلك ! إن لهم عقداً لا يجوز لنا تخطيه . فأخذ زرارة يهون أمر العهد عليه ، ويحسن الإيقاع بهم ، فلم يزل يفتل له فى الذروة والغارب معه لشيء كان فى نفسه على طيء ، حتى أصاب أذواداً ونساء ، فهجا عارق عمرو بن هند بأبيات يعصب بها رأسه فيها بالغدر الذى كان منه ، فوقعت بهاالأبيات إلى عمرو بن هند ، فتوعد عارقا وحلف أنه يقتله ، فاتصلت مقالته بعارق ، فقال هذه الأبيات» .

مَنْ مبلغٌ عَمْرو بن هِنْدٍ رسالةً إذا استحقبتْها العيسُ جاءتْ من البُعْدِ[١]
أيوعدُنى والرَّمْلُ بينى وبينَه تبيَّنْ رُويدا ما أمامَةُ من هِنْدِ[٢]
ومِنْ أجَأ حَوْلى رِعانٌ كأنّها قنابل خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومِنْ وَرْدِ[٣]
غدرتَ بأمرٍ كنتَ أنت اجْتَرَرْتَنا إليه وبئس الشيمةُ الغدر بالعهْدِ[٤]

قال أبو بكر الصديق : ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه كنّ عليه : البغى والنّكْث والمكر ؛ قال سبحانه : ﴿ يأيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أنفُسِكُمْ ﴾[٥]، وقال : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[٦]، وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[٧]

---

(١) استحقبتها : حملتها فى الحقائب .
(٢) أيوعدنى ، الاستفهام على طريق التقريع واستعظام الأمر .
(٣) أجأ : أحد جبلى طيء ، وثانيهما سلمى . والرعان : جمع رعن ؛ وهو أنف يتقدم من الجبل . والقنابل جماعات الخيل ، قال التبريزى : « جعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .
(٤) فى حماسة المرزوقى « اجتذبتنا » . وفى التبريزى : « دعوتنا » .
(٥) سورة يونس ٢٣ .
(٦) سورة الفتح ١٠ .
(٧) سورة فاطر ٤٣ .

(٤٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَخْوَفَ مَاأَخَافُ عَلَيْكُم اثنتان : اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِى الآخِرَةَ .

أَلَاوَإِنَّ الدُّنيَاقَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا. أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ؛ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُون ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَل .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

أقول : الحذَّاء : السَّريعة ، ومن النَّاس من يَرْويه : « جَذَّاء » بالجيم والذال ، أى انقَطَع دَرُّها وَخَيْرُها .

* * *

الشَّرْحُ :

الصُّبابة : بقية الماء فى الإناء . واصطبّها صابُّها ، مثل قولك : أبقاها مُبقيها أو تركها تاركها ؛ ونحو ذلك ، يقول : أخوَف ماأخافه عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل ، أمااتّباع الهوى فيصدّ عن الحق ؛ وهذا صحيح لاريب فيه ، لأنّ الهوى يُعمى البصيرة ، وقدقيل :

- بك الشيء يُعمي ويُصِمّ ، ولهذا قال بعض الصالحين : رحِمَ الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى؛
و الك لأنّ الإنسان يحبُّ نفسَه ، ومن أحبّ شيئا عَمِيَ عن عيوبه ، فلا يكاد الإنسانُ
ح عيبَ نفسه ، وقد قيل :

أَرَى كلّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ ... وَيَعْمَى عن الْعَيْبِ الَّذِى هُوَ فِيهِ

فلهذا استعان الصالحون عَلَى معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم ، علماً منهم أنّ هوى النفس
اتها يُعميها عن أن تُدْرِكَ عيبها ، وما زال الهوى مُرْدِياً قتّالا ، ولهــذا قال سبحانه :
﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[1] ، وقال صلى الله عليه وآله : « ثلاثٌ مُهلــكات :
حٌّ مُطاعٌ ، وهوًى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[2] .

وأنت إذا تأملت هلاكَ مَنْ هلك من المتــكلمين كالمجبرة والمرجئة، مع ذكائهم وفطنتهم
اشتغالهم بالعلوم ، عرفت أنه لا سبب لهلاكهم إلا هوى الأنفس ، وحبّهم الانتصار للمذهب
لذى قد ألفوه ، وقد رأسوا بطريقه ، وصارت لهم الأتباع والتلامذة ،وأقبلت الدنيا عليهم،
عدّهم السلاطين علماء ورؤساء ، فيــكرهون نقض ذلك كلّه وإبطاله ، ويحبون الانتصار
تلك المذاهب والآراء التى نشئوا عليها ، وعرفوا بها ، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه بطريقها،
يخافون عار الانتقال عن المذهب ، وأن يشتفيَ بهم الخصوم ويقرّعهم الأعداء ؛ ومن
أنصفَ عَلِمَ أنّ الذى ذكرناه حقّ . وأما طولُ الأمل فينسِى الآخرة ؛ وهذا حقّ ،لأن الذهن
إذا انصرف إلى الأمل، ومدّ الإنسان فى مداه ، فإنه لا يذكر الآخرة ، بل يصير مستغرق
الوقت بأحوال الدنيا ، وما يرجو حصوله منها فى مستقبل الزمان .

---

(١) سورة النازعات ٤٠ .
(٢) كذا أورد الحديث مختصراً ، ونقله السيوطى فى الجامع الصغير (١ : ٢٣٦) بهــذه الرواية :
« ثلاث مهلــكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ؛ وثلاث درجات ؛ فأما المهلكات فشح مطاع ،
وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات . . . » إلى آخر الحديث .

ومن كلام مِسعر بن كِدام : كم مِن مُستَقبِل يوما ليس يستكمِلُه ، ومنتظرٍ غدا ليس من أجَلِه ! ولو رأيتم الأجل ومسيرَه أبغضتم الأملَ وغروره .

وكان يقال : تسويف الأمل غِرار ، وتسويل المحال ضِرار .

ومن الشعر المنسوب إلى علىّ عليه السلام :

غَرّ جَهُولًا أملُهْ ... يموتُ مَنْ جَا أجلُهْ

وَمَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ ... لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ

وَمَا بقاء آخِرٍ ... قَدْ غَابَ عَنْهُ أوّلُهْ

والمرء لا يصحَبُهُ ... فى القَبْرِ إلا عَمَلُهْ

وقال أبو العتاهية :

لا تأمَنِ الموتَ فى لحظٍ وَلَا نَفَسٍ ... ولو تمنّعْتَ بالحُجّاب والحَرَس(١)

واعْلَمْ بأنّ سِهامَ الموتِ قَاصِدَةٌ ... لِكُلِّ مُدّرِعٍ مِنّا ومُتّرِسِ

مابالُ دينك تَرْضَى أن تُدَنِّسَهُ ... وَثَوْبُ لُبْسِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ !

تَرْجُو النَّجاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِى عَلَى اليَبَسِ

ومن الحديث المرفوع : « أيّها النّاس إنّ الأعمالَ تُطوَى ، والأعمار تَفْنى ، والأبدانَ تَبْلَى فى الثرى ، وإن الليل والنهار يترا كضان ترا كُضَ الفرقدين ، يقرّبان كلَّ بعيد ، ويُخْلِقان كل جديد ؛ وفى ذلك ماألْهَى عن الأمل ، وأذكرك بحُلول الأجل » .

وقال بعض الصالحين : بقاؤك إلى فناء ، وفناؤك إلى بقاء ، فخذ من فنائك الذى لا يبقى ، لبقائك الذى لا يفنى .

وقال بعضهم : اغتنم تنفُّس الأجل ، وإمكان العمل ، واقطع ذِكْرَ المعاذير والعلَل ؛ ودع تسويفَ الأمانى والأمل ؛ فإنك فى نفسٍ معدود ، وعمْرٍ محدود ، ليس بممدود .

وقال بعضهم : اعمل عَمل المرتحل ، فإنّ حادىَ الموت يحدُوك ليوم لا يعدوك .

(١) ديوانه ١٣٣ .

ثم قال عليه السلام : «ألا إن الدنيا قد أدبرت حذّاء » بالحاء والذال المعجمة ؛ وهى لسريعة ، وقطاة حذّاء : خفّ ريشُ ذَنَبها ، ورَجُل أحذّ : أى خفيف اليد ، وقد رُوى ، « قد أدبرت جذّاء » بالجيم ؛ أى قد انقطع خَيْرُها ودَرّها .

ثم قال : إن كل ولد سيلْحَق بأمّه يوم القيامة ، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا .

ثم قال : «اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » ، وهذا من باب المقابلة فى علم البيان[1] .

(١) هنا آخر الجزء الثانى فى نسخة ا ، وفيها بعد هذه الكلمة : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة »

(٤٣)

ومن كلام له عليه السلام ، وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام ، بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجليّ :

الأصْلُ :

إنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ ٱلشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَلَـكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً ، وَٱلرَّأْيُ مَعَ ٱلْأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا ، وَلَا أَكْرَهُ لَـكُمُ ٱلْإِعْدَادَ .

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا ٱلْأَمْرِ وَعَيْنَهُ ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ [١] إِلَّا ٱلْقِتَالَ أَوِ ٱلْـكُفْرَ [٢] بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ [٢] .

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً ، وَأَوْجَدَ النَّاسَ [٣] مَقَالًا فَقَالُوا ، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

أَرْوِدوا ، أى ارفُقوا ، أرْوَد فى السّير إرواداً ، أى سار برِفْق ، والأناة : التثبّت والتأنّى . ونهيه لهم عن الاستعداد ، وقوله بعد : « ولا أكره لـكم الإعداد » غيرُ متناقض ، لأنه كَره منهم إظهار الاستعداد والجَهْر به ، ولم يـكره الإعداد فى السّر ، وعلى وجه الخفاء

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا : « فلم أر إلا القتال » ، وفى ج : « فلم أرلى إلا القتال » .

(٢ ــ ٢) كذا فى ب ، وهو ساقط من ا ، ج .

(٣) مخطوطة النهج . « للناس » .

والكتمان ؛ ويمكن أن يقال إنّه كره استعداد نفسه ، ولم يكره إعداد أصحابه ؛ وهذان متغايران . وهذا الوجهُ اختاره القطب الراونديّ .

ولقائل أن يقول : التعليلُ الذى علّل به عليه السلام يقتضى كراهيَة الأمْرين معا ، وهو أن يتّصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السّلم إلى الحرب ؛ بل ينبغى أن تكونَ كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولَهم وآلات حربهم أَوْلَى؛ لأنّ شياع ذلك أعظمُ من شياع استعداده وحده ، لأنه وحدَه يمكن أن يكتم استعداده ، وأما استعداد العساكر العظيمة ، فلا يمكن أن يُكْتَمَ ، فيكون اتّصالُه وانتقاله إلى أهل الشام أسرَع ، فيكون إغلاق الشام عن باب خيرٍ إن أرادوه أقرب ؛ والوجه فى الجمع بين اللفظتين ما قدمناه .

وأما قوله عليه السلام : « ضربت أنفَ هذا الأمر وعينَه » ، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء فى البحث والتأمّل والفِكْر ؛ وإنما خَصّ الأنف والعين ، لأنهما صورة الوجه ، والذى يتأمّل من الإنسان إنما هو وجهه .

وأما قوله : « ليس إلّا القتالُ أو الكفر » فلأنّ النهيَ عن المنكَر واجبٌ على الإمام ، ولا يجوز له الإقرار عليه ، فإن تركَه فَسَق ، ووجبَ عزلهُ عن الإمامة .

وقوله : «أو الكفر»من باب المبالغة؛ وإنماهو القتال أو الفِسْق ، فسمّى الفِسْق كفرا تغليظا وتشديداً فى الزجر عنه .

وقوله عليه السلام : « أوجد النّاس مقالا » ، أىْ جعلَهم واجدين له (١) .

وقال الراونديّ : أوجد ها هنا بمعنى «أغضب» . وهذا غير صحيح ، لأنه لا شىء ينصب به « مقالا » إذا كان بمعنى « أغضب » . والوالى المشار إليه عثمان .

---

(١) عبارة ابن ميثم : « أى جعل لهم بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا » .

[ذكر ما أورده القاضي عبد الجبار من دفع ما تعلق به الناس على عثمان من الأحداث]

يجب أن نذكر ها هنا أحداثه ، وما يقوله أصحابُنا فى تأويلاتها ، وما تكلَّم به المرتضى فى كتاب " الشافى " فى هذا المعنى ، فنقول :

إنّ قاضيَ[(١)] القضاة رحمه الله تعالى ، قال فى " المغنى " قبل الكلام فى تفصيل هذه الأحداث كلاما مجملا ، معناه أنّ كل مَنْ تثبت عدالته ووجب تولّيه إمّا على القطع وإمّا على الظاهر فغير جائزٍ أن يُعدَل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمرٍ متيقَّن يقتضى العدولَ عنها ، يبيّن ذلك أنّ مَنْ شاهدناه على ما يوجب الظاهر تولّيه وتعظيمه يجب أن يبقَى فيه على هذه الطريقة ، وإن غاب عنّا . وقد عرفنا أنّهُ مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرًّا على حالته ، ويجوز أن يكون منتقلا ، ولم يقدح هذا التجويز فى وجوب ماذكرناه .

ثم قال : فالحدث الذى يُوجِب الانتقال عن التعظيم والتولّى إذا كان من باب محتمَل لم يجز الانتقال لأجله . والأحوال المتقرّرة فى النفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن نتولّاه أقوى فى باب الإمارة من الأمور المتجدّدة ؛ فإنّ مثلَ فرقد السَّبَخىّ[(٢)] ، ومالك ابن دينار[(٣)] لو شوهدا فى دارٍ فيها منكَر اَقوِىَ فى الظّنّ حضورهما للتغيير والإنكار ؛

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمدانى ، صاحب كتاب «المغنى» فى الجدل ؛ وإمام أهل المعتزلة فى زمانه ، توفى سنة ٤١٥ . طبقات الشافعية ٣ : ٢١٩ .

(٢) السبخى ، بفتح السين والباء الموحدة ، وفى آخرها خاء معجمة : منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، وهو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى ، من زهاد البصرة ، ومات سنة ١٣١ معجم البلدان ٥ : ٢٧ .

(٣) هو أبو يحيى مالك بن دينار ، ؛ وكان من كبار الزهاد والوعاظ ؛ روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين ، توفى سنة ١٣٠ . صفة الصفوة ٣ : ١٩٧ .

أو على وجه الإكراه أو الغلط ؛ ولو كان الحاضر هناك مَنْ عُـلِم من حاله الاختلاط بالمنـكر لجوّز حضوره للفساد ؛ بل كان ذلك هو الظاهر من حاله .

ثم قال : واعلم أن الـكلامَ فيما يُدّعى من الحدَث والتغيّر فيمن ثبت توليه ؛ قد يكونُ من وجهين :

أحدُ هما : هل علم بذلك أم لا ؟

والثانى : أنّه مع يقين حصوله : هل هو حَدَثٌ يؤثّر فى العدالة أم لا ؟

ولا فرق بَيْن تجويز ألّا يكون حـدث أصلا ، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألّا يكون حدثا .

ثم قال : كلّ محتمل لو أخبر الفاعل أنّه فعله على أحد الوجهين ، وكان يغلِبُ على الظّن صدقه لوجب تصديقه ، فإذا عرف من حاله المتقررة فى النّفوس مايطابق ذلك جرَى مجرى الإقرار ؛ بل ربما كان أقوى ؛ ومتى لم نسلك هذه الطريقة فى الأمور المشتبهة لم يصحّ فى أكثر من نتولّاه ونعظّمه أن تسلم حاله عندنا ، فإنّا لو رأينا من يُظنّ به الخـير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق لـكان ذلك من باب المحتمل ؛ فإذا كان لو أخبر أنّها أخته أو امرأته اوجب ألا نحول عن توليه ، فـكذلك إذا كان قد تقدّم فى النّفوس سترُه وصلاحه ؛ فالواجب أنْ نحمِلَه على هذا الوجه .

ثم قال : وقول الإمام له مزّية فى هذا الباب ؛ لأنه آكد من غيره ، وأمّا ما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه وإن لم يـكن مقطوعا به يؤثّر فى هذا الباب ، ويكون أقوَى مما تقدّم .

ثم قال : وقد طعن الطاعنون فيه بأمور متنوعة مختلفة ؛ ونحن نقدّم على تلك المطاعن كلاما مُجملا ؛ يبين بطلانها على الجلة ، ثم نتـكلم عن تفصيلها .

قال : وذلك أنّ شيخنا أبا علىّ[1] رحمه الله تعالى قد قال : لو كانت هذه الأحداث مما تُوجِب طعنا على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذى ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلا يُنصَب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته ؛ فإنه لاخلاف أنّه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه ، أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه ، فلما علمنا أنّ طلبَهم لإقامة إمام إنّما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبلُ والتمكن قائم ، علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث .

قال : وليس لأحدٍ أن يقول : إنّهم لم يتمكّنوا من ذلك ؛ لأنّ المتعالَم من حالهم أنّهم حصروه ومنعوه من التمكّن من نفسه ، ومن التصرّف فى سلطانه ؛ خصوصا والخصوم يدّعون أنّ الجميعَ كانوا على قول واحد فى خَلْعه والبراءة منه .

قال : ومعلوم من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حوصر فيها وقتِل ، بل كانت تحصل من قَبْل حالا بعد حال ، فلو كان ذلك يُوجِب الخلع والبراءة لما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه ؛ ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم .

قال : فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصُل البراءة والخلعُ من أول الوقت الذى حصَل منه ما أوجب ذلك ، وألّا ينتظر حصول غيره من الأحداث ، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حدّ إلا وينتظر غيره .

ثم ذكر أنّ إمساكهم عن ذلك إذا تيقّنوا الأحداث منه يُوجب نسبةَ الجميع إلى الخطأ والضلال. ولا يمكنهم أن يقولوا: إنّ علمهم بذلك إنما حصل فى الوقت الذى حُصِر ومُنِع ؛ لأنّ من جملة الأحداث التى يذكرونها ما تقدم عن هذه الحال ؛ بل كلها أو جلّها تقدم هذا الوقت ؛ وإنما يمكنهم أن يتعلّقوا فيما حدث فى هذا الوقت بما يذكرونه من

(١) هو محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، شيخ المعتزلة . توفى سنة ٣٠٣ . شذرات الذهب ٢ : ٢٤١ .

حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبى سَرْح بالقتل ، وما أوجب كون ذلك حدثا يوجِبُ كونَ غيره حدثا ، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل ؛ واحتمالُ المتقدِّم للتأويل كاحتمال المتأخّر .

ثم قال : وبعد ؛ فليس يخلو من أن يَدّعوا أنّ طلب الخلع وقع من كلّ الأمة أو من بعضهم ؛ فإن ادّعَوْا ذلك فى بعض الأمة ،فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالُها بلا خلاف ، لأنّ الخطأ جائز على بعض الأمة ، وإن ادعَوْا فى ذلك الإجماع لم يصح ؛ لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومَنْ كان ينصره، ولا يمكن إخراجه من الإجماع ، بأن يقال : إنه كان على باطل ؛ لأن بالإجماع يتوصّل إلى ذلك ، ولم يثبت.

ثم قال : على أنّ الظاهر من حال الصحابة أنّها كانت بين فريقين ؛ أمّا مَنْ نصره، فقد رُوِى عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار : ائذن لنا بنصرك. ورُوى مثل ذلك عن ابن عمر وأبى هريرة والمغيرة بن شعبة ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ إلا إنه لو ضُيِّق عليهم الأمر فى الدفع ماقعدوا ، بل المتعالَم من حالهم ذلك .

ثم ذكر مارُوِى من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه ، وأنه لما قُتِل لامَهما عليه السلام على وصول القوم إليه ، ظنا منه أنهما قصّرا .

وذكر أنّ أصحابَ الحديث يروون عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : «ستكونُ فتنة واختلاف ، وإنّ عثمان وأصحابَه يومئذ على الهدى» . ومارُوِىَ عن عائشة من قولها: « قُتِل والله مظلوما » .

قال : ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث فى ذلك ؛ لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه ؛ نحو دعواهم أن جميعَ الصحابة كانوا عليه ؛ لأنّ ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد ؛ وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ماثبت من أحواله السليمة ،ووجوب توليه .

قال : ولا يجوز أن يعدَل عن تعظيمه وصحّة إمامته بأمور محتمَلة ؛ فلاشىء مما ذكروه إلّا ويحتمل الوجه الصحيح .

ثم ذكر أنّ للإمام أن يجتهدَ برأيه فى الأمور المنُوطة به ، ويعمل فيها على غالب ظنه؛ وقد يكون مصيبا ، وإن أفضتْ إلى عاقبة مذمومة .

فهذه جملة ماذكره قاضى القضاة رحمه الله تعالى فى "المغنى" من الكلام إجمالا فى دفع مايُتعلق به على عثمان من الأحداث[١] .

***

[رد المرتضى على ماأورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان]

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى فى "الشافى[٢]" ، فقال :

أما قوله : « مَنْ تثبت عدالته ووجب توليه إمّا قطعا أو على الظاهر ؛ فغير جائز أن يُعدَل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقّن » ؛ فغير مسلّم لأن مَنْ نتولاّه على الظاهر ، وثبتت عدالتُه عندنا من جهة غالب الظنّ ، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضى غالبَ الظنّ دون اليقين ؛ ولهذا يؤثّر فى جرْح الشهود وسقوط عدالتهم أقوالُ الجارحين؛ وإن كانت مظنونة غير معلومة . وما يظهر من أنفسهم من الأفعال التى لها ظاهر يُظَنّ معه القبيح بهم حتى نرجعَ عما كنا عليه من القول بعدالتهم ؛ وإن لم يكن كلُّ ذلك متيقّنا ، وإنما يصحّ ماذكره فيمنْ ثبتتْ عدالته على القَطْع ووجب توليه على الباطن؛ فلايجوز أن يؤثّر فى حاله مايقتضى الظّنّ ، لأنّ الظنّ لا يقابل العلم ، والدلالة لا تقابل الأمارة .

فإن قال : لم أرِدْ بقولى إلّا بأمرٍ متيقّن أن كونه حدَثاً متيقّن ؛ وإنما أردت تيقُّنَ وقوع الفعل نفسِه .

قلنا : الأمرَانِ سواء فى تأثير غَلَبَة الظنّ فيهما ، ولهذا يؤثّر فى عدالة مَنْ تقدمتْ

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٦٣ ، ٢٦٤ مع تصرف فى العبارة .
(٢) كتاب الشافى فى الإمامة والرد على كتاب المغنى . طبع فى العجم سنة ١٣٠١ .

عدالته عندنا على سبيل الظنّ أقوالُ من يخبرنا عنه بارتــكاب القبائح[1] إذا كانوا عدولا، وإن كانتْ أقوالهم لاتقتضِى اليقينَ ، بل يحصل عندها غالبُ الظنّ . وكيف لانرجع عن ولاية مَنْ توليناه على الظّاهر بوقوع أفعالٍ منه يقتضى ظاهرُها خلافَ الولاية ، ونحن إنما قلنا بعدالته فى الأصــل على سبيل الظاهر ! ومع التجويز لأن يكون ماوقع منه فى الباطن قبيحا لايستحقّ به التولّى والتعظيم ، ألا ترى أنّ مَنْ شاهدْناه يلزمُ مجالسَ العلم ، ويكرّر تلاوة القرآن ، ويدمِنُ الصلاةوالصيام والحج ، يجبأن نتولّاه ونعظّمه على الظاهر !وإن جوّزنا أن يكون جميعُ ماوقع منه مع خبث باطنه ، وأن غرضه فى فعله القبيح فلم نتولّه إلا على الظاهر . ومع التجويز ، فــكيف لانرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطريقة ! فأما مَنْ غاب عَنّا وتقدمت له أحوال تقتضى الولاية ، فيجب أن نستمرّ على ولايته ؛ وإن جوزْنا على الغيبة أن يكون منتقِلا عن الأحوال الجميلةالتى عهدناها منه ؛ إلّا أنّ هذا تجويزمَحْض لاظاهر معه يقابل ماتقدّم من الظاهر الجميــل ، وهو بخلاف ماذكرناه من مقابلة الظاهر للظاهر ، وإن كان فى كلّ واحد من الأمرين تجويز .

قال : وقد أصاب فى قوله : « إنّمايحتمل لاينتقل[2] له عن التعظيم والتولّى » إن أراد بالاحتمال مالا ظاهر له ، وأمّا ماله ظاهر ومعذلك يجوز أن يكون الأمرفيه بخلاف ظاهره؛ فإنه لايسمىّ محتملا . وقد يكون مؤثرا فيما ثبت من التولى على الظاهر على ماذكرناه .

قال : فأما قوله : « إنّ الأحوال المتقررة فى النفوس بالعادات فيمن نتولّاه تؤثّر مالايؤثر غيرها ، وتقتضى حَمْل أفعالهعلى الصحّة والتأوّل له » ؛ فلا شك أنّ ماذكرهمؤثّر وطريق قوىّ إلى غلبة الظّنّ ، إلا أنّه ليس يقتضى مايتقرّر فى نفوسنا لبعض مَنْ نتولاه على الظاهر أن نتأوّل كلّ مايشاهَد منهمن الأفعال التى لها ظاهر قبيح ، ونحمِل الجميعَ على

---

(١) الشافى : « قبيح » .

(٢) الشافى : « لايجوز أن ينتقل له » .

أجمل الوجوه ، وإن كان بخلاف الظاهر ، بل ربما تبين الأمرُ فيما يقع[1] منه من الأفعال التي ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثّر فى أحواله المقرّرة ، ونرجع بها عن ولايته ؛ ولهـذا نجد كثيرا من أهلِ العدَالة المتقرّرة لهم فى النفوس ، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لاتثبت له فى وقت من الأوقات عدالة ، وإنّما يكون ذلك بمـا يتوالى منهم ويتـكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة .

قال : فأمّا مااستشهد به من أنّ مثل مالك بن دينار لوشاهدناه فى دارٍ فيها منـكَر لقوِىَ فى الظنّ حضورُه لأجل التغيير والإنـكار[2]، أو على وجه الإكراه والغلط وأنّ غيره يخالفه فى هـذا الباب ؛ فصحيح لايخالِف ماذكرناه ؛ لأنّ مثل مالك بن دينار ممن تناصرتْ أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالا بعدحال ،لايجوز أن يَقدَح فيه فعل له ظاهر قبيح ، بل يجب لما تقدّم مِنْ حاله أن نتأوّل فعله ، ونخرجَه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه. وإنما وجب ذلك لأنّ الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة ، فنجعلُها قاضية على الفعل والفعلين ،ولهذا متى توالت منه الأفعال القبيحةالظاهرة وتـكرّرت، قدحت فى حاله، وأثرَت فى ولايته ، كيف لايـكون كذلك وطريق ولايته فى الأصل هو الظنّ والظاهر، ولابدّ مِنْ قدح الظاهر فى الظاهر ، وتأثير الظن فى الظن على بعض الوجوه .

قال : فأما قوله : « فإنّ كلّ محتمل لوأخبرنا عنه وهو مما يغلب على الظنّ صدقه أنه فعله على أحد الوجهين، وجب تصديقُه ، فمتى عرف من حاله المتقرّرة فى النفوس مايطابق ذلك ، جرَى مجرى الإخبار[3] » ؛ فأوّل مافيه أنّ« المحتَمل » هومالاظاهر له من الأفعال، والذى يكون جواز كونه قبيحا كجواز كونه حسنا ، ومثل هذا الفعل لا يقتضى ولاية

---

(١) الشافى : « فيما يرجع منه » .
(٢) الشافى : « التنـكير » .
(٣) الشافى : « الإقرار » .

ولا عداوة ، وإنّما يقتضى الولاية ماله من الأفعال ظاهر جميل ، ويقتضى العداوة ماله ظاهر قبيح .

فإن قال : أردتُ بالمحتمَل ماله ظاهر ، لكنه يجوز أن يكونَ الأمر بخلاف ظاهره .

قيل له : ماذكرتَه لا يسمى محتمَلا ؛ فإنْ كنت عنيتَه فقد وضعت العبارة فى غير موضعها ، ولاشكّ فى أنّه إذا كان ممّن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقُه،وحمل الفعل على خلاف ظاهره ؛ فإنّ الواجب لما تقرّر له فى النفوس أن يُتأوّل له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل ، إلّا أنه متى توالتْ منه الأفعال التى لها ظواهر قبيحة،فلابدّ أن تكون مؤثرة فى تصديقه،متَى خُبِّرنا بأن غرضَه فى الفعل خلاف ظاهره ، كما تكون مانعة من الابتداء بالتأوّل .

وضرب له المثل بأنّ من نراه يكلِّم امرأة حسناء فى الطريق إذا أخبر أنها أختُه أو امرأته فى أنّ تصديقه واجب،ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامَه لها على أجمل الوجوه ؛ لما تقدم له فى النفوس — صحيح،إلّا أنه لابد من مراعاة ماتقدم ذكره،من أنه قد يقوَى الأمر لقوّة الأمارات والظواهر إلى حدٍّ لايجوز معه تصديقه ولا التأول له،ولولا أنّ الأمر قد ينتهى إلى ذلك لما صحّ أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة ، ولامن العدالة إلى خلافها؛ لأنّه لاشىء مما يفعله الفسّاق المتهتكون إلاويجوز أن يكونَ له باطن بخلاف الظاهر،ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز ؛ يبين صحة ماذكرناه أنّا لو رأينا من يُظنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق ويداعبها ويضاحِكها لظنّنا به الجميل مرة ومرات ، ثم ينتهى الأمر إلى ألّا نظنه . وكذلك لو شاهدناه وبحضْرته المنكَر ، لحمَلنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غير ذلك من الوجوه الجميلة. ثم لابدّ من انتهاء الأمر إلى أن نظنّ به القبيح ولا نصدقه فى كلامه .

قال : ثم نقول (١) له : أخبرْنا عمّن شاهدناه من بُعْد وهو مفترِش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرَم ، وأنّ لها فى الحال زوجاً غيره ، وهو ممن تقررت له فى النفوس عدالةٌ متقدّمة ، ماذا يجب أن نظنّ به ؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته ، أم نحمله على أنه غالطومتوهِّم أنّ المرأة زوجته،أو على أنه مكرَه على الفعل،أو غير ذلك من الوجوه الجميلة!

فإن قال : نرجع عن الولاية ، اعترف بخلاف ماقصده فى الكلام ، وقيل له : أىّ فَرْق بين هذا الفعل و بين جميع ماعددناه من الأفعال وادّعيت أنّ الواجب أن نَعدل عن ظاهرها ؟ وماجواز الجميل فى ذلك إلا كجواز الجميل فى هذا الفعل .

وإن قال : لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته (٢)، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة.

قيل له : أرأيت لو تكرّر هذا الفعل وتَوَالى هو وأمثاله حتى نشاهدَه حاضرا فى دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها ، وكلّ هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرَهاً وفى أنه القبيح بعينه غالطا ، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها ؟ فإن قال: نستمرّ ونتأوّل ، ارتكب مالاشبهة فى فسادِهِ ، وألزِم ماقد قدّمنا ذكره من أنّه لاطريق إلى الرجوع عن ولاية أحد ، ولو شاهدنا منه أعظمَ المناكير . ووقف أيضاً على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظنّ دون القطع،فكيف لا نرجع عنها لمثل هذا الطريق ، فلابدّ إذنْ من الرجوع إلى مابيناه وفصلناه فى هذا الباب .

قال: فأمّا قوله : « إن قول الإمام له مزية ؛ لأنه آكد من غيره » فلا معنى له ؛ لأن قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزية ، من حيث كان معصوما مأمون (٣) الباطن،وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين؛فأىّ مزية له فى هذا الباب !

---

(١) ب « ثم يقال » .

(٢) الشافى : « الولاية » .

(٣) الشافى : « معصوما مأمونا باطنه » .

وقوله : « [1] إن ماينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعا عليه يؤثِّر فى هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم » غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن تأثيرَ ماينقل إذا كان يقتضى غلبةَ الظنّ لا شبهة فيه ؛ فأما تقويتُه على غيره فلا وجه له ؛ وقد كان يجب أن يبين من أى الوجوه يكون أقوى .

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأول من كلام قاضى القضـــاة رحمه الله تعالى .

تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة[2]

(١) الشافى ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .
(٢) هذا نهاية نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ج : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة ، بحمد الله ومنه وصلى الله على محمد وآله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

---

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .